عبقري اللغويين

أبو الفتح عثمان بن جني

٣٢١هـ/٣٩٢هـ

المجلد الأول

الأستاذ الدكتور

عبد الغفار حامد محمد هلال

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد- مدينة نصر- القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥
١٦ شارع جواد حسنى - ت: ٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

٩٢٤,٤
غ ف ع ب

عبد الغفار حامد محمد هلال.

عبقرى اللغويين: أبو الفتح عثمان بن جنى: ٣٢١هـ - ٣٩٢هـ/ عبد الغفار حامد محمد هلال.- القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٦م.

٢مج (١٠٨٠) ص؛ ٢٤سم.

ببليوجرافية: ص [١١-١]- ١٠٢٩.

تدمك: ٥ -١٩٨٠-١٠- ٩٧٧

١- ابن جنى، أبو الفتح عثمان، ٣٢١هـ - ٣٩٢هـ.
٢- اللغويون العراقيون. ٣- اللغة العربية - تاريخ.
٤- اللغة العربية - اللهجات. ٥- اللغة العربية - النحو.
٦- الأصوات اللغوية. أ- العنوان

جمع إلكترونى وطباعة



التنفيذ الفنى

حسن الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحق الواجب

إلى اللَّذَيْن وَلَدانى، وغَذَوانى، ورَعَيَانى، وفتحا لى أبواب العلم لينوِّر الله لهما قبريهما - أبى وأمى رحمهما الله تعالى ورضى عنهما.

وإلى اللاتى سهرن فى زهرة الشباب، وتحملن المشاق من أجلى. أخواتى الفُضليات: نبيهة وفوزية - رحمهما الله تعالى ورضى عنهما - وزهيرة أطال الله بقاءها ورضى عنها، وإلى أخى العزيز الأستاذ الدكتور عبد العظيم، وإلى شريكة الحياة زوجتى فردوس، وإلى ابنتى العزيزة آلاء وإلى أبنائى الأعزاء أحمد، وطارق، ومحمد، وخالد، الذين أحبهم جميعًا - حفظهم الله ورعاهم.

وإلى أستاذى الأستاذ الدكتور إبراهيم محمد نجا، وأستاذى الأستاذ الدكتور محمد قناوى عبد الله، وأستاذى الأستاذ الدكتور عبد الله عيد العزازى - رحمهم الله تعالى ورضى عنهم - وإلى سائر أساتذتى غفر الله تعالى لهم ورضى عنهم.

أهدى ثواب هذا العمل العلمى الذى هو من ثمرات عملهم ورزقهم اعترافًا بالحق الواجب. فعن أسامة بن زيد - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: (من صُنِعَ إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً فقد أبلغ فى الثناء) رواه الترمذى، وقال: حديث حسن صحيح.

وصدق القائل:

إنَّ لِلَّه عِبَاداً فُطَنَا	طَلَّقُوا الدُّنيَا وخَافُوا الفِتَنَا
نَظَرُوا فِيهَا فلمَّا عَلِمُوا	أنَّهَا لَيْسَتْ لِحيٍّ وَطَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً واتَّخَذُوا	صَالِحَ الأعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى جعل العربية مفتاح كتابه المبين، وسر إعجازه للعالمين، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد ومن أوتى جوامع الكلم النبى العربى المؤيد بتلك المعجزة الباهرة وحكمتها السائرة.. وبعد:

فللعربية براعة خصت بها وأودعت من مكنون سرها ما جعلها تمتزج بالأفئدة والعقول بثقوبها وسرعة تأثيرها - حتى فيمن بعد عنها وانتمى إلى غير أهلها، وقد دخلت التاريخ مع خير أمة أخرجت للناس، فنبعت من أعماق نفوسهم، وجرت سحراً حلالا على ألسنتهم.

«وللأمم فى تنافسها بالمناقب والمزايا ألوان من المفاخرة بلغاتها يضيق بها نطاق البحث... ومعظم هذه المفاخر دعوى لا دليل عليها... وحجتها الكبرى (أنانية) قومية تشبه (أنانية) الفرد فى حبه لنفسه وإيثاره لصفاته بغير حاجة إلى دليل أو مع القناعة بأيسر دليل، ولكن الفصاحة العربية فى دعوى أهلها مفخرة لا تشبه هذه المفاخر فى جملتها؛ لأن دليلها العلمى حاضر لا يتعسر العلم به، والتثبت منه على ناطق بلسان من الألسنة، ولا حاجة له فى هذا الدليل إلى غير النطق وحسن الاستماع»[1].

---

(١) اللغة الشاعرة ص ٥٤، ٥٥، طبعة الاستقلال.

وقد دخلت العربية - مع أهلها الفاتحين - أقطارًا جديدة، فصرعت لغاتها، وحلت محلها فى وقت قصير، كالفارسية والرومية والقبطية وغيرها، وإننا نشاهد فى العصر الحديث أن الأجانب يستطيعون - بيسر - إجادة العربية قبل أن يجيدوا لغاتهم أنفسها.

وفوق الرغبة فى الحفاظ على كتاب الله، وشريعته الإسلامية السامية كانت البلاغة العربية باعثًا قويًا لفت أنظار المفكرين والباحثين، فشغفوا بها وغاصوا فى بحرها، واستخرجوا من جواهرها.

والناظر فى تاريخ اللغة العربية يرى أن أكثر علمائها الذين ضربوا بسهم وافر فى إجادتها، وتفصيل قواعدها ومناهجها كانوا من الأعاجم الأجانب عنها، بيد أنهم ارتضعوا أفاويقها[1] من أمثال شيخ النحاة سيبويه، وعالمنا اللغوى الكبير ابن جنى، وأستاذه أبى على الفارسى.

وقد قال عالمنا: «لو أحست العجم بلطف صناعة العرب فى هذه اللغة، وما فيها... والرقة والدقة، لاعتذرت من اعترافها بلغتها فضلاً عن التقديم لها والتنويه منها»[2]. ويقول - أيضًا -: «إنا نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمى، وقد تدرب بلغته قبل استعرابه عن حال اللغتين فلا يجمع بينهما، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك، لبعده فى نفسه، وتقدم لطف العربية فى رأيه وحسه»[2]، «وكأن هذا موضع ليس للخلاف فيه مجال، لوضوحه عند الكافة»[3].

وتعد العربية فى نظرة علم اللغة الحديث من أرقى اللغات المتصرفة بيانًا - إن لم تكن أرقاها على الإطلاق.

---

(١) فاقت الناقة: اجتمعت الفيقة فى ضرعها، والفيقة - بالكسر -: اسم اللبن يجتمع فى الضرع بين الحلبتين. ج فِيق - بالكسر - وفيق كعنب وفيقات وأفواق جج أفاويق، والكلام على المجاز. القاموس ٣/ ٢٨٧، ٢٨٨.

(٢) الخصائص ١/ ٢٤٢، وقد حذفت (من الغموض) فى مكان البياض لمناسبة المقام. انظر ص ٥٣ من هذا الكتاب.

(٣) نفسه ١/ ٢٤٣.

لهـذا كانت الدراسـة الواسـعة التى حظيـت بها من هؤلاء وهؤلاء، عـربًا وعجمًا، شرقيين وغربيين، ولا سيما من عرف خصائصها فتوفر على بحثها.

وفى مقدمـة هؤلاء جميعًا يقف عالمنا اللغوى العبقرى أبو الفتح عـثمان بن جنى الذى اجتمع له من عـوامل الثقافة والفكر ما صقل روحـه وجلاها، فانطلقت وراء الحجب ترى عجـائب ما أودعته لغتنا، فلم تكن دراسـته محاكاة لسـابقيه من ظاهرية الفن اللغـوى، بل كان صوفى التـفكير، دائب التأمل فى تلك الإشـراقات والخواطر التى لا تواتى إلا العقـول الصافية، والنفوس المهذبة، فحـديثة عنها «ليس مبنيا على حديث وجوه الإعراب، وإنما هو مقام القول على أوائل أصول هذا الكلام وكيف بدئ؟ وإلام نُحِي؟. . . يتساهم ذوو النظر من المتكلمين والفـقهاء والمتفلسفين والنحاة والكتاب والمتأدبين التأمل له والبحث عن مستودعه»[1]، وهذا الجهد المضنى الذى يجمع أهداف كثير من أرباب الفنـون المختلفة «من أشرف ما صنف فى علم العرب، وأذهبه فى طريق القـياس والنظر، وأعوده عليه بالحـيطة والصون، وآخذه له من حصة التوقير والأون[2] وأجمعه للأدلة على ما أودعـته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة، ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة[3].

وهذه الصوفية المتفردة فى الفن عبرت عـن نفسها، وكشفت له عن خفاياها بما يوضحه قوله: «كـانت مَسَافرُ وجوهه، ومحاسرُ أذرعـه وسوقه، تصف لى ما اشتـملت عليه مشاعـره، وتَحِي إلىَّ بما خيطت عليه أقـرابُه وشواكلُه، وترينى أن تَعربدَ كـل من الفريقين؛ البـصريين والكوفيـين عنه، وتحاميـهم طريق الإلمام به، والخوض فى أدنى أوشـاله وخُلُجه، فضـلا عن اقتحام غـماره ولُججـه، إنما كان لامتناع جانبه، وانتشار شَعاعِهِ وبادى تَهاجُرِ قوانينِه وأوضاعِه[3].

---

(1) الخصائص 1/ 67.

(2) التوقـير التبجـيل والتسكين، والأون: الدعـة والسكينة والرفق، والمراد: تقدير شرفـه والمحافظة عليه، والاهتمام به. القاموس: 2/ 161، 4/ 201.

(3) نفسه 1/ 1، 2 مسـافر الوجه: مـا يظهر منه، والمحاسر: مـا يكشف من الأذرع، والأقراب ج قرب وهى الخاصرة، والشواكل: جمع شـاكلة، وهى: ما بين عرض الخاصرة والثفـنة، وهى =

فبحوث ابن جنى فى اللغة لها طابع امتنع على المتقدمين، وأعجز المتأخرين.

وفى مؤلفاته الثمينة ألوان من هذا البحث الجاد تؤكد أنه عاش لها، وبذل حياته من أجلها.

تلقى ما تلقاه على أساتذة أجلاء - فى مقدمتهم عالم كبير هو أبو على الفارسى الذى طالت صحبته له حِلا وترحالا - ثم أضاف إلى ذلك من ذاتية نفسه، وثقافاته وفكره ما عمق المجرى، وزاد التدفق، فروى النفوس الظامئة، وهدى العقول الحائرة، وأثبت - بما لا يدع مجالا للشك - قوة هذه اللغة وفَوَاقَها غيرها[1].

وقد كان لى فخر أى فخر حين اخترت هذا الرجل كشخصية عبقرية حددت معالم الدراسة الواعية، واتفقت من قريب أو بعيد مع أحدث النظريات اللغوية، مما يحدو إلى التعريف به، لإبراز عباقرة العرب، وما كان لهم من فضل، وهو وإن لم يكن عربى الجنس فإنه من بنيه بعلمه وأدبه، وعلى حد تعبيره:

لَهُ كَلَفٌ بِمَا كَلِفَتْ بِهِ العُلَمَاءُ مِ العَرَبِ
فَإِنْ أُصْبِحْ بِلا نَسَبٍ فَعِلْمِى فِى الوَرَى نَسَبِى

والرجل دائرة معارف لا يتمكن باحث من الإحاطة بها، وتحديد جميع معالمها، فهو فيلسوف لغوى نحوى، وأديب بلاغى، وعالم دينى يعنى بالدراسة القرآنية وتوجيهها، والذود عنها، ويصول قلمه فى ميادين الفكر الإسلامى بجوانبه

= موصل الفخذ فى الساق (الركبة) من الفرس، والشعاع كسحاب: التفريق والرأى المتفرق والتهاجر: التقاطع والتباين والتعريد: الإحجام والإعراض والهرب. القاموس: ٥١، ١٦١، ١٦٣، ٣/ ٤٦، ٤/ ٢٠١، ولسان العرب ٢/ ١٦١، ٤/ ٢٧٩، ١٣/ ٣٨٢، والمراد أن ابن جنى أدرك أسرار هذا العلم بما ينكشف له من أشياء تدل على ما يخفى كرؤية الوجه وما يظهر من الأذرع والسوق، مما يدل على بقية الجسم، واستطاع بمهارته أن يجمع ما تفرق من مسائله، وما تشعب فخفى على غيره.

(١) فاق الشىءُ غيره فوْقًا وفوَاقا: علاه بالشرف. القاموس ٣/ ١٨٧.

المختلفة، ولذا - كما وجهنى أستاذى الدكتور إبراهيم نجا - اتجهت بالبحث والتفصيل إلى الناحية اللغوية بما تشمله من فروع متعددة.

وقد استهدفت من البحث أن أكشف النقاب عن هذا العالم العربى، وأبرز شخصيته الاجتماعية والعلمية على السواء.

فجعلت حديثى عنه قسمين فى تسعة أبواب، يشمل القسم الأول منها ثلاثة أبواب تتناول حياته واتجاهاته وآثاره.

يتناول الأول حياته من نسبه ونشأته وأخلاقه وصلاته العلمية والاجتماعية، وما كان لذلك من أثر فى تكوين شخصيته العلمية.

ويتناول الثانى اتجاهاته الفكرية فى مختلف مجالات الحياة الدينية والعلمية والأدبية، فأبرزت مذاهبه ومناهجه فى العقيدة والفقه واللغة والنحو والأدب والقراءات القرآنية وروايته اللغوية وأمانته العلمية، ورددت عنه ما لا يلزمه من نقود.

ويتناول الثالث آثاره العلمية من كتب ورسائل أربت على الخمسين من عيون ما ألف فى العربية، رتبتها على حسب الحروف الهجائية لسهولة الرجوع إليها، وألقيت ضوءًا خاطفًا على كل منها، من فقد ووجود، طبعًا وخطا وزمانا ومكانا ومادة علمية، كما يتناول بعض تلامذته والمنتفعين بعلمه، ومبلغ تأثرهم به أو إغارتهم عليه.

وفيه إشارة إلى عظم بحوثه قديمًا وحديثًا، بما غصت به آثار المتأخرين، وما استفادته منه الدراسات الحديثة فى علم اللغة.

ويشمل القسم الثانى ستة أبواب - من الرابع إلى التاسع - تتناول جهوده اللغوية وقيمتها العلمية.

وهذه الأبواب رتبت ترتيبًا منهجيًا شاملاً لحديث ابن جنى بطريقة واقعية تستدعى كل مرحلة منها الأخرى، وتتبعها خطوة خطوة، وهى كلها تكون جسمًا

متكاملاً إذا فقد منه عضو شوه الصورة بحيث يحس الناظر بما بتر منها، وعلى حد الحديث الشريف يقال: «هلا وضعت هذه اللبنة؟»[1] كذلك إذا قُدمت إحداها على الأخرى.

فيتناول الرابع منها تفصيل الآراء المختلفة فى نشأة اللغة (أتوقيف هى أم اصطلاح؟) قديمًا وحديثًا، وموازنة بينها، وموقف ابن جنى منها.

ويتناول الخامس (اللهجات وتنوعها) تبعًا لعوامل الزمن، والبيئات المختلفة، وما كان لابن جنى من أثر فى هذه الدراسة اللهجية، بعوامل نشأتها وتطورها، ومظاهرها المتمثلة فى توجيهه لبعضها بما يوافق أحدث الدراسات فى هذا الشأن.

ويتناول السادس أساسًا هامًا وهو (القياس اللغوى) كيف أخذت به لغة العرب الموحدة؟ ومبادئه التى وضعها الدارسون لها، وأشكال الظواهر اللغوية، ودراسة ابن جنى لها، ومبلغ ابتكاره فيها، ومناقشة المعارضين له فى ألوانها.

ويتناول السابع (البناء اللغوى وفلسفته) القائمة - فى العربية - على الخفة الناشئة عن عدة الحروف المكونة للصيغ وحركاتها وسكناتها، وتطور المعلات منها.

وفى ذلك أوضح ابن جنى - غالبًا - سمو العربية، ومنهجها الأصيل فى الاستعمال اللغوى الذى لا يتوافر لسواها من اللغات، وكان لنا معه وقفات طويلة مؤيدين ومخالفين ومناقشين.

ويتناول الثامن (الأصوات وتبدلها) فيشرح خصائص الأصوات العربية وصلتها بالموسيقى والنغم، وفضلها على سواها فى هذا المجال، ومبلغ تفوق دراسة القدماء - ومنهم عالمنا ابن جنى - بما لا يقل شأنًا عن الدراسات الصوتية الحديثة، بل يثبت بناء الحديث منها على ما أصَّله علماؤنا الأفذاذ.

كما يشرح عوامل تبدل الأصوات فى التاريخ اللغوى الطويل، وتطبيق ذلك على العربية، والسير مع ابن جنى فى دراسته لبعض الألفاظ التى تحمل اسم

---

(١) من حديث رواه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب بدء الخلق. الجزء الرابع، ط الشعب، ص٢٢٦.

(ظاهرة الإبدال) ليعرف إلى أى مدى كان موفقًا، وإلى أى مدى آخر عثرت به عجلة الرأى، ومقياسه الذى سبب له ذلك، وهنا عرضنا رأيه على اللغة واللغويين قدامى ومحدثين، وطبقنا المناهج الحديثة عليه، فظهر على حقيقته قويًا مقبولاً - حينما تدعمه البراهين السليمة - وضعيفًا مردودًا - حينما يفقد الدليل القوى.

وبهذا النهج يعد هذا الباب دراسة لها أثرها العميق فى جانب مهم من جوانب اللغة.

ويتناول التاسع (الدلالة ومظاهرها) فيتحدث عن نشأة علم الدلالة اللغوى، وسبق العرب - ولا سيما ابن جنى- للأوروبيين فى معرفته، وتطبيق مناهجه على لغتهم.

وكذلك عناية العرب بالألفاظ والمعانى، والأدلة الدامغة التى أقامها ابن جنى لتأييدها ودحض المفتريات عليها، وقد عرضنا فيه لرأى الباحثين قديما وحديثًا بما يدعم حقيقة اهتمام العربية بالمعنى قبل اللفظ، ويثبت رجاحة ما ذهب إليه عالمنا فى هذا المجال.

وأيضًا تناول الحديث الاشتقاق اللغوى ودلالته القوية على عناية العرب بالمعانى، فهو عامل مهم من عوامل نموها، وقد عرضناه من شتى جوانبه التى ابتكرها - ورواها - عبقرى العربية ابن جنى، والنتائج التى توصل إليها، وقيمتها فى الدراسة اللغوية الحديثة، وكيف فتحت المجال للمحدثين لإرساء مبادئ هامة فى أصول الألفاظ العربية وتطورها.

ومن مظاهر الدلالة المعنوية للعربية بناؤها على المجاز فى أكثر أساليبها، وهذه مزية من مزايا رقيها، وكان للعلماء فيها آراء أثبتناها، وأيدنا القوى منها، ونبذنا ما عداه، وناقشنا فيه رأى ابن جنى، وبعده عن الصواب فيما ذهب إليه.

أما فى بيان حقيقة المجاز، وشروطه، وقيمته، وأهدافه اللغوية، فكان بلاغيا سباقا، عرض للموضوع كأحد أعلام البلاغة، ومن رسخت أقدامهم فيها.

ومن طرق الوضع اللغوى - مما تحتاج إليه دلالة اللغة على المعانى - الارتجال، وفيه بيان لآراء القدامى، وعلى رأسهم ابن جنى الذى فصل الموضوع، وأثبت وقوعه فى العربية من أبنائها الفصحاء، فلم تقف جامدة لدى تجدد المعانى، بل ولدت ألفاظًا كثيرة تبعًا لمقتضيات الحياة.

واقتضى البحث ذكر آراء المحدثين فى وقوع الارتجال، وجوازه قديمًا وحديثًا، ولم نجد مانعًا من الاعتراف بوقوعه فى العربية إبان شبابها فى عصور الاحتجاج، وهو ما أقره ابن جنى، ويوجد الارتجال فى لهجاتنا الدارجة، ولكن ليس له منزلة الارتجال عند آبائنا السالفين.

وفيه حديث عن التعريب الذى تلجأ إليه اللغة عندما تعوزها الحاجة إلى مثل هذه الألفاظ، وحديث ابن جنى فيه له جوانب قيمة تضع له من الأصول والمبادئ ما يفيد به علم اللغة الحديث، وفيه بيان شاف للآراء فى وقوع الأعجمى فى القرآن، وموقف ابن جنى منها.

وأخيراً حديث عن ثراء اللغة، ورفاهيتها العلمية، وخصائصها فى استعمال المشترك والمتضاد والمترادف، وطرائق علاج ابن جنى لها، مقارنة بالآراء الأخرى قديمها وحديثها وموقفنا منها.

وبهذا يحق للعربية - كما تقول الدكتورة بنت الشاطئ - أن تنفى عنها دعوى العقم بعد ماضيها الخصب، وتبرأ من تهمة العجز عن استيعاب علوم العصر، وتعطى الأجيال الجديدة من علمائها فرصتهم فى إثراء الحضارة، والمشاركة فى حركة التطور العلمى، دون أن يضطروا إلى نبذ لغتهم العربية الحية المقتدرة[1].

وفى كل مجال خضت فيه أعلنت ما يخالج فكرى من آراء جديدة، ونقود مبنية على أسس علمية وطيدة.

---

(١) الأهرام ١٨/٥/١٣٨٩هـ - ١/٨/١٩٦٩م السنة ٩٥ العدد ٣٠١٨٤ من مقال بعنوان (لغتنا والعلوم فى عصر القمر) بتصرف.

وعقبت كل باب بنتائج حاسمة يستشف منها الباحث اللغوى معالم الصورة التى حاولت - ما أمكنتنى المحاولة - أن أجلوها، وأضعها فى إطارها اللائق بها، وأبرز ما حققه ابن جنى من تفوق على غيره، وكان له فيه القدح المعلى.

وفى النهاية فإن هذا الكتاب يجلو صورة ابن جنى - على حقيقتها - للعيان، ويخاطب موافقيه والثائرين عليه.

ولعله - بعون الله - يكون قد خلق حياة جديدة له تعد امتداداً لما حجبته عنا غياهب التاريخ السحيق.

وانى - بعد ذلك - أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت إلى غايتى المنشودة، إنه نعم المولى ونعم النصير، وهو على ما يشاء قدير.

وبالله التوفيق.

الأستاذ الدكتور

عبد الغفار حامد محمد هلال

مدينة نصر فى:

غرة رجب سنة ١٤٢٦هـ

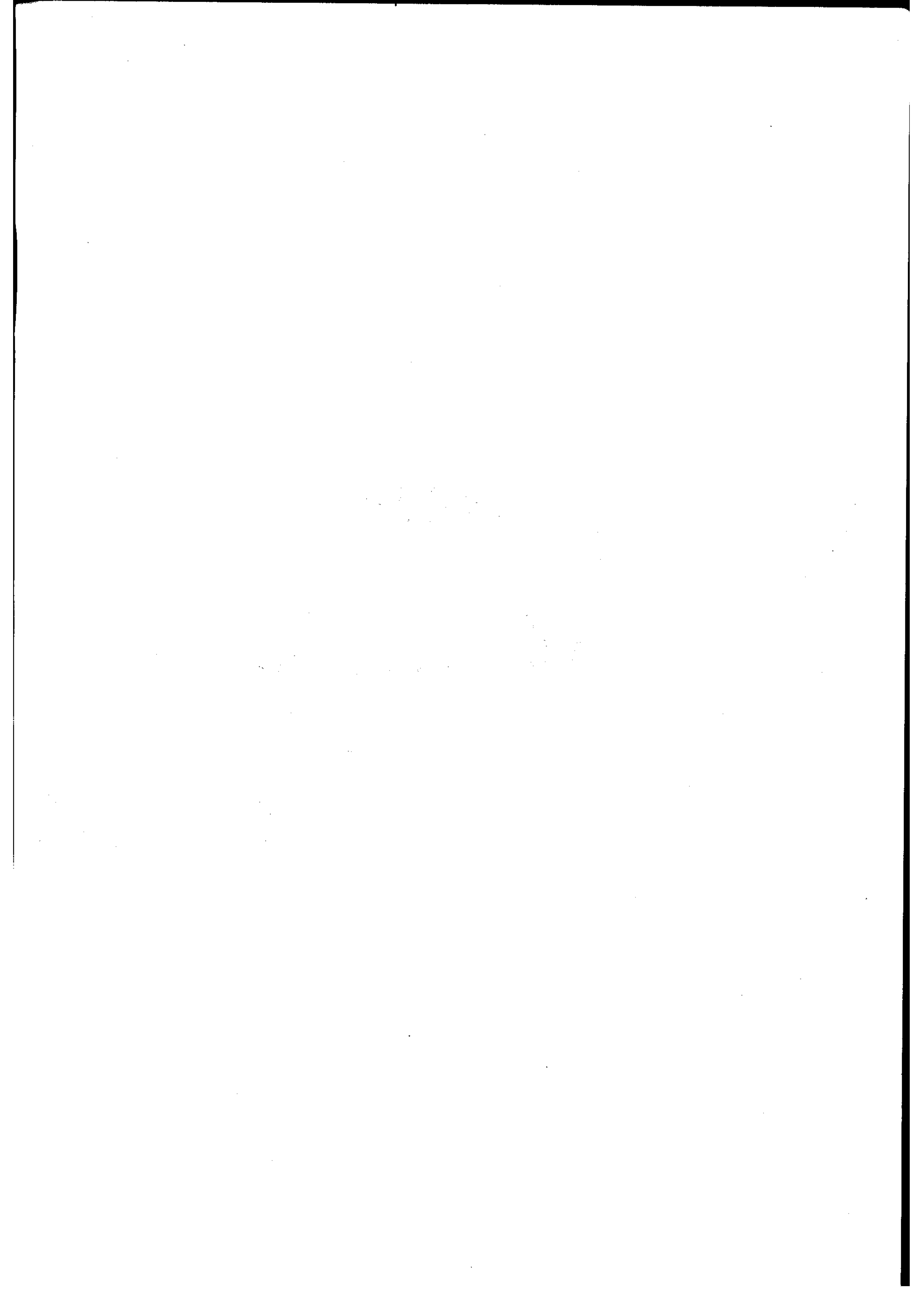
٦ من أغسطس سنة ٢٠٠٥م

القسم الأول
حياة ابن جنى واتجاهاته وآثاره

- الباب الأول: حيــــاته.
- الباب الثانى: اتجاهاته.
- الباب الثالث: آثـــــاره.

الباب الأول

حياته



نبذة عن عصره

كان لزامًا علينا ونحن نبدأ الحديث عن هذا العالم العبقرى الذى نبغ نبوغًا منقطع النظير فى علم اللغة أن نشير فى نبذة إلى الدولة الإسلامية التى عاش فى كنفها، وأن نعرف نواحى الضعف والقوة فيها، من جوانبها السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية.

الجانب السياسى والاجتماعى

لعل أول ما يخطر على بال الباحث فى العوامل المتقدمة هو الجانب السياسى، وما يتبعه من استقرار المجتمع ورفاهيته، أو اضطرابه وسوء حاله، إذ هو الأصل لتطور النواحى الاجتماعية والثقافية، والجانب الذى نتحدث عنه ذو شطرين:

الأول: يختص بالخلافة العامة فى الدولة الإسلامية فى ذلك العصر.

والثانى: يختص بإمارة الموصل التى هى المهد الذى ولد فيه ابن جنى، وشب وترعرع ونبغ.

(أ) الخلافة العامة:

كانت الدولة العباسية فى عصرها الأول قوية البناء، وطيدة الدعائم منذ أسسها رؤساؤها الأقوياء أمثال أبى العباس السفاح[1]، وأبى جعفر المنصور[2]، والمأمون[3] وغيرهم ممن كان لهم شأن يذكر، واستمرت الخلافة قوية حتى عهد أبى جعفر هارون الواثق بالله[4]، فلما بدأ المتوكل[5] يدخل ميدان الخلافة أخذت الدولة العباسية فى الانحلال الذى انتهى بسقوطها على أيدى التتار سنة ٦٥٦هـ،

---

(١) ١٣٢- ١٣٦هـ (٧٥٠- ٧٥٤م).

(٢) ١٣٦- ١٥٨هـ (٧٥٤- ٧٧٥م).

(٣) ١٩٨- ٢١٨هـ (٨١٣- ٨٣٣م).

(٤) ٢٢٧- ٢٣٢هـ (٨٤٣- ٨٤٧م).

(٥) ٢٣٢- ٢٤٧هـ (٨٤٧- ٨٦١م).

ويرجع ضعف هذه الدولة إلى عدة عوامل أهمها اعتماد العباسيين على الفرس، ثم على الأتراك[1].

وكانت الدولة منذ دب فيها الضعف قد انقسمت إلى عدة إمارات صغيرة استقل بها حكامها، بعد أن طمعوا فيها، وقد بدت فى القرن الرابع الهجرى صورة واضحة لعدة دويلات مستقلة، ففى حوالى سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م كان بنو بويه يسيطرون على فارس والرى وأصبهان وبلاد الجبل، ومحمد بن إلياس على كرمان، والحمدانيون على ديار بكر وربيعة ومضر، ومحمد بن طغج الأخشيد على مصر والشام، والفاطميون على إفريقية، وعبد الرحمن الناصر الأموى على الأندلس. كما استقل نصر بن أحمد السامانى بخراسان، والبريديون بالأهواز وواسط والبصرة، والقرامطة باليمامة والبحرين، واستولى الديلم على جرجان وطبرستان، وضاعت المملكة من يدى الخليفة الذى أصبح ملكه لا يعدو بغداد وضواحيها[2].

وقد اشتهرت هذه المدة باعتداء أصحاب الولايات المستقلة بعضهم على الآخر واستيلائهم على بغداد بعضهم بعد الآخر، وقد استولى معز الدولة[3] ابن بويه عليها سنة ٣٣٤هـ، ثم أخذ ملكه يمتد فى فارس والعراق بالحروب الأهلية فى تلك الأقاليم المنفصلة، واستطاع عضد الدولة ابن أخيه[4] أن يوطد حكمه فى جهات كثيرة من المملكة المقسمة فاستولى على فارس والموصل والعراق، ثم توفى سنة ٣٧٢هـ وخلفه ابنه أبو كاليجار المرزبان الملقب بصمصام الدولة، ثم استولى شرف الدولة[5] على بغداد سنة ٣٧٦هـ، ثم توفى

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى ج٣ ص١. وتاريخ الدول القسم الثانى ص١١٨، ١٢٣ ودراسات فى التاريخ الإسلامى د. جاد رمضان ص١١٥.

(٢) الكامل لابن الأثير فيه حديث مفصل عن كيفية استقلال هذه الأجزاء.

(٣) أحمد بن بويه مؤسس دولة البويهيين.

(٤) فناخسرو بن الحسن بن بويه.

(٥) أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة وأخو صمصام الدولة.

سنة ٣٧٩هـ، وتولى بعده بهاء الدولة[١]. ثم تتوالى الحوادث حتى يتوفى بهاء الدولة سنة ٤٠٣هـ.

والذى يقرأ الكامل لابن الأثير يعرف مبلغ هوان الخلفاء فى ذلك العصر وكيف صاروا يولون ويعزلون من غير إرادة لهم، ومما ذكره فى ولاية المقتدر بالله الخلافة «أن المكتفى لما ثقل مرضه فكر الوزير حينئذ وهو العباس بن الحسن فيمن يصلح للخلافة، وكانت عادته أن يسايره إذا ركب إلى دار الخلافة واحد من هؤلاء الأربعة الذين يتولون الدواوين وهم: أبو عبد الله بن محمد داود بن الجراح، وأبو الحسن محمد بن عبدان، وأبو الحسن على بن محمد بن الفرات، وأبو الحسن على بن عيسى، فاستشارهم جميعًا ثم لما مات المكتفى نصَّب الوزير جعفرًا[٢] للخلافة وعينه لها[٣].

وقد خلع المتقى لله[٤] بعد أن سملت عيناه سنة ٣٣٣هـ وولى الخلافة المستكفى بالله[٥] الذى قبض عليه وسملت عيناه أيضًا وولى مكانه المطيع[٦]، وفى سنة ٣٨١هـ قبض بهاء الدوله على الطائع لله[٧] لقلة الأموال وكثرة شغب الجند فدخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وهو يستغيث ولا يلتفت إليه، وأخذ ما فى دار الخليفة ونهب الناس بعضهم بعضًا، وكان من جملتهم الشريف الرضى فبادر بالخروج فسلم، وقال أبياتًا من جملتها:

---

(١) ابن شرف الدولة.

(٢) هو اسم الخليفة المقتدر ونسبه أبو الفضل جعفر بن المعتضد ٢٩٥- ٣٢٠هـ (٩٠٨- ٩٣٢م).

(٣) الكامل لابن الأثير ط المنيرية ٦/١١٨، ١١٩.

(٤) إبراهيم بن المقتدر ٣٢٩- ٣٣٣هـ (٩٤٠- ٩٤٤م).

(٥) أبو القاسم عبد الله ابن المكتفى ٣٣٣- ٣٣٤هـ (٩٤٤- ٩٤٦م).

(٦) الكامل لابن الأثير ط الأزهرية ٨/١٦٣، ١٧٧ (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) (٩٤٦ - ٩٧٤م) وهو أخو المتقى لله.

(٧) ابن المطيع لله ٣٦٣- ٣٨١ (٩٧٤- ٩٩١م).

مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ رَبُّ المُلْكِ مُبْتَسِمًا ... إِلَىَّ أَدْنُوهُ فِى النَّجْوَى وَيُدْنِينِى
أَمْسَيْتُ أَرْحَمُ مَنْ قَدْ كُنْتُ أَغْبِطُهُ ... لَقَدْ تَقَارَبَ بَيْنَ العِزِّ وَالهُونِ
وَمَنْظَرٍ كَانَ بِالسَّرَّاءِ يُضْحِكُنِى ... يَا قُرْبَ مَا عَادَ بِالضَّرَّاءِ يُبْكِينِى
هَيْهَاتَ أَغْتَرُّ بِالسُّلْطَانِ ثَانِيَةً ... قَدْ ضَلَّ وَلَاجُ أَبْوَابِ السَّلَاطِينِ[1]

وقد انخرقت هيبتهم - كما ترى - وضعف أمر الخلافة حتى حكم فيها النساء والخدم[2] وقد تسبب هذا فى طمع الروم فى المسلمين كثيراً، إلى حد أنهم كانوا يدخلون بعض بلاد الإسلام يخربون ويقتلون ويسبون، كما حدث فى ديار بكر حين دخلوها سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م[3].

والقارئ لتاريخ هذه الفترة يلمح مدى الفوضى والاضطراب والخلل الذى وقع فى بلاد الإسلام ولا سيما عاصمة الخلافة بغداد، ففى سنة ٢٩٩هـ افتتنت بغداد[4]، وفى سنة ٣٠٧هـ تحرك السعر ببغداد، فثارت العامة والخاصة لذلك واستغاثوا وكسروا المنابر... ونهبت عدة من دكاكين الدقاقين[5] وفى سنة ٣٠٩هـ وقع حريق كبير فى الكرخ فاحترق فيه بشر كثير[6].

وكان تطرف أرباب المذاهب الكلامية من شيعة ومعتزلة، والفقهية من حنابلة وشافعية وغيرهم، من العوامل التى زادت فى اضطراب أحوال الدولة فى هذه المدة فانتشر الفساد فى البلاد[7]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان الخلاف شديداً بين الشيعة والسنية، فالخلفاء العباسيون ومن تبعهم سنيون متعصبون للسنية، والفاطميون فى مصر والشام والمغرب والحمدانيون فى ديار ربيعة وبكر ومضر

---

(١) الكامل ط المنيرية ٧/ ١٤٧، ١٤٨ .
(٢) نفسه ٦/ ٢٢١، ٢٢٢ .
(٣) نفسه ٧/ ٤٤، ٤٥ .
(٤) نفسه ٦/ ١٣٩ .
(٥) نفسه ٦/ ١٦٣ .
(٦) نفسه ٦/ ١٩٦
(٧) الكامل ٦/ ٣٥١ وظهر الإسلام ٢/ ٤، ٥، ٦. انتشر مذهب الشافعى فى مكة والمدينة، ومذهب أبى حنيفة فى العراق، وكان أكثر الفقهاء فى مصر من أتباع مالك، وكذلك انتشر مذهب مالك فى المغرب والأندلس، وكان الشافعية مشهورين بالشغب والتألب على خصومهم.

وبنوبويه فى العراق وغيـرهم يتشيعون، وكـانت الكوفة وبها قبر الإمـام علىّ أكبر مراكز الشـيعة[1]، وبلغ من تعصب الشـيعة أن كتب عامـتهم ببغداد - بأمـر معز الدولة - على أبواب المساجـد: لعن الله معاوية بن أبى سفـيان ولعن من أغضب فاطمة ومن منع الحسن أن يدفن عند جده.

وكان للشـيعة مظاهر فـى الاحتفـال بيوم عاشـوراء من لطم الخدود، وشق الجيوب والنوح على الحسين[2] وكانت تقوم لذلك الفتن، حتى لقد تعطلت صلاة الجمـعة سنة ٣٤٩هـ فى مسـاجد كثـيرة ببـغداد، ولم تقم إلا فـى مسجـد براثا الشيعى[3].

وفى سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م أرسل الوزير حـاجبه لـقتال العـامة وكـان شديد العصبية للسنية، فألقى النار فى عدة أماكن من الكرخ، ليقضى على الفتنة فاحترق الكرخ حريقًا عظيمًا، وكان عدة من احترق فـيه سبعة عشر ألف إنسان، وثلاثمائة دكان، وثلاثة وثلاثين مسجدًا، ومن الأموال ما لا يحصى[4].

هذه صور من حياة الخلافة العامة، وحال الـدولة الاجتماعية فيها، وهى - بلا شك - تدل على الانهيار السياسى والاجتماعى.

ب- إمارة الموصل:

ولـم تكن الحـال فى الموصل بـأحـسن منهـا فى غـيـرها من أرجـاء الدولة الإسلامية فى ذلـك العصر من الناحية السيـاسية والاجتماعيـة، إذ خضعت لحكم الحمـدانيين زهاء قرن من الزمـان تخلله الاضطراب والفوضى؛ فـفى سنة ٢٩٣هـ ولى المكتفى بالله[5] الموصل وأعمالها أبا الهيجـاء عبد الله بن حمدان بن حمدون

---

(١) ظهر الإسلام ج٢ ص٥.
(٢) الكامل ٧/ ٤، ٧ والخطط ٢/ ٣٥٨.
(٣) نفسه ٦/ ٢٥٨.
(٤) نفسه ٧/ ٤٩.
(٥) ٢٨٩- ٢٩٥هـ. (٩٠٢- ٩٠٨م).

التغلبى العدوى فأخمد ثورة الأكراد التى قامت فى هذا الأوان وأمنت البلاد واستقامت[1].

وقد حاول ابن حمدان - بعد ذلك - أن يستقل بالموصل، وأحس الخليفة المقتدر بهذا الأمر الذى يساور أبا الهيجاء «فسير إليه مؤنسًا المظفر ومعه جماعة من القواد، فلما علم أبو الهيجاء بذلك قصد مؤنسا مستأمنا من تلقاء نفسه، وورد معه إلى بغداد فعفا عنه المقتدر وخلع عليه» وكان ذلك سنة ٣٠١هـ[2].

ثم جرت بعض الحوادث التى جعلت الخليفة المقتدر يقبض على ابن حمدان أبى الهيجاء، ويحبسه هو وإخوته سنة ٣٠٣هـ[3] وفى سنة ٣٠٥هـ أطلقوا من الحبس[4] وفى سنة ٣١٤هـ أفسد الأكراد والعرب بأرض الموصل وطريق خراسان وكان عبد الله بن حمدان يتولى الجميع وهو ببغداد وابنه ناصر الدولة بالموصل، فكتب إليه أبوه يأمره بجمع الرجال والانحدار إلى تكريت ففعل، وسار إليها فوصل إليها فى رمضان، واجتمع بأبيه وأحضر العرب، وطالبهم بما أحدثوا فى عمله بعد أن قتل منهم ونكل ببعضهم، فردوا على الناس شيئًا كثيراً... ثم إن الأكراد انقادوا إليه لما رأوا قوته وكفوا عن الفساد والشر[5].

وفى سنة ٣١٨ ظهر بالموصل خارجى يعرف بابن مطر قصد نصيبين، فسار إليه ناصر الدولة بن حمدان فقاتله وأسره، وظهر خارجى آخر فأسره نصر بن حمدان، ففى هذه السنة فى ربيع الأول عزل ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان عن الموصل، ووليها عماه سعيد ونصر ابنا حمدان، وولى ناصر الدولة ديار ربيعة ونصيبين وسنجار والخابور وغيرها[6]، ثم قتل ناصر الدولة عميه سعيدا

(١) الكامل ٦/ ١١٢.

(٢) نفسه ٦/ ١٤٤.

(٣) نفسه ٦/ ١٥٠، ١٥١.

(٤) نفسه ٦/ ١٥٩.

(٥) نفسه ٦/ ١٨٣.

(٦) نفسه ٦/ ٢٠٨، ٢١٠.

ونصرا سنة ٣٢٣هـ واستولى على الموصل، وحدثت بذلك نفرة بينه وبين الخليفة الراضى[١] فسير إليه من قاتله وأخذها منه إلا أنه رضى عنه بعد ذلك وردها إليه[٢] ثم غضب عليه مرة أخرى بسبب تأخره فى دفع المال المفروض عليه مما جعل الخليفة يذهب إليه على رأس جيش يقاتله إلا أنه سرعان ما يصالحه على أن يدفع خمسمائة ألف درهم كل سنة ثم يرضى عنه[٣].

ثم يقع بعد مدة وفى سنة ٣٤٦هـ نزاع بينه وبين معز الدولة بن بويه الذى حاول الاستيلاء على الموصل، فيتعهد له ناصر الدولة بدفع مبلغ ألفى ألفى درهم وتسعمائة ألف درهم كل عام[٤]. وتقع بينهما حروب من أجل تأخر هذا المال يفر بعدها ناصر الدولة إلى أخيه سيف الدولة[٥] الذى يقوم بدور الصلح بينه وبين معز الدولة، ويعود إلى الموصل مرة أخرى فى أوائل سنة ٣٤٨هـ[٦]، وهكذا تستمر الخلافات والحروب فى عهد ابنه أبى تغلب فضل الله المعروف بالغضنفر[٧] وتنتهى بالصلح ويستتب له الأمر فى الموصل.

ثم تبدأ فتنة أدهى وأمر، بأن ينفرط عقد بنى حمدان أنفسهم ويقضى بعضهم على بعض بالتشتيت والضعف، وقد بدأ ذلك بقبض أبى تغلب على أبيه ناصر الدولة وسجنه، وسبب ذلك أنه لما مات معز الدولة بن بويه سنة ٣٥٦هـ عزم أولاد ناصر الدولة الحمدانى الاستيلاء على العراق من بختيار بن معز الدولة فنصحهم أبوهم بأن يصبروا حتى يتفرق ما عنده من أموال كثيرة خلفها أبوه معز الدولة ثم يقصدونه ويفرقون أموالا فى الجند والناس، وبذلك يظفرون به لا

---

(١) أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله ٣٢٢- ٣٢٩هـ (٩٣٤- ٩٤٠م).

(٢) الكامل ط الأزهرية ٨/ ١١٧، ١١٨.

(٣) نفسه ٨/ ١٣٦.

(٤) نفسه ٦/ ٣٥٣، ٣٥٤.

(٥) على بن أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان ٣٣٣- ٣٥٦هـ (٩٤٤- ٩٦٧م) وقد أسس سيف الدولة من حلب وما حولها إمارة له فى شمالى الشام. انظر دراسات فى التاريخ الإسلامى ص١٢٧.

(٦) الكامل ٦/ ٣٥٥، ٣٥٦.

(٧) نفسه ٧/ ص٩، ١٠.

محالة، ولكن تلك النصيحة لم ترق لهم فاختلفوا وبدا لأبى تغلب أن يحبس أباه وتغلب على إخوته الذين خالفوه فى هذا الرأى فحبسه[1].

ومنذ ذلك الحين «انتثر أمر بنى حمدان وصار قصاراهم حفظ ما فى أيديهم، ثم انعكس الأمر فأصبح أبو تغلب محتاجًا إلى مداراة بختيار بن معز الدولة البويهى إلى حد أنه تعهد له بأن يدفع إليه ضمان البلاد ألفى ألف ومائتى ألف درهم كل سنة»[2].

ثم يدب الخلاف بينه وبين إخوته، ويتسبب عن ذلك ضعف أمره[3] وطمع بختيار فى الاستيلاء على الموصل فسار إليها بتحريض من حمدان بن ناصر الدولة أخى أبى تغلب ثم تقع الفتن الكثيرة التى تتسبب فى استيلاء عضد الدولة البويهى على الموصل وإسقاط حكم بنى حمدان سنة ٣٦٧هـ[4].

وقد عاد ملك الموصل إلى أبى طاهر إبراهيم وأبى عبد الله الحسين ابنى ناصر الدولة بن حمدان سنة ٣٧٩هـ لأنهما كانا فى خدمة شرف الدولة ببغداد، فلما توفى وملك بهاء الدولة استأذنا فى الإصعاد إلى الموصل فأذن لهما ثم سلبت منهم على يد محمد بن المسيب أمير بنى عقيل الذى استولى عليها وكاتب بهاء الدولة يسأله أن ينفذ إليه من يقيم عنده من أصحابه ليتولى الأمور فسير إليه قائدًا من قواده[5].

وهكذا يستمر حكم بنى عقيل حتى يقبض المقلد على أخيه على بن المسيب حاكم الموصل الذى حدث بينه وبين أخويه على - هذا - والحسن خلاف انتهى باستقراره فى حكم الموصل إلى أن قتله الأتراك فجأة سنة ٣٩١هـ[6]. ثم تولى بعده ابنه قرواش مع حوادث سيئة واضطرابات وسلب.

---

(١) نفسه ٧/ ٢٣، ٢٤.

(٢) نفسه نفس الصحيفة.

(٣) نفسه ٧/ ٣٢- ٣٤.

(٤) نفسه ٧/ ٥١، ٥٢، ٩٢.

(٥) نفسه ٧/ ١٤٠.

(٦) نفسه ٧/ ١٨٦ وما بعدها.

وقد قامت حرب بين بهاء الدولة وأمير عقيل قرواش بن المقلد انتهت بهزيمة بنى عقيل وهكذا تتوالى الحوادث[١].

ويبدو لنا من هذا العرض الموجز أن الأمور السياسية لم تستقر على حال فى الموصل مما نجم عنه كثير من سوء الأحوال الاجتماعية.

ويروى لنا التاريخ من سوء تلك الأحوال حوادث كثيرة، ففى سنة ٣١٤هـ أفسد الأكراد والعرب بأرض الموصل[٢] وفى سنة ٣١٧هـ فى منتصف المحرم وقعت فتنة بالموصل بين أصحاب الطعام وبين أهل المربعة والبزازين، فظهر أصحاب الطعام عليهم أول النهار فانضم الأساكفة إلى أهل المربعة والبزازين، فاستظهروا بهم وقهروا أصحاب الطعام وهزموهم وأحرقوا أسواقهم، وتتابعت الفتنة بعد هذه الحادثة واجترأ أهل الشر وتعاقد أصحاب الخلقان والأساكفة على أصحاب الطعام واقتتلوا قتالا شديداً دام بينهم، ثم ظفر أصحاب الطعام فهزموا الأساكفة ومن معهم وأحرقوا سوقهم وقتلوا منهم. وركب أمير الموصل - وهو الحسن بن عبد الله بن حمدان الذى لقب بناصر الدولة - ليسكن الناس فلم يسكنوا ولا كفوا، ثم دخل بينهم ناس من العلماء وأهل المدينة فأصلحوا بينهم[٣].

وقد خرج الأغر بن مطر التغلبى بأرض الموصل فقصد بعض نواحيها كرأس العين وكفر توثا ونهبها وقتل فيها[٤] إلى غير ذلك من الحوادث الكثيرة التى ينقلها ابن الأثير[٥].

وكان المجتمع فى هذه البيئات المختلفة ثلاث طبقات: طبقة الأرستقراطيين من خلفاء ووزراء وتجار وكبار وأشراف، والطبقة الوسطى من تجار متوسطين وملاك متوسطين ونحوهم، وطبقة فقيرة وهى عامة الشعب[٦].

---

(١) نفسه ٧/ ٢٠٩- ٢٦٨. (٢) نفسه ٦/ ١٨٣.

(٣) نفسه ٦/ ٢٠٦. (٤) نفسه ٦/ ٢١٠.

(٥) انظر الكامل ٦/ ١٦٥ وحوادث سنة ٣٠٩، ٧/ ٢١٤ إذ إنه لما انهزم بنو عقيل فى الموصل أعمل السلب والنهب فى البيوت ما لا يقدر قدره كما يقول ابن الأثير.

(٦) ظهر الإسلام ٢/ ١٢، ١٧.

وعلى الرغم مما كان من شأن تلك الفتن والاضطرابات والانقسامات الاجتماعية فإن التاريخ يذكر أن عضد الدولة بن بويه الذى تجمعت فى يده السلطة الواسعة فى الدولة الإسلامية قد حاول إصلاحها وتحسين أحوالها،حتى لقد قال عنه الأستاذ آدم متز: إنه يمثل السيد الحاكم تمثيلا حقيقيا[١] ومن محاولاته الإصلاح ما ذكره ابن الأثير من أن «عضد الدولة شرع فى عمارة بغداد والعراق عامة وكانت قد خربت بتوالى الفتن، فعمر مساجدها وأسواقها وأدر الأموال على الأئمة والمؤذنين والفقراء وألزم أصحاب البيوت الخراب بعمارتها، وخصص الجرايات للفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسابين والأطباء والحسَّاب والمهندسين، وأذن لوزيره نصر بن هرمز - وكان نصرانيا - فى عمارة البيع وإطلاق الأموال لفقرائهم»[٢] ولما مات عضد الدولة تذاكر بعض أعيان الفضلاء الكلمات التى قالها الحكماء عند موت الإسكندر[٣].

ويعد سيف الدولة الحمدانى من الحكام الأقوياء الذين كان لهم شأن فى التاريخ، وقد وقعت حروب كثيرة بينه وبين الروم «حتى قيل إنه غزا بلادهم المجاورة لبلاده أربعين غزوة انتصر فى بعضها»[٤] وفى وقعة الحدث المشهورة سنة ٣٤٣هـ قتل من الروم خلقًا عظيمًا، وقتل قسطنطين بن الدمستق[٥] وبها تحدث الشعراء كأبى الطيب المتنبى فى قصيدته التى مطلعها:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم   وتأتى على قدر الكرام المكارم

وفيها يذكر بناءه ثغر الحدث، ومنازلته أصناف جيش الروم[٦]، وقد توفى سنة ٣٥٦هـ وخلفه ابنه أبو المعالى شريف[٧] وهكذا كانت تتحقق بعض الإصلاحات السياسية والاجتماعية.

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ١/ ٤٢.

(٢) الكامل ٧/ ١٠٠، ١٠١. (٣) نفسه ٧/ ١١٣.

(٤) تاريخ الإسلام السياسى ٣م ١٢١ ودراسات فى التاريخ الإسلامى ١٢٨.

(٥) الكامل ط الأزهرية ٨/ ١٩٠. (٦) انظر شرح الواحدى لديوان المتنبى، ص٥٤٨ وما بعدها.

(٧) الكامل ٧/ ٢٤.

الجانب الثقافى والفكرى

لقد حظى القرن الرابع الهجرى بنصيب وافر من الثقافة والتقدم العلمى والحضارى على الرغم من الانقسام السياسى الذى أشرنا إليه، ورب ضارة نافعة فلقد أذكى هذا الانفصال روح التنافس بين تلك الأقاليم فراح كل منها يحاول السبق على الآخر فى ميدان العلم، ونحن نعلم أن «سوق العلم كانت نافقة فى الدولة العباسية فلم تنحصر فى عاصمة الخلافة بل كانت قد انتشرت إلى أقصى مدن المملكة العباسية ولا سيما فى العهدين الرشيدى والمأمونى»[١] اللذين ترجمت فيهما كثير من العلوم والثقافات الأجنبية[٢].

وكان لقيام هذه الدول أثر كبير فى تقدم الحضارة الإسلامية، ذلك أنه بعد أن كانت بغداد مركزًا لهذه الحضارة ظهرت مراكز أخرى تنافس حاضرة العباسيين فى الحضارة وفى العلوم والمعارف مثل قرطبة والقاهرة وبخارى، وأصبح كل منها قبلة للعلماء والشعراء والكتاب الذين تنقلوا بين هذه الحواضر طلبا للعلم أو ابتغاء الكسب، هذا إلى أن قيام هذه الدول لم يؤثر فى مظاهر الحضارة الإسلامية على العكس عاد عليها بفوائد كثيرة[٣].

وقد ذكرنا أن هذا العصر كان مسرحًا لظهور فرق دينية إسلامية متعددة كالشيعة والمعتزلة والمتصوفة والحنابلة وغيرهم من الفقهاء[٤]، وانقسم المسيحيون أيضًا إلى يعاقبة ونساطرة وملكانية، وقام الجدل بينهم حول طبيعة المسيح وحول القضاء والقدر وهل الإنسان مجبور أو مختار؟ وكل طائفة تسلحت بالفلسفة

---

(١) تاريخ الموصل ١/ ٩١.

(٢) تاريخ الدول القسم الثانى ص١٠٠، ١٠١ ودراسات فى التاريخ الإسلامى ١١٧ وظهر الإسلام ٢/ ١١.

(٣) تاريخ الإسلام السياسى ٣/ ٦٤ وتاريخ الأدب العربى للزيات ٢١٠ وتاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى، د. أبو الخشب ١٧٢- ١٧٨ وظهر الإسلام ٢/ ٢.

(٤) ظهر الإسلام ٢/ ٤- ٦.

اليونانية لدعم مذهبها[١]، وكان للجدل والنقاش الذى قام بين هذه الفرق أثر بعيد فى هذه النهضة العلمية[٢].

وقد كانت هناك منافسة علمية بين شيوخ العربية الكبار أمثال أبى على الفارسى والسيرافى وتلامذتهما، فتلاميذ الفارسى يتعصبون له ولعلمه حتى ليعدونه فوق المبرد وأعلم منه[٣]، وأبو محمد بن الخشاب، وأبو منصور الجواليقى يتهمانه بضعف الرواية ويفضلان عليه السيرافى، ويبدو ذلك مما ينقله ياقوت قال: قال الشيخ أبو محمد بن الخشاب: وكثيراً ما تحصى السقطات على الحذاق من أهل الصناعة النحوية فى هذا الباب[٤] فمنه يذهبون ومن جهته يؤتون[٥].

ويشاركه هذا الاتهام أبو منصور الجواليقى فقد روى عنه - كما نقل ياقوت: وكان شيخنا يعنى أبا منصور موهوب بن الخضر الجواليقى قلما ينبل عنده ممارس للصناعة النحوية ولو طال فيها باعه ما لم يتمكن من علم الرواية وما تشتمل عليه من ضروبها ولا سيما رواية الأشعار العربية وما يتعلق بمعرفتها من لغة وقصة، ولهذا كان مقدما لأبى سعيد السيرافى على أبى على الفارسى - رحمهما الله - وأبو على أبو علىّ فى نحوه وطريقة أبى سعيد فى النحو معلومة، ويقول: أبو سعيد أروى من أبى علىّ وأكثر تحققًا بالرواية وأثرى منه فيها، وقد قال لى غير مرة: لعل أبا على لم يكن يرى ما يراه أبو سعيد من معرفة هذه الإخباريات والأنساب وما جرى فى هذا الأسلوب كبير أمر[٦].

ويتهمه أبو حيان[٧] بأنه اشترى شرح أبى سعيد[٨] بالأهواز فى توجهه إلى بغداد سنة ثمان وستين لاحقًا بالخدمة الموسومة به والندامة الموقوفة عليه - بألفى

---

(١) نفسه ٢/ ١١، ١٢.

(٢) تاريخ الإسلام السياسى ٣/ ٣٣٢، ٤/ ٤٢٠، ٤٢١.

(٣) معجم الأدباء ٧/ ٢٣٢ وإنباه الرواة ١/ ٢٧٣ والبغية ١/ ٤٩٦.

(٤) أى باب الإخبار والرواية.

(٥) معجم الأدباء ٧/ ٢٥٥.

(٦) نفسه ٧/ ٢٥٣، ٢٥٤.

(٧) هو على بن محمد بن العباس، أبو حيان التوحيدى، ومن مؤلفاته (الإمتاع والمؤانسة)، مات فى حدود الثلاثين والثلاثمائة، وممن تتلمذ عليهم أبو سعيد السيرافى، البغية ٢/ ١٩٠، ١٩١.

(٨) يقصد شرحه لكتاب سيبويه ومنه نسخ مخطوطة بدار الكتب المصرية.

درهم، ويقول: إن هذا حديث مشهور وإن كان أصحابه يأبون الإقرار به إلا من يزعم أنه أراد النقض عليه وإظهار الخطأ[١]. كذلك نرى ابن خالويه[٢] يحمل عليه ويؤلب سيف الدولة - بعد رحيله عنه - فكتب سيف الدولة بما قال عنه ابن خالويه إلى أبى على الفارسى مما جعل الفارسى يرسل ردا إلى سيف الدولة ينفى التهم الموجهة إليه، وقد نقل ياقوت رسالة الفارسى عن المسائل الحلبية[٣].

وتلك التهم غير مقبولة لأن أبا على كان فذا فى علمه ولم يكن ضعيف الرواية كما يتبين من كتاب الإغفال وغيره من مؤلفاته المملوءة بروايات اللغة وتفسير الألفاظ والمعانى، وما ينقله عنه ابن جنى فى كتبه، وترجع تلك التهم إلى حرية أبى على فى البحث - كالمعتزلة ومن على شاكلتهم من أحرار الفكر والرأى وإلى وقوف أبى سعيد السيرافى عند الوارد كغيره من المحافظين وقد كان بين الفريقين المحافظين والمجددين آنذاك صراع فى هذا الشأن. وما نقل إلينا من هذه المبادلات يدل على روح التنافس الدائبة فى هذا العصر وهى - بلا ريب - من عوامل التعمق فى البحث والتفوق العلمى، وكما يقول الدكتور طلس: «إن الخصومة بين هذين العالمين الجليلين قد أذكت نار البحث والنقد فى هذا القرن، وجعلت علماء العربية ببغداد والموصل بل وفى العالم الإسلامى كله معسكرين اثنين وهذا أمر له خطره»[٤].

يضاف إلى هذا كله ما كان يلقاه العلماء والأدباء من حظوة لدى الحاكمين، ويكفى أن نشير إلى أن بلاط بنى بويه كان كعبة يؤمها العلماء ورجال الأدب[٥] - وأن عضد الدولة - مع ما أوتى من سعة السلطان - كان يتفرغ للأدب ويتشاغل

---

(١) معجم الأدباء ٨/ ١٨١.

(٢) توفى بحلب سنة ٣٧٠ - البغية ١/ ٥٢٩.

(٣) معجم الأدباء ٧/ ٢٥٧- ٢٦٠ وانظر المسائل الحلبية لأبى على الفارسى لوحة ٣٤- ٣٩ نسخة مصورة بدار الكتب برقم ٦٣٣٣هـ.

(٤) مجلة المجمع العلمى العربى المجلد ٢٥ ص٨٢.

(٥) تاريخ الإسلام السياسى ٣/ ٣٣٣.

بالكتب ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ويقول شعرا كثيرا[1] وكان يقول: أنا غلام أبى على الفسوى فى النحو[2]، وقد كان الحكماء والفلاسفة يجتمعون فى مجلسه، وكان يغدق العطايا على القضاة والعلماء بجميع طوائفهم[3].

وقد وصف الثعالبى الحمدانيين بحب العلم والعلماء وإنفاق الأموال الطائلة عليهم من أجله[4]، واشتهر كثير من أمرائهم بالشعر كأبى فراس ابن عم سيف الدولة وابن أخيه الحسين بن ناصر الدولة وقد ذكر له ابن الأثير شعراً[5]، وكان سيف الدولة نفسه شاعراً يجيد الشعر وازدهر عهده بطائفة من مشاهير العلماء والكتاب والشعراء[6]، وكانت دولة السامانيين تهتم -كذلك- بالعلم والعلماء[7].

وخير دليل على تلك النهضة العلمية فى القرن الرابع ما يذكره التاريخ من الثروة المكتبية الكبيرة آنذاك وبخاصة بعد أن ترجمت كثير من الكتب عن الثقافة اليونانية والفارسية إلى العربية[8]، فيذكر ابن الأثير أن الصاحب بن عباد كان عنده من الكتب ما يحمل على أربعمائة جمل[9]، ويقول ابن خلكان عن مكتبة نوح بن نصر السامانى إنها عديمة المثل فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدى الناس وغيرها[10]، ومكتبة العزيز بالله (المتوفى عام ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م)، كانت تحوى

---

(١) يتيمة الدهر ط الصاوى ص٧/ ١٩٥- ١٩٧ وفيها ثناء أدبى كثير عليه ووفيات الأعيان ٣/ ٢١٨- ٢٢٢.

(٢) معجم الأدباء ٧/ ٢٣٤ وإنباه الرواة ١/ ٢٧٣ ونزهة الألباء ٣٨٧ والمنتظم ٧/ ١٣٨ والبغية١/ ٤٩٧.

(٣) الكامل لابن الأثير ٢/ ١٠٠، ١٠١، ١١٣، ١١٤.

(٤) يتيمة الدهر ١/ ١٢، ١٣ط ١٩٤٧م.

(٥) الكامل ٧/ ٢٥ وانظر يتيمة الدهر ط١٩٤٧م، ١/ ٣٥ وما بعدها.

(٦) تاريخ الإسلام السياسى ٣/ ١٢٢ ويتيمة الدهر السابقة ١/ ١٥- ٣٤.

(٧) تاريخ الإسلام السياسى ٣/ ٣٣٤ .

(٨) نفسه ٣/ ٣٣٢.

(٩) الكامل ٧/ ١٦٩ والبغية ١/ ٤٥١.

(١٠) وفيات الأعيان ١/ ٤٢٠ فى ترجمة الرئيس ابن سينا الحكيم المشهور، ولد سنة ٣٧٠ وتوفى سنة ٤٢٨.

ذخيرة قيمة من كتب العلم العربى، فقد ذكر عنده كتاب العين للخليل بن أحمد، فأمر خزان دفاتره فأخرجوا من خزائنه نيفًا وثلاثين نسخة منها نسخة بخط الخليل ابن أحمد، وحمل إليه رجل نسخة من تاريخ الطبرى اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز الخزان فأخرجوا ما ينيف على عشرين نسخة من تاريخ الطبرى، منها نسخة بخطه وذكر عنده كتاب الجمهرة لابن دريد فأخرج من الخزانة مائة نسخة منها[1].

وبعد أن كانت طريقة الإملاء مستخدمة قبل القرن الرابع[2]، تحول نظام التعليم إلى واقع عصرى يقرأ فيه المدرس الكتاب على تلاميذه، وقد أنشئت دور للعلم فى ذلك العصر، فقد أنشأ أبو على بن سوار الكاتب أحد رجال حاشية عضد الدولة دار كتب فى مدينة رام هرمز على شاطئ بحر فارس، كما بنى دارا أخرى بالبصرة[3]، وجعل فيهما إجراء على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ فيهما، وكان فى الأولى منهما أبدا شيخ يدرس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة[4]. كذلك اتخذ الشريف الرضى المتوفى عام ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م نقيب العلويين والشاعر المشهور دارًا سماها دار العلم وفتحها للطلبة وعين لهم جميع ما يحتاجون إليه[5].

ولماذا نذهب بعيدًا ونحن نعرف أن المساجد كانت تعد مدارس مفتوحة للإقراء والعلم منذ فجر التاريخ الإسلامى، وفى مصر أُنشئت دور للعلم فى الجامع الأزهر - على عهد العزيز بالله - فالجامعة الأزهرية التى هى أكبر معهد علمى إسلامى اليوم نشأت فى القرن الرابع الهجرى[6]. وقد صحب

---

(١) الخطط ١/ ٤٠٨.

(٢) انظر المزهر ٢/ ١٦٢، ١٦٣ ط١٢٨٢ فقد كان آخر من أملى أبو القاسم الزجاجى المتوفى سنة ٣٣٩هـ.

(٣) وخزانة البصرة أكبر وأعمر وأكثر كتبا.

(٤) أحسن التقاسيم ٤١٣ .

(٥) ديوان الشريف الرضى ط بيروت. ١٣٨٠هـ-١٩٦١م ص٥.

(٦) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ١/ ٣١١، ٣١٢.

ابن جنى أبا على الفارسى بعد مروره عليه وهو يلقى درسا صرفيا فى أحد المساجد بالموصل.

وقد نبغ فى هذا العصر طائفة كبيرة من العلماء، نذكر منهم: أبا إسحاق إبراهيم بن محمد بن السرى[١]، وأبا بكر محمد بن السرى السراج[٢]، وأبا بكر محمد بن أحمد بن منصور الخياط[٣]، وهم من شيوخ أبى على الفارسى الذائعى الصيت[٤]، ونذكر منهم كذلك أبا سعيد السيرافى[٥]، وأبا على الفارسى[٦]، وعلى بن عيسى (الرمانى)[٧]، وكثيرًا من تلاميذهم كابن جنى[٨] تلميذ الفارسى وأبى طالب أحمد بن بكر العبدى[٩] تلميذ الفارسى والسيرافى والرمانى[١٠].

ولم تكن الموصل تقل شأنًا عن غيرها من المدن التى زخرت بالعلم والعلماء، بل إن تاريخ الموصل يشير إلى سابق عهد بالعلم منذ فجر التاريخ فقد امتزجت ثقافة أهلها الآرامية بالثقافة اليونانية، وكانت بها مدارس متفوقة منذ القدم ويقول القس سليمان صائغ: ازدهرت العلوم فى حدياب[١١] وانتشرت فيها المدارس بسرعة عظيمة، وكانت طائفة من أبنائها قد شدوا الرحال إلى المدارس الكبيرة وأشهرها يومئذ مدرسة المدائن ومدرسة جنديسابور ومدرسة الرها، وغنى

(١) هو الزجاج وسمى بذلك لأنه كان يخرط الزجاج، توفى سنة ٣١٠ أو ٣١١ أو ٣١٦ انظر وفيات الأعيان ١/ ٣١- ٣٣ والفهرست ٩١، وإنباه الرواة ١/ ١٥٩، ١٦٦، وبغية الوعاة ١/ ٤١١-٤١٣، وتاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ٢١٠.

(٢) توفى ٣١٦ وفيات الأعيان ٣/ ٤٦٢، ٤٦٣ ومعجم الأدباء ١٨/ ١٩٧- ٢٠١.

(٣) توفى ٣٢ معجم الأدباء ١٧/ ١٤١، ١٤٢.

(٤) نفسه ٧/ ٢٣٣.

(٥) توفى ٣٦٨ الفهرست ٩٣ والبغية ١/ ٥٠٨.

(٦) توفى ٣٧٧ إنباه الرواة ١/ ٣٧٤.

(٧) توفى ٣٨٤ معجم الأدباء ١٤/ ٧٣- ٧٨ وغيره.

(٨) توفى ٣٩٢.

(٩) توفى ٤٠٦ معجم الأدباء ٢/ ٢٣٦- ٢٣٨.

(١٠) المصدر السابق نفس الصحائف.

(١١) أى بلاد الموصل.

عن البيان ما كان لهذه المدارس من الأهمية والشهرة الذائعة فى أقطار الشرق فإنها كانت جامعات حقيقية منظمة ومقيدة بقوانين وضوابط يسوسها مديرون ومعلمون قديرون اشتهروا بالتأليف، وبلغت هذه المدارس غاية الرقى فى القرنين السادس والسابع. . وكان عدا هذه المدارس العمومية الكبيرة مدارس خاصة بحدياب لاتقل أهمية ورقيا وشهرة، ومن تلك المدارس مدرسة أربيل التى علم فيها أشهر علماء ذلك العصر، ثم مدرسة بلد، ومدرسة الرستاق في مركا[1]، ومدرسة بيت بغاش فى دهكان، ومدرسة بيت عينانا، ومدرسة نحشيروان، ومدرسة حربات مكلال[2].

والموصل منذ فجر التاريخ الإسلامى قد سكنها العرب «وأول قبائلهم هناك قبيلة خزرج وبنو أزد الذين منهم الأنصار، وبنو تغلب من بنى وائل، وقبائل من ربيعة وبنو تميم، وإلى اليوم يتكلم أهالى الموصل بلغة بنى تميم»، وقد بدأ العرب فى استيطانها منذ «أقبل خالد بن الوليد إليها بالجيوش العربية وافتتحها سنة ٦٤٠م (٢٠هـ)»[3]، كما أن الموصل لم يؤسسها الرومانيون ولا اليونان الذين دوخوا هذه الأقطار واستولوا عليها، ولا الفرس الأرشاقيون أو الساسانيون، بل هى مدينة عربية بحتة شيدها العرب[4].

واسم الموصل - هذا - عربى لم تعرف به إلا فى أواخر القرن الثامن للميلاد، أى بعد ما سكنتها القبائل العربية، وكانت قبل ذلك مدينة صغيرة أو قصبة يسميها الكتبة الآراميون الحصن العبورى (حسنا عبرايا)[5] ومعناه الموقع الذى يجتاز به إلى مكان آخر، وهو يساوق ويناسب معنى الموصل، أى نقطة الملتقى التى تصل محلا بآخر[6].

---

(١) مرج الموصل.
(٢) تاريخ الموصل ٢/ ١٩.
(٣) نفسه ١/ ٥١، ٥٢.
(٤) نفسه ١/ ٣٩.
(٥) نفسه ١/ ٤٥، ٥٥.
(٦) نفسه ١/ ٥٦.

وقد نبغ فى الموصل جمهرة كبيرة من العلماء على مر العصور، وممن نبغ فى القرن الرابع الذى هو موضوع البحث: محمد بن الحسن بن زياد النقاش[1] من أئمة علوم القرآن وقراءاته وتفسيره، وأبو الفتح كشاجم محمود بن حسين بن السندى الرملى[2] الموصلى[3]، وهو من المتقدمين فى الأدب والشعر والفلك والتصنيف، وأبو الحسن السرى بن أحمد السرى الكندى الرفاء الموصلى[4] وكان شاعراً عالماً، وأبو بكر محمد بن هاشم بن وعلة[5]، وأخوه أبو عثمان سعد بن هاشم بن وعلة[6] الموصليان الخالديان من بنى عبد القيس وقد نسبا إلى الخالدية قرية من أعمال الموصل ولهما شهرة بالعلم والشعر[7]. وهناك غير هؤلاء كثير ممن يضيق المقام بذكرهم، ومنهم من نبغ فى الطب والفلسفة والفلك والرياضيات والجغرافيا[8] وغيرها من أنواع العلوم.

ويكفى أن نعلم أن الموصل كانت كغيرها من الحواضر الإسلامية ثرة بالعلم والأدب وبخاصة فى هذا العصر الذى ازدهرت فيه العلوم والمعارف بشتى أنواعها.

وهذا التقدم العلمى الهائل كان له صدى واسع النطاق فى جميع المجالات العلمية مما سبب نضوج الفكر الثقافى بوجه عام والفكر اللغوى بوجه خاص وقد بدا أثره واضحًا فى المجال اللغوى ونتائجه. «إلا أن اللغة نفسها أصابها انتكاس واعتراها وهن ولحق بها هوان وأخذت تعانى الغربة فى تلك البلاد التى كان لها

---

(١) توفى ٣٥٠ أو ٣٥١ أو ٣٥٢ وفيات الأعيان ٣/ ٤٢٥، ٤٢٦ والفهرست ٥٠

(٢) نسبة إلى الرملة من نواحى فلسطين.

(٣) توفى ٣٦٠ الشذرات ٣/ ٣٧، ٣٨.

(٤) توفى ٣٦٦ اليتيمة ٢/ ١٠٣ وما بعدها والوفيات ٢/ ١٠٤- ١٠٦.

(٥) توفى ٣٨٠.

(٦) توفى ٤٠٠.

(٧) معجم البلدان ٢/ ٣٩٠ واليتيمة ٢/ ١٦٥ وما بعدها وفوات الوفيات ٩/ ٣٤٦- ٣٥٠، ٢/ ٥٣٦، ٥٣٧.

(٨) تاريخ الإسلام السياسى ٣/ ٢٣٢- ٤٠٦.

فيها شأن»[1]، فمنذ عهد بنى بويه وسلطان العربية أخذ يتراجع فى الشرق وهب أحفاد الأكاسرة وأبناء الدهاقين يستردون مجد آبائهم ويطاردون اللغة العربية ونفوذها من بلادهم. . ومن العجيب أن تم لهم ذلك سريعًا فإن المتنبى وهو من رجال القرن الرابع يقول، وقد زار شِعْبَ بَوَّان[2] من بلاد فارس:

مَغَانى الشِّعْبِ طِيبًا فى المغَانِى ... بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
وَلَكِنَّ الفَتى العَرَبِىَّ فِيهَا ... غَرِيبُ الوَجْهِ واليَدِ واللِّسَانِ
مَلاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا ... سُلَيْمَانٌ لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ

ولكن العربية بقيت فى حمى القرآن تدافع سيل الفارسية والتركية الجارف وقد عز النصير من أهلها حتى غلب التتار على بغداد فغلبت على أمرها وخضعت لقانون الطبيعة القاهر بعدما خلفت فى تلك البلاد شرائع وعلومًا وآدابًا لم تقو على محوها الأيام[3].

وإن ثقافات هذا العصر المتنوعة كان لها أثر كبير فى نبوغ عالمنا ابن جنى، وهنا نبدأ الحديث عنه.

التعريف به

نسبه

هو عثمان وكنيته أبو الفتح وأبوه جنى كان روميا يونانيا[4]، واسمه هذا معرب، وقد اختلف فيما عرب عنه فيذكر السيوطى أنه معرب (كنّى)[5]، ويذهب

---

(١) تاريخ الأدب العربى د. أبو الخشب ص١٧٧.

(٢) موضع عند شيراز كثير الأشجار والمياه ويعد من متنزهات الدنيا، الوفيات ٣/ ٢٢٢.

(٣) تاريخ الأدب العربى للزيات ص٢١٤.

(٤) لم يكن من أولاده من اسمه الفتح وكنيته تلك كما قال الشاعر: لها كنية عمرو وليس لها عمرو. مقدمة الخصائص ١/ ٥٦ ومعجم الأدباء ١٢/ ٨١ والوفيات ٢/ ٤١٠، والكامل ٧/ ٢١٩، واليتيمة ١/ ٨٩ والمشتبه ١/ ٢٦١ واللباب ١/ ٢٤٣ وعقد الجمان ٣/ ٥١٣ وأعلام النبلاء ١١/ ٥.

(٥) البغية ٣٢٢.

بروكلمان إلى أنه معرب Gennaios[١] التى تعنى مجموعة من المعانى هى (كريم -نبيل-جيد التفكير-عبقرى-مخلص)[٢]، ويجوز بعض العلماء كلا الاحتمالين السابقين بحسب نطق الكلمة وهيئتها، فيذكر الأستاذ عبد الله أمين أن بعضهم يقول: «إن جنِّى معرب من أحد لفظين روميين فإن كان بكسر النون وبدون تشديد فهو معرب لفظ كنى وإن كان بكسرها وتشديدها فهو معرب لفظ جنايس»[٣].

ويرى المستشرق الأستاذ ماسينيون احتمالا آخر وهو أنه «ربما كان لفظ جنى معربا من جناريوس بمعنى الشهر الأول من العالم الميلادى لأنهم كانوا يسمون بهذا الشهر أيضًا»[٤].

والملاحظ أن ما ذكره السيوطى لا يختلف عما ذكره بروكلمان لأن الأول نطق للفظ الثانى على هيئة تقبلها العربية، ولذلك يقول الأستاذ النجار: إن «جنى تكتب بالحروف اللاتينية ممثلة للفظ اليونانى Gennaios[٥] وعلى هذا فلا معنى لقول بعض العلماء بالفرق بين (كنى) ومقابله اليونانى حتى يمكن قبول التفصيل السابق فى تعريب «جنى» عن أحدهما وأيا ما كان الأمر فالراجح من تلك الآراء هو ما قاله السيوطى وبروكلمان كما يبدو من توضيح ابن جنى نفسه لاسم أبيه، فقد صرح بأن معناه «فاضل»[٦] ويؤيدنا فى ذلك الدكتور طلس حين يقول: «ولعل أصح الأقوال هو ما ذهب إليه الأستاذ بروكلمان لأن ذلك أقرب إلى التسمية والواقع»[٧] وقال الأستاذ النجار: «ومن هذا يبدو صدق تفسير ابن جنى لاسم أبيه»[٨].

---

(١) تاريخ الأدب العربى (الترجمة العربية وفى كل ما يرد فى الرسالة ٢/ ٢٤٤.

(٢) مقدمة الخصائص ١/ ٨ ويقول الأستاذ العقاد: إن أصل هذا الاسم جوهانى. يوميات ٢/ ٣٣٣.

(٣) المقتطف ص١٥٣.

(٤) مجلة المجمع العلمى المجلد ٣٠/ ٤٤٦.

(٥) مقدمة الخصائص ١/ ٨.

(٦) المؤتلف والمختلف لابن ماكولا، ج١، الوجه الثانى من الورقة ٢٣٢.

(٧) مجلة المجمع العلمى المجلد ٣٠/ ٤٤٦.

(٨) مقدمة الخصائص ١/ ٨.

وكان (جنى) والد أبى الفتح مملوكًا لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدى الموصلى[1] وتقف مصادر التاريخ صامتة عن حياة هذا الوالد وعن حياة سيده سليمان بن فهد[2]، وقد بدا للشيخ النجار احتمال أن يكون هو سليمان بن فهد الذى عاش فى ظلال حكم معتمد الدولة قرواش بن المقلد أحد أمراء العقيليين[3] حسبما ذكر ابن الأثير الذى يقول إنّه: «كان يكتب فى حداثته بين يدى الصابى وخدم المقلد بن المسيب وقصد الموصل واقتنى ضياعًا ونظر فيها لقرواش فظلم أهلها، ثم سخط قرواش عليه فحبسه وطالبه بالمال، فادعى الفقر، فقتل»[4]. واستدل الأستاذ النجار لهذا الاحتمال بأن (ابن الزمكدم) الذى هجا ابن جنى هجا سليمان صاحب قرواش فى شعر بديع هو:

وَلَيْلٍ كَوَجْهِ البَرْقَعِيدِيِّ ظُلْمَةً ... وبَرْدِ أَغَانِيهِ وَطُولِ قُرُونِه
سَرَيْتُ ونَوْمِى عَنْ جُفُونِى مُشَرَّدٌ ... كَعَقْلِ سُلَيْمَانَ بنِ فَهْدٍ وَدِينِه
عَلَى أَوْلَقٍ فِيهِ الْتِفَاتٌ كَأَنَّهُ ... أَبُو جَابِرٍ فى خَبْطِهِ وَجُنُونِه
إِلَى أَنْ بَدَا ضَوْءُ الصَّبَاحِ كَأَنَّهُ ... سَنَا وَجْهِ قِرْوَاشٍ وَضَوْءُ جَبِينِه[5]

ومن هجائه لابن جنى:

يَا أَبَا الفَتْحِ قَدْ أَتَيناكَ للتَّدرِيـ ... ـسِ وَالعِلْمُ فى فِنَائِكَ رَحْبُ
فَوَجَدْنَا فَتَاةَ بَيْتِكَ أَنْحَى ... مِنْكَ والنَّحْوُ مُؤْثَرٌ مُسْتَحَبُّ

(١) إنباه الرواة ٢/ ٣٣٦ وتاريخ بغداد ١١/ ٣١١ والشذرات ٣/ ١٤٠ ومعجم الأدباء ١٢/ ٨١ والمنتظم ٧/ ٢٢٠ وغيرها.

(٢) بنو فهد من أشراف الموصليين وأعيانهم فى القرنين الثالث والرابع وفى مقدمتهم فهد بن أحمد الأزدى، ذكره ابن الأثير وأثنى عليه وقال: إنه مات سنة ٢٨٧ ومنهم أبو عبد الله محمد بن سليمان بن فهد الذى استكتبه سيف الدولة سنة ٣٣٥ وقد توفى سنة ٣٤٢هـ. انظر الكامل فى حوادث هاتين السنتين جـ٨ ط الأزهرية.

(٣) ولى الموصل سنة ٣٩١- ٤٤٢هـ.

(٤) الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٠٨.

(٥) الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٠٨ والمختصر ٢/ ١٥٢ فى حوادث سنة ٤١١هـ.

مَــذْهَبٌ خَـالَفَـتْ شُيُــوخَكَ فِيــهِ   فَــهْيَ تُصْــبِى بِهِ الحَلِيمَ وَتَـصْبُــو[1]

وقد وافق الأستاذ النجار علــى ذلك محقــقو كتــاب المحتسب فـذكروا أن «جنى» كان مملوكًا روميا يونانيا لسليمان بن فهد الأزدى وزير شرف الدولة قرواش ملك العرب وصاحب الموصل[2].

ولكن هذا الاحـتمــال لا يجد الدليل الـقوى فـالشعـر الذى نسب إلى ابن الزمكدم فى هجـاء ابن جنى وسليمــان بن فهـد نسب لغـيره[3]، ثم إنه ليس من المقبـول - عادة - أن يكون هذا السـيد قـد بقى بحيـوية منذ ملكه لوالد ابن جنى حتى تولى الوزارة فى عهد قرواش وكان يجلس فى سمره، وقد وجد على إحدى نسخ سر الصناعـة إهداء الكتاب إلى أبى بكر عبـد الواحد بن عرس بن فــهد بن أحمد الأزدى، ولو كـان عمه لا يزال حيـا لكان إهداؤه إليه أولى. ومن هنا رأينا الأستاذ النجار نفسه يشك فى ذلك ويقول: «ولا أكتم فى هذا المقام شكا يخامرنى فى الأمر أفلا يحتمل أن سليمان بن فهد الذى قتله قرواش سنة ٤١١هـ غير مولى جنى والد أبى الفتح[4].

عـــــوره

يذكر ياقـوت أن ابن جنى «كان ممتـعًا بإحدى عـينيه»[5]، فلذلك يقول فى صديق له:

---

(١) معجم الأدباء ١٢/ ١١٥.

(٢) مقدمة المحتسب ص٥.

(٣) نسبه صاحب فـوات الوفيات إلى الطاهر الجزرى فى ترجمة معـتمد الدولة أبى المنيع قرواش بن المقلد توفى سنة ٤٤٤ انظر الفوات ٢/ ٢٦٤ وتوفى الطاهر الجزرى فى حـدود الأربعمائة، نفسه ١/ ٣٤٠.

(٤) مقدمة الخصائص ١/٦.

(٥) كناية عن عورة وكأن هذه الكناية من باب التـوجيه البديعى فإن إحدى العـينين الممتع بها الأعور يجوز أن تكون المبصرة يـتمتع بالإبصار بها والاهتداء بنورها، ويجـوز أن تكون الذاهبة فالأعور ممتع بثواب الصبر عليها. مقدمة الخصائص ١/ ١١، ١٢.

صُدُودُكَ عنِّى ولا ذَنْبَ لى   دَليلٌ عَلَى نيَّةٍ فَاسِدَةْ
فَقَدْ - وحَيَاتِكَ - مِمَّا بَكَيْتُ   خَشِيتُ عَلَى عَيْنِى الوَاحِدَةْ
ولَوْلا مَخَافَةُ ألا أرَاكَ   لَمَا كَانَ فى تَرْكِهَا فَائِدَةْ[1]

ويعقب ابن الأنبارى على هذه الأبيات بقوله: وإنما قال: خشيت على عينى الواحدة؛ لأنه كان أعور[2]، كما ينقل ياقوت شعراً لأبى نصر بشر بن هارون يدل بوضوح على عوره وذلك حين جرى حوار بين ابن جنى وبين أبى نصر فى معنى شيطان اسمه العُدار وهذا الشعر هو:

زَعَمْتَ أنَّ العُدَارَ خِدْنِى   ولَيْسَ خِدْنًا لىَ العِدَارُ
عِفْرٌ منَ الجنِّ أنْتَ أوْلَى   به وَفِيهِمْ لَكَ افْتِخَارُ
فَالجِنُّ جِنٌّ ونَحْنُ إِنْسٌ   شَتَّانَ هذَان يَا حِمَارُ
العُرّ والعَارُ فِيكَ تَمًّا   والعَوَرُ التَّامُ والعَوَارُ[3]

والبيت الأخير يحمل معنى عوره بصريح العبارة؛ ولكن نرى ابن خلكان يذكر ذلك بأسلوب التضعيف فيقول: ويقال: إنه كان أعور[4]، ويوافقه على ذلك ابن كثير[5] وابن العماد[6] إلا أن صاحبى الوفيات والبداية والنهاية يشكان فى نسبة الشعر الأول لابن جنى، يقول ابن خلكان: ويقال إنه كان أعور، وفى ذلك يقول.. ويذكر الأبيات السابقة.. ثم يعقب عليها بقوله: وقيل: إن هذه الأبيات لأبى منصور الديلمى[7] ويقول ابن كثير: ويقال إنه كان أعور ويذكر الأبيات

---

(١) معجم الأدباء ١٢/ ٩٠.

(٢) نزهة الألباء ٤٠٨.

(٣) معجم الأدباء ١٢/ ٩٢، ٩٣ . والعر - بالفتح والضم -: الجرب وقيل - بالضم -: القروح، والعور - بالفتح للعين والواو: ذهاب حس إحدى العينين، والعوار - بفتح العين والواو: العيب. القاموس ٢/ ٩٠، ١٠٠.

(٤) وفيات الأعيان ٢/ ٤١١ .   (٥) البداية والنهاية ج١١ ص٣٣١.

(٦) الشذرات ٣/ ١٤٠ .   (٧) وفيات الأعيان ٢/ ٤١١.

الثلاثة السابقة، ثم يعقب عليها بقـوله: ويقال: إن هذه الأبيات لغيره وكان قائلها أعور[1].

ولـم يجزم الأستـاذ عبد الله أمين فى مقاله فى المـقتطف برأى فى عوره بناء على هذه الأقوال التى يثبته بعـضها وينفيه - على احتمال - بعضـها الآخر فقال: وقـيل: إن ابن جنى كان ممـتعًـا بإحدى عـينيـه فلذلك قـال فى صديق له وذكـر الأبيات، ثم قال: وقيل إنه لم يكن ممتعًا بـإحدى عينيه وأن هذه الأبيات ليست له إنما هى لأبى منصور الديلمى[2].

ويبدو لنا أن عـوره حقيـقة ثابتـة فقد جـزم به ياقوت وابن الأنبارى -كـما سبق- وفى معــجم الأدباء من شعر أبى نصر السابق مـا يدل بلا ريب عليه ويقول صـاحب مســالك الأبصار «ونـاهيك به من أعور عـينه نضـاخة وأرضـه مما تنبت سواخه»[3] وكان أبو الطيب المتنبى إذا سئل عن معنى قاله أو توجيه إعراب حصل فيه إغراب دل عليه، وقال: «عليكم بالشـيخ الأعور ابن جنى فسلوه فإنه يقول ما أردت وما لم أرد»[3]، «ولا ينبغى أن يفهم من الشك فى نسبة (الشعر الأول إليه) الشك فى عوره فليس مـرد عوره إلى هذا الشعر إذ هو معـدود فى العور قال هذا الشعر أو لم يقله»[4].

وعلى هذا جرى الشيخ النجار فـقال: وقد كان أعور[5] وتابعه محـققو سر الصناعة وأحدهم الأسـتاذ عبد الله أمين - فقـالوا: والراجح أن ابن جنى كان من العور. . والصحـيح أن الأبيات له وأنه أعور[6] ولا نعرف تاريخ عوره أكان «فى حداثته أو أصابه وقد علته كَبْرَةٌ»[7].

(١) البداية والنهاية ١١/ ٣٣١.

(٢) المقتطف ص٣/ ١٦١.

(٣) مسالك الإبصار ٤/ ٣٠٧.

(٤) مقدمة الخصائص ١/ ١٢.

(٥) نفسه ١/ ١١.

(٦) مقدمة سر الصناعة ٤٢، ٤٣.

(٧) مقدمة الخصائص ١/ ١٢.

ولادته ووفاته وموطنهما

كانت ولادته بالموصل وقد أجمع على ذلك المؤرخون ولقبوه بالموصلى نسبة إلى مهده الأول[1]، وقد اختلف فى تاريخ ولادته فذهب فريق إلى أنه ولد قبل الثلاثين والثلاثمائة من الهجرة، وفى عبارة واحدة اتفق ياقوت وابن الأثير وابن النديم وابن قاضى شهبة والسيوطى وغيرهم وهى «ولد قبل الثلاثين والثلاثمائة»[2]، ويحدد ابن قاضى شهبة عمره فى الحياة بسبعين سنة، ومعنى هذا أنه ولد سنة ٣٢١هـ أو سنة ٣٢٢هـ لعلمنا اليقينى بأنه توفى سنة ٣٩٢هـ[3] وأصحاب دائرة المعارف الإسلامية يذهبون إلى أنه ولد سنة ٣٢٠هـ[4]، ويذهب فريق آخر إلى أنه ولد بالتحديد سنة ٣٠٢هـ، وهو رأى أبى الفدا فى المختصر[5] أو أنه ولد قبل سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م وهو رأى بروكلمان[6] وتابعه عليه أصحابه الموسوعة العربية الميسرة[7].

وقد حكى الأستاذ النجار كلا المذهبين إلا أنه رجح رأى أبى الفدا لأن الرواة يذكرون أن ابن جنى صحب أستاذه الفارسى أربعين سنة بعد الحادثة المشهورة التى كانت سبب الصحبة وكانت تلك الحادثة سنة ٣٣٧هـ[8] فمن المعقول أن تكون سنه عندها تليق بالتصدر للتدريس، وهو ما يتناسب وهذا الرأى، إذ سنه تكون حينذاك فوق الثلاثين، أما إذا تصورنا ولادته فى التواريخ الأخرى المذكورة كانت سنه -مع

---

(١) الكامل ٧/ ٢١٩ والشذرات ٣/ ١٤١ ومعجم الأدباء ١٢/ ٨١ وإنباه الرواة ٢/ ٣٣٥ وطبقات ابن قاضى شهبة ٢/ ١٢٣ وغير ذلك.

(٢) معم الأدباء ١٢/ ٨٣ والكامل ٣/ ٢١٩ والفهرست ١٢٨ وطبقات النحاة ٢/ ١٢٣ ومسالك الإبصار ٤/ ٣٠٧ وعقد الجمان ٣/ ٥١٣ والبغية ٣٢٢ والمقتطف ١٥٣ وغيرها.

(٣) تاريخ بغداد ١١/ ٣١٢ والمصادر السابقة.

(٤) دائرة المعارف ١٢٢.

(٥) ٢/ ١٣٦.

(٦) تاريخ الأدب العربى ٢/ ٢٤٤.

(٧) ص١٢.

(٨) الكامل حوادث سنة ٣٣٧.

تصدره للتدريس- خمس عشرة سنة أو تزيد قليلاً. ومن القليل أن يتعرض المرء للتدريس فى هذه السن المبكرة، وهذا قد يرجح رواية أبى الفداء فى تاريخ ولادته، وقول ابن قاضى شهبة إنه توفى فى سن السبعين قد يكون (السبعون) فيه محرفة عن (التسعين)(١).

ولكن محققى المحتسب يرجحون الرأى الأول القائل بولادته -على ما يبدو- سنة ٣٢١هـ أو سنة ٣٢٢هـ؛ لأن سنه عند مرور الشيخ أبى على عليه سنة ٣٣٧هـ تكون الخامسة عشرة وهى من أنسب سنى العمر لمقالة أبى على له: تزببت وأنت حصرم، فهى تعنى أن ابن جنى بجلوسه للتدريس فيها قد سبق أوانه وتكلف من الأمر ما لا قبل لمن فى مثل سنه به، وغير بعيد أن يقصر ابن جنى فى هذه السن فى مسألة قلب الواو ألفًا، ولا سيما حين يكون صاحب الاعتراض فيها إمامًا من طراز أبى على، صحيح أنه يقل أن يجلس امرؤ للتدريس فى الخامسة عشرة من عمره، ولكن نبوغ ابن جنى حقيق فيما نعتقد أن يجعله من هذا القليل.. ورواية أبى الفداء تقتضى أن يكون أبو الفتح إذ ذاك فى الخامسة والثلاثين، وما كان أبو الفتح ليقصر وهو فى هذه السن فى مسألة قلب الواو ألفًا ولا لأبى على أن يقول قولته تلك وإلا بدت كلامًا لا مناسبة بينه وبين المقام الذى قيل فيه(٢).

والمختار من الرأيين هو رأى محققى المحتسب إذ هو قريب من الواقع المقبول، ومؤيد للنصوص التاريخية وموافق لمضمونها، وتذكر بعض المصادر أن أبا على مر عليه فى المسجد وهو شاب(٣) وكلمة الشباب هذه فى اللغة العربية لا تتعدى الثلاثين، بل إن الثلاثين فما فوقها تكسب صاحبها صفة الكهولة(٤)، ولا مانع من جلوس الإنسان فى هذه السن لإلقاء بعض الدروس للراغبين فالمشاهد فى

(١) مقدمة الخصائص ١/ ١٠.

(٢) مقدمة المحتسب ص٦

(٣) معجم الأدباء ١٢/ ٩١ ونزهة الألباء ٤٠٨.

(٤) انظر لسان العرب ١٤/ ١٢٠.

بيئاتنا المعاصــرة أن طالب الأزهر عندما يذهب إلى بلدته وقد تلقى بعض الدروس فى معهده يجلس إليه الناس فى المساجد وغيرها ليسألوه فى إرشادهم فيجيبهم قدر استطاعته وقد يبـعد عن الصواب أحيانًا، والبيئة الإسـلامية تتوق إلى ذلك فى كل زمان ومكان.

ويؤيد ذلك أيضًا مـا يرويه التاريخ العلمى من نبـوغ بعض العلماء فى سن مـبكرة كسـيبـويه الذى يعد من فـحول المتكلـمين فى العربيـة، ولم يتعـد النيف والثلاثين[1] على أن تحريف السبعين عـن التسعين فى عبارة ابن قاضى شهـبة غير محتمل؛ لأنه نص على تقديم السين[2] ولموافقة الذهبى له فى ذلك[3].

أما وفاته فتكاد المصادر كلها تجـمع على أنها كانت سنه ٣٩٢هـ لليلتين بقيتا من صفر الموافق ١٥ من يناير سنة ١٠٠٢م، ما عدا ابن الأثير الذى ذكر وفاته فى سنة ٣٩٣هـ، ولكنه حكى الرأى المتفق عليه أيضًا[4] وما عدا القفطى الذى جعل وفاته سنة ثنتين وسـبعين وثلاثمائة[5] ولعل كلمة سـبعين هذه «محرفـة عن كلمة تسعين»[6]، وكانت وفاته فى بغـداد التى عاش فيها ودرس بهـا ودفن فى مقابرها بعد انقضاء حياته[7].

أولاده

كان لابن جنى من الولد على وعال وعلاء وكلهم أدباء فـضلاء قد خرجهم والدهـم وحسن خطوطهم فـهم معدودون فى الصحيـحى الضبط وحسنى الخط[8]

---

(١) طبقات الزبيدى ٦٦- ٧٣ والوفيات ١٣٣، ١٣٤ فـفيهما أنه مات سنة ١٨٠ عن اثنتين أو ثلاث وثلاثين سنة وقيل عن نيف وأربعين وعلى كلا الحالين فقد نبغ فى هذه السن المبكرة.

(٢) طبقات النحاة واللغويين ٢/ ١٢٦.

(٣) تاريخ دول الإسلام ١/ ١٨٤.

(٤) الكامل ٧/ ٢١٩ وبروكلمان ٢/ ٢٤٥ والمنتظم ٧/ ٢٢١ وابن قاضى شهبة ٢/ ١٢٥ وغيرها.

(٥) إنباه الرواة ٢/ ٣٣٦.

(٦) مقدمة المحتسب ص٧.

(٧) إنباه الرواة ٢/ ٣٣٦ ومفتاح السعادة ١/ ١٣٥ ونزهة الألباء ٤٠٩ وغيرها.

(٨) معجم الأدباء ١٢/ ٩١ وحاشية الخضرى ١/ ٨٩.

والمعروف منهم عال فقد ذكرته كتب التراجم[1]، وفيها أنه يكنى بأبى سعد ويلقب بالبغـدادى كان نحويا أديبًا حـسن الخط أخذ عن والده أبى الفتح وعن عـيسى بن على الوزير[2]، وغيرهما كما سمع مسند أبى يعلى الموصلى[3]، وأخذ عنه الأمير أبو نصر على بن هبة الله بن ماكولا[4] يقول: أدركته بصـيدا وسمعت منه وينقل عنه الجواليقى بعض الألفاظ فمثلا يقول: أخبرنى أبو زكريا عن عال بن عثمان بن جنى عن أبيه قال: السَّـوذانق والسَّوْذَنِيقُ والشَّوذنيقُ والشَّوْذَقُ بالشين معـجمة[5]، واختلف فى تاريخ وفاته، فقيل مات سنه سبع أو ثمان وخمسين وأربعمائة[1].

أخلاقه

كان ابن جنى من العلماء الورعين ذوى الأخلاق العـالية البعيدة عن الرذائل المتعلقة بالفضائل الراضيـة بالقليل من الدنيا ونشبها[6] فهو القائل فـى صدر كتابه الخصائص: كتاب لم أزل على فـارط الحال وتقادم الوقت ملاحظًا له عاكف الفكر عليه منجـذب الرأى والروية إليه»[7]، وفى صدر كـتابه المحتـسب يقول: «ولعل الخطرة الواحدة تخرق بفكرى أقـصى الحجب المتراخية عنى فى جـمع الشتات من أمرى، ودمل العوارض الجائحة لأحـوالى، وأشكر الله ولا أشكوه، وأسأله توفيقًا لما يرضيه»[8] وفى صدر سر الصناعة يقـول: «جعلنا الله ممن إذا أنعم عليه شكر، وإذا وعظ اعتبـر، وجعل ما علمناه خالصًا لوجـهه، مدنيا من رضاه، مـبعدًا عن

---

(١) له ترجمة بإرشاد الأريب المعروف بمعجم الأدباء ٤/ ٢٨٣ والإكمال لابن ماكولا الوجه الثانى من الورقة ٢٣٢ وغيرها.

(٢) توفى سنة ٣٩١هـ وأبوه أبو الحسن علـى بن عيسى ولى الوزارة للمقـتدر ٣٠١/ ٣١٦هـ. تاريخ بغداد ١١/ ٧٩، ١٧٩، ١٨٠ والكامل (٦/ ١٤١- ١٩٢).

(٣) الإكمال، توفى سنة ٣٠٦هـ تاريخ دول الإسلام ١/ ١٤٦.

(٤) المصادر السـابقة والإكمال، قـتل ابن ماكولا سنة ٤٨٥ أو ٤٨٦ أو ٤٨٧ - مـعجم الأدباء ١٥/ ١٠٢- ١١١.

(٥) كله الشاهين أو الصقر أو نصف الدرهم. فارسى معرب، المعرب ١٨٦، ١٨٧.

(٦) رغم ما كان فيه من نعم الملوك والرؤساء.

(٧) مقدمة الخصائص لابن جنى ص١.

(٨) مقدمة المحتسب لابن جنى ص٣٤.

غضبه، فـإنما نحن له وبه، والحمد لله وصلواته التامة الزاكية الطيـبة المباركة على محـمد المرتضى وآله وهو حسـبنا وكفى»[1]، وهو القائل آخـر حياته فى كـتابه المحتسب: «نسألك. . . أن تجعل أعمالنا لك واتصالاتنا بك ومطالبنا مقصورة على مرضـاتك وإن قصرت أفعـالنا عن مفروضاتك وصلـتها برأفتك بنا وتلافـيتنا من سيئات أنفسنا مـا امتدت أسباب الحياة لنا، فإذا انقضت عـلائق مددنا واستوفى ما فى الصحف المحفـوظة لديك من عدد أنفاسنا واستـؤنفت أحوال الدار الآخرة بنا فـاقلبنا إلى كنز جنتك التى لم تخلق إلا لمن وسـع ظل رحمـتك، واجعل أمـامنا هاديا من طاعاتنا لك»[2]، ويقول من قصيدة له:

شَكَرْتُ اللَّهَ نِعْمَتَهُ ... وَمَا أَوْلاهُ مِنْ أَرَبِ

إِلَى اللَّهِ المَصِيرُ غَدًا ... وعِنْدَ اللَّهِ مُطَّلَبِى[3]

وكان رجل جـد لا يعرف المزاح الماجن أو اللهـو والفسوق، «حـدث غرس النعمة أبو الحـسن محمد بن هلال بن المحسن قال: كـان أبو الحسين القمى يكتب فى ديوان الإنشاء بين يدى جـدى أبى إسحاق لما ولاه صمصـام الدولة، فاتفق أن حضر يومًا فـى الديوان عند جدى أبى إسحاق أبو الفتح عثـمان بن جنى النحوى وجلس يتحدث مع جدى تارة ومعى إذا اشـتغل جدى أخرى، وكانت له عادة فى حديثه بأن يميل بشفتـه ويشير بيده فبقى أبو الحسين القمى شاخصًـا ببصره يتعجب منه، فقال له ابن جنى: ما بك يا أبا الحـسين تحدّق إلى النظر وتكثر منى العجب، قال: شىء ظريف. قال: ما هو؟ قال: شبـهت مولاى الشيخ وهو يتحدث ويقول ببوزه[4] كذا وبيـده كذا بقرد رأيتـه اليوم عند صعـودى إلى دار المملكة وهو على شاطئ دجلة، يفعل مثل ما يفعل مولاى الشيخ، فامتعض أبو الفتح وقال: ما هذا

(١) مقدمة سر الصناعة لابن جنى ص٥.

(٢) مقدمة المحتسب لابن جنى ص٣١.

(٣) معجم الأدباء ١٢/٩٨، ١٠٠.

(٤) البوز: الفم وقيل للخنزير خاصة.

القول يا أبا الحسين - أعزك الله -؟ ومتى رأيتنى أمزح فتمزح معى أو أمجن فتمجن بى؟[1]، فلما رآه أبو الحسين قد حرد[2] واستشاط وغضب قال: المعذرة أيها الشيخ وإلى الله تعالى عن أن أشبهك بالقرد وإنما شبهت القرد بك فضحك أبو الفتح، وقال: ما أحسن ما اعتذرت! وعلم أبو الفتح أنها نادرة تشيع، فكان يتحدث بها هو دائمًا[3].

ومن تلك القصة ندرك سجاحة خلق ابن جنى الذى لم يلفظ لسانه - على الرغم من إهانته - ببذىء القول، بل اكتفى بقوله: «ما هذا القول يا أبا الحسين» أعزك الله؟ إلخ، وهذا أسلوب ينم عن كريم خلقه وسنى طبعه ورفيع مكانه على الرغم مما لاقاه من هذا الشخص المستهتر الخليع، وكان كرم خلقه هذا سببًا فى حب الآخرين له وصلاتهم به - على ما سنذكره فى صلاته الاجتماعية.

وقد امتد كرم خلقه إلى بحوثه وجهوده العلمية، فلم يذكر أحدًا من العلماء - سواء من أصحابه أو غيرهم - إلا بالثناء والمدح، بل كان يعيب على من يخوض فى حقهم أو ينحى باللائمة عليهم، فمن مدحه لأستاذه وهو كثير - سنذكره بعد - «ولله هو وعليه رحمته فما كان أقوى قياسه، وأشد بهذا العلم اللطيف الشريف أنسه فكأنه إنما كان مخلوقًا له، وكيف كان لا يكون كذلك وقد أقام على هذه الطريقة مع جلة أصحابها، وأعيان شيوخها سبعين سنة زائحةً عِلَلُه، ساقطةً عنه كُلَفُهُ، وجعله همه وسدَمه»[4]، ومن مدحه لسيبويه قوله: إنه «صاحب هذا العلم الذى جمع شعاعه وشرع أوضاعه ورسم أشكاله ووسم أغفاله وخلج أشطانه وبعج أحضانه وزم شوارده وأفاء فوارده»[5].

---

(١) المجون: الدعابة والمزاح. (٢) غضب وتألم.

(٣) معجم الأدباء ١٢/٨٣، ٨٤، ٨٥ . وربما فهم من ميله ببوزه وشفتيه أنها كانت عادة لابن جنى تدل على منهجه فى توكيد المعنى الذى يتحدث عنه وهو الذى يقول: رب إشارة أبلغ من عبارة. الخصائص ١/٢٤٧ أو أن ذلك لما كان فى لسانه من لكنة أعجمية (انظر مقدمة الخصائص للشيخ النجار) ١/ ١٣، ١٤.

(٤) الخصائص ١/٢٧٦، ٢٧٧.

(٥) نفسه ١/ ٣٠٨، ٣٠٩.

ويقول مدافعًا عن ثعلب الكوفى: ورأيت أبا محمد بن درستويه[1] قد أنحى على أحمد بن يحيى فى هذا الموضع من كتابه الموصوف بشرح الفصيح وظلمه وغصبه حقه والأمر عندى بخلاف ما ذهب إليه ابن درستويه فى كثير مما ألزمه إياه، وما كنت أراه بهذه المنزلة، ولقد كنت أعتقد فيه الترفع عنها، وإن كان من أصحابى، وقائلاً بقول مشيخة البصريين فى غالب أمره، وكان أحمد بن يحيى كوفيا قلبًا فالحق أحق أن يتبع أين حل وحيث صقع»[2].

فابن جنى بذلك يدل على خلق علمى فاضل غير متحيز ولا متعصب بل إنه ليثنى على العلماء جميعًا ويعتد بآرائهم فيقول: «لا نشك فى أن الله - سبحانه وتقدست أسماؤه - قد هداهم لهذا العلم الكريم، وأراهم وجه الحكمة فى الترجيب له والتعظيم، وجعله ببركاتهم وعلى أيدى طاعاتهم خادمًا للكتاب المنزل وكلام نبيه المرسل»[3]، ثم هو يذكر أن تخليط غيره من العلماء، واضطرابهم فى التأليف دعاه إلى بذل الجهد فى إحكام هذا الفن فى كتبه، بيد أنه لا يعيب على هؤلاء المتقدمين، بل يمدحهم ويثنى عليهم، فيقول: «لا نكاد نجد لكثير من مصنفى اللغة كتابا إلا وفيه سهو وخلل فى التصريف، وترى كتابه أسد شىء فيما يحكيه، فإذا رجع إلى القياس وأخذ يصرّف ويشتق اضطرب كلامه وخلّط، وإذا تأملت ذلك فى كتبهم لم يكد يخلو منه كتاب إلا الفرد، ويتكرر هذا التخليط على حسب طول الكتاب وقصره، وليس هذا غضًا من أسلافنا ولا توهينا لعلمائنا، كيف وبعلومهم نقتدى، وعلى أمثلتهم نحتذى، وإنما أردت بذلك التنبيه على فضل هذا القبيل من علم العربية»[4]، ثم هو يطلب من الباحث الا يكون «غاضا من السلف -رحمهم الله- فى شىء منه»[3].

---

(١) توفى سنة ٣٤٧ طبقات الزبيدى ١٢٧ وفى الفهرست سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة ص٩٣، ٩٤.

(٢) سر الصناعة حرف الهاء مخطوطة دار الكتب المصرية ٢٩٣.

(٣) الخصائص ١/ ١٩٠.

(٤) المنصف جـ١ ص٣ من المقدمة.

فمن هذه النصوص التى يذكرها المترجمون لحياته وتتخلل كتبه العلمية يبدو أن عالمنا أبا الفتح كان متمسكًا بمبادئ الدين القويم ومنضويًا تحت شعائر الأخلاق الاجتماعية والعلمية جمعاء.

نظرته للعرب

عاش العرب فى البادية حينًا من الدهر، تتنازعهم تفرقة الشمل، وتنقل الموطن، وطلب ما تجود به السماء والأرض من ماء وكلأ وماشية تكون لون حياتهم الأولى، فلما جاء الإسلام على يد النبى العربى محمد ﷺ استقر أمر هذه الأمة ودخلت التاريخ، إلا أن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة[1]، وقد تلقوا كتاب الله وسنة رسوله وأحكام شريعته من صاحب الشرع وأصحابه[1] ولما تقدم بهم الزمن وخرجوا عن البداوة إلى الحضارة شغلتهم الرياسة فى الدولة العباسية وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع والرؤساء أبدًا يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليها[2]، ولا ريب أن اتصال العرب بسواهم من الأمم بعد انتشار الإسلام تسبب فى فساد الألسنة وخيف من تسرب ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله، «فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية ووضع التفاسير القرآنية، وما يتصل بالأحادث النبوية فجدت علوم شرعية كلها ملكات فى الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت إلى علوم أخرى تعد وسائل لها»[3].

ولما كان العرب أرباب السياسة والحكم فقد «دفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين[2]، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤/ ١٢٤٧.

(٢) نفسه ٤/ ١٢٤٩.

(٣) نفسه ٤/ ١٢٤٨.

الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسى من بعده، والزجاج من بعدهما وكلهم عجم فى أنسابهم، وإنما ربوا فى اللسان العربى فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم، وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام وأكثر المفسرين عجم أو مستعجمون باللغة والمربى وكان علماء أصول الفقه كلهم عجمًا.. وكذا حملة علم الكلام وسائر العلوم العقلية ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم[١].

وقد شجعهم على ذلك أن الدولة العباسية «قامت دعوتها على احترام الأجناس وإذابة الفوارق بين الطبقات وعدم تفضيل إنسان على إنسان والتسوية بين الناس فى الحقوق والمعاملات، أشاعت الأمل والرجاء فى نفوس الأفراد والجماعات، وأيقظت الهمم والعزائم فى القلوب والأفئدة وحفزت القوى التى كانت خاملة إلى أن تتحرك وتعمل وتكد وتدأب وتتنافس فى الخير وتستبق إلى الفضل وتملأ الميادين كلها بنتاج عقولها وثمرات أفكارها، وللفرس ثقافات جمة وعلوم متنوعة ومعارف كثيرة وحضارات لم تتطاول إليها حضارات الأمم الأخرى، وقد استعانوا بهذه كلها على أن يتمكنوا فى الدولة ويتقربوا من بيوت الخلافة، ويقدموا مما بأيديهم من المهارات والخدمات لذوى السلطان والحكم، فكان منهم شرايين الحياة والبعث فى كل المرافق، الوزراء منهم والكتاب منهم والحجاب منهم والحرس والجند منهم والشعراء الذين يهزون القلوب ويرقصون الأفئدة منهم[٢]، ولما أحسوا أن الميادين المختلفة للعمل والوظائف والظهور ونباهة الشأن معبدة لهم واسعة أمامهم، دفعهم ذلك إلى التنافس والتسابق والإجادة والإحسان»[٢].

وبهذا تزول الغرابة التى تصورها ابن خلدون من أن «حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم»، وأن بعض هذه العناصر الأجنبية قد نزعت نفوسها إلى الشعوبية إيحاء من قوميتهم وعصبيتهم لأصولهم الأجنبية[٣]، وتنفيسًا لما ذاقوه من

(١) نفسه ٤/١٢٤٨، ١٢٤٩.

(٢) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى د. أبو الخشب ٦٩، ٧٠.

(٣) تاريخ الأدب العربى للزيات ص٢١٤.

احتقار بنى أمية لهم، وعدم مساواتهم بالعرب، وقد ظهرت هذه النزعة على ألسنة شعرائهم ومنهم إسماعيل بن يسار أحد المشهورين بالشعوبية، فقد حاول التقليل من شأن العرب والنيل من شرفهم ومدح قومه بالنبل والسيادة، يقول:

إِنَّمَا سُمِّيَ الفَوَارِسُ بِالفُرْ ... سِ مُضَاهَاةَ رِفْعَةِ الأَنْسَابِ

ويذم العرب فى أخلاقهم حين يقول:

فَاتْرُكِي الفَخْرَ يَا أُمَامُ عَلَيْنَا ... وَاتْرُكِي الجَوْرَ وانْطقِي بِالصَّوَابِ

وَاسْأَلِي إِنْ جَهِلْتِ عَنَّا وَعَنْكُمْ ... كَيْفَ كُنَّا فِي سَالِف الأَحْقَابِ

إِذْ نُرَبِّي بَنَاتِنَا وَتَدُسُّو ... نَ سِفَاهًا بَنَاتِكُمْ فِي التُّرَابِ[1]

وكذلك ابن الرومى الذى يطعن فى قيمة الآداب العربية وأخصها وهو الشعر فى قوله:

قَدْ تُحْسِنُ الرُّومُ شِعْرًا ... مَا أَحْسَنَتْهُ العُرَيْبُ[2]

وغير ذلك مما تتناقله كتب اللغة والأدب.

ولكن ابن جنى الرومى الأصل والمثقف بثقافة العصر من العلوم الأجنبية والإسلامية لم يكن من هؤلاء المتجنين على العرب والحاقدين عليهم بل كان محبًّا للعرب ومادحًا لهم وباحثًا عن لغتهم التى جعلها سيدة اللغات، بما أبان من أسرارها وسبر من أغوارها وحدد من نواحى فَواقها، ولعل كتبه خير شاهد على ما نقول، فعن أخلاقهم يقول: «ألا ترى أن الجاهلية الجهلاء كانت تحصن فروج مفارشها، وإذا شك الرجل منهم فى بعض ولده لم يلحقه به خلقًا قادت إليه الأنفة والطبيعة ولم يقتضه نص ولا شريعة، وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ... ﴿٦﴾﴾ [التوبة]، قد كان هذا من أظهر شىء معهم وأكثره فى استعمالهم أعنى حفظهم للجار ومدافعتهم عن الذمار، فكأن الشريعة

---

(١) الأغانى ٤/ ١١٩.

(٢) من قصيدة بعنوان إلى من يطعن فى شعرى. انظر ديوانه ٢/ ٢٨٥.

إنما وردت فيما هذه حاله بما كان معلومًا معمولاً به حتى إنها لو لم ترد بإيجابه، لما أخل ذلك بحاله لاستمرار الكافة على فعاله»[1].

وعن عقليتهم الحصيفة التى تنتج من ألوان البيان ما لا قبل لغيرهم به يقول: «فإن قلت ومن أين يعلم أن العرب قد راعت هذا الأمر واستشفته وعنيت بأحواله وتتبعته حتى تحامت هذه المواضع التحامى الذى نسبته إليها وزعمته مرادا لها وما أنكرت أن يكون القوم أجفى طباعًا وأيبس طينًا من أن يصلوا من النظر إلى هذا القدر اللطيف الدقيق الذى لا يصح لذى الرقة والدقة منا أن يتصوره إلا بعد أن توضح له أنحاؤه بل أن تشرح له أعضاؤه. قيل: هيهات! ما أبعدك عن تصور أحوالهم وبعد أغراضهم ولطف أسرارهم حتى لكأنك لم ترهم وقد ضايقوا أنفسهم وخففوا من ألسنتهم»[2]، ويقول أيضًا: «إن الله سبحانه وتعالى إنما هداهم لذلك ووفقهم عليه لأن فى طباعهم قبولا له وانطواء على صحة الوضع فيه لأنهم مع ما قدمناه من ذكر كونهم عليه فى أول الكتاب من لطف الحس وصفائه ونصاعة جوهر الفكر ونقائه، لم يؤتوا هذه اللغة الشريفة المنقادة الكريمة إلا ونفوسهم قابلة لها محسة لقوة الصنعة فيها معترفة بقدر النعمة عليهم بما وهب لهم منها»[3]، ويقول فى مدح اللغة العربية وتفضيلها على غيرها من اللغات: «لو أحست العجم بلطف صناعة العرب فى هذه اللغة وما فيها من الغموض والرقة والدقة لاعتذرت من اعتراضها بلغتها فضلا عن التقديم لها والتنويه منها»[4]، وغير ذلك من نصوص كثيرة تظهر للباحث وتوحى إليه بثنائه على العرب ونسبته المفاخر إليها. فأما قوله فيما أنشده ابنه عال:

وَحُلْوِ شَمَائِلِ الأَدَبِ ... مُنِيفِ مَرَاتِبِ الحَسَبِ
أَخِي فَخْرٍ مَفَاخِرُهُ ... عَقَائِلُ عُقْلَةِ الأَدَبِ

(١) الخصائص ١/ ٥١.
(٢) نفسه ١/ ٧٢.
(٣) نفسه ١/ ٢٣٩.
(٤) نفسه ١/ ٢٤٢.

لَهُ كَلَفٌ بِمَا كَلِفَتْ　　　به العلماءُ مِ العَربِ

....　　　.................................

فَإنْ أُصْبِحْ بلا نَسَبٍ　　　فَعِلْمى فِى الوَرَى نَسَبِى
عَلَى أَنِّى أَأُولُ إلَى　　　قُرُومٍ سَادَةٍ نُجُبِ
قَيَاصِرَةٌ إِذَا نَطَقُوا　　　أَرَمَّ الدَّهْرُ ذُو الخُطَبِ[1]

فإنه صدر عنه دفاعًا عن نفسه، حيث نبغ فى علم العرب وليس منهم دما ولحمًا، وهو بهذا يوضح صلته بالعرب والعروبة، وأنه أصبح أحد أبنائها الذين يفخر بهم، فصلة العلم والتربية لا تقل شأنًا عن صلة النسب، وقد ذهب إلى هذا المعنى أبو تمام حين قال:

أَوْ يَفْتَرِقْ نَسَبٌ يُؤَلِّفُ بَيْنَنَا　　　أَدَبٌ أَقَمْنَاهُ مُقَامَ الوَالِدِ[2]

والإنسان بالمخالطة والمعاشرة يكتسب سمات الآخرين وينسب إليهم ويؤكد ذلك قول ابن جنى عن قومه:

أُولاكَ دَعَا النَّبِىُّ لَهُمْ　　　كَفَى شَرَفًا دُعَاءُ نَبِى

فاصله ينول إلى قياصرة كان لهم شأن فى التاريخ إلى جانب نبوغ علمى حاز فيه قصب السبق، فالواضح إذًا أنه لا يقصد بهذا الشعر أن ينزع منزع الشعوبيين ممن دخل فى العرب، وليس منهم «فمعاذ الله أن يرمى ابن جنى بالشعوبية أو يُزَنُّ بها»[3]، وبخاصة أننا قد عرفنا من خلقه التسامح وعدم التعصب العلمى، مما جعله ينظر للعرب نظرة إنصاف فيقدرهم حق قدرهم.

---

(١) معجم الأدباء ٩٦/١٢، ٩٩ وأرم: سكت.
(٢) من قصيدة لأبى تمام يمدح بها على بن الجهم.ديوانه ص٧٨.
(٣) مقدمة الخصائص ١/ ٣٦.

صلاته العلمية والاجتماعية وأثرها في تكوين ثقافته

اجتمعت لابن جنى مصادر ثقافية كونت فيه علمه الغزير أهمها:

١- نبوغه وذكاؤه[1].

٢- ثقافته الأجنبية التى استمدها من ثقافة عصره من العلوم المترجمة وغيرها والتى ورثها عن والده وأسلافه «لأنه ينتمى إلى أصل يونانى كما يدل عليه اسمه»[2].

٣- الأساتذة والرواة الذين أخذ عنهم وارتشف من معينهم ولا سيما أبى على الفارسى.

٤- الأعراب الذين اتصل بهم وشافههم كمحمد بن العساف الشجرى وغيره من بنى عقيل.

٥- الأصدقاء من ذوى النباهة والشأن كالمتنبى والشريف الرضى.

٦- الحكام وذوو السلطان كعضد الدولة وسيفها.

فعن نبوغه يقول ياقوت: «كان ابن جنى من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف، وصنف فى ذلك كتبًا أبر بها على المتقدمين وأعجز المتأخرين»[3].

وعن ثقافته الأجنبية نرى من الواضح - بعد أن تكلمنا على ثقافة عصره - أن يكون قد اغترف من بحارها الزاخرة، كما ورث عن قومه الذين ينتمى إليهم أبوه وأسرته بعض هذه الثقافات التى صقلت فكره وعمقته.

ولأن صلاته بأساتذته وغيرهم ممن ذكرنا هامة فى الإفصاح عن ملامح شخصيته ينبغى أن نبينها بشىء من التفصيل حتى يتضح لنا أثرها فى حياته وتبريزه ثم نعقب ذلك ببيان تفاعله مع ما ألم به من ثقافات وهل كان مقلداً أم مجدداً؟

---

(١) المقتطف ص١٥٤ ومقدمة سر الصناعة للمحققين ١/ ٣٢.

(٢) يوميات العقاد ٢/ ٣٣٣.

(٣) انظر نصوصا أخرى فى حديثنا عن الجاهه الأدبى ١٧١ وما بعدها.

أساتذته

أ) أساتذته بوجه عام. ب) أستاذه الأول أبو على الفارسى.

أ - أساتذته بوجه عام

تلقى ابن جنى علوم العربية من لغة وأدب وقراءات وغيرها على كثير من الأساتذة والرواة، منهم أبو العباس أحمد بن محمد الموصلى الشافعى الملقب بالأخفش[١] وأبو سهل أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن زياد القطان[٢] وأبو بكر محمد بن الحسن بن مقسم[٣]، وهو راوية أحمد بن يحيى ثعلب[٤]، وقد استفاد منه ابن جنى أخبار ثعلب وعلمه، ودائمًا يذكره فى مقام النقل عنه يقول مثلا: «قرأت على محمد بن الحسن عن أحمد بن يحيى[٥]، و«أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن عن أحمد بن يحيى»[٦].

وأبو الفرج على بن الحسين بن محمد بن الهيثم الأصفهانى مؤلف كتاب الأغانى[٧]، وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد القرميسينى[٨]، وقد روى ابن جنى

(١) فى بغية الوعاة أنه الأخفش الثانى من الأخفشيين الأحد عشر، وفى كشف الظنون أنه الأخفش الخامس، كان إماما فى النحو فقيها فاضلا عارفا بمذهب الشافعى أقام ببغداد ودرس بجامع المنصور وله كتاب فى تعليل القراءات السبع، البغية ١/ ٣٨٩ والكشف ١/ ٤٤٤.

(٢) الخصائص ٣/ ٢٠١ والمبهج ٢٦، وهو محدث بغداد كان إماما ورعا صواما قواما. سمع الحديث وروى الكثير ومات سنة ٣٥٠هـ. النجوم الزاهرة ٣/ ٣٢٨.

(٣) سر الصناعة ١/ ١٧٧، ١٨٥ وهو أحد القراء بمدينة السلام. كان عالمًا باللغة والشعر والنحو وسمع من ثعلب وكان يجوز القراءة بالشاذ، وقد استتيب بحضرة الفقهاء عند الوزير ابن مقلة بعد أن ثار عليه ابن مجاهد. توفى سنة ٣٥٤ أو ٣٥٥ هـ أو غيرهما وله كتب عدة ذكرها ابن النديم. الفهرست ٤٩، ٥٠ وطبقات القراء ٢/ ١٢٣.

(٤) توفى سنة ٢٩١هـ طبقات الزبيدى ١٥٥، ١٥٦.

(٥) سر الصناعة ١/ ١٧٧.

(٦) الخصائص ١/ ٣٨، ٣/ ٣٠٢.

(٧) سر الصناعة ١/ ٨٤ وهو العلامة النساب الإخبارى الحفظة كان شاعراً جيداً. توفى سنة ٣٥٦ هـ وله مؤلفات أشهرها الأغانى. معجم الأدباء ١٣/ ٩٤- ١٣٦.

(٨) الخصائص ١/ ٧٥ والمحتسب ١/ ٣٥ وغيرهما. نسب إلى قرميسين وهى بلد قرب الدينور =

بطريقه كتاب القراءات للسجستانى يقول: «فأما ما رويناه فى ذلك فكتاب أبى حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستانى[1] - رحمه الله - أخبرنا به أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد القرميسينى عن أبى بكر محمد بن هارون الرويانى[2] عن أبى حاتم[3].

وأبو صالح السليل بن أحمد[4] ومن رواياته عنه: «أخبرنا أبو صالح السليل بن أحمد بن عيسى بن الشيخ قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدى قال: حدثنا الخليل بن أسد النوشجانى قال: حدثنى محمد بن يزيد بن ربان قال: أخبرنا رجل عن حماد الراوية، قال: أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب فى الطنوج قال: وهى الكراريس ثم دفنها فى قصره الأبيض، فلما كان المختار بن أبى عبيد قيل له: إن تحت القصر كنزًا فاحتفره فأخرج تلك الأشعار فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة[5].

وهذه الرواية وأشباهها[6] تدل على تمكن ابن جنى من الرواية عن هؤلاء العلماء.

وهناك أساتذة آخرون قد أخذ عنهم[7]، وربما طغت صلته بأبى على الفارسى عليهم فَنُسُوا، وفى كتب ابن جنى ما يشير إلى هؤلاء الأساتذة الذين استفاد منهم كالأساتذة السابقين.

= وكان أبو إسحاق عالمًا باللغة والآداب والقرآن ثقة صالحا استوطن الموصل وورد بغداد وحدث بها ومات سنة ٣٥٨. تاريخ بغداد جـ٦ ص ١٤- ١٦ وطبقات القراء ١/ ٧ والبغية ٢/ ٩٥.

(١) توفى سنة ٢٥٠ أو ٢٥٥هـ طبقات القراء ١/ ٣٢٠ وطبقات الزبيدى ١٠٠.

(٢) لعله محمد بن هارون الطبرى لأنه روى عن أبى حاتم السجستانى. طبقات الزبيدى ٢/ ٢٧٣.

(٣) المحتسب ١/ ٣٥.

(٤) لم تعرض له كتب التراجم ويرجح د. طلس أنه أحد الأعراب الذين كانوا يفدون إلى الحاضرة وقد أخذ عنه ابن جنى كغيره من فصحاء الأعراب، مجلة المجمع العلمى ٣٠/ ٤٤٧، ٤٤٨.

(٥) الخصائص ١/ ٣٨٧.

(٦) نفسه ١/ ٣٦٠، ٣/ ٢٨٣.

(٧) الخصائص ١/ ٨٠، ٣١٥، ٣٨٦، ٣/ ٣٠٥، والمحتسب ١/ ٣٦، ١٨٩.

ففى الخصائص (باب فى أن العرب أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها)، يقول - عند حديثه عن لطف العربية وتفوقها على اللغات الأخرى -: «ولم نر أحداً من أشياخنا فيها - كأبى حاتم وبندار[1] وأبى على وفلان وفلان - يسوون بينهما ولا يُقَرِّبُونَ بين حاليهما[2] ويذكر فيها أيضًا «وقال بعض مشايخنا رحمه الله»[3].

وفى المنصف يقول - بعد حديث له عن انقلاب ألف التأنيث همزة فى مثل صحراء -: «فتأمل ما ذكرته فإنه لا يجوز فى القياس غيره وهو رأى أبى على وعليه قول أشياخنا المتقدمين»[4] ويقول - فى أول المسألة الثالثة من عويص التصريف: «قال الراجز - أنشدنيه بعض أشياخنا -:

تَسْــمَعُ لِلجِنِّ بِهِ زِيزِيمَا[5]

فهذه النصوص صريحة فى الدلالة على أنه تتلمذ على غير أبى على من الأشياخ وكان ذلك قبل تلمذته له إذ فى أحد هذه النصوص يصفهم بالمتقدمين، ويقول اليمنى الشافعى: إنه أخذ العربية عن الفارسى بعد قراءة على غيره[6].

وقد كان أخذه عنهم - فى الأعم الأغلب - يدور بين الموصل وبغداد وقد تلقى عن بعضهم فى بلاد متفرقة غير تلك أيضًا كما يبدو من قوله فى إجازته

---

(1) يعرف بابن لرة (بالراء أو بالزاى) ويكنى بأبى عمرو. سكن الكرخ ثم خرج منها إلى العراق فظهر هناك فضله وخلط بين المذهبين وكان متقدمًا فى علم اللغة ورواية الشعر. قيل إنه كان يحفظ سبعمائة قصيدة أول كل منها ((بانت سعاد)) وقد عاصر المبرد، وله من الكتب معانى الشعر وجامع اللغة وغيرهما. معجم الأدباء ٧/١٢٨- ١٣٤ والفهرست ١٢٣ إلا أنه سماه منداد بن لزة والبغية ١/ ٤٧٦، ٤٧٧.

(2) ١/ ٢٤٣.

(3) ١/٢٤٧.

(4) ١/ ١٥٧.

(5) ٣/ ١٠٥. والزيزيم: حكاية صوت الجن. القاموس ٤/١٢٩.

(6) إشارة التعيين. مخطوطة دار الكتب برقم ١٦١٢ تاريخ.

لكتبه: «وما صح عنده - أيده الله - وقرأته عليهم بألعراق والموصل والشام وغير هذه البلاد التى أتيتها وأقمت بها مباركًا له فيه منفوعًا به بإذن الله[١].

ب- أستاذه الأول أبو على الفارسى

التعريف به:

هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان الفارسى الفسوى النحوى[٢]، ولد ببلدة فسا من أعمال فارس[٣] سنة ٢٨٨هـ، وقدم إلى بغداد سنة سبع وثلاثمائة[٤]، وكانت فى ذلك الوقت عامرة بالعلم والعلماء الفحول فى اللغة والنحو، فأخذ النحو عن جماعة من أعيان هذا الشأن كأبى إسحاق الزجاج وأبى بكر بن السراج وأبى بكر مبرمان[٥] وأبى بكر الخياط[٦]، وقد نبغ فى علم العربية ولا سيما النحو والصرف بعد أن تخرج على يد أمثال هؤلاء من أربابها فعد من أكابر أئمة النحويين والصرفيين[٧]، ومما يدل على حذقه فى الصرف أنه «حضر يومًا مجلس أبى بكر الخياط أحد أساتذته فأقبل أصحاب أبى بكر عليه يكثرون من مسألته وهو يجيبهم ويقيم الدلائل على ما يقول فلما أنفدوا ما عندهم أقبل أبو على على أكبرهم سنًا وأكبرهم عقلاً وأوسعهم علمًا عند نفسه فقال له: كيف تبنى من سفرجل مثل عنكبوت؟ فأجابه مسرعًا: سفرروت، فحين سمعها قام من مجلسه وصفق بيديه وخرج وهو يقول سفرروت، فأقبل أبو بكر على أصحابه وقال: لا بارك الله فيكم ولا أحسن جزاءكم! خجلاً مما جرى واستحياء[٨].

---

(١) معجم الأدباء ١٢/ ١١١.

(٢) مسالك الأبصار ٤/ ٣٠١، ومعجم الأدباء ٧/ ٢٣٢ والمنتظم ٧/ ١٣٨ ونزهة الألباء ٣٨٧ وغيرها.

(٣) المنتظم ٧/ ١٣٨ ومسالك الأبصار ٤/ ٣٠١، ٣٠٣.

(٤) طبقات ابن قاضى شهبة ١/ ٢٩٥، وفى المنتظم ٧/ ١٣٨ قدم بغداد.

(٥) هو محمد بن على بن إسماعيل العسكرى. ت٣٤٥هـ. معجم الأدباء ١٨/ ٢٥٤-٢٥٧.

(٦) معجم الأدباء ٧/ ٢٣٣ والبغية ١/ ٤٩٧.

(٧) نزهة الألباء ٣٨٧.

(٨) معجم الأدباء ٧/ ٢٣٥ وما بعدها، ١٧/ ١٤٢.

ويعد أبو على من زعمـاء مدرسة القياس - كما سنبـين ذلك فى موضعه - حتى ليقول ابن جنى نقلا عنه: أخطئ فى مـائة مسألة لغوية ولا أخطئ فى واحدة قياسية[1]، وبذلك صار إمام وقته[2]، حتى قال قوم من تلامذته: هو فوق المبرد وأعلم منه[3]، وقد وصفـه ابن فضل الله العمرى بأنه: «رجل خـط بيراعه وحط الصبح عن قناعه وكف الدهر عن قراعه»[4].

بيد أنه كان لا يقول الشعر، حدث علم الـدولة أبو محمد القاسم بن أحمد الأندلسى قال: وجدت فى مسائل نحوية تنسب إلى ابن جنى قال: لم أسمع لأبى على شـعراً قط إلى أن دخل إليـه فى بعض الأيام رجل من الشعـراء فجـرى ذكر الشعر، فقال أبو على: إنى لأغبطكم على قول هذا الشعر فإن خاطرى لا يواتينى على قوله مع تحقيـقى العلوم التى هى مراده فقال له ذلك الرجل: فمـا قلت شيئًا منه؟ قال: ما أعلم أن لى شعراً إلا قولى فى الشيب:

خَضَبْتُ الشَّيْبَ لَمَّا كَانَ عَيْبًا ... وَخَضْبُ الشَّيْبِ أَوْلَى أَنْ يُعَابَا
وَلَمْ أَخْضِبْ مَخَافَةَ هَجْرِ خِلٍّ ... وَلا عَيْبًا خَشِيتُ وَلا عِتَابَا
وَلَكِنَّ المَشِيبَ بَدَا ذَمِيمًا ... فَصَيَّرْتُ الخِضَابَ لَهُ عِقَابَا[5]

وقـد طارت شـهـرة أبى على فى الآفـاق[6] وحظى بتـقـدير الملوك وذوى السلطان فى الأمصار الإسلامية المختلفة، فكان يتنقل هنا وهناك فأقام بحلب عند سيف الدولة بن حمـدان مدة، وكان قدومه عليـه سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة،

---

(١) معـجم الأدباء ٧/ ٢٣٨ والبغـية ١/ ٤٩٧ وفى الخصـائص - نقلاً عنه -: «أخطئ فى خـمسين مسألة فى اللغـة ولا أخطئ فى واحدة من القياس» ج٢ ص٨٨. وقد قدمنا مـا قاله أبو منصور الجواليقى فى شأن أبى على مما يدل على انـتهاجه القياس واتخاذه طريقًا له ودفـعنا عنه ما وجهه من تهمة ضعف الرواية.

(٢) طبقات ابن قاضى شهبة ١/ ٢٩٥.

(٣) المنتظم ٧/ ١٣٨ ومعجم الأدباء ٧/ ٢٣٢ والبغية ١/ ٤٩٦ ونزهة الألباء ٣٨٧.

(٤) مسالك الأبصار ٤/ ٣٠١ .

(٥) معجم الأدباء ٧/ ٢٥١، ٢٥٢ ومسالك الأبصار ٤/ ٣٠٢ .

(٦) المنتظم ٧/ ١٣٨ .

وجرى بينه وبين المتنبى مجالس عنده، ثم انتقل إلى بلاد فارس وصحب عضد الدولة بن بويه[1] وتقدم عنده وعلت منزلته حتى قال عضد الدولة: أنا غلام أبى على الفسوى فى النحو[2]، وقد صنف له كتبًا، ويروى أنه لما صنف له كتاب الإيضاح وحمله إليه استقصره عضد الدولة، وقال له: ما زدت على ما أعرف شيئًا، وإنما يصلح هذا للصبيان، فمضى أبو على وصنف التكملة وحملها إليه، فلما وقف عليها عضد الدولة، قال: غضب الشيخ وجاء بما لا نفهمه نحن ولا هو[3]، ولأبى على مؤلفات كثيرة أحصتها كتب التراجم، وكلها فى غاية الجودة والإبداع منها الإيضاح والحجة والتذكرة والمسائل البغداديات والعسكريات والشيرازيات والبصريات والأغفال والمقصور والممدود وغيرها[4].

وقد تتلمذ على أبى على كثير من طلاب العلم، وبرع منهم حذاق مثل عثمان بن جنى وعلى بن عيسى الربعى وغيرهما[5]، وقد مكث الربعى مع أبى على عشرين سنة فقال له أبو على: ما بقى شىء تحتاج إليه ولو سرت من الشرق إلى الغرب لم تجد أعرف منك بالنحو[6]، وأبقى تلاميذه ذكرًا وأبعدهم صيتًا وأقدرهم على نشر علمه أبو الفتح عثمان بن جنى[7]، وسنبين سبب دوام صحبته له مدة طويلة بلغت أربعين عامًا.

وتوفى أبو على ببغداد يوم الأحد السابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٧٧هـ عن تسع وثمانين سنة ودفن بالشونيزية[8] رحمه الله.

---

(١) طبقات ابن قاضى شهبة ١/ ٢٩٥ ومسالك الأبصار ٤/ ٣٠٢.

(٢) المصادر السابقة.

(٣) معجم الأدباء ٧/ ٢٣٨ والبغية ١/ ٤٩٦ ونزهة الألباء ٣٨٩.

(٤) المصادر السابقة. مثل معجم الأدباء من ص٢٤٠-٢٤٢.

(٥) نزهة الألباء ٣٨٩ وطبقات ابن قاضى شهبة ١/ ٢٩٦ ومسالك الأبصار ٤/ ٣٠٢، والمنتظم ٧/ ١٣٨ ومعجم الأدباء ٧/ ٢٣٤، وإنباه الرواة ١/ ٢٧٣ وغيرها.

(٦) نزهة الألباء ٤١٤ ومعجم الأدباء ١٤/ ٧٨.

(٧) مقدمة سر الصناعة للمحققين ١/ ٣٠.

(٨) المصادر فى رقم (٥).

صلة ابن جنى به وتلمذته عليه:

لقد كان أبو على الفارسى هو فارس الحلبة فى تثقيف ابن جنى وأستاذه الأول والأوحد الذى تجمع كل المصادر التاريخية على تلمذته له[1]، والمطالع لكتب ابن جنى يلاحظ تأثير الأستاذ فى تلميذه، وكثرة نقوله عنه التى بلغت حدا لا يمكن حصره[2]، وسنوضح بعد ذلك أثر الأستاذ فى تلميذه، وهل كان مقلداً أو مجدداً؟ ولعظم هذا الأثر والصحبة التى طالت حتى بلغت الأربعين سنة أخذ المؤرخون والعلماء يبحثون عن الأسباب التى أدت إليها فظهر لهم منها:

١- قصة مرور الأستاذ على تلميذه بجامع الموصل سنة ٣٣٧هـ[3]، يقول ياقوت وغيره: كان السبب فى صحبته له أن أبا على اجتاز بالموصل فمر بالجامع وأبو الفتح فى حلقة يقرئ النحو وهو شاب[4]، فسأله أبو على عن مسألة فى التصريف فقصر فيها، فقال له أبو على: زببت وأنت حصرم، فسأل عنه، فقيل له: هذا أبو على الفارسى فلزمه من يومئذ[5]، وابن خلكان يورد القصة السابقة، غير أنه فى روايته يدعى أن ابن جنى كان يعرف الفارسى قبلها حين قرأ الأدب عليه، يقول: قرأ الأدب على الشيخ أبى على الفارسى المقدم ذكره فى حرف الحاء، وفارقه وقعد للإقراء بالموصل، فاجتاز بها شيخه أبو على فرآه فى حلقته، فسأله . . . إلى آخر القصة[6]، وتبعًا لهذا الاختلاف ولشىء آخر رأينا الاعتراض على القصة من بعض الباحثين، فالدكتور طلس ينقضها ويقول إنها مصنوعة لثلاثة أمور:

---

(١) انظر منها الوفيات ٢/ ٤١٠ وبروكلمان ٢/ ٢٤٤ ومرآة الجنان ٢/ ٤٤٥ والبغية ١/ ٤٩٦.

(٢) انظر مثلا الخصائص ١/ ٣٢١، ٣٥٤، ٣٥٨، ٣٦٥ وغيرها وسر الصناعة المطبوع١/ ١٩٤، ١٩٩ وغيرها والمحتسب ١/ ٦٣، ٦٨، ٧٦ وغيرها والمنصف ١/ ٢٧٣، ٣١٢، ٢/ ١٤٥، ٢٠٠ وغيرها.

(٣) الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٣٣٧هـ واجتيازه بالموصل كان مع معز الدولة حينما هاجم الحمدانيين فى هذه السنة ويبدو أنه كان يصحب آل بويه فى حروبهم، انظر البغية ١/ ٤٩٧ ومقدمة الخصائص ١/ ١٨، ١٩.

(٤) كان يتكلم فى قلب الواو ألفا نحو قام، نزهة الألباء ٤٠٨.

(٥) معجم الأدباء ١٢/ ٩٠، ٩١.

(٦) الوفيات ٢/ ٤١٠.

(أ) رواية ابن خلكان لهـا على شكل آخر، فالأولى تذكـر أنه ما كـان يعرف أبا على لما وقف عليه فى الحلقة، والثانيـة تنص على أنه كان يعرفه، بل تزعم أنه كان تلميذه.

(ب) يذكر ابن جنى فـى كتابه الخـصائص أن أبا على أنشده بـالموصل سنة إحدى وأربعين ونحن نعرف أن ابن جنى قد ولد حول الثلاثين والثلاثمائة، ومعنى هذا أن يكون عمـر ابن جنى فى سنة إحدى وأربعين نحواً من اثنتى عـشرة سنة، وما يُجَوِّز عقل أن إنسانًا له هذا العمر يرحل فى طلب العلم بمثل هذه السن من الموصل إلى بغداد ثم يعود ويحلق حلقة يعلم فيها النحو.

(جـ) جرت عادة المترجـمين من المتقدمين أن يختلقوا قصـصًا وروايات يعللون بها أسبـاب انصراف هذا الطالب إلى ذاك العـالم أو هذا الشيخ، فـيختـرعون لذلك قصصًا ينسجها خـيالهم، وأنا أرى أن قصة الزبيب والحصرم من هذا النوع ابتدعـه مترجمـو ابن جنى ليبينوا سـبب تعلق ابن جنى بالصرف أولا وبشيخه أبى على ثانيا[1].

ويبدو لنا أن هذه القـصة ثابتة، فأغلـب المؤرخين يذكرها، ومهمـا يختلف وجه الرواية فقد حدثت، ولا يصح الحكم عليها بالصنعة لمجرد أن نعلم بأن غيرها مصنوع، بل لابد للحكم بذلك من أدلة يقينية، على أن الأدلة التى ذكرها الدكتور طلس يمكن نقـضها، فـالدليل الأول يمكن معـارضته بالاحـتمـال الذى ذهب إليه الأستاذ النجار حين قال: إنه من المحـتمل أن يكون قد أخذ عنه فى بغداد إذا صح ما رواه ابن خلكان[2]، ومن الجائز أن يكون ابن خلكان لم يتـثبت فى روايته على حين تثبت غـيره ومجرد عدم الـتثبت عنده لا ينفى القصـة، والدليل الثانى الذى يدعى فيه أن سـن ابن جنى تكون عند حدوث القصة أو بعـدها بقليل سنة إحدى وأربعين نحـواً من اثنتى عشـرة سنة، نقـول فى الإجابة عنه: إن هذا مـبنى على

(١) مجلة المجمع العلمى المجلد ٣٠/ ٤٤٩، ٤٥٠.

(٢) مقدمة الخصائص ١/ ١١.

اعتقـاد الدكتور طلس بأن ميلاد ابن جنـى كان حوالى سنة ٣٢٨هـ أو ٣٢٩هـ، إذ يجعل ميـلاده حول الثلاثين والثلاثمائة، وقـد رجحنا فيما سـبق أن يكون ميلاده حوالى سنة ٣٢١هـ أو ٣٢٢هــ فيكون سنه وقت القصـة خمس عـشرة سنة وهى سن مناسبة للقصة وتكون سنه سنة إحدى وأربعين زهاء عشرين سنة، ولا مانع أن يرحل فى طلب العلم فى مثل هذه السن، بل نصه فى كتبه على أن أبا على أنشده بالموصل سنة إحدى وأربعين يدل على أنه كـان فى سن معقولة كالعشـرين مثلا، وهو ما رجحناه فى تاريخ ميلاده سابقًا.

وأما قوله بالاختراع لها بناء على اختراع قصص أخرى فغير مسلّم له لإعواز الدليل اليقينى فى هذا المقام، وقد حدثت بعد لقائهما أسباب أخرى وطدت دعائم الصلة بينهما.

٢- الحب والاعتـزاز المتبـادل بينهمـا، ويمكن فهم ذلك من مـدح ابن جنى لأستاذه كثيرًا، وكتبه تفيض بذلك، وقد ذكرنا بعضه فى حديثنا عن أخلاقه، وقد صاحبه فى أسفاره وتنقله عند الملوك والأمراء كما سنبين ذلك فيما بعد.

٣- اتفاق ابن جنى وأستاذه فى التفكير والمذاهب اللغوية والنحوية والدينية، فقد كانا معتزليين، وكانا على مـذهب الإمام أبى حنيفة - كما سنبين بعد - وكانا بصريين غـير مـتعصـبين، بل تابعا غـير المذهب البصـرى فيمـا يوصل إلى الرأى السديد، وكـانا متوسعين فى القـياس ولا بأس بمخالفة رأى الآخـر حسبمـا تظهر الحجج صواب الرأى[1].

٤- لم يكن أبو على منجبًا للأولاد الذين يقومون على خدمته ويؤنسونه فى وحدته، فاتخـذ من ابن جنى الأنيس الذى يرعى شئونه، ولا سـيما أن ابن جنى كانت له ميول قويـة إلى الاستفادة من علم أستاذه، وقد رأى فيه الـعالم المتبحر، يقول ابن جنى: وكـيف كان لا يكون كذلك وقد أقـام على هذه الطريقة مع جلة أصحابهـا وأعيان شيـوخها سبـعين سنة زائحة علله ساقطة عنه كلفه وجـعله همّه

---

(١) مقدمة سر الصناعة للمحققين ١/ ٣٣، ٣٤.

وسدمه لا يعتاقه عنه ولد ولا يعارضه فيه متجر ولا يسوم به مطلبًا ولا يخدم به رئيسًا إلا بأخرة، وقد حط من أثقاله وألقى عصا ترحاله[1]، وقلت مرة لأبى بكر أحمد بن على الرازى - رحمه الله - وقد أفضنا فى ذكر أبى على ونبل قدره ونباوة محله أحسب أن أبا على قد خطر له، وانتزع من علل هذا العلم ثلث ما وقع لجميع أصحابنا فأصغى أبو بكر إليه، ولم يتبشَّع هذا القول عليه[2] ويقول فى مقدمة المحتسب: «هذا على ما كان عليه من خلو سربه وسروح فكره، وفروده بنفسه وانبتات علائق الهموم عن قلبه يبيت وقواصى نظره محوطة عليه، وأحناء تصوره محوزة إليه، مضجعة مقر جسمه ومجال همته، ومغداه ومراحه مقصوران على حفظ بنيته»[3].

وقد كان أبو على - كما حدث ابن جنى - قويًا فى علمه «فما بقى من آثاره يدل على بصر كبير بالنحو وعلله وأقيسته، وهذا يؤيد ما حكاه ابن جنى عن أستاذه»[4]، وقد ضرب بسهم صائب فى تحصيل العلم حتى صار أوحد زمانه فى علم العربية[5]، وحتى بلغ حدا جعل عضد الدولة بن بويه يفتخر بتلمذته له[6]، وحتى قال عنه بعض تلامذته: هو فوق المبرد وأعلم منه[6]، وكأن أبا الفتح كان بما أوتى من مواهب وملكات وما كان من أستاذه الإمام أبى على الفارسى من غناء قد اقتصر عليه وعلى جهوده، فلم يذكر له من الشيوخ غيره[7]، وكان لكل ذلك أثر كبير فى صلة الأستاذ والتلميذ، فقد كانا كالوالد والولد فى العطف والتربية والتعليم.

---

(١) الخصائص ١/ ٢٧٧.

(٢) نفسه ١/ ٢٠٨.

(٣) المحتسب ١/ ٣٤.

(٤) مجلة المجمع العلمى المجلد ٢٥ ص٧٩.

(٥) مقدمة سر الصناعة للمحققين ١/٢٦، وانظر نزهة الألباء ٣٨٧ والمختصر ٢/ ١٢٤، ١٢٥.

(٦) إنباه الرواة ١/ ٢٧٣ وغيره.

(٧) المقتطف ص١٥٩.

٥- كان ابن جنى فقيرًا على حين كان أستاذه ذا حظ وفير من الثروة والمال لنباهة شأنه وصلاته بالملوك والأمراء الذين كانوا يغدقون عليه العطاء الجزيل، وقد أوضح ابن جنى فاقته فى مقدمة المحتسب والخصائص على ما ذكرناه فى أخلاقه[١].

وقد كانت هذه الدوافع مهيئة للصلة القوية التى ارتبطت وشائجها واستمرت قرابة الأربعين سنة، لا يفارق التلميذ فيها أستاذه حتى مات سنة ٣٧٧هـ[٢]، ولا عجب ما دامت الأواصر على هذا الجانب من المتانة والإحكام، ولكن الأستاذ عبدالله أمين لا يقبل التسليم بمدة الصحبة المذكورة بناء على اعتقاده الخاص فى تاريخ ولادته فيقول: إن امتداد الصحبة أربعين سنة كما يرى بعض المؤلفين «غير مقبول لأن ابن جنى لم يعش إلا اثنتين وستين سنة قضى منها قبل ملازمة شيخه نحو عشرين سنة على الأقل لأن الروايات متضافرة على أنه لازمه بعد أن تصدر للتدريس فى جامع الموصل ولا يمكن أن يتصدر للتدريس فى مسجد جامع قبل سن العشرين، ثم لم يعش بعد شيخه إلا خمس عشرة سنة، فإن الشيخ مات سنة ٣٧٧هـ والتلميذ مات سنة ٣٩٢هـ فيكون قضى من عمره كله نحو خمس وثلاثين سنة قبل معرفة شيخه وبعد افتراقهما بوفاة هذا الشيخ بدون ملازمة له، والباقى من عمره بعد طرح خمس وثلاثين سنة، وهو سبع وعشرون سنة هو الذى يمكن أن يقال: إنه لازمه فيه، وأى شيخ لا ينفد ما عنده فى أقل من نصف هذه المدة؟ وأى طالب يبقى فى حاجة إلى ملازمة شيخه أكثر من نصف هذه المدة؟»[٣].

وهذا التصور مبنى على أن ابن جنى عاش اثنتين وستين سنة، ومعنى هذا أنه ولد سنة ٣٣٠هـ، وهذا على الرغم من تناقضه مع كلامه السابق - وهو أنه ولد قبل سنة ٣٣٠هـ[٤]، - وتناقضه مع قوله - بعد ذلك - يخيل لى أن حاجة أخرى هى التى أطالت هذه الملازمة حتى بلغت ما بلغت هى حاجة الأستاذ إلى

(١) انظر أبو على الفارسى للدكتور شلبى ٣٢٨.

(٢) نزهة الألباء وغيرها ترجمة الفارسى ٣٨٩.

(٣) المقتطف ١٥٩، ١٦٠.

(٤) نفسه ١٥٣.

خدمة تلميذه ليستعين بهذه الخدمة على تأدية رسالته وحاجة التلميذ إلى العيش الرغيد الذى كان شيخه يتمتع به فى بلاط هؤلاء الأمراء»[1]، هذا على الرغم من تناقضه مع أقواله المذكورة لا ينهض دليلاً له فإن حياة ابن جنى كانت أطول من ذلك على ما ذكرنا، وفى أقواله السابقة ما يجعله بلا شعور يعود إلينا ويتفق مع رأينا فى أن الصحبة قد طالت لظروف علمية واجتماعية أوضحناها مفصلة فيما سبق، وقد دامت تلك الصحبة إلى أن مات الأستاذ فخلفه التلميذ فى التدريس ببغداد - رحمهما الله.

صلاته بالأعراب[2]

لم يقتصر ابن جنى على صلاته بأستاذه مصدرًا للثقافة اللغوية وغيرها، بل إنه شافه الأعراب ليتلقى اللغة من منبعها الصافى محاولا بذلك أن «يسلك سنة الأئمة الأولين كالخليل بن أحمد ومن لف لفه فى الأخذ عن الأعراب فى البوادى»[3]، وكان أغلب الأعراب الذين اتصل بهم من عقيل[4]، ويدل لذلك ما ذكره فى مواضع كثيرة يقول: سمعت عامة عقيل تقول ذاك[5]، ورأيت كثيرًا من

(١) المقتطف ١٦٠.

(٢) يراد بالأعراب البدو وتلك خصيصة العرب فى التاريخ القديم ثم خصت بأهل البادية حين تحضرت القبائل، وقال الأزهرى: رجل عربى إذا كان نسبه فى العرب ثابتًا وإن لم يكن فصيحا وجمعه العرب ورجل أعرابى إذا كان بدويا صاحب نجعة وانتواء وارتياد للكلأ وتتبع لمساقط الغيث، فمن نزل البادية أو جاور البادين وظعن بظعنهم وانتوى بانتوائهم فهم أعراب ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها مما ينتمى إلى العرب فهم عرب وإن لم يكونوا فصحاء، وقد حدث هذا التخصيص فى عصور قريبة من ظهور الإسلام أما قبل فلم يكن هناك فرق بل كانت الكلمتان تدلان على سكان البادية فحسب أما سكان المدن والأمصار فكانوا ينسبون إلى قبائلهم أو مناطقهم. تاريخ آداب العرب ١/ ٤٤ وتهذيب اللغة ٢/ ٣٦٠، ٣٦١ وتاريخ اللغات السامية ١٦٤.

(٣) أبو على الفارسى د. شلبى ٣٧٤ ومقدمة الخصائص ١/ ١٥.

(٤) لقرب مساكنهم من الأماكن التى تنقل فيها ابن جنى لأنهم تغلبوا على الجزيرة والموصل وملكوها. صبح الأعشى ١/ ٣٤٢.

(٥) المحتسب ١/ ٨٤.

عـقيل لا أحـصيـهم يحرك من ذلك مـا لا يتحـرك أبدًا[1]، وسألت بعض بنى عقيل[2]، وسمعت سنة خمس وخـمسين غلامًا حدثًا من عقـيل ومعه سيف فى يده، فقـال له بعض الحاضـرين - وكنا مصحـرين -:يا أعرابى سيـفك هذا يقطع البطيخ؟ فـقـال: إى والله وغـوارب الرجـال[3] وسـألت غـلامًا من آل المهـيـا فصيحًا[4].

وكانت صلته قد توطدت بأعرابى عقيلى هو مـحمد بن العساف الشجرى، ولذلك فقد أكثر الحديث معه والنقل عنه يقول: سألت يومًا أبا عبد الله محمد بن العساف العقـيلى الجوثى التميمى - تميم جوثة - فـقلت له: كيف تقول: ضربت أخوك؟ فقال: أقـول ضربت أخاك.. [5] إلخ، أنشدنا مرة أبو عـبد الله الشجرى شعرًا لنفسه[4].

وكان ابن جنى يروى عن الأعراب الـفصحاء ولا يثق بغيـرهم ممن ضعفت سليقتهم العربية، فنراه يورد الأسـئلة لمن يريد الأخذ عنه، فإذا أدرك قوته لم يتردد فى الرواية عنه، وتلقى اللغـة منه، وإذا وجد ضعفـًا فى سليقتـه أبى الأخذ عنه، ولذلك عقد بابًا فى الخصائص بعنوان «باب فى ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر»[6]، ونلاحظ أنه كـان يسأل الشجـرى محـمد بن العسـاف كثـيرًا ليطمئن على فصاحته، ومن أسئلته له: سألت الشجرى يومًا فقلت: يا أبا عبدالله كيف تقول: ضربت أخـاك؟ فقال: كذاك. فقلت: أفتقول ضـربت أخوك. فقال: لا أقول أخـوك أبدًا. قلت: فكيف تقول ضربنى أخـوك. فقال: كـذاك. فقلت: ألست زعـمت أنك لا تقـول أخـوك أبدًا؟. فـقال: أيـش ذا؟ اختلـفت جهـتا

---

(١) نفسه ١/١٦٧.

(٢) الخصائص ٢/ ١١٩.

(٣) المحتسب ١/ ٢١٠.

(٤) الخصائص ١/ ٧٨.

(٥) نفسه ١/ ٧٦.

(٦) الخصائص ٢/ ٥.

الكلام[1]، وقال أيضا: وسألته يوما فقلت له: كيف تجمع دكانا؟ فقال: دكاكين. فقلت: فسرحانًا قال: سراحين. قلت: فقرطانًا: قال قراطين. قلت: فعثمان؟ قال: عثمانون. فقلت له: هلا قلت أيضًا عثامين؟ قال: أيش عثامين؟ أرأيت إنسانًا يتكلم بما ليس من لغته؟ والله لا أقولها أبدًا[2]. وسألت مرة الشجرى أبا عبد الله ومعه ابن عم له دونه فى فصاحته، وكان اسمه غصنًا فقلت لهما: كيف تحقران حمراء فقال: حميراء. قلت: فسوداء؟ قالا: سويداء. وواليت من ذلك أحرفا وهما يجيئان بالصواب ثم دسست فى ذلك علباء، فقال غصن: عليباء وتبعه الشجرى فلما هم بفتح الباء تراجع كالمذعور ثم قال: آه عليبى ورام الضمة فى الياء فكانت تلك عادة له[3].

ويقول فى الباب السابق، وقد كان طرأ علينا أحد من يدعى الفصاحة البدوية ويتباعد عن الضعفة الحضرية، فتلقينا أكثر كلامه بالقبول وميزناه تميزاً حسن فى النفس موقعه إلى أن أنشدنى يومًا شعراً لنفسه يقول فى بعض قوافيه: أشأؤها وأدأوها بوزن أشععها وأدععها، فجمع بين الهمزتين واستأنف من ذلك ما لا أصل له ولا قياس يسوغه... وما كانت هذه سبيله وجب اطراحه والتوقف عن لغة من أورده، وأنشدنى شعراً لنفسه يقول فيه: كأن فاى، فقوى فى نفسى بذلك بعده عن الفصاحة وضعفه الذى ركبه[4].. فينبغى أن يستوحش من الأخذ عن كل أحد إلا أن تقوى لغته وتشيع فصاحته[5]، ولذلك أيضًا جعل من أبواب خصائصه فصلاً لأغلاط الأعراب إذ تهجم بهم طباعهم لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها، ولا قوانين يعتصمون بها، فربما استهواهم الشىء فزاغوا به عن

---

(١) نفسه ١/ ٧٦، ٢٥٠.

(٢) نفسه ١/ ٢٤٢.

(٣) نفسه ٢/ ٢٦ وانظر ١/ ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢.

(٤) نفسه ٢/ ٥- ٧.

(٥) نفسه ٢/ ٩.

القصد[1]، وهو بهذا الحديث الواضح يبين مبدأه فى الأخذ عن الأعراب، وهو اشتراط الفصاحة، ويوصى علماء اللغة والحريصين عليها من رواتها وعلمائها باتباعه فى ذلك، ولا ريب أن كلامه هذا فى درجة من القوة والصواب جد كبيرة.

ومن تلك النصوص أدركنا - بوضوح - صلاته بالأعراب وأخذه عنهم حتى يمسك بزمام اللغة التى شغف بها ووقف بحوثه على أسرارها.

أصدقاؤه

١- المتنبى[2]

عرف ابن جنى المتنبى فى بلاط الملوك والأمراء الذين اتصل بهم، فالمعروف أن هؤلاء الحكام - كما سبق - كانوا يشجعون العلم والأدب ويقربون رجالاتها فى هذا العصر الذى ازدهرت فيه المعارف بشتى ألوانها، وقد التقى ابن جنى بشاعر العربية فى بلاط سيف الدولة الحمدانى فى الشام بحلب، وعضد الدولة البويهى فى بلاد فارس بشيراز، وكان الشاعر الطموح يتنقل هنا وهناك أملاً فى تحقيق مآربه الكبيرة عند هذا الحاكم أو ذاك، وكان ابن جنى يتنقل مع أستاذه المقرب لدى الرؤساء حتى أصبح له هو الآخر شأو كبير عندهم فقربوه لديهم.

وقد توطدت العلاقة بين العالم العبقرى والشاعر العملاق لأنهما يملكان زمام اللغة، ولذا نجد ابن جنى يشتد فى تعلقه بالشاعر ويبادله الشاعر نفس الأحاسيس فتكون لهما لقاءات متعددة ومناقشات لغوية متكررة، حدث أبو الحسن الطرائفى قال: كان أبو الفتح عثمان بن جنى يحضر بحلب عند المتنبى كثيراً

(١) نفسه ٣/ ٢٧٣ وهذا من استعمالات غير المثقفين من الأعراب. العربية ليوهان فك ١٦١.

(٢) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندى، ولد سنة ٣٠٣هـ فى الكوفة بمحلة تسمى كندة فنسب إليها، وليس هو من كندة التى هى قبيلة بل هو جعفى القبيلة - بضم الجيم وسكون العين - ويقال: إن أبا المتنبى كان سقاء، واتصل بسيف الدولة سنة ٣٣٧هـ، ثم فارقه إلى مصر سنة ٣٤٦هـ فمدح كافورا الأخشيدى ثم هجاه وفارقه سنة ٣٥٠هـ وقصد عضد الدولة ببلاد فارس ومدحه ثم رجع قاصداً الكوفة فقتل بقرب النعمانية وهى من الجانب الغربى من سواد بغداد سنة ٣٥٤هـ المختصر ٢/ ١٠٤، ١٠٥.

ويناظره فى شىء من النحو[1]، وكان ابن جنى لا يخفى إعجابه بالمتنبى وكان أستاذه لا يعبأ به أول الأمر فاستطاع اجتذابه إلى حبه وتقديره، ففى الصبح المنبى: وكان لابن جنى هوى فى أبى الطيب كثير الإعجاب بشعره لا يبالى بأحد يذمه أو يحط منه، وكان يسوءه إطناب أبى على فى ذمه فاتفق أن التقيا يومًا بشيراز، وكان المتنبى هناك، فقال أبو على: اذكروا لنا بيتًا من الشعر نبحث فيه فبدأ ابن جنى وأنشد:

حُلْتِ دُونَ المزارِ فَاليَوْمَ لوزُرْ ... تِ لحَالَ النُّحُولُ دُونَ العِنَاقِ

فاستحسنه أبو على واستعاده وقال: لمن هذا البيت؟ فقال ابن جنى: للذى يقول:

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيلِ يَشْفَعُ لِى ... وَأَنْثَنِى وبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِى بِى

فقال: والله هذا أحسن! بديع جدًا فلمن هما؟ قال: للذى يقول:

أَمْضَى إرَادَتَهُ فَسَوْفَ لَهُ قَدٌ ... واسْتَقْرَبَ الأَقْصَى فثَمَّ لَهُ هُنَا

فكثر إعجاب أبى على واستغرب معناه، وقال: لمن هذا؟ فقال ابن جنى: للذى يقول:

وَوَضْعُ النَّدَى فِى مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلا ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِى مَوْضِعِ النَّدَى

فقال: وهذا أحسن، والله لقد أطلت يا أبا الفتح فأخبرنا من القائل؟ فقال: هو الذى لا يزال الشيخ يستثقله ويستقبح زيه وفعله وما علينا من القشور إذا استقام اللب، قال أبو على: أظنك تعنى المتنبى؟ قلت: نعم. قال: والله لقد حببته إلى ونهض ودخل على عضد الدولة فأطال فى الثناء على أبى الطيب ولما اجتاز به استنزله واستنشده وكتب عنه أبياتًا من الشعر[2].

---

(١) المعجم ١٢/٨٩ والبغية ٣١٢ ودائرة المعارف ١٢٢، ١٢٣.

(٢) الصبح المنبى ١٦١، ١٦٢.

والظاهر أن ابن جنى بهذا السلوك اللبق المستحب استطاع أن يحول شعور أستاذه فانقاد معه إلى الإعجاب بالمتنبى، يذكر الثعالبى أن ابن جنى قال: أنشدت أبا على ليلا قصيدة أبى الطيب التى أولها:

وَاحَـرَّ قَلْبَـاهُ مِـمَّنْ قَلْبُـهُ شَـبِمُ

فلما وصلت إلى قوله:

وَشَـرُّ مَـا قَنَصَـتْـهُ رَاحَـتِـى قَنَصٌ   شُـهْبُ البُـزَاةِ سَواءٌ فِـيـهِ وَالرَّخَمُ

أعجب به جدا ولم يزل يستعيده حتى حفظه[1]، ويقول: ولقد ذاكرت شيخنا أبا على الحسن بن أحمد الفارسى بمدينة للسلم ليلا وقد أخلينا فأخذ يقرظه ويفضله[2]، وقد بلغ من إعجاب ابن جنى به أنه يستشهد بشعره فى المعانى فى مؤلفاته ويمدحه ويخصه باسم شاعرنا والمواضع كثيرة[3]، ومن ذلك ما ذكره عند الاحتجاج لقراءة ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ... ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعام] بفتح الباء، يقول: وقد مر به لفظًا شاعرنا فقال:

وَإِنَّا إِذَا مَـا المَوْتُ صَـرَّحَ فِـى الوَغَى   لَبِـسْنَا إِلَى حَاجَـاتِنَا الضَّـرْبَ وَالطَّعْنَا

ثم يقول: ولا تقل ما يقوله من ضعفت نحيزته وركت طريقته: هذا شاعر محدث وبالأمس كان معنا، فكيف يجوز أن يحتج به فى كتاب الله (جل وعزّ)؟، فإن المعانى لا يرفعها تقدم ولا يزرى بها تأخر، فأما الألفاظ فلعمرى إن هذا الموضع معتبر فيها، وأما المعانى ففائتة بأنفسها إلى مغرسها وإذا جاز لأبى العباس أن يحتج بأبى تمام فى اللغة كان الاحتجاج فى المعانى بالمولد الآخر أشبه[4]، ويقول فى استعمال القول مكان الكلام مجازًا: وامتثله شاعرنا آخرًا فقال:

---

(١) يتيمة الدهر ١/ ٩٧.

(٢) شرح ديوان المتنبى المخطوط نسخة دار الكتب ٢٣ أدب. الورقة ٢، و«مدينة للسلم» كذا فى المخطوط، ولعله تحريف من النساخ والأصل: بمدينة السلم أو السلام.

(٣) انظر مثلا المحتسب ١/ ٤١، ٢٣١، ٢/ ١٩، ١٣٠، ٢٠١ والخصائص ١/ ٢٤، ٢/ ٤٠٣، ٣/ ٢٤١.

(٤) المحتسب ١/ ٢٣١.

فَلَوْ قَـدَرَ السِّنَانُ عَلَى لِسَانٍ   لَقَالَ لَكَ السِّنَانُ كَمَا أَقُولُ

وقال أيضًا:

لَوْ تَعْقِلُ الشَّجَرُ الَّتِي قَابَلْتَهَا   مَدَّتْ مُحَيِّيَةً إِلَيْكَ الأَغْصُنَا

ولا تستنكر ذكر هذا الرجل - وإن كان مولدًا - فى أثناء ما نحن عليه من هذا الموضع وغموضه، ولطف متسربه فإن المعانى يتناهبها المولدون كما يتناهبها المتقدمون، وقد كان أبو العباس - وهو الكثير التعقب لجلة الناس - احتجّ بشىء من شعر حبيب بن أوس الطائى فى كتابه فى الاشتقاق لما كان غرضه فيه معناه دون لفظه، فأنشد فيه له:

لَوْ رَأَيْنَا التَّوْكِيدَ خُطَّةَ عَجْزٍ   مَا شَفَعْنَا الأَذَانَ بِالتَّثْوِيبِ

وإياك والحنبلية بحثًا فإنها خلق ذميم ومطعم - على علاته - وخيم[(١)]، ويمتدحه قائلاً: وحدثنى المتنبى شاعرنا - وما عرفته إلا صادقًا - قال: كنت عند منصرفى من مصر فى جماعة من العرب وأحدهم يتحدث . . . إلخ[(٢)]، ويقول: «تأثل بينى وبينه من وكيد المودة ومستحصد الشبكة، وإننى لم أر شاعرًا كان فى معناه، ولا مجربًا إلى مداه، ولقد كان من الجد فيما يعانيه ولزوم أهل العلم فيما يقوله ويحكيه على أسد وتيرة، وأحسن سيرة. . وحقًا أقول: لقد شاهدته على خلق قلما تكامل إلا لعالم موفق. . ولو لم يكن له من الفضيلة إلا قول أبى على فيه لكفاه»[(٣)]. ثم نفى عنه ما عابه عليه حساده والحاقدون عليه، وقال: وصدق لله دره فى قوله:

فَإِذَا خَفِيتُ عَلَى الغَبِيِّ فَعَاذِرٌ   أَلَّا تَرَانِى مُقْلَةٌ عَمْيَاءُ

وقوله:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضًا   يَجِدْ مُرًّا بِهِ المَاءَ الزُّلالا

(١) الخصائص ١/ ٢٢، ٢٥.

(٢) نفسه ١/ ٢٣٩.

(٣) شرح ديوان المتنبى مخطوطة دار الكتب ٢٣، أدب الورقة ٢.

وقوله:

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِى مِنْ نَاقِصٍ فَهِىَ الشَّهَادَةُ لِى بِأَنِّى كَامِلُ

وما لهذا الرجل الفاضل عيب عند هؤلاء السقطة الجهال وذوى النذلة والسفال، إلا أنه متأخر محدث وهل هذا - لو عقلوا - إلا فضيلة له ومنبهة عليه؟[1].

وكان - كذلك - المتنبى معجبًا بابن جنى معتدًا بصداقته فكان يقول عنه: «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس»[2]، وكان - كذلك - يقول: ابن جنى أعرف بشعرى منى[3]، وكان إذا سئل عن شىء من شعره أحال السائل على ابن جنى، فقد ورد أن شخصًا سأله عن قوله:

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا

فقال: كيف أثبت الألف فى تصبرا مع وجود لم الجازمة وكان من حقه أن تقول: لم تصبر؟ فقال المتنبى: لو كان أبو الفتح هنا لأجابك[4]، وسئل المتنبى بشيراز عن قوله:

وَكَانَ ابْنَا عَدُوٍّ كَاثَرَاهُ لَهُ يَاءَىْ حُرُوفِ أُنَيْسِيَانِ

فقال: لو كان صديقنا أبو الفتح حاضرًا لفسره[5].

وقد شرح ابن جنى ديوان المتنبى ونبه على معانيه وإعرابه[6]، وهذا الشرح نوعان أحدهما صغير وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣ أدب،

---

(١) نفسه ورقة ٣.

(٢) المعجم ١٢/ ٨٩.

(٣) الشذرات ٣/ ١٤١.

(٤) الوفيات ٢/ ٤١٢.

(٥) المعجم ١٢/ ٨٩.

(٦) اليتيمة ١/ ٨٩ والشذرات ٣/ ١٤٠.

والآخر كبير ومنه نسخ فى بعض مكتبات العالم[1]، والأول سماه بيان معانى أبيات المتنبى والثانى سماه الفسر[2] - على ما سيأتى بيان ذلك فى مؤلفاته -، وقد اختلف المؤرخون فى قراءة ابن جنى ديوان المتنبى عليه، فيذكر ياقوت والسيوطى أن ابن جنى لم يقرأ عليه شيئًا من شعره أنفة وإكبارًا لنفسه[3]، ويذكر ابن خلكان وابن العماد وابن قاضى شهبة أنه قد قرأ الديوان على صاحبه[4]، وقد أيد الرأى الثانى بعض الباحثين المحدثين فقالوا: والصواب أنه قرأه عليه كما يقول ابن خلكان، وكما قال هو نفسه فى شرحه ديوان المتنبى، وإن ابن جنى فى علمه وحرصه لا يفوته مثل ذلك ولا تأخذه العزة فيقع فى مثل هذا التقصير. قال أبو الفتح: كنت قرأت ديوان أبى الطيب عليه فقرأت عليه قوله فى كافور القصيدة التى أولها:

أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ والشَّوْقُ أَغْلَبُ ... وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الهَجْرِ وَالوَصْلُ أَعْجَبُ

حتى بلغت إلى قوله:

أَلا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً ... وَلا أَشْتَكِى فِيهَا وَلا أَتَعَتَّبُ

وَبِى مَا يَذُودُ الشِّعْرُ عَنِّى أَقَلُّه ... ولكِنَّ قَلْبِى يَا ابْنَةَ القَوْمِ قُلَّبُ

فقلت له: يعز على كيف يكون هذا الشعر فى ممدوح غير سيف الدولة؟ فقال: حذرناه وأنذرناه فما نفع، ألست القائل فيه:

أَخَا الجُودِ أَعْطِ الجُودَ مَا أَنْتَ مَالِكٌ ... وَلا تُعْطِيَنَّ النَّاسَ مَا أَنَا قَائِلُ

فهو الذى أعطانى كافورًا بسوء تدبيره وقلة تمييزه، وقال فى موضع آخر وهو يرد على من يعيبون أبا الطيب: على أننى سأذكر ذلك منثورًا فى أماكنه بحسب ما يوفق الله جلت عظمته له وأذكر ما شجر بينى وبينه من المباحثة وقت قراءتى

---

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢/٨٨، ٨٩.

(٢) الفهرست ١٢٨.

(٣) المعجم ١٢/ ٨٩ والبغية ٣٢٢.

(٤) الوفيات ٢/٤١٢ والشذرات ٣/ ١٤١ وطبقات النحاة ٢/١٢٣.

ديوانه عليه. إلى سوى ذلك[1]، وقد بدا لى من مطالعة الديوان ما يؤكد القراءة عليه فعند قول أبى الطيب:

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِى ... وأَنْثَنِى وبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِى بِى[2]

قال ابن جنى: هذا معنى حسن بلفظ شريف.وحدثنى المتنبى وقت القراءة عليه قال: . . . إلخ[3]، وعند قوله:

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَى مَطَاسِمُهُ ... بِأَنْ تُسْعَدا وَالدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ[4]

قال: كلمته عند القراءة فى إعراب هذا البيت فقلت له الباء فى (بأن) بأى شيء تتعلق؟ فقال: بالمصدر. . . إلخ[4].

وهناك أبيات أخرى يذكر ابن جنى أنه سأل أبا الطيب عن معناها أو إعرابها وحواره معه[5].

فقراءة ابن جنى ديوان أبى الطيب عليه هو الصواب، الذى لا محيد عنه كما هو واضح من نص كلامه، يضاف إلى ذلك ما عرفناه من حرية ابن جنى فى البحث ومرونته التى تجعله يتلقى العلم من شتى المصادر ما دامت موصلة إلى المراد دون تعصب لفئة، وسيتبين ذلك من حديثنا عن تقليده وتجديده.

وقد صحب ابن جنى أبا الطيب دهرًا طويلاً[6]، إلى أن مات فرثاه بقصيدة طويلة ذكرها ياقوت[7]، وذكر منها صاحب الإنباه واحدًا وعشرين

---

(١) شذرات الذهب ٣/ ١٥ وانظر شرح ديوان المتنبى لابن جنى لوحة ٤ والمقتطف ص١٥٥، ١٥٦ ومقدمة سر الصناعة ٣٦، ٣٧ ومجلة المجمع العلمى ٣٠/ ٤٥٣.

(٢) من قصيدة يمدح بها كافورا سنة ٣٤٦هـ لوحة ٦٢ وما بعدها.

(٣) لوحة ٦٣ وانظر اليتيمة ط حجازى ١/ ١٣٧.

(٤) مطلع قصيدة يمدح بها سيف الدولة. لوحة ٢٦٧.

(٥) انظر لوحات ٨٩، ٢٠٦، ٢٣٤، ٢٦٨ .

(٦) اليتيمة ١/ ٨٩.

(٧) المعجم ١٢/ ٨٦-٨٩.

بيتًا[١]، ولم يذكرها ابن خلكان لطولها[٢]، ومطلعها:

غَاضَ القَرِيضُ وَأَذْوَتْ نُضْرَةُ الأَدَبِ   وَصَوَّحَتْ بَعْدَ رِيٍّ دَوْحَةُ الأَدَبِ[٣]

٢- الشريف الرضى[٤]

صادق أبو الفتح الشريف الرضى حينما كان مقيمًا ببغداد، ويظهر أن مجال الأدب كان فاتحًا لهذه الصلة وموطدًا لها بحيث كان ابن جنى يسمع شعر الشريف، وربما أعجب به لكرم محتده الذى يتصل بالحسين بن على رضى الله عنهما، ولتبحره فى العلوم وما كان عليه من ثقافة مكينة وتمسكه فى شعره بطريقة الأقدمين يحافظ على أساليبهم ومعانيهم[٥]، ومما يدلنا على ذلك أن أبا الفتح شرح أربع قصائد من شعر الشريف فى كتاب سماه تفسير العلويات كل واحدة فى مجلد، ويذكر ياقوت ثلاثا منها وهى قصيدته التى رثى بها أبا طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة[٦]، وأولها:

أَلْقِ الرِّمَاحَ رَبِيعَةَ بنَ نِزَارِ   أَوْدَى الرَّدَى بِقَرِيعِكَ المِغْوَارِ

وقصيدته التى رثى بها الصاحب بن عباد[٧]، وأولها:

أَكَذَا المَنُونُ تُقَطِّرُ الأَبْطَالا   أَكَذَا الزَّمَانُ يُضَعْضِعُ الأَجْبَالا

(١) الإنباه ٢/ ٣٣٨، ٣٣٩.

(٢) الوفيات ٢/ ٤١١.

(٣) معجم الأدباء ١٢/ ٨٦- ٨٩ وإنباه الرواة ٢/٣٣٨، ٣٣٩.

(٤) هو أبو الحسن محمد بن أبى أحمد الحسين الطاهر الملقب بذى المناقب يتصل نسبه بالإمام الحسين ابن على رضى الله عنهما، ولد ببغداد سنة ٣٥٩هـ وتثقف فيها حتى تعمق فى علوم القرآن واللغة والنحو وابتدأ قول الشعر بعد أن جاوز عشر سنين بقليل حتى نبغ فيه وتمسك بطريقه القدامى ويعده بعضهم أشعر القرشيين وكان ذا هيبة وجلالة وانتقلت إليه نقابة الأشراف فى حياة أبيه وتولى معها إمارة الحج والمظالم، وتوفى ببغداد أيضًا يوم الأحد ٦ من المحرم وقيل من صفر ٤٠٦ هـ. الوفيات ٤/ ٤٤- ٤٨.

(٥) مقدمة ديوان الشريف ١/٦.

(٦) قتل فى المحرم ٣٨٢هـ.

(٧) توفى ٣٨٥هـ.

وقصيدته التى رثى بها الصابى[1]، وأولها:

أَعَلِمْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الأَعْوَادِ ... أرأيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النَّادِى[2]

والرابعة هى القصيدة الرائية للشريف الرضى.

وقد شكره الشريف على هذا الشرح ومدحه بقصيدة أولها:

أُرَاقِبُ مِنْ طَيْفِ الحَبِيبِ خَيَالا ... ويَأبَى خَيَالٌ أَنْ يَزُورَ خَيَالا

والقصيدة تبلغ خمسة وثلاثين بيتًا أشاد فيها الشاعر بمناقب أبى الفتح وعلمه فهو يقول:

فِدًى لأبِى الفَتْحِ الأَفَاضِلُ إنَّهُ ... يَكِرُّ عَلَيْهِمْ إنْ أَرَمَّ وَقَالا

إذَا جَرَتِ الآدَابُ جَاء أمَامَهَا ... قَرِيعًا وَجَاءَ الطَّالِبُونَ إفَالا

فَتًى مُسْتَعَادُ القَوْلِ حُسْنًا ولَمْ يَكُنْ ... يَقُولُ مُحَالا أوْ يُحِيلُ مَقَالا

لِيَقْرِىَ أَسْمَاعَ الرِّجَالِ فَصَاحَةً ... ويُورِدَ أَفْهَامَ العُقُولِ زُلالا

ويُجْرِى لَنَا عَذْبًا نَمِيراً وبَعْضُهُمْ ... إذَا قَالَ أَجْرَى لِلْمَسَامِعِ آلا

أَسَفُّهُمُ إنْ مَيَّزَ القَوْمَ خَلَّةً ... وأَثْقَبُهُمْ يَوْمَ الجِدَالِ نِصَالا

ثم يسدى إليه الشكر على شرحه فيقول:

ولَمَّا رَأَيْتُ الوَفْرَ دُونَ مَحَلِّهِ ... جَزَاءً وَقَدْ أَسْدَى يَدًا وأَنَالا

بَعَثْتُ لَهُ وَفْراً مِنَ الشِّعْرِ بَاقِيًا ... وَكَنْزًا مِنَ الحَمْدِ الجَزِيلِ ومَالا

ويختم قصيدته بالإشارة إلى رغبته فى أن يشرح أبو الفتح بقية ديوانه على ما صنع بديوان أبى الطيب المتنبى فيقول:

فَسِمْ آخَراً مِنْهُ كَوَسْمِكَ أَوَّلا ... وشُنَّ عَلَيْهِ رَوْنَقًا وَجَمَالا

وَمِثْلُكَ إنْ أوْلَى الجَمِيلَ أَتَمَّهُ ... وإنْ بَدَأَ الإحْسَانَ زَادَ وَوَالَى[3]

---

(١) توفى فى شوال ٣٨٤هـ. (٢) المعجم ١٢/ ١١٢ وانظر هذه القصائد فى ديوان الشريف على الترتيب صحائف ١/ ٤٩٠، ٤٩٤، ٢/ ٢٠١- ٢٠٩ وفيها تقنطر بدل تقطر، ٢/ ٣٨١-٣٨٦ . (٣) ديوان الشريف ٢/ ١٦٦- ١٦٨ .

وعلى الرغم من هذه الإشارة الصريحة فإن أبا الفتح لم يفعل.

وقد كان الشريف صديقًا لأبى الفتح وتلميذًا له، ويقول الأستاذ ميتس Mez إنه خرجه فى الشعر على طريقة أبى الطيب[1]، ولكن الدكتور طلس يرى أن ميتس يغالى فى نظريته فإن شعر أبى الطيب فى واد وشعر الشريف فى واد، ولو كان الشريف يعجبه شعر أبى الطيب[1]، ويبدو لنا أن الشريف كان يقتبس من نصائح ابن جنى له وتوجيهاته الشعرية على ضوء طريقة المتنبى فى الشعر لأنه كان غاديًا رائحًا مع المتنبى يدرك اتجاهاته الشعرية وطريقة علاجه للشعر وأسلوبه فيه، فلا غرو أن يكون الشريف قد استفاد من ابن جنى وهو المدرس الناجح والعالم اللغوى والناقد الأديب القدير على فهم مرامى الشعر وأهدافه، ولا يقتضى ذلك أن يأخذ الشريف نفس طريقة المتنبى وأسلوبه بذاته بل إن لكل شخص مقومات معينة تترك فى صاحبها أثرًا.

والخلاصة أنه استفاد بعلم أستاذه وصلته بالمتنبى وقد كانت الصداقة بين ابن جنى والشريف وطيدة، وكانا متوافقين إلى حد التفاهم الكامل الذى يجلب السرور ويدعو إلى تكرر اللقاء والخروج إلى أماكن الترفيه العامة وتجاذب أطراف الحديث، فقد حدثوا أنه كان يومًا فى زبزب[2] مع الرضى والمرتضى[3] العلويين، وكان على بن عيسى الربعى زميل ابن جنى فى التلمذة على أبى على الفارسى يمشى حينئذ على شاطئ النهر، فلما رآهم قال للعلويين: من أعجب أحوال الشريفين أن يكون عثمان جالسًا معهما فى الزبزب وعلى يمشى على الشط بعيدًا عنهما، وفى رواية أنه قال: يا مرتضى ما أحسن هذا التشيع، علىّ تتقلى كبده فى الشمس من شدة الحر وعثمان عندك فى الظل تحت المنكدر لئلا تصيبه الشمس، فقال المرتضى للملاح جد وأسرع قبل أن يسبنا[4].

(١) من مجلة المجمع العلمى ٣٠/٣٥٦ نقلا عن كتاب الأستاذ ميتس عن ابن جنى بالألمانية.

(٢) الزبزب نوع من السفن.

(٣) ولد ٣٥٥هـ ومات ٤٣٦هـ البغية ٢/١٦٢.

(٤) نزهة الألباء ٤١٦.

فهذه القصة تدل على الحب المتبادل بين الشريفين وابن جنى إلى حد أنهما كانا يؤثرانه بصحبتهما وقضاء وقت الراحة معهما، كما تدل على خلق ابن جنى الكريم بخلاف على بن عيسى الذى عرف عنه جفاء الخلق وجفوة الطبع، وقد ظلت صلة ابن جنى بالشريف إلى أن توفى ابن جنى فحزن عليه الرضى حزنًا بالغًا ورثاه بقصيدة من عيون شعره ذكر فيها الفقيد بالبلاغة والعلم والخلق، ومطلعها:

أَلا يَالَقَومِ لِلخُطُوبِ الطَّوَارِقِ ... وَلِلعَظْمِ يُرْمَى كُلَّ يَوْمٍ بِعَارِقِ[1]

وللدَّهْرِ يُعْرِى جَانِبِى مِنْ أَقَارِبِى ... وَيَقْطَعُ مَا بَيْنِى وَبَيْنَ الأَصَادِقِ

وهكذا يستمر فى وصف أحداث الدنيا والموت وما فعله - ويفعله - بالأحبة وذوى الشأن من الناس ثم يبكى صديقه أبا الفتح بكاء حارًا فيقول:

لِتَبْكِ أَبَا الفَتْحِ العُيُونُ بِدَمْعِهَا ... وَأَلْسُنُنَا مِنْ بَعْدِهَا بِالمَنَاطِقِ

إِذَا هَبَّ مِنْ تِلْكَ الغَلِيلُ بِدَامِعٍ ... تَسَرَّعَ مِنْ هَذِى الغَرَامُ بِنَاطِقِ

شَقِيقِى إِذَا التَاثَ الشَّقِيقُ وَأَعْرَضَتْ ... خَلائِقُ قَوْمِى جَانِبًا عَنْ خَلائِقِى

ثم يذكر شيئًا من صفاته العلمية والخلقية فيقول:

فَمَنْ لأَوَابِى القَوْلِ يَبْلُو عِرَاكَهَا ... وَيَحْذِفُهَا حَذْفَ النِّبَالِ المَوَارِقِ

....

وَمَنْ لِلمَعَانِى فِى الأَكِمَّةِ أُلْقِيَتْ ... إِلَى بَاقِرٍ غَيْبَ المَعَانِى وَفَاتِقِ

يُطَوِّحُ فِى أَثْنَائِهَا بِضَمِيرِهِ ... مَرِيرُ القُوَى وَلاجُ تِلْكَ المَضَايِقِ

تَسَنَّمَ أَعْلَى طَوْدِهَا غَيْرَ عَاثِرٍ ... وَجَاوَزَ أَقْصَى دَحْضِهَا غَيْرَ زَالِقِ

طَوَى مِنْهُ بَطْنُ الأَرْضِ مَا تَسْتَعِيدُهُ ... عَلَى الدَّهْرِ مَنْشُوراً بُطُونُ المَهَارِقِ[2]

---

(١) عرق العظم أخذ ما عليه من اللحم، يريد أن الحوادث تنزل بالمرء فتجرده من أحبابه وماله.

(٢) المهارق الصحارى، واحدها مهرق وهو معرب ويقصد الشاعر بالبيت ذيوع صيته وانتشاره فى الدنيا.

مَـــضَـى طَيِّبَ الأَرْدَانِ يَـأرَجُ ذِكْــرُهُ أَرِيجَ الصَّبَـا تَـنْدَى لِعِـرْنِينِ[1] نَاشِقِ
كَـأَنَّ جَـمِـيعَ النَّاسِ أَثْنَوْا عَــشِيَّــةً عَلَـى بَعْضِ أَمْـطَارِ الرَّبِـيعِ المُفَـــارِقِ

....

وَمَـا احْـتَـاجَ بُرْدًا غَـيْــرَ بُرْدِ عَـفَـافِـهِ وَلا عَـرْفَ طِيبٍ غَـيْــرَ تِلْكَ الخَـلائِقِ

ثم يشير إلى عهد الأخوة وحزنه على الفراق بأبيات منها:

أَخٌ لَكَ أَمْــسَى وَاجِــدًا بِـكَ وَجْــدُهُ طَوَالَ اللَّيَـالِى بِـالشَّـبَـابِ الغُـرَانِقِ[2]
فَمَـا العَهْـدُ مِنِّى - إِنْ لَهَوْتُ - بِثَـابِتٍ وَلا الوُدُّ مِنِّى -إِنْ سَلَوْتُ- بِصَادِقِ[3]

وترى من أبيات القصيـدة الصداقة الوطيدة الوشائج كأنها الأخوة الـشقيقة، وقد كان لابن جنى أصـدقاء آخرون إلا أن هذين الصديقين المتنبـى والشريف هما من الشهرة بحيث اقتضانا الأمر إفرادهما بالحديث.

صلاته بالحكام

لقد حظى ابن جنى بصحبة الملوك والأمراء والعيش الرغيد فى جوارهم لأن أستاذه أبا على كـان على صلات وثيقة بهم وكـان مبجلاً عندهم وألف لهم كـتبه كالإيضاح والتكملة، وقال عضد الدولة - مفتخرًا - أنا غلام أبى على فى النحو، وقد تنقل أبو على بين ملك البويهيين فى بغـداد وفارس والحمدانيين فى الشام[4]، وكان تلامذته يتـنقلون معه ويتلقون عنه العلم فى كل مكان يحـل فيه، وابن جنى يوضح ذلك فى ثنايا كـتبه ويبين المناقـشات التى كانت تدور بينه وبين أسـتاذه فى بلاط هؤلاء الملوك والأمراء، يقـول مثلا: من ذلـك ما أنشدناه أبو على - رحـمه الله - من قول الشاعر:

---

(١) الأنف.

(٢) الحسن الناضر.

(٣) ديوان الشريف ٢/ ٦٣- ٦٧.

(٤) المختصر ٢/ ١٢٤، ١٢٥.

أنَا أبُـو المُنَهَـالِ بَعْضَ الأحـيـان لَيْسَ عَلَيَّ حَسَبِى بِضُـؤْلان

أنشدنيه - رحـمه الله - ونحن فى دار الملك وسألنى عمـا يتعلق به الظرف الذى هو (بعض الأحيـان) فخضنا فـيه إلى أن بَرَدَ فى اليد من جـهته أنه يحـتمل أمرين: إلخ[1]، ودار الملك التى يتـحدث عنها هـى بلاط البويهيـين فى بغداد أو فارس، ويقول: قرأت هذه الأرجوزة - يقصد أرجوزة أبى نواس - على أبى على الحسن بن أحمد بن عبد الغـفار النحوى بمدينة السلام فى درب الزعفرانى من باب الشعير[2]، ويقول: ذاكرت شيخنا أبا على الحسن بن أحمد الفارسى بمدينة للسلم ليلا وقـد أخلينا إلخ[3]، ويقـول: ودخلت يومًـا على أبى على بُعَـيد عـوده من شيـراز[4]، سنة تسع وسـتين فقال لى: ألا أحـدثك؟ قلت له: قل... إلخ[5]، ويقول عن رأى لأبى على فى مـسألة من عويص التصـريف: أخذته عن أبى على جـوابا عن شىء سألتـه عنه بالشـام[6]، ويقـول: وقال لى أبو على بالشـام: إذا صـحت الصـفة فـالفـعل فى الكف[7]، وألقى علينا أبو عـلى بحلب سنة ست وأربعين الكلام فى طغـيان[8]، وحدثنى أبـو على بحلب سنة ست وأربعـين[9]، ولا ريب أن ذهاب الأستاذ وتلاميذه إلى الشام إنما كان أيام الحمدانيين، وبخـاصة عند سـيف الدولة فى حلب، وكـان يتلقى عنه العلم بالموصل أيضًـا عند قدومـه إليها، يقول:

---

(١) الخصائص ٣/ ٢٧٠.

(٢) شرح أرجوزة أبى نواس لابن جنى ص٢.

(٣) انظر شرح الديوان الصـغير مخطوط دار الكـتب ٢٣ أدب الورقة ٢. وانظر فى (للسلم) ص ٧٢ من هذا الكتاب.

(٤) اتخذها عضد الدولة عاصمة لملكه.

(٥) المحتسب ١/ ٣٦٦.

(٦) المنصف ٣/ ١١٥.

(٧) الخصائص ١/ ١٢١.

(٨) المحتسب ١/ ١٣٣.

(٩) نفسه ١/ ٨٣.

ولما دخل شيخنا أبو على - رحمه الله - الموصل سنة إحدى وأربعين قال لنا: لو عرفت فى هذا البلد من يعرف الكلام على قولك: دونك زيدًا لغدوت إلى بابه ورحت[1]، وأنشدنا أبو على لابن هرمة يرثى ابنه:

فَأَنْتَ مِنَ الغَوَائِلِ حِينَ تُرْمَى ... وَمِنْ ذَمِّ الرِّجَالِ بِمُنْتَزَاحِ

يريد بمنتزح، وعليه قول عنترة أنشدناه أيضًا سنة إحدى وأربعين بالموصل:

يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ[2]

وهذه النصوص تفهمنا أن التلميذ ابن جنى كان يتنقل مع أستاذه فى كل مكان يحل فيه حتى ليقول: وسألت أبا على عن هذا الموضع فى وقت القراءة بالشام والعراق جميعًا[3] ولا ريب أن تلك الصلات القوية سببت صلة ابن جنى نفسه - وبخاصة بعد أن برز نبوغه - بالملوك والأمراء ومجالسيهم من الرؤساء والوزراء وغيرهم من العلماء والأدباء، فهو نفسه يقول: مبينًا جلوسه مع الرؤساء - وحضرت أنا مجلسًا لبعض الرؤساء ليلة، وقد جرى ذكر السرعة وتقدم البديهة وهنالك حَدَثٌ من غير شعراء بغداد، فتكفل أن يعمل فى ليلة تلك مائتى بيت فى ثلاث قصائد على أوزان أخذناها عليه ومعان حددناها له، فلما كان الغد فى آخر النهار أنشدنا القصائد الثلاث على الشرط والاقتراح[4].

وهذا واضح فى الإبانة عن جلوسه فى ساحة الملوك ومن خالطهم من أهل العلم والأدب، وقد قرأت نصه السابق عن مساءلة أبى على له وهم فى دار الملك، ولذلك دلالة ظاهرة على غشيانه مجالسهم والتعرف بهم ومخالطتهم، ثم إنه يحدث فى كتبه عن مخاطبات الملوك ويجعل منها حديثًا طريفًا يستدل به على مسائل اللغة؛ ففى باب خلع الأدلة يذكر خلع الاسمية عن كاف المخاطب فى نحو

---

(١) المحتسب ١/ ١٨٦.

(٢) نفسه ١/ ٣٤٠، والخصائص ٣/ ١٢١ وغيرها.

(٣) المنصف ١/ ٤٣.

(٤) الخصائص ١/ ٣٢٧.

رأيتك وكلمتك وتجردها للخطاب، ويستدل لذلك بأن أصغر الناس قدرًا قد يخاطب أكبر الملوك محلا بالكاف من غير احتشام منه ولا إنكار عليه.. ولم تخاطب الملوك بأسمائها إعظامًا لها إذ كان الاسم دليل المعنى وجاريًا فى أكثر الاستعمال مجراه.. فلما أرادوا إعظام الملوك وإكبارهم تجافوا وتجانفوا عن ابتذال أسمائهم التى هى شواهدهم وأدلة عليهم إلى الكناية بلفظ الغيبة. فقالوا: إن رأى الملك أدام الله علوه ونسأله حرس الله ملكه، ونحو ذلك وتحاموا (إن رأيت) و(نحن نسألك) كما ذكرنا فهذا هذا[١].

ولقد تحدثت المصادر التاريخية عن صلاته بالملوك ومعاشرته لهم، فيذكر القفطى أن ابن جنى خدم البيت البويهى عضد الدولة وولده صمصام الدولة وولده شرف الدولة وولده بهاء الدولة، وفى زمانه مات وكان يلازمهم فى دورهم وبياتهم[٢]، وقد أهدى كتابه الخصائص إلى بهاء الدولة البويهى، يقول فى مقدمة كتابه المذكور: «هذا - أطال الله بقاء مولانا الملك السيد المنصور المؤيد بهاء الدولة وضياء الملة وغياث الأمة وأدام ملكه ونصره وسلطانه ومجده وتأييده وسموه وكبت شانئه وعدوه - كتاب لم أزل على فارط الحال وتقادم الوقت ملاحظًا له .. إلخ[٣]، كما كان يحضر إلى ديوان الإنشاء لمصادقته للعاملين فيه، فقد حدث ياقوت أنه حضر يومًا عند أبى إسحاق الصابى فى ديوان الإنشاء وجلس يتحدث معه ومع حفيده غرس النعمة أبى الحسن محمد بن هلال[٤].

وقد فهم بعض كاتبى حياة ابن جنى من تلك القصة التى أوردها ياقوت ومن حديث المؤرخين عنه بأنه خدم البيت البويهى أنه كان يعمل كاتبًا فى ديوان الإنشاء للبويهيين، ففى دائرة المعارف الإسلامية أنه - كما يذكر ياقوت - ولى

---

(١) نفسه ٢/١٨٨، ١٨٩.

(٢) إنباه الرواة ٢/ ٣٤٠.

(٣) الخصائص ١/١.

(٤) معجم الأدباء ١٢/٨٣،٨٤ .

منصب كاتب الإنشاء فى بلاط عضد الدولة وفى بلاط خلفه[1]، وفى الموسوعة العربية الميسرة أنه «كتب للبويهيين بديوان الإنشاء»[2]، وفهم الدكتور طلس مما ذكرته دائرة المعارف والمصادر الأخرى عن خدمته للبويهيين - أنه تقلد بعض مهام الدولة فكتب لعضد الدولة صاحب المشرق كما كتب لسيف الدولة صاحب حلب[3].

ولكننا لو تأملنا فيما كتبه ياقوت لا نجد ما يدل - أية دلالة - على أن ابن جنى عمل بديوان الإنشاء للبويهيين أو غيرهم، ولعل القائلين بذلك توهموا مُدَّعَاهُم من عبارة القصة الواردة فى المعجم - يوم أن جلس أبو الفتح فى الديوان مع أبى إسحاق الصابى - فالعبارة كما هى وكما سبق ذكرها فى أخلاقه: حدَّث غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسّن، قال: حدثنى أبى قال: كان من كتاب الإنشاء فى أيام عضد الدولة وبعدها فى أيام صمصام الدولة ابنه كاتب يعرف بأبى الحسين القمى قال: وشاهدته فى ديوان الإنشاء يكتب بين يدى جدى أبى إسحاق لما ولاه صمصام الدولة فاتفق أنه حضر يومًا عند جدى أبى إسحاق أبو الفتح عثمان بن جنى النحوى فى الديوان. فعبارة «كان من كتاب الإنشاء فى أيام عضد الدولة وبعدها أيام صمصام الدولة ابنه» أوحت إلى هؤلاء - مع عدم التحقق - بأن المقصود بها أبو الفتح ابن جنى وليس كذلك، بل اسم كان هو ما ذكر بعد من قوله (كاتب يعرف بأبى الحسين القمى) فالكاتب الحقيقى هو أبو الحسين القمى، وليس ابن جنى فلا صحة لما ذكر فى المراجع السابقة من أن ياقوتًا نسب الكتابة فى ديوان الإنشاء لأبى الفتح.

والعبارة السائدة لدى المؤرخين وهى أنه خدم البيت البويهى لا تدل على أنه كتب لهم، فالمعروف عنه أنه كان يقوم بالتدريس طوال حياته وبعد وفاة شيخه

(١) دائرة المعارف ١٢٢، ١٢٣.

(٢) ص١٢.

(٣) مجلة المجمع العلمى المجلد ٣٠ ص٤٥٢.

الفارسى إلى أن مات فى بغداد ودفن بها، ولعل ما ذهب إليه الأستاذ النجار فى تفسير العبارة المذكورة أولى بالقبول والصحة يقول: وظاهر أن خدمته له قد فسرها (أى القفطى) فى قوله: وكان ملازمهم فى دورهم، فهو إنما كان مقربًا عندهم يأنسون إليه، وينال من برهم وألطافهم ولا يراد أنه يلى لهم عملا من أعمال الديوان[1].

ولا ريب أن ابن جنى استفاد كثيرًا فى رحاب هؤلاء الملوك والأمراء «فبلاط هؤلاء الأمراء ودورهم كانت منتديات يؤمها أفذاذ العلماء والأدباء ورجال الفن والحرب والسياسة من جميع الممالك والأمصار، وتتلاقى أفكارهم ومعارفهم، وإن لذلك أكبر الأثر فى نضج ابن جنى وتبريزه وذيوع صيته[2].

وعلى ما يبدو، لم يكن حظه عند الحكام موفورًا كحظ أستاذه، ونلاحظ ذلك من عبارات الورع والرضى بالقليل التى يذكرها فى كتبه وأشرنا إلى بعضها عند حديثنا عن أخلاقه، ثم هو يشير صراحة إلى عدم غناه ووفرة المال لديه - على الرغم من صلته بالملوك - وإلى جده فى السفر والتعب للعلم، وربما كان ذلك للحاجة الاجتماعية أيضًا وأنه لم يخلف أثرًا من مال بل خلف ما يدوم ويبقى وهو العلم، وأنه لا يقصد غير وجه الله، فيقول فى إحدى قصائده:

وَإِمَّا فَاتَنِى نَشَبٌ ... كَفَانِى ذَاكَ مِنْ نَشَبِى

وَإِنْ أَرْكَبْ مَطًا سَفَرٍ ... مُجِدَّ الوِرْدِ والقَرَبِ

فَإِنِّى مُخْلِدٌ خَلَفًا ... يُضَاهِى الشَّمْسَ مِنْ كَثَبِ

إِذَا لَمْ يَبْقَ لِى عَقِبٌ ... أَقَامَتْ خَيْرَ مَا عَقِبِ

إِذَا اهْتَزَّتْ كَتَائِبُهَا ... هَفَتْ خَفَّاقَةَ العَذَبِ[3]

أَزُولُ وَذِكْرُهَا بَاقٍ ... عَلَى الأَيَّامِ وَالحِقَبِ

(١) مقدمة الخصائص ١/ ٥٩.

(٢) المقتطف ص١٥٥.

(٣) العذب: جمع عَذَبَةٌ وهى الجلدة المعلقة خلف مؤخرة الرجل. القاموس ١/ ١٠٥.

كَفَاهَا أَنْ يَقُولَ لَهَا ... بَهَاءُ الدَّوْلَةِ اقْتَرِبِى
إِلَى اللَّهِ المَصِيرُ غَداً ... وَعِنْدَ اللَّهِ مُطَّلَبِى[١]

وعلى الرغم من عدم غناه هذا فإنه لم يكن من الضيق بحيث يعد فقيراً، بل إن صلته المذكورة تعنى أنه -على الأقل- كان فى هناءة من العيش، ولكنها لا تصل إلى حد أن يسلك فى سلك الأرستقراطيين كما فعل الأستاذ أحمد أمين[٢].

وقد تحقق لابن جنى بصلاته الاجتماعية ونبوغه العلمى منزلة مرموقة بذ[٣] بها الكثير من معاصريه فحقدوا عليه وحسدوه مع ما كان يقدمه لهم من أسباب المعالى والشرف وحاجات الحياة، فيفخر بمنزلته وسبقه فيقول:

شَكَرْتُ اللَّهَ نِعْمَتَهُ ... وَمَا أَوْلَاهُ مِنْ أَرَبِ
زَكَتْ عِنْدِى صَنَائِعُهُ ... فَوَفَّقَنِى وأَحْسَنَ بِى
تخَوَّلَنِى وَخَوَّلَنِى ... وَنَوَّلَنِى وَنَوَّهَ بِى
وَأَخَّرَ مَنْ يُقَادِمُنِى ... وَأَعْلَانِى وَأَرْغَمَ بِى[٤]

ويتحدث عن حساده الذين بذهم فيقول:

تَرَكْتُ مُسَاجِلِى أَدَبِى ... طَوَالَ الدَّهْرِ فِى تَعَبِ
إِذَا أَجْرَوْا إِلَى أَمَدٍ ... فَقُلْ فِى هَافَةٍ لَغِبِ[٥]
وَإِنْ رَامُوا مُبَادَهَتِى ... سَبَقْتُ وَأُوطِئُوا عَقِبِى
وَكَيْفَ يَرُومُ مَنْزِلَتِى ... نَزِيلُ خَبَائِثِ التُّرَبِ

---

(١) معجم الأدباء ١٢/ ٩٩، ١٠٠ .
(٢) ظهر الإسلام ٢/ ١٧ .
(٣) يقال بالذال وبالزاى بمعنى غلب. القاموس ١/ ٣٦٣، ٢/ ١٧٣ (بذ)، (بز).
(٤) معجم الأدباء ١٢/ ٩٨، ٩٩.
(٥) الهافة: الناقة تعطش سريعا وهو يريد عدم قدرة حساده على الوصول إلى منزلته كالناقة التى أصابها الوصب فلم تقدر على الوصول إلى هدفها المقصود.

وَهَلْ يَسْمُو لِقَارِعَتِى[1] خَفِيضُ الخَدِّ ذُو حَدَبِ
وَهَلْ يَنْتَاطُ بِى سَبَبًا ضَعِيفُ مَقَاعِدِ السَّبَبِ[2]

ويوضح خدمته لهم ومدافعته عنهم فيقول:

فَقُلْ لِلغَامِطِى نِعَمِى وَمَا رَاعَيْتُ مِنْ قُرَبِى
وَتَشْمِيرِى وَتَنْشِئَتِى وَمُخْتَالِى وَمُضْطَرَبِى
وَنَهْضِى عَنْكَ أَطْعَنُ فِى نُحُورِ أَوَابِدِ النُّوَبِ
وَرَفْعِى مِنْ رَذَائِلِكَ الْـ لَوَاتِى بَعْضُهَا سَبَبِى
وَلَوْلَا أَنْتَ كَانَ أَدِيـ ـمُ مَأْثُرَتِى بِلَا نُدَبِ
إِلَى أَنْ قَدْ أَشَرْتَ وَأَنْ نَزَتْ بِكَ بِطْنَةُ الكَلَبِ[3]
وَأَكْرَمَكَ الأَكَابِرُ لِى وَخَالَطْتَ الأَمَاثِلَ بِى
وَحَسْبِى أَنْ أَلَمَّ بِكِبْـ ـرِ مِثْلِكَ جَارِحًا حَسَبِى
وَلَكِنَّ الدَّوَاءَ عَلَى كَرَاهَتِهِ شِفَا الوَصَبِ[4]

وهذا جلى فيما عناه - ونعنيه- من بلوغ ابن جنى منزلة علمية واجتماعية سامية.

هل كان ابن جنى مقلداً أو مجدداً؟

تجمع لابن جنى بهذه الصلات الواسعة نتاج كبير من الثروة الثقافية التى فتقت فيه المواهب الكامنة وراء ذكائه النادر، وقدرته الفائقة على الاستيعاب وتمثل ما يسمعه أو يقرؤه، وهو الذى رزق حظًا عظيمًا جدا من الذكاء والحذق والبراعة والجد فى التحصيل والصبر عليه والدقة فى البحث والاستقصاء والرغبة الجامحة،

---

(١) المراد مناظرته. (٢) المعجم ١٢/ ٩٨.

(٣) البطنة: البطر والأشر، والرغبة لا تنتهى من الأكل، والكَلَبُ: الحرص والشدة والأكل الكثير بلا شبع. القاموس ١/ ١٣٠، ٤/ ٢٠٤.

(٤) معجم الأدباء ١٢/ ١٠٠، ١٠١.

فكان لذلك كله أعظم تأثير فى تكوينه حتى أصبح إمام عصره فى اللغة والأدب والنحو والصرف[1].

ويدل لذلك قوله فى مقدمة خصائصه: هذا كتاب لم أزل على فارط الحال وتقادم الوقت ملاحظًا له عاكف الفكر عليه منجذب الرأى والروية إليه وادّا أن أجد مهملاً أصله به أو خللا أرتقه بعمله، والوقت يزداد بنواديه ضيقًا ولا ينهج لى إلى الابتداء طريقًا[2].

وإن أعظم أساتذته أثرًا فيه هو - كما ذكرنا - أستاذه أبو على الفارسى الذى صاحبه أربعين سنة فلا غرو أن تزخر مؤلفات ابن جنى باسمه والنقول عنه لتكوّن أصول مادته العلمية الغزيرة، كذلك فإنه يملأ كتبه بنقول عن الكتب التى قرأها على أساتذته وبخاصة الفارسى من مثل تصريف المازنى[3]، ونوادر أبى زيد[4]، وكتاب سيبويه[5]، وكتب ابن السكيت[6]، وابن دريد[7]، وغيرها من كتب اللغة، كذلك كتب القراءات وما يتصل بها ككتاب أبى بكر أحمد بن مجاهد[8]، فى الشواذ وكتاب أبى حاتم السجستانى[9]، وكتاب أبى على محمد بن المستنير قطرب[10]، وكتاب المعانى للزجاج، والمعانى للفراء[11]، وغيرها.

---

(١) المقتطف ١٥٤، ١٥٥.

(٢) الخصائص ١/١.

(٣) توفى ٢٤٩هـ أو ٢٤٨، ٢٤٧، ٢٤٦هـ وأوسطها ٢٤٧هـ واختاره محققو المنصف ٣/ ٣٤٣ وانظر طبقات الزبيدى ٩٢ ومفتاح السعادة ١/ ١٤٣.

(٤) توفى ٢١٥هـ المعجم ١١/٢٢١- ٢١٧ وطبقات الزبيدى ١٨٢.

(٥) انظر ص ٤٥ من هذا الباب.

(٦) توفى ٢٤٤ طبقات الزبيدى ٢٢١- ٢٢٣.

(٧) توفى ٣٢١هـ طبقات الزبيدى ٢٠١.

(٨) ولد ٢٧١هـ وتوفى ٣٢٨هـ نزهة الألباء ٣٣٧- ٣٤٢.

(٩) توفى ٢٥٥هـ الفهرست ٨٦، ٨٧ وطبقات الزبيدى ١٠٠.

(١٠) توفى ٢٠٦هـ الوفيات ٣/٤٣٩، ٤٤٠.

(١١) توفى ٢٠٧هـ الفهرست ٩٨- ١٠٠ وطبقات الزبيدى ١٤٣- ١٤٦.

ولكننا بنظراتنا الفاحصة فى مؤلفات ابن جنى لا نجده يعطينا علم الآخرين دون تصرف، بل نجد فيه عبقريا فذا يجمع الأمور من هنا وهناك، ويضعها فى بوتقة واحدة ليخرج شيئًا جديدًا وقانونًا لغويًا عزيزًا على النفوس والأفكار الثاقبة، وهو الذى يعمد إلى المسألة العلمية فيقتلها بحثًا بتفصيل جميع جوانبها على نحو لم يعهد عن سابقيه كاستدلاله على أن اللام من «ال» وحدها هى حرف التعريف وزيدت الهمزة عليها لسكونها، بما استغرق ثمانى صحائف كوامل من مخطوطة الأزهر فى سر الصناعة[1]، وهو قدر - من البحث كبير - أتى له بشواهد من الشعر واللغة والقرآن واستنتج منها ما يعضده فى رأيه ونجده لانفراده بهذا البيان يقول: «فهذا عندى جواب هذه الزيادة والانفصال منها وليس يجاب عنها بأبلغ ولا أحوط مما ذكرناه فاعرفه»[2].

وهو فى أخذه عن شيوخه يبحث ويناقش ويجادل فإن وجد النتيجة التى وصل إليها شيخه صحيحة سلم بها وقد يقويها بجديد من عنده، وإن وجدها غير سديدة أبطلها وناقشها مناقشة جادة ثم انتهى فيها إلى رأى آخر له أو لغيره من العلماء، وهكذا الحال مع آراء العلماء السابقين التى اطلع عليها أو درسها على أساتذته، فحول الرأى السديد فى سكون عين «شاة» وحركتها يقول - فى حوار مع بعض الشيوخ -: فأما شاة فوزنها فعلة ساكنة العين هذا هو الصواب، وكلمت بعض الشيوخ من أصحابنا بمدينة السلام فى العين منها هل هى ساكنة أو متحركة؟ فادعى أنها متحركة، فسألته عن الدلالة على ذلك فقال: انقلابها ألفًا يدل على أنها متحركة؛ لأنها لو كانت ساكنة لوجب إثباتها لما تثبت فى ثوب وحوض فقلت له: أنا وأنت مجمعان على أن سكون العين هو الأصل وأن الحركة زيادة، وحكم الزيادة ألا تثبت إلا بدليل، فأما قولك: انقلابها دليل على الحركة، فغير لازم؛ لأن الحركة التى فيها إنما دخلتها لمجاورتها تاء التأنيث، وقد أجمعنا على أن تاء

(1) من الورقة ٦٣ - ٦٧.

(2) سر الصناعة مخطوطة الأزهر الورقة ٦٧.

التأنيث يفتح ما قبلها نحو زاى حمزة وحاء طلحة وأن سكون العين هو الأصل حتى تقوم دلالة على الحركة، فأما انقلاب العين فإنما هو لما حدث فيها من الفتح عند مجاورتها تاء التأنيث التى قد أجمعنا على أنه لا يكون ما قبلها إلا مفتوحًا فلا دليل لك على تحرك العين! فوقف الكلام هناك، ثم يستمر فى بيان رأيه وتأكيده بالدليل على طريقة السؤال والجواب[1].

ولو أننا نظرنا إلى حاله مع أستاذه الفارسى الذى يعد بحق أستاذه الأول والأخير، لوجدنا صدق ما نقول، فقد التقى معه وتدارسا المسائل وكان الحوار يأخذ طريقه بينهما لإقرار الحق فى نصابه بل كان ذكاء ابن جنى يجعل أستاذه يستشيره أحيانًا ويأخذ عنه فى بعض الأحيان الأخرى، فقد أخذ منه كثيرًا ولكنه لم يترك ما أخذه ليصدأ على مر الزمن، أو ليكون حصيلة غير مثمرة، بل استخدم ما أخذه فى كشف قوانين لغوية حاول إبرازها والاستدلال لها، ويمكن إدراك ذلك بالمقارنة بين مؤلفاته وكتب أستاذه، فالفارسى فى بعض كتبه يتحدث مثلا عن إبدال الحروف فى نطاق ضيق ويقسمه إلى ضربين، أحدهما إبدال حرف من حرف لأجل الإدغام والآخر إبدال حرف من حرف لغير الإدغام، ويذكر أن حروف البدل أحد عشر حرفًا ثمانية منها من الحروف الأُوَلِ الزائدة وثلاثة من غيرها[2]، ونحو رأيت رجلاً وهو يضربها، ويومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جأن، ونحو ذلك مما أدخله تحت باب من إبدال الألف همزة[3]، ونحو تمود الثوب وخطيئة وأبو أيوب ونحوه من طرو الهمزة وتسهيله[4]، فيخص ابن جنى ما تناوله أستاذه بمزيد من البحث ونظمه ووضع القواعد له واستنباط الجديد من أسرار العربية فى كتابه «سر الصناعة»، وقد أفضنا فى بيان ذلك باستقلال فى حديثنا عن الإبدال،

---

(١) المنصف ٢/ ١٤٦- ١٤٨.

(٢) الإيضاح للفارسى مخطوطة دار الكتب ١٠٠٦ص ١٧٦ وما بعدها وانظر صحائف أخرى مثل ٧٦- ٧٨، ١٦٧- ١٦٩ والحجة ٣/ ٨، ٩، ٢٤٣، ٢٨٥.

(٣) الشيرازيات ١٣.

(٤) نفسه ١٣.

ويذكر أبو على فى الحجة تلميحًا إلى لغـات العرب والاحتجاج بها مثل أن يقول: «فأما ما انفرد به ورش فى روايته عن نافـع من أن الهاء مكسورة والميم موقوفة ألا تلقى الميم ألف أصليـة مثل ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ... ﴿٦﴾﴾ [البقرة]، فالقيـاس فيـها إذا لقـيت الألف الأصلية، وإذا لقيت غـيرها سـواء، وكأنه أحب الأخذ باللغتين مثل لا يألتكم ولا يلتكم[1]، وضرب أبو على أمثلة للأخذ باللغتين بما روى من قراءة نـافع مرة عليهـمو وأخـرى عليهم وغـيرها[2]، فنرى ابن جنى يخص اختلاف اللغات والاحتجاج بها بفصل مستقل عنوانه «باب اختلاف اللغات وكلها حجة»، كما يتحدث أبو على فى كتابه المسائل الحلبية عن أبواب الثلاثى من الأفعال ويحكم بشـذوذ ما خرج على القواعد المألوفة منهـا مثل أَبَى يَأْبَى وحَسِبَ يحسِبُ وفضِل يفضُل وكُدْتَ تكَادَ ودِمْت تَدَام، ثم يحكى رأى التداخل فى عبارة مختصرة هى: وبعض أهل العربيـة يذهب إلى أن هذه الأمثلة نحو حسِب يحسِب لغات تداخلت[3].

وهكذا فى كـتابه الأغـفال، نلاحظ أنه يذكـر جمع فُلْك على فُلْـك وقول سيبويه إنه بمنزلة أَسَد وأُسْد يريد أن فُعْلا كُسّر على فُعل واجتمعا فى التكسير على فُعْل كما اجتمعا فى التكسير على أفعال، لأنهما يتعاقبان كثيرًا على الشىء الواحد نحو البُخْل والبَـخَل والسُّقْم والسَّقَم والعُجْم والعَجَم والعُرْب والعَـرَب، فلما كانا على هذا جاز اجتمـاعهما على هذا التكسير، ونظير هـذا فى أن لفظ التكسير بناء على لفظ الواحـد، قبل أن يكسـر قولهم ناقـةٌ هِجَانٌ ونُوقٌ هِـجانٌ ودِرع دِلاص وأدرع دِلاص، فإنما دِلاصٌ وهِجَانٌ فى الجـمع على حد ظِراف وشِراف وليس كِناز وضِناك[4].

---

(١) الحجة ١/ ٧٩ . (٢) نفسه ١/ ٨٧، ٨٨ . (٣) المسائل الحلبية لوحة ٢٧.

(٤) الاغفال نسخة دار الكتب ٨٧٥ تفسيـر ص ٦٦٢، وَهِجَانٌ: بيضاء كريمة، ودِلاصٌ: ملساء لينة، وكِنازٌ: كثـيرة اللحم صلبـة، وضِنَاكٌ: ضخـمة، قال ابن جنى: «الألـف فى دلاص فى الواحد بمنزلة الألف فـى ناقـة كناز وامـرأة ضناك، والألف فى دِلاص فى الجـمع بمـنزلة ألف ظِراف، وشِرَاف. الخصائص ٢/ ٩٤.

فيلاحظ أن الفارسى لم يبين شأن تبادل الحركة والحرف كما استنبط ابن جنى الذى عقد لذلك فصلا خاصا عنوانه «باب فى اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين فى الحروف والحركات والسكون» ونظّم الموضوع بصورة دقيقة، وانظر ذلك فى بيان خصائص العربية فى استعمال المشترك من هذا الكتاب.

ونجد الفارسى أيضًا فى بعض كتبه يتناول غلط القراء فى همز كلمة معايش[1]، فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ... ⑩﴾ [الأعراف]، وجمع مَسِيل على مُسْلان وأَمْسِلَة وأنه يكون غلطًا إذا أخذه من سال[2]، فيعقد ابن جنى بابا يتحدث فيه عن أغلاط العرب، وكحديثه عن عدم جواز الابتداء بالساكن وتخريج قول الأعشى:

أَأَنْ رَأَتْ رَجُلا أَعْشَى أَضَرَّ بِهِ[3]

فيعقد ابن جنى بابا للساكن والمتحرك، وكحديثه عن المطرد والشاذ قياسا واستعمالا[4]، فيخصه ابن جنى بأبواب كثيرة يضع لها أصولا لغوية، وتناول الفارسى بعض المفردات اللغوية بالشرح والبيان الصرفى ككلمة يستعور[5]، وفُعْل من نحو وأيت على قول الخليل ونحو ذلك[6]، فيضع لها ابن جنى أبوابًا للتدريب فى فن الصرف والاشتقاق، وفى باب الاشتقاق الأكبر يذكر ابن جنى أن أبا على كان يستعين به ويخلد إليه مع إعواز الاشتقاق الأصغر لكنه مع هذا لم يسمه[7] ثم يشرح الموضوع بطريقة جديدة، وفى باب مشابهة معانى الإعراب معانى الشعر يقول «نبهنا أبو على رحمه الله من هذا الموضع على أغراض حسنة»[8]، وفى أول

---

(١) الأغفال ٤٨٧.

(٢) نفسه ٤٨٧ والحجة ٤ لوحة ١٣٩- ١٤١، وبيّن ابن جنى أنه ليس غلطا. الخصائص ٣/ ٢٧٩، والكلمة فى الأعراف ١٠، والحجر ٢٠.

(٣) الإيضاح ٦٥، ١١٧.

(٤) المسائل العسكرية ١٣٤، ١٣٥ والمسائل الحلبية لوحة ٥٢ والبغداديات لوحة ٢٥.

(٥) المسائل البغداديات ص٤.

(٦) الجزء الأول من الشيرازيات والبغداديات ورقة ٣ والحلبيات لوحة ٧٩.

(٧) الخصائص ٢/ ١٣٣.

(٨) نفسه ٢/ ١٦٨.

باب هل يجوز لنا فى الشعر من الضرورة ما جاز للعرب أولا؟ يقول: سألت أبا على رحمه الله عن هذا، فقال: كما جاز أن نقيس منثورنا على منثورهم فكذلك يجوز لنا أن نقيس شعرنا على شعرهم، فما أجازته الضرورة لهم أجازته لنا وما حظرته عليهم حظرته علينا[1]، ثم يأخذ فى عرض الموضوع من علمه وحذقه على طريقة السؤال والجواب والاستنتاج.

وقد يجمع ما سمعه من أستاذه من نصوص لغوية يستنبط منها ظواهر لغوية لم تكن عند أستاذه؛ ففى أول باب تلاقى اللغة يقول: هذا موضع لم أسمع فيه لأحد شيئًا إلا لأبى على رحمه الله، وبين من خلال ما سمعه أن التلاقى من خصائص اللغة العربية، وإذا أخذ رأى أستاذه فكثيراً ما يزيد عليه فمثلاً يقول: ورأيت أبا على رحمه الله يذهب إلى استحسان مذهب الكسائى فى قوله:

إِذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ   لَعَمْرُ اللَّهِ أَعْجَبَنِي رِضَاهَا

لأنه قال: عدَّى رَضِيَتْ بِعَلَى كما يعدى نقيضها وهى سَخِطَتْ به وكان قياسه رضيت عنى، وإذا جاز أن يجرى الشىء مجرى نقيضه فإجراؤه مجرى نظيره أسوغ، فهذا مذهب الكسائى وما أحسنه، وفيه غيره على سمت ما كنا بصدده، وذلك أنه إذا رضى عنه فقد أقبل عليه فكأنه قال: إذا أقبلت علىّ بنو قشير، وهو غور من أنحاء العربية طريف ولطيف ومصون وبطين[2]، ومن ذلك ما استدل به على شدة اتصال الفعل بالفاعل، فقد حكى أدلة أستاذه ثم أورد لنفسه أدلة أخرى استقل بها، وزاد فيقول: واستدل أبو على على شدة اتصال الفعل بالفاعل بأدلة أربعة، واستدللت أنا أيضًا بخمسة أدلة أخر غير ما استدل به هو وأنا أورد ما قال فى ذلك وأتليه ما رأيته ثم يأخذ فى البيان[3]، وكلها فى غاية القوة والبراعة، وقد يشرح رأى أستاذه ويوضحه، يقول عند الاحتجاج لقراءة ﴿وَأَيَّدْنَاهُ ... ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة] وآيدناه بالمد: «ومعنى قول أبى على: لو جاء آيدتك على ما يجب فى

---

(١) نفسه ١/ ٣٢٣.   (٢) المحتسب ١/ ٥٢، ٥٣، والخصائص ٢/ ٣١١.

(٣) سر الصناعة ١/ ٢٢٥- ٢٣١.

مثله من إعلال عين أفعلت... لتتابع فيه إعلالان؛ لأن أصل آيدت أأيدت... إلخ، ويأخذ في شرح الرأي[1]، ومن ذلك أيضًا يقول: ومن طريف ما ألقاه رضي الله تعالى عنه عليَّ أنه سألني يومًا عن قولهم هات لا هاتيتَ فقال ما هاتيت؟، فقلت: فاعلت فهات من هاتيت كعاط من عاطيت فقال: أشيء آخر؟. فلم يحضر إذ ذاك فقال: أنا أرى فيه غير هذا، فسألته عنه فقال: يكون فعليت قلت مِمَّه؟ قال من الهوتة وهي المنخفض من الأرض قال: وكذلك هِيتٌ لهذا البلد لأنه منخفض من الأرض، ثم يشرح ابن جني وجهة نظر أستاذه فيقول: والذي يجمع بين هاتيت وبين الهوتة حتى دعا ذلك أبا علي إلى ما قال به أن الأرض المنخفضة تجذب إلى نفسها بانخفاضها، وكذلك قولك هَاتِ إنما هو استدعاء منك للشيء واجتذابُه إليك.. والذي ذهب إليه أبو علي في هاتيت غريب لطيف[2]، وقد يبدي استحسانه برأي أستاذه يقول: وسألت مرة أبا علي رحمه الله عن رد سيبويه كثيراً من أحكام التحقير إلى أحكام التكسير وحمله إياها عليها ألا تراه قال تقول: سُرَيحين لقولك سَرَاحين ولا تقول عُثَيمين لأنك لا تقول عثَّامين ونحو ذلك، فقال: إنما حمل التحقير في هذا على التكسير من حيث كان التكسير بعيدًا عن رتبة الآحاد، فاعتد ما يعرض فيه لاعتداده بمعناه، والمحقر هو المكبر والتحقير فيه جار مجرى الصفة فكأن لم يحدث بالتحقير أمر يحمل عليه غيره كما حدث بالتكسير حكم يحمل عليه الإفراد، هذا معقد معناه وما أحسنه وأعلاه[3].

وقد يعقب على رأي أستاذه بما يدل على صحته، مثل: وسألت أبا علي رحمه الله فقلت: من أجرى غير اللازم مجرى اللازم، فقال: في تخفيف الأحمر لحمر، أيجوز له على هذا أن يقلب الواو والياء في حوَب وجيَل ألفًا فيقول حاب وجال؟ فقال: لا، وأومأ إلى أن حكم القلب أقوى من حكم الاعتداد بالحركة في

---

(١) المحتسب ١/ ٩٦.

(٢) الخصائص ١/ ٢٧٧، ٢٧٨.

(٣) نفسه ١/ ٣٥٤.

لحمر أى فلا يبلغ فى الجواز ذلك لشناعته وهو كما ذكر[1]، ويعقب ابن جنى على رأى أبى على فى جواز جر شبيه فى قولك: ما أنت كزيد، ولا شبيهًا به بقوله: وهذا الذى ذهب إليه أبو على وجه صحيح ويستدل لذلك[2]، وقد يضعّف رأى أستاذه إذا وجد فيه بعدا عن الصواب، فقد أثبت أن الكاف فى قول الشاعر: (فَصُيِّرُوا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأكُول)، زائدة، وأخذ يجيب على الأسئلة الموجهة إليه فى هذا المقام، ثم قال: على أن أبا على قد كان أجاز أن تكون مثل مضافة إلى الكاف وتكون الكاف هنا اسمًا، وفيه عندى ضعف لما ذكرته[3]، ويضعفه ثم يذهب إلى رأى جديد بحسب اتجاهه فى بحوثه، فلم يرتض رأى أبى على فى التعليل لإبقاء الياء والواو فى كلمتى النهاية والإداوة دون القلب ألفًا، فعقب عليه بقوله: وهذا القول منه ليس بمرضى عندى، ثم يدلل على عدم قبوله، ويذهب إلى رأى جديد يصدره بقوله: ولكن القول عندى فى هذا.. ويأخذ فى شرحه وبيانه[4]، وعن كلمة أَدَيه يقول: إلا أننى أرى فى هذه اللفظة خلاف ما رآه أبو على لأنه ذهب إلى أن الهمزة فى أَدَيه ليست بدلا من الياء وإنما هى أصل برأسه، ولو كان الأمر على ما ذهب إليه لتصرفت الهمزة فى هذه اللفظة تصرف الياء، وليس الأمر كذلك؛ لأنا نجدهم يقولون: يديت إليه يدا وأيديت أيضًا، ويستمر فى عرض رأيه، ثم يقول: وفيه وجه آخر غامض أيضًا، ثم يعرضه، ويقول: على أن فى هذا الوجه عندى بعض الضعف، وإن كان أبو على قد أجازه، ويبرهن على ما يقول[5]، وفى بعض الأحيان نجد حواراً بين الأستاذ والتلميذ يبدأ بسؤال الأستاذ للتلميذ، وينتهى باستخلاص نتيجة صحيحة يصل إليها الأستاذ أو التلميذ أو هما معًا وقد يبتكر التلميذ جديدًا يضمه الأستاذ إلى حصيلته العلمية.

---

(١) المحتسب ١/ ٦٨.

(٢) سر الصناعة ١/ ٢٩٥، ٢٩٦.

(٣) نفسه ١/٢٩٦- ٣٠١.

(٤) المنصف ٢/١٣٨، ١٣٩.

(٥) سر الصناعة ١/٢٤٤- ٢٤٦.

فمن الأول سألنى أبو على رحمه الله عن ألف «يال» من قوله فيما أنشده أبو زيد:

فَخَيْرٌ نَحْنُ عِنْدَ النَّاسِ مِنْكُمْ إِذَا الدَّاعِى المُثَوِّبُ قَالَ يَالا

فقال: أمنقلبة هى؟ قلت: لا؛ لأنها فى حرف أعنى يا، فقال: بل هى منقلبة، فاستدللته على ذلك فاعتصم بأنها قد خُلطت باللام بعدها وَوُقف عليها فصارت اللام كأنها جزء منها فصارت يال بمنزلة قال والألف فى موضع العين وهى مجهولة فينبغى أن يحكم عليها بالانقلاب عن الواو هذا جُمَل ما قاله[1].

ومن الثانى: سألنى أبو على يومًا فقال: أى شىء مثل غَوْغَاءَ وغَوْغَاءٍ فقلت له قولهم للمنخوب[2] هُوهٌ وهوهاءَة[3].

ومن الثالث: سألنى أبو على عما يتعلق به الظرف الذى هو بعض الأحيان «يقصد فى قول الشاعر»:

أَنَا أَبُو المِنْهَالِ بَعْضَ الأَحْيَانْ لَيْسَ عَلَيَّ حَسَبِى بِضُؤْلانْ

فخضنا فيه إلى أن برد فى اليد من جهته أنه يحتمل أمرين ثم بينهما[4].

ومن الرابع: قلت مرة لأبى على رحمه الله: قد حضرنى شىء فى علة الإتباع فى نِقِيذ وإن عرى أن تكون عينه حلقية وهو قرب القاف من الخاء والغين فكما جاء عنهم النِّخير والرِّغيف كذلك جاء عنهم النِّقِيذ فجاز أن تشبه القاف لقربها من حروف الحلق بها، كما شبه من أخفى النون عند الخاء والغين إياهما بحروف الفم؛ فالنِّقِيذ فى الإتباع كَالمُنْخُل والمُنْغُل فيمن أخفى النون، فرضيه وتقبله، ثم رأيته وقد أثبته فيما بعد بخطه فى تذكرته[5].

---

(١) الخصائص ١/ ٢٧٦.

(٢) رجل منخوب: جبان.

(٣) المحتسب ٢/ ٩٤.

(٤) الخصائص ٣/ ٢٧٠، ٢٧١.

(٥) نفسه ١/ ٣٦٥.

فابن جنى إذًا لم يكن يأخذ علم أستاذه بلا تصرف فيه بل كان يناقشه مناقشة جدية مقويا له أو مضعفًا أو ذاهبًا إلى مذهب جديد، وكذلك كان شأن ابن جنى مع العلماء الآخرين الذين تثقف بعلمهم عن طريق قراءة كتبهم الكثيرة على أستاذه الفارسى أو على غيره كتصريف أبى عثمان المازنى وكتاب سيبويه وكتاب الأصول لأبى بكر بن السراج وغيرها من الكتب فهو لا يألو جهدًا فى الإمعان فى آراء من سبقوه ومناقشتها والخروج بنتيجة حاسمة منها، فبعد عرضه لآراء أبى عمر الجرمى صالح بن إسحاق[1]، وأبى العباس المبرد[2] وسيبويه فى ألف التثنية هى حرف إعراب أم لا؟ يقول: واعلم أنا بلونا هذه الأقوال على تباينها وتنافرها واختلاط ذات بينها وترجيح مذاهب القائلين بها فلم نر فيها أصلب مكسرًا ولا أحمد مخبرًا من مذهب سيبويه، وسنورد الحجاج فيها لكل مذهب والحجاج عليه، ثم يأخذ فى البيان والترجيح بالدليل[3]، وقبل عرضه الآراء فى (إياك) يقول: وهذه مسألة لطيفة عنت لنا فى أثناء هذا الفصل نحن نشرحها ونذكر خلاف العلماء فيها ونخبر بالصواب عندنا من أمرها وهى قوله عز اسمه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ... ⑤﴾ [الفاتحة]، وما كان مثله، ثم يعرض الآراء ويقول: وتأملنا هذه الأقوال على اختلافها والاعتلال لكل قول منها فلم نجد فيها ما يصح مع الفحص والتنقير غير قول أبى الحسن الأخفش[4].

ولو بحثنا فى مؤلفات ابن جنى لوجدناه يناقش آراء هؤلاء جميعًا شارحًا أو مقويا أو مضعفًا فيقول: مثلا: وقول الخليل فى تخفيف وُؤْيٍ أُوْيٌ طريف وصعب

---

(1) توفى سنة ٢٢٥ معجم الأدباء جـ٢ ص٨ .

(2) هو محمد بن يزيد. ولد سنة ٢١٠هـ وتوفى لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ٢٨٦. طبقات الزبيدى ١١٩، ١٢٠ .

(3) سر الصناعة مخطوط الأزهر ١٣٤ وما بعدها.

(4) سر الصناعة ١/ ٣١١، ٣١٢، وأبو الحسن الأخفش هو سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط كان أجلع لا تنطبق شفتاه على لسانه، وقرأ النحو على سيبويه وكان أسن منه، وهو الذى يذكره ابن جنى دائمًا ويريده فى حديثه، مات سنة ٢١٠ أو ٢١٥ أو ٢٢١ البغية ١/ ٥٩٠، ٥٩١ وطبقات الزبيدى ٧٣- ٧٦.

ومتعب، وذلك أنه قدر الكلمة تقديرين ضدين؛ لأنه اعتقد صحة الواو المبدلة من الهمزة حتى قلب لها الفاء فقال أُوىٌّ، فهذا وجه اعتداده إياها، ثم إنه مع ذلك لم يعتددها ثابتة صحيحة ألا تراه لم يقلبها ياء للياء بعدها فلذلك قلنا إن فى مذهبه هذا ضربًا من التناقض، وأقرب ما يجب أن نصرفه إليه أن نقول: قد فعلت العرب مثله فى قولهم: مررت بزيد ونحوه، ويستمر فى شرح الرأى[1]. ويعرض لقول أبى العباس: إن آمين بمنزلة عاصين، ثم يشرح معناه فيقول: «فأما قول أبى العباس إن آمين بمنزلة عاصين فإنما يريد به أن الميم خفيفة كعين عاصين، وكيف يجوز أن يريد به حقيقة الجمع، وقد حكى عن الحسن رحمه الله أنه كان يقول: آمين اسم من أسماء الله عز وجل، فأين بك فى اعتقاد معنى الجمع من هذا التفسير؟ تعالى الله علوا كبيراً[2].

ويشرح عبارة سيبويه (هذا باب علم ما الكلم من العربية) ولم اختار الكلم على الكلام؟ ويدفع الاعتراض الوارد عليه[3]، ويصحح رأيه فيقول - بعد استدلاله للكاف الواقعة حرف جر -: «وهذا استدلال سيبويه وهو الصواب الذى لا معدل عنه»[4]، ويدافع عن رأيه، فعند الاحتجاج لقراءة ﴿وَيُعَلِّمْهُمُ الْكِتَابَ ... (١٢٩)﴾ [البقرة]، بسكون الميم يورد بيت الكتاب:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ   إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاغِلِ

ثم يقول: وأما اعتراض أبى العباس هنا على الكتاب فإنما هو على العرب لا على صاحب الكتاب؛ لأنه حكاه كما سمعه ولا يمكن فى الوزن أيضًا غيره، وقول أبى العباس إنما الرواية فاليوم فاشرب فكأنه قال لسيبويه: كذبت على العرب ولم نسمع ما حكيته عنهم، وإذا بلغ الأمر هذا الحد من السرف فقد سقطت كلفة القول معه»[5]، وفى الخصائص ما يشبه ذلك فى أسلوبه إذ قال - بعد أن أورد

---

(١) الخصائص ٣/ ١٠، ١١.   (٢) نفسه ٣/ ١٢٣.

(٣) نفسه ١/ ٢٥- ٢٧ .   (٤) سر الصناعة ١/ ٢٨٢.

(٥) المحتسب ١/ ١٠٩- ١١١.

البيت السابق -: «واعتراض أبى العباس[١] فى هذا الموضع إنما هو رد للرواية وتحكم على السماع بالشهوة مجردة من النصفة ونفسه ظلم لا من جعله خصمه»[٢]، ومن دفاعه عن سيبويه وإبطاله قول أبى العباس بالدليل ما ذكره من قوله: فأما قول أبى العباس فى إنشاد سيبويه: (دَارٌ لِسُعْدَى إِذْهِ مِنْ هَوَاكَا) إنه خرج من باب الخطأ إلى باب الإحالة، لأن الحرف الواحد لا يكون ساكنًا متحركًا فى حال فخطأ عندنا؛ وذلك أن الذى قال إِذْهِ مِنْ هَوَاكَ هو الذى يقول فى الوصل هىْ قامت فيسكن الياء وهى لغة معروفة فإذا حذفها فى الوصل اضطرارًا واحتاج إلى الوقف ردها حينئذ فقال هى فصار الحرف المبدوء به غير الموقوف عليه فلم يجب من هذا أن يكون ساكنًا متحركًا فى حال، وإنما كان قوله إِذْهِ على لغة من أسكن الياء لا على لغة من حركها من قبل أن الحذف ضرب من الإعلال، والإعلال إلى السواكن لضعفها أسبق منه إلى المتحركات لقوتها، ويستمر فى الاستدلال لرأى سيبويه مع براعة فى الدفاع[٣].

وهو فى الانتصار لرأى سيبويه يحفل به ويثنى عليه بما هو أهله، فيعقب على اعتراض أبى العباس على رأيه فى أَسْطَاعَ بقوله: وقد ذهب عن أبى العباس ما فى قول سيبويه هذا من الصحة، فإما غالط وهى من عادته معه وإما وهم فى رأيه هذا... والذى يدل على صحة قول سيبويه فى هذا.. ويعرض للرد عليه[٤]، ويقول - بعد دفاعه عن رأى سيبويه فى بيت من الشعر واستدراك أبى الحسن عليه -: وليس ينبغى لمن قد نظر فى هذا العلم أدنى نظر أن يظن سيبويه ممن يتوجه عليه هذا الغلط الفاحش... فهل يليق بسيبويه أن يكسر شعرًا وهو من يُنبوع العروض وبُحبوحة وزن التفعيل، وفى كتابه أماكن كثيرة تشهد بمعرفته بهذا

(١) هو المبرد.
(٢) الخصائص ١/ ٧٤، ٧٥.
(٣) نفسه ١/٨٩، ٩٠.
(٤) سر الصناعة ١/٢١١، ٢١٢.

العلم واشتمال عليه فكيف يجوز عليه الخطأ فيما يظهر، ويبدو لمن يتساند إلى طبعه فضلا عن سيبويه فى جلالة قدره، ولعل أبا الحسن أراد بذلك التشنيع عليه وإلا فهو كان أعرف الناس بحاله، وقد تلا أبا الحسن فى تعقب ما أورده سيبويه فى كتابه جلة أصحابنا كأبى عمر وأبى عثمان وأبى العباس وغيرهم فقلما ضره الله بذلك إلا فى الشىء النزر القليل من قوله[1].

وأحيانًا يضعف رأى سيبويه ويتخذ له رأيًا جديدًا، فلم يرتض تضعيف سيبويه لقراءة: ﴿هُنَّ أَطْهَرَ لَكُمْ ... (٧٨)﴾ [هود] بالنصب، قال أبو الفتح: ذكر سيبويه هذه القراءة وضعفها وقال فيها احتبى ابن مروان[2]، فى لحنه وإنما قبح ذلك عنده لأنه ذهب إلى أنه جعل (هن) فصلا وليست بين أحد الجزءين اللذين هما مبتدأ وخبر ونحو ذلك كقولك ظننت زيدًا هو خيرًا منك، وكان زيد هو القائم، وأنا من بعد أرى لهذه القراءة وجها صحيحًا ثم يأخذ فى بيانه[3]، وقد يثور معترضًا على سيبويه وناقدًا له، من ذلك ما حكاه ابن سلام قال: قال سيبويه كان عيسى بن عمر يقرأ ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ ... (١٠٩)﴾ [التوبة] - بتنوين تقوى - قلت على أى شىء نوَّن؟ قال: لا أدرى ولا أعرفه. قلت: فهل نوَّن أحد غيره قال: لا، قال أبو الفتح: فأما التنوين فإنه وإن كان غير مسموع إلا فى هذه القراءة، فإن قياسه أن تكون ألفه للإلحاق لا للتأنيث كتترًى فيمن نوَّن وجعلها ملحقة بجعفر، وكان الأشبه بقدر سيبويه ألا يقف فى قياس ذلك وألا يقول لا أدرى، ولولا أن هذه الحكاية رواها ابن مجاهد ورويناها عن شيخنا أبى بكر لتوقفت فيها، فأما أن يقول سيبويه لم يقرأ بها أحد فجائز يعنى فيما سمعه لكن لا عذر له فى أن يقول؛ لا أدرى لأن قياس ذلك أخف وأسهل على ما شرحنا من كون ألفه للإلحاق[4].

---

(١) سر الصناعة ١/ ٦٦، ٦٧ .

(٢) من القراء لتلك القراءة.

(٣) المحتسب ١/ ٣٢٥، ٣٢٦.

(٤) نفسه ١/ ٣٠٤.

ويُخرِّج قراءة ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ... (١١)﴾ [الرعد] بأمر الله، برأى لأبى الحسن، ثم يقول: «والذى ذكرناه فى هذا رأى أبى الحسن وما أحسنه! ثم يؤيده بما ارتآه لنفسه[١]، ويعقب على رأى أبى عثمان المازنى فى تحقير أيِمَّة بالياء بقوله: وهذا القول ليس بمرضى من أبى عثمان ويبين وجهة ذلك[٢]، ويفسر قولا غامضًا له ثم يصفه بأنه «قد تعجرف فيه[٣]».

ويعلل لرأى أبى إسحاق الزجاج حين نازعه خصم فى جواز اجتماع الألفين المدتين ومد الرجل الألف فى نحو هذا، وأطال فقال له أبو إسحاق: لو مددتها إلى العصر ما كانت إلا ألفًا واحدة، يقول ابن جنى فى التعليل: «وعلة امتناع ذلك عندى أنه قد ثبت أن الألف لا يكون ما قبلها إلا مفتوحًا فلو التقت ألفان مدتان لانتقضت القضية فى ذلك الا ترى أن الألف الأولى قبل الثانية ساكنة وإذا كان ما قبل الثانية ساكنًا كان ذلك نقضًا فى الشرط لا محالة[٤]، ويفسد قول أبى إسحاق الزجاج فى أن التنوين فى نحو جوار وغواش عوض من ضمة الياء ويعلل لذلك تعليلا قويًا»[٥].

وينقض قول ثعلب -على الرغم من مدحه له-[٦]، إن الباء فى زَغْدَب زائدة فيقول: «وذهب أحمد بن يحيى فى قوله: (يَرُدُّ قَلْخًا وَهَدِيرًا زَغْدَبًا) إلى أن الباء زائدة وأخذه من زَغَد البعير يَزْغَد زَغْدًا فى هديره، وقوله: إن الباء زائدة كلام تمجه الآذان وتضيق عن احتماله المعاذير، وأقوى ما يذهب إليه فيه أن يكون أراد أنهما أصلان مقتربان كسِبط وسِبَطْر، وإن أراد ذلك أيضًا فإنه قد تعجرف ولكن قوله فى أسكفّة الباب إنها من استكفَّ الشىءُ أى انقبض أمر لا ينادى وليده[٧].

---

(١) نفسه ١/ ٣٥٥، ٣٥٦، وذلك فى الآية ١١ من سورة الرعد.

(٢) المنصف ٢/ ٣١٩ . (٣) نفسه ١/ ١٣٥ .

(٤) الخصائص ١/ ٨٩، ٩٠ . (٥) نفسه ١/ ١٧١، ١٧٢ .

(٦) قد عرضنا ذلك فى الكلام على منهجه وسيأتى، وانظر مما سبق ص ٤٩ .

(٧) الخصائص ٢/ ٤٩، ٥٠، و«أمر لا ينادى وليده» مثل يضرب للشىء الشديد الذى ينادى فيه الكبار لا الصغار.

وكما استحسن رأى الكسائى فى تفسير (إِذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ) ضعف رأيه فى قول عنترة:

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَذْهَبَ سُقْمَهَا ... قِيلُ الفَوَارِسِ وَيْكَ عَنْتَر أَقْدِمِ

قال: قال الكسائى: - فيما أظن - أراد ويلك ثم حذف اللام وهذا يحتاج إلى خبر نبى ليقبل[1].

ومع توثيقه لأبى بكر بن مجاهد فى الرواية[2]، فإنه هاجمه فى اللغة والنحو والصرف فى احتجاجه لكثير من القراءات وذلك واضح فى المحتسب، ومن ذلك فى اللغة عند الاحتجاج لقراءة ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ... (٢١٠)﴾ [البقرة] في ظلال، قال ابن مجاهد: هو جمع ظل، قال أبو الفتح: الوجه أن يكون جمع ظُلة كجُلة وجِلال وقُلَّة وقِلال، وذلك أن الظل ليس بالغيم وإنما الظلة الغيم، فأما الظل فهو عدم الشمس فى أول النهار وهو عرض والغيم جسم[3]، وفى النحو عند قراءة عكرمة - التى رويت عنه - ﴿جَدُّ رَبِّنَا ... (٣)﴾ [الجن]: (جَدٌّ رَبُّنَا) وغلّط[4] قال أبو الفتح فأما جدٌّ ربُّنا فإنه على إنكار ابن مجاهد صحيح وذلك أنه أراد: وأنه تعالى جدٌّ جدُّ ربِّنا على البدل، ثم حذف الثانى وأقام المضاف إليه مقامه، ثم يستمر فى الاحتجاج لما رآه صحيحًا[5]، وفى الصرف يقول عند قراءة أبى عمرو: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ ... (٨٧)﴾ [البقرة]: (وآيدناه) بالمد، قال ابن مجاهد: - على ما علمناه - ممدودة الألف خفيفة الياء، وقد روى عن مجاهد فى قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ ... (١١٠)﴾ [المائدة] (إذ آيدتك) آيدتك قال ابن مجاهد: على فاعلتك. قال أبو الفتح: هذا الذى توهمه ابن مجاهد أن آيدتك فاعلتك لا وجه له، وإنما آيدتك أفعلتك من الأيد وهو القوة[6].

ثم هو لا يكتفى بالتعقيب بل إنه - لبراعته فى التخريج - يفسر - أحيانًا - ما غمض على غيره من العلماء، فيقول عند قراءة ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ ... (٢٩)﴾

(١) المحتسب ٢/ ١٥٦ .
(٢) مقدمة المحتسب لابن جنى ١/ ٣٥.
(٣) المحتسب ١/ ١٢٢ .
(٤) يقصد غلطه ابن مجاهد.
(٥) المحتسب ٢/ ٣٣٢، وذلك فى الآية ٣ من سورة الجن.
(٦) نفسه ١/ ٩٥.

[الأنبياء]: (فـذلك نُجزيهُ) برفع الهاء والنون، قال ابن مـجاهد: لا أدرى ما ضم النون؟ لا يقال إلا جَزَيْتُ كما قال: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ... (١٧)﴾ [سبأ]، قال أبو الفتح: هو لعمرى غريب عن الاستعمال، إلا أن له وجهًا أنا أذكره، وذلك أن يقال: أجزأنى الشىءُ: كفانى وهذا يُجزئنى من كذا أى يكفينى، وهكذا يستمر فى عرض تفسيره الجديد(١).

ولذلك نراه معـتزًا بنفسه وبعلمـه مشيرًا إلى مـا أعطاه الله من هذا الفضل حيث يقول - بعد أن بين وجه قراءة ﴿أَنبِئْهُم ... (٣٣)﴾ [البقرة]: (انبهم) - بحذف الهمزة - وأنه لا حق لابـن مجاهد فى قوله: لا يجوز -: فـقد علمت بذلك أن قول ابن مجاهد: هذا لا يجـوز، لا وجه له؛ لما شرحناه من حاله، ورحم الله أبا بكر فإنه لم يأل فـيما علمه نصحًـا، ولا يلزمه أن يُرى غيره مـا لم يُرِه الله تعالى إياه وسبحان قاسم الأرزاق بين عباده وإياه نسأل عصمة وتوفيقًا وسدادًا بفضله(٢).

ومن عـرض هذه الأمـثلة يتـضح لنـا أن ابن جنى لم يكن مـرددًا لأقـوال السابقين، بل كان يضعها تحت الاختبار فـيأخذ منها القوى بعد اطمئنانه إليه ويترك الضعـيف مبينًا وجهـة ضعفه، وربمـا انطلق - وكثيرًا مـا يحدث ذلك - إلى آراء جديدة فى البحث، فآراؤه اللغوية سبقت فى مضمار العلم سبقًا عظيمًا، فقد نجح فى عرض الظواهر اللـغوية وتفسـيرها، ووضع القوانين لهـا كآرائه فى الاشتـقاق والأصوات، وبحوثه الجديدة فى الإبدال والقياس اللغوى، وكذلك آراؤه الصرفية، فـالمؤرخـون لحـيـاته يذكـرون «أنه لم يكن فى شىء مـن علومـه أكـمل منه فى التصريف، فإنه لم يصنف أحد فى التصـريف ولا تكلم فيه أحسن ولا أدق كلامًا منه(٣)، ويرجع ذلك إلى سبب صـحبته لأستـاذه الفارسى، فقد عجـز أمامه عن مسألة صـرفية، وإن كتابه شرح تصـريف أبى عثمان، وكذلك بحـوثه المتعددة فى الخصـائص وسر الصناعـة لتدل على تفـوق كبـير فى هذا الميـدان، وكذلك آراؤه النحوية والتعليل لهـا، ولا غرو فهو من دعاة التـحرر فى الرأى يقول: وإذا صح

(١) نفسه ٢/ ٦١، ٦٢.   (٢) نفسه ١/ ٧١.

(٣) نزهة الألباء ٤٠٦، ٤٠٧، ومعجم الأدباء ١٢/ ٨٢، ٨٣.

لإنسان قول يقتضيه محض القياس فليس ينبغى أن يحجم عن القول به لأنه لم يقله من قبله من الشيوخ، ولو كان هذا مذهبًا صحيحًا لما كان للثانى أن يزيد على الأول ولا أن يأتى بما لم يأت به، ولكان هذا مدعاة إلى العى ومجلبة للحصر[1].

وهو فى كثير مما ينفرد به من آراء أو إيضاح لغوامض المسائل العلمية ينبه على جهده وابتكاره، كأن يقول: وهنا زيادة ما علمتها لأحد من أصحابنا[2]، أو «ولم يذكر أحد من أصحابنا هذا فافهمه»[3]، أو «وفيه عندى شىء لم يذكره أبو على ولا غيره من أصحابنا»[4]، أو «هذا موضع من العربية لطيف لم أر لأحد من أصحابنا فيه رسمًا ولا نقلوا إلينا فيه ذكرًا»[5]، أو كما يقول - بعد أن عرض للحديث عن حرف الألف -: «فهذه أحكام تصريف هذه الكلمة ولست أعرف أحدًا من أصحابنا خاض فيها إلى هاهنا ولا قارب هذا الموضع أيضًا، بل رأيت أبا على وقد نسم فيها شيئًا من القول يسيرًا لم يستوف فيه الحال ولا طار بهذه الجملة، وإنه - بحمد الله والاعتراف له - الشيخ الفاضل والأستاذ المبجل، ولو لم يتضمن هذا الكتاب من الكلام الدقيق غير هذه المسألة لكانت - بحمد الله - جمالاً له ومحسنة حاله»[6]، أو «فاعرف هذه النكت فقد استودعتها ما لا يكاد كتاب ينطوى عليه للطفه»[7]، أو «ولم أر أحدًا من أصحابنا أشبع القول فيها هكذا»[8]، أو «وما علمت أن أحدًا من أصحابنا خاض فى هذا الفن هذا الخوض ولا أشبعه هذا الإشباع ومن وجد قولاً قاله والله يعين على الصواب بقدرته»[9].

---

(١) المنصف ٣/ ١٣٣.

(٢) سر الصناعة مخطوطة الأزهر وجه الورقة ٦٣.

(٣) المحتسب ١/ ٢٥٥.

(٤) نفسه ٢/ ٣٤٣.

(٥) الخصائص ١/ ١٠٨.

(٦) سر الصناعة مخطوطة الأزهر الورقة ١٢٨.

(٧) نفسه مخطوطة الأزهر الورقة ٦٩.

(٨) المنصف ١/ ١٢٧.

(٩) سر الصناعة ١/ ٦٣.

فهو إذن يبرز رأيه ويدل على تفرده به، وللإنصاف نقـول: إنه كان مصيبًا فى كثير من آرائه الجديدة وقيل: إنه ضعيف فى بعضها، ففى اللغة ضعفت نظريته التى وضعـها لمعرفـة الأصل والفرع فى الإبدال - أحـيانًا - على ما نبسطه هناك، وفى الصرف ضَعُفت نظريتـه فى قياسه كثرة فُعُل بالضم بما للجـملة به من أشباه على ما بسطتاه، فى فلسفة البناء اللغوى عنده، وفى النحو ضُعِّف رأيه فى منعه مجىء الباء للتبـعيض، وقـوله: إن ما يحكيه أصـحاب الشـافعى رضى الله عنه من مـجيئـها للتبعيض شىء لا يعـرفه أصحابنا ولا ورد به ثبت[1]، فالشواهد كفيلة بإثبات رأى الشافعى[2]، وقد اعترف بذلك أستاذه الفـارسى، وضُعِّف - كذلك - فى تخريجه لقولهم هذا جـحر ضب خرب[3]، بالجر، وقد أثار عليـه ابن مضاء الأندلسى[4]. ويبـدو أن إنكاره الجـر بالمجاورة، وتخـريجـه هنا قـوى لرده إلى أصـول القواعـد النحوية[3].

ويشيـر كاتبو حـياته إلى أنه كـان «من أحذق أهل الأدب وأعلمـهم بالنحو والتصريف، وعلمـه بالتصريف أقوى وأكمل مـن علمه بالنحو»[5]، وإلى الادعاء بضعفـه فى النحو تشير قـصة ذكرها ابن الأنبارى، فـقد حكى أن الربعى علىّ بن عيسـى وأبا الفتح بن جنى كانا يمشيـان فى موضع، فاجتـازا على باب دار خربة، فرأى الربعى فـيها كلبًـا فقال لابن جنى: قف على البـاب ودخل فلما رآه الكلب يريد أن يقتله هرب وخرج ولم يقدر ابن جنـى على منعه، فقال له الربعى: ويلك يا ابن جنى مدبر فى النحـو ومدبر فى قتل الكلاب![6]، وفى شرح ابن عقيل أن ابن جنى سأله أحد أولاده عن إعراب قول أبى نواس:

غَـيْـرُ مَـأْسُـوفٍ عَلَى زَمَنٍ ... يَنْقَـضِـي بِالْهَـمِّ والحَـزَنِ

فارتبك فى إعرابه[7].

---

(1) سر الصناعة 1/ 139 . (2) أبو على الفارسى د. عبد الكريم شعبان ص65.

(3) الخصائص 1/ 192، 193، والمغنى 2/ 184، 185 وانظر حديثنا عن منهجه، ص140.

(4) الرد على النحاة 96، 97 . (5) البغية 322 . (6) نزهة الألباء 415.

(7) شرح ابن عقيل مع حاشية السجاعى ص58 ومع حاشية الخضرى 1/ 89.

ولكننا لا نصدق هذه الحكايات، وربما كانت وليدة المنافسة ونرى أن ما أخذ عليه هنات قليلة بجانب حسناته الكثيرة، وكما يقول الشاعر:

كَـفَى المَرْءَ نُبْـلاً أَنْ تُعَـدَّ مَعَـايِبُـه

وفى جوهر علمه معنى جديد من البحث الحر، وفلسفة للغة لم يطرقها أحد - على حد تعبيره - وقد كان هو قديراً فى هذا المنهج الفلسفى بحيث يستطيع ببراعته الفائقة أن يستدل بالشىء الواحد على حكمين ضدين، ونعرض مسألة واحدة نفهم منها كيفية هذا الاستدلال، يقول فى باب فى تقاود السماع وتقارع الانتزاع: ومن ذلك قول الآخر:

زَمَـانَ عَلَـيَّ غُـرَابٌ غُـدَافٌ فَطَيَّـرَهُ الشَّـيْبُ عَنِّى فَطَـارَا

فهذا موضع يمكن أن يذهب ذاهب فيه إلى سقوط حكم ما تعلق به الظرف من الفعل، ويمكن أيضًا أن يستدل به على ثباته وبقاء حكمه؛ وذلك أن الظرف الذى هو عليّ متعلق بمحذوف وتقديره غداة ثَبَت عليّ أو استقر عليّ غراب ثم حذف الفعل وأقيم الظرف مقامه، وقوله فطيّره - كما ترى - معطوف، فأما من أثبت به حكم الفعل المحذوف فله أن يقول: إن طيَّره معطوف على ثَبَت أو استقر، وجواز العطف عليه أدل دليل على اعتداده وبقاء حكمه وأن العقد عليه وأن المعاملة فى هذا ونحوه إنما هى معه، ألا ترى أن العطف نظير التثنية ومحال أن يثنى الشىء فيصير مع صاحبه شيئين إلا وحالهما فى الثبات والاعتداد واحدة، فهذا وجه جواز الاستدلال به على بقاء حكم ما تعلق به الظرف وأنه ليس أصلاً متروكًا ولا شرعًا منسوخًا، وأما جواز اعتقاد سقوط حكم ما تعلق به الظرف من هذا البيت فلأنه قد عطف «فطيَّره» على قوله (عليَّ)، وإذا جاز عطف الفعل على الظرف قوِى حكم الظرف فى قيامه مقام الفعل المتعلق هو به وإسقاط حكمه وتوليه من العمل ما كان الفعل يتولاه وتناوله به ما كان هو متناولا له، فهذان وجهان من الاستدلال بالشىء الواحد على الحكمين الضدين، وإن كان وجه الدلالة به على قوة حكم الظرف وضعف حكم الفعل فى هذا وما يجرى مجراه

هو الصواب عندنا، وعليه اعتمادنا وعقدنا، وليس هذا موضع الانتصار لما نعتقده فيه وإنما الغرض منه أن نُرِى وجه ابتداء تفرع القول وكيف يأخذ بصاحبه ومن أين يعتاد الناظر فيه إلى أنحائه ومصارفه[1].

ويبدو لنا من ذلك قوة علم ابن جنى وحذقه وفلسفته اللغوية وبراعته فى التخريج إلى حد أعجز المتقدمين والمتأخرين[2].

ويمكن أن ندرك اعتداده بفلسفته اللغوية من استدلاله لرأيه ولرأى مخالفه على السواء، وقوله: إن هذا ليس مجال الانتصار لما نعتقده[3]، وإنما الغرض فيه إبداء تفرع القول وهو الإبانة عن تصرفه الفلسفى الجدير بالنظر والتقدير.

ويشير إلى ذلك مرة أخرى فى سموق واضح حين يقول فى نهاية الباب الذى اقتطفنا منه المثال السابق «وهذا أمر فيه انتشار وامتداد، وإنما أفرض منه ومما يجرى مجراه ما يستدل به ويجعل عيارا على غيره والأمر أوسع شقة وأظهر كلفة ومشقة، ولكن إن طبِنْتَ له ورفَقت به أولاك جانبه وأمطاك كاهله وغاربه وإن خبطته وتورطته كَدَّكَ مهلُه وأوعرتْ بك سبلُه فرِفقًا وتأملاً»[4].

وإن جانبًا كبيراً من هذه الفلسفة يتصل بحديثه عن النحو والبناء اللغوى.

والحق - كما قال الدكتور طلس - «أن ابن جنى قد بذ كل من جاء بعده... ولئن سبقته فى القرنين الثانى والثالث أئمة من الفحول أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه وأبى بكر بن السراج وأبى عثمان المازنى وغيرهم فإنه قد كان المجلى عليهم جميعًا فى بحوثه التى كانت أساسًا لعلوم القراءات والبلاغة والنحو والتصريف واللغة والنقد[5].

---

(١) الخصائص ١/ ١٠٧، ١٠٨ .

(٢) معجم الأدباء ١٢/ ٨١، ٨٢.

(٣) يرى هو- كما يرى أستاذه وجمهور البصريين- سقوط حكم ما تعلق به الظرف وانتقال الضمير إليه، الأشمونى ١/ ٢٠٠، ٢٠١ وأبو على الفارسى دكتور شعبان ١١٣، ١١٤ ويفهم ذلك من قوله (عندنا) هنا.

(٤) الخصائص ١/ ١٠٨ .

(٥) مجلة المجمع العلمى العربى المجلد ٣٢ ص٦٧١ .

الباب الثانى

اتجاهاته

يلزم بعد أن أشرنا إلى أن ابن جنى مجدد لا مقلد، أن نبين منهجه فى الحياة والعلم ومدى تأثره بأساتذته واستقلاله عنهم فى ذلك، وإن الباحث ليدرك من خلال مؤلفاته وتاريخ حياته تنوع وجهات نظره تبعًا لآراء ارتضاها لنفسه وخبرات واسعة بالعلم والاجتماع على السواء، ويمكن حصر هذه الاتجاهات فيما يأتى: (اتجاه دينى - اتجاه لغوى ونحوى - اتجاه فى الاحتجاج للقراءات - اتجاه أدبى).

ثم مصدر ذلك كله وهو الأمانة العلمية فى رواية اللغة وموقفه من الرواة، وهذا يتطلب منا أن نفصل تلك النواحى بما يكشف عن استقلاله فى الرأى وتأثره بغيره فيه.

ونحن نستعين بالله تعالى ونبين ذلك على الترتيب المشار إليه.

اتجاهه الدينى

لقد كان والد أبى الفتح روميا مملوكًا لسليمان بن فهد - كما قلنا سابقًا - والمعتقد الراجح أنه أسلم وحسن إسلامه، فقدم للإسلام والعربية هذا العبقرى الفذ الذى كشف أسرارها وأبان عن شرفها وسموها على اللغات الأخرى، وقد أثبتت الدلائل القوية أن ابن جنى كان فى اعتقاده معتزليا وفى الفقه حنفيًّا، وسنوضح كلا الجانبين.

١- اعتزاله:

اختلف الباحثون المحدثون ممن كتبوا حياة أستاذه أبى على الفارسى فى عقيدته، فمنهم من توقف فى أمره فلم يجزم بمذهبه، هل كان معتزليا أو سنيا أو شيعيا؟ فمحققو كتاب الحجة لم يدلوا برأى فى ذلك قائلين: «لا نكاد نجد فيما بين أيدينا من كلام أبى على نفسه ما ينم على تميزه فى العقيدة بنحلة أو مذهب»[1]،

(١) الحجة المطبوع من مقدمة المحققين، ص٥.

كما أن أوثق المصادر التاريخية لا تجزم بذلك»[1]، ومنهم من أثبت له عقيدتى الاعتزال والتشيع، فالدكتور عبد الفتاح شلبى يقيم الأدلة على أن أبا على كان معتزليا وكان كذلك شيعيا من غير شك أو مراء[2]، ومنهم من يثبت له الاعتزال، فالدكتور عبد الكريم شعبان يقول: إنه كان متهمًا بالاعتزال ويورد الأدلة من أحد كتبه وهو الإيضاح بما يؤكد أنه كان معتزليا[3]، وكذلك الدكتور طلس الذى أقر بذلك وقال: إنه كان يحبب إلى تلاميذه مذهب الاعتزال[4]، وكذلك محققو سر الصناعة قالوا: «إنه كان متهمًا بالاعتزال وأن الخلافة حين قلبت للاعتزال ظهر المجن صار تهمة وصار كثير من العلماء يسترون اعتزالهم ولعل منهم أبا على الفارسى»[5]، وأقروا بعد ذلك بأنه وتلميذه ابن جنى «كانا فى العقيدة معتزليين»، ولم يكونا شيعيين مع ما كانا فيه من نعم البويهيين وهم شيعيون وإنما صانعاهم[6]، كما قال محققا المنصف: - ولعل أحدهما هو كاتب هذا الفصل عن أبى على الفارسى فى مقدمة سر الصناعة - ونؤيد هذا القول هنا ونقول: لم يرو عنه ولا عن أحد تلاميذه أو أحد شيوخه أو أحد ممن كتب ترجمته - وهم كثير - تصريح بأنه شيعى، وكتاب أبى على الفارسى للدكتور شلبى وهو الكتاب الأول الجامع لتاريخ أبى على الفارسى جمع استقصاء وتمحيص ليس فيه نص واحد صريح بأن أبا على الفارسى كان شيعيًا مع حرص مؤلفه الشديد على الظفر بهذا النص «وقالا: إن ما استنبطه مؤلفه من المقدمات التى جمعها من أنه كان شيعيا فإنا نقدر جهوده واجتهاده فى ذلك لا أقل ولا أكثر»[7].

---

(١) نفسه، ص٦.

(٢) أبو على الفارسى، د. شلبى، ٧٦-٨٧.

(٣) أبو على الفارسى، د. شعبان، ص٢٩.

(٤) مجلة المجمع العلمى ٣٠/ ٤٥١، ٤٥٢.

(٥) مقدمة سر الصناعة، ٢٩.

(٦) نفسه، ٣٤، وانظر مقدمة المحقق لشرح أرجوزة أبى نواس، ص٧٧.

(٧) من خاتمة التحقيق لكتاب المنصف ٣/ ٣٤٥، ٣٤٦.

ومن هذا العرض الموجز يتضح لنا الخلاف الدائر بين هؤلاء الكاتبين عن عقيدة أبى على الفارسى، ولعل هذا الخلاف المستحر ناشئ عن عدم وضوح الموقف وانجلائه وبخاصة أن مؤلفاته تقتصر على العربية وتخريجاتها ولا تشير فى كثير من النصوص إلى عقيدة أو مذهب.

أما تلميذه ابن جنى فالموقف بالنسبة له واضح تمام الوضوح فمؤلفاته الكثيرة تحوى نصوصًا تصرح بأنه كان معتزليا لأنه يأخذ بمبادئهم ومعتقداتهم، فقد اعتقد المعتزلة - كما هو معروف عنهم - أنه يجب على الله كل ما هو عدل من فعل الأصلح للعباد وثواب المطيع وعقاب العاصى وجعلوا الصفة بالنسبة لله تعالى - عين الذات خشية تعدد القدماء، وهم لذلك يعرفون بأنهم أهل العدل والتوحيد[1]، حتى قال الزمخشرى فى الكشاف[2] - وهو معتزلى -: «ولقد رأيت إخواننا فى الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية الجامعين به علم العربية والأصول الدينية كلما رجعوا إلىّ فى تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب أفاضوا فى الاستحسان والتعجب»، ثم قال: فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد[3].

وقد أوضح ابن جنى اتباعه لهم فى ذلك قال فى مقدمة الخصائص: الحمد لله الواحد العدل القديم[4]، وقال فى سر الصناعة: وليس يريد النحويون بالصفة ما يريد المتكلمون بها من نحو القدرة والعلم والسكون والحركة لأن هذه الصفات غير الموصوفين بها، ألا ترى أن السواد غير الأسود والعلم غير العالم والحركة غير المتحرك، وإنما الصفة عند النحويين هى النعت والنعت هو اسم الفاعل أو المفعول أو ما يرجع إليهما من طريق المعنى مما يوجد فيه معنى الفعل نحو ضارب

---

(١) الخطط ٢/ ٣٤٥.

(٢) توفى سنة ٥٣٨، البغية ٢/٢٧٩، ٢٨٠.

(٣) مقدمة الكشاف ١/ ٣.

(٤) مقدمة الخصائص لابن جنى ١/ ١.

ومضروب ومثل وشبه ونحو، وما يجرى مجرى ذلك، وإذا كانت الصفة هى الموصوف عندنا فى المعنى لم يجز إضافة الحرف إلى المعجم.. إلخ[1].

ويقول فى كتابه التمام عند شرحه البيت:

فَإِنْ كُنْتُ لا أَدْرِي الظِّبَاءَ فَإِنَّنِي أَدُسُّ لَهَا تَحْتَ التُّرَابِ الدَّوَاهِيَا

ومن هنا لم يجز عندنا أن نطلق على القديم سبحانه أنه دارٍ كما يقال فيه عالم، وذلك أن معنى دريت الشيء من معنى دريت الصيد، وذلك أن معنى دريت به أى تأتيت لعلمه ومعرفته وتلفظت فيه كما تتأتى للصيد فتختله وهذا معنى منزه عنه القديم سبحانه[2]، ويقول فى الخصائص: ولسنا نثبت له سبحانه علمًا لأنه عالم بنفسه[3]، ويقول فيه كذلك: وأما قول الله عز وجل ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء]، فليس من باب المجاز فى الكلام بل هو حقيقة، قال أبو الحسن: خلق الله لموسى كلاما فى الشجرة فكلم به موسى، وإذا أحدثه كان متكلمًا به فأما أن يحدثه فى شجرة أو فم أو غيرهما فهو شيء آخر لكن الكلام واقع ألا ترى أن المتكلم منا إنما يستحق هذه الصفة بكونه متكلمًا لا غير لا لأنه أحدثه فى آلة ناطقة وإن كان لا يكون متكلمًا حتى يحرك به آلات نطقه[4].

فهذه النصوص واضحة فى إفادة انتهاجه مذهب الاعتزال فهو يعتقد بالعدل والتوحيد وكون الصفة عين الذات، كذلك فالمعروف عن المعتزلة أنهم يقولون: إن العبد يخلق أفعاله بنفسه بقوة أودعها الله فيه بخلاف أهل السنة الذين يقولون بأن الله تعالى هو خالق أفعال العباد وليس لهم فيها إلا جريانها على أيديهم فقط وهو ما يسمونه باسم الكسب[5]، وقد ذكر ابن جنى فى الخصائص ما يفهم اعتقاده

(١) سر الصناعة ١/٣٨، ٣٩.

(٢) التمام فى تفسير أشعار هذيل ١٩٠، ١٩١.

(٣) الخصائص ٢/٤٤٩.

(٤) نفسه ٢/٤٥٤ وهو يناقش على أساس مذهب المعتزلة فى إنكار الكلام النفسى لله سبحانه وتعالى.

(٥) دراسات فى التاريخ الإسلامى ١٠٨.

بمذهب المعتزلة فى ذلك أيضًا قال: «وكذلك أفعال القديم سبحانه نحو خلق الله السماء والأرض وما كان مثله، ألا ترى - أنه عز اسمه - لم يكن منه بذلك خلق أفعالنا ولو كان حقيقة لا مجازًا لكان خالقًا للكفر والعدوان وغيرهما من أفعالنا عز وعلا»[١].

ويقول فى موطن آخر: «إن كل فاعل غير القديم سبحانه فإنما الفعل منه شىء أعيره وأعطيه وأقدر عليه فهو وإن كان فاعلاً فإنه لما كان معانًا مقدرًا صار كأن فعله لغيره، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ... ⑰﴾ [الأنفال]، نعم، وقد قال بعض الناس: إن الفعل لله وإن العبد مكتسبه وإن كان هذا خطأ عندنا، فإنه قول لقوم[٢]، وهذا صريح فى مذهبه الاعتزالى إذ يشير إلى خطأ رأى أهل السنة فى أفعال العباد وأنه ليس منهم.

ومن مبادئ المعتزلة أيضًا القول بالمنزلة بين المنزلتين[٣]، فأجرى ابن جنى بعض الأحكام النحوية على هذا المبدأ، فقد جعل بعض الأحكام تقف بين أمرين فى باب عنوانه (باب فى الحكم يقف بين الحكمين)، ومن آرائه فيه: أن كسرة ما قبل ياء المتكلم فى نحو غلامى وصاحبى لا إعراب ولا بناء[٤]، ونحو الرجل وغلامك وصاحب الرجل هذه الأسماء لا منصرفة ولا غير منصرفة[٥]، ويوضح أن ذلك منزلة بين المنزلتين حين يقول: وكذلك سواء قوله:

يَا مَرْحَبَاهُ بِحِمَارِ نَاجِيَةْ   إِذَا أَتَى قَرَّبْتُهُ لِلسَّانِيَةْ

فثبات الهاء فى مرحباه ليس على حد الوقف ولا على حد الوصل أما الوقف فيؤذن بأنها ساكنة: يا مرحباه «وأما الوصل فيؤذن بحذفها أصلاً: «يا مرحبا بحمار ناجية» فثباتها إذًا فى الوصل متحركة منزلة بين المنزلتين، وكذلك سواء قوله:

---

(١) الخصائص ٢/ ٤٤٩ .   (٢) نفسه ٢/ ٢١٣.
(٣) الخطط ٢/ ٣٤٥ .   (٤) الخصائص ٢/ ٣٥٦.
(٥) نفسه ٢/ ٣٥٧.

بِبَـــازِلٍ وَجْنَاءَ أَوْ عَـــيْـــهَلٍ

فإثبات الياء مع التضعيف طريف، وذلك أن التثقيل من أمارة الوقف والياء من أمارة الإطلاق، فظاهر هذا الجمع بين الضدين فهو إذًا منزلة بين المنزلتين[١].

ويبدو بعد هذه النصوص الصريحة أنه معتزلى، ويقول الدكتور طلس: إن آثار ابن جنى فيها روح الاعتزال فهو فى الخصائص وسر الصناعة يكثر من تحكيم العقل وطرد الأقيسة وحب المجادلة التى تماشى العقل والمنطق وبخاصة أبحاثه الأولى فى الخصائص[٢]، بل إنه قد بالغ فى وصفه بذلك فعده «من كبار علماء الكلام»[٣]، وقد صرح السيوطى بأن ابن جنى «كان معتزليا كشيخه الفارسى»[٤].

بيد أن ابن جنى - لحريته العلمية وذهابه إلى الرأى الصحيح أيًا كان قائله - نراه يأخذ ببعض آراء أهل السنة مخالفًا مذهبه الاعتزالى، فقد رأى الوقوف عند النص فى نشأة اللغة إذا ثبتت صحته فقال فى الكلام على مذهب التوقيف: «وإذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاده والانطواء على القول به»، والاعتماد على الأدلة السمعية من قرآن وحديث وآثار السلف - غالبًا - فى الأخذ بالأحكام وتعليلها مذهب أهل السنة أما المعتزلة فقد (اعتمدوا فى بحثهم على الأدلة العقلية أكثر من اعتمادهم على الأدلة النقلية)[٥]، والمعروف عن المعتزلة فى نشأة اللغة أنهم قالوا إنها اصطلاحية تواضع المجتمع البشرى عليها، ولكن ابن جنى لم يجزم برأى فيها.

وهو يرى أن «علل الفقه أعلام وأمارات لوقوع الأحكام»[٦]، «وذلك منهج أهل السنة، والمعتزلة يرون أن علل الفقه مؤثرة فى الأحكام الشرعية باعثة

(١) نفسه ٢/٣٥٨، ٣٥٩.
(٢) مجلة المجمع العلمى ٣٠/ ٤٥٢.
(٣) نفسه ٣١/ ٤٥٢.
(٤) الأشباه والنظائر ١/ ٣١١ والمزهر، ط١، ٦٨.
(٥) دراسات فى التاريخ الإسلامى ١٠٨.
(٦) الخصائص ١/ ٤٨.

عليها»[1]، وأيضًا فإن ابن جنى - تبعًا لروح العصر الذى عاش فيه - قد صانع الشيعة فرأينا بعض عبارات تصور ميولهم، لكنه فى الوقت نفسه يذكر ما يخالفها فى أماكن أخرى، مما يشعر بأنها مصطنعة لإخفاء موقفه عند قوم يعاشرهم ويعيش فى كنفهم ويخالفهم فى مذهبهم، فالبويهيون كانوا شيعة فلما قامت دولتهم ببغداد سنة ٣٣٤هـ، أظهروا مذهب التشيع فقويت مذاهب الشيعة، وكتبوا على أبواب المساجد لعن الله معاوية بن أبى سفيان، ولعن الله من أغضب فاطمة ومن منع الحسين أن يدفن عند جده، ثم أمر الوزير المهلبى - بإذن معز الدولة - بأن يكتب لعن الله الظالمين لأهل البيت[2]، وجهر الشيعة فى الأذان بحى على خير العمل فى الكرخ[2]، وقد ذكرنا عند حديثنا عن الحال السياسية والاجتماعية بعض مظاهر احتفال الشيعة بيوم عاشوراء وكان ذلك بإذن من معز الدولة البويهى»[3]، وابن جنى صديق البويهيين وقد لازمهم فى دورهم - كما حدثتنا المصادر التاريخية - ولدينا أكبر دليل من آثاره وهو إهداؤه كتاب الخصائص إلى بهاء الدولة بن بويه[4]، ولما كان شيعيا فإن ابن جنى قد أجرى عبارة الصلاة على النبى وآله موافقة لمذهبهم فقد منع دخول (على الجارة) على كلمة الآل تابعًا لهم فى ذلك، فقال: وصلى الله على صفوته محمد وآله المنتخبين وعليه وعليهم السلام أجمعين[5]، على حين يبدو فى العبارة الأولى الخاصة بحمد الله موافقًا للمعتزلة وهو مذهبه الحقيقى، حين صرح بقوله: «الحمد لله الواحد العدل القديم»[4]، وهو كذلك يورد لفظ الصلاة على (على بن أبى طالب) رضى الله عنه وكرم الله وجهه، فيقول فى باب الاشتقاق الأكبر: ومنه قول علىّ صلوات الله عليه: إلى الله أشكو عجرى وبجرى[5]، وفى المحتسب يسلم عليه كثيراً عند ورود القراءة

---

(١) مقدمة الخصائص للشيخ النجار ١/ ٤٤.

(٢) الخطط ٢/ ٣٥٧، ٣٥٨.

(٣) انظر ص ٢٣ من الباب الأول.

(٤) الخصائص ١/ ١.

(٥) نفسه ٢/ ١٣٥.

الشـاذة عن طريقه فـيقـول: ومن ذلك قـراءة علىّ (عليه السـلام)[1]، والصلاة والسلام على سيدنا عـلىّ كرم الله وجهه، كانت مظهراً من مظاهر الشـيعة بيد أن ابن جنى يتخلى عن ذلك الوصف ويعود إلى الصفة المشهورة له (كرم الله وجهه) كأنه يريد بذلك الإفصاح عن رأيه فى عدم اعتـقاده المذهب الشيعى فيقول: «ومن ذلك قراءة على بن أبى طالب كرم الله وجهه[2]، ويصفه بما يوصف به الصحابة جميعًا وهو (رضى الله عنه)، فـيقول: ومن ذلك قراءة على بن أبى طالب رضى الله عنه[3]، وتارة يجـرده من الصفات جـميـعًا فـيقول: «ومن ذلك قـراءة على ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ [النبأ]»[4] - بكسر الكاف وفـتح الذال خفيـفة - وإذا جمع اسمه مع صحابة آخرين فتارة يصلى عليه وحده فيقول: «قرأ - ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [النجم] - جَنَّهُ بالهـاء - على (عليه السلام) وابن الزبيـر - بخلاف - وأبو هريرة وأنس - بخـلاف - وأبو الدرداء، وزر بن حـبـيش وقـتـادة ومحـمـد بن كعب»[5].

وتارة أخرى يصلى عليهم جميعًا فيقول: «ومن ذلك قراءة على وابن عباس عليهما السلام»[6]، وأخرى يدعو لهم بالرضوان من الله تعالى فيقول: «ومن ذلك قراءة على وابن عبـاس رضى الله عنهما»[7]، ومن ذلك قراءة على بن أبى طالب وابن مـسعـود رضى الله عنهمـا[8]، أو ومن ذلك قـراءة على وابن عبـاس وابن مسعود وأبى بن كعب رضى الله عنهم[9].

---

(١) المحتسب ١/ ٢٣٣، ٣٣٧، وغيرها.

(٢) نفسه ٢/ ١٢٢، ١٥٩.

(٣) نفسه ٢/ ١٤.

(٤) نفسه ٢/ ٣٤٨.

(٥) نفسه ٢/ ٢٩٣، وذلك فى الآية ١٥ من سورة النجم.

(٦) نفسه ٢/ ٣٤، ٣٨، ٥٨.

(٧) نفسه ٢/ ١٧٣، ٢٧٠.

(٨) نفسه ٢/ ٢٥٧.

(٩) نفسه ٢/ ١٣.

أما إذا ورد اسمه أو اسم الصحابة مع النبى ﷺ فإنه يفرد النبى صلوات الله وسلامه عليه بالصلاة والسلام، فيقول: ومن ذلك قراءة على وابن عباس - ورويت عن النبى ﷺ[1]، أو «قرأ - ﴿مَا وَدَّعَكَ ... ۝٣﴾ [الضحى] وَدَعَك خفيفة - النبى ﷺ وعروة وابن الزبير[2]، أو قرأ - ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣﴾ [الليل] بغير ما - النبى ﷺ وعلى بن أبى طالب وابن مسعود وأبو الدرداء وابن عباس رضى الله عنهم»[2].

وأعتقد أن هذه النصوص التى نقلتها عنه كفيلة بأن تثبت أنه لم يكن شيعيا، فالتقليد الخاص بسيدنا على عند الشيعة لا يرد عند ابن جنى دائمًا بل نجده مفارقًا له وراجعًا إلى الجماعة فى أحيان كثيرة، كما أنه لا يهمل الثناء على الصحابة أيضًا وبنفس اللقب الذى يخصه به الشيعة، ليدل بذلك على تساوى الصحابة رضوان الله عليهم أمام اعتقاده فى إجلالهم وإكبارهم، وإنما تخرج منه تلك التعبيرات الخاصة مصانعة للملوك والأمراء وذوى الشأن من النابهين فى هذا العصر والذين يعيش بينهم ويصادقهم.

ويدل على هذه المصانعة - بوضوح - قصة وردت فى المحتسب ونحن نأتى بها ليتأكد ذلك: فعند الاحتجاج لقراءة ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ... ۝١٥٩﴾ [الأنعام] بالتخفيف (فَرَقُوا)، أورد رأيه فى أن أكثر اللغة مجاز ثم يقول: وهذا موضع يسمعه الناس منى ويتناقلونه دائمًا عنى فيكبرونه ويكثرون العجب به فإذا أوضحته لم يسأل عنه استحياء، وكشفت هذا الموضع يوما لبعض من كان له مذهب فى المشاغبة (عفا الله عنا وعنه) فتوقف فيه ثم قال: أو كذلك أفعال القديم عندك؟ فقلت: هذا موضع لا تعلق له يذكر القدم والحدوث وإنما هو طريق مسلوك يتعاقبها القديم والمحدث تعاقبا واحدًا ألا تراك تقول: خلق الله كذا، أفتظن أن هذا ينتظم كل خلق فى الوهم؟ فإن قلت: نعم لزمك أن يكون هو الخالق لأفعال العباد ومذهبك ناف لهذا عندك، فلما بلغ الموضع بنا إلى هذا أمسك، ثم مضى فقرأ شيئًا من كلام شيخنا فعاد معترفًا بما قلت له منه»[3].

---

(١) المحتسب ٢/ ٣١٠.

(٢) نفسه ٢/ ٣٦٤، وذلك من الآية ٣ من سورة الضحى، وفى الآيتين ٢، ٣ من سورة الليل.

(٣) نفسه ١/ ٢٣٩.

فهـذا النص صريح فى اعتـقاده بأن العبـد يخلق أفعـاله بنفسه - كـما هو مذهب المعتزلة - ثم إن القـصة تحمل معنى التستـر فى هذا الاعتقاد إذ يوضح ابن جنى أن السـائل كان يشاغـبه، وقـد ناقشه فى تـلك المسألة وهو يخـشى عواقب ظهورها، ولذا فـعندما أفصح عنها أمـسك وترك الخوض فى موضوع كـهذا حتى اقتنع السائل بوسائل أخرى بعد ذلك.

فلم أمسك عن الحديث؟ مع أن ابن جنى - كما هو معروف عنه - لا يترك السائل حتى يقـتنع بما يورده من حجج وبراهين طويلة، أعتـقد أن سبب ذلك هو ترك الخوض فى مـسألة تمس العقـيدة وربما ينكشف أمـره عند أولى الأمر فتـسوء العلاقة والسيرة.

وبهذا يخلص لنا أن مذهبه هو الاعتزال.

٢- مذهبه فى الفقه:

الظاهر أن أستاذ ابن جنى أبـا على قد اعتنق المذهب الحنفى، ففى كتـبه ما يشهد لذلك، إذ يرد فـيها ذكر أعـلام هذا المذهب لتأصيل العربيـة على ما قالوه، فيستشهد بأقوال لأبى يوسف ومحمد، ومن ذلك استدلاله على المعنى الذى ذهب إليه فى تفـسير الحديـث الشريف «لا يقتل مسلـم بكافر ولا ذو عهد فى عـهده». بقول أبى يوسف، يقول الفارسي: المعنى لا يقتل مـؤمن بكافر حربى ولا ذو عهد فى عهده بكافـر. قال أبو يوسف: ولو كان المعنى لا يقـتل مؤمن به كان ولا ذى عهد فى عهده[1]، ومن ذلك أيضًا استدلاله برأى لمحـمد بن الحسن على أن الفاء تدخل على الخـبر إذا كـان فى الكلام معنى الجـزاء، يقول: «ومن ثـم قال: (أى محـمد بن الحسن) فيـمن قال: المرأة التى أتزوجهـا فهى طالق، إنه من تزوج من النسـاء طلق لدخول مـعنى الجـزاء الكلام وإلحاق الـفاء من أجله والجـزاء يوجب الشياع والإبهام واستـغراق الجميع لذلك»[2]، وقد حدث ابن جنى عن أستاذه أنه

---

(١) الحجة ١/ ٢٦، ٢٧.

(٢) نفسه ١/ ٣٤.

وقع حريق فى مدينة السلام ذهبت به كتب العلم عند الفارسى ،ولم يبق منها إلا نصف كتاب الطلاق عن محمد بن الحسن[1].

ويبدو - كما قال أستاذنا الشيخ النجار - أن ابن جنى كان حنفى المذهب، فإن لم يكنه فقد كان له هوى فى هذا المذهب وانعطاف نحوه[2]، فكتبه شاهدة - أيضًا - على ذلك، إذ يرد فيها ذكر أعلام المذهب الحنفى كأبى حنيفة النعمان إمام المذهب، وأبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى صاحبيه والإمام أبى بكر أحمد ابن على الرازى (الجصاص) كبير فقهاء الحنفية فى عصر ابن جنى، وهو يتحدث بأنه كان يحتذى هذا المذهب فى أصول اللغة والنحو، فعند تأصيله لباب (الدور والوقوف منه على أول رتبة)، يذكر ما يفيد بناءه على أقوال أبى حنيفة ومذهبه فيقول فى أوله: هذا موضع كان أبو حنيفة رحمه الله يراه ويأخذ به[3]، وفى باب (فى اللفظين يردان عن العالم متضادين) يستشهد فى رجوع العالم عن رأيه ومذهبه بحكاية عن أبى يوسف يقول: وحدثنا أبو على قال: كان أبو يوسف إذا أفتى بشىء أو أملى شيئا فقيل له: قد قلت فى موضع كذا غير هذا. يقول: هذا يعرفه من يعرفه. ويعلق ابن جنى بما يؤيد كلامه فى هذا الباب مستنبطا ذلك من قول أبى يوسف، فيقول عقبها مفسرا لها: «أى إذا أنعم النظر فى القولين وُجِدا مذهبا واحدًا»[4]، وفى باب (فى تخصيص العلل) يهتدى فى جمعه ما تفرق من علل العربية بما عمله العلماء فى استنباطهم العلل المنثورة فى كتب محمد بن الحسن فيقول: «هذا الذى يرجعون إليه فيما بعد متفرقا قدمناه نحن مجتمعا، وكذلك كتب محمد بن الحسن رحمه الله إنما ينتزع أصحابنا منها العلل لأنهم يجدونها منثورة فى أثناء كلامه فيجمع بعضها إلى بعض بالملاطفة والرفق، ولا تجد له علة فى شىء من كلامه مستوفاه محررة وهذا معروف من هذا الحديث عند الجماعة غير منكور[5].

---

(١) سر الصناعة، مخطوطة الأزهر ورقة ١١٦.

(٢) مقدمة الخصائص ١/ ٤٠.   (٣) الخصائص ١/٢٠٨.

(٤) نفسه ١/٢٠٦.

(٥) نفسه ١/١٦٢، ١٦٣.

وهذا النص الأخير يثبت اعتناقه للمذهب الحنفى فكلمة (أصحابنا) تعنى أصحاب المذهب الحنفى وقد نسبهم إلى نفسه، وقوله: (لا نجد له علة فى شىء من كلامه مستوفاة محررة.. إلخ) يدل على اطلاعه على كتبه وأنه قرأها بإمعان، وهو يخالط أرباب هذا المذهب من أصحابه ورفاقه ويجلس إليهم ويناقشهم فى ذلك.

ويقوى هذه الوجهة وأنه كان حنفيا يجالس الأحناف ويعاشرهم ويناقشهم فى المسائل الدينية واللغوية ما يحكيه عن حوار جرى بينه وبين الإمام أبى بكر أحمد بن على الرازى وهو شيخ الحنفية ببغداد آنذاك، يقول ابن جنى: وقلت مرة لأبى بكر أحمد بن على الرازى - رحمه الله - وقد أفضنا فى ذكر أبى على ونبل قدره ونباوة محله: أحسب أن أبا على قد خطر له وانتزع من علل هذا العلم ثلث ما وقع لجميع أصحابنا فأصغى أبو بكر إليه ولم يتبشع هذا القول عليه[1].

ويفهم هذا النص الصداقة والصلة الوثيقة بين ابن جنى وهذا العالم الحنفى الكبير، ويعطينا إشارة قوية إلى مصاحبته للأحناف وانتحائه منحاهم الدينى، كما يدل النص أيضًا على وجه الارتباط الوطيد بين مذهب الحنفية فى الفقه ومذهب أبى على الفارسى وتلميذه ابن جنى فى اللغة والنحو، فالمذهب الحنفى يعتمد على العقل والنظر كثيرا فى الاستدلال على الأحكام الدينية، وكذلك مذهب الأستاذ وتلميذه يعتمد عليهما فى تعليل الأحكام اللغوية والنحوية، وهذا ابن جنى يؤلف كتابا فى الفقه عنوانه (مسألتان من كتاب الأيمان لمحمد بن الحسن الشيبانى) ذكره بروكلمان وهو موجود - على حد قوله فى الفاتيكان - يضاف إلى هذا أن ابن جنى وأستاذه عراقيان وقد انتشر المذهب الحنفى هناك، ونلحظ من كلام ابن جنى انتصاراً لمذهبه الذى اعتقده فيدافع عنه فى المسائل اللغوية، ومن ذلك ما أوردناه سابقًا من منعه ورود الباء للتبعيض خلافا للشافعية فى ذلك معتمداً على أنه لم يرد به ثبت ويقول: إنه لم يعرفه أصحابنا[2]، وكذلك يذهب إلى إفادة الواو لمطلق الجمع بمعنى أنها «لا تفيد ترتيبا ولا تعقيبا» ويستدل على ذلك بقول لبيد:

---

(١) الخصائص ١/٢٠٨.

(٢) سر الصناعة ١/١٣٩.

أغلِى السِّبـاءَ بِكُلِّ أَدْكَنَ عاتِقٍ أَوْ جَوْنَةٍ قُدِحَتْ وفُضَّ خِتامُها[1]

قدحت: عرفت، ومنه سميت المعرفة مقدحة - فُضَّ ختامها: فُتح رأسها، وإنما تعرف بعد أن يفتح رأسها، فقدحت مقدم فى اللفظ مؤخر فى المعنى، وقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي ... (٤٣)﴾ [آل عمران] قدم السجود على الركوع، ثم يقول: وبهذا أخذ أبو حنيفة رحمه الله فى قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ... (٦)﴾ [المائدة][2]، وهذا دليل آخر على مناصرته لمذهب أبى حنيفة على مذهب الشافعى رحمهما الله، وانطلاقا من هذه النصوص الواضحة يبدو لنا أن ابن جنى كان حنفيا.

اتجاهه اللغوى والنحوى

مقدمة تاريخية:

لقد حاول العلماء منذ ظهر الإسلام وكتابه الحفاظ على دين الله وطريق ذلك هو الاهتمام باللغة العربية التى نزل بها كتاب الله، ولما طرأ اللحن على الألسنة كان ذلك دافعا قويا لجمع اللغة من الأعراب الخلص أربابها والمالكين لها، ثم وضع القواعد الضابطة لها حتى لا تتلاشى أمام سيل العجمة القادم إليها من البلاد المفتوحة[3]، وقد كانت الأبحاث اللغوية أول الأمر تقتصر على جمع الألفاظ دون دراسة لها، لأن هم العلماء الأكبر - حينئذ - هو ضبطها وتدوينها فرأينا الرواة كالأصمعى[4] وأبى عبيدة[5] وأبى زيد، يذهبون إلى البادية ويجمعون الألفاظ، وقد انتهت تلك المرحلة بتدوين طائفة من الألفاظ فى كتب خاصة فى الإبل والخيل والوحوش والنبات والشجر والأنواء، وأظهر الكتب فى ذلك كتب

(١) السباء: زق الخمر ويطلق على الخمر، الأدكن: الذى يضرب إلى الغبرة بين الحمرة والسواد والمراد بالجون هنا: الأسود المشرب حمرة.

(٢) سر الصناعة، مخطوطة الأزهر، الوجه الثانى من الورقة ١٢١، ولسان العرب ١٧/ ١٣، ١٤.

(٣) مقدمة ابن خلدون ٤/ ١٢٥٥، ١٢٥٦.

(٤) توفى سنة ٢١٦ طبقات الزبيدى ١٨٢-١٩٢.

(٥) توفى سنة ٢١٠ أو ٢١١هـ أو غيرها، طبقات الزبيدى ١٩٢، والفهرست ٧٩.

الأصمعى وأبى حنيفة الدينورى[1]، ثم ظهرت كتب تجمع ألفاظ اللغة الموضوعة للمعانى المختلفة كألفاظ ابن السكيت والألفاظ الكتابية للهمذانى[2]، وقد بدأت مدرسة اللغويين تتناول هذه المفردات بالبحث على نحو يجمع الجزئيات وما يتصل بها من قصص أدبية وتاريخية ولغوية «كالذى نجده فى كتب المبرد وكتب الأصمعى وكتب أبى على القالى[3]، وهى كتب تشتمل على كثير من أخبار العرب ومباحث الأدب وقصص التاريخ والمفردات اللغوية»[4].

وإلى جانب ذلك كانت البحوث النحوية التى تضع القوانين لضبط اللغة قد أخذت طريقها إلى الظهور على يد علماء النحو، وبخاصة فى القرن الثانى الهجرى، وقد كان لظهور مدرستى البصرة والكوفة أثر كبير فى هذا المضمار من تعليل القواعد وإرسائها على نهج جديد لم تألفه العربية من قبل إلا أنه كان يحذو حذو السليقة بوجه عام، كما ظهرت فى هذا العصر كتب نحوية ولغوية ككتاب سيبويه والمقاييس فى النحو والاشتقاق للأخفش والعلل فى النحو لقطرب والقلب والإبدال لابن السكيت والاشتقاق للأصمعى والأبنية والتصريف للجرمى والتصريف للمازنى[5].

وكان الخليل بن أحمد الفراهيدى[6] أول من نظر إلى البحث اللغوى بطريقة جدية «وأول من التفت إلى صلة الدرس الصوتى بالدراسات اللغوية الصرفية والنحوية. . . فقد رتب حروف الهجاء ترتيبا صوتيا وعلى أساس لغوى هو قربها بحسب المخارج فى الفم. . . فكان منطلقا إلى معرفة خصائص الحروف وصفاتها. . . . وقد وضع الخليل بذلك يده على مفتاح السر فى وجود ظواهر

---

(١) توفى سنة ٢٨٩، طبقات الزبيدى ٢٣٤.

(٢) توفى سنة ٣٢٧، الإنباه ٢/ ١٦٥، وزيدان ٢/ ٢٢٠.

(٣) توفى سنة ٣٥٦، المعجم ٧/ ٢٥-٣٣.

(٤) مجلة المجمع العلمى ٣١/ ٤٦٢.

(٥) فقه اللغة للمبارك، ص١١، ١٢.

(٦) توفى سنة ١١٧٠ أو ١٧٥، طبقات الزبيدى ٤٣-٤٧.

لغوية لم تكن إلا على أساس الأصوات واتصال بعضها ببعض فى كلمات كالإبدال والإدغام... ولابد للوصول إلى ذلك من معرفة صفات الحروف فتحدث عنها ودرس مخارجها وصفاتها كالجهر والهمس وغيرهما[1]، كما وضع الخليل أول معجم متناسق يضم ثروة ضخمة من ألفاظ اللغة مرتبة بحسب منهج دقيق يقوم على أساس مخارج الحروف هو «العين» وقد رتبه ترتيبًا دقيقًا على ما وصفه أستاذنا الدكتور نجا[2]، ولكن أحدًا لم يتم ما بدأ به الخليل[3].

وكانت الدراسة اللغوية فى هذه المدة حتى نهاية القرن الثالث تقتصر -كما قال السيوطى-: على أحد طرق أربعة هى الإملاء والإفتاء والتعليم والرواية[4]، وكانت طريقة العلماء فى ذلك تتجه إلى المفردات لا إلى التراكيب والجمل ثم إنها كانت أشبه بجمع معلومات عامة غير مترابطة ولا منظمة، ولكن القرن الرابع الذى شهد تحولات هامة فى نظام الحياة والفكر صقل الدرس اللغوى وجعله يتجه ناحية التنظيم والتأمل العميق الجذور المبنى على أسس ومبادئ أوحت بها ثقافة العصر واتجاهاته، فكتب الأجانب أصبحت فى متناول الأيدى العربية تستطيع أن تأخذ منها ما شاءت من فلسفة وطب ونجوم ورياضيات وغيرها مما يشحذ الذهن ويفتق الفكر، كما أن مبدأ الاعتزال كان قد قوى فى هذا القرن واعتنقه كثير من النحاة ولا ريب أنه طريق عقلى حر. ويقول الدكتور طلس: «إن هذه الظاهرة ترينا ارتباط النحو والنحاة بالحرية الفكرية التى يميل إليها المعتزلة فى بحوثهم»[5]، فاتجه البحث النحوى اتجاهًا دقيقًا نحو التنظيم والترتيب والربط ومعالجة القضايا الكلية بطريقة علمية تجمع عن العرب مادة البحث ثم تنظر فيها وتضع لها المقومات والأسس مستنتجة منها مبادئ اللغة واتجاهاتها وخصائصها البارزة.

---

(١) فى النحو العربى، د. المخزومى ٤-٧.

(٢) المعاجم اللغوية ١٣ وما بعدها، وانظر كتابنا: مناهج البحث فى اللغة والمعجم، ط الأولى، ص١٣٣ وما بعدها.

(٣) مجلة المجمع العلمى ٣١/ ٦٣.

(٤) المزهر، ط١٢٨٢هـ، ٢/ ١٦٢-١٦٩.

(٥) مجلة المجمع العلمى ٢٤/ ٥٤١.

وقد بدأ العلماء - حينئذ - فى تنظيم مباحثهم وبخاصة لأنهم كانوا يعرضونها فى مجالس العلماء وعند الملوك والأمراء كعضد الدولة وسيفها وغيرهما من المهتمين بالعلم، ولقد رأينا - فيما سبق - أن الفارسى ألف كتابه الإيضاح لعضد الدولة فوصفه الملك بأنه يفيد الصبيان مما جعل الأستاذ يؤلف التكملة ويحملها إليه ثم يؤلف الحجة على هذا النحو من الاتساع فى المادة العلمية.

كذلك دراسة اللغة فبعد أن كانت مجرد جمع للألفاظ والروايات الأدبية والخطب تحولت إلى الإفادة من علوم العصر «وتخلص علم اللغة كما تخلص علم الكلام من طريقة الفقهاء ومناهجهم حتى من الناحية الشكلية وأخذوا يسيرون على خطة الخليل بن أحمد»[1].

وقد فكر الباحثون فى هذا القرن - وبخاصة فى أواخره - فى إبراز فن جديد يختلف عما عرف من مسائل النحو والصرف والاشتقاق[2]، فحاولوا فتح ما تركه السابقون مغلقًا فقد كانوا «لا يبينون ما انقلبت فيه الألف عن الياء مما انقلبت الواو فيه عن الياء ولا يحددون الموضع الذى انقلاب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو مع عكس ذلك ولا يميزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب وما هو من ذلك لغتان، وذلك كجذب وجبذ ويئس وأيس ورأى وراء وكذلك لا ينبهون على ما يسمعونه غير مهموز مما أصله الهمز على ما ينبغى أن يعتقد منه تخفيفًا قياسيًا وما يعتقد منه بدلا سماعيًا، ولا يفرقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع»[3]، ولذلك وجدنا ابن دريد والأزهرى[4] يبرزان فى مجال جمع اللغة بطرق منظمة.

ويقتدى الأزهرى بالخليل فى اتباع الطريقة الصوتية على حين يسلك ابن دريد طريق الأبجدية العادية[5]، وقد اتفقا مع الخليل فى طريقة التقليبات، كذلك

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ١/٣٨٧.

(٢) النثر الفنى فى القرن الرابع ٢/٣٨.

(٣) مقدمة المخصص ١/٧، ط بيروت.

(٤) توفى ٣٧٠هـ، معجم الأدباء ١٧/١٦٤.

(٥) المعاجم اللغوية ٤٢، ٥٦.

فإن الجوهرى صاحب الصحاح[1] قد ابتكر طريقة جديدة من وحى ذكائه وفطنته وهى اتباع الأبجدية العادية ملاحظًا أن يكون آخر الكلمة بابًا وأولها فصلا[2]، ولا ريب أن ذلك قضى على سوء الترتيب الذى بدا فى كتب الأصمعى وأبى زيد الأنصارى وابن الأعرابى[3] وابن السكيت، وكان نظام التقليبات اللغوية وبخاصة عند ابن دريد وكذلك طريقة الاشتقاق التى وردت فى كتبه فاتحة عهد جديد فى إدراك خصائص العربية فى الدوران حول معنى واحد أو أكثر، وقد مكن ذلك الباحثين أمثال ابن جنى وابن فارس أن يشقوا هذا الطريق الوعر ويقيموا الأدلة القوية على سلامة السير فيه، وقد بدا ذلك واضحًا - عند ابن جنى - فى ابتكار طريقة الاشتقاق الكبير والأكبر وعند ابن فارس فى تأليف معجمه مقاييس اللغة، وابن جنى وابن فارس يعترفان بأنهما اطلعا على كتب التقليبات وتناولاها وإن لم يركن ابن جنى إليها لما وجده فيها من الخطل والاضطراب[4].

وفى ناحية دراسة اللغة وجدنا ابن السراج يضع كتابًا فى أصول النحو إلا أنه ضيق فى معناه، وكان من قبل أبو الحسن الأخفش قد وضع كتيبًا فى ذلك فيأتى ابن جنى، ويحاول أن يسد الثلمة فى بناء اللغة فيدرس ما عجز الأوائل عنه أو قصروا فيه، ويكشف عن أسرارها فيما يبتكره، ويسميه «علم أصول النحو» وينوه بهذا الابتكار فى مقدمة كتابه الجليل الخصائص، ويبين سبقه وتجديده فى هذا النسق الفريد فيقول: «واعتقادى فيه أنه من أشرف ما صنف فى علم العرب، وأذهبه فى طريق القياس والنظر، وأعوده عليه بالحيطة والصون، وآخذه له من حصة التوقير والأون، وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة، ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة، فكانت مسافر وجوهه،

---

(١) توفى ٣٩٣ أو ٣٩٨ معجم الأدباء ٦/ ١٥١-١٦٥، والإنباه ١/ ١٩٤-١٩٨.

(٢) المعاجم اللغوية، ١٠١، وقد سبق بمحاولات فى هذا الصدد إلا أنه كان أكثر تنظيمًا ودقة.

(٣) توفى سنة ٢٣١ طبقات الزبيدى ٢١٣-٢١٥.

(٤) الخصائص ٣/ ٢٨٨ وسر الصناعة مخطوطة الأزهر الورقة ١٠٨، ودار الكتب، ص٢٩٢-٢٩٤، ومقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٣، ٤.

ومحاسر أذرعه وسوقه تصف لى ما اشـتملت عليه مشاعره، وتحى إلىَّ بما خيطت عليه أقرابه وشـواكله، وتريني أن تعريد كل من الفريقين البصـريين والكوفيين عنه وتحاميهم طريق الإلمام به والخوض فى أدنى أوشاله وخلجه فضلا عن اقتحام غماره ولجحه إنما كان لامتنـاع جانبه، وانتشار شعاعه، وبادى تهاجـر قوانينه وأوضاعه، وذلك أنا لم نر أحدًا مـن علماء البلدين تعرض لعـمل أصول النحـو على مذهب أصول الكلام والفـقه، فأمـا كتاب أصـول أبى بكر فلم يلم فيـه بما نحن عليه إلا حرفًا أو حرفين فى أوله، وقد تُعُلِّق عليه به وسنقول فى معناه، على أن أبا الحسن قد كان صنف فى شىء من المقـاييس كتيبًا إذا أنت قرنـته بكتابنا هذا علمت بذاك أننا نبنا عنه فيه وكفيناه كلفة التعب به[1].

وقد وضع ابن جنى أصولا كثيرة لعلم الـنحو على حد أصول الفقه والكلام «وقد وفق إلى تـشييـد جزء غـير يسيـر من أركان هذا العلم. . ولـكن أحدًا من العلماء لم يـتمم عمله غـير أن السيـوطى قد فعل شـيئًـا منه فى كتاب (الأشـباه والنظائر) ولكـنه قطرة إلى جـانب بحـر أبى الفـتح[2] وتجـد فى باب (فى ترافع الأحكام) وباب (علل العربية أكلامية هى أم فـقهية؟) ما ينبئ - فى وضوح - عن سلوكه هذا الطريق.

ثم إن ابن جنى فى هذا العصر ابتكر كثـيراً من مسائل علم اللغة، وهو بناء - على إشارة أستاذه - مؤسس مبدأ الاشتقاق بنوعيه الكبير والأكبر الذى بنى عليه دراسة العـربية، وتحديد أصـولها وفروعـها، وأصليهـا وزائدها، ودلالتها العـامة والخاصة، وأصواتها وتبدلها، وكان فى سلوكه هذا مبدعًا حيث ناقش المادة اللغوية - كأى باحث حديـث - واستنتج منها ما يثبت براعة العربية وسـموها وأسرارها العجـيبة - كـما ترى فى عرضنا لآرائه وبحـوثه اللغوية - وبذلك فـتح فى القرن الرابع الهـجرى فـتحًـا جديدًا وزاد على علمـاء اللغة السـابقين فى تحديد مـعنى الكلمات والإمعان فى الاشتقاق[3].

---

(١) الخصائص ١/١، ٢.

(٢) مجلة المجمع العلمى ٣٠/٦١٨.

(٣) ظهر الإسلام ٢/٨٥.

وإذا صح أن مصطلح فقه اللغة قد برز فى هذا القرن فإن الأولى به أن يطلق على آراء ابن جنى التى بذ بهـا من قبله ومن بعده، فلـم يشر المتقـدمون إلى هذه الأبحاث البكر ولذلك نراه دائمًا ينبه عليها بأن يقول: «هذا شىء لم أره لأحد من أصحابنا أو ومـا علمت أحدًا من أصحابنا ذكـره ونحو ذلك مما يدل على الابتكار والتجديد[1].

وقد ألف أحمـد بن فارس فى هذا القرن أيضًـا بعض المؤلفات التى تنم عن وجود أصـول للغة العـرب، وعالج بعض بحـوث فقه اللغـة فى كتـابه المعروف بالصاحبى والذى قال فيه:

«إن لعلم العرب أصلا وفرعًا؛ أما الفرع فمعرفة الأسماء والصفات كقولنا: رجل وفرس، وطويل وقـصيـر، وهذا هو الذى يبدأ به عند التـعلم، وأما الأصل فـالقول على مـوضـوع اللغة وأوليـتـها ومنـشـئـها، ثم عـلى رسوم العـرب فى مخـاطباتهـا، ومالهـا من الافتنان تحـقيـقًا ومـجازًا»[2]، ويقـول فى إرساء مـبدأ الاشتقاق: «أجـمع أهل اللغة إلا من شذ منهم أن للغة العرب قـياسًا وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان»[3].

ولكنه لم يستطع أن يـبلغ شأو ابن جنى فى ذلك «فالصـاحبى لا يصل إلى درجة الخصائص ولا يرتفع إلى درجة سـر الصناعة. . . وإذا كانت كتب ابن جنى لا ينهض لها إلا المتـخصص البـارع فإن كتـاب ابن فارس فى متناول الجـميع بل ينبغى أن يكون من كتب الثقافة اللغوية العامة»[4].

«والحق أن عمل ابن جنى فى الاشتـقاق الأكبر والتراتيـب اللغوية والمباحث الكلامية والدراسات الصرفية التى خلفهـا فى كتبه العديدة هو العمل الجدى المثمر الذى طور مباحث اللغة وجعل لها أسلوبًا جديدًا»[5].

---

(١) انظر، ص ١٠٥ من الباب الأول.

(٢) الصاحبى، ط بيروت، ٢٩.

(٣) نفسه ٦٧.

(٤) مقدمة الصاحبى ١٩، وانظر: مجلة المجمع العلمى ٣١/٤٥٩.

(٥) مجلة المجمع العلمى ٣١/٤٦٤.

وبذلك تطور «البحث اللغوى وارتقى حتى بلغ مستوى عاليًا، وقد ظهر لدى هذين المؤلفين فكرة واضحة عن علم اللغة بالمعنى المعروف فى عصورنا الحديثة على أنه علم القوانين العامة الناظمة لجزئيات اللغة، وبمعنى أعم وأشمل من النحو. . . ولكن الفكرة عند ابن جنى أوضح منها عند ابن فارس»[1].

منهجه:

أثبتنا فى تلك المقدمة السابقة أن (أئمة اللغة فى القرن الرابع الهجرى قد شعروا بالحاجة إلى منهج يسيرون عليه، وإلى تناول مادة بحثهم على طريقة منظمة، وقد كان لمعرفة العرب بعلوم اليونان اللسانية أثر كبير فى ذلك[2]، وقد كان ابن جنى على رأس المجددين فى الميدان اللغوى، والذين اتخذوا طريق النظام فى مؤلفاتهم، فالبحث قبله كان كما قدمنا معلومات متناثرة مفككة لا رباط بينها، وكان اهتمامهم ينصب على الجزئيات[3]، وقد حاول ابن جنى محاولة جدية أن يتغلب على هذا التفكك بمعالجة الظواهر اللغوية، والكشف عن القوانين التى تحكمها فكانت (دراسته جدية للاشتقاق اللغوى، وكان أستاذ هذه الدراسة، وهو البحث الذى لا يزال يؤتى ثمره إلى اليوم، والذى يختص بمادة الكلمة دون هيئتها ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم منه)[4]، وقد رسم طريقًا لتكوين أصول عامة فى اللغة والنحو بناها على محاولات أستاذه الفارسى وأبى بكر بن السراج من قبله إلا أن بحوث ابن جنى بلغت الغاية فى ذلك، ويمكن أن يفهم هذا من أول عبارة ابتدأ بها كتابه الخصائص إذ يقول: إنا لم نر أحدًا من علماء البلدين تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه[5] وقبل أن نشير إلى المنهج بالتفصيل يحسن أن نذكر أساس هذا المنهج وهو اعتماده على مذهب

---

(١) فقه اللغة للمبارك ١٣ .

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ١/ ٤١٧ .

(٣) نفسه ١/٤١٦ .

(٤) نفسه ١/٤١٩ .

(٥) الخصائص ١/ ٢ .

البصريين فى أكثر أقواله، فمذهب البصريين كان يميل إلى القياس والتقنين، ومبنى ذلك هو الكثرة من الأمثلة والشواهد العربية، وعلى أساسها توضع القواعد اللغوية والنحوية، وبهذه المناسبة نذكر أن ابن جنى كان بصريًا ولكنه كان مع ذلك حر التفكير فلم يكن يتقيد بالمذهب البصرى، بل كان يفحص الآراء من بصرية وكوفية وبغدادية ثم يفاضل بينها ويأخذ الصحيح منها، ومما أخذه من الكوفيين والبغداديين فتح الحرف الحلقى فى نحو بعدو ومحموم قال فى الخصائص: «وهذا قد قاسه الكوفيون وإن كنا نحن لا نراه قياسًا»[1] ويقول فى المنصف: «فأما أصحابنا فلا فصل عندهم بينه وبين ما ثانيه حرف غير حلقى... فلا فصل بين «نشْز ونشَز وشعْر وشعَر فهذان لغتان كما أن هذين لغتان... ويدافع عن رأى البصريين قائلا: «إن حروف الحلق لا تحرك ساكنًا ولا تسكن متحركًا بل لعمرى إنه يراد فيها الإتباع وتجانس الصوت فأما تسكين متحرك وتحريك ساكن فلا يجب لها»[2].

وقال فى المحتسب عند الاحتجاج لقراءة ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ... ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران] - بفتح الراء -: وأنا أرى فى هذا رأى البغداديين فى أن حرف الحلق يؤثر هنا من الفتح أثرًا معتدًا معتمدًا؛ فلقد رأيت كثيرًا من عقيل لا أحصيهم تحرك من ذلك ما لا يتحرك أبدًا لولا حرف الحلق، وهو قول بعضهم نحَوه يريد نَحْوه، وهذا ما لا توقف فى أنه أمر راجع إلى حرف الحلق لأن الكلمة بنيت عليه البتة... إلى أن يقول ولا قرابة بينى وبين البصريين ولكنها بينى وبين الحق والحمد لله[3].

وهو يأخذ كذلك برأى البغداديين فى إضافة كلمة (أبتعون) إلى ألفاظ التوكيد[4] ولعل ذلك لأنه سمعه، وقد مر بنا أنه استحسن رأى الكسائى الكوفى فى قول الشاعر:

إِذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ ... لَعَمْرُ اللَّهِ أَعْجَبَنِي رِضَاهَا

(١) نفسه ٢/ ٩.
(٢) المنصف ٢/ ٣٠٥-٣٠٧.
(٣) المحتسب ١/ ٦٧.
(٤) الخصائص ١/ ٨٣.

ويبين لك موقفه غير المتحيز من دفاعه عن ثعلب حينما هاجمه ابن درستويه[1] ولكنه كان بصريًا فى غالب أحواله ويلمح ذلك من مواضع كثيرة؛ ففى نص له فى الخصائص عن إجازة تقديم خبر ليس عليها يقول: إجازة هذا مذهب سيبويه وأبى الحسن وكافة أصحابنا والكوفيون أيضًا معنا[2]، وتراه يقول فى سر الصناعة عند قول الشاعر:

أَنْ تَهْبِطِينَ بِلادَ قَوْمٍ يَرْتَعُونَ مِنَ الطِّلاحِ

فهذا على تشبيه أَنْ بِمَا التى فى معنى المصدر فى قول الكوفيين، فأما على قولنا نحن فإنه أراد أَنَّ الثقيلة وخففها ضرورة وتقديره أَنَّكِ تهبطين[3] وفى نص فى المنصف عن وزن ميّت وما كان نحوه يقول: اختلف الناس أيضًا فى ميّت وما كان نحوه، فذهب أصحابنا إلى أنه فَيْعِل مكسور العين... ثم يقول: وأما البغداديون فذهبوا إلى أنه فَيْعَل بفتح العين ثم ينقض رأيهم بالدليل[4]، وفى سر الصناعة أيضًا إذا قلت: أنت مثلُ زيد فلا ضمير فى مثل كما لا ضمير فى الأخ ولا الابن إذا قلت: أنتِ أخو زيد وأنت ابن زيد، هذا قول أصحابنا، وإن كان قد أجاز بعض البغداديين أن يكون فى هذا النحو الذى هو غير مشتق من الفعل ضمير كما يكون فى المشتق[5].

ويهاجم مذهب البغداديين ومن ذلك قوله فى الخصائص فى (باب إسقاط الدليل): ومن ذلك قول البغداديين: إن الاسم يرتفع بما يعود عليه من ذكره نحو زيد مررت به وأخوك أكرمته، فارتفاعه عندهم إنما هو لأن عائدًا عاد عليه فارتفع بذلك العائد، وإسقاط هذا الدليل أن يقال لهم... إلخ[6] وفى المحتسب عند

---

(1) انظر ص ٤٩ من الباب الأول.

(2) الخصائص ١/ ١٨٨.

(3) سر الصناعة مخطوطة الأزهر الورقة ٨٥.

(4) المنصف ٢/ ١٥-١٧.

(5) سر الصناعة ١/ ٢٩٠، ٢٩١.

(6) الخصائص ١/ ١٩٩.

الاحتجاج لقراءة (ويقولان ربنا) فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا ... ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة]، هاجم مذهب الكوفيين وناصر مذهب البصريين وعبر عنهم بكلمة (أصحابنا)[1].

وبالتأمل فى هذه النصوص يلاحظ أنه ينسب نفسه صراحة إلى البصريين لأنه يعدهم أصحابه، ويفرق بين رأيهم ورأى الكوفيين والبغداديين، ويؤيدهم ويهاجم غيرهم - كما هو واضح - ثم إذا أراد أن يأخذ برأى فريق آخر صرح بذلك فقال: وأنا أرى فى هذا رأى البغداديين مثلا، ومن هذا وغيره نفهم أنه كان بصريًا ويكثر اعتداده بالبصريين فيعبر عنهم بقوله: «أصحابنا»، ولكنه مع ذلك لم يكن متقيدًا بمذهبهم، بل كان يتركه إلى غيره إذا وضح الدليل، وذلك لأنه كان حرًا فى تفكيره حتى رسم فى خصائصه بابًا (لإجماع أهل العربية متى يكون حجة) وسن فيه قانونًا لحرية الرأى فى البحث[2]، وفى سر الصناعة يذكر أنه إذا وجد الدليل الصحيح فسبيله أن يمضى فيه ولا يلتفت إلى خلاف ولا وفاق[3].

ومن هذا يتأكد لنا أن ذهاب بعض الباحثين إلى أنه من البغداديين غير مُسلَّم[4]، وقد رجح الدكتور طلس أن يكون إلى مذهب البغداديين أقرب وإلى آرائهم أميل لأنه تأثر بأستاذه أبى على الفارسى بعض الشىء[5] واستدل على ذلك بما قاله ابن جنى فى مقدمة الخصائص من عجز البصريين والكوفيين عن عمل مثل ما فعل وتهربهم فضلا عن اقتحام غماره ولجحه وإنما كان لامتناع جانبه فلم يستطع أحد أن يأتى بمثل ما جاء به، كذلك استدل بمخالفته لإجماع أهل العربية فى الباب الذى أشرنا إليه[6].

والواقع أن الاحتجاج بما سبق لا يؤيد ما ذهب إليه الدكتور طلس لأن كلام ابن جنى فى كتبه واضح فى اختياره لرأى البصريين فى معظم أحواله حتى ليعبر

---

(١) ١/١٠٩، وذلك فى الآية ١٢٧ من سورة البقرة.

(٢) ١/١٨٩-١٩٤. (٣) مخطوط دار الكتب، ص٢٩٤.

(٤) المدخل إلى دراسة النحو العربى ٦٩، وانظر رسالة أستاذنا الدكتور نجا للدكتوراه عن المذهب البغدادى.

(٥) مجلة المجمع العلمى ٣١/٦٤٣. (٦) نفسه ٦٤٣-٦٤٥.

عنهم فى مقابلة أرباب المذاهب الأخرى بكلمة (أصحابنا) أو «فأما عندنا نحن»، وما استدل به إنما يؤكد حرية رأيه فقط فى اختياره الرأى الصالح، وأنه ينّوه بشأن كتابه وابتكاراته الجديدة، وهذا دأبه فى كل مسألة يأتى فيها بجديد، وقد لمسنا ذلك فى تعبيراته الكثيرة[1]، ولعل الدكتور طلس أحس بذلك فرجع عنه حيث يقول: يظهر أنه كان على الرغم من ذلك ميالا إلى مذهب البصريين شديد الانتقاد لمذهب الكوفيين مثل شيخه الفارسى، وهو يعتمد مذهبهم، ويجرى فى كتبه ومباحثه وأقواله على طريقتهم إلا إذا وجد الحجة التى تجعله يميل عن مذهبهم إلى مذهب غيرهم أو إلى مذهب جديد[2]، فهو يعترف بما قلناه سابقًا وعلى هذا فلا داعى للقول بأنه أقرب فى مذهبه إلى البغداديين، وبخاصة بعد أن ثبت أيضًا أن شيخه الفارسى «كانت» معظم اختياراته بصرية، وكان ممن غلبت عليهم النزعة البصرية كما أثبت ذلك الدكتور عبد الكريم شعبان فى رسالته عنه[3].

فقد ثبت إذًا أن ابن جنى يأخذ بمذهب البصريين - فى غالب أمره - فلا غرو أن تجيء مسائله منضبطة القواعد بل لقد حاول أن يزيد عليهم فى التقنين والنظام وقد اعترف له بذلك الباحثون المحدثون، ونظرًا لأن بحوثه الجديدة فى اللغة جاءت فى كتبه متصلة ببحوثه النحوية والصرفية - بل إنه هو نفسه يحس بالتحامها جميعًا حين يربط بين الصرف والاشتقاق فيقول: «وينبغى أن يعلم أن بين التصريف والاشتقاق نسبًا قريبًا واتصالا جديدًا[4]، ولذلك كان نهجه فى بحوثه وكشفه لأسرار العربية سواء فى النحو والصرف أو اللغة يكاد يكون واحدًا فى استنباطه للقوانين وطريقة علاجه للموضوعات من حيث العرض والتحليل - نظرًا لذلك كله آثرنا أن نبين منهجه فى بحوثه عامة وهذا هو المنهج التفصيلى:

---

(١) انظر ص ١٠٥ من الباب الأول.

(٢) مجلة المجمع العلمى ٣١/٦٤٥-٦٤٦.

(٣) أبو على الفارسى وأثره فى النحو ٣٣.

(٤) المنصف ١/٣.

١- تكوين أصول لغوية عامة توثق قواعد العربية وتبين أسرارها[١]، فهو يذكر أن موضوع كتابه الخصائص هو أصول النحو على طريقة المتكلمين والفقهاء ويقول عن هذا الكتاب: إنه ليس مبينًا على حديث وجوه الإعراب وإنما هو مقام القول على أوائل أصول هذا الكلام وكيف بدئ وإلام نُحِي، وهو كتاب يتساهم ذوو النظر من المتكلمين والفقهاء والمتفلسفين والنحاة والكتاب والمتأدبين التأمل له والبحث عن مستودعه[٢]، ويذكر فى (باب الدور والوقوف منه على أول رتبة) أن هذا موضع كان أبو حنيفة يراه ويأخذ به[٣] ويذهب فى (باب علل العربية) إلى أنها أقرب إلى علل المتكلمين، ويدافع عن ذلك دفاعًا واسعًا وفى (باب ترافع الأحكام) يفلسف لأشياء صرفية ويقول فى أوله:

هذا موضع من العربية لطيف لم أر لأحد من أصحابنا فيه رسمًا ولا نقلوا إلينا فيه ذكرًا[٤]، وباستخدامه للأصول العربية استطاع أن يستنبط قوانين دقيقة تحكم الظواهر اللغوية، والملاحظ على كتابه الكبير الخصائص أنه ينتهج هذا المنهج الأصولى المنضبط، فقد قسمه إلى أبواب كل منها يتناول قانونًا من قوانين العربية وسرًا من أسرارها، وهو فى كل باب يجمع المتناثر من ألفاظ اللغة ورواياتها، ومأثور كلام العرب نثرًا وشعرًا، وما يتصل به من قرآن كريم، وحديث شريف، وأقوال العلماء[٥] ثم يستنتج من دراسة هذه (العينات) اللغوية - على حد تعبير

---

(١) أصول النحو أدلته التى تثبت بها الأحكام النحوية للألفاظ العربية. أصول النحو السماعية ١٤، ونزهة الألباء ١١٧.

(٢) الخصائص ١/ ٦٧.

(٣) نفسه ١/ ٢٠٨.

(٤) نفسه ٢/ ١٠٨.

(٥) أدلة النحو عند ابن جنى ثلاثة: السماع «من القرآن أو العرب»، والإجماع «من علماء العربية»، والقياس «على المسموع من العرب أو على المجمع عليه من علماء الفن ما لم يمنع من القياس مانع»، وقال أبو بكر بن الأنبارى فى اللمع: أدلته ثلاثة نقل (أى سماع بداية لأنه الأصل وللاتفاق عليه)، وقياس (على المنقول فيما لم يقم عندهم أنه سماعى) واستصحاب حال (أى بقاؤه على ما كان لعدم مجىء ما يرفعه والأصل بقاء ما كان بحاله)، ولم يذكر الإجماع فكأنه =

المحدثين - القوانين التى تحكم ظواهر هذه اللغة ويفلسف لها، ويشير إلى ذلك قوله فى مقدمة الكتاب «وادًا أن أجد إلى الابتداء طريقًا. . .إلخ[1]، وهو فيما ذهب إليه أصولى دقيق، كذلك فإن كتابه سر الصناعة ألفه لوضع أصول عامة فى أحكام الحروف من الناحية الصوتية والتركيبية وبين قوانين ذلك بناء على الاستدلال والتوجيه فى نهج واضح أشار إليه فى مقدمة الكتاب.

وهذا النهج الجديد تشهد به بحوث اللغة الفائقة كالاشتقاق الأكبر الذى يضع فيه قانونًا عامًا لدوران المادة حول معنى واحد، ومناسبة الحروف للمعانى وهو فى ذلك بارع كل البراعة، كذلك رسمه لقوانين الإبدال ومعرفة المبدل من المبدل منه حسب قانون عام أراده لنفسه وهو كثرة التصرف والاستعمال، وقد بينا الرأى فى كل ذلك فى فصلى الإبدال والاشتقاق من هذا الكتاب وهو ينبه على ابتكاره لكل ذلك.

ونذكر بهذه المناسبة أن كتب ابن جنّى تفضل - بهذا المنهج - كتب أستاذه الفارسى فإن الفارسى لم يضع أبوابًا فى مؤلفاته بل تعد مسائل متناثرة يذكر آراءه فيها كالشيرازيات والبغداديات ونحوهما وكتابه الأغفال مبنى على إثارة مسائل خاصة أوردها الزجاج فى إعراب القرآن واعترض عليها الفارسى[2]، والحجة كتاب مبنى على القراءات الواردة فى الآيات القرآنية وهو يحتج لها فى مظانها، ولم ألاحظ على تأليفه وضع قانون عام بارز بما أراه فى كتب ابن جنى، وإذا قلنا: إن التدريس هو الذى جعل الفارسى يضع كتبه على هيئة مسائل فإننا نقول إن ابن جنى اشتغل أيضًا بالتدريس ومع ذلك حاول أكثر من أستاذه ضبط مسائله وإحكامها فى نظام خاص تفرد به.

= لم ير الاحتجاج به فى العربية كما هو رأى قوم، وكل من الإجماع والقياس لا بد له (فى نفس الأمر) من مستند من السماع. داعى الفلاح ١٥، ١٦، ولا يراد بالأصول القواعد نفسها بل أدلتها التى تثبتها أو تدعمها على ما رأينا.

(١) الخصائص ١/١.

(٢) الاغفال، ص٢.

فلا غرو أن يكون ابن جنى مؤسسًا لأصول النحو واللغة وقد نوه هو بذلك وأشار إلى جهده ونصبه فى البحث بقوله.

لَهُ كَلَفٌ بِمَا كَلِفَتْ ... بِه العُلَمَاءُ م العَرَبِ
يَبِيتُ يُفَاتِشُ الأَنْقَا ... بَ عَنْ أَسْرَارِهَا الغُيُبِ

....

وَيَفْرَعُ فِكْرُهُ الأَبْكَا ... رَ مِنْهَا مِنْ حِمَى الحُجُبِ
يَجِدُّ بِهَا وَتَحْسَبُهُ ... لِلُطْفِ الفِكْرِ فِى لَعِبِ
وَطَرْدًا لِلْفُرُوعِ عَلَى ... أُصُولٍ وَطَّدَ رُتُبِ
إِذَا مَا انْحَطَّ غَائِرُهَا ... سَمَا فَرْعًا عَلَى الرُّتُبِ
قِيَاسًا مِثْلَ مَا وَقَدَتْ ... بِلَيْلٍ بَرْزَةُ الشُّهُبِ[1]

٢- يعمل نظره فى الثروة اللغوية الضخمة التى ورثها عن أسلافه وجمعها رواة اللغة والأدب فى القرون السابقة والمعاصرة له وما سمعه من الأعراب، يعمل نظره فى كل ذلك، ويستخلص منه نتائج لغوية ذات قيمة كبيرة كدوران المادة حول معنى واحد، والاشتقاق الأكبر، ويمكن أن نلمح ذلك إذا رجعنا إلى الفصل الذى تحدثنا فيه عن ذلك.

٣- يأخذ من كلام الأئمة الفحول كالخليل وسيبويه وغيرهما من علماء المدارس اللغوية بعض إشارات عابرة وردت عندهم، وينشئ على هديها فصولا واسعة وبحوثًا مستفيضة، وقوانين لغوية جديدة يؤيدها بمحصول علمى وافر حتى تبرز أمام الباحثين بما يؤكد عبقريته، ففى (باب فى خلع الأدلة) يذكر حكاية يونس من قول العرب: ضرب منٌ منًا ثم يستخرج منها كيف جرد من (مَن) الاستفهام، ويورد ما أخبره به أبو على من مذهب أبى عثمان - فى قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ

---

(١) معجم الأدباء ١٢/ ٩٧، ٩٨ الأنقاب: الطرق فى الجبل والمعنى يبحث فى العلوم بطرقها الشاقة الوعرة. رتب: أى مرتبة منتظمة ويشبه قياسه بالنجوم المضيئة للناس فهو قياس واضح مفيد.

مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ [الذاريات]، وهو أنه جعل «مثل وما» اسمًا واحدًا ثم بين وجه إدخالها فى حكم الخلع الذى يتحدث عنه، وهكذا يستمر فى أخذ الإشارات والأقوال ليبنى عليها فصلا كاملا ببحثه الخاص[1]، ومن ذلك فى اللغة ما ذكره من أن (باب إمساس الألفاظ أشباه المعانى) قد نبه عليه الخليل وسيبويه وأورد عبارتين إحداهما للخليل والأخرى لسيبويه وبنى عليهما حديثه عن الاشتقاق الأكبر بما أورده من أدلة وبراهين جديدة، يقول: قال الخليل: كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا صرّ وتوهموا فى صوت البازى تقطيعًا فقالوا صَرْصَرَ، وقال سيبويه فى المصادر التى جاءت على الفعلان: إنها تأتى للاضطراب والحركة نحو النَّقَزَانِ والغليان والغثيان.

ثم يعقب على ذلك بابتداء جديد يقول: (ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حداه ومنهاج ما مثلاه ثم يبدأ فى البحث[2]، وهكذا فى اختراعه للموضوعات الجديدة فى فقه اللغة ونحوها قد أخذ مبدأها من إشارات أستاذه الفارسى كالاشتقاق الكبير كما أخذ من غيره كما ذكرنا.

٤ - وهو فى نظره الثاقب الذى يستنتج به يستلهم العربية بالحس اللغوى الدقيق - كما يلاحظ فى بحثه - عن أسرار ارتباط الألفاظ بالمعانى فى الاشتقاق الأكبر وفى بحثه عن علل العربية وأبنيتها فيقول عن إهمال ما أهمل من الأبنية: فمن ذلك ما رفض استعماله لتقارب حروفه نحو سص وطس وظث وثظ وضش وشض وهذا حديث واضح لنفور الحس عنه والمشقة على النفس لتكلفه[3].

ويتحدث عن قلب كل من الواو والياء إلى أختها أو إلى الألف لإزالة الثقل اللفظى ثم يقول: وهذا كما تراه أمر يدعو الحس إليه ويحدو طلب الاستخفاف عليه، وإذا كانت الحال المأخوذ بها المصير بالقياس إليها حسية طبيعية فناهيك بها

---

(١) الخصائص ٢/ ١٧٩-١٩٦.

(٢) نفسه ٢/ ١٥٢، ١٥٣.

(٣) نفسه ١/ ٥٤ وسر الصناعة ١/ ٣٢-٣٨.

ولا معدل بك عنها[١]، وهكذا بقية الباب[٢] وكاستدلاله لوجود الحركة بعد الحرف إذ أورد له أدلة كثيرة تعتمد على الذوق والحس.

٥- وقد يسلك طريق الاحتجاج القوى والفلسفة اللغوية كاستدلاله على شدة اتصال الفعل بفاعله بنحو ضربتك[٣] ونحو مررت بزيد وأثبت بالحجة القوية أن الباء يمكن أن تعد بعض الفعل ويمكن كذلك أن تعد بعض الاسم[٤]، وهو يحتج لمذهب الخليل ومذهب يونس فى الزائد من المثلين أهو الأول كما قال الخليل أم الثانى كما قال يونس؟ ثم يقول: وقد وجدنا لكل من القولين مذهبًا واستوسعنا له بحمد الله مضطربًا ثم يورد حجاجًا لرأى يونس يقول: بعده هذا كما ترى شاهد بقوة قول يونس، ثم يعقب عليه بقوله: «فأما ما يشهد للخليل فأشياء، ويأخذ فى ذكرها وتفصيلها»[٥].

ثم هو يستخدم فى الاحتجاج والجدل طريقة السؤال والجواب سواء بينه وبين أستاذه الفارسى كما كان يجرى مثله بين سيبويه وأستاذه الخليل[٦] أو بينه وبين العرب أو بينه وبين غيرهم أو على طريق الافتراض لتقصى جميع أطراف المسألة والوصول فيها إلى نتيجة حاسمة، ولعل ذلك راجع إلى اشتغاله بالتدريس وتأثره بأستاذه الفارسى وطريقة سيبويه فى كتابه[٦]، وذلك يظهر من النظر فى كتبه تراه يقول: سألت أبا على عن كذا فقال لى كذا[٧] أو سألنى أبو على عن كذا فقلت كذا[٨] أو سألت غلامًا من آل المهيًا فصيحًا[٩] أو محمد بن العساف الشجرى عن

---

(١) الخصائص ١/ ٤٩.

(٢) يوجد شيء من ذلك عند أستاذه الفارسى الشيرازيات ٤٤، ٥٢، والحلبيات ٤٤، ٤٥ لكن ابن جنى زاد عليه وتوسع.

(٣) الخصائص ١/ ١٠١.

(٤) نفسه ١/ ٣٤١ وما بعدها.

(٥) نفسه ٢/ ٦١-٦٩.

(٦) الكتاب تحقيق الأستاذ هارون ٢/ ١٦٠، ١٦١، ١٦٤، ٣/ ١، ١٨٤، ٢٩٧، ٣٤٥ وغيرها.

(٧) الخصائص ١/ ٣٢٣.

(٨) نفسه ١/ ٢٧٦-٢٧٨.

(٩) نفسه ١/ ٧٨.

كذا فقال كذا[1] أو فإن قلت كذا قلت كـذا أو فإن قيل كذا فالجـواب كذا أو فإن قيل كذا قيل كذا (أى قيل لهم فى الجواب)[2] أو فإن قلت قيل. . . إلخ[3].

وهكذا يستقصى ما يمكن احتماله من الاعتراضات ويجيب عليها حتى يثبت ما يقول، ويحاول أن يجيب على السؤال بما يفهمنا أن ابن جنى يعرف طرق الحوار والبـحث والمناظرة إذ يقول فى بـعض هذا: فإن قلت كـذا. . . فالجـواب أن هذه مغالطة من السائل ودعوى فى سؤاله[4] ثم يشرع فى الإجابة على السؤال.

٦- ونلاحظ أنه فى احتجاجه لآرائه النحـوية يسلك طريق السماع والقياس وذلك يتمثل فـيما أجازه من تقديم المـفعول معه على مـصاحبه قيـاسًا على تقديم المعطوف على المعطوف عليه، وأكد قياسه بالمسـموع عن العرب من تقديم المفعول معه فى هذه الحال على مـصاحبه[5]، وهذا احتجـاج قوى، وأحيانًا يتـخذ طريق التعليل فى احـتجاجـه، كذهابه إلى وساطة المـضاف إلى ياء المتكلم مسـتدلا بأن الحـركات لم تظهـر عليه حـتى يحكم بإعـرابه ولا موجـب للبناء حتى يعـد من المبنيات[6] وهذا غير سديد لما ثبت فى النحو من تقدير الحركات عليه، وكمنعه أن تجىء الباء لمعنى التبعيض مـدعيًا أن ذلك لم يجئ عن العرب ولكن الواقع أنه جاء عنهم فى شواهد صحيحة فلا صحة لما ذهب إليه[7].

وقد يتجه فى احتجاجه إلى التخريج كإنكاره الجر بالمجاورة فقد رد ذلك إلى أصول القواعد النحوية باتجاه قوى غير متكلف، وقد يجمع بين التخريج والتعليل،

---

(١) نفسه ١/ ٧٦، ٢٤٢، ٢٥٠.

(٢) نفسه ١/ ٢٣٦، ٣١٤، ٢/ ١٩٠، ٢٩٠.

(٣) نفسه ١/ ٢٣٨، ٢٨٩، ٣١٥، ٢/ ١٩١.

(٤) سر الصناعة ١/ ٢٤، ٢٥.

(٥) قال ابن جنى: يجوز جـاء والطيالسةَ البردُ كما تقـول ضربت وزيدًا عمرًا قال: جمـعتَ وفحشًا غيبةً ونميمةً . . إلخ، الخصائص ٢/ ٣٨٣، وسر الصناعة ١/ ١٤٣ وما بعدها.

(٦) الخصائص ٢/ ٣٥٦، ٣٥٧.

(٧) سر الصناعة ١/ ١٣٩.

كما في اختياره أن تكون لام الاستغاثة حرفًا، وأنها متعلقة بحرف النداء لأنه نائب عن الفعل وهنا يعد رأيه سديدًا؛ لأن الظرف وشبهه يكتفي برائحة الفعل[1].

٧- يورد آراء العلماء السابقين والمعاصرين من بصريين وكوفيين وبغداديين وغيرهم، ثم يناقشها مناقشة جدية مفسرًا تارة، وموجهًا أخرى، وناقدًا ثالثة، ومبرزًا رأيًا جديدًا له في أحيان كثيرة، وهذا لما ذكرناه من حريته الواسعة في البحث وسعة اطلاعه وذكائه النادر.

يقول مفسرًا: وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة؛ ألا ترى أن الألف والياء والواو اللواتي هن حروف توام كوامل قد تجدهن في بعض الأحوال أطول وأتم، ويأخذ في بيان ذلك بالتفصيل[2]، وبعد أن يتكلم على معنى حروف المعجم واشتقاقها ويشبع الموضوع بما لا يتطلب مزيدًا يبين أن ذلك في أصله العام مأخوذ عن أبي علي ولكنه قد أوضحه وفسره فيقول: «وهذا كله رأي أبي علي وعنه أخذته وقد أتيت في هذا الفصل من الاشتقاق وغيره بما هو معاني قوله وإن خالفت لفظه وهو الصواب الذي لا يذهب عنه إلى غيره»[3].

وقد يعرض الآراء وينقدها ويذهب إلى جديد فيها كقوله: سألت أبا علي عن قول كثير:

وَإِنِّي وَتَهْيَامِي بِعَزَّةَ بَعْدَمَا ... تَخَلَّيْتُ مِمَّا بَيْنَنَا وَتَخَلَّتِ

فقلت ما موضع تهيامي من الإعراب؟ فأفتى بأنه مرفوع بالابتداء... إلخ، ثم يقول: وقد يحتمل بيت كثير أيضًا تأويلا آخر غير ما ذهب إليه أبو علي.... ويبدأ في شرحه[4]، ويعرض رأي أبي بكر بن السراج في قولهم: كفى بالله

---

(١) فقه اللغة، د. نجا ١١٤، ١١٥، وأبو علي الفارسي د. شعبان ١٤، ٤١-٤٤. وانظر: الخصائص ١/ ١٩١-١٩٣، والكتاب بتحقيق الأستاذ هارون ١/ ٤٣٦، ٤٣٧، والمغني ٢/ ١٨٤، ١٨٥، والأشموني مع الصبان ٣/ ١٦٤.

(٢) سر الصناعة ١/ ١٩ وما بعدها.

(٣) نفسه ١/ ٣٨-٤٥ والنص ص٤٥.

(٤) نفسه ١/ ١٥٥، ١٥٦.

فيقول: تقديره كفى اكتفاؤك بالله ثم يعقب على ذلك بقوله: «وهذا يضعف عندى لأن الباء على هذا متعلقة بمصدر محذوف... ثم يقول: والقول فى هذا قول سيبويه، ويعرض لزيادة الباء فى خبر المبتدأ ثم يقول: وإنما جار عندى زيادة الباء فى خبر المبتدأ لمضارعته للفاعل... إلخ[1]، وفى باب الهمزة[2] يعرض لرأيه الذى خالف فيه البصريين والكوفيين فى قول الشاعر:

مِنْ أَىِّ يَوْمَىَّ مِنَ المَوْتِ أَفِرّ أَيَوْمَ لَمْ يُقْدَرَ أَمْ يَـوْمَ قُدِر

ويقول: والذى أراه أنا فى هذا - وما علمت أحدًا من أصحابنا ولا غيرهم ذكره ويشبه أن يكونوا لم يذكروه للطفه...[3]، ويقول فى باب الحاء: فأما قول من قال فى قول تأبط شرًا:

كَأَنَّمَا حَثْحَثُوا حُصًّا قَوَادِمُهُ أَوْ أُمَّ خِشْفٍ بِذِى شَثٍّ وَطُبَّاقِ

إنه أراد حَثَّثُوا فأبدل من الثاء الوسطى حاء فمردود عندنا وإنما ذهب إلى هذا البغداديون وأبو بكر أيضًا معهم وسألت أبا على عن إفساده فقال...[4].

وهكذا يناقش أقوال العلماء بالدليل القاطع ويستشهد فى أثناء ذلك بما يدل لرأيه فى التوجيه أو النقد أو الخروج عليها.

٨- يبرز الدراسة الموضوعية باستقصاء عجيب - كما يقول أستاذنا الدكتور نجا -[5] ففى (الفصل الذى عقده[6] لعلل العربية أكلامية هى أم فقهية) استقصى كل أطرافه وأورد حججه وتعليلاته، وأوضح سر اختيار الثلاثى من الأبنية وتفضيله على سواه، والمهمل من الأبنية والمستعمل، وفى سر الصناعة يورد الهمزة ويستقصى كل الكلام عليها بما هو دقيق وواضح، وقد بيناه فى بحثنا عن الإبدال، وهو نفسه يعترف بذلك الاستقصاء العجيب حين يقول: فهذه جملة من القول على انقلاب الألف همزة، وقد تقصيت جميع ما جاء منه مطردًا وشاذًا، وقلما

(١) نفسه ١/ ١٥٤-١٥٩ .
(٢) من سر الصناعة.
(٣) نفسه ١/ ٨٥ .
(٤) نفسه ١/ ١٩٧.
(٥) فقه اللغة د. نجا ٤/ ١٢٥ .
(٦) فى الخصائص.

تجد شيئًا يخرج عن هذا من الشواذ[١]، ويقول - وكأنه استقل ما كتبه - بعد أن يشرح كل ما يتعلق بالهمزة: «فقد أتينا على أحكام الهمزة أصلها، وبدلها، وزائدها، وقطعها، ووصلها، وحذفها، فأما أحكام الهمزة من التحقيق والتخفيف والبدل فإن لهذا بابًا يطول، وليست بهذا الكتاب حاجة إليه، فلذلك تركناه واعتمدنا فيه على ما كنا قديمًا أمللناه[٢]، وقال في المحتسب بعد أن أطال في الاحتجاج لقراءة (أدرأتكم) في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ... ﴿١٦﴾﴾ [يونس]، فهذا وإن طالت الصنعة فيه أمثل من أن تعطى اليد بفساده وترك النظر في أمره[٣]، وكثيراً ما يذكر أنه أحاط بالموضوع وأشبعه بما لم يفعله عالم سواه[٤].

٩- يميل إلى غزارة الاستشهاد والتمثيل بما أخذه من أستاذه الفارسي أو من دواوين الأدب ومعجمات اللغة، وأكثر شواهده مما أنشده أبو علي الفارسي ومن كتاب سيبويه ونوادر أبي زيد أو ابن الأعرابي، وبعضها يستشهد به هو ابتداء مستخرجًا له من دواوين الشعراء والرجاز[٥]، وهو ينسب بعض الأبيات الشعرية إلى قائليها[٦] ويترك بعضها غفلا[٧] ويورد أحيانًا البيت كاملا[٨] وأحيانًا نصف البيت[٩] وقد يقل عنه[١٠] أو يزيد عليه[١١] وربما روى الشاهد مع بعض صلته فإذا

(١) سر الصناعة ١/١٠٣.

(٢) نفسه ١/ ١٣٤.

(٣) المحتسب ١/٣٠٩، ٣١٠.

(٤) المنصف ١/١٢٧، والمحتسب ٢/ ٢١٧ وغيرها.

(٥) مقدمة سر الصناعة ٢٢، وانظر فيه مثلا: ٢٧-٢٩، ٤٢، ٨٩، ١٠١، ١١٥، ١٥٩، وانظر الخصائص ١/ ٢٩٠، ٢٩١، ٢١٦ وغيرها.

(٦) سر الصناعة ١/٢٨، ٢٩، ٤٢، ٨٣، والخصائص ١/ ٧٤، ٧٩، ٨١.

(٧) سر الصناعة ١/٢٧، ٤٣، ٨٢، ٨٤، والخصائص ١/ ٧٣، ٧٤، ٧٩، ١٠٧.

(٨) انظر: كثيرا من الصحائف السابقة.

(٩) الخصائص ١/ ٧٥، ٨١، ٨٩، ١٤٣، ١٩٢ وغيرها.

(١٠) نفسه ١/ ١٤٣.

(١١) نفسه ١/ ١٢٢، ٢٦٣.

هو معها بضعة أبيات[1]، كما يستشهد بالقرآن والحديث والأقوال العربية المأثورة والعروض والقوافى[2].

١٠- كما أنه يستشهد بأبيات المولدين فى المعانى لمجرد الإيضاح والاستئناس، كما ورد فى الاحتجاج بقول المتنبى شاعره عند قراءة ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِم دِينَهُم ... ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعام]، بفتح الباء، وقد بين بعد أن أورد قوله:

وَإِنَّا إِذَا مَا المَوْتُ صَرَّحَ فِى الوَغَى ... لَبِسْنَا إِلَى حَاجَاتِنَا الطَّعْنَ وَالضَّرْبَا

أن المعانى لا يرفعها تقدم ولا يزرى بها تأخر[3] وقال مثل هذا فى الخصائص عندما أورد قول المتنبى:

فَلَوْ قَدرَ السِّنَانُ عَلَى لِسَانٍ ... لَقَالَ لَكَ السِّنَانُ كَمَا أَقُولُ

فقال: إن المعانى يتناهبها المولدون كما يتناهبها المتقدمون[4]، وفى الاحتجاج لقراءة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة]: (صراطا مستقيما)، استأنس فى المعانى ببعض شعر المولدين يقول: وأنشدنى بعض أصحابنا لبعض المولدين:

عِدِينَا وَاكْذِبِينَا وَامْطُلِينَا ... فَقَدْ أُومِنْتِ مِنْ سُوءِ العِقَابِ
فَلَسْنَا مِنْ وَعِيدِكِ فِى ارْتِيَابٍ ... وَلا مِنْ صِدْقِ وَعْدِكِ فِى اقْتِرَابِ
وَلَكِنَّا لِشُؤْمِ الجَدِّ مِنَّا ... نَفِرُّ مِنَ العَذَابِ إِلَى العَذَابِ[5]

١١- يكرر الشواهد والروايات اللغوية فى أماكن متعددة ليستدل بها فى كل مناسبة تتطلبها، مثل قول الشاعر:

لَحُبُّ المؤقِدَانِ إِلَىَّ مؤسى ... [وَجعدة إِذْ أَضاءهما الوَقُود][6]

(١) نفسه ١/٩٦، ١٢٨.

(٢) سر الصناعة ١/٤٣، ٤٤، ٥٤، ٥٥، ٨٣، والخصائص ١/٧٦، ١٠٨، ١٨٩، ١٩٧، ٢٥٠، ٢٨٠، ٢٨١.

(٣) المحتسب ١/٢٣١.

(٤) الخصائص ١/٢٤ وانظر: ص ٧٣ من الباب الأول.

(٥) المحتسب ١/٤٢.

(٦) الخصائص ٢/١٧٥، ٣/١٤٦، ١٤٩، ٢١٩.

وغير ذلك مما يمكن معرفته بالاطلاع على فهارس الخصائص والمحتسب، وقد استدل على أن الفصيح من العرب قد يتكلم باللغة غيرها أقوى فى القياس عنده منها بما حدثه به أبو على رحمه الله قال: «عن أبى بكر عن أبى العباس أن عمارة كان يقرأ ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ ... ﴿٤٠﴾﴾ [يس] بالنصب قال أبو العباس فقلت له ما أردت؟ فقال أردت سابقٌ النهارَ، قال: فقلت له: فهلا قلتَه؟ فقال: لو قلته لكان أوزن»، فقد ذكر هذه القصة فى مواضع كثيرة[1]. كذلك رواية الأصمعى: «اختلف رجلان فى الصقر، فقال أحدهما الصقر بالصاد وقال الآخر السقر بالسين، فتراضيا بأول وارد عليهما، فحكيا له ما هما فيه، فقال: لا أقول كما قلتما، إنما هو الزقر» كررها فى أكثر من موضع[2].

١٢- يضرب الأمثلة بأوضاع اجتماعية معينة للإيضاح والتقريب، وذلك - فيما يبدو - كان لاشتغاله بالتدريس وتمرسه به، ففى (باب فى بقاء الحكم مع زوال العلة) يقول: «وعندى مثل يوضح الحال فى إقرار الحكم مع زوال العلة على قلة ذلك فى الكلام، وكثرة ضده فى الاستعمال، وهو العود تقطعه من شجرته غضا رطيبا فيقيم على ذلك زمانًا، ثم يعرض له فيما بعد من الجفوف واليبس ما يعرض لما هذه سبيله، فإذا استقر على ذلك اليبس وتمكن فيه حتى ينخر لم يغن عنه فيما بعد أن تعيده إلى قعر البحر فيقيم فيه مائة عام لأنه قد كان بعد عن الرطوبة بعدًا أوغل فيه حتى أياس من معاودته البتة إليها[3]، وفى (باب فى زيادة الحروف وحذفها) يوضح إفادة الزيادة للتوكيد بمثل اجتماعى فيقول: «وأما زيادتها فلإرادة التوكيد بها، وذلك أنه قد سبق أن الغرض فى استعمالها إنما هو الإيجاز والاختصار والاكتفاء من الأفعال وفاعليها، فإذا زيد ما هذه سبيله فهو تناه فى التوكيد به، وذلك كابتذالك فى ضيافة ضيفك أعز ما تقدر عليه وتصونه من أسبابك، فذلك غاية إكرامك له وتناهيك فى الحفل به[4].

---

(١) نفسه ١/ ١٢٥، ٢٤٩، ٣٧٣، ٣٨٤، والمحتسب ٢/ ٨١ وغيرها.

(٢) الخصائص ١/ ٣٧٤، ٣/ ٣٠٥، والمحتسب ٢/ ١٦٩، ٢٨٣ وغيرها.

(٣) الخصائص ٣/ ١٦١.

(٤) نفسه ٢/ ٢٨٤.

١٣- يستطرد لمناسبة مهما تكن ضئيلة، وهو ينبه فى كثير من الأحيان على هذا الاستطراد؛ فقد تكلم على ميل العرب إلى الإيجار، ثم تعرض لألفاظ التوكيد، وهى (أجمعون أكتعون أبصعون أبتعون) ليبين أنهم لما أرادوا التوكيد لم يعيدوا (أجمعون) البتة بجميع حروفها - تحاميا مع الإطالة - لتكرير الحروف كلها، ثم تعرض لسر إبقائهم العين وحدها مكررة فى كل الكلمات دون غيرها من سائر حروف الكلمة، وقال: ثم لنعد فنقول، ويعود إلى حديثه فى حب العرب للإيجاز[١]، وعند حديثه عن تركيب (ن ع م) وتصرفاته وأنه مشتق من حرف الجواب نَعَمْ يأتى بضده وهو (لا) ويعرض لقول الشاعر:

أَبى جُوده لا البخل واستعجلت به   نَعَمْ مِنْ فتى لا يمنعُ الجــوعَ قَاتلَهْ

ويعرض لجر كلمة (البخل) ونصبها، ويأخذ فى شرح ذلك والتدليل له مستطردًا ،ثم يرجع بعد ذلك إلى مادة (ن ع م) مرة أخرى ويقول: ثم لنعد إلى ما كنا عليه من أن جميع باب (ن ع م) إنما هو مأخوذ من نَعَمْ[٢]، وكثيراً ما يأتى بهذه الاستطرادات ويقول بعدها: وهذا شيء عرض قلنا فيه ولنعد[٣]، وأحيانًا لا ينبه على ذلك، فقد استطرد بذكر رأيه فى قول الشاعر:

مِنْ أىَّ يَوْمَىَّ مِنَ المَوْتِ أفرّ

فى أثناء حديثه عن إبدال الألف همزة عند الوقف فى سر الصناعة[٤]، دون أن ينبه على ذلك، وقد ذكر المحققون للكتاب - فى هذا الموضع - عدم مناسبته لما كان يتكلم فيه[٥] ويقول هؤلاء المحققون: «ولكننا بسبب هذا المنهج فى الاستطراد وقفنا مترددين حينا فى هذا الكتاب إلى أى فن من فنون العربية ننسبه»[٥] فالكتاب

---

(١) نفسه ١/ ٨٣-٨٦.

(٢) نفسه ٢/ ٣٥-٣٧، والنص الأخير ص ٣٧.

(٣) انظر مثلا الخصائص ١/ ٢٠٣، ٢٣٥، وسر الصناعة ١/ ٢٦٢، ومخطوطة الأزهر ورقة ١٢٢، والتنبيه نسخة مصورة رقم ١٥٦٦٣، لوحة رقم ١٦٣.

(٤) سر الصناعة ١/ ٨٥.

(٥) نفسه ١/ التعليق ص٨٤.

خاص بدراسة فى الأصوات هى الحروف وأجراسها الطبيعية وصفاتها العامة . . . وقد تعدى ابن جنى ذلك إلى ذكر خصائص بعض الحروف عند تركيب الكلم، كأحكام الكاف الزائدة وغير الزائدة، والجارة وغير الجارة، مما هو من صنيع النحوى لا اللغوى «وقد يعتذر عن ابن جنى بأنه اضطر إلى الكلام فى حروف المعانى الأحادية الوضع . . . لأنها فى صورتها أشبه بحروف المعجم بل هى هى»[1]، وقد يستطرد بذكر حوادث تاريخية وطرائف أخرى لها صلة بالعلم وأهله، يقول فى سر الصناعة: وذكر شيخنا أبو على رحمه الله أن بعض إخوانه سأله بفارس إملاء شىء من ذلك - أى من المعتلات - فأملى منه صدراً من ذلك كثيرًا، وتقصى القول، وأنه فقده فى جملة ما فقده وأصيب به من كتبه، وحدثنى أبو على أنه وقع حريق بمدينة السلام فذهب له جميع علم البصريين وقال: وكنت كتبت ذلك كله بخطى فقرأته على أصحابنا فلم أجد من الصندوق الذى احترق شيئًا ألبتة إلا نصف كتاب الطلاق فسألته عن سلوته، وعزائه عن ذلك فنظر إلى متعجبًا، ثم قال: بقيت شهرين لا أكلم أحداً حزنًا وهمّا، وانحدرت إلى البصرة لغلبة الفكر علىّ، وأقمت مدة ذاهلا متحيراً[2].

فاستطراده لفائدة، وقد ينبه على ذلك فقد قال - بصدد حديث له خرج عن موضوع صرفى كان يعالجه - «وهذا شىء ليس من التصريف وإنما انشعب الكلام إليه»[3]، ويقول فى سر الصناعة: «وإنما ذكرت بعض أحكام النون فى حرف التاء لاشتراكهما فى هذه القضية[4]، ويقول - تعقيبًا على أحد الكتب العلمية - وفى هذا الكتاب الذى ذكرته لهذا الرجل أشياء تركت إيرادها من هذا النحو لوضوح أمرها، ولأن كتابنا هذا ليس مشروطًا فيه إصلاح إغفال كتاب أحد وإنما ربما اعترض الكلام شىء فقد ذكرناه لاتصاله بما يكون فيه[5].

---

(١) نفسه من المقدمة، ص١١ . (٢) نفسه مخطوطة الأزهر الورقة ١١٦ .

(٣) المنصف ٣/ ٢٣٦ . (٤) سر الصناعة ١/ ١٨٨ .

(٥) سر الصناعة مخطوطة الأزهر ظهر الورقة ٧١ .

١٤- يكرر المعنى الواحد فى أكثر من موضع ليتأكد من فهم الباحث له - كما قال أستاذنا الدكتور نجا - فقد عرض لاستحسان الجر فى قولهم: الحسن الوجه أكثر من مرة فى كتابه الخصائص[١]، وكذلك كرر رأيه فى المطرد والشاذ وأقسامه المعروفة فى أكثر من موضع[٢].

١٥- يستعمل اصطلاحات لم تعهد فى اللغة والنحو من قبله كاستعماله لكلمة (الأصلية) يريد بها (المصدر، وهو التأصل) قال فى الخصائص فى (باب فى امتناع العرب من الكلام بما يجوز فى القياس): فالعين فى الصحيح اللام إنما غاية أصليتها أن تقع متحركة[٣]، ونسب ذلك صاحب اللسان إلى أوائل اللغويين بعد أن نقل عبارة لابن جنى فى مادة (أصل) استعمل بها الأصلية بمعنى التأصل «وأول هؤلاء فى الاستعمال - كما يقول الشيخ النجار - هو ابن جنى[٤]» كما يبدو من صدر كلام صاحب اللسان يقول: واستعمل ابن جنى الأصلية موضع التأصل فقال: الألف وإن كانت فى أكثر أحوالها بدلا أو زائدة فإنها إذا كانت بدلا من أصل جرت فى الأصلية مجراه وهذا لم تنطق به العرب وإنما هو شىء استعملته الأوائل فى بعض كلامها[٥]، وكما قال أستاذنا الشيخ النجار: «لم يرتكب ابن جنى بدعًا فإنما جرى فى هذا على انتهاج المصدر الصناعى»[٦].

كما أنه يستعمل كلمة الإضافة بمعنى النسب، وقد بدا ذلك فى مواضع متعددة فى الخصائص مثل «وذلك كقولنا فى الإضافة إلى ما فيه همزة التأنيث بالواو، وذلك نحو حمراوى وصفراوى وعُشَرَاوِىّ»[٧]، «ومنها قولهم فى الإضافة

---

(١) ١/ ١٨٣، ٢٨٢، ٢٩٧، ٣٠٣، ٢/ ١٧٦.

(٢) ١/ ٩٦ وعرض له مرة أخرى بتعبير جديد، ج١، ص١١٧.

(٣) الخصائص ١/ ٣٩٣.

(٤) مقدمة الخصائص ١/ ٢٧.

(٥) اللسان (اصل)، ١٣/ ١٦.

(٦) مقدمة الخصائص ١/ ٢٨.

(٧) الخصائص ١/ ٢١٣.

إلى عَدُوَّة عَدَوِىّ»[1]، ويستعمل تعبير (ياءى الإضافة)[2] فى معنى ياءى النسب، وهو فى بعض الأحيان يعود إلى أصل استعمال كلمة النسب كقوله: «الأول كقولهم فى النسب إلى شَنوءة شَنَئِىّ»[3]، واعلم أن من قال فى حَلُوبة حَلَبِىّ قياسًا على قولك فى حَنيفة حنفى فإنه لا يجيز فى النسب إلى حَرورة حَرَرِىّ[4].

وله اصطلاحات أخرى كثيرة، وقد اكتفينا بهذا للدلالة على ابتكاره فى هذا المجال بما يأخذه عنه جامعو اللغة ويسلمونه له حتى لكأنه من العرب أرباب السليقة.

وهكذا يعد ابن جنى فيلسوف العربية غير مدافع، وقد دل منهجه هذا على دراية واسعة وعلم غزير واستقصاء فى البحوث وابتكار لها، ولعل أستاذه الفارسى كان قد غرس فيه الاتجاه العام لهذا المنهج[5].

اتجاهه فى الاحتجاج للقراءات

لمحة تاريخية:

نزل القرآن على رسولنا الكريم دستورًا سماويًا يعمل بمقتضاه ويتلى على الألسنة والشفاه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق]، ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨﴾ [القيامة]،

---

(١) نفسه ٢/ ٣٤٦ .

(٢) نفسه ٣/ ٦٢ .

(٣) نفسه ١/ ١١٥ .

(٤) نفسه ١/ ١١٦ .

(٥) انظر الاغفال صحائف: ٢٩، ٣٢، ٣٥، ٥٥، وفيها طابع الاستقصاء وطريقة السؤال والجواب، والشيرازيات (المسألة الأولى والمسألة الثالثة عشرة)، والبغداديات فى قولهم: يستعور، ص٤، والمسائل الحلبية لوحة ٥٦ فى قوة الاستدلال لقولهم: ضربنى وضربت زيدا وفيها يهاجم البصريين، والكسائى من الكوفيين، ويفسر قول البغداديين لوحة ٦٠، وطريقة السؤال والجواب لوحة ٧٠، ٧٩ مثل: فإن قال قائل: فما تنكر أن يكون كذا، فالقول... إلخ.

والقرآن الكريم لم ينزل ليتلوه الرسول ﷺ وحده، بل للأمة الإسلامية قاطبة فى شتى أرجاء الأرض، فبدأ الرسول ﷺ يعرضه على الصحابة فيقرأونه ويحفظونه، ومع انتشار الإسلام فى أنحاء الجزيرة كان القرآن ينتقل بين ربوعها فيسمعه الداخلون فى الإسلام ويتداولونه فيما بينهم فهمًا وعملا وتلاوةً.

ولا ريب أن البيئات المختلفة للجزيرة كانت عاملا أول فى الحاجة إلى تعدد الوجوه بما يتمشى مع الألسنة المختلفة، فلذلك نزل جبريل عليه السلام على النبى ﷺ يأمره بقراءة القرآن على سبعة أحرف والحديث فى ذلك مشهور، وهذا الحديث نفسه يدل على أن الصحابة كانت ألسنتهم تختلف فى النطق بالقرآن ففيه أن (أُبَىّ بن كعب رضى الله عنه قال: دخلت المسجد أصلى فدخل رجل فافتتح النحل فقرأ فخالفنى فى القراءة فلما انفتل من صلاته قلت من أقرأك؟ قال: رسول الله ﷺ، ثم جاء رجل فقام يصلى فقرأ وافتتح فخالفنى وخالف صاحبى فلما انفتل قلت: من أقرأك؟ قال: رسول الله ﷺ، قال: فدخل قلبى من الشك والتكذيب أشد مما كنت فى الجاهلية، فأخذت بأيديهما فانطلقت بهما إلى النبى ﷺ فقلت: استقرئ هذين، فاستقرأ أحدهما وقال: أحسنت، فدخل صدرى من الشك والتكذيب أشد مما كنت فى الجاهلية ثم استقرأ الآخر وقال: أحسنت، فدخل صدرى من الشك والتكذيب أشد مما كنت فى الجاهلية، فضرب رسول الله ﷺ صدرى بيده، وقال: أعيذك بالله يا أُبَىُّ من الشك ثم قال: إن جبريل عليه السلام أتانى فقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: اللهم خفف عن أمتى، ثم عاد. فقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين فقلت: اللهم خفف عن أمتى، ثم عاد فقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف[1].

ولا ريب أن ذلك التيسير كان لتعدد اللهجات العربية، ولذلك يقول ابن الجزرى: وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلفة وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها أو من حرف إلى آخر، بل قد

---

(١) صحيح مسلم ٦/١٠١-١٠٤، والنسائى ١/١٤٩، ١٥٠، والبخارى ١٩/ ٢٠، ٢١، والنشر ١/ ٢٠.

يكون بعضهم لا يقـدر على ذلك، ولا بالتعليم والعلاج، لا سيـما الشيخ والمرأة ومن لم يقرأ كتابًا كما أشار إليه ﷺ، فلو كُلِّفوا العدول عن لغتهم، والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع[1].

ولما انتشر الإسلام فى خارج الجزيرة تعلم أهل الأمصار الجديدة القرآن على قراء القرآن من الصحابة، ففى الطبقات الكبرى لابن سعد: «جمع القرآن فى زمان النبى ﷺ خمـسة من الأنصار معـاذ بن جبل وعبادة بن الصـامت وأبى بن كعب وأبو أيوب وأبو الدرداء، فلمـا كان زمن عمـر بن الخطاب كتب إليـه يزيد بن أبى سفـيان أن أهل الشام قـد كثروا وربلوا ومـلأوا المدائن واحتاجـوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم فأعنى يا أمير المؤمنين برجـال يعلمونهم، فدعا عمر أولئك الخمسة فقال لهم إن إخوانكم من أهل الـشام قد استعانونى بمن يعلمهم القـرآن، ويفقههم فى الدين، فأعـينونى - رحمكم الله - بثلاثة منكم إن أجـبتكم فاستـهموا، وان انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا فقالوا: مـا كنا لنتساهم.. هذا شيخ كبير لأبى أيوب وأما هذا فـسقيم لأُبَىّ بن كعب فـخرج معاذ وعـبادة وأبو الدرداء[2]، ومنذ وضع المصاحف على يد عثمان رضى الله عنه أخذ كل أهل مصر بما فى مصحفهم[3].

وقد ظهر فى تلـك الأمصار أعلام للقراءة على الوجـوه المروية عن الرسول ﷺ ولعلهم كانوا كـثيراً - فى أول الأمـر - وفى نهاية القـرن الثانى اشتـهر منهم سبعة عرفوا بالعدالة والأمانة والضبط وهم:

---

(١) النشر ١/ ٢٢ فلم يكن اختلاف القراءات ناشئا عن خاصيـة الخط العربى كما يقول جولد تسيهر، فهو يرى أن الرسم الواحد للكلمـة الواحدة قد يقرأ بأشكال مختلفة تبـعا للنقط فوق الحروف أو تحتها، وأن عدم وجود الحركات النحوية، وفقدان الشكل في الخط العربى يمكن أن يجعل للكلمة حالات مخـتلفة من ناحية مـوقعها من الإعراب (انظر: المذاهب الإسـلامية فى تفسـير القرآن، ص٤، وانظر: تحليله للموضوع بحسـب اتجاهه غير الموفق، من ص٤-٤٢)، والملاحظ أن بعض القراءات لا عـلاقة لها بالنقط أو الشكل مـثل الإمالة فى موسى وعـيسى وإثبات صلة الضمـير عليهم فيقـال عليهمو، ويمكن بشىء من النظر نقض كلامه كله ولكن ليس موضـعه هنا، فضلا عن أن القراءة سنة متبعة ولا يمكن العدول عن النص إلى الوهم والخيال.

(٢) ٢/ ٣٥٧ .   (٣) النشر ١/ ٨٧.

١ - عبد الله بن كثير (ت ١٢٠هـ) وكان بمكة.

٢ - نافع بن عبد الرحمن (ت ١٦٩هـ) وكان بالمدينة.

٣ - عبد الله بن عامر (ت ١١٨هـ) وكان بالشام.

٤ - أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ)[١].

٥ - يعقوب بن إسحاق الحضرمى (ت ٢٠٥هـ)[٢].

وكان هو وسابقه بالبصرة.

٦ - حمزة بن حبيب الزيات (ت ١٥٦هـ).

٧ - عاصم بن أبى النجود (ت ١٢٧هـ).

وكان هو وسابقه بالكوفة.

ولما جاء ابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) سبع السبعة وشذذ ما عداها، ولم يعترف بقراءة يعقوب فتركه، وأخذ بقراءة الكسائى على بن حمزة (ت ١٧٩هـ)[٣]، وكان ذلك فى مؤلفاته عن القراءات السبع والقراءات الشاذة[٤] وقد كانت كتب ابن مجاهد هذا فاتحة للتأليف فى الاحتجاج للقراءات وبخاصة بعد أن ثار نقاش طويل حول ما يعرف بالشاذ والخلاف بين ابن مجاهد وابن شنبوذ[٥] وابن مقسم اللذين كانا يخالفانه فى رأيه «وقد ضرب الأول» واستتيب الثانى[٦]، فظهرت كتب فى دراسة القراءات والاحتجاج لها هى:

---

(١) وقيل سنة ١٥٦ أو ١٥٧ أو ١٥٩، الوفيات ٢/ ١٣٦-١٣٨.

(٢) البغية ٢/ ٣٤٨.

(٣) طبقات القراء ١/ ٥٣٥.

(٤) ألف فى القراءات كتاب القراءات الكبير وكتاب القراءات الصغير، وكتاب قراءة أبى عمرو، وكتاب قراءة ابن كثير، وكتاب قراءة عاصم، وكتاب قراءة نافع، وكتاب قراءة حمزة، وكتاب قراءة الكسائى، وكتاب قراءة ابن عامر، وكتاب قراءة النبى ﷺ، الفهرست لابن النديم، ص٤٧، وقد ولد ابن مجاهد سنة ٢٤٥، وتوفى ٣٢٤هـ، وانظر فى المذكورين معه من القراء، الفهرست من ٤٢-٤٧.

(٥) توفى سنة ٣٢٨هـ، وضربه الوزير أبو على بن مقلة. الفهرست ٤٧، وطبقات القراء ٢/ ٥٢.

(٦) طبقات القراء ٢/ ١٢٤.

١ - محاولة لأبى بكر بن السراج (ت ٣١٦هـ) اقتصرت على الاحتجاج لسورة الفاتحة وجزء من سورة البقرة[١].

٢ - وظهر كتاب الانتصار لحمزة - بجانب كتب أخرى فى القراءات - ألفها أبو طاهر عبد الواحد البزار (ت ٣٤٩هـ)[٢].

٣ - وكتاب السبعة بعللها الكبير، وكتاب السبعة الأوسط وكتاب السبعة الأصغر لمحمد بن الحسن الأنصارى (ت ٣٥١هـ)[٣].

٤ - وألف محمد بن الحسن بن مقسم (ت ٣٦٣هـ) أربعة كتب هى:

أ - كتاب احتجاج القراءات.

ب- كتاب السبعة بعللها الكبير.

جـ- كتاب السبعة الأوسط.

د - كتاب السبعة الأصغر[٤].

٥ - كتاب فى علل القراءات لأبى منصور الأزهرى (ت ٣٧٠هـ)[٥].

٦ - كتاب الحجة لابن خالويه (ت ٣٧٠هـ).

٧ - كتاب الحجة لأبى على الفارسى (ت ٣٧٧هـ).

٨ - المحتسب لابن جنى (ت ٣٩٢هـ).

ثم تتتابع الكتب المؤلفة فى القراءات والاحتجاج لها بعد ابن جنى على يد مكى بن أبى طالب (ت٤٣٧هـ)[٦]، وأبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى (ت٤٤٤هـ)[٧] وغيرهم.

---

(١) مقدمة الحجة للفارسى ج١، ص٤.

(٢) الفهرست ٤٨.

(٣) نفسه ٥٠.

(٤) نفسه ٤٩، ٥٠.

(٥) معجم الأدباء ١٧/ ١٦٥، انظر ترجمته ١٦٤-١٦٧.

(٦) الشذرات ٣/ ٢٦٠، وإنباه الرواة ٣/ ٣١٣-٣١٥.

(٧) الشذرات ٣/ ٢٧٢.

وفى غضون كتب النحو والتفسير نجد احتجاجًا للقراءات ككتاب سيبويه والبحر المحيط وغيرهما.

وإذا كنا بصدد الحديث عن منهج ابن جنى فى الاحتجاج للقراءات فلا بد أن نشير إلى النزعة التى اتجه إليها المحتجون فى كتبهم المؤلفة لذلك، ولا ريب أن هؤلاء العلماء لم يسيروا على طريق واحدة فى منهجهم، فكما يقول الدكتور شلبى، انقسم المحتجون للقراءات إلى فريقين: فريق يسلك طريق القياس وآخر يسلك طريق الرواية والأثر.

فالفريق الأول صاحب مدرسة تجعل القراءة الصحيحة هى التى تخضع لمقاييس العربية، وعلى هذا خطَّأوا ما لم يوافق هذه المقاييس، ولو كان مرويًا أو موافقًا لرسم المصحف، وزعيم هذه المدرسة أبو على الفارسى فنراه يرد قول ابن مجاهد إن «قراءة ﴿لَا يَحْطِمَنْكُمْ ... (١٨)﴾ [النمل] بسكون النون[١] غلط، ويقول: قوله غلط يريد أنه غلط من طريق الرواية لا أنه لا يتجه فى العربية، ووجه النون الخفيفة والشديدة ههنا حسنان، وفى عكس ذلك يصحح ابن مجاهد عن نافع همز ﴿مَعَايِشَ ... (١٠)﴾ [الأعراف]، ويخطئه أبو على فيقول: همز (معائش) غلط[٢].

وأغلب المنتمين إلى هذه المدرسة من البصريين وإن كان منهم من نزع منزع الأثر كالزجاج وابن السراج وابن جنى[٣].

والفريق الثانى صاحب مدرسة تجعل القراءة صحيحة إذا تحققت فيها شروط ثلاثة:

١ - أن توافق القراءة العربية ولو بوجه.

٢ - أن توافق أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا.

٣ - أن يصح سندها عن الرسول ﷺ.

---

(١) النمل ١٨، والحجة ٦/٥٦.

(٢) الحجة ٤/١٣٩، الأعراف ١٠، والحجر ٢٠.

(٣) ابو على الفارسى د. شلبى ٤٢٩.

يقول ابن الجزرى فى ذلك: «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، وصح سندها فهى القراءة الصحيحة التى لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها. . . والمراد بالوجه ما كان من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحًا، مجمعًا عليه أم مختلفًا عليه اختلافًا لا يضر مثله، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح. . . وأئمة القراءة لا تعمل فى شىء من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة والأقيس فى العربية بل على الأثبت فى الأثر والأصح فى النقل[(١)]، وعلى هذا فما روى من قراءات فى القرآن على ثلاثة أقسام:

١ - قسم يقرأ به اليوم، وذلك ما اجتمع فيه ثلاث خلال، وهو أن ينقل عن الثقات عن النبى ﷺ ويكون وجهه فى العربية التى نزل بها القرآن سائغًا، ويكون موافقًا لخط المصحف.

٢ - القسم الثانى ما صح نقله عن الآحاد، وصح وجهه فى العربية، وخالف لفظه خط المصحف فهذا يقبل ولا يقرأ به.

٣ - والقسم الثالث: ما نقله غير ثقة، أو نقله ثقة ولا وجه له فى العربية، فهذا لا يقبل وإن وافق خط المصحف[(٢)].

والأول هو ما يطلق عليه اسم القراءة الصحيحة لاستيفائها الشروط، والثانى ما يطلق عليه اسم الشاذ «لكونه شذ عن رسم المصحف المجتمع عليه»[(٣)] والثالث هو المردود كما عرفه ابن الجزرى[(٤)].

«وتظهر النزعة الأثرية فى الاحتجاج للقراءات لدى الكوفيين والأندلسيين»[(٥)].

---

(١) النشر ١/٩-١١.

(٢) نفسه ١/١٤.

(٣) منجد المقرئين لابن الجزرى (القدسى ١٣٥٠هـ)، ص١٧.

(٤) النشر ١/١٧.

(٥) أبو على الفارسى. د. شلبى ٤٢٩.

وعالمنا ابن جنى ممن نزعوا منزع الأثر وكتابه المحتسب أمارة واضحة وحقيقة واقعة لذلك، وهو يتفق تمامًا فى وجهة نظره مع علماء الأثر فى القراءة الصحيحة وضابطها، والقراءة الشاذة وضابطها، فهى عنده ما صح سنده وله وجه من العربية، ولذلك نلمح دفاعه عنها ليوجد هذا الوجه ما دام السند صحيحًا ونجد ذلك واضحًا فى جعله القراءات ضربين.

١ - ضربًا اجتمع عليه أكثر قراء الأمصار، وهو ما أودعه أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد - رحمه الله - كتابه الموسوم بقراءات السبعة وهو بشهرته غان عن تحديده.

٢ - وضربًا تعدى ذلك فسمى شاذًا، أى خارجًا عن قراءة القراء السبعة المقدم ذكرها إلا أنه مع خروجه عنها نازع بالثقة إلى قرائه، محفوف بالروايات من أمامه وورائه، ولعله أو كثيرًا منه مساو فى الفصاحة للمجتمع عليه، نعم وربما كان فيه ما تلطف صنعته، وتعنف بغيره فصاحته وتمطوه قوى أسبابه، وترسو به قدم إعرابه، ولذلك قرأ بكثير منه من جاذب ابن مجاهد عنان القول فيه وماكنه عليه وراده إليه، كأبى الحسن أحمد بن محمد بن شنبوذ، وأبى بكر محمد بن الحسن ابن مقسم، وغيرهما ممن أدى إلى رواية استقواها، وأنحى على صناعة من الإعراب رضيها واستعلاها.

ولسنا نقول ذلك فسحًا بخلاف القراء المجتمع فى أهل الأمصار على قراءتهم، أو تسويغًا للعدول عما أقرته الثقات عنهم، لكن غرضنا منه أن نُرى وجه قوة ما يسمى الآن شاذًا ،وأنه ضارب فى صحة الرواية بجرانه، آخذ من سمت العربية مهلة ميدانه، لئلا يُرَى مُرًى أن العدول إنما هو غض منه أو تُهَمَةٌ له.

ومعاذ الله وكيف يكون هذا والرواية تنميه إلى رسول الله ﷺ؟! والله تعالى يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ... ۝٧﴾ [الحشر][1].

---

(١) مقدمة المحتسب لابن جنى ١/٣٢، ٣٣، ٢/٣٠٦.

وفى هذا النص يقرر ابن جنى القراءة الصحيحة المجتمع عليها، والتى يقرأ بها فى الضرب الأول، كما يقرر الشاذ المعترف بصحته وقبوله إلا أنه لا يقرأ به فى الضرب الثانى الذى أوضح فيه أنه منسوب إلى النبى ﷺ بثبات وثقة، ثم هو مع ذلك آخذ من سمت العربية وجهًا صحيحًا.

فإذا اجتمع للقراءة صحة الرواية وموافقة وجه صحيح فى العربية وجب الأخذ به، وبخاصة أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ... ⑦﴾ [الحشر]، ثم هو يعترف بعدم جواز القراءة به - مع كونه مقبولا - فيقول: إلا أننا وإن لم نقرأ فى التلاوة به مخافة الانتشار فيه وتتابع من يتبع فى القراءة كل جائز رواية ودراية فإنا نعتقد قوة هذا المسمى شاذًا، وأنه مما أمر الله تعالى بتقبله وأراد منا العمل بموجبه وأنه حبيب إليه ومرضى من القول لديه[1].

كما نراه يشير إلى القسم الثالث المردود حين يقول: إن هناك «ضربًا شذ عن القراءة عاريًا من الصنعة ليس فيه إلا ما يتناوله الظاهر مما هذه سبيله فلا وجه للتشاغل به، وذلك لأن كتابنا هذا ليس موضوعًا على جميع كافة القراءات الشاذة عن قراءة السبعة وإنما الغرض منه إبانة ما لطفت صفته وأغربت طريقته.

فما لم يوافق وجهًا من وجوه العربية يجب - على قوله هذا - أن يطرح ولا ينظر إليه، وإذا كان قد نبه على اتصال السند وصحة الرواية فى الشاذ الذى يعتد به كان من الجلى أن ما لا صحة لسنده لا معول عليه بل يعد من المردود، ومما يؤكد ذلك قوله: «لا عذر لأحد أن يرتجل قراءة وإن سوغتها العربية من حيث كانت القراءة سنة متبعة»[2] وبذلك يكون ابن جنى قد حكم حكمًا عادلا وكما قال الدكتور شلبى: هو على حق فيما ذهب إليه فما دامت القراءة عن رسول الله ﷺ مسندة - سواء كانت من المجتمع عليه أم مما هو خارج عنه - وما دام لها وجه من العربية فلا معنى لردها وعدم الأخذ بها، وليس ضعف العربية كذلك مما يقدح

(١) نفسه ١/ ٣٣.

(٢) المحتسب ١/ ٢٩٢، والحجة ١/ ٢٩.

لأن القراءة (سنة متبعة)[1] وليس للقياس مدخل فيما هو معتمد على محض الرواية وخالص الآثار[2].

ولله در ابن جنى فهو الباحث الموفق، ويتبين لنا توفيقه فى بحثه من مخالفة أستاذه الفارسى فى الاحتجاج للقراءات، فأستاذه زعيم القياسيين يرد القراءة المروية إذا خالفت وجه العربية على حين نرى عالمنا العبقرى - وهو الذى وافق أستاذه فى اتباع مبدأ القياس فى اللغة والنحو وتوسع فيه مثله - نراه هنا يخالفه ويخالف ما أخذ به هناك فيتبع المسموع ويقف عنده ولا يحكم القياس أو العقل إلا فيما يثبت القراءة المروية ويوثقها، ولو كان الوجه اللغوى أو التخريج النحوى ضعيفًا إلا أنه يلتمسه أين كان وحيثما وجد.

ونضرب مثالا لذلك حتى يتضح ما نقول: فعند قراءة الحسن (سأوريكم دار الفاسقين) فى قوله تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف]، قال أبو الفتح: ظاهر هذه القراءة مردود لأنه سأفعلكم من رأيت وأصله «سأرئيكم» ثم خففت الهمزة بحذفها وإلقاء حركتها على الراء، فصارت (سأريكم) قالوا: وإذًا لا وجه لها... ثم يقول إلا أن له وجهًا ما، وهو أن يكون أراد (سأريكم) ثم أشبع ضمة الهمزة، فأنشأ عنها واوًا فصارت (سأوريكم)..! ويأخذ فى التدليل له بمأثور كلام العرب ثم يقول: فإذا جاز هذا ونحوه نظمًا ونثرًا ساغ أيضًا أن يتأول لقراءة الحسن... وهو أبو سعيد والمأثور من فصاحته ومتعالم قوة إعرابه وعربيته، فهذا مع ما فيه من نظائره أمثل من أن يتلقى بالرد صرفًا غير منظور له ولا مسعى فى إقامته[3] ولذلك نجده يذكر فى سبب تأليفه لكتابه المحتسب أنه لما وجد العلماء منصرفين عن الاحتجاج للشاذ الموثوق بروايته، ولم يجد اهتمامهم به وجه هو عنايته إليه يقول: فإذا كانت هذه حاله (أى الشاذ من القوة فى الرواية) عند الله جل وعلا وعند رسوله المصطفى وأولى العلم بقراءة القراء، وكان من مضى من أصحابنا لم يضعوا للحجاج كتابًا فيه، ولا أولوه طرفًا من القول عليه، وإنما ذكروه مرويًا مسلمًا مجموعًا أو متفرقًا، وربما اعتزموا الحرف منه فقالوا القول

---

(١) المحتسب ١/٢٩٢، والحجة ١/٢٩ . (٢) أبو على الفارسى. د. شلبى ٣٣٥، ٣٣٦.

(٣) المحتسب ١/٢٥٨، ٢٥٩.

المقنع فيه. فأما أن يفردوا له كتابًا مقصورًا عليه، أو يتجردوا للانتصار له، ويوضحوا أسراره وعلله فلا نعلمه - حسن بل وجب التوجه إليه، والتشاغل بعمله، وبسط القول على غامضه ومشكله[1].

وفضلا عن ذلك فقد دفعته إلى تأليف هذا الكتاب أسباب أخرى - تدل أيضًا على مبلغ اهتمامه بالشواذ والانتصار لها - وهى أن أستاذه الفارسى لم يؤلف فيه كتابًا بعد أن عزم عليه وحالت الأيام دونه، يقول: «على أن أبا على - رحمه الله - قد كان وقتًا حدث نفسه بعمله، وهم أن يضع يده فيه، ويبدأ به فاعترضت خوالج هذا الدهر دونه، وحالت كبواته بينه وبينه»[2]، وهذا النص أيضًا يطلعنا على قوة تعلق ابن جنى بالدفاع عن هذا النوع من القراءات بحيث كان له صدى فى نفسه منذ قديم الزمن وأيام مصاحبته لأستاذه، فكأنه كان حلمًا يراوده ويتساءل عنه مع أستاذه حتى إنه أخبره بأنه سيعمل كتابًا فيه إلا أن مصاعب الحياة منعته من ذلك، فصمم التلميذ النجيب على إخراج هذا الحلم إلى عالم الحقيقة الواقع الملموس وبخاصة أنه يريد بذلك وضع الحق فى نصابه ويرجو من ورائه رضا الله وثوابه وكأنى بعنوان الكتاب يشهد بذلك على الرغم من أن محققيه يذهبون إلى أنه إنما سمى الكتاب بهذا الاسم لأنه كان فى أخريات أيامه (ويشعر بأن منيته قد دنت وأن حياته قد آذنت بزوال فهو يتخشع لله ويبتغى إليه الوسيلة)[3].

ولكننى أضيف إلى ذلك أن الهدف الأسمى كان هو الدفاع عن هذا اللون الثابت الموثق الرواية وبيان أنه لا يقل درجة عن المجتمع عليه كما صرح هو نفسه، ودافعه إلى ذلك الخوف من الله والتخشع إليه ليس فى آخر أيام حياته فحسب، بل فى أطوار حياته كلها فكان منذ تلمذته وشبابه ينظر إلى هذا الموضوع بعين المتطلع للدفاع الراجى وجه الله فى إثبات الحقيقة الناصعة.

وبعد أن عرفنا موقف ابن جنى من الشواذ وأنه يجهد عقله وعلمه للدفاع عنها نحب أن نرسم صورة لمنهجه إزاءها وهاكها.

---

(١) مقدمة المحتسب لابن جنى ٣٣، ٣٤ .

(٢) مقدمة المحتسب لابن جنى ١/ ٣٤.

(٣) مقدمة المحتسب للمحققين ١/ ١٢.

منهجـه

أهم ما اتبعه ابن جنى فى الاحتجاج للقراءات ما يأتى:

١- **طريقة العرض**: يبدأ بذكر القـراءة وأقوال العلماء فيها - إذا كـان فيها ذلك - ثم يناقشها ويثبت ما يريد بـالبراهين المؤيدة بالقرآن والحديث وموثوق كلام العرب شـعراً ونثـراً والأصول العـربية اللغـوية والنحوية والصـرفيـة والعروضـية والبلاغية مـا وجد إلى ذلك سبيلا، ونقيم نحن الأدلة علـى ذلك المبدأ من كلامه واحدة واحدة:

أ - يورد أقوال العلمـاء: فعند تخريجـه لقراءة ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ... (٥٤)﴾ [البقرة]: (فاقـتالوا أنفسكم) يذكر أن اقتال: افتـعل ويصح أن يكون عينها واواً أو ياءً، ويذكر قـول قتادة إنـها من الاستـقالة، ثم يناقش هذا القـول ويثبت أن عين استـقال من اليـاء ولا يعرف فى اللغـة افتـعلت من هذا اللفظ فى هذا المعنى ولا غيره، وإنما هو اسـتفعلت استقلت. . وعلى أنه لو كـان بمعنى استقلت لوجب أن يستـعمل باللام فيـقال استقلت لنفـسى أو على نفسى كمـا يقال استـعطفت فلانًا لنفسى وعلى نفـسى، وليس معناه أن يسأل نفسه أن تقـيله. . وإنما يريد أنه يسأل ربه (عز وجل) أن يعفـو عن نفسه وكان له حـرًى - لو كان على ذلك - أن يقال (فاقتالوا لأنفسكم) أى استقيلوا لها واستصفحوا عنها، فأما (اقتال) متعديًا فإنما هو فى معنى ما يجتره الإنسان لنفسه من خير أو شر ويقترحه وهو من القول، قال:

بما اقتال من حُكْم عَلَىّ طَبيبُ

أى بما أراده واقترحه واستامه، وليس معنى هذا معنى الآية، بل هو بضده؛ لأنه بمعنى استليـنوا واستعطفـوا، هذا ما يحضـره طريق اللغة ومذهب التـصريف والصنعة، إلا أن قتادة ينبغى أن يحسن الظن به فيقال: إنه لم يورد ذلك إلا بحجة عنده فيه من رواية أو دراية[1].

---

(١) المحتسب ١/٨٣، ٨٤. وذلك فى الآية (٥٤) من سورة البقرة.

ونراه هنا فى مناقشته الآراء يميل إلى التلطف والاعتذار، لأنه فى مقام النصوص الموثوق بها رواية، فينبغى أن يهذب من مواقفه عندها مهما يكن رأى خصمه ضعيفًا.

وكثيرًا ما يذكر ما قاله ابن مجاهد ويهاجمه هجومًا عنيفًا ثم يعتذر له، فعند قراءة ﴿أو آوي ... ﴿٨٠﴾﴾ [هود] بفتح الياء، يروى قول ابن مجاهد ولا يجوز تحريك الياء ههنا ثم يعقب عليه بقوله: هذا الذى أنكره ابن مجاهد عندى سائغ، ويأخذ فى البيان[1] وهكذا ينتقده فى أماكن كثيرة[2] ويعتذر عنه بقوله فى أحد المواضع: قول ابن مجاهد هذا لا يجوز لا وجه له لما شرحناه من حاله، ورحم الله أبا بكر فإنه لم يأل فيما علمه نصحًا، ولا يلزمه أن يرى غيره ما لم يره الله تعالى إياه، وسبحان قاسم الأرزاق بين عباده وإياه نسأل عصمة وتوفيقًا وسدادًا بفضله[3].

وهو يعرض آراء العلماء فى أماكنها المناسبة، ويناقشها ويهاجمها إذا اقتضى الأمر مهما يكن شأن صاحبها، فقد هاجم سيبويه[4] وينحى باللائمة على المخالفين الذين يذهبون بعيدًا عن وجه الصواب فيقول: ويا ليت شعرى هل تكون سورة أكثر استعمالا من سورة (الحمد) وهذا جزء من أجزاء ما فيها ولم توضع عليه يد؟!، شرح الله لإعظام أوامره صدورنا، وأحسن الأخذ إلى طاعته بأيدينا بقدرته وماضى مشيئته، ثم يقول - بعد أن يعرض سرًا من أسرار العربية فى إحدى القراءات - فهل يحسن مع وجود هذا الفرق الواضح الكريم أن يخلد دونه إلى التعذر بما يخلد إليه الموهون المضيم؟ اللهم انفعنا بما استودعتنا، واجعل بك اعتصامنا، وإلى طاعتك توجهنا، إنك لطيف بنا وأنت حسبنا[5].

ب- يثبت ما يريد بالبراهين المؤيدة بقرآن مقروء به فى قراءات أخرى وحديث شريف وموثوق كلام العرب شعرًا ونثرًا، ففى قراءة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ... ﴿١٢٩﴾﴾

---

(١) نفسه ١/٣٢٦ .
(٢) نفسه ١/٢١١، ٣٢٨، وغيرها.
(٣) نفسه ١/٧١ .
(٤) نفسه ١/٣٠٤، وانظر ص ١٠١ من كتابنا.
(٥) نفسه ١/١٤٦، ١٤٧.

[البقرة] بتسكين الميم يورد قوله تعالى ﴿فتوبوا إلى بارئكم ... ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة]، فيمن رواه بسكون الهمزة وقوله تعالى: ﴿بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴿٨٠﴾﴾[1] [الزخرف]، وفى مواضع أخرى كثيرة[2] وفى قراءة (مومنان) بالألف في قوله تعالى: ﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين ... ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف]، يستدل على تخريج إعرابها بالحديث الشريف «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه»[3]، وفى ﴿صنوان ... ﴿٤﴾﴾ [الرعد] بفتح الصاد يستدل على أن الصنو هو النخلة لها رأسان وأصلها واحد بقول النبى ﷺ: العباس عمى وصنو أبى[4]، ويكاد يكون استشهاده بموثوق كلام العرب منتشرًا فى كل أنحاء الكتاب[5].

جـ- الأصول العربية: (اللغوية): يورد فى احتجاجه أصولا لغوية هامة مما أرسى دعائمه فى كتبه الأخرى كالخصائص وسر الصناعة والمنصف وغيرها، فمثلا يأتى بالاشتقاق الأكبر عند حديثه عن قراءة (حِرْجٌ) فى قوله تعالى: ﴿حرث حجر ... ﴿١٣٨﴾﴾ [الأنعام]، يقول: قال أبو الفتح قدمنا فى كتابنا الخصائص صدرًا صالحًا من تقلب الأصل الواحد والمادة الواحدة إلى صور مختلفة ينظمها كلها معنى واحد، ووسمناه بباب الاشتقاق الأكبر نحو (ك ل م) ويذكر تصرفاتها، ثم يذكر مادة (حجر) وتقلباتها، وأنها تدور حول الشدة والضيق والاجتماع[6] كما يتحدث عن تركب اللغات والاستغناء عند حديثه عن قراءة ﴿ويهلك ... ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة]، بفتح الياء واللام ورفع الكاف كركَن يركَن وأبَى يأبَى فيهلَك من هذا القبيل أو من باب الاستغناء[7] كما يورد صورًا للإبدال عند قراءة ﴿وفومها ... ﴿٦١﴾﴾ [البقرة] بالثاء فيتحدث عن الثوم والفوم وجدث وجدف، وأن الفاء بدل من الثاء[8] مؤيدًا رأيه بكثرة التصرف كما هى قاعدته فى الإبدال، وهناك أماكن

---

(١) نفسه ١/١٠٩. (٢) نفسه ١/١٣٣، ١٦٩، ٢٥٨ وغيرها.

(٣) نفسه ٢/٣٣. والآية (٨٠) من سورة الكهف. (٤) ١/٣٥١.

(٥) انظر مثلا المحتسب ١/ ١٤٠، ١٤١، ١٤٤، ١٥٠، ١٧٨، ١٩٤، ٢٩٣، ٣١٤، ٣١٧.

(٦) نفسه ١/٢٣١، ٢٣٢ . (٧) نفسه ١/١٢١. (٨) نفسه ١/٨٨.

أخرى كثيرة غير تلك[1]، وهكذا يستخدم أصولا لغوية كثيرة فى الاحتجاج للقراءات.

(النحوية): فعند قراءة ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾ [آل عمران] (يؤته) بالياء فيهما يخرج القراءة على إضمار الفاعل لدلالة الحال عليه ويبين وجهه، ثم يقول: وحديث إضمار الفاعل للدلالة عليه واسع فاش عنهم[2] ويحتج لقراءة ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ... (١)﴾ [النساء] بالرفع بأن الأرحام مبتدأ محذوف الخبر وكلما قويت الدلالة على المحذوف كان حذفه أسوغ[3]. وعند قراءة (خاسر) فى قوله تعالى: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ... (١١)﴾ [الحج] يخرج (خاسر) على النصب على الحال ويستدل لذلك[4].

(الصرفية): فعند قراءة ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ... (٢٦٤)﴾ [البقرة] بفتح فاء (صفَوان) يذكر القاعدة العامة فى الصرف وهى أن «أكثر ما جاء فعَلان فى الأوصاف والمصادر، وهو فى الأسماء غير الصفات والمصادر قليل، ويخرج (صفَوان) على هذا القليل[5]، وانظر حديثه عما يشبه ذلك من اختصاص افعال بالألوان كاحمار وابياض إلخ[6] وعند قراءة ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ ... (٧٤)﴾ [الفرقان] (قرات أعين) يقول: إن القرة اسم جنس، وكان قياسه ألا يجمع لأن المصدر اسم جنس والأجناس أبعد شىء عن الجمعية لاستحالة المعنى فى ذلك ويمضى فى الاحتجاج على هذا النسق[7].

(العروضية): يقول عند احتجاجه لقراءة ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ ... (١٠٨)﴾ [التوبة] - بكسر هاء (فيه) الأولى وضم الثانية - ألا تراهم يتسمحون

(١) نفسه ١/٣٤٨، ٣٧٥، ٢/٥٥، ٦٦.

(٢) نفسه ١/ ١٧٠.

(٣) نفسه ١/١٧٩، ١٨٠.

(٤) نفسه ٢/ ٧٥. وذلك فى الآية (١١) من سورة الحج.

(٥) نفسه ١/١٣٧، ١٣٨.

(٦) نفسه ٢/ ٢٥.

(٧) نفسه ٢/ ١٧٤. وذلك فى الآية (٧٤) من سورة الفرقان.

بحشو البيت فى اختلافه فإذا وصلوا إلى القافية راعوها (ووفَّقوا) بين أحكامها أعنى فى الروى والوصل والخروج والردف والتأسيس والحركات وسبب ذلك أنه مقطع والمعول فى أكثر الأمر عليه[1].

(البلاغية): كحديثه عن المجاز العقلى وبعض صوره عند احتجاجه لقراءة ﴿يوم تُقلِّبُ وُجُوهُهُمْ ... (٦٦)﴾ [الأحزاب] ببناء الفعل للمعلوم ونصبه (وجوههم)، أى تُقَلِّبُ السعيرُ وجوهَهم فى النار فنُسب الفعل إلى النار وإن كان المقلب هو الله - سبحانه - بدلالة قراءة أبى حيوة (يوم تُقَلِّبُ وجوهَهم) لأنه إذا كان التقليب فيها جاز أن ينسب الفعل إليها للملابسة التى بينهما، ويورد ما يشبه ذلك من قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ... (٣٣)﴾ [سبأ] وقول رؤبة:

(فَنَامَ لَيْلِى وتَجلَّى هَمِّى)

وقول جرير:

لَقَدْ لُمتنَا يَا أُمَّ غيلانَ فِى السُّرَى وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِىِّ بِنَائِمِ

ويستمر فى عرض الأمثلة، وتخريجها بحسب ملابسات المجاز العقلى[2] كما يتحدث عن أسلوب التجريد البلاغى عند حديثه عن قراءة قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ... (٦)﴾ [مريم]: (يَرِثنى وَارِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوب) وينبه عليه فيقول: هذا ضرب من العربية غريب معناه التجريد ويأخذ فى التخريج عليه[3]. . وهكذا حديثه عن التضمين فى مواضع أخرى، ونحو ذلك من موضوعات البلاغة[4] التى يعد ابن جنى مجدداً فيها ويحتاج فى دراستها إلى بحث مستقل.

وابن جنى بهذا المنهج الذى انتهجه يكون قد ضَمَّن كتابه أسرار العربية وألوانها التى تناولها فى كتبه الأخرى.

٢ - **عدم الاستطراد مع وضوح العبارة**: هذا المبدأ من الأسس التى نبه على نهجها كلما أمكنه ذلك، وقد بين السر فى اتباعه وهو أن أستاذه ألف كتاب

---

(١) نفسه ١/ ٣٠٢.   (٢) نفسه ٢/ ١٨٤، ١٨٥.

(٣) نفسه ٢/ ٣٨. وذلك فى الآية (٦) من سورة مريم).   (٤) نفسه ٢/ ٣٣١.

الحجة مطولا غامض الأسلوب فجفاه القراء، يقول فى مقدمته: وما أكثر ما يخرج فيه بإذن الله، وأذهبه فى طريق الصنعة الصريحة لا سيما إذا كان مشوبًا بالألفاظ السمحة السريحة إلا أننا مع ذلك لا ننسى تقريبه على أهل القراءات ليحظوا به ولا ينأوا عن فهمه، فإن أبا على رحمه الله عمل كتاب الحجة فى القراءات فتجاوز فيه قدر حاجة القراء إلى ما يجفو عنه كثير من العلماء[1]، كما أنه اعتمد كثيرًا على كتاب أبى حاتم السجستانى فى شواذ القراءات فهو أجمع من كتاب قطرب لذلك من حيث كان مقصورًا على ذكر القراءات عاريًا من الإسهاب فى التعليل والاستشهادات التى انحط قطرب فيها وتناهى إلى متباعد غاياتها[2]؛ ولذلك نراه يكرر القول فى مواضع كثيرة من كتابه بأنه تحامى الإطالة والإسهاب خوفًا من جفوة القراء له. ومن أمثلة ذلك قوله: «وفيه أكثر من هذا إلا أنا نكره ونتحامى الإطالة لا سيما فى الدقيق لأنه مما يجفو على أهل القرآن، وقد كان شيخنا أبو على عمل كتاب الحجة وظاهر أمره أنه لأصحاب القراءة وفيه أشياء كثيرة قلما ينتصف فيها كثير ممن يدعى هذا العلم حتى إنه مجفو عند القراء لما ذكرناه[3]. ومنها قوله - فى موضع آخر -: وندع الإطالة بالشواهد إشفاقًا من الإطالة التى سئلنا اجتنابها على ما بينا فى صدر الكتاب[4]، وقد يطيل أحيانًا إذا اقتضته طبيعة الاحتجاج لقراءة غريبة تحتاج للإطالة أو لشرح لغوى جديد، يقول فى احتجاجه لقراءة ﴿وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ... ⑯﴾ [يونس]: (أدرأتكم) - بالهمز - «هذه قراءة قديمة التناكر لها والتعجب منها ولعمرى إنها فى بادئ أمرها على ذلك غير أن لها وجهًا وإن كانت فيه صنعة وإطالة، ثم يأخذ فى تخريجها وفى النهاية يقول: فهذا وإن طالت الصنعة فيه أمثل من أن تعطى اليد بفساده وترك النظر فى أمره[5] ويعقب على إطالته فى الاحتجاج لقراءة ﴿ذُرِّيَّةً...㉞﴾ [آل عمران] بكسر الذال وفتحها قائلا: (ودعانا إلى إشباع القول عليها أن لم يتقدم أحد ببسطها)[6]

---

(١) نفسه المقدمة ١/ ٣٤. والسريحة: السهلة. القاموس ١/ ٢٣٦. (٢) نفسه المقدمة ١/ ٣٦.

(٣) نفسه ١/ ١٩٧. (٤) نفسه ١/ ٢٤٦. (٥) نفسه ١/ ٣٠٩، ٣١٠.

(٦) نفسه ١/ ١٦٠. وذلك فى الآية (٣٤) من سورة آل عمران.

وقد يطيل ولا يعترف - بذلك - لأن علمه الغزير يجعله يظن الكثير قليلا، يقول فى أثناء احتجاجه لقراءة ﴿عَشْرَةَ ... ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة] عشَرة بفتح الشين وكسرها بخلاف «ولولا إشفاقى من الإطالة لبسطت هذا ونحوه بسطًا يونق عارفيه وأهله»[1] وأحيانًا يطيل ولا ينبه على إطالته كما حدث منه عند احتجاجه لقراءة قوله تعالى: ﴿أَنبِئْهُم ... ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة]: (انبهم) بوزن أعطهم و(أنبيهم) بلا همز ورواية ابن عامر (أنبئهم) بهمز وكسر الهاء فقد أطال بما يزيد على أربع صحائف كوامل إلا أنه أشاد بعلمه فى آخرها واعتذر عن ابن مجاهد فى عدم معرفته لأسرارها بما ذكرناه فيما سبق[2].

وعلى كل حال فإنه كان مقتصداً فى غالب أمره، وكانت عبارته سهلة ميسورة جزلة مشرقة حتى لتكاد تضارع أبلغ تعبير فى العصر الحديث، وهذا على النقيض تمامًا من أستاذه الفارسى فى كتاب «الحجة» فإنه كثير الاستطراد والإطالة ولا سيما فى الجزء الأول منه، كما أن أسلوبه فى الحجاج لا يرقى إلى أسلوب أبى الفتح إذ يكثر فيه الغموض، ومن عباراته الغامضة قوله مثلا: رأينا الحركات إنما تلقى على الحروف التى تكون قبل الحروف التى تنقل منها ولا تنقل إلى ما بعد الحروف المنقولة منها الحركة[3].

موقفه من القراءة الشاذة فى الاحتجاج لها

هذا الموقف يدور بين أمرين: فتارة يقويها وتارة يضعفها، ووجوه التقوية أو التضعيف كثيرة يمكن أن نمثل فيها لناحيتين يستدل منهما على غيرهما، الأولى لغوية، والثانية نحوية، ونبين ذلك بالأمثلة.

التقوية للقراءة الشاذة

أ - الناحية اللغوية: ولها صور، منها:

١- معنى القراءة الشاذة أقوى من معنى قراءة الجماعة.

---

(١) نفسه ١/ ٢٦٣.　　(٢) نفسه ١/ ٦٦-٧١، وانظر، ص ١٦١ من كتابنا.

(٣) الحجة ١/ ٢٨٠.

٢ - معناهما متساو.

٣ - معنى القراءة الشاذة مؤيد لمعنى قراءة الجماعة.

ونبدأ بالشرح التفصيلى:

١ - معنى الشاذة أقوى من معنى قراءة الجماعة:

من ذلك قراءة أبى حيوة ﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ... ﴿٤٤﴾﴾ [سبأ] بتشديد الدال مفتوحة وبكسر الراء (يدَّرِسونها) قال أبو الفتح: هذا يفتعلون من الدرس وهو أقوى معنى من (يدْرُسونها) وذلك أن افْتَعل لزيادة التاء فيه أقوى معنى من فَعَل، ألا ترى إلى قول الله تعالى ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر] فهو أبلغ معنى من قادر وهو أشبه بما تقدمه من ذكر الأخذ والعزة نعم وفيه أيضًا معنى الكثرة ويستمر فى الاحتجاج[١].

٢ - معناهما متساو:

من ذلك قراءة أبى جعفر يزيد ﴿وَرَبَتْ ... ﴿٥﴾﴾ [الحج] بالهمز (وربأت)، قال أبو الفتح: هذه القراءة راجعة بمعناها إلى معنى ما عليه قراءة الجماعة وذلك أن الأرض إذا ربت ارتفعت والرابئ، أيضًا كذلك لأنه هو المرتفع ومنه الربيئة وهو طليعة القوم وذلك لشخوصه على الوضع المرتفع[٢].

٣ - معنى الشاذة مؤيد لمعنى قراءة الجماعة:

من ذلك قراءة أبى عبد الرحمن: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ... ﴿٨٩﴾﴾ [يونس]: (دعوَاتكما)، قال أبو الفتح هذه جمع دعوة، وبهذه القراءة تعلم أن قراءة الجماعة ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ يراد فيها بالواحد معنى الكثرة وساغ ذلك لأن المصدر جنس وقد تقدم أن الأجناس يقع قليلها موقع كثيرها وكثيرها موقع قليلها[٣].

---

(١) المحتسب ٢/ ١٩٥.

(٢) نفسه ٢/ ٢٤٧.

(٣) نفسه ١/ ٣١٦.

ب- الناحية النحوية: ولها صور أيضًا منها:

١ - القراءة الشاذة أقوى من الوجهة النحوية.

٢ - القراءة الشاذة مساوية لقراءة الجماعة فى صحة مسلكها النحوى.

٣ - الوجه النحوى فى القراءة الشاذة مؤيد للوجه فى قراءة الجماعة.

ونبدأ بالشرح التفصيلى:

١ - الشاذة أقوى من الوجهة النحوية:

مثل قراءة عبد الله بن مسلم وغيره ﴿بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ ... ④﴾ [النور] بالتنوين فى (أربعة)، قال أبو الفتح: هذا حسن فى معناه وذلك أن أسماء العدد من الثلاثة إلى العشرة لا تضاف إلى الأوصاف لا يقال عنده ثلاثة ظريفين إلا فى ضرورة إلى إقامة الصفة مقام الموصوف، وليس ذلك فى حسن وضع الاسم هناك، والوجه عندى ثلاثةٌ ظريفُون وكذلك قوله (بأربعة شُهداء) لتجرى (شهداء) على (أربعة) وصفًا فهذا هذا، فأما وجه قراءة الجماعة ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ... ④﴾ [النور] بالإضافة فإنما ساغ ذلك لأنهم قد استعملوا ال (شهداء) استعمال الأسماء وذلك كقولهم: إذا دفن الشهيد صلت عليه الملائكة، وعدّ الشهداء يومئذ فكانوا كذا وكذا، ومنزلة الشهيد عند الله مكينة، فلما اتسع ذلك عنهم جرى عندهم مجرى الاسم، فحسنت إضافة اسم العدد إليه حسنها إذا أضيف إلى الاسم الصريح أو قريبًا من ذلك[1]، فهو قد رجح القراءة الشاذة لموافقتها القواعد النحوية، والتمس التعليل لصحة وجه القراءة العامة.

٢ - متساويتان فى الوجه النحوى:

من ذلك قراءة يزيد بن القعقاع ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهَ ...㉞﴾ [النساء] بالنصب فى اسم الله تعالى، قال أبو الفتح: هو على حذف المضاف أى بما حفظ دين الله وشريعة الله وعهود الله، ومثله ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ... ⑦﴾ [محمد] أى دين الله وعهود الله وأولياء الله، وحذف المضاف فى القرآن والشعر وفصيح الكلام فى عدد الرمل سعة[2].

---

(١) نفسه ٢/١٠١. (٢) نفسه ١/١٨٨.

٣ - الوجه النحوى فى الشاذة مؤيد للوجه فى قراءة الجماعة:

من ذلك قراءة محمد بن السميفع ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... ﴿٢٤﴾﴾ [النساء] مفتوحة الكاف وليس بعد التاء ألف والباء نصب (كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ)، قال أبو الفتح: فى هذه القراءة دليل على أن قوله عليكم من قوله ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فى قراءة الجماعة معلقة بنفس كتاب كما تعلقت فى (كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) بنفس كَتَبَ وأنه ليس عليكم من ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ اسمًا سمى به الفعل كقولهم: عليك زيدًا إذا أردت خذ زيدًا، ثم يأخذ فى الاستدلال لذلك[1].

التضعيف للقراءة الشاذة

يلاحظ أن ابن جنى يضعف بعض القراءات الشاذة إلا أنه على الرغم من ذلك يلتمس لهذا وجهًا غريبًا حتى يصححها ويدخلها فى نطاق المقبول، وصور التضعيف كصور التقوية كثيرة ننبه منها على نوعين - أيضًا - لغوى ونحوى.

أ - التضعيف اللغوى: وله صور منها:

١ - من ناحية السماع والقياس.

٢ - من ناحية مواد اللغة.

٣ - من ناحية المعنى.

ونبدأ بالشرح التفصيلى:

١ - من ناحية السماع والقياس:

من ذلك قراءة الزهرى ﴿وَالدَّوَابُ ... ﴿١٨﴾﴾ [الحج] خفيفة الباء «ولا أعلم أحدًا خففها سواه» قال أبو الفتح: لعمرى إن تخفيفها قليل وضعيف قياسًا وسماعًا، أما القياس فلأن المدة الزائدة فى الألف عوض من اجتماع الساكنين حتى كأن الألف حرف متحرك... وأما السماع فلأنه لا يعرف فيه التخفيف لكن له من بعد ذلك ضرب من العذر وذلك[2]... إلخ.

---

(١) نفسه ١/ ١٨٥، ١٨٦.

(٢) نفسه ٢/ ٧٦.

٢ - من ناحية مواد اللغة:

من ذلك ما يروى عن الأعمش أنه قرأ ﴿فَشَرِّذْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ... ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال] بالذال المعجمة، قال أبو الفتح: لم يمرر بنا فى اللغة تركيب (ش ر ذ) وأوجه ما يصرف إليه ذلك أن تكون الذال بدلا من الدال كما قالوا: لحم خرادل وخراذل والمعنى الجامع لهما أنهما مجهوران ومتقاربان[1].

٣ - من ناحية المعنى:

من ذلك قراءة ابن مسعود ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب]: (عبدًا لله) قال أبو الفتح: قراءة الكافة أقوى معنى من هذه القراءة؛ وذلك أن هذه إنما يفهم منها أنه عبد الله ولا تفهم منها وجاهته عند من هى؟ أعند الله أم عند الناس؟ وأما قراءة الجماعة فإنها تفيد كون وجاهته عند الله، وهذا أشرف من القول الأول لإسناده وجاهته إلى الله تعالى وحسبه هذا شرفًا.[2]

ب- التضعيف النحوى:

من ذلك قراءة ابن مسعود فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ ... ﴿٢﴾﴾ [المائدة] (ولا يُجرِمَنَّكُمْ) - بضم الياء - (شَنَآنُ قوم إنْ يَصُدُّوكُمْ) بكسر الألف، قال أبو الفتح: فى هذه القراءة ضعف، وذلك لأنه جزم (بإن) ولم يأت لها بجواب مجزوم أو بالفاء كقولك: إن تزرنى أعطك درهمًا أو فلك درهم، ولو قلت إن تزرنى أعطيتك درهمًا قبح لما ذكرنا وإنما بابه الشعر:

إِنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طَارُوا لَهَا فَرَحًا ... يَوْمًا وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ وَقَفُوا[3]

ومن هنا ندرك قوة عقل ابن جنى وذكائه وبراعته فى التخريج فقد استغل كل طاقاته العلمية وخاض غمار هذه اللجة واستطاع أن يصل إلى مرفأ الأمان.

---

(٣) نفسه ١/ ٢٨٠.

(١) نفسه ٢/ ١٨٥.

(٢) نفسه ١/٢٠٦.

اتجاهه الأدبى

تناول الكاتبون موهبة ابن جنى الشعرية وشهدوا له بالسبق فى هذا الميدان، ولكنهم لم يفصلوا الموضوع بما يبرز شخصيته ورأى النقاد فيه وما له وما عليه، ونحن إذ نكتب كتابنا عنه يجدر بنا أن نفصل بعض التفصيل أركان هذا الموضوع ونواحيه ويبدو لنا تقسيم الكلام عن أدبه إلى أربع نقاط، هى:

١ - شعره.

٢ - نثره العلمى والفنى.

٣ - شرحه للشعر ومنهجه فيه.

٤ - المآخذ عليه.

ويلى ذلك كله تعقيبنا ورأينا الخاص، ونبدأ بالسير وفق هذه الخطة.

شعره

ذكرت المصادر التاريخية نبوغ ابن جنى وتفوقه الأدبى شعره ونثره، ونلمح ذلك فى عبارات متعددة وردت فى تلك المصادر فيقول الثعالبى: «هو القطب فى لسان العرب وإليه انتهت الرياسة فى الأدب»[1]، ويقول الباخرزى: «ليس لأحد من أئمة الأدب فى فتح المقفلات وشرح المشكلات ما له ولا سيما فى علم الإعراب»[2]، ويصفه ياقوت بأنه «من أحذق أهل الأدب»[3]، ويقول السيوطى مثل ما قال ياقوت[4]، كما يصفه بعض الكاتبين المحدثين بذلك فيقول الزركلى: إنه «من أئمة الأدب»[5]، وتصفه تلك المراجع السابقة بأنه كان يجيد الأدب شعره

---

(١) يتيمة الدهر ١/ ٨٩.

(٢) معجم الأدباء ١٢/ ٨٥ وإنباء الرواة ٢/ ٣٣٨، والبغية ٣٢٢.

(٣) معجم الأدباء ١٢/ ٨١.

(٤) البغية ٣٢٢.

(٥) الأعلام ٤/ ٣٦٤.

ونثره وأيدهم المحدثون، فالقس سليمان صائغ يذكر أنه «كان شاعرًا مطبوعًا»[(١)]، ويقول محققو سر الصناعة: «وكان ابن جنى مع غزارة علمه ومهارته فيه شاعرًا جيد الشعر[(٢)] ويقول الشيخ النجار: إنه «قد يقع له من الشعر ما يأخذ بالقلوب ويأسر الألباب»[(٣)].

ولم يشذ عن هذه الآراء إلا ابن الأثير وابن ماكولا، فقد وصفا شعره بالبرود وعبارتهما فى ذلك «وله شعر بارد»[(٤)].

والواقع أن ما أثر عنه من شعر يدل على براعته فيه وقد أعجب بتلك الأشعار متذوقو الأدب، ويمكن أن نعرض بعضها لتبين قوته الشعرية.

فمن ذلك قصيدته الرائعة التى ذكرنا بعضها فيما مضى[(٥)] وأولها:

وَحُلْوِ شَمَائِلِ الأَدَبِ ... مُنِيفِ مَرَاتِبِ الحَسَبِ
أَخِي فَخْـرٍ مَفَاخِـرُهُ ... عَقَائِلُ عُقْـلَةَ الأَدَبِ
لَهُ كَلَفٌ بِمَا كَلِفَـتْ ... بِهِ العُلَمَاءُ مِ العَرَبِ[(٦)]

وله فى الغزل من قطعة رقيقة:

غَزَالٌ غَيْـرُ وَحْـشِيّ ... حَكَى الوَحْشِيَّ مُقْلَتَهُ
رَآهُ الوَرْدُ يَجْنِـي الوَرْ ... دَ فاسْتَكْسَاهُ حُلَّتَـهُ

---

(١) تاريخ الموصل ٢/ ٦٤.

(٢) مقدمة سر الصناعة ١/ ٤٣، والمقتطف ١٦٢.

(٣) مقدمة الخصائص ١/ ٤٩.

(٤) الكامل ط الأزهرية ٩/ ٧٤ وفى ط المنيرية، وله شعر بارز (بالزاى) ويظهر أن الزاى محرفة عن الدال فى هذه الطبعة بدليل ما يوجد فيها من تحريف بعض كتب ابن جنى أو نقلها محرفة عن مصادر أخرى كذكره (المنهج) وهو (المبهج)، و(المصنف) وهو (المنصف) و(الصبر) وهو (الفسر) والأولى أقدم فهى أصح من حيث الضبط فضلا عن موافقتها لما فى الإكمال. انظر الكامل ط المنيرية ج٧، ص٢١٩، والإكمال ج١ الوجه الثانى من الورقة ٢٣٢.

(٥) انظر ص ٤٧، ٥٣، ٥٤ من كتابنا.

(٦) معجم الأدباء ١٢/ ٩٦.

وَشَمَّ بأنفه الرَّيْحَانَ فَاسْتَهْدَاه زَهْرَتَهُ
وَذَاقَتْ رِيحَهُ الصَّهْبَاءُ فَاخْتَلَسَتْهُ نَكْهَتَهُ[(1)]

ومن مرثيته الرائعة فى المتنبى:

غَاضَ الْقَرِيضُ وَأَذْوَتْ نَضْرَةُ الأدَبِ وَصَوَّحَتْ بَعْدَ رِىٍّ دَوْحَةُ الكُتُبِ
سُلِبْتَ ثَوْبَ بَهَاء كُنْتَ تَلْبَسُهُ كما تُخُطِّفُ بالخَطِّية السَّلَبِ
مَا زلتَ تَصْحَبُ فى الجُلَّى إذَا انْشَعَبَتْ قلبًا جَميعًا وعَزمًا غيرَ مُنْشَعِبِ
وَقَدْ حَلَبْتَ لَعَمْرِى الدَّهرَ أَشْطُرَهُ تَمطُو بهِمَّةِ لا وَانٍ وَلا وَصِبِ
مَنْ لِلْهَوَاجِلِ يُحْيِى مَيْتَ أَرْسُمِهَا بِكُلِّ جَائلَةِ التَّصْدِيرِ وَالحقَبِ
قبّاء خوصاء محمود علالتهَا تَنْبُو عَرِيكَتُها بالحِلْسِ وَالقَتَبِ[(2)]

بعد أن عرضنا هذه الصور الشعرية نستطيع أن نقول: إن اللغة كانت طوع يدى ابن جنى يصرفها بحسب ما يراه، فهو تارة يصطنع الأسلوب السهل السلس العذب الجرس الحلو المقاطع والنغمات، وتارة أخرى يغرب فى عبارته ويأتى بكلمات تحتاج إلى كد فكر ومعاناة، وهو يختار لكل موقف ومعنى ما يناسبه، شأنه شأن الشعراء المتجاوبين مع تجاربهم الشعرية، والشعر فن وليد التجربة؛ فالفخر له ألفاظ وأوزان شعرية قوية، والغزل له كذلك لون معين من النغم والألفاظ الرقيقة، والرثاء كما نعرفه له الأوزان والألفاظ التى تقطع الأنفاس معها، ولا شك أن شاعرنا ابن جنى أفهمنا ذلك من خلال شعره الذى عرضنا صورًا منه ولو رجعنا إلى قصيدته التى أشرنا إليها أولا لوجدناه يترجم عما نقول فى صراحة ووضوح تامين، فهو فى تلك القصيدة يجمع بين الألفاظ الصعبة الغريبة والألفاظ السهلة القريبة ففيها من الأول قوله:

---

(١) نفسه ١٢/ ٩٠.

(٢) انظر مرثية المتنبى فى المصدر السابق ٨٦-٨٩، والإنباه ٢/٣٣٨، ٣٣٩ وفى المرثية ألفاظ عربية قديمة وأصيلة مثل الجحافل - المحافل - بيض الظبا - تنبو عريكتها - للصواهل القساطل، وهكذا تبدو القصيدة حافلة بمفردات اللغة ومعانيها القوية.

فمن جَـــدَدٍ إلى جلَد إلى صعُـد إلى صبَـب[1]
ويُسْـــرَبُ فى معـانيها بَضِيضُ روَاشِحِ الثَغِب[2]

وفيها من الثانى قوله:

ويَفْرَعُ فكْـرُه الأبـكا رَ منها مِنْ حمَى الحُجُب
فَبَـدَّدَهَا وكَـانَ بِهَـا وإن خَفِيَتْ سَنَا لَهَب[3]

ثم نجد الشاعر نفسه يشرح تعاطيه للألفاظ، فيقول:

وألفَاظًـا مهـذبة الـ حوَاشِى ثرَّةَ السُّحُـب
فَطَـوْرًا مِنْ ذُرَا عَلَـمٍ وَطَوْرًا مِنْ ذُرَا طنُب[4]

ونعتقد أن البيت الثانى قد أوضح أسلوبه بين غائر غامض، وبين واضح سهل، وشاعرنا صادق التجربة نلمح انفعاله بها، وتأثره لها فى إخراجه الشعر على وفقها، وأى امرئ لا يتأثر بقوله عندما دبَّ الشيب فى راسه؟!

رأيتُ محَاسنَ ضحكِ الربيـ ـعِ طَالَ عَلَيهَا بُكَاء السَّحَـابْ
وَقدْ ضَحِكَ الشَّيْبُ فِى لمتى فَلِمْ لا أُبكِّى ربيـعَ الشَّبَابْ
أأشْرَبُ فِى الكَأسِ كَلا وَحَاشَا لأبصِرَهُ فِى صفَاءِ الشَّرَابْ[5]؟!

فشاعرنا يأبى أن يشرب فى الكأس فى أخريات أيامه خوفًا من مشاهدته منظر الشعر الأبيض فيحزن لذلك، وكلمات القطعة رقيقة، ووزنها يأخذ بالألباب، ويسرى فى النفس الشاعرة بإحساس حزين، وأظن بعد هذا أنه لا مجال لقائل بأن شعره بارد، بل كان يقول الشعر ويجيد نظمه[6] ولقد دهش بعض العلماء عندما سمع شعره، يقول صاحب دمية القصر: «وما كنت أعلم أنه ينظم

---

(1) جدد: أرض سهلة، جلد: أرض صعبة، صعد: أرض مرتفعة، صبب: أرض منحدرة.
(2) بضيض: مصدر بض الماء: سال. والثغب: من معانيه: المطمئن من المواضع فى أعلى الجبل يستنقع فيه ماء المطر، وما بقى من الماء فى بطن الوادى، وبقية الماء العذب فى الأرض. اللسان ١/ ٢٣٢.
(3) معجم الأدباء ١٢/ ٩٧.
(4) نفسه ١٢/ ٩٨.
(5) نفسه ١٢/ ٩١، ٩٢.
(6) تاريخ بغداد ١١/ ٣١١، والمنتظم ٧/ ٢٢٠.

القريض أو يسيغ ذلك الجريض حتى قرأت له مرثية فى المتنبى[1]، ولا عجب أن يجمع ابن جنى بين العلم والأدب فهو الذى أماط اللثام عن أسرار العربية وكشف كنهها والأدب بوجه عام والشعر بوجه خاص يكشف هذه الأسرار، بل هو لسانها الناطق وترجمانها المعبر، وقد كان لابن جنى علم واسع بالعروض والقوافى وله فى ذلك مؤلفات وشروح على بعض كتب هذا الفن، ومؤلفاته الكبرى كالخصائص وسر الصناعة تزخر بمواد الشعر وأعاريضه وقوافيه، أضف إلى ذلك ثروته اللغوية الطائلة التى لا تتوافر إلا لأديب مثله، والقارئ لكتبه يدرك ذلك بوضوح، فهو فيها يستشهد بالقرآن الكريم والحديث الشريف وموثوق كلام العرب من شعر ونثر، وستبين ذلك فى أثناء حديثنا عن شرحه للشعر، بل إن إشارة عابرة إلى الجزء الثالث من المنصف يعطينا أدق صورة عن حفظه الغزير لمواد الشعر؛ فقد علق على بعض الكلمات الغامضة التى وردت فى بحوث الصرف فى كتاب أبى عثمان، وفى أثناء شرحه للفظ الغامض يؤيده بما ذكرنا من قرآن أو حديث أو كلام عربى فصيح، ونعرض مثالا لذلك، فعند كلمة (اصطهر) الواردة فى الجزء الثانى صـ ٣٢٤ يذكر فى الجزء الثالث ص ٩٢ معناها فيقول: اصطهر: افتعل من صهرته الشمس إذا أذابته وحميت عليه يقال صَهَرَتْه وصَقَرَتْه وصَخَدَتْه إذا حَمِيَتْ علَى دماغه قال الشاعر:

إِذَا ذَابَتِ الشَّمْسُ اتَّقَى صَقَرَاتِهَا ... بِأَفْنَانِ مَرْبُوعِ الصَّرِيمَةِ مُعْبِلِ[2]

وقال ابن أحمر:

(تَصْهَرُه الشَّمْسُ فَمَا يَنْصَهِرْ)

كما كانت له دراية واسعة بألفاظ اللغة، ويدلنا على ذلك النماذج المصغرة التى ألفها وهى تحوى ألفاظًا فقط كالرسائل الثلاث المعروفة لابن جنى وهى

---

(١) معجم الأدباء ١٢/ ٨٥، ٨٦، وإنباه الرواة ٢/ ٣٣٧.

(٢) الصريمة: يقال: صريمة من غضى، وسلم، وارطى، ونخل، أى: قطعة وجماعة منه، ومربوع: اصابه مطر الربيع، ومُعبل: طلع ورقه، والبيت وصف لوحشى بأنه يتقى حر الشمس فى حمراء القيظ بأفنان أرطى طلع ورقه. اللسان ٩/ ٤٦٩، ١٣/ ٤٤٧، ١٥/ ٢٢٨.

المقتضب، وعقود الهمز وخواص أمثلة الفعل، والمقصور والممدود، وسنشير إلى ذلك بعد، وناهيك بما ذكر فى كتبه العلمية من ألفاظ فصيحة رواها عن علماء اللغة وأخرى اقتصر هو على روايتها، ونقلها عنه علماء اللغة، ونسبت إليه فى المخصص لابن سيده ولسان العرب لابن منظور وغيرهما، وكأنها لم ترد عن راو غيره وسنشير إلى بعضها فى حديثنا عن روايته للغة، وقد كان يحفظ القصائد الطوال من الشعر ويكلف بما يحمل العربى الأصيل منها، ويمكن أن ندرك ذلك من مقدمته فى شرح أرجوزة أبى نواس، فقد صرح بأنه قرأ الأرجوزة من حفظه على أستاذه أبى على الفارسى وهى -مع طولها- تحمل كثيرًا من ألفاظ اللغة الأصيلة[1].

كل هذه المادة العلمية والأدبية اكتملت عند ابن جنى مع ذكائه وحذقه، فكونت فيه هذه الشخصية الشاعرة إلا أنه لم يكن يهتم بالشعر اهتمامه بالعلم لأن العصر فيما يبدو كان عصر تفتح العلوم والمعارف، فاتجه إلى العلم ليدرك شأوه فى هذا الميدان، ولم يسر فى الطريق الذى سار فيه إخوانه من شعراء العصر والعصور قبله؛ ولذلك يقول الثعالبى: وكان الشعر أقل خلاله لعظم قدره وارتفاع حاله[2]، ومن هنا وجه الأستاذ الشيخ النجار عبارة ابن الأثير وابن ماكولا فقال: «وكأن أساس هذا الحكم منهما أن ابن جنى كان يتعاطى فى شعره الغريب والمعقد من الأساليب وأنه لم يكن يعنى بالشعر فقد كان همه العلم وكان غناه به، وكانت به حظوته عند الملوك وذوى السلطان فلم يكن يحتاج إلى الشعر يستميح به»[3]، ولعل كلام الشيخ النجار صحيح فقد وصف ابن ماكولا عالمنا أبا الفتح بأنه «كان نحويًا حاذقًا مجودًا»[4].

نثره العلمى والفنى

أوضحنا فى سبب تفوقه فى الشعر أنه كان غزير المادة اللغوية، ولا ريب أن العلم يحتاج إلى تلك المادة اللغوية لتصوغه فى قالب تتقبله النفوس وتقبل عليه

(1) مقدمة الأرجوزة لابن جنى ص٣.
(2) يتيمة الدهر ١/ ٨٩.
(3) مقدمة الخصائص ١/ ٤٩.
(4) الإكمال. الوجه الثانى من الورقة ٢٣٢، ج١.

العقول، فاللغة هى أداة التعبير وهى وسيلة الاتصال كما يقول علماء الاجتماع، ورب علم قليل تبرزه عبارة جيدة النسج محكمة الأسلوب، وقد يكون العلم غزيراً تعوزه طلاقة اللسان فيبدو مهلهل النسج مذموماً من سامعيه، وقد توافرت لابن جنى وسائل الإفصاح فانطلق لسانه بأساليب علمية دقيقة وواضحة فى الوقت نفسه، وفى كتبه ملامح مشرقة للناظر فى هذه النواحى، ولعل مقارنة يسيرة بين كتب العلماء السابقين وعلى رأسهم الخليل وسيبويه، وكتب ابن جنى نلمح منها فرقًا شاسعًا فى أساليب البحث والدراسة. ويعرف الدكتور طلس هذه الحقيقة فيقول: «يرى القارئ المتأمل فى آثار مؤلفنا العظيم أساليب فى البحث وطرائق فى طرق قضايا العلم لا يراها فى أسلوب العلماء قبله أو بعده»[1]، ويقول أيضًا: «فأنا لا أعرف نحويًا أو صرفيًا أو بلاغيًا كتب النحو والصرف والبلاغة بلغة كلها سلاسة وعذوبة وكلها جمال ولذة بأسلوب فنى رائع إلا الإمام أبا الفتح ابن جنى والإمام عبد القاهر الجرجانى - رحمهما الله»[2]، ويصف محققو المحتسب أسلوب ابن جنى فيقولون: «وعبارة المحتسب مرسلة متدفقة فيها طلاوة بادية، وعليها مسحة ملازمة من عذوبة الفن وأناقته، مبسوطة فى غير حشو ولا فضول، يشيع فيها الازدواج، ويطول الفصل، جزلة الألفاظ[3].

ويبدو لنا فى أثناء قراءة عبارته أن هذا النص منطبق على أسلوبه تمامًا، فأنت تقرأ المسألة فى أحد كتبه فلا تحس نبوا فى العبارة ولا غموضًا فى التركيب ولا تفككًا فى النسج، ويخيل إليك وأنت تطالعه أنك تقرأ لكاتب حديث لا يبعد عن عصرنا بكثير، بل لقد لاحظت فى أثناء قراءتى لكتابه (مختصر العروض والقوافى) الموجود بمعهد إحياء المخطوطات العربية أن ابن جنى يرتب أفكاره ويصوغها فى أسلوب واضح أذهلنى لدرجة أننى حسبت كتب العروض المؤلفة اليوم صورة منسوخة منه، وننقل بعض عباراته العلمية ليدرك منها القارئ مدى سهولتها، يقول: فى الشىء الشاذ فى الاستعمال القوى فى القياس «من ذلك اللغة التميمية فى (ما) هى أقوى قياسًا وإن كانت الحجازية أسيَر استعمالا، وإنما كانت

(١) مجلة المجمع العلمى ٢٥/ ٨٦. (٢) نفسه ٣٠/ ٦٣١. (٣) مقدمة المحتسب ١/ ١٤.

التميمية أقوى قياسًا من حيث كانت عندهم كهل فى دخولها على الكلام مباشرة كلٍّ واحد من صدرى الجملتين الفعل والمبتدأ كما أن (هل) كذلك إلا أنك إذا استعملت أنت شيئًا من ذلك فالوجه أن تحمله على ما كثر استعماله وهو اللغة الحجازية، ألا ترى أن القرآن بها نزل وأيضًا فمتى رابك فى الحجازية ريب من تقديم خبر أو نقض النفى فزعت إذ ذاك إلى التميمية فكأنك من الحجازية على حَرْد وإن كثرت فى النظم، والنثر»[1] ومهما يكن انسياق ابن جنى فى فلسفته فهو واضح العبارة سهل الأسلوب، اللهم إلا إذا قصد التفاصح فى عبارته فإن أسلوبه يغمض أحيانًا ويعلو فى سموق بعيد، ومع ذلك فهو عربى جزل كأن يقول فى مقدمة المحتسب: «غرضنا منه أن نُرى وجه قوة ما يسمى الآن شاذًا وأنه ضارب فى صحة الرواية بجرانه آخذ من سمت العربية مهملة ميدانه لئلا يرى مُرَى أن العدول عنه إنما هو غض منه أو تُهَمة له[2] وكأن يقول فى الخصائص عن اللغة: «إنها لم تُقْتَعث اقْتِعاثًا ولا هِيلت هَيْلا»[3]، وقد تكون المفردات الغريبة التى يستعملها سببًا فى تعقد أسلوبه، ومن ذلك قوله: «وإنما أريدك فى إيضاح هذه الفصول من هذا الكتاب لأنه موضع الغرض... وبه وبأمثاله تُخْرَج أضغانها وتُبْعَج أحضانها ولا سيما هذا السمت الذى نحن عليه ومرزون إليه[4]»، وقوله: إنهم لم يخصوا ما هذه سبيله بالحكم دون غيره إلا لاعتراضهم طرفًا مما أَطَفّ[5] لهم من جملة لغتهم كما عَنّ وعلى ما اتَّجه[6] وقوله: ولكن إن طبِنت له ورَفَقْتَ به أولاك جانِبَه[7] فكل من «مُرزون وأطَفّ وطبِنْتُ» كلمات غريبة لها أثر فى غموض عبارته.

---

(١) الخصائص ١/ ١٢٥.

(٢) مقدمة المحتسب ١/ ٣٢، ٣٣.

(٣) كأنه يريد ليست جزافا بل هى مقدرة بمقياس دقيق. الخصائص والتعليق ١/ ٣١٢.

(٤) مرزون: مستندون من أرزيت إلى الله: استندت.

(٥) أطف: عرض.

(٦) الخصائص ١/ ٦٥، ٧٧.

(٧) طبنت: فطنت، الخصائص ١/ ١٠٨.

هذا هو أسلوبه العلمى كما نراه واضحًا فى مؤلفاته، وكما وصفه أستاذنا الشيخ النجار «فهو يبلغ ذروة الفصاحة فى المسائل العلمية الجافة البعيدة عن الخيال ووجوه التطرية»[1].

أما نثره الفنى فلن يبتعد كثيرًا عن نثره العلمى فهو جزل العبارة، محكم النسج، قوى التركيب وهو مع ذلك سهل المأخذ، وقد حفظت لنا كتب التاريخ نصًا من نثره هذه فى خطبة نكاح نعرض جزءًا منها يقول:

الحمد لله فاطر السماء والأرض ومالك الإبرام والنقض ذى العزة والعلاء، والعظمة والكبرياء، مبتدع الخلق على غير مثال والمشهود بحقيقته فى كل حال الذى ملأت حكمته القلوب نورًا فاستودع علم الأشياء كتابًا مسطورًا، وأشرق فى غياهب الشبه خصائص نعوته واغترقت أرجاء الفكر بسطة ملكوته.... وإن مما أفرط الله تعالى به سابق حكمه وأجرى بكونه قلم علمه ليضم بوقوعه متباين الشمل، ويزم به شارد الفرع إلى الأصل أن فلان ابن فلان وهو كما يعلم من حضر من ذوى الستر وصدق المختبر مسجوح الخليقة مأمون الطريقة متمسك بعصام الدين آخذ بسنة المسلمين خطب للأمر المحموم والقدر المحتوم من فلان ابن فلان الظاهر العدالة والإنصاف أهل البر وحسن الكفالة والكفاف عقيلته فلانة بنت فلان خيرة نسائها وصفوة آبائها فى زكاء منصبها وطيب مركبها، وقد بذل من الصداق كذا وكذا فليشهد على ذلك أهل مجلسنا وكفى بالله شهيدًا[2].

وفيها عدة ملاحظات:

١ - أنها تميل إلى السجع فى كل فقراتها.

٢ - أسلوبها واضح لا تكلف فيه.

٣ - ألفاظها جزلة قوية محكمة النسج.

---

(١) مقدمة الخصائص ١/ ٢٧.

(٢) معجم الأدباء ١٢/ ٩٣-٩٦.

٤ - فيها خيالات أدبية ومجازات لغوية مثل: اغترقت أرجاء الفكر بسطة ملكوته ومما أفرط الله تعالى به سابق حكمه وأجرى بكونه قلم علمه. . . إلخ وفى زكاء منصبها وطيب مركبها، وغير ذلك من عبارات أدبية لها وقعها فى النفوس.

ولابن جنى سمات جديدة فى أسلوبه بعضها يخالف القواعد النحوية فقد أكثر من استعمال (ما) الزائدة، كأن يقول «لأجل ما ذكرناه من شدة اتصال الجار بالمجرور ما قبح عندهم حذف الجار وتبقية جره بحاله»[١]، «ولهذا أيضًا ما جاز أن يجازى بإذا التى للمفاجأة»[٢] ولهذا وغيره ما قال أبو عثمان[٣] وغير ذلك كثير، ومما يخالف قواعد النحو إدخاله (قد) على الفعل المنفى مثل «كما أن القول قد لا يتم معناه إلا بغيره»[٤] وإدخال (أل) على (بعض وكل) كقوله: «وحكم البعض فى هذا تابع لحكم الكل»[٥] (ولأن حكم البعض فى هذا جار مجرى حكم الكل)[٦]، وإدخالها على لفظ (كافة) كقوله «لوضوحه عند الكافة[٧]» «وأنشدت الكافة»[٨] وهذه اللغة الكريمة الشريفة التى خوطب الكافة بها[٩] وزيادة الواو بعد (لاسيما) كقوله لاسيما والقياس إليه مصغ[١٠] وقوله «لاسيما والأصمعى ليس ممن ينشط للمقاييس»[١١] وغير ذلك مما يستعمله ابن جنى مخالفًا للقواعد.

---

(١) سر الصناعة ١/ ١٤٩.

(٢) نفسه ١/ ٢٥٦.

(٣) المنصف ١/ ٢٥٥.

(٤) الخصائص ١/ ٢٠، والأشمونى مع الصبان ١/ ١٨٩-١٩١، والمغنى ط المدنى ١/ ١٧١.

(٥) سر الصناعة ١/ ٣٥.

(٦) الخصائص ٢/ ٣٢٧، والصبان ٢/ ٢٥٠، وإملاء ما من به الرحمن ١/ ٦٠، والمحكم ١/ ٢٥٦.

(٧) الخصائص ١/ ٢٤٣.

(٨) سر الصناعة ١/ ٨٢.

(٩) الخصائص ٣/ ٢٤٥، وانظر فيما تقدم الصبان مع الأشمونى ٢/ ١٧٧، ١٧٨.

(١٠) الخصائص ١/ ٣٠٩.

(١١) نفسه ١/ ٣٦١، والأشمونى ٢/ ١٦٨.

وقد استخدم فى أسلوبه كلمات لغوية لم تذكرها المعاجم مثل (ينضاف)[1] فى قوله «وذلك أنه ينضاف إلى قبح اختلافه أن هناك تأسيسًا»[2] وينضاف إلى ذلك إفساد المعنى[3]، وقد نبه على هذا أستاذنا الدكتور نجا[4] والشيخ النجار الذى أوضح أن مثل تلك الهنات «لا تثلم البلاغة ولا تغض من شأوه وفراهة أسلوبه»[5].

شرحه للشعر ومنهجه فيه

توافرت لابن جنى ملكة علمية قوية اكتنهت أسرار اللغة، وملكة أدبية شاعرة تعرف للمعانى قدرها ومكانها حتى ليقول المتنبى: (ابن جنى أعرف بشعرى منى)[6]، وكان - كما سبق أن ذكرنا - إذا سئل عن شىء من شعره أحال السائل على أبى الفتح.

وقد شرح ابن جنى جملة صالحة من الشعر بل نزل معترك الأدب مع شاعر العربية (المتنبى) الذى ملك ناصية البيان العربى الأصيل وضمنه شعره، فلقد شرح ابن جنى ديوان هذا الشاعر العبقرى، وكان قد تدارسه مع صاحبه[7]، وكان ابن جنى باعتراف الباحثين أول من تناول شعر المتنبى بالشرح والتفسير، والمتنبى ليس ممن يرسل العبارة عفواً بلا ملاحظات دقيقة، قد تخفى على كثير من أرباب الأدب وناقديه، ومع هذا شهد لعالمنا بفهمه وصحة بيانه، بل كان يناظره فى شىء من النحو واللغة كما تذكر مصادر التاريخ[8]، كما نرى ابن جنى يشرح

---

(١) انظر لسان العرب ١١/ ١١٢-١١٥، فليست فيه هذه الكلمة مع أنه من أوسع المعاجم.

(٢) الخصائص ٢/ ٢٦٠.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٢٧.

(٤) فقه اللغة ٤/ ١١٩.

(٥) مقدمة الخصائص ١/ ٢٨، ٢٩.

(٦) الشذرات ٣/ ١٤١.

(٧) انظر ص ٧٥، ٧٦ من كتابنا.

(٨) انظر ص ٧٠، ٧٧ من كتابنا.

أرجوزة أبى نواس فى «مدح الفضل بن الربيع صاحب المنصور والمهدى والهادى ووزير الرشيد والأمين»[1]، وتلك الأرجوزة تعد «على التحقيق من أجل شعر أبى نواس الجاد وأشده أعرابية وأحفله بالغريب، فقد جارى فيها الشاعر رجز الأوائل من أمثال رؤبة والعجاج وأبى النجم العجلى، وهذا هو الباعث لابن جنى على وضع هذا التفسير لها»[2]، ويمكن أن ندرك ذلك من اهتمام ابن جنى بها وحفظه لها وقراءتها على شيخه الفارسي يقول: «قرأت هذه الأرجوزة على أبى على الحسن بن أحمد بن عبد الغفار النحوى بمدينة السلام فى درب الزعفرانى من باب الشعير من حفظى لها فاستحسنها»[3]، وقال عن أبى نواس بمناسبتها «كان ممن سبق له مع ظرفه وحسن شعره وما يؤثر عنه من سرعة البده واختراع المعانى معرفة بعلم العرب وخدم العلماء وأخذ عنهم اللغة وقرأ عليهم دواوين العرب، وقال بعض أهل علم العرب - فيما بلغنا عنه - «لولا ما كان يخلط بشعره من الخلاعة لاحتج بشعره»[4]، فى كتاب الله تبارك وتعالى وفى حديث الرسول ﷺ»[5]، كما شرح أربع قصائد للشريف الرضى أشرنا إليها فيما سبق[6]، وهى من روائع الشعر حتى إنه خص كل قصيدة منها بمجلد مستقل كما يحدث التاريخ[7].

ولعله خص الشريف الرضى بشرح هذه القصائد من شعره لأنه كان يعد - على ما قيل - من أشعر القرشيين إن لم يكن أشعرهم على ما فيه من مبالغة[8] ولأنه كان على ما مر متبحرًا فى العلوم ذا ثقافة مكينة جعلت شعره جزلا قويًا

---

(١) أبو نواس: هو الحسن بن هانئ ت ١٩٥ أو ١٩٦ أو ١٩٨، الوفيات ١/ ٣٧٣، وتوفى الفضل بن الربيع ٢٠٨هـ، الوفيات ٣/ ٢٠٥-٢٠٨، وانظر فى الأرجوزة: ديوان أبى نواس. طبعة بيروت، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م، ص٤٣٨-٤٤٣.

(٢) مقدمة المحقق للأرجوزة، ص٣، ٤.

(٣) نص الأرجوزة ص٢.

(٤) صدى لقول أبى عمرو الشيبانى ذلك فى شعر أبى نواس: لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته. الشعر والشعراء ص٦٣.

(٥) نص الأرجوزة ٨، ٩.

(٦) انظر ص ٧٧ من كتابنا.

(٧) المعجم ١٢/ ١١٢.

(٨) الوفيات ٤/ ٤٤، ٤٧.

يحتذى «طريقة الأقـدمين ويحافظ على أساليبهم ومعـانيهم؛ ذلك لأن أبناء الأسر العربيـة النبيلة كانوا يحـافظون كل المحافظة على قديمهم ويتـمسكون به لأنه تراث أجدادهم وسجل أمجـادهم وديوان مفاخرهم»[1]، وقصائده المشار إليـها من عيون شعره وتـتحقق فيـها كل هذه السمات، فـلا غرو أن يكلف ابن جنى بها ويتـهيأ لشرحها وتحليل ما تحويه من مبادئ اللغـة وقوانينها وأسرارها، كما شرح ما أغفله أبو سعيد السكرى[2] من شعر للهـذليين، وهذيل تمت إلى قريش بالنسب والجوار فهم بنو هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار، وكانت تسكن حول مكة أو قريبًا منها، وقد أعرقت فى الشعـر خاصة حتى كان الرجل منهم ربما أنجب عشرة من البنين كلهم شعراء... وكانت هذيل فى اعتبـار أئمة اللغة إحدى جهات ست لا تؤخـذ اللغة إلا عنهـا، وكان شـعرها - لذلك - مـوضع اهتمـام كبـار الرواة كالأصمعى، وأماثل الأئمة كالشافعى، وصدور المؤلفين كأبى سعيد السكرى وأبى الفرج الأصفهانى وغيرهم[3].

كذلك شرح ديوان الحماسة لأبى تمام الطائى، وبين اشتـقاق أسماء شعرائها فى كتاب خاص سـماه «المبهج» وسنتحدث عنه بما له من قـيمة علمية اشتـقاقية، وديوان الحمـاسة له أهمـيته اللغـوية والأدبية «ففى الحـق أن اختيـار أبى تمام كان اختيارًا موفقًـا لأن جامعه شاعر ممتاز مكنه شعره من أن يخـتار أحسن ما تقع عليه عينه وما تسـمعه أذنه، وهو إلى جانب ذلك شـاعر كبير من شـعراء المعانى»[4]، وهذا يدلنا على حسن اختـيار ابن جنى الموفق للون الشعر الذى يقوم بشـرحه فهو يقدم للعـربية زادًا جـديدًا تحيا به، وتعـيش عليه وينشـر ما خـفى من أسرار وراء كلماتها.

وقد كان لابـن جنى اتجاه خاص فى الشرح، فـهو يكشف عما فى الشـعر الذى يشرحه من غموض فى الألفاظ، والإعراب، والعروض والقوافى، والمعانى،

---

(١) مقدمة ديوان الشريف ١/ ٦.

(٢) ت ٢٧٥هـ، معجم الأدباء ٨/ ٩٤-٩٩.

(٣) من مقدمة القسم الثالث من ديوان الهذليين ط الدار القومية، ص٢٢١.

(٤) من مقدمة ديوان الحماسة بشرح المرزوقى وتحقيق الأستاذ هارون ١/ ٣.

كذلك بحسب المقام الذى يتطلبه، وهو يوضح منهجه فى صدر كل شرح من تلك الشروح ومن ذلك يقول فى مقدمة شرح الحماسة: «وقد أجبتك - أيدك الله - إلى ملتمسك من عمل ما فى الحماسة من إعراب، وما يلحق به من اشتقاق أو تصريف أو عروض أو قواف، وتحاميت شرح أخبارها أو تفسير شىء من معانيها إلا ما ينعقد بالإعراب فيجب لذلك ذكره»[1]، ويقول فى مقدمة شرحه للأرجوزة: «سألت - أعزك الله - أن أعرب لك أرجوزة أبى نواس التى أولها (وبلدة فيها زَوَر) وأن أشبع الكلام، وأن أفسر ما فيها من معنى ولغة وإعراب، وأورد فى ذلك النظائر»[2] ويقول فى آخر الأرجوزة: «تفسير هذه القصيدة قد اشتمل على لغة وإعراب وشعر ومعنى ونظير وعروض وتصريف واشتقاق وشىء من علم القوافى»[3]، ويقول فى الشرح الصغير لديوان المتنبى: «وأذكر ما شجر بينى وبينه من المباحثة وقت قراءتى ديوانه عليه إلى سوى ذلك مما أحصره من تلخيص وإيضاح وشاهد ونظير، وأشرح جميع ما التبس من شعره، وأقر كلا فى مقره، ولا أدع مشكلا من إعرابه إلا نسرته، ولا معذبًا من دقيق معانيه إلا أثرته، ليكون هذا الكتاب قائمًا بنفسه، ومقدمًا في جنسه، وليغنى الناظر فيه إذا كان له بنفسه أدنى طبع عن أن يقرأه على من فوقه»[4]، وهذه النصوص تفهمنا المنهج العام لتلك الشروح فهى تدور حول الإعراب والصرف والعروض والقوافى والنظائر واللغويات.

«وابن جنى قد سجل بهذا الشرح مرحلة جديدة فى كتابة شروح الأشعار القديمة والحديثة وتطويرها بالانتقال بها من طور الوقوف عند تفسير الغريب وتدوين اختلاف الروايات إلى طور التوسع فى هذا التفسير وتشقيق الكلام فى فنون شتى من المعارف اللغوية والأدبية وغيرها»[5]، ويقتضينا عرض هذا المنهج أن نسوق أمثلة توضحه وهل سار ابن جنى عليه أو خالفه؟.

---

(١) التنبيه فى شرح مشكل أبيات الحماسة نسخة مصورة رقم ١٥٦٦٣ ز لوحة ٢.

(٢) مقدمة الأرجوزة لابن جنى، ص١. (٣) نهاية الأرجوزة، ص١٩٨.

(٤) شرح ديوان المتنبى رقم ٢٣ أدب الورقة ٤ ونسره: نشره. اللسان ٧/ ٦٠.

(٥) مقدمة الأرجوزة للمحقق، ص٨.

يقول في التمام: عند قول أبي الحنان الهذلي زياد بن علبة:

سَجِيسَ الدَّهْرِ مَا سَجَعَتْ هَتُوفٌ   عَلَى فَـرْعٍ مِنَ البَلَـدِ التِّهَـامِي

عندى فى سَجيس الدهر مم هو؟ قد قال ابن الأعرابى فيما رويناه عنه: سَجِسَ الماء إذا تغير، ومعنى سجيس الدهر: بقية الدهر وبقية الشىء إذا طال انفرادها فسدت قال:

تَغَيَّرَتِ البِلادُ وَمَنْ عَليهَا   فَوجْهُ الأرضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ

والفساد والنقصان كله ينقاد إلى موضع واحد، وشواهد هذا فى النثر والنظم أكثر من أن أحصيها، فهذا يكشف معنى سجيس الدهر فاعرفه»[1].

وفيه - كذلك - عند قول فهم واسمه كاثف:

غَدَاةَ تَسَاهَمْنَا الطَّـرِيقَ فَبِزَّنَا   سَوَامٌ كَقَلْسِ البَحْرِ جَوْنٌ وَأَبْقَعُ

قال: قلس البحر: السحاب ينبغى أن يكون سمى بذلك تشبيهًا بأحاليل اللبن أى مجاريه، وذلك لأن الوادى مجرى السيل ولذلك قيل له واد لأنه فاعل من ودى يدى أى سال. قال أبو على: ومنه الودىّ لما يخرج من جذع النخلة الأكبر كأنه شىء سال منها، ومنه عندى الدية الا ترى أنه شىء يتحلب دفعة بعد أخرى على ترتيب أدائها من المؤدى لها إلى مستحقيها، فكأنها استحلبت شيئًا فشيئًا ولم يصرف إحليل، لأنه ذهب به إلى البقعة، ومثله قراءة من قرأ ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه] فلم يصرف للتعريف والتأنيث[2] وفى هذين المثالين ما ينبئ عن اتباعه منهج الاشتقاق الكبير فى بيان المعنى الذى تدور حوله الألفاظ، وعند قول معروف بن زبير:

نحنُ منعناهَا من العَبَّاهلَة   من صارخٍ من خلفِنا ذِي واسِلَة

يقول: وقد تعلم أن السين أخت الصاد فالوسيلة قريبة من لفظ الوصيلة ومن معناها، وهذا مما قدمت لك ذكره من تقارب الألفاظ لتقارب المعانى، نحو

---

(١) التمام ١٦٦.   (٢) نفسه ١٣٩.

النضح والنضخ والنفث والنفذ.. إلخ[1]، وفى شرح الأرجوزة: عند مطلعها وهو:

وبَلْــــدَةٌ فِيهَـــا زَوَرْ   صَعْرَاءَ تُخْطَى فِى صَعَر

يسير على ما ذكرنا من اتجاهه فيقول: الزور: الاعوجاج ومنه شهادة الزور كأنها المعدولة من جهتها، ومنه قولهم زورت عليه كلامًا كأنه جاءه بما هو مخالف للحق ومجانب له، ومنه قوس زوراء وهى المعوجة قال امرؤ القيس:

عَارَض زَوْرَاء مِنْ نَشَمٍ   غَير باناة عَــلَى وتَرِه[2]

ومنه بعير أزور وهو المائل فى شق، ومنه قولهم ازورّ: إذا جنح قال عنترة:

فَازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنا بِلبانِهِ   وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرةٍ وتَحَمْحُمِ

يصف الفرس أنه مال عن الطعن، وقوله صَعْراء: قريب المعنى من قوله: فيها زور، ومنه الصَّعَر وهو الميل، ومنه قوله تعالى ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ... (١٨)﴾ [لقمان] نهى عما وصف به الشاعر قومًا من التكبر وهو قوله:

أَمْ مَنْ لِخَصْمٍ مُضْجِعِينَ قِسِيَّهُمْ   صُعْرٍ خُدُودُهُمُ عِظَامِ المَنْخَرِ[3]

«وتُخْطَى فِى صَعَر» أى تُقْطَع فى اعوجاج لأن ساقها معوجة فالناس يجزعونها على سمتها المعوج، وفى الإعراب: (فيها زور) فى موضع جر، لأنه وصف لبلدة وهو جملة وقعت وصفًا لنكرة، وصَعْرَاء بدل من قوله «فيها زور» لأن قوله: (فيها زور) فى موضع جر، ونظيره قول الله تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ... (٩٢)﴾ [الأنعام]، فقوله: (مبارك) فى موضع رفع لأنه وصف لـ «كتاب»

---

(١) نفسه ١٥١.

(٢) عرض الرامى القوس عرضًا: إذا أضجعها ثم رمى عنها. قوس زوراء: معطوفة - النشم - بالتحريك - شجر جبلى تتخذ منه القسىّ، وهو من عُتُقِ العيدان. قوس باناة: فجّاء وهى التى ينتحى عنها الوتر أو التى يلتصق بها الوتر حتى كاد ينقطع وترها فى بطنها من لصوقه بها، ورجل باناة: منحن على وتره عند الرمى. وفى البيت يصف رجلا رمى إحدى فرائسه بقوس متينة محكمة صنعت من هذا الشجر المعروف بصلابته، وأنه لم ينحن عليها عند الرمى مما يدل على قوته، ودقة تصويبه. اللسان ٥/ ٤٢٣، ٩/ ٣٠، ١٦/ ٥٤، ١٨/ ١٠٤.

(٣) المنخر - بفتح الميم والخاء وبكسرهما، وضمهما، وبفتح الميم وكسر الخاء -: الأنف. القاموس ٢/ ١٤٤، والمراد أنهم متكبرون.

وهو بدل من قوله: (أنزلناه) لأن (أنزلناه) فى موضع رفع لأنه وصف لـ (كتاب)، ومثله قول الشاعر:

لَعَلَّكَ يَا تَيْسًا نَزَا فِى مُرَيْرَةٍ ... مُعَذِّب (لَيْلَى) أَنْ تَرَانِى أَزُورُهَا

فقوله (نزا فى مريرة) فى موضع نصب، لأنه وصف لقوله (ياتيسًا) وقوله (تُخْطَى فى صَعَر) فى موضع جر لأنه بدل من صعراء ويجوز فى قوله «تُخْطَى فى صَعَر» أن يكون فى موضع نصب على أن تجعله حالا من الضمير الذى فى قوله (صعراء) مرفوعًا بفعله كما تقول: مررت بامرأة حمراء هى نفسها، فتؤكد الضمير المرفوع فى (حمراء) وكل مضمر معرفة[1].

وفى كتابه التنبيه عند شرحه للبيت:

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِى ... بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا

يقول: هذا البيت مما كنت قدمت إليك أنه فى الظاهر ساذج لا يحتمل السؤال، وفيه أن (شيبان) ظاهره أنه فعلان من شاب يشيب، وقد يحتمل غير هذا وهو أن يجعله من شاب يشوب أى: خلط، فإن قلت: لو كان منه لكان شوبان كحوران وخولان، فالجواب: أنه يمكن أن يكون فيعلان منه كهيَّبان وتيَّجان وأصله على هذا شيوبان، فلما اجتمعت الواو والياء على هذه الصورة قلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء فصار شيَّبان، ثم إن العين حذفت تخفيفًا كحذفهم إياها من هيْن وميْت فبقيت شيْبان ومثله فى كلام العرب قولهم: ريحان وريح ريدانه.. إلخ[2].

وعند تخريجه لقول يزيد بن الحكم يعظ ابنه بدرًا:

والنَّاسُ مُبتنيَانِ مَحْـ ... ـمُودُ البنايةِ أو ذَميم

يقول: ومنه عندى قول الله سبحانه: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ... (٢٠٠)﴾ [البقرة][3].. وفى التمام عند شرحه أحد الأبيات يناظره بالحديث الشريف (إنكم لترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون فى رؤيته)[4].

وفى شرح الأرجوزة يبين الأمثال فعند قول الراجز:

---

(١) تفسير أرجوزة أبى نواس ١٢-١٨.

(٢) التنبيه فى شرح مشكل أبيات الحماسة رقم ٥٦٦٣ (ز) لوحة ٢، ٣.

(٣) التنبيه لوحة ١٠١.   (٤) ص ١١٩.

أَصْحَرت إذْ دبُّوا الخَمَر شكرًا وحُـــرٌّ مَنْ شكَر

يذكـر قـولهم: فـلان يَدِبُّ لى الخمَـر والضـراء أى يسـاترنى العـداوة ولا يواجهنى فيها[1].

وعند قوله:

ذِى سَبْسبٍ وذِى عُذَر يَمْصَعُ أَعْـرَافَ الوبَر

يقول: أعراف الوبر: أطرافـه وأوائله، هذا كلُّه مثل ضربه له، أى: أنت إذا لقيت أعداءك من القوة والاستطالة عليهم بمنزلة هذا البعير الذى قد هاج فلا يقوم له شيء[2].

وفى التنبيه عند تخريجه لبيت عملّس بن عقيل بن علقة:

فأما إِذَا عَضّتْ بِكَ الحَرْبُ عَضّةً فإنَّكَ مَعْطُـــوفٌ عَلَيْكَ رَحِيم

يقول: وقال لى الشجرى يومًا: القافية رأس البيت[3].

وفى شرح الأرجوزة يبين معنى المنهوك فى الرجز ولم سميت تلك الأرجوزة منهوكة[4] إلى غير ذلك.

فإذا راجعنا الأمثلة السابقة نجدها تشـتمل على لغة وإعراب وتصريف وشعر ونظير وعروض وقواف، فهو يتناول الألفاظ ويحللها من تلك النواحى جميعها.

وقد يتناول معـانى الأبيات ومناسباتهـا إذا اقتضى الأمر مثـل قوله عند قول البريق بن عياض:

فَقَال إِليكُمَا عَنْهُ ولَوْلا مقامُ الجدِّ مَا رَقَبُوا إِلاهُ

هو عندى من (إلا) وهو العهد، قال الأعشى:

---

(١) ص٢٦٥، ٢٦٦، أصحر: جاهر، والخمر: ما واراك من الشجر وغيره، وجاء على خِمْرة وخَمَر - محركة -: فى سرٍّ وغـفلة وخفية وأخْمر الأمر: أضمره. واخمـر: حقد. القاموس ٢/ ٢٣، ٢٤، ٦٩.

(٢) ص١٨٩. (٣) لوحة ١٦٣. (٤) ص ٤-٧.

أَبيض لا يَرْهبُ الهُزالَ وَلا يَقْطَعُ رَحْمًا وَلا يَخُون إلا

وفيه وجه آخر أحسن من هذا، يقول: لولا جده ونفاذه ما بالوا بقوله: إليكما أى لم يحفلوا بتحذيره. أى بقوله: إليكما كما تقول: -إذا قال لك الأمير (عليك زيدًا)-: لولا طاعة الأمير لما أحفلت عَلاه، فإن قلت إن «إلى وعلى» إذا اتصلا بالضمير كانا كالباء ألبتة نحو إليك وعليه: قيل: إنما ذلك ما داما حرفين وأما فى هذا الموضع فقد صارا اسمين فجرى قوله (لم أحفل إلاه) مجرى لم أجد عصاه فهذا وجه حسن فيه لطف وصنعة[1].

ومثله عند قول الراجز:

أَغْلَى مُجَارِيك الخَطَرْ أَبُوكَ جَلَّى عَنْ مُضَر

يقول الخطر: المخاطرة أى استام بنفسه فى مجاراتك مالا يلحقه لأنك عالى القدر، ولو لم يمدحه إلا بهذا البيت لكان قد بلغ به الغاية واستوفى له حد المديح، ولقد أوجز فى تمام (أَبُوكَ جَلَّى عَنْ مُضَر) يعنى أخذ (الربيع) البيعة للمهدى على الناس ببئر ميمون فى طريق مكة لما توفى المنصور، فاحتال على الناس حتى أخذ البيعة عليهم وهو خبر مشهور[2]، وكذا فى شرحه لديوان المتنبى، وهو بهذا يكون قد وفى بالمنهج الذى رسمه.

المآخذ عليه

استهدف ابن جنى لبعض النقود فيما شرحه من شعر، ويظهر أن علو كعبه فى العلم والأدب أوغر صدور بعض المعاصرين له والمنافسين، فحاولوا النيل منه بوسيلة أو بأخرى، ولما كان من الناحية العلمية قد بلغ الغاية وسد معظم الثغرات لم يستطع أحد الهجوم عليه، فاتجهوا إلى شروحه للشعر وبخاصة شرحيه لديوان المتنبى[3] يعملون أفكارهم فيما كتبه محاولين النيل منه، وعلى كل حال فإن لكل جواد كبوة والمرء بما ركب فيه من طبيعة إنسانية يخطئ ويصيب، والذين انبروا

(١) التمام ١٠٠. (٢) شرح الأرجوزة ١٤٨-١٥٠.

(٣) له شرحان صغير وكبير وقد نقد فيهما.

لنقده هم محمد بن أحمد المعروف بابن فورجة، فقد ألف كتابين هما: الفتح على أبى الفتح، والتجنى على ابن جنى[1]، ينقده فى شرحه لديوان المتنبى، وعلى بن عيسى الربعى رفيق ابن جنى فى التلمذة على أبى على الفارسى، وقد ألف كتابا ينقد فيه شرحه لديوان أبى الطيب -أيضا- وعنوانه: التنبيه على خطأ ابن جنى فى فسر شعر المتنبى[2]، والشريف المرتضى نقيب الأشراف العلوى، نقده فى كتاب سماه: تتبع أبيات المعانى للمتنبى التى تكلم عليها ابن جنى[3]، وأبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى، حمل على ابن جنى فى كتابه المنصف الذى عالج فيه مسألة ابتكار المتنبى ومتابعته لمن سبقه، فإن ابن جنى قد ألف كتابًا ينقد فيه ابن وكيع سماه النقض على ابن وكيع فى شعر المتنبى وتخطئته[4] كما وجه إليه أبو حيان التوحيدى نقداً فى كتاب سماه الرد على ابن جنى فى شعر المتنبى[5]، ولا نعرف لهذه الكتب آثاراً غير نصوص تتداولها عنهم كتب المؤلفين بعدهم كابن فورجة الذى ينقل عنه الواحدى بعض ما فى كتابيه السابقين ويعترف بذلك.

أما من بقيت لنا آثارهم فى نقد ابن جنى فهم أبو الحسن على بن أحمد الواحدى[6] فقد نقده فى أثناء شرحه لديوان المتنبى[7] وقد طبع شرحه، وأبو سهل محمد بن الحسن الزوزنى العارض[8] فقد نقد شرح ابن جنى الكبير المسمى

---

(١) معجم الأدباء ١٨/ ١٨٨، ١٨٩، والبغية ١/ ٩٦، ٩٧، وتتمة اليتيمة ١٢٣-١٢٥، والأعلام ٦/ ٣٤١، توفى نحو سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م.

(٢) ت ٤٢٠هـ، معجم الأدباء ٥/ ٢٨٤، ١٤/ ٧٩، ونزهة الألباء ٤١٤-٤١٦.

(٣) ت ٤٣٦هـ . المعجم ٥/ ١٧٣-١٧٩، والبغية ٢/ ١٦٢.

(٤) ت٣٩٣، المعجم ٥/ ٣١، والوفيات ١/ ٣٧٧-٣٧٩.

(٥) ت ٤٠٠هـ، المعجم ٥/ ٣٨١، والبغية ٢/ ١٩٠.

(٦) ت ٤٦٨هـ، البغية ٢/ ١٤٥.

(٧) نقد فيه مع ابن جنى القاضى أبا الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى، ت٣٩٢هـ، معجم الأدباء ١٤/ ١٤-٣٥، واليتيمة ٤/ ٣-٢٥، وأبا العلاء المعرى ت٤٩٩هـ، الشذرات ٣/ ٢٨٠، والبغية ١/ ٣١٥-٣١٧.

(٨) من علماء القرن الخامس الهجرى.

(الفسر) بكتاب سماه (قشر الفسر)[1] وأبو العباس أحمد بن على بن معقل الأزدى المهلبى[2] فقد نقد أديبنا ابن جنى، أيضًا مع شراح أربعة لديوان المتنبى هم أبو العلاء المعرى، والواحدى والتبريزى[3] والكندى[4] وابن جنى قبلهم جميعًا فبدأ به، كذلك فإن يوهان فك المستشرق الألمانى يوافق الواحدى على نقده، كما نقده أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى[5] فى بعض شرحه لديوان الحماسة، ونعرض أمثلة مما أخذه كل من هؤلاء الأربعة ونناقشها لنحدد مدى صواب ابن جنى وخطئه.

أولا: نقد الواحدى

بدأ الواحدى مقدمة شرحه للديوان بما للمتنبى من اختراع للمعانى أدى إلى غموضها على الناظرين فى شعره، فأصابوا فى فهم بعضها دون بعض، فيقول: (لما كان «أى المتنبى» صاحب معان مخترعة بديعة ولطائف أبكار منها لم يسبق إليها دقيقة، ولقد صدق من قال:

مَا رَأَى النَّاسُ ثَانِيَ المتنبِّى ... أَيُّ ثَانٍ يُرَى لِبِكْرِ الزَّمَانِ
هُوَ فِي شِعْرِهِ نَبِيٌّ وَلَكِنْ ... ظَهَرَتْ مُعْجِزَاتُهُ فِي المَعَانِي

خفيت معانيه على أكثر من روى شعره من أكابر الفضلاء، والأئمة العلماء حتى الفحول منهم والنجباء، كالقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب كتاب الوساطة، وأبى الفتح عثمان بن جنى النحوى، وأبى العلاء المعرى، وأبى على بن فورجة البروجردى، وهؤلاء كانوا من فحول العلماء وتكلموا فى معانى شعره مما اخترعه وانفرد بالإغراب فيه وأبدعه، وأصابوا فى كثير من ذلك وخفى عليهم بعضه فلم يبن لهم غرضه المقصود، لبعد مرماه وامتداد مداه[6]، ثم

(١) منه نسخة خطية بدار الكتب مكتبة طلعت. (٢) ت ٦٤٤هـ البغية ١/ ٣٤٨.
(٣) يحيى بن على الخطيب ت٥٠٢هـ، البغية ٢/ ٣٨٨.
(٤) هو أبو اليمن زيد بن الحسن النحوى اللغوى المحدث الحافظ، ت ٦١٣هـ، البغية ١/ ٥٧٠، ٥٧١.
(٥) ت ٤٢١هـ المعجم ٥/ ٣٤، ٣٥، والبغية ١/ ٣٦٥.
(٦) مقدمة شرح ديوان المتنبى للواحدى، ص٣.

وصف جانب التقصير عند من ذكرهم من شراح ديوان المتنبى، وخص ابن جنى بقوله: «وأما ابن جنى فإنه من الكبار فى صنعة الإعراب والتصريف والمحسنين فى كل واحد منهما بالتصنيف، غير أنه إذا تكلم فى المعانى تبلَّد حماره ولجَّ به عثاره، ولقد استهدف فى كتاب الفسر عرضًا للمطاعن ونهزة للغامز والطاعن، إذ حشاه بالشواهد الكثيرة التى لا حاجة له إليها فى ذلك الكتاب والمسائل الدقيقة المستغنى عنها فى صنعة الإعراب، ومن حق المصنف أن يكون كلامه مقصوراً على المقصود بكتابه وما يتعلق به من أسبابه غير عادل إلى ما لا يحتاج إليه، ولا يعرج عليه، ثم إذا انتهى به الكلام إلى بيان المعانى عاد طويل كلامه قصيرًا وأتى بالمحال هُزُؤًا وتقصيراً»[1].

ولقد طالعت شرح ديوان أبى الطيب للواحدى لأعرف المآخذ التى وجهها إلى ابن جنى، فوجدت تعادلا فى ترجيح المعانى التى يقصدها المتنازعون عليها، فمرة نرى الواحدى أحسن معنى من ابن جنى، وأخرى تدور الدائرة عليه فيكون ابن جنى أحسن منه، وكذلك ابن فورجة تارة تراه يرجح فى معناه على ابن جنى، وأخرى ينحط عنه، ونعرض لذلك أمثلة مما أورده الواحدى فى شرحه بحسب الترتيب السابق:

الحال الأولى: ترجيح قول الواحدى وتضعيف قول ابن جنى:

يقول المتنبى:

إِذَا بيّتَ الأعداءَ كانَ استِماعُهم ... صَرِيرَ العَوَالِى قَبلَ قَعْقَعةِ اللُّجْمِ

قال ابن جنى: أى يبادر إلى أخذ الرمح فإن لحق إسراج فرسه فذاك وإلا ركبه عريانًا. قال الواحدى: وهذا هذيان المبرسم والنائم وكلام من لم يعرف المعنى يقول: إذا وافاهم ليلا أخفى تدبيره ومكره وتحفظ من أن يفطن به فيأخذهم على غفلة حتى يسمعوا صرير رماحه بين ضلوعهم قبل أن يسمعوا أصوات اللُّجُم متحركة فى أحناك خيله[2].

(١) نفسه ١٣١.
(٢) شرح ديوان المتنبى للواحدى، ١٣١.

الحال الثانية: ترجيح قول ابن جنى وتضعيف قول الواحدى:

يقول المتنبى:

وظُبًى تَعْرِفُ الحَرَامَ مِنَ الحِلِّ فَقَدْ أَفْنَتِ الدِّمَاءُ حَلالا

قال ابن جنى: هذا مثل ضربه أى سيوفه معودة للضرب فهى تعرف بالدربة الحلال من الحرام، وقال ابن فورجة: العادة والدربة ليستا مما يعرف به الحلال والحرام فى الناس فكيف فيما لا يعقل؟ وإنما يعني أن سيف الدولة غاز للروم وهم كفار فلا يقتل إلا من حل دمه، فنسب ذلك إلى سيوفه. قال الواحدى: هذا كلامه وأظهر مما قال أن يقال: إنما عنى بمعرفة الحلال والحرام أصحابها فكأنه قال: وذوى ظبى يعرفون الحرام من الحلال فلما حذف المضاف عاد الكلام إلى مضاف إليه[1].

ويبدو لى أن معنى ابن جنى هو المناسب للمدح ففيه المبالغة المطلوبة التى يهدف إليها الشاعر من براعة المقاتلين وانقضاضهم على أعدائهم يسفكون دماءهم وهى حلال لهم، فكأن السيوف هى التى تعرف بدلا من اصحابها، وقد وردت مثل هذه المبالغات فى قصائد أخرى للمتنبى مثل قصيدته التى قالها عندما انتصر سيف الدولة على الروم فى وقعة الحدث المشهورة وفيها يقول عن الخيل:

إِذَا زَلِقَتْ مَشَّيْتَهَا بِبُطُونِهَا ... كَمَا تَتَمَشَّى فِى الصَّعِيدِ الأَرَاقِمُ[2]

فهو يعطى صورة للخيل إذا أجهدت وأن الممدوح سيف الدولة يستطيع ببطولته وكفاءته الحربية ومهارته فى فنون القتال أن يفعل المحال إذا عجزت الخيل بوجه من الوجوه، فهو يدفعها لو تحطمت أرجلها أو زلقت إلى السير على بطونها لتصل إلى أهدافها، وهذه صورة مستبعدة فى العرف، ولكن مقام المدح والشعر يجعلها مقبولة أمام الذوق الأدبى، وعلى هذا فلا معنى لقول ابن فورجة: إن معرفة الحلال والحرام لا تكون إلا للعاقل، ومعنى الواحدى بتقدير مضاف محذوف يفقد البيت مغزاه القوى الذى - هو فى رأيى - مراد الشاعر الأول فكأن

(١) نفسه ٥٨٨. (٢) انظر شرح ديوان المتنبى للواحدى ص٥٥٤.

السيوف بدربتها كما قال ابن جنى تعرف الحلال من الحرام فتميز بينهما فى الإصابة ولا ريب أن هذا يدل على خبرة أهلها بفنون الحرب والنزال.

الحال الثالثة: ترجيح قول ابن فورجة على قول ابن جنى:

يقول المتنبى:

إذَا لَمْ تُجِــزْهُمْ دَارُ قَــوْمٍ مَوَدَّةٌ أجَازَ القَنَا والخَوْفُ خَيْرٌ مِنَ الوُدِّ

قال ابن جنى: يقول: إذا خافوا من عدو اعتصموا منه بالقنا، قال ابن فورجة: أين ذكر خوفهم العدو وأين لفظ الاعتصام؟ وإنما يقول: إذا لم يمكنهم أن يجتازوا على ديار بالمودة حاربوا فيها وجازوها، قال الواحدى: هذا كلامه وهو على ما قال: والمعنى أنهم إذا بلغوا فى أسفارهم منازل قوم لم يكن بينهم وبين سكانها مودة أجازتهم رماحهم فلم يخافوا أهل تلك الناحية، ثم قال: وأن تخاف خير من أن تحب لأن من أطاعك خوفًا منك فهو أبلغ طاعة ممن يعطيك بالمودة كما تقول العرب: رَهَبُوت خَيْرٌ مِنْ رَحَمُوت[1].

الحال الرابعة: ترجيح قول ابن جنى على قول ابن فورجة:

يقول المتنبى:

يُشَمِّــرُ لِلُّجِّ عَنْ سَاقِهِ وَيَغْمُرُهُ المَوْجُ فِى السَّاحِلِ

قال ابن جنى: فى قوله «يشمر للج عن ساقه» يريد تمويهه على الأعراب واستغواءه إياهم وادعاءه فيهم النبوة، قال: ويعنى بالموج عسكر سيف الدولة، قال ابن فورجة: أى تمويه فى أن يشمر هذا الرجل عن ساقه لخوض اللجة؟ والذى أراد المتنبى أنه يدبر فى ملاقاة معظم العسكر، والتوغل فيه حتى يصل إلى سيف الدولة، ويأخذ الأهبة لذلك، فهو كالمشمر عن ساقه لخوض ماء وقد غمره الموج فى ساحله، أى قد غرق فى أطراف عسكره وغلب بأوائله فذهب تدبيره باطلا وهذا كقوله:

---

(١) شرح ديوان المتنبى للواحدى ٧٥٠ من قصيدة يودع فيها ابن العميد عند مسيره إلى فارس سنة ٣٥٤.

لَوْلا الجَهَالَةُ مَا دَلَفْتَ إِلَى قَوْمٍ غَرِقْتَ وإنما تَفلُوا

قال الواحدى: هذا كلامه ولقول ابن جنى وجه حسن لم يقف عليه ابن فورجة يقول: إن الخارجى كان قد طمع فى بيضة الإسلام حيث ادعى النبوة فجعل اللج مثلا لها وجعل سيف الدولة وهو قطعة من عساكرها وواحد من أمرائها كالساحل وقد غرق هو فى الساحل فكيف كان يصل إلى اللجة؟[1].

وأيضًا نلاحظ نحن ترجيح قول ابن جنى على قول ابن فورجة فى قوله:

وَالصِّدْقُ مِنْ شِيَمِ الكِرَامِ فَنَبِّنَا أَمِنَ المُدَامِ تَتُوبُ أَمْ مِنْ تَرْكِهِ؟

قال ابن جنى: وكان الوجه أن يقول: فنبئنا ولكنه أبدل الهمزة ياء ثم حذفها، وقال ابن فورجة: هذا تصحيف، والصحيح فَنَبَتْنْ فكُتبت بالألف وصحفت إلى نبنا[2].

ويبدو لى أن رأى ابن جنى أقوى، بل هو المراد، لأن الأسلوب على الخطاب والشاعر يقول لمخاطبه: أخبرنا هل تتوب من شرب المدام أم من عدمه؟ ومعنى ذلك أن يكون أصل الفعل نبئنا كما ذكر ابن جنى ثم دخله التخفيف المذكور ويبعد قول ابن فورجه لأنه يصرف الخطاب عن وجهه وهو اتجاه البيت وهدف الشاعر.

والملاحظ - بوجه عام - أن الواحدى الذى يصف ابن جنى بأنه قد تبلد حمازه ولج به عثاره يأخذ أقواله ويعترف بها كثيرًا دون توجيه أى نقد له[3]، ولعله استفاد كثيرًا من شرح ابن جنى للديوان، وقد قارنت شرحه بعض الأبيات بما ورد فى شرح ابن جنى الصغير فوجدته قد نقل المعنى الذى ذكره ابن جنى دون أن يشير إلى اسمه أو ينسبه إليه، ومن ذلك ما ذكره عند قوله:

---

(١) شرح الواحدى ٤٠٠ من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ويذكر استنقاذه أبا وائل تغلب بن داود لما أسره الخارجى فى (كلب) وقتل الخارجى فى شعبان سنة ٣٣٧.

(٢) نفسه ٢٣٩.

(٣) انظر شرحه للديوان صحائف: ١٣٦، ١٩٩، ٥٦٣، ٥٧٥، ٥٨٣، ٧٦٠-٧٦٢، لم يوجه له فيها نقدا مع ذكره آراءه.

مَا الخِلُّ إلا مَنْ أَوَدُّ بِقَلْبِه   وأَرَى بِطَرْفٍ لا يَرَى بِسِوَائِهِ

فقد ذكر الواحدى بشرحه ما قاله ابن جنى فى البيت مع تغيير طفيف دون أن يشير إلى اسمه وألفاظه أو كثير منها كالتى نقلها صاحب قشر الفسر عن ابن جنى ونسبها إليه[1]، وعلى هذا فلم يكن من اللائق أن يرسل لسانه فى عيبه، ويقول: إنه قد تبلد حماره، فالواقع أنهما مثلان خطأ وصوابًا كما أنه وابن فورجة كذلك، ولعل حمى التنافس هى السبب فى هذا التشنيع بلا وجه حق ودون تثبيت مما يؤخذ أو يقال.

وقد تبع المستشرق الألمانى يوهان فك الواحدى، ونقل عبارته السابقة فى ذمه، ووجه إليه نفس نقوده، وقال: إنه «ينقص ابن جنى الفهم العميق والنفاذ فى دائرة المعانى»[2] وأورد مثالا لذلك[2]، وقال: إن «هذا العجز عن الإحساس والشعور بمقاصد الشعر ومراميه يزيد من بخس شرحه وخفة وزنه» ونقل ما رآه الواحدى من إطالة الشرح بالشواهد وغيرها مما لا يساعد أدنى مساعدة على فهم شعر المتنبى[2]، كما أنه كان يطلب من أبى الفتح أن يوضح فى شعر المتنبى استعاراته ومجازاته وأخيلته الكثيرة التى تحجب أفكاره أكثر مما تكشف عنها الغطاء وأن ينظر فى البناء الداخلى للشعر فإن بناء الشعر وتكوينه الداخلى يلعب دورًا عظيمًا لا يجوز إغفاله فى الشرح والتفسير ولا سيما شعر المتنبى بوجه خاص»[3].

وأعتقد أن يوهان فك يطلب ما لم يكن الجو الأدبى مهيئًا له حينذاك، فالعربية كانت لا تزال قوية إلى عصر ابن جنى بحيث لم يكن أمر التفسير بالمعنى الذى يطلبه المستشرق محتاجًا إليه، بل إن الشرح اللغوى هو الذى كان يدور فى الأذهان لتثبيت قواعد العربية الناشئة، والتى تحاول أن تصمد أمام تيار العجمة التى دخلت مع علوم ومعارف العصر، ولذلك نلاحظ أن ابن جنى يصدر شروحه بمقدمة تدل على أن السائل الذى طلب الشرح كان يقصد الإعراب والتصريف واللغة دون قصد إلى أخيلة أو غيرها ولعل ذلك كان لما ذكرت.

---

(١) انظر شرح الواحدى ص٥٠٨ وشرح ابن جنى ٢٣ أدب الوجه الأول من الورقة ٦ وقشر الفسر الورقة ٣.   (٢) العربية ١٧٨.   (٣) نفسه ١٧٩.

ثانيا: نقد الزوزنى

يذكـر الشيخ الزوزنى فى مـقـدمتـه أنه لم يجد شـرحًـا لديوان المتنبى يفى بمطلوبه، ثم يقول عن شرح أبى الفـتح: ووجدت كتاب الفسر لأبى الفـتح عثمان بن جنى رحمـه الله النهاية فى الإيضاح لإعرابه ولغـاته. والدلالة بالشواهد على صحة عباراته، فعنيت بتبيين ما يحويه والنظر فيه، فعثرت على عثرات فى رواياته ومعانيه لا تقال ولا يطلق بأمثالها اللسان، يضيق نطاق الإغضاء عن احتمالها، ولا يسع العارف بها الرضا بإغفالها، وكنت أحيانًا أفاتح منها بالشىء بعد الشىء بعض الأصحاب منبها على فساده، ومعقبًا له بالمعنى الصحيح السافر عن مراده، ومقيمًا عليها الحجج الواضحة التى تثنى الجاحد عن جحدِه، وتصرف العاند عن عناده إلا أن يبتلى بطبع طبع وقريحة قريحـة، وذهن عليل وخاطر كليل. . . . فما زالوا بى حتى تصفحت أبيات الفسر لمعانيها وضربت بالحجة على كل معنى فـاسد فيها ثم بينت صحيحها وأظهرت فيهـا ولم أتعرض لغيرها خلا أبياتًا قليلة لقصة طريفة أو نكتة خفيفة[1].

والواقع أن هذا الناقد كـسابقه على صواب فى بعض مـا يقول دون بعض، فمن صوابه نقده للمعنى الذى ذكره ابن جنى عند البيت:

فإمَّا تَـــرَيْنِى لا أُقِيـــمُ بِبلْـــدَةٍ   فآفةُ غِمْدِى فى دُلُوقِى وفِى حَدِّى

قال أبو الفتـح: الدُّلوق سرعة انسلال السيف، وسـيف دَلوق ودَالق إذا كان سريع السلة، أى إن الذى ترينه من شحوبى وتغيرى إنما هو لمواصلة السير وتطواف البلاد لبعد همـتى وتنائى مطلبى، كما أن السيف إذا كثر سـله وإغماده أكل جفنه، قال الشـيخ (أى الزوزنى): ما كنت أتعـرض لرد اللغات المدخولـة فى هذا الكتاب غير أنه إذا رأيت ما يناقض موضوعه عليـه فلا بد من ذكرى صحته وصوابه، وهو يقول: الدلوق سرعة انسلال السـيف، وسيف دلوق إذا كان سريع السلة وليس فى موضوع اللغة وله شىء من السل والانسلال، وإنما الدلق والدلوق خروج الشء عن مخرجه سـريعًا، يقال: دلق السيف من غمده: إذا خـرج وسقط من غير أن يسل،

---

(١) قشر الفسر مخطوطة دار الكتب رقم ١١٠٨٣ (ز)، الورقة ٢.

واندلق السيف من جفنه إذا شقه حتى يخرج منه، وتهذيب اللغة ناطق به، والرجل ليس يقول: فإما ترى شحوبى وتغير لونى فإنما يقول: إما ترى قلة مقامى ببلدة، وما فى هذا مما ذكره شيء ومعناه عندى ألا تسع همتى بلدة بل تضيق عنها حتى أرحل منها، وما فى تلك البلدة عيب ولا آفة غير أنها لا تحتمل همتى فتضيق عنها كما أنه ليس لغمد السيف الدلوق آفة وإنما آفته مضاء السيف وحدته[1].

واللفظ اللغوى على ما قال أبو سهل كما هو فى لسان العرب[2]، والمعنى كذلك على ما قال حتى إن الواحدى قد أيده فى كل كلامه ونقده لابن جنى فقال: «وليس مما ذكره شئ فى البيت كل ذلك مما هجس له فى خاطره فتكلم به وليس يقول الدلوق بمعنى السل والإخراج، ولا للشحوب والتغير وبعد الهمة ذكر فى البيت ولكنه يقول إن رأيتنى منزعجًا لا أقيم فإن ذلك لمضائى كالسيف الذى حدة حده تخرجه عن غمده[3].

ومن مجانبة الزوزنى الصواب نقده لما قال ابن جنى فى البيت:

إِنَّكَ مِنْ مَعْشَــرٍ إِذَا وَهَبُوا مَا دُونَ أَعْمَارِهِمْ فَقَدْ بَخِلُوا

قال أبو الفتح: أى بخلوا عند أنفسهم لأنهم لم يفعلوا الواجب عليهم عندهم، ويجوز أن يكون بخلوا أى نسبهم الناس إلى البخل لاقتصارهم على ما دون أعمارهم إذ من عادتهم بذل أعمارهم، والتفسير الأول أقوى. قال الشيخ «الزوزنى»: المعنى هو الأول وليس الثانى بشيء لأن قوله بخلوا لا يؤدى معنى نسبة الناس إياهم إلى البخل والناس لا يبخلون من يقتصرون على ما دون أعمارهم فى العطاء، وبذل الأعمار ليس فى طوق الناس فأما استقلال الجواد ما يجود به حتى يراه بخلا دون عمره فجميل[4].

---

(١) قشر الفسر ٥٩ والبيت موجود بشرح ابن جنى الصغير من قصيدة أولها: (نَسِيتُ ومَا أَنْسَى عِتَابًا عَلَى الصَّدِّ) فى توديع ابن العميد واللفظ اللغوى موجود كما نقل، ولكن الشرح بنفس التفصيل المذكور هنا لم يوجد هناك بل يقول باختصار: إن كثرة غربتى وتصرفى وتشحيبى وتغيرى كسيف دلوق) الورقة ١٢٦.

(٢) ١١/٣٩١. (٣) شرح الواحدى لديوان المتنبى ٧٥٠.

(٤) قشر الفسر الورقة ١٠٥ ولا يوجد للبيت شرح فى الديوان الصغير الوررقة ٢٣٩.

والواقع أن احتمال المعنيين ممكن كما تصوره ابن جنى غير أن المعنى الأول أقوى والمعنى الثانى فى رأيى لا بأس به لأنه كما أوضح تعود الناس منهم الجود بالكثير جدًا (لأنه يقصد بالجود بالأعمار الكناية بذلك عن عظم درجة الجود)، فإذا نقص ما يهبون شيئًا مما هو عادتهم فلا ريب أن الناس سينسبون إليهم (ما يعد عيبًا) فى نظرهم إذ - على حد المثل المشهور - حسنات الأبرار سيئات المقربين، وعلى هذا كان لا ينبغى توجيه النقد اللاذع فيما يجوز وما لا يجوز بل إننى آخذ على الشيخ الزوزنى - كالواحدى - بذاءة القول فهو فى نقده له عند أحد الأبيات يقول: ما هذا العمى المصمت والهوى المصمت وما أدرى ما أقول غير أن أشرح معناه[1]، ويقول فى موضع آخر وحياء له ثم حياء[2].

ثالثًا: نقد المهلبى

بدأ - أيضًا - بمقدمة يمدح فيها المتنبى وشعره ومعانيه الحسنة المختارة، وبين اهتمام الفضلاء بها فقال: «لما رأيت كثرة الشارحين لها[3] من الفضلاء والكاتبين عليها من الأدباء حتى لقد كادت تنسيهم أشعار الأوائل... إلا أنهم قصروا فى بعض المعانى فهدموا بها تلك المبانى... فرأيت أن أضع كتابًا مختصرًا ينبه على ما أغفلوه ويهدى إلى ما أصابوه... من غير أن أكون زاريًا عليهم أو مهدى اللوم إليهم كيف وقد سهلت أقدامهم وعره وبينت أفهامهم سره وأصابوا الغفير وأخطأوا النزر اليسير (وَمَنْ ذَا الَّذِى حَازَ الكَمَالَ فَيَكْمُلُ؟)»[4].

وهو بهذا النص يجلو لنا صورة عن خلقه العلمى الذى يعطى كل إنسان حقه، فالمتقدم قد أسس البناء لمن أتى بعده فوجب تقديره وهذا مثال طيب لم نره فى الحلقتين الماضيتين مع الواحدى والزوزنى اللذين من دأبهما الإنحاء باللائمة مع

(١) نفسه الورقة ١٣٦.

(٢) نفسه الوجه الأول من الورقة ١٤٢.

(٣) يقصد أبيات المتنبى.

(٤) المآخذ على شراح ديوان أبى الطيب المتنبى (القسم الخاص بابن جنى)، وانظر شرح ديوان المتنبى لابن جنى نسخة مصورة رقم ١٤٥٢٢ (ز) لوحة ٢.

سوء التقدير، ولا ريب -كما قلت- أن القضية واحدة والمرء يخطئ ويصيب، وهنا أعترف كذلك للمهلبى. بالسداد حينا والمجانبة له حينًا آخر، وإن حاول الناقد أن يخفى معالم صواب ابن جنى، فمن الأول ما نجده عند قول المتنبى:

حَسَنٌ فِى عُيُونِ أَعْدَائِه أَقْبحُ مِنْ ضَيْفِه رَأَتْهُ السَّوَام

قال «أبو الفتح» الذى يسبق إلى النفس من هذا أنه حسن فى عيون أعدائه وأنه أقبح من ضيفه رأته السوام، وليس الأمر كذلك بل هو بضده، وإنما معناه حسن أى هو حسن فتم الكلام، ثم كأنه قال: هو أقبح فى عيون أعدائه من ضيفه فى وقت رؤية السوام له وهو المال الراعى، لأنه ينحره للأضياف وكذلك يهلك الأعداء ويبيدهم.

وأقول (أى المهلبى): إن هذا الذى فسره وجه صالح وليس له أن يرد التفسير الأول، وقد ذكره الشيخ أبو العلاء وهو أن أعداءه يرونه حسن الصورة قبيح الفعل، فهم فى هذا يرونه قبيحًا حسنًا وفى الوجه الآخر يرونه قبيحًا، فتفسير أبى العلاء أمدح لإثبات الحسن له وأصنع لإثبات الحسن له والقبح من وجهين مختلفين[1].

ومن الثانى ما ذكره عند البيت:

وَمَنْ تَكُنِ الأُسْدُ الضَّوَارِى جُدُودَهُ ... يَكُنْ لَيْلُهُ صُبْحًا وَمَطْعَمُهُ غَصبًا

قال المهلبى: لم يذكر ابن جنى تعلق هذا البيت بما قبله واتصاله به وأقول: إنه لما ذكر فى البيت الذى قبله لعب البين به، وأخبر أنه كثير الأسفار، قلق فى البلاد، قال فأنا فى ذلك ليلى نهارى ومطعمى غصب، وذلك فعل الأُسْد، لأن أجدادى أُسُود، وليت شعرى كيف ساغت له هذه الدعوى فى أجداده بأنهم أسود وهم يقصرون عن أن يكونوا ثعالب، وكأنه عاد عن هذه الدعوى فيما بعد مخافة الإكذاب فشك فاستفهم فقال:

وَلَسْتُ أُبَالِى بَعْدَ إِدْرَاكِىَ العُلا ... أَكَانَ تُرَاثًا مَا تَنَاوَلْتُ أَمْ كَسبًا[2]

---

(١) كتاب المهلبى السابق، وشرح ديوان المتنبى لابن جنى نفس اللوحة.

(٢) المآخذ على شراح ديوان أبى الطيب المتنبى (القسم الخاص بابن جنى).

والواقع أن هذا النقد غير مسلم للمهلبى، ومن جهة أخرى فالمعروف أن المتنبى شاعر محب للفروسية والحرب حتى ليلقب باسم شاعر الحرب، وشاعر ملتهب الأحاسيس والوجدان كهذا لا بد أن يكون قوى الأصل وأصوله عرب خلص معروفون بالشجاعة والإقدام، فلا عيب على الشاعر ولا عيب على ابن جنى فى تقبل تلك الصورة، فأما البيت الثانى فليس معبرًا عن الشك كما يقول الناقد بل يعطى صورة جديدة تطلب من الإنسان الاعتماد على نفسه فى اكتساب المجد والشرف قبل أن يعتمد على أسلافه وآبائه:

فَرُبَّ غُلامٍ عَلَّمَ المجْدَ نَفْسَهُ ... كَتَعْلِيمِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنَ وَالضَّرْبَا

وعلى حد قول الشاعر الآخر:

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ ... يَوْمًا عَلَى الآبَاءِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

ومن النقود غير المقبولة ما أثاره المهلبى أيضًا عند البيت:

تَفَكُّرُهُ عِلْمٌ وَمَنْطِقُهُ حِلْمُ ... وَبَاطِنُهُ دِينٌ وَظَاهِرُهُ ظَرْفُ

قال ابن جنى: هذه القصيدة من الضرب الأول من الطويل، وعروض الطويل مقبوضة على مفاعلن، إلا أن يصرع البيت فيكون ضربه مفاعلين فعولن[1] فتتبع العروض الضرب وليس هذا البيت مصرعًا وقد جاء بعروضه على مفاعلين وهو تخليط منه، قال المهلبى: وأقرب ما يصرف إليه هذا أن يقال: إنه رد مفاعلن إلى أصلها وهو مفاعيلن لضرورة الشعر، كما أن للشاعر إظهار التضعيف وقصر المدود وصرف ما لا ينصرف[2] ولكننا نرى أن حكم ابن جنى لا يعد معيبًا حتى يورده المهلبى فى مجال الاعتراض والنقد، بل إنه مصيب فى حكمه فتصحيح التفعيلة فى غير موضعها المقرر لها يعد خروجًا على القاعدة السماعية عند العرب،

---

(١) «مفاعيلن» تخص الضرب الصحيح، و«فعولن» تخص الضرب المحذوف، وفى التصريع توافق العروض الضرب كما هو صحيحا أو محذوفًا.

(٢) المآخذ على شرح ديوان أبى الطيب السابق.

فهو تخليط أو كما قرأت فى الشرح الصغير (أخرجه على الأصل وهو عيب)[1] لأن قواعد العروض وحدها فيما أعتقد لها جو خاص لا يسمح بالخروج عليها، كما أن هناك عيوبًا للقافية عدها العلماء كذلك، ولم يقولوا فيما جاءت فيه إنه ضرورة كالإيطاء والإقواء ونحو ذلك.

رابعًا: نقد المرزوقى

شرح المرزوقى حماسة أبى تمام، وأورد فى أثناء شرحه بعض الاعتراضات على ابن جنى فى بعض أبياتها، وهو لا يذكره إلا إذا كان معترضًا، ولا يصرح باسمه بل يقول وذكر بعضهم[2]، أو اختار بعضهم[3]، أو ذهب بعض الناس[4]، ولذلك يقول التبريزى فى مناقشة أحد هذه المواضع[5]: «هذا رد المرزوقى على ابن جنى وقد أنحى عليه ولم ينصفه بقوله: (وما ذكر هذا القائل غير صحيح)»، وهذه النقود - كما سبق - عليه بعضها، ومن التجنى بعضها الآخر، فمن النقود التى تلزمه ما ذكره عند بيت غلاق بن مروان:

فَأَضْحَتْ زُهَيْرٌ فِى السِّنِينَ الَّتِى مَضَتْ ... وَمَا بَعْدُ لا يُدْعَوْنَ إِلا الأَشَائِمَا

قال أبو الفتح: ينبغى أن تكون (ما) من قوله: (وما بعد) زائدة وتقديره: وبعد ولا يحسن أن تجعل (ما) بمنزلة الذى أى والزمان الذى بعد؛ وذلك أن قبل وبعد إذا حذف منهما ما أضيفتا إليه لم يبنيا على شىء لنقصانهما ولحاقهما بالحرف لأجل الحذف فإذا كانا لا يبنيان على شىء كان الامتناع من الوصل بهما أوجب، وذلك أن الصلة إلى الإيضاح والتمام أحوج من الخبر؛ ألا ترى إلى استمرار حذف الخبر وعزة حذف الصلة فإذا امتنع الإخبار بهما كان الوصل بهما أعز وأقبح[6]. وقد أجاز المرزوقى صحة كون (ما) موصولة فقال: «ويجوز أن يجعل ما صلة كأنه فى السنين الماضية وبعدها وذكر بعضهم[7] أن (ما) من قوله: (وما بعد) لا يجوز

---

(١) شرح معانى أبيات المتنبى رقم ١٤٥٢٢ (ر) لوحة ١٧٨.

(٢) شرح الحماسة للمرزوقى ١/ ١٩١.

(٣) نفسه ١/ ٨٣.

(٤) نفسه ٢/ ٨٧١.

(٥) شرح الحماسة للتبريزى ٢/ ٣٠.

(٦) التنبيه لابن جنى لوحة ٧٠.

(٧) يعنى ابن جنى فى التنبيه.

أن يكون إلا صلة وزائدة لأن (بعد) لما جعل غاية ودخله النقصان بحذف ما كان مضافًا إليه امتنع من أن يكون مبنيًا على شيء وخبرًا عنه، وإذا امتنع من ذلك امتنع أن يكون صلة لموصول؛ لأن الذى يكون صلة من الظروف والجمل هو ما جاز أن يكون خبر المبتدأ، وليس الأمر على ما قاله، ألا ترى أن قوله عز وجل ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ... ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف] معناه ومن قبل الذى فرطتم فى يوسف أى قدمتم، ويجوز أن يراد: ومن قبل تفريطكم فيكون (ما) مع الفعل فى تقدير مصدر على الوجهين جميعًا (ما) فى موضع رفع ومن قبل خبره، وذكر أبو إسحاق الزجاج فى (ما) من الآية ثلاثة أوجه ما ذكرنا أحدها وإذا كان الأمر على هذا فما ذكره هذا القائل غير صحيح لأنى قد أريتكه بعد وهو غاية خبرًا وكونه صلة تابع لكونه خبرًا فاعلمه[1].

وقد رد الخطيب التبريزى على المرزوقى بقوله: هذا رد المرزوقى على ابن جنى وقد أنحى عليه ولم ينصفه بقوله «وما ذكره هذا القائل غير صحيح لأن الذى ذهب إليه ابن جنى أحسن من الذى ذهب إليه المرزوقى، وأما قوله (وذكر الزجاج: فى «ما» من الآية ثلاثة أوجه ما ذكرنا أحدها فهو كما ذكره غير أن الذى ذكره ابن جنى هو أجود الوجوه الثلاثة التى ذكرها الزجاج وكتابه يدل عليه، وغير الزجاج من النحويين ذكر فى الآية الوجه الذى ذكره المرزوقى وقال: فيه قبح للتفرقة بين حرف العطف والمعطوف بمن قبل ثم قال: وهو عند الكوفيين حسن وليس للمرزوقى أن يترك المختار من قول البصريين ويعدل إلى قول الكوفيين ردًا على ابن جنى رحمه الله[2].

والواقع أن رد التبريزى عن ابن جنى لم يكن فى صميم المسألة المختلف عليها فى بيت الحماسة السابق فدفاعه مقصور على الأحسن والأقبح فى الآية الكريمة وليس فيه ما يدل على صحة قول ابن جنى بمنع إعراب (ما) اسمًا موصولا

(١) شرح الحماسة للمرزوقى ١/ ٤٥٧، ٤٥٨.

(٢) الحماسة بشرح التبريزى ٢/ ٣٠.

فى البيت وهو موطن النزاع بينه وبين المرزوقى، وبالرجوع إلى كتب النحو تبين أنه لا مانع من كون (ما) اسمًا موصولا «بعد» صلته لأن المراد بالتمام والنقصان فى الظرف عند وقوعه خبرًا أو صلة موصول ليس هو المعنى الذى تصوره ابن جنى، فمجرد حذف ما أضيف إليه الظرف «بعد» فى نظر ابن جنى يعنى النقصان، وعلى هذا الأساس بنى الحكم بامتناع وقوعه صلة لموصول أو خبرًا لأن النحاة فى زعمه يشترطون التمام فيه عند وقوعه خبرًا أو صلة ولكن كتب النحو تفسر التمام بغير ما فسره ابن جنى فهى تعنى بالتام - كما يقول صاحب التصريح والأشمونى - ما يفهم بمجرد ذكره ما يتعلق هو به نحو جاء الذى عندك وجاء الذى فى الدار وتعلقهما باستقر محذوفًا وجوبًا وبذلك أشبه الجملة بخلاف نحو جاء الذى مكانًا والذى بك إذ لا يتم معناهما إلا بذكر متعلق خاص جائز الذكر نحو جاء الذى سكن مكانًا والذى مر بك»والتام بهذا المعنى يصح وقوعه خبرًا وصلة.

ويتضح ذلك من تعليق الشيخ يس حيث يقول: قال الشهاب القاسمى: فالظرف التام - بأن يفيد مع قطع النظر عن ملاحظة متعلقه - يصح الوصل به، ثم إن كان متعلقه عامًا وجب حذفه أو خاصًا وجب ذكره والناقص - ما لا يفيد كذلك - لا يصح الوصل به عامًا كان متعلقه أو خاصًا فإن صرح به صح الوصل به وإن أفاد بكونه خاصًا، وبهذا يظهر أن ذكر المتعلق الخاص لا يغنى عن اشتراط التمام فليتأمل[1].

فمن هذا النص النحوى ندرك أن الظرف الذى يصح الوصل به هو ما أفاد المعنى المطلوب منه بدون متعلقه على التفصيل السابق، وهذا ينطبق على كلمة «بعد» المذكورة فى البيت فهى تفيد المعنى المطلوب منها أى والسنين التى بعد، والمضاف إليه وإن حذف فإنه منوى ومفهوم من الكلام، وعلى هذا فكلام ابن جنى بأن الظرف ههنا ناقص ليس سديدًا لأنه ليس ناقصًا بالمعنى النحوى المشروط، وكلام عالمنا يبدو أنه من فلسفته الخاصة، وبهذا يظهر صحة قول المرزوقى. ولعل

(١) شرح التصريح، ط. الأزهرية ١/ ١٤١، ١٤٢، والأشمونى ١/ ١٦٣.

ابن جنى كان يفهم أنه صحيح حين جعل عبارته مرنة تحتمله إذ قال: ينبغى أن تكون ما من قوله وما بعد زائدة وتقديره وبعد ولا يحسن أن تجعل (ما) بمنزلة الذى أى والزمان الذى بعد. . . إلخ، فمعنى قوله: ينبغى ولا يحسن أن المسألة محتملة للوجهين إلا أن أحدهما أولى بالقبول من الآخر، ولهذا وبعد اطلاعى على نص شرحه للبيت فى كتابه التنبيه واطلاعى على النص الذى نقله المرزوقى عنه أجد خلافًا بين النصين؛ فنص التنبيه كما سبق أن حكيته يجوِّز الأمرين بعبارة واضحة، أما عبارة المرزوقى فهى تحدد وجهًا واحدًا لا يجوز غيره وهو كون ما زائدة حيث قال: وذكر بعضهم أن (ما) من قوله (وما بعد) لا يجوز أن يكون إلا صلة وزائدة وهى بأسلوب القصر على هذا الوجه دون غيره كما أن العبارة فيها تغير ملحوظ فلا أدرى أنقل المرزوقى عن نسخة أخرى من شرح ابن جنى للحماسة فيها هذا النص كما رواه هو؟ وعلى هذا يكون ابن جنى غير محق تمامًا فيما قال، أو أن المرزوقى قد نقل عبارته بالمعنى؟ - وهذا هو الظاهر - فقد طالعت أكثر من نسخة فى الحماسة[1] وفيها هذا النص - فيكون المرزوقى قد خصص عبارة ابن جنى وهذا ليس مرادًا له على هذا التحديد، ولكن ابن جنى على كل حال لم يصب الحقيقة بفلسفته للتام والناقص على الوجه الذى ذهب إليه، هذا كان مما أخذ عليه مع إلزام الخصم له.

ومما لا يلزمه ما أخذه عليه المرزوقى عند شرح قول تأبط شرًا.

فَأُبْتُ إِلَى فَهْمٍ وَلَمْ أَكُ آيِبًا ۝ وَكَمْ مِثْلِهَا فَارَقْتُهَا وَهْيَ تَصْفِرُ

فقد اختار المرزوقى رواية (ولم أك آيبًا) ثم عقب على شرحه للبيت بعرض رأى ابن جنى فى هذه الرواية ونقده فقال: واختار بعضهم[2] أن يروى (فَأُبْتُ إِلَى فَهْمٍ وَمَا كِدْتُ آيِبًا) وقال: كذا وجدته فى أصل شعره قال: ومثله فى أنه رد إلى الأصل ووضع اسم الفاعل موضع الفعل قول الآخر:

---

(١) بدار الكتب المصرية ومكتبة الأزهر.

(٢) يعنى ابن جنى.

أَكْثَرْتَ فِي العَذْلِ مُلِحًا دَائِمًا لا تُكْثِرَنْ إِنِّي عَسِيتُ صَائِمًا

والمثل السائر (عَسَى الغُوَيرُ أَبْؤُسًا)، ولا أدرى لم اختار هذه الرواية ألأن فيها ما هو مرفوض فى الاستعمال شاذ أم لأنه غلب فى نفسه أن الشاعر كذا قاله فى الأصل؟ وكلاهما لا يوجب الاختيار، على أنى قد نظرت فوجدت أبا تمام قد غير كثيرًا من ألفاظ البيوت التى اشتمل عليها هذا الكتاب ولعله لو أنشر الله الشعراء الذين قالوها لتبعوه وسلموا له[1].

وبالرجوع إلى التنبيه لابن جنى وجدته يقول بما سبق أن حكاه المرزوقى غير أن هناك خلافًا فى التعبير عن اختياره رواية (وما كدت آيبًا) إذ يقول عنها: هذه هى الرواية الصحيحة فى هذا البيت أعنى قوله: وما كدت آيبًا وكذلك وجدتها فى شعر هذا الرجل بالخط القديم وهو عندى عتيد الآن، وبعد فالمعنى عليه ألبتة لا منصرف به عنه؛ ألا ترى أن معناه وأبت وما كدت أأوب، كقولك: سلمت وما كدت أسلم، وكذلك كل ما يلى هذا الحرف من قبله ومن بعده يدل على ما قلناه[2]، ونحن نرى من عبارة ابن جنى ما يدل على صدقه فى الرواية بجانب صحة المعنى، فالأمر لا يحتمل وجوهًا فى مقصد ابن جنى كما تصور المرزوقى فى قوله (هل اختاره لأن فيه ما هو مرفوض فى الاستعمال أو لأن الشاعر كذا قاله فى الأصل؟) فالواقع أن ابن جنى اختار هذه الرواية لأمرين:

الأول: أن هذه الرواية تمثل اللفظ الذى قاله الشاعر، بدليل أن ابن جنى يقول: كذا وجدتها فى شعر هذا الرجل بالخط القديم وهو عندى عتيد الآن، وهذه العبارة صريحة فى أنه اختارها لذلك، وتلك أمانة علمية اشتهر بها ابن جنى فى النقل عن الآخرين فهو دائمًا يتحرى الدقة فى الرواية وسنبين ذلك.

الثانى: أن المعنى عليه كما قال ابن جنى وحتى المرزوقى على الرغم من معارضته لابن جنى يشهد بأن المعنى عليه، إذ يقول فى معنى البيت: رجعت إلى قبيلتى فَهْم وكدت لا أأوب لأنى شافهت التلف[3].

(١) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٨٣، ٨٤.

(٢) التنبيه مخطوطة رقم ١٥٦٦٣ (ز) لوحة ١٩، والأزهر ورقة رقم ١٠، والخصائص ١/٣٩١.

(٣) الحماسة للمرزوقى ١/٨٣.

ويبدو لى صحة اختيار ابن جنى لـلأدلة التى ساقها وهى قوية لا تحتاج لأن نضيف إليها جديداً، أما تعقيب المرزوقى بأن أبا تمام قد غير كثيراً من ألفاظ البيوت فلا يدل المقام على أنه هو صاحب هذا التغيـير فى هذه الرواية ذاتها، لاحتمال أن غيره قـد غيرها من بعده، وإذا سلمنا جـدلا أن أبا تمام هو صاحب التغيـير فالحق أحق أن يتبع، ولكل جواد كـبوة، فلا مانع أن يكون اختـيار أبى تمام لتلك الرواية غير دقيق ولعله لو أنشر الله تأبط شراً - على حـد تعبير المرزوقى - لاختار ما رآه ابن جنى، ويبدو أنه لم يتحرر من الإسفاف فى نقده لابن جنى فقد قال بعد ذلك فى أحد الأبيات: والتـعجب من إدراكه لهذا المعنى يمنع من الكلام عليه فـسبحان من لا يحتاج إلى التفسير[١].

وقـد أبدى ابن ملكون[٢] بعض مـلاحظات على شـرح الحمـاسـة فى أثناء جمعه لهـا مع كتاب المبهج نكتفى عن إيرادها هنا بالإشارة إلـيها عند الحديث عن آثاره إذ هى لم تبلغ حدة النقد الذى عرف عند هؤلاء المتقدمين.

ملاحظاتنا على النقود

أوضحنا بالأمثلة الواقـعية قوة شرح ابن جنى للشعر واتجـاهه فيه، وبينا أنه مثال طـيب لتطوير شرح الأشعار الذى لم يكن يعـرف من قبل إلا تفسيـر غريب الألفاظ فـقط، لكن شرح عالمـنا هذا يحوى ألوان اللغة التى تـطلبها العـصر من إعراب وتصـريف ونظير ومعنى وعروض وقـافية، وبيان ابن جنى لمعـانى الأبيات فيـما أعتقـد صحيح فى جـملته، وقد ذكـرنا الأمثلة ورأينا منها أن العـيوب التى أخذت عليـه لم تكن كلها عيوبًـا، بل إن بعضها كـذلك وبعضها الآخـر لا عيب فيه، ولـكن المعاصرة والتنافس حجـبا الحقيـقة عن نظر الناقدين فجـاءوا بما يؤخذ عليه وما لا يؤخذ.

ومع هذا ينبغى ألا ننسى أن هناك الكثـير من المعانى الصحيـحة التى سلموا بها ولم يعقبوا عليـها، وقد اعترفوا كلهم بأنهم تعقبوه فيـما أخذ عليه فقط، وإذا

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقى ١/ ١٩٢.

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن منذر بن سعيـد بن ملكون الحضرمى الإشبيلى أستاذ نحوى جليل، ت٥٨٤هـ، البغية ١/ ٤٣١.

كان ما أخذوه عليه يمكن أن يصفى بنظرة جدية وبتحليل علمى نزيه فإننا نثق بأنه لن يبقى عليه بعد ذلك إلا القليل منها، وكما قلنا فيما سبق: إن العيوب إذا أحصيت وعلم مقدارها كانت شرفًا لصاحبها فله من الحسنات الكثير غيرها وكما قال الشاعر:

كَفَى المَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ

أمانته العلمية فى رواية اللغة والأدب وموقفه من الرواة

إن علماءنا الأقدمين كانوا ثقات مبرزين، فهم فى مؤلفاتهم يثبتون الحقيقة ويقرون بها ويعترفون فى صراحة تامة بآراء غيرهم ممن يوافقهم أو يخالفهم فى مذهب أو رأى، فهم ينسبون الآراء إلى أصحابها فى دقة، فأحدهم وهو أحمد بن فارس اللغوى المشهور لا يتحرج أن يذكر حقيقة كتابه الذى ألفه وهو الصاحبى فيعترف بأنه أخذه من أقوال السابقين، يقول فى المقدمة: «والذى جمعناه فى مؤلفنا هذا مفرق فى أصناف مؤلفات العلماء المتقدمين رضى الله عنهم وجزاهم أفضل الجزاء، وإنما لنا فيه اختصار مبسوط أو بسط مختصر أو شرح مشكل أو جمع متفرق»[1]، فهذا مثال للعالم المتواضع الذى لا ينكر فضل السلف عليه فلا يشمخ بأنفه مدعيًا أنه ابتكره ابتكارًا لم يسبق إليه وإنما يقر الحقيقة للحقيقة وهكذا كان شأن علمائنا رحمهم الله.

ومن هؤلاء الأفذاذ عالمنا ابن جنى، فقد ضرب مثلا رائعًا لدقة الرواية وصحتها فهو لا ينكر رأى غيره أو يعدو عليه، وإنما ينقله فى أمانة علمية نادرة، ونضرب أمثلة لذلك من واقع كتبه: ففى الخصائص ينقل رأيًا عن أستاذه أبى على فيحدد زمانه ومكانه ونصه الذى رواه فيقول: «قال لى أبو على رحمه الله بحلب سنة ست وأربعين» ثم بعد أن ينقل الرواية اللغوية يقول بالحرف الواحد «هكذا قال»[2]، وفى المحتسب ينقل تفسيرًا لقول الشاعر:

---

(١) ص٣١. (٢) ٣/ ٢٦٢.

فَإِنْ تَقْتُلُونَا يَوْمَ حَرَّةِ وَاقِـمٍ ... فَلَسْنَا عَلَى الإِسْلامِ أَوَّلَ مَنْ قُتِل

وقبل أن يعرض التفسير ينسبه إلى أستاذه بدقة فيقول: ومثله ما أنشدناه أبو على وهو رأيه وتفسيره[1]، وهو فى كل موضع يعرض لرأى أستاذه فيه لا ينسى أن ينسبه إليه فى صدق صراح كأن يقول: هذا رأى أبى على وعنه أخذته[2]. أو يقول: وهو رأى أبى على رحمه الله وعنه أخذته لفظًا ومراجعة وبحثًا[3]، أو يقول: والذى تحصل لى عن أبى على وقت القراءة ما أذكره لك[4].

وهو فى تلك الرواية اللغوية يذكر الأسانيد التى أوصلتها إليه ما وجد إلى ذلك سبيلا، كأن يقول مثلا عند قراءة (أمِرنا) - بكسر الميم -: فى قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ... ⑯﴾ [الإسراء]، فأما أمرنا فعلنا بكسر الميم فأخبرنا أبو إسحاق وإبراهيم بن أحمد القِرْمِيسينى عن أبى بكر محمد بن هرون الروبانى عن أبى حاتم قال: قال أبو زيد يقال أمر الله ما له وآمره قال أبو حاتم: ورووا عن الحسن أن رجلا من المشركين قال للنبى ﷺ: (إنى أرى أمرك هذا حقيرًا) فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه سيأمَر أى ينتشر». قال: وقال أبو عمرو معنى أمرنا مترفيها أى أمرناهم بالطاعة فعصوا. . . وأنشد أبو زيد رويناه عنه وعن جماعة غيره. . . إلخ[5].

فهذا النص ينقل لنا صورة صادقة لأمانة ابن جنى فى نسبة الآراء إلى أصحابها وكذلك التفسيرات اللغوية كما يصرح بأنه قرأ أرجوزة أبى نواس على أستاذه الفارسى وهذا «شأن الصرحاء الصادقين ودليل أمانته العلمية»[6]. وإذا لم يعرف ابن جنى الناقل عنه فإنه يصرح بذلك دون أن يرى فى ذلك عيبًا ومنه قال أبو الفتح: زاد أبو الحسن الأخفش قراءة أخرى لا يحضرنى الآن ذكر قارئها[7]

---

(١) ٢/٣٢٧.

(٢) سر الصناعة مخطوطة الأزهر الورقة ٦٨.

(٣) الخصائص ١/ ١٢٠. (٤) المنصف ٢/٢٣٣، ٣/١١٥.

(٥) المحتسب ٢/١٧. (٦) مقدمة الأرجوزة للمحقق ص٦.

(٧) المحتسب ١/ ١٣٤.

ولدرجة التثبيت نراه أحيانًا يقول وأظنه: قال لى كذا[1]، وهكذا شأنه فى جميع الآراء التى ينقلها فى كتابه عن علماء اللغة والنحو واستشهاده بالقصص وبالشعر الذى كثيرًا ما يصرح بأن من أنشده إياه هو أستاذه أبو على، وهو مع دقته فى النقد قد يعتمد على المعنى دون اللفظ، ومن ذلك ما نقله من جواب أستاذه حين سأله عن إجراء المضمر مجرى المظهر فى نحو أعطيتكه فقد عقب عليه بقوله: هذا محصول معنى أبى على فأما نفس لفظه فلا يحضرنى الآن حقيقة صورته[2]، ويقول أيضًا: وهذا كله رأى أبى على وعنه أخذته وقد أتيت فى هذا الفصل من الاشتقاق وغيره بما هو معانى قوله وإن خالفت لفظه[3]، ويقول: وهذا من طريف ما علقته عن أبى على وهذا لفظه أو معنى لفظه[4]، وينقل مع تغيير فى العبارة عن غير أبى على، فمن نقوله فى المحتسب قال سيبويه: لو كان لبيك اسمًا واحدًا - كما يقول يونس: وإنما قلب فى لبيك لاتصاله بالمضمر كما يقلب فى إليك وعليك - لما قال «فَلَبَّىْ يَدَىْ مِسْوَر» ولقال فَـلَبَّى يدى مسور على حد قولك على يدى فلان وإلى يدى جعفر، فثبات الياء مع المظهر يدلك على أنه لم يقلب فى لبيك على حد ما قلب فى إليك وعليك[5]، وعبارة الكتاب «وزعم يونس أن لبيك اسم واحد ولكنه جاء على هذا اللفظ فى الإضافة كقولك عليك فلو كان بمنزلة على لقال فلبَّى يدى مسور لأنك تقول على زيد إذا ظهر الاسم»[6]، وينقل كذلك قول سيبويه: «حدثنا من تثق به أن بعض العرب قيل له: أما بمكان كذا وكذا وجذ؟[7] فقال بلى وجاذا أى أعرف بها وجاذا، وقال أيضًا: وسمعنا بعضهم يدعو على غنم رجل فقال اللهم ضبعًا وذئبًا فقلنا له ما أردت؟ فقال: أردت اللهم اجمع فيها ضبعًا وذئبًا. كلهم يفسر ما ينوى» وعبارة الكتاب. وإذا سألتهم ما يعنون، قالوا: اللهم اجمع أو اجعل فيها ضبعًا وذئبًا»، وهذا التغيير كما ترى لم يضر بالمعنى، ويعلق الشيخ النجار على ذلك قائلا: ونرى من هذا أن ابن جنى لم يكن

---

(1) الخصائص ١/ ٩٢. (2) نفسه ٢/ ١٨.

(3) سر الصناعة ١/ ٤٥. (4) المنصف ١/ ٤٤.

(5) المحتسب ١/ ٧٩. (6) الكتاب ١/ ١٧٦. (7) موضع يمسك الماء.

أمامه الكتاب إذ ينقل هذا وإنما ينقل من حفظه أو أن الكتاب منه عدة نسخ مختلفة[1].

وقد اتهم صاحب الخزانة ابن جنى بأنه أخل بالنقل عن أبى على عند الكلام على قول الراجز:

بَاتَتْ تَنُوشُ الحوْضَ نَوْشًا مِنْ عَلا   نَوْشًا بِهِ تَقْطَعُ أَجْوَازَ الفَلا

فقد نقل ابن جنى عن أبى على أحد رأيين فعقب البغدادى عليه بقوله: «وقد أخل ابن جنى فى شرح تصريف المازنى فى النقل عن أبى على فإنه قال: قد كان أبو على يقول فى عَلا من هذا الرجز إن الألف فى عَلا منقلبة عن الواو لأنه من علوت وإن الكلمة فى موضع مبنى نحو قبل وبعد؛ لأنه يريد نوشا من علاه فلما اقتطع المضاف من المضاف إليه وجب بناء الكلمة على الضم نحو قبل وبعد، فلما وقعت الواو مضمومة وقبلها فتحة قلبت ألفًا، وهذا مذهب حسن، ونص أبى على فى تذكرته: يجوز أن يكون عَلا مبنيًا معرفة ويجوز أن يكون معربًا نكرة، فإن كان مبنيًا كانت الألف منقلبة عن الواو لتحركها بالضمة وإن كان معربًا كانت منقلبة عن الواو لتحركها بالجر»[2]، ولكن الشيخ النجار لا يعد هذا إخلالا فى النقل وإنما هو من الاقتصار على أحد الوجهين، ويكثر من ابن جنى ألا يستوعب ما يقال فى الأمر يعرض له وهذه خطة دبرها واعتمدها[3]، وليس معنى هذا ألا يند عن نظر ابن جنى شىء فقد أجاز الوجهين؛ الجر والرفع فى كلمة (الكليم) فى شطر من الشعر أورده وهو: (عَلَيْهَا الشَّيْخُ كَالأَسَدِ الكَلِيمِ).

ولو اطلع ابن جنى على القصيدة لأدرك أنه لا يجوز غير الرفع فالقصيدة مرفوعة الروى ومطلعها:

---

(١) الكتاب ١/ ١٢٩، والخصائص ١/ ٢٤٩، ٢٥٠، الأصل والتعليق.

(٢) الخزانة ط الأولى ٤/ ٢٦٢. وقد ذكر هذا النص إلا أنه لم يصفه بالإخلال بالنقل ج٤ ص١٢٥، ١٢٦ وانظر ما نقله ابن جنى فى المنصف ١/ ١٢٤.

(٣) مقدمة الخصائص ١/ ٥٣.

تُسَائِلُنِى بَنُو جُشَمِ بْنِ بَكْرٍ   أَغَرَّاءُ العَرَادَةُ أَمْ بَهِيمُ[1]

ولكننا نرى أن ذلك شيء قليل لا يخل بمكانه فى الرواية فهو فيها دائم التثبت والبحث، ولم يكن لائقًا بابن فورجة أن يرميه بالكذب فى رواية لشرح بيت من الشعر عن أبى الطيب المتنبى وهو قوله:

أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِى بِمَا وَكَأَنَّهُ   فَمَا أَحَدٌ فَوْقِى وَمَا أَحَدٌ مِثْلِى

قال ابن جنى: سألت أبا الطيب المتنبى ماذا يريد بقوله: بما وكأنه فقال: إن ما سبب التشبيه، لأن القائل إذا قال لآخر بم تشبه هذا؟ قال له المجيب: كأنه الأسد أو كأنه الأرقم، فلم يرضه ابن فورجة وأورد حكاية مماثلة يقول فيها: سئل المبرد فى مجلس بعض الأمراء عن كلمة من اللغة يجهلها فاخترع لها تفسيرًا وارتجل شاهدا لوقته على ما يقول خشية أن يتهم بالجهل فى مجلس أمير لم يكن قد رآه، وإنما سمع به، فرد عليه أبو حنيفة الدينورى، وكان بالمجلس، فكشف عن أمره، ثم قال ابن فورجة: وأنا أحلف بالله العلى إن كان أبو الطيب قد سئل عن هذا البيت، فأجاب هذا الجواب الذى حكاه ابن جنى، وإن كان إلا متزيدا مبطلا فيما يدعيه عفا الله عنه، وغفر له، فالجهل والإقرار به أحسن من هذا[2].

ولكن هذا تحيّف على ابن جنى دون دليل، فقد أثبتنا فى صلة أبى الفتح بالمتنبى، أنه كان يناظره وقد قرأ عليه ديوانه، وكان يسأله فى المعانى وغيرها من اللغة والنحو، وقد شرح ديوانه على ما نعلم فلا مانع أن يكون سمع ذلك منه، ويبدو أن ذلك من حنق ابن فورجة عليه.

وابن جنى كما علمنا أمين فى روايته، ويصف أيضًا رواة اللغة وعلماءها الأوائل بالدقة والأمانة فى الرواية، ويثنى عليهم كثيرًا، ففوق ما أوردناه - فيما مضى - من ثناء على أستاذه وعلى سيبويه والكسائى وغيرهم[3]، يكتب فصلا

---

(١) المفضليات ١/ ٣١.

(٢) معجم الأدباء ٣/ ٣٠-٣١، وطبقات ابن قاضى شهبة فى ترجمة أبى حنيفة الدينورى ١/ ١٩٧، ١٩٨، وانظر فى تصحيح معنى البيت الوساطة ٤٤٢، ٤٤٣.

(٣) انظر مثلا ٤٨، ٤٩، ١٠٠.

كاملا لصدق النقلة وثقة الرواة يمدحهم فيــه ابتداءً من واضعى اللغة والنحو كسيدنا على رضى الله عنه وأبى الأسـود الدؤلى إلى أستاذه أبى على، ويصف أبا عـمرو ابن العلاء فيـقول: أفلا ترى إلى هذا البدر الطالع الباهر والبـحر الزاخر الذى هو أبو العلمـاء وكهـفـهم وبدء الرواة وسيـفـهم، ويصف الأصمعى بقـوله: وهذا الأصمعىَ وهو صناجة الرواة والنقَلة وإليه محط الأعباء والثَّقَلَة، ومنه تُجنَى الفِقَرُ والمُلَح وهو ريحانة كل مغتبَق ومصطبَح، كانت مشيخة القراء وأَمَاثِلُهُم تحضره وهو حدَث لأخذ قراءة نافع عنه، ومعلوم كم قدر مـا حذف من اللغة، فلم يثبته، لأنه لم يقو عنده إذ لم يسمعه، ويصف الكسائى بالعقل والعفة والظلَف والنزاهة، ولا يحفل بالخـلاف الذى شجر بين علماء البـصرة والكوفة، بل يعده دليـلا على كرم هذا العلم، ولعل من يُرْمَى بسقطة الرواية برئ عـند الله ذكره من تبعتهـا، ويعيد مدح أستاذه فيقول: وهذا أبو على رحمه الله كأنه بعد معنا ولم تَبِنْ به الحال عنا، كان من تحوبِّه وتأنِّيه، وتحرجه كثير التـوقف فيما يحكيه، دائم الاستظهار لإيراد ما يرويه فكان تارة يقول: أنشدت لجرير فيما أحسب، وأخرى: قال لى أبو بكر فيما أظن، وأخرى: فى غالب ظنى كذا، وأرى أنِّى قد سمعْت كذا[1].

فمن هذه الفـقرات التى اقـتطفتـها من ذلك الفصل ندرك تقـدير ابن جنى لعلمـاء اللغة ورواتهـا، وتوثيقـه لهم بالواقع والحجج المقـبولة، وحكاية الـتاريخ الصادق، ويبـدو لى أنه واقعى فى تفكيره، فالرواة صـادقون فعلا، وإن كـانوا قد زادوا بعض الأخبار القليلة، أو أدخلت عليهم إدخـالا فقد نقل عن أبى عمرو بن العلاء قـوله: ما زدت فى شعر العـرب إلا بيتا واحدا يعنى مـا يرويه للأعشى من قوله:

وأَنكرَتْنِى وَمَا كَانَ الَّذِى نَكِرتْ ... مِنَ الحَوادِثِ إلا الشَّيب والصَّلَعَا

وقال: إنه لما زاد هذا البـيت وفقه الله للاعـتراف به[2]، وقال بعد ذلك ما يدل على أن بعض المنحول أو ما قيل عنه إنه منحول قد لا يكون كذلك، أو يكون

---

(١) الخصائص ٣/ ٣٠٩-٣١٣.   (٢) نفسه ٣/ ٣١٠.

من دس الأعداء على الراوية حنقًا عليه، يقول: ولعل أكثر من يُرمى بسقطة فى رواية أو غمز فى حكاية مَحْمِىّ جانب الصدق فيها برىء عند الله ذكره من تبعتها لكن أخذت عليه إما لاعتنان شبهة عرضت له أو لمن أخذ عنه، وإما لأن ثالبه ومُتعيّبه مقصر عن مغزاه، مغضوض الطرف دون مداه[1]، وقول ابن جنى فى ذلك هو الفصل، وهو الذى يجب أن يعتد فى الأخذ به، فرواة اللغة والأدب صادقون فى معظم ما قالوه والمردود منه قليل من كثير، ويقول الدكتور ناصر الدين الأسد: «إن الرواة حملوا الأمانة ومضوا يجمعون ما تفرق من هذا التراث، وينظمون منه ما تجمع، ويضيفون إليه ما لم يكن فيه مما يثبت لهم صحته، وينفون عنه ما ثبت لهم زيفه وفساده»[2].

واعتراف الدكتور ناصر أجدر بالقبول من الرأى الذى أطلقه الدكتور طه حسين حين كذب الرواة جميعًا اللهم إلا القليل ممن يرضاه هو لنفسه[3].

وقد أفاض الدكتور الأسد فى رسالته فى شرح الرواية والرواة بما يثبت هذه الخلاصة التى أشرنا إليها.

لغوياته التى رواها

يبدو لمن يطالع مؤلفات ابن جنى أنها تزخر بمادة لغوية كبيرة، يستدل بها على نظرياته العلمية، فهو يورد الشواهد من القرآن والحديث وموثوق كلام العرب، شعراً ونثراً، وفى غضون ذلك يورد ألفاظا لغوية مما يرويه عن سابقيه كأبى زيد، والأصمعى، وابن السكيت، وغيرهم، كما يورد ألفاظا يعتقد أنه هو راويها الأول، ولذلك نجد كتب اللغة تسلمها له وتنسبها إليه، فقد أورد فى الخصائص الكلمات خِرفُع وضِنْبُل وزِئبُر، ونقلها صاحب اللسان فى مادة (خرفع)

---

(١) الخصائص ٣/ ٣١٢، ٣١٣.

(٢) مصادر الشعر الجاهلى ٤٧٧، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١/ ٦٦.

(٣) الأدب الجاهلى ١٨٤-١٨٦، وقد رد عليه الإمام الأكبر الخضر حسين والأستاذ الغمراوى والأستاذ وجدى وغيرهم.

فقـال: الخُرفُع والخِرفُع والخرفع بكسـر الخاء وضم الفاء الأخـيرة عن ابن جنى[1] وكذلك الضـئبل بكسر الضاد وضم البـاء نسبه صـاحب اللسان إلى ابن جنى[2]، وكذلك الزِّئبُر[3]، وكلمة بنَّس مما حكاه ابن جنـى فى (باب فى الشىء يسمع من الفصيح لا يسمع من غيره) فجاء صاحب اللسان بكلمة بنّس رواية عن ابن سيده، فقال: قال ابن سيده، قال ابن جنى: قوله بنّس عنها، إنما هو من النوم غير أنه إنما يقال للبقرة، ولا أعلم هـذا القول من غير ابن جنى[4]، وهذا النص فعلاً هو ما قاله ابن جنى[4]، ولو رجعنا إلى المخصص لابن سيده لوجـدناه يأتى بألفاظ كثيرة رواية عن ابن جنى، فمثلا يقـول: ابن جنى رجل نَويم: مغفل[5]، ويقول: وقد أشاح على حاجتـه، ابن جنى: وكذلك شاح[6]، ويقول: العدىّ: جـماعة القوم بلغة هذيل، ابن جنى: العـدىّ أول ما يحمل من الرجـالة، وهو أول ما يدفع من الغارة، وأنشد:

لَمَّا رَأَيْتُ عِدَىَّ القَـــوْمِ يَسْلُبُهُمْ طَلَح الشَّواجِن والطَّرْفَاء والسَّلَم

يعنى يتعلق بثـيابهم[7]، فنرى من هذا أن ابن جنى يروى ألفاظا، أو يـفسر معناها، وينقل ذلك عنه أرباب المـعاجم واللغة، وله من ذلك الكثيـر، وإنما أشرنا إلى أمثلة منه ليـعلم قدره فى هذا الجانب اللغـوى الذى استفادت منه العـربية فى نموها، وسعة تصرفها، وهذه ناحية معجمية هامة، كذلك فى أثناء قراءتى لرسائله الثلاث وهى المقتضب، وما يحتاج إليـه الكاتب، وعقود الهمز، وجدته يجمع فى الرسالتين الأوليين بعض الألفاظ، ويرتبها بحسب حروف الهجاء على الطريقة التى وضعـها الجـوهرى فى الصـحاح، من النظر إلى آخـر حرف فى الكلمـة وترتيب الحروف الـسابقـة عليه، وهو نظام مـيسـر لما عرف فى المعـاجم، وقد أراد بـهذه

---

(١) الخصائص ١/ ٦٨، واللسان ٩/ ٤٢٢، ومن معانيه القطن.

(٢) ١٣/ ٤١٣، ومعناه الداهية.

(٣) ٥/ ٤٠٢، ومعناه: ما يعلو الثوب الجديد، وقـد نقل ابن منظور هذا والذى قبله عن ابن سيده، والشائع فى ضئبل، وزئبر كسر الأول، والثالث، أما خرفع فجاء - مع ذلك - بضمهما.

(٤) الخصائص ٢/ ٢٣، ٢٤، واللسان (بنس) ٧/ ٣٢٩.

(٥) المخصص ٥/ ١٠٢. (٦) نفسه ٣/ ٤١. (٧) نفسه ٣/ ١٢١، ١٢٢.

الألفاظ إفادة الشاعر والناثر، وهو ينبه على ذلك فى مقدمة الرسالة الأولى التى جمع فيها بعض ألفاظ الثلاثى المعتل العين من اسم المفعول خاصة فيقول: نحن نسوق هذه الحروف على تأليف حروف الإعجام ليقرب أمره على طالبى الحروف منها، ونجعل ذلك الحرف قافية الكلمة ولامها ثم نُمر فاءها على الحروف المعجمة أيضًا ما أمكن ذلك شيئًا فشيئًا، ليكون أشد انكشافًا، وأقرب مأخذًا، ونقدم ذوات الواو على ذوات الياء، لغلبة الواو على العين فى عموم تصرف اللغة، كما أن الياء أغلب على اللام من الواو عليها، وعلة ذلك قائمة عند النظار من أهل التصريف، نترك ذكرها تخفيفًا، واكتفاءً بالمعلوم من حالها[1]. ويقول فى مقدمة الرسالة الثانية: وهى تختص ببعض الألفاظ المهموزة اللام «هذه ألفاظ مهموزة كثيرة الاستعمال يحتاج الكاتب إلى معرفتها، نظمناها على حروف المعجم احتياطًا وتقريبًا واجتنبنا ما كان وحشيا غريبًا»[2]، فمن هاتين المقدمتين نفهم أنه عرض فى الأولى لألفاظ جاءت من اسم المفعول المعتل العين بالواو والياء، مع تفسيره للغامض منها، ويورد فى الثانية جملة ألفاظ مهموزة، لاحتياج الكاتب إليها. وقد خص الأمثلة التى ذكرها من المهموز بما هو مهموز اللام فقط مبتدئًا بحرف الباء، ومختتما بالياء، ونورد أمثلة مما ذكره ورتبه:

ففى الرسالة الأولى: حرف الحاء يقول: **الواو من ذلك**، هذا أمر مبُوح به وقال: عدوك مجُوح أى مجتاح، وغصن مرُوح أجود من مَريح، ومنزلك مرُوح إليه، وهذا مكان مفُوح فيه، إذا فاحت فيه الرائحة، وهذه فلاة ملُوح فيها، أى تلوح فيها الأشخاص، وعدوّك منُوح عليه، وداره منُوح فيها، **الياء منه**: هذا رجل متَيح له، إذا تاحت له الأشياء، أى عرضت، وغصن مَريح، وقد تقدم ذكره، وهذا وقت مزِيح، أى تزيح فيه العلل، وهذه أرض مسيح فيها، من سحت سيحا، والرجل مصِيح به، من الصياح، وهذه قوة مطِيح فيها، من طاح، أى هلك، والرجل مَميح من قولك: مِحته: أعطيته[3].

---

(1) المقتضب، ص١٠، ط عربية، ص٤، ٥، ط أوربية.

(2) ما يحتاج إليه الكاتب، ص٣٨.

(3) المقتضب ص ١٤، ط عربية، و٨ ط أوربية.

فهـذا المثال يوضح لنا أنه نظر إلى آخـر حرف فى الكلمة وهو الحـاء فرتب عليه ثم لاحظ الحرف الأول بعد الميم الذى يعد فاء الكلمة فبدأ بالباء وما يليها من الحروف، حرفا فـحرفا، مما وردت به اللغة، فأورد بعـد الباء الجيم، ثم الراء، ثم الفاء، هذا فى الواوى، وفى اليائى بدأ بالتاء، ثم الراء، ثم الزاى، ثم السين، ثم الصاد، ثم الطاء، ثم الميم.

وفى الرسـالة الثانيـة: **الهاء**: هدأت وهدّأت وأهدأته، من الهداية، وهرأت اللحم، وهزأت بفـلان مثل هزئت به، وهنـأت الرجل وهنأتنى بإطعام، وهيـأت الأمر، وتهيأت له، وهايأت الرجل، إذا فاصلته، وتهايأنا على الأمر[1]. ولم يجد أحيانا كلمات توافق الحرف المطلوب فنبه عليه، يقول مثلا عند حرف الغين: الغين مهمل[2]، وعند حرف الياء الياء غفل[3].

كذلك فـإن له رسالة تقع فى ثلاث صـحائف، جمع فـيهـا بعض الألفاظ المذكرة والمـؤنثة[4]، ولم يعقب عـليها ببـيان ما وهى مع ذلك تـضاف إلى ثروته اللغوية التى رواها.

وأعتقد أن هذا يشبه طريقـة المعاجم إلى حد ما، فإن الواجب فى المعجم أن يشتمل على استشهادات لغوية، من قرآن، وحديث، وشعر، ونثر مأثور، يؤيد ما ورد فيه وأن يشرح جميع الكلمات شرحا وافيا، وهذا لم يحدث.

ويمكن أن يضاف إلى ذلك تفسيره للكلمـات اللغوية الصعبة التى وردت فى كتاب المنصف، وقد أفردها بالجزء الثـالث من الكتاب، وقال فى أوله: هذا تفسير اللغة من كتاب أبى عثمان بشواهده وحججه، وإنما ذلك فى الغريب منها[5]، وهو

---

(١) ما يحتاج إليه الكاتب حرف الهاء.

(٢) الرسالة الثانية، ٤٢.

(٣) نفسها ٤٣.

(٤) تسمى ذكر المذكر والمؤنث، انظر ص ٢٥٢، ٢٥٣ من كتابنا.

(٥) المنصف ١/ ٢٤، ٣/٣.

يورد الألفاظ، ويستشهد عليها بما يمكنه من شواهد اللغة، من القرآن والحديث والشعر، وغير ذلك مما يبين المعنى المطلوب. ومما ذكره:

١- قِمَطر وهو الشديد ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان]، أى شديدا، وكذلك قولهم اقمطرّ الأمر أى اشتد، وقال الراجز:

ثم رأيت صُنْتُعًا قِمَطْرا ذَا صهوات يتوقّى الصخْرا

صُنْتُع: صغير الرأس، قال العجير السلولى:

سمين المطايا يشرب السُّور والحِسَا قِمطر كحُوَّاز الدَّحاريجِ أبتر[1]

ويستشهد بالحديث مع الشعر، كما استشهد بالقرآن معه، فيقول:

٢- هيْن بمعنى هيّن، قال رسول الله ﷺ: المؤمن هيْن ليْن أى هيّن ليّن، قال الشاعر:

هيْنون ليْنون أيْسَارٌ ذَوُو يُسُرٍ سُوّاسُ مَكْرُمَةٍ أبناءُ أيْسَارِ

وأخبرنى أبو على عن أبى بكر عن أبى سعيد عن أبى الفضل أن أبا زيد أنشد:

بنى إنَّ البرَّ شىءٌ هيْنُ المنطقُ اللين والطُّعَيِّمُ[2]

ومن هذا يتأكد أنه يورد اللفظة الغامضة فيفسرها، ويستشهد عليها بالقرآن والحديث ومأثور كلام العرب من النثر والشعر، ولكن على الرغم من أنه جعلها بحسب أبواب كتاب التصريف لأبى عثمان، فإنه لم يرتبها بحسب حروف الهجاء، بل نجده يذكر العين قبل اللام، ثم يذكر الراء بعدهما، ثم الباء بعد الميم، والقاف بعد الباء، ثم يعود فيذكر الراء والعين والقاف، ثم الميم، وهكذا لا يتقيد بحروف الهجاء[3]، فهذا إذًا لا يعد معجمًا، وإنما يعد شرحًا لبعض اللغويات كما

(١) المصدر السابق نفس الصحيفة.

(٢) نفسه ٢/ ١٥، ٣/ ٦١.

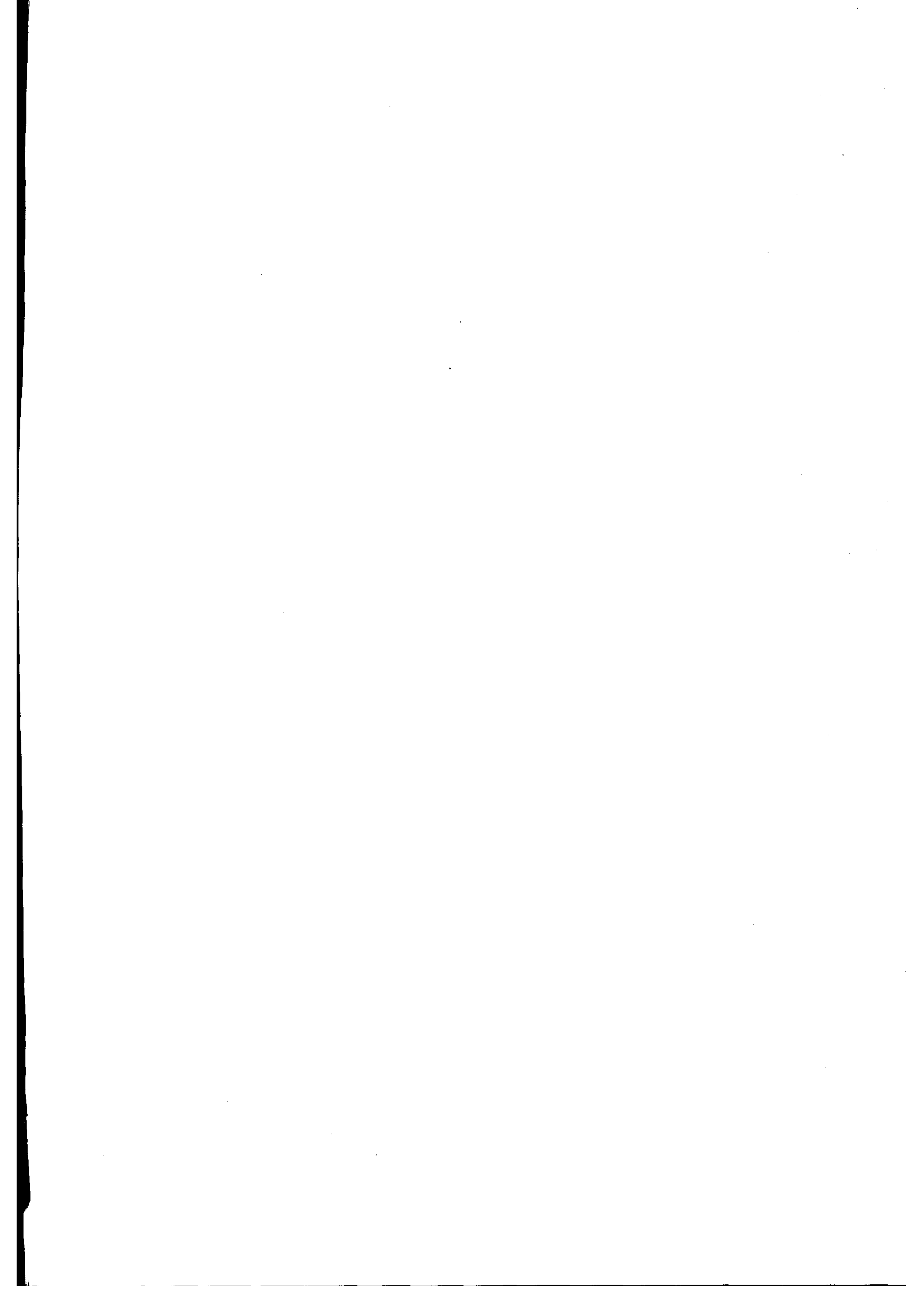
(٣) انظر المنصف ٣/ ١٦ وما بعدها.

يحدث عند تأليف أى كتاب يشتمل على كلمات من هذا النوع، ولكننا لا نغفل أنه بهذا والذى قبله فى الرسائل التى أشرنا إليها، قد اهتدى بالمعاجم، وسلك طريقها وهو يذكر فى كتبه أنه اطلع على كتاب العين للخليل، وكتاب الجمهرة لابن دريد[1]، وكان الأزهرى صاحب التهذيب والجوهرى صاحب الصحاح من معاصريه.

ويدل هذا الحشد من ألفاظ اللغة على غزارة المادة اللغوية عنده، واضطلاعه بهذا الأمر الخطير فيها ولا غرو فإن قدمه ثابتة ورسوخه أمر مقرر.

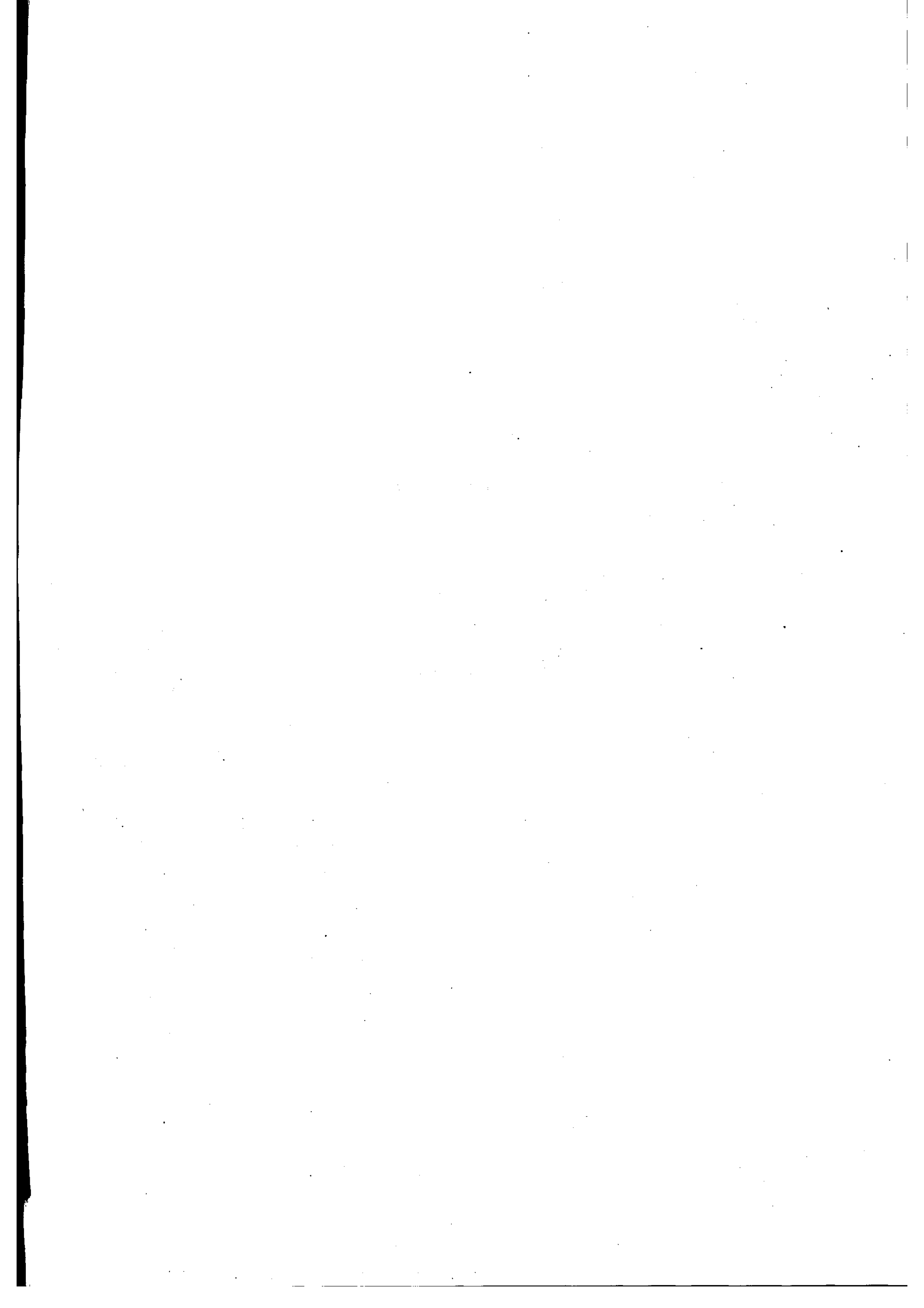
---

(١) انظر، ص ١٢٧ من كتابنا.



الباب الثالث

آثاره



آثاره العلمية

لقد ترك ابن جنى ثروة علمية ضخمة، إلا أن الزمن لم يسعفنا بها جميعها، بل ضن علينا بكثير منها، فلم يصل إلى أيدينا، ويقتضينا الحديث عنها أن نرتبها؛ باقيها ومفقودها، ونتحدث عن كل منها بحسب المصادر التاريخية التى دلت عليها، وبحسب مادتها العلمية - إن وجدت - وسنوردها على الحروف الهجائية ليسهل على من أراد مراجعة واحد منها أن يصل إليه فى يسر وزمن وجيز:

١- **البُشرى والظَّفر**: لم يذكره ابن جنى فى إجازته وإنما ذكره ياقوت، وقال: «صنعه لعضد الدولة، ومقداره خمسون ورقة فى تفسير بيت من شعر عضد الدولة، وهو:

أهْلا وسَهْلا بذِى البُشْرَى ونَوْبَتِها ... وَبِاشْتِمَالِ سَـرَايَانَا عَلَى الظَّفَرِ[1]

وقد فقد هذا الكتاب، فلم نعثر عليه».

٢- **تأييدُ تذكرة أبى علىّ**: ذكره ابن جنى فى إجارته، فقال: «وكتاب ما خرج من تأييد المذكَّرة[2]، وهو تحريف من النساخ عن كلمة «التذكرة» وهو كتاب لأبى على الفارسى، وقد تحدث ابن جنى عنها فى خصائصه، وقال: إنه نسخها، ونصه فى ذلك: «وكنت وأنا أنسخ التذكرة لأبى علىّ إذا مرّ بى شىء قد كنت رأيت طرفا منه، أو ألممت به فيما قبل، أقول له: قد كنت شارفت هذا الموضع، وتَلوَّح لى بعضُه، ولم أنته إلى آخره، وأراك أنت قد جئت به واستوفيته، وتمكنت فيه فيتبسم - رحمه الله - ويتطلّق إليه سرورا باستماعه ومعرفة بقدر نعمة الله عنده فيه، وفى أمثاله»[3].

(١) معجم الأدباء ١٢/ ١١٢، ١١٣، وسير أعلام النبلاء ج١١، ص٥.

(٢) معجم الأدباء ١٢/ ١١٠.

(٣) الخصائص ١/ ٢٠٧، وانظر طبقات ابن قاضى شهبة ٢/ ١٢٤، والوفيات ٢/ ٤١٢.

ويمكن أن يرشدنا هذا النص إلى أن ابن جنى كان ينظر فى التذكِرة، ويتفهم معانيهـا، ولذلك علق عليها بما يؤيدها، ويدعم ما فيهـا من علم أستاذه، والنص واضح فى ذلك، والكتاب مفقود، ولم نعثر له على أثر.

٣- **التَّبصرة**: أورده ابن خلكان[١] وابن قاضى شهبة[٢]، ويعد مفقودًا وإن كان بروكلمان لم يشر إلى فقده.

٤- **التذكِرة الأصبهانية**: ورد - كسابقه - عند ابن خلكان[١]، وعند ابن العماد[٣]، ولم يذكره بروكلمان.

٥- **التصريف الملوكى**: تحدث عنه ابن جنى فى إجازته، فقال: «وكذلك كتابى مختصر التصريف على إجماعه[٤]، وذكر فى كشف الظنون[٥]، وطبقات ابن قاضى شهبة[٦]، ومفتاح السعادة[٧]، وذكره بروكلمان باسم «جمل أصول التصريف أو مختصر التصريف الملوكى»[٨]، وقد طبع فى ليبزج بعناية المستشرق هوبرج G.Hobrg سنة ١٨٨٥م، باسم «مختصر التصريف الملوكى»، كما طبع فى مصر بتحقيق وتصحيح محمد سعيد بن مصطفى النعسان الحموى سنة ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م، والكتاب فى الطبعة الأوربية يقع فى اثنتين وخمسين صحيفة وفيها مقدمة بالألمانية[٩]، وفى الطبعة المصرية يقع فى ستين صحيفة، عدا باب الإدغام الذى أضافه المحقق من الخصائص[١٠]، وعدا الفوائد التى وضعت فى

---

(١) الوفيات ٢/ ٤١٢.

(٢) طبقات النحاة ٢/ ١٢٥.

(٣) الشذرات ٣/ ١٤٠.

(٤) معجم الأدباء ١٢/ ١١٠.

(٥) ١/ ٤١٢، ط٢.

(٦) ٢/ ١٢٤.

(٧) ١/ ١٣٤.

(٨) تاريخ الأدب العربى ٢/ ٢٤٨.

(٩) من ص١-٦.

(١٠) من ص٦٠-٧٠.

خاتمة خاصة[1]، ويتحدث ابن جنى فى هذا الكتاب عن بعض أبواب الصرف باختصار كبير للفائدة العجلى، وقد بين ذلك فى مقدمته، يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذه جمل من أصول التصريف، يقرب تأملها، وتقل الكلفة على ملتمس الفائدة منها، قليلة الألفاظ، كثيرة المعانى»[2]، وقد تكلم فيه ابن جنى على معنى التصريف، وحروف الزيادة، والبدل، وتعرض للحذف فى كلام العرب، والتغيير فى الحركة والسكون، وعقد فصلا لتدريب الذهن على أشياء تصريفية، على حد «ابن من كذا مثل كذا»[3]، وقد أتى ابن جنى ببعض القواعد العامة، فيما سماه (عقود وقوانين ينتفع بها فى التصريف)[4] مثل: (عقد)، متى كانت الواو لاما، وانكسر ما قبلها قلبت ياء من ذلك غازية ومحنية، والأصل (غازوة ومحنوة)، فقلبت الواو ياء، لتأخرها، ووقوع الكسرة قبلها[5]، وأحيانًا يأتى بمثل فصل كذا - فصل آخر - عقد - وأحيانا لا يذكر ذلك، بل يقول: إبدال كذا أو حذف كذا أو زيادة كذا ونحو ذلك، ولم يزد فى الإبدال، وحذف الحروف وزيادتها على ما ورد فى كتبه الأخرى، ويستشهد بشعر قليل مثل: (قَدْ وَرَدَتْ مِنْ أمكنة)، (كَأَنَّ فِي أذنابِهن الشُّوَّل)، وغير ذلك، وعلى الرغم من اختصار الكتاب، فإنه يعد مرحلة متطورة، ودقيقة فى التأليف فى فن التصريف، فهو «يعد خطوة جديدة فى تطور علم الصرف، لأن ابن جنى رتب موضوعاته ترتيبًا أدق من ترتيب سيبويه والمازنى، وذلك بأن جمع القواعد التى ذكرها سيبويه فى أبواب التصريف، وقسمها واضعا لكل قسم منها عنوانا جديدًا، يضم ما تفرق من المسائل المتشابهة فى فصل، أو باب واحد»[6]، ونظرًا لاختصاره فإنه لم يضم أبواب الصرف كلها، فلم يرد فيه ذكر المشتقات، أو الجمع، والتصغير، والنسب،

---

(١) من ص٧١-٨٣.

(٢) ط أوربية ط٧، وط مصرية، ص٢.

(٣) ط أوربية، ٤٨.

(٤) من ص٤٧-٥٩ ط المصرية.

(٥) ط المصرية ٤٩، ٥٠.

(٦) أبنية الصرف فى كتاب سيبويه ٣٢.

أو تخفيف الهمزة، وغير ذلك من أبواب التصريف؛ لاكتفاء ابن جنى بكتبه المتعمقة فيه وأهمها الخصائص وسر الصناعة.

وقد اهتم العلماء بهذا الكتاب فأقبلوا عليه يشرحونه[1]، ومن أشهر شراحه موفق الدين بن يعيش وله كتاب مخطوط، يقول فى مقدمته - بعد حمد الله والثناء عليه -: «فإنه لما كان التصريف من أجل العلوم، وأشرفها، وأغمض أنواع الأدب وألطفها، حاجة النحو إليه ضرورية، والمحلق منه محلق بين حقيقة العربية، وكان الكتاب الموسوم بالملوكى المنسوب إلى الشيخ أبى الفتح عثمان بن جنى رحمه الله مشتملا على كثير من حدوده، وجمل من قوانينه، وعقوده إلا أنه لقرب ما بين طرفيه، وفرط إيجاز ما اشتمل عليه، لا يصحب فى كل يد عنانه، ولا يضع لكل خاطر بيانه، أمليت هذا الكتاب شرحًا لمشكله، وإيضاحًا لمسبله، مقيدًا كل فصل منه بحججه وعلله، وتحريت فيه الإيجاز، لئلا يخرج عن الغرض بوضعه، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»[2].

وهكذا فالكتاب ذو قيمة علمية لفتت أنظار العلماء إليه.

٦- **تعاقب العربية**: ذكره ابن جنى فى إجازته، فقال: وكتابى فى تعاقب العربية، وأطْرِفْ به، وحجمه مائتا ورقة[3]، وهو مفقود، إلا أن السيوطى - فيما يظهر - وقع عليه، فقد نقل عنه فى كتابه «الأشباه والنظائر»، وبين منهجه، وموضوعه، بما نقله من مقدمة الكتاب، يقول: «وقد ألف ابن جنى كتاب التعاقب فى أقسام البدل، والمبدل منه، والعوض والمعوض منه، وقال فى أوله: اعلم أن كل واحد من ضربى التعاقب، وهما البدل والعوض، قد يقع فى الاستعمال موضع صاحبه، وربما امتاز أحدهما بالموضع دون رسيله، إلا أن البدل أعم استعمالا من العوض، ثم فرق بين البدل والعوض بوجوه منها: أن تصرف (ع و ض) إنما هو لأن يأتى مستقبل ثان مخالفًا لمنقض، ومن ذلك تسميتهم الدهر

---

(١) كشف الظنون ١/ ٤١٢، ٤١٣.

(٢) شرح التصريف الملوكى لابن يعيش مخطوطة دار الكتب رقم ٣ (صرف ش)، ص٢.

(٣) معجم الأدباء ١٢/ ١١٠، وأطرف به تعجب من طرافته وحسنه.

عَوْض، وليس كـذلك تصريف (بدل)؛ لأن البـدل منْ الشىء قد يكون والشيـئان جميعـا موجودان، وفرق آخر أن من حكم البـدل أن يكون فى موضع المبدل منه، والعوض ليس بابه أن يكون فى موضع المعاوض منه ثم شرح ذلك بالأمثلة[1].

ويظهر أن كتاب التعاقب هذا كان يتعرض للمسائل النحوية والصرفية المتعلقة بالبدل والعوض اللذين همـا موضوع الكتاب، فمن النصوص الواردة فـيه ما نقله السيـوطى من قوله: «قـولهم زرنى أزرك، حقيـقته زرنـى فإنك إن تزرنى أزرك، فحـذفت جملـة الشرط، وجعـل الأمر عوضـا منها، ذكـره ابن جنى فى كـتاب التعاقب»[2]، ويقول: قال ابن جنى فى كتاب التعاقب: لا يجمع بين أن يبدل من الحـرف ويعـوض منه، هذا لم يأت فى شىء من كـلامـهم[3]، وهو يذكـره فى الخصـائص فقد أورد اسمـه، وأشار إلى موضـوعه فى الباب الخـاص بالفرق بين البدل والعوض، فقال فى آخره: ولقد ذكرت فـى موضع من كلامى مفرد اشتقاق أسماء الدهر والزمـان وتقصيتـه هناك، وأتيت أيضًا فى كتابى الموسـوم بالتعاقب، على كثـير من هذا البـاب، ونهجت الطريق إلى مـا أذكره بما نبهـت به عليه[4]، ويتحدث عن مـسائل نحوية تتعلق بموضـوع الكتاب، ثم يعقب عليـها بذكر اسم التعـاقب، فيقـول بعد أن ذكر نصب المفـعول فى نحو القـرطاس والله أى أصاب القرطاس، «فهذا ونحوه لم يرفض ناصـبه لثقله، بل لأن ما ناب عنه جار عندهم مجراه ومـؤد تأديته، وقد ذكرنا فى كتـابنا الموسوم بالتعاقب من هذا النحو مـا فيه كاف بإذن الله تعالى»[5]، فكأن هذا الكتاب كان يتعلق بالبدل والعوض، وما يدور حول ذلك من نحو وصـرف ولغة، وهو إذًا كان مشـبهًا للخصائـص فى منهجه، ومعالجته لموضوعات اللغة، وقـد فقد الكتاب، فلم يصلنا منه إلا بقايا قليلة كالتى

---

(١) ١/ ١٢٣-١٢٥.

(٢) نفسه ١/ ١٣٠، ١٣١.

(٣) نفسه ١/ ١٣٣.

(٤) نفسه ١/ ٢٦٦.

(٥) نفسه ١/ ٢٢٤.

حكاها السيوطى فى كتابه السابق. وقد ورد هذا الكتاب فى الفهرست[١]، وتاريخ بغداد[٢]، والوفيات[٣]، والمخصص[٤]، إلا أن اسمه فيه (المتعاقب)، وهو محرف وعده بروكلمان مفقوداً.

٧- **تفسير أرجوزة أبى نواس**: هى أرجوزته التى قالها فى تقريظ الفضل بن الربيع السياسى العربى المشهور - وقد تحدثنا عنها فى أدب ابن جنى - فليست أرجوزته فى الطَّرَد - كما حسب الأستاذ النجار - وقد طبعت الأرجوزة ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، (بتحقيق الأستاذ محمد بهجة الأثرى) بعد أن تأكد من نسبتها لابن جنى، فقد نسبها إليه ياقوت وغيره[٥].

٨- **تفسير ديوان المتنبى الكبير**: ذكر ابن جنى فى إجازته هذا الكتاب بقوله: «وكتابى فى تفسير ديوان المتنبى الكبير وهو ألف ورقة ونيف»[٦]، ويسمى الفسر كما فى الفهرست[٧]، وسماه ابن خلكان (الصبر)[٨]، وابن العماد النشر[٩]، وكل منهما ليس بصحيح إذ لا مناسبة بين الاسم وما تضمنه شرح الديوان من معان لغوية ونحوية وصرفية، وإفصاح عن المعنى الشعرى الذى قصده الشاعر، وكما يقول الدكتور طلس: «الصواب الأول» لأن الفسر فى اللغة هو الإبانة والكشف عن المغطى، وليس فى معانى الصبر والنشر ما يصلح أن يسمى به الكتاب (فهذا) من أغلاط النساخ غالباً[١٠]، وتوجد منه نسخة فى بطرسبرج بالمتحف الآسيوى،

---

(١) ١٢٨.

(٢) ١١/٣١١.

(٣) ٢/٤١١.

(٤) ١/١٣.

(٥) معجم الأدباء ١٢/١١١.

(٦) نفسه ١٢/١٠٩، ١١٠.

(٧) ١٢٨.

(٨) الوفيات ٢/٤١٢.

(٩) الشذرات ٣/ ١٤٠.

(١٠) مجلة المجمع العلمى ٣٢/٣٤٩.

وكذلك بالمتحف البريطاني، ويوجد الجزء الثاني منه في الإسكوريال[1]، ويذكر الدكتور طلس أنه توجد «من الشرح الكبير نسخة بدار الكتب المصرية كتبت بقلم معتاد في أواخر ربيع الأول سنة ٥٢٧هـ اعتماداً على فهرس الدار ٣/ ١٩١»[2].

وبالرجوع إلى فهرس الدار، وقسم المخطوطات بها لم أعثر على الشرح الكبير، وإنما كان كما هو معهود الشرح الصغير المتداول، والموجود منه عدد من النسخ هناك، ولعل كلمة الكبير وردت في كلام الدكتور طلس سهوا إذ إن تاريخ النسخ الذي ذكره صحيح لكن باسم الشرح الصغير لا الكبير، وقد وجه بعض العلماء نقودًا إلى ما أورده ابن جني من شرح فيه وفي قرنه الصغير الذي سنتحدث عنه في موضعه - ذكرناها في أدبه وناقشناها مناقشة جادة.

٩- **تفسير العلويات**: وهي كما ذكرنا سابقًا[3] أربع قصائد للشريف الرضي كل واحدة منها في مجلد، ويذكر ابن النديم أن اسمه كتاب تفسير المراثي الثلاثة والقصيدة الرائية للشريف الرضي[4]، ولم تذكر في إجازة كتب ابن جني ولكن ذكرها ياقوت[5]، ولم يشر إليها بروكلمان فهي في عداد المفقودات.

١٠- **تفسير معاني ديوان المتنبي**: وقد ذكره ابن جني في إجازته، يقول: وكتابي في تفسير معاني هذا الديوان (يعني ديوان المتنبي)[6]، ويوجد منه نسخ مخطوطة ومصورة في دار الكتب المصرية، وقد قدم له بحديث طويل امتدح فيه المتنبي، وأبان عن صداقته الوطيدة له، ونعى على الناقمين عليه من حساده والجاهلين بمكانه[7]، ثم ذكر خطته التي انتهجها في الشرح، وهذا التفسير مختصر

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٢/ ٨٨، ٨٩.

(٢) مجلة المجمع العلمي ٣٢/ ٣٤٩.

(٣) انظر ص ٧٧ وما بعدها من كتابنا.

(٤) الفهرست ١٢٨.

(٥) معجم الأدباء ١٢/ ١١١، ١١٢.

(٦) المصدر السابق نفس الصحيفة.

(٧) شرح ديوان المتنبي ٢٣ أدب الورقة ١-٤.

يتعرض لشرح ما غمض من مفـردات بعض الأبيات، ومعناها تبعًا لخطته، بيد أنه يورد معظم القصائد بلا شرح ولا بيان، فـمن الأول قوله: «قال عندما أمره سيف الدولة بإجازة أبيات على قافية الهمزة: الأول من الكامل والقافية متدارك:

عَذْلُ العواذلِ حولَ قَلْبِي التَّائِه   وَهَوَى الأَحبَّةِ مِنْهُ فِي سَوْدَائِه

العـذل: أحر العـتاب وأمضـه، يقال: عـذْلٌ وعذَلٌ، ويقـال: عذلْتُ فـلانا فاعـتذل، أى لام نفسه ورجـع، ومعتذلات سـهيل: أيام شديدات الحـر تجىء قبل طلوعه أو بعده، ومعتدلات بالدال غير معجمة، أى إنهن قد استوين فى شدة الحر، وسوداء القلب وسويداؤه وأسوده وسواده واحد، وهى علقة من دم أسود تكون فيه، يقول: هوى الأحبـة فى داخل قلبه، وعذل العواذل من خارجـه، فلا يرعوى، ولا يعبأ به لعظم قدر الهوى فى قلبه[1]، وأحيانا يبين المعنى فقط، فعند البيت:

تُفِيد الجُـــــودَ منكَ فَتحتذِيه   وتَعجز عن خَلائِقكَ العِذابِ

يقول ابن جنى فى شرحه: أى تتعلم منـك الجود فتأتى بمثله ولكن ليس لها أخلاقك العذبة، وهذا مـحال فى السحاب[2]، وأما ما أرسله غفـلا فكثير، ومنه قصيـدة المتنبى التى قالها عند جلوس سيف الدولة (لرسـول لملك الروم)، وحضر أبو الطيب، فوجد زحمـة، فثقل عليه الدخول، واستبـطأه سيف الدولة فى صفر سنة ٣٤٣هـ، ومطلعها:

ظُـلْمٌ لِذَا اليَوْمِ وَصْـــفٌ قَبلَ رُؤْيته   أيصدقُ الوَصْفُ حتَّى يصدقَ النَّظَرُ

ويمدح المتنبى سيف الدولة حين عزم على الرحيل إلى أنطاكية بقصيدة مطلعها:

رُوَيْدَكَ أَيُّهَا الملكُ الجَلِيلُ   تأَبى وعـــده مما تُنِيــــلُ

يتتابع فـيها ستة عشر بيـتًا بلا شرح[3]، وغير ذلك مما يورده بلا بيان[4]، وكمـا ذكرنا سـابقًا - قد نقـده بعض العلماء فى هذا الديوان وفى ديـوانه السابق (الفسر)، وقد أفضنا فى بيان ذلك فى الاتجاه الأدبى.

(١) الوجه الثانى من الورقة ٤.   (٢) الورقة ٢١.

(٣) الورقة ٢٠٢.   (٤) الوجه الثانى من الورقة ٢٠٢ والأول من الورقة ٢٠٣.

١١- **التلقين فى النحو**: جاء هذا الكتاب بهذا الاسم فى الوفيات[١]، والفهرست[٢]، وتاريخ بغداد[٣]، ويظهر أنه قد فقد ولم يذكره بروكلمان.

١٢- **التمام فى تفسير أشعار هذيل**: ذكره ابن جنى فى إجازته، يقول: وكتابى التمام فى تفسير أشعار هذيل مما أغفله أبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى رحمه الله، وحجمه خمسمائة ورقة، بل يزيد على ذلك[٤]، وقد ورد اسمه فى كتبه، ففى المحتسب سماه التمام[٥]، وفى الخصائص سماه (كتابنا فى شعر هذيل)[٦]، و(كتابى فى ديوان هذيل)[٧]، وقد نبه الدكتور طلس على وجوده حين عثر على نسخة منه فى خزانة كتب الأوقاف ببغداد، يقول: «على أننى عثرت على نسخة فريدة منه فى خزانة دار كتب الأوقاف ببغداد، ونقلت عنها نسخة لنفسى، وهو من النفائس المفيدة، والنسخة قديمة متقنة كتبها الشيخ أسعد بن المعالى بن إبراهيم بن عبد الله الكاتب سنة ٥٨٠»[٨]، وقد طبع هذا الكتاب ببغداد سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م، بناء على اكتشاف هذه النسخة، وأكد محققوه أنهم وجدوا أمارات قوية تثبت نسبة الكتاب إلى صاحبه، يقولون: إن «اسم ابن جنى لم يذكر على المخطوطة، ولكن ما إن بدأنا بقراءتها حتى أحسسنا بأسلوب ابن جنى، والإشارة إلى عدد من كتبه، ككتاب المعرب، وشرح تصريف المازنى وغيرهما»[٩]، وقد اطلعت على الكتاب فوجدته مطابقًا لما عرف عن ابن جنى أسلوبًا، ومادة علمية، نحوية وصرفية واشتقاقية ولغوية، وبذلك يعد الكتاب موجودًا لا مفقودًا كما ذهب إليه بروكلمان[١٠] والشيخ النجار[١١].

وهذيل قبيلة عربية معرقة فى الشعر، وقد جمعت أشعارها حين بدأت هذه المرحلة من تاريخ الأدب العربى، على يد رواة اللغة، أمثال حماد والأصمعى

---

(١) ٢/ ٤١١. (٢) ١٢٨.

(٣) ١١/ ٣١١. (٤) معجم الأدباء ١٢/ ١٠٩.

(٥) ٢/ ١٣٥. (٦) ١/ ١٢٤. (٧) ١/ ١٥١.

(٨) مجلة المجمع العلمى ٣٢/ ٣٤٥. (٩) مقدمة المحققين، ص٧.

(١٠) لم يذكره عندما تعرض لشرح السكرى لديوان هذيل ١/ ٨٣.

(١١) مقدمة الخصائص ١/ ٦١.

والمفضل الضبى، وأبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى، فجمع شعرهم فى ديوان خاص وقد شرح هذا الديوان السكرى[1]، وقد طبع شعر الهذليين فى «أوربا» ومصر فطبع فى أوربا ما يأتى:

أ - مجموعة أشعار الهذليين وهى جزءان:

١- الجزء الأول: ديوان أبى ذؤيب، نشره لأول مرة يوسف هل الألمانى، هانوفر، خزانة الكتب الشرقية لهاينس لافير سنة ١٩٢٦م، والنسخة بدار الكتب المصرية رقم ١١٣٣٠ (ز)، وهو برواية السكرى، إذ يقول فى أوله: قال أبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى: أخبرنا الفضل الرياشى العباس بن الفرج عن الأصمعى... إلخ ويبتدئ بقصيدة أبى ذؤيب التى رثى بها أولاده الخمسة حين ماتوا فى عام واحد ومطلعها:

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ... والدَّهرُ لَيسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

ولا يوجد به شرح للأبيات.

٢- الجزء الثانى: أشعار ساعدة بن جؤية، وأبى خراش، والمتنخل، وأسامة ابن الحارث، وناشرها يوسف هل - أيضًا - طبع بمدينة ليبزج سنة ١٩٣٣م، والنسخة بدار الكتب رقم ١١٣٣٠ (ز)، وقد شرح تلك الأشعار يوسف هل ناشرها شرحًا ضيقًا، وينقل أحيانًا عن أبى سعيد السكرى[٢].

ب- شرح أشعار الهذليين، صنعة أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى، رواية أبى الحسن على بن عيسى بن على النحوى، عن أبى بكر أحمد بن محمد الحلوانى، عنه، وقد نشر هذا الشرح وحققه، وقدم له بالإنجليزية المستشرق جود فرى كوزكارتن Johan Godfrey leuis kosegorten، وطبعه بلندن سنة ١٨٥٤م، ورقمه بدار الكتب ١٦٥ أدب، ويشتمل على شعر تسعة وعشرين شاعراً بشرح السكرى كما يفهم من عنوان الكتاب من أنه صنعه أبى سعيد، وقد صرح الناشر

---

(١) مقدمة شرح أشعار الهذليين بتحقيق الأستاذ فراج ص٣، ومقدمة المحققين للتمام ص٣.

(٢) انظر صحائف ٣، ٣٧، ٤٩، ٨١.

بذلك فى المقدمة الإنجليزية، إذ كتب فيها بالعربية: «إن الكتاب من شرح السكرى، ورواية أبى الحسن النحوى المذكور، عن أبى بكر الحلوانى عن السكرى»[١].

جـ) أشعار الهذليين ما بقى منها فى النسخة اللغدونية (الليدينية) غير مطبوع، أخرجها المستشرق الألمانى فلهاوزن J. Wellhausen، سنة ١٨٨٤م طبع برلين، ورقمها بدار الكتب ١٧٨١ أدب، وتضم هذه المجموعة أشعار سبعة وعشرين من الهذليين، وذكر الوقائع، والمناسبات التى قيلت فيها، ولا شرح لها فى هذا المطبوع، بيد أن هذه الأشعار من رواية أبى سعيد السكرى، ومن ذلك مثلا: حدثنا الحلوانى عن أبى سعيد ... إلخ[٢].

أما مصر فقد طبع فيها الآتى:

أ - ديوان الهذليين، طبعة دار الكتب، ويشتمل على ثلاثة أقسام[٣] تضم شعرًا مشروحًا لمعظم الشعراء الهذليين، والشرح الذى تضمنه هذا الديوان ينقل - فيما ينقل - عن أبى سعيد السكرى وأبى سعيد الأصمعى، وهو يكتفى بذكر «قال أبو سعيد» دون أن ينبه على شخصيته هل هو السكرى أو الأصمعى؟ لأن كلا منهما يكنى بأبى سعيد، ويمكن أن نعرف من هو إذا لاحظنا من يروى عنهم أبو سعيد المذكور، «فهو أبو سعيد السكرى فى قوله: قال أبو سعيد: وحدثنى الرياشى قال: قال الأصمعى ...[٤]، وهو الأصمعى فى مثل: وأنشدنا أبو سعيد» قال: وأنشدنا أبو عمرو بن العلاء ... إلخ[٥].

ب- شرح أشعار الهذليين، صنعة أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى، رواية أبى الحسن على بن عيسى بن على النحوى، عن أبى بكر أحمد بن محمد

---

(١) ص٧. (٢) انظر: صحائف ٥٠، ٥٣، ٦٥، ٦٨، ٦٩.

(٣) طبع الأول سنة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م وقدم له الأستاذ أحمد الزين والثانى سنة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م، والثالث سنة ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م، وقدم لهما الأستاذ محمود أبو الوفا.

(٤) ديوان الهذليين ٢/ ٢٣٦.

(٥) نفسه ١/ ٢١٥.

الحلوانى، عن السكرى، طبع هذا الشرح بمطبعة المدنى، وحققه الأستاذ عبد الستار فراج، وراجعه الأستاذ محمود محمد شاكر.

وما لم يشرحه السكرى من هذه الأشعار اهتم ابن جنى به، وشرحه، ونبه على أنه مما أغفله أبو سعيد السكرى، وهو ما تضمنه كتابه التمام «وليس فى كتاب ابن جنى إضافة شعر جديد لهذليين فاتوا السكرى... وأكثر ما فيه متصل بما فى البقية من شعر»[1]، وأكثر ما ورد فى كتاب التمام - موجود أيضًا - فى ديوان الهذليين[2]، ويمكن معرفة ذلك بمراجعة الأبيات الشعرية الواردة فى صحائف من الكتابين على وجه المقارنة[3].

١٣- **التهذيب**: هو تهذيب تذكرة أبى على كما فى الوفيات[4].

١٤- **الخاطريات**: ذكره ابن جنى فى الإجازة باسم «كتاب ما أحضرنيه الخاطر من المسائل المنثورة مما أمللته، أو حصل فى آخر تعاليقى عن نفسى، وغير ذلك مما هذه حاله وصورته»[5]، وذكره ابن خلكان[6]، وحاجى خليفة[7]، وينقل البغدادى فى الخزانة عنه[8]، وكذلك السيوطى[9]، وهو كتاب فى اللغة والنحو كما يفهم من نقول السيوطى[10].

١٥- **الخصائص**: هو الكتاب الذى ضمنه ابن جنى معظم مباحثه التى تكشف عن أسرار العربية ومذاهبها، وهو عمدة الباحث، وفيه برزت شخصيته، حيث قدم ما أربى به على المتقدمين، وأعجز المتأخرين، وللكتاب نسخ مخطوطة كثيرة فى مكتبات العالم[11]، وقد طبع الجزء الأول منه فى مصر سنة ١٩١٣م،

---

(١) شرح أشعار الهذليين (فراج)، ص٧. (٢) ط دار الكتب.

(٣) انظر مثلا التمام، ص١٣، ١٤، ١٧، ١٩، ٣٥، ٤٧ وديوان الهذليين ٣/٧٦، ٧٨، ٨٠، ١٤١ على الترتيب. (٤) ٢/٤١٢. (٥) المعجم ١٢/١١١.

(٦) الوفيات ٢/٤١٢. (٧) الكشف ١/٦٩٩. (٨) ٢/٤٧، ٤/١٠.

(٩) الأشباه والنظائر ١/١٤٤، ٢/١٣٩، ٢٤٠ وغيرها.

(١٠) الأشباه والنظائر الصحائف السابقة.

(١١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢/٢٤٦.

بمطبعة الهلال، ثم طبع كله سنة ١٩٥٢م وما بعدها بذار الكتب المصرية، وبتحقيق الشيخ العالم المدقق محمد على النجار.

ويظهر أن ابن جنى كان يرسى قواعده فى حياة أستاذه، كما يتبين من عرضه للمسائل عليه، فمثلاً يقول عن إحدى المسائل (فى المطرد والشاذ): وكنت عرضت هذا الموضع على أبى علىّ -رحمه الله- فرضيه، وأحسن تقبله[1]، ويقول فى مسألة (النقيذ): وقلت مرة لأبى علىّ -رحمه الله-: قد حضرنى شىء فى علة الإتباع فى (نِقِيذ) وإن عرى أن تكون عينه حلقية.. فرضيه، وتقبله، ثم رأيته وقد أثبته فيما بعد بخطه فى تذكرته[2]، بيد أنه لم يدونه التدوين النهائى الذى أخرجه عليه إلا بعد وفاة أستاذه، لأنه كما يتبين من مقدمته رفعه إلى بهاء الدولة بن بويه، وقد تولى الحكم منذ سنة ٣٧٩هـ، وكانت وفاة أبى على سنة ٣٧٧هـ، ثم نراه يترحم على أستاذه كثيرا فيه، ومن ذلك ما قاله فى باب نقض الأصول وإنشاء أصول غيرها منها: «رأيت أبا على رحمه الله معتمداً هذا الفصل من العربية»[3]، وفى موضع آخر يقول: «وقال لنا أبو على - رحمه الله - إلخ»[4]، وغير ذلك كثير، كما ألفه متأخراً عن سر الصناعة ويدل لذلك ما قاله فى المحتسب وعبارته: «وقد شرحنا هذا فى كتابنا سر الصناعة وبأخرة فى كتابنا الخصائص وبعده فى كتاب الخطيب»[5]، وإذا كنا نلاحظ أنه يشير فى كل من الكتابين إلى الآخر[6]، فإن هذا يدل على أن ابن جنى كان دائم التنقيح لكتبه، ولعله - كما قال أستاذنا النجار - ألف الكتابين ووضع نظامهما أولا فى وقت مبكر، ثم كان يزيد فيهما، فقد يلحق بأحد الكتابين شيئًا ثم يحيل فى الآخر عليه»[7]، وهذا للدواعى التى تقتضيه كما ذكر فى المحتسب[5]، وذكر صاحب كشف الظنون أن أحمد بن محمد الأشبيلى قد اختصر هذا الكتاب[8]، ولموفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادى حاشية عليه[9]، ولهذا الكتاب طريقة

---

(١) الخصائص ١/ ١٢٣.　　(٢) نفسه ١/ ٣٦٥، ٣٦٦.

(٣) نفسه ٣/ ٢٢٧.　　(٤) نفسه ٣/ ٣١١.　　(٥) المحتسب ٢/ ١٦٢.

(٦) انظر مثلا الخصائص ٢/ ٢٩٧، والتعليق ١/ ٣٧ من سر الصناعة.

(٧) مقدمة الخصائص ١/ ٦٩.　　(٨) ١/ ٧٠٦، والبغية ١/ ٣٥٩، توفى سن ٦٥١هـ.

(٩) كشف الظنون فى الموطن السابق، وقد توفى سنة ٦٢٩هـ، البغية ٢/ ١٠٦.

مبتكرة فى عرض مسائل العلم ذكرناها فى منهجه اللغوى والنحوى، وقد انتفع به كثير من العلماء الذين نقلوا عنه كالسيوطى والبغدادى صاحب الخزانة وغيرهما.

١٦- **الخطيب**: لم يرد فى الإجارة، ويقول الشيخ النجار: يبدو أنه جعله للخطب المنبرية وغيرها[١]، ولكننى عثرت على نص فى المحتسب الذى ألفه متأخرا يدل صراحة على أن هذا الكتاب هو (بعينه اسم) لتفسير المذكر والمؤنث ليعقوب، يقول - عند احتجاجه لقراءة قوله تعالى: ﴿رَكُوبُهُمْ ... (٧٢)﴾ [يس]: «ركوبتهم» -: وأما ركوبتهم فهى الركوبة كَالقَتوبة والجَزوزة والحَلوبة أى ما يُقتب ويُجزّ ويحلب، وقد أشبعنا هذا الموضع فى كتابنا المعروف بالخطيب، وهو شرح كتاب المذكر والمؤنث، ليعقوب بن السكيت[٢]، وتفسير المذكر والمؤنث هذا ذكره ابن جنى فى إجازته فقال: «وما بدأت بعمله من كتاب تفسير المذكر والمؤنث ليعقوب أيضًا أعان الله على إتمامه»[٣]، وهذا النص يفهمنا أنه كان لا يزال يعمل فى تأليفه، ولم يكن قد تم بعد، فلما تم سماه الخطيب، وعلى هذا فالخطيب كتاب لغة لا كتاب خطابة منبرية، وهذا الكتاب شرح لكتاب يعقوب بن السكيت فى المذكر والمؤنث وعلى كل حال فإن كتاب الخطيب لم يصل إلى أيدينا.

١٧- **الدمشقيات**: أشار إليها السيوطى فى «الأشباه والنظائر» قال: قال ابن النحاس فى التعليقة: حكى ابن جنى فى كتاب له يسمى (الدمشقيات) - غير الدمشقيات المشهورة له بين الناس قولا - عن الأخفش أن فعل الشرط وفعل الجواب يتجازمان، كما قيل عن مذهب الكوفيين فى المبتدأ والخبر»[٤]، ومعنى هذا أن «له كتابين بهذا الاسم»[٥]، ويتبين من المسألة التى نقلها ابن النحاس منه أن الكتاب يتعلق باللغة والنحو.

١٨- **ذو القد**: لم يرد فى الإجارة، وقد ذكره ياقوت[٦]، والبغدادى[٧]، وقد استعملت (ذو) بمعنى صاحب كما فى قول ياقوت: «كتاب ذى القد»، واسم

---

(١) مقدمة الخصائص ١/٦٦.
(٢) المحتسب ٢/٢١٧.
(٣) معجم الأدباء ١٢/ ١١٠.
(٤) ١/٢٥٣.
(٥) مجلة المجمع العلمى ج٣٢، ص٣٤٦، ٣٤٧.
(٦) معجم الأدباء ١٢/١١٣.
(٧) خزانة الأدب، ط. الأولى ٢/١٢٩.

إشارة كما فى قول البغدادى: وهذا البيت نسبه ابن جنى فى كتاب ذا القد لبعض العرب[1]، واستعملت أيضًا دون (ذا أو ذو) كما فى قول الشيخ خالد الأزهرى: «وحُلُكَّى -بالحاء المهملة- لدويّبة، قال أبو على الفارسى: هى مقصورة، حكاه عنه ابن جنى فى القد»[2]، ومعنى هذا أنه كتاب لغة ونحو، ولكنه لم يصل إلى أيدينا.

١٩- سرُّ السرور: ذكره ياقوت[3] ويظهر أنه كتاب لغة وأدب، فقد نقل عنه ياقوت ثلاثة أبيات لابن جنى فى بكاء عهد الشباب، وقد ذكرناها[4].

٢٠- سر الصناعة: منه مخطوطات كثيرة فى مكتبات العالم[5]، وللإمام أحمد بن محمد الأشبيلى حاشية عليه[6]، وهو الكتاب الثانى الذى يعد فخرًا لابن جنى، فقد ضمنه البحوث الصوتية القيمة، والتى لا يزال الباحثون يغترفون من مناهلها، وقد طبع منه الجزء الأول سنة ١٩٥٤م، بتحقيق بعض الأساتذة المصريين ونأمل أن يخرج الكتاب كله بتحقيقى الذى أعمل فيه منذ زمن بعيد وسيخرج إلى النور إن شاء الله تعالى، حتى ينتفع به بنو العربية والمعنيون بها، والكتاب يكون وحدة علمية متماسكة لإبراز الظواهر الصوتية للحروف، وقد أبنا ذلك فى موضعه من المنهج وقضية الإبدال.

٢١- شرح الإيضاح لأبى على الفارسى: يذكر بروكلمان أن منه نسخة فى مكتبة شهيد على باستانبول برقم ٩٣٠[7]، وكتاب الإيضاح ألفه أبو على لعضد الدولة ابن بويه[8]، وهو من تراثه المشهور بين علماء النحو.

٢٢- شرح الفصيح: ذكره ياقوت[9]، وطاش كبرى[10]، وحاجى خليفة قال: الفصيح من شروحه شرح ابن جنى[11]، والفصيح كتاب ألفه الإمام أبو

---

(١) المصدر السابق نفس الصحيفة.
(٢) التصريح مبحث ألف التانيث ٢/ ٢٨٩. ط. الأزهرية.
(٣) معجم الأدباء ١٢/ ٩١، ٩٢.
(٤) انظر ص ١٧٤ من كتابنا.
(٥) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢/ ٢٤٥، ٢٤٦.
(٦) البغية ١/ ٣٥٩، وكشف الظنون ٢/ ٩٨٨.
(٧) تاريخ الأدب العربى ٢/ ١٩١.
(٨) نزهة الألباء ٣٨٩ وغيرها.
(٩) معجم الأدباء ١٢/ ١١٣.
(١٠) مفتاح السعادة ١/ ١٣٥.
(١١) كشف الظنون، ط الأولى، ٢/ ١٩٧.

العباس أحمد بن يحيى الشيبانى إمام الكوفيين، وعليه شروح كثيرة، منها شرح عالمنا ابن جنى ولم يصل إلى أيدينا هذا الشرح.

٢٣- شرح مستغلق أبيات الحماسة واشتقاق أسماء شعرائها: هذا الاسم أورده ابن جنى فى إجازته[١]، وقال إن «مقداره خمسمائة ورقة»، ولعله جعله بعد ذلك كتابين على ما نراه الآن بين أيدينا، فأحدهما هو «التنبيه فى شرح مشكل أبيات الحماسة»، وثانيهما هو «المبهج فى اشتقاق أسماء شعرائها»، وقد أشار ابن جنى فى المحتسب إلى الكتاب الأول فقال بعد التعليق على قول الشاعر:

فَلَقَدْ تَرَكْتَ صَبِيَّةً مَرْحُومَةً لَمْ تَدْرِ مَا جَزَعٌ عَلَيْكَ فَتَجْزَعُ

وقد ذكرنا هذا، ونحوه، فى كتابنا الموسوم «بالتنبيه»، وهو تفسير مشكل أبيات الحماسة[٢]، كما أشار إلى الثانى فى الخصائص، فقال فى (باب فى تعليق الأعلام على المعانى دون الأعيان): «وقد كنت شرحت حاله فى صدر تفسيرى أسماء شعراء الحماسة بما فيه مقنع»[٣]، وديوان الحماسة الذى جمعه أبو تمام الطائى يعد درة نفيسة، وهو من عيون الشعر، ولا غرو فإن جامعه من أكبر شعراء المعانى على ما هو معروف عنه، والكتاب الأول شرح لهذا الديوان، يبين غامضه ومشكله، من لغة وإعراب وصرف وعروض وغيرها مما يتعلق باللغة والنحو، وقد نبه على ذلك فى مقدمته التى أوضحناها فى حديثنا عن أدبه، ومن الكتاب نسخ كثيرة مخطوطة فى دار الكتب المصرية[٤]، ومكتبة الأزهر[٥]، وفى بعض مكتبات العالم الأخرى[٦]، واسمه المشار إليه كما فى نسخة دار الكتب المصرية[٤]، وفى مكتبة الأزهر نسخة ناقصة[٧]، تختلف فى اسمها عما سبق، ففى آخر صحيفة منها أن الاسم هو (إعراب أبيات ما استصعب من الحماسة)[٨]، والكتاب بالاسم

---

(١) معجم الأدباء ١٢/ ١١٠. (٢) ١/ ١٩٣. (٣) ٢/ ١٩٧.

(٤) ٤٤ أدب ونسخ أخرى مصورة.

(٥) برقم ٥٣٠٦ بملحق فهرس الأدب و٧٧٨ أدب.

(٦) بروكلمان ١/ ٧٩. (٧) رقم ٧٧٨.

(٨) الوجه الأول من الورقة ١٤٢ وانظر طبقات ابن قاضى شهبة ٢/ ١٢٥.

الأخير استشكل على الدكتور طلس فقال: «وينقل شارح الحماسة البغدادى كثيراً عن كتاب يسميه إعراب الحماسة، ولا أدرى ما هو ومن مؤلفه؟»[1]، وقد طالعت النسختين مع اختلاف الأسماء فوجدتهما صورة واحدة لكتاب واحد، فلا داعى إلى مثل هذا الاستشكال، لأنه نشأ عن عدم اطلاع الدكتور طلس على الكتاب بالاسم الأخير، وقد ذكر بروكلمان[2]، وتابعه الدكتور طلس[3]، والزركلى[4] أنه مطبوع فى القاهرة سنة ١٩٢٧م، وقد أعييت بحثًا عنه فلم أدرك ذلك، ولم أجد إلا فقرات قليلة ينقلها المرزوقى فى شرحه للحماسة ويعترض عليها، وقد بينت ذلك فى الحديث عن أدبه. ولأبى نصر منصور بن مسلم بن على بن أبى الخرجين الحلبى النحوى المعروف بابن الدميك استدراك على ابن جنى فى شرحه للحماسة[5].

هذا، والكتاب الثانى وهو «المبهج» خصه ابن جنى بتفسير أسماء شعراء الحماسة، ويوجد منه نسخ خطية فى بعض مكتبات العالم[2]، وقد طبع فى دمشق عام ١٣٤٨هـ، وعنيت بنشره مكتبة القدسى، ويتناول ابن جنى فى هذا الكتاب شرح أسماء شعراء الحماسة، ببيان المنقول منها والمرتجل، وأصل اشتقاقها، مع ربطه بين المشتق والمشتق منه فى المعنى على طريقة الاشتقاق الكبير، وقد قدم أمام هذا الشرح بمقدمة ضمنها أقسام الأعلام من نواح متعددة، وبين منهجه الذى اتبعه فى كتابه بقوله: «هذا تفسير أسماء شعراء الحماسة وينبغى أن تعلم أن فى ذلك علما كثيرا، وتدربا نافعًا، وستراه بإذن الله، ويجب أن يقدم أمام ذلك ذكر أحوال هذه الأسماء الأعلام وكيف طريقها وعلى كم وجها نجدها، وإلى كم ضربا قسمتها[6]، وفى المقدمة ذكر ابن جنى أن الأعلام تنقسم إلى مفرد وغير مفرد، وأن لكل أنواعا، فالأول نوعان: منقول ومرتجل، والثانى ثلاثة أنواع: مضاف ومركب

---

(١) مجلة المجمع العلمى ٣٢/ ٣٥٢.
(٢) تاريخ الأدب العربى ١/ ٧٩.
(٣) مجلة المجمع العلمى ٣٢/ ٣٥١.
(٤) الأعلام ١٠/ ١٤١.
(٥) البغية ٢/ ٣٠٣ ومعجم الأدباء ١٩/ ١٩٤، وإنباه الرواة ٣/ ٣٢٦، ت ٥١٠هـ.
(٦) المبهج، ص٦.

وجملـة، وفصل القول فـى ذلك، ثم بين الحاجـة إلى الأعلام، وأنها لـضرب من الاختصار وتـنكب الإكثار، فأنت عند التعبـير عن جعفر مثـلا كنت تحتاج إلى أن تقول: الطويل البـزاز الذى نزل مكان كذا وكذا، ويدعى ولده كذا، ومـبلغ تجارته كذا ،ويلبس من الثياب كذا، ويتعاطى من كذا وكذا إلى ما يطول ذكره(١).

وبعد هذه المقدمة بدأ يذكر أسماء الشعراء، شارحًا لها على جهة الاشتقاق، ومبينا نوعها: مرتجلا أو منقولا، ونضرب مثلا لذلك: يقول عن الفند الزمّانى شهْل ابن شيبان ما يأتى:

«سمى الرجل الفند لعظم خلقته، تشبيهًا بفند الجبل وهو قطعة منه، واسمه شهل، فهو لقب له وجمع الفند أفناد، وأما زَمَّان فيحتمل أن يكون من باب زممت الناقة فـيكون فعلان من ذلك، ويحـتمل أن يكون فـعالا من باب الزمن، والأول أعلى عندنا، وهو قياس مذهب سيـبويه فيما فيه حرفان ثانيهـما مضعف وبعدهما الألف والنون، فقـياسه أن تكون الألف والنون زائدتين كـزمَّان وحسَّـان إذا جهل اشتقاقـه، فإن عرفته قطعت باليقين في بابه، وليس هذا كـما يكون قبل ألفه ثلاثة أحرف أصول مثل حمدان وعثمان فـهما زائدتان لا محالة، ومنه بنو رشدان قالها عليه الصـلاة والسلام، ولا يقولون للرجل شـهْل كهل، فقـد يجوز أن يكون هذا الاسم قد سمع فـى بعض الأحوال جاريا على المذكر، فنقل فـسمى به على تلك اللغة، أو تكون الهـاء حذفت منه لتـغير العلمـية التى ذكرت لك، وإذا كـانوا قد قالوا فى النكرة:

أَبلِغِ النُّعْمَـــانَ عَنِّى مَالِكًا ... أَنَّهُ قَدْ طَالَ حَبْسِى وَانْتِظَار

فحذفـوا الهاء من مالكة فحـذفها من العلم مثل شـهلة أجوز وأجدر، ولا أقول إن شـهلا من الأعلام المرتجلة، لأنهم قـد قالوا شهلة وشـهل هو شهلة ليس بينهمـا إلا الهاء، وفيـها من الاحتمـال ما وصفت لك، وليس فى العـرب شهل بالشين معجمة غـيره، وأما شيبان فمرتجل علما ولا أعـرفه جنسا، وهو فعلان من

(١) نفسه من ص٦-١٣.

شاب يشيب أو فيعلان من شاب يشوب، وقد ذكرته في أول أبيات الحماسة، ولا يجوز أن يكون فيعالا من لفظ شبانة، لأنه لو كان كذلك لكان مصروفًا وقد قال:

كَمَا عَلَتْ ذُهْلُ بْنُ شَيْبَانَا

فلم يصرفه»[1].

وهكذا يوضح ما يحتمله الاسم من أصول اشتقاقية لغوية ونحوية وصرفية ومعنوية، يرده إليها بما يؤكد الصلة بين الأصل والفرع في المادة اللغوية ومعناها الذي تدور حوله، ويجري على هذا النسق جميع الأعلام من شعراء الحماسة حتى يأتي إلى آخرها.

وقد جمع أبو إسحاق إبراهيم بن ملكون[2]، التنبيه والمبهج في كتاب واحد سماه (إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج) ويقول في مقدمته:

هذا كتاب جمعت فيه بين كتابي أبي الفتح عثمان بن جني اللذين كان وضعهما على حماسة أبي تمام حبيب بن أوس التيمي، أحد هذين الكتابين «المبهج» ضمنه تفسير ما أمكنه من أسماء شعراء الحماسة، وهو كتاب صغير الحجم عظيم القدر كثير النفع، وسمى الثاني «التنبيه» مُعظمه الكلام في مشكل إعراب أبيات بأعيانها، وإثارة ما غمض من قوانين المعربين فيها.. وهو كتاب عظيم القدر بالإضافة إلى الكتاب الأول.

وقد وضع لنفسه منهجًا معينًا في جمعهما عبر عنه بقوله: أقدم بين يدي قول أبي الفتح، فيما في البيت من إعراب وغيره، مما تضمنه كتاب «التنبيه» ما تضمنه «المبهج» من القول في اسم الشاعر إن كان ذكره هناك، أو ما ظهر لي فيه إن كان أغفله، واكتفيت بما يتقدم من قوله أو قولي في اسم الشاعر عن إعادته إذا تكرر، وجعلت لكل واحد من الكتابين علامة، فعلامة «المبهج» (ك)، وعلامة «التنبيه» (ق)، فإذا قلت: قال في ك: فالمبهج أعني، وإذا قلت قال في ق: فإلى التنبيه أرمي، وربما عقبت بعد كلام أبي الفتح، وأدرجت في خلاله ما يظهر لي

(١) المبهج ١٤، ١٥.

(٢) توفي سنة ٥٨٤، البغية ١/ ٤٣١.

من تتميم، أو تبيين، أو اعتراض عليه، أمـا قوله قال فى (ك) أو (ق) فكثير ينتشر فى أماكن متعـددة من الكتاب، عند شرحه لما نسب لأحد شعراء الحـماسة، وأما تعقيبه على كلام ابن جنى بما يظهر له فيتـمثل فى التتميم أو التبيين أو الاعتراض، ونحن نورد أمثلة لذلك.

فمن تتميمه ما قاله عند بيت حسيل بن سجيح الضبى:

وَلا يَحْمَدُ القومُ الكرامُ أخَاهمُ العتيدَ السِّلاحِ عَنْهُمُ أنْ يُمَارِسَا

قـال: قال فى ق: أراد فى ترك أن يمارس، فـحـذف حرف الجـر، فصـار تقديره: ترك أن يمارس، ثم حـذف المضاف، فصار: أن يمارسـا، قلت: يجوز فى (أن يمارس) غيـر ما قال، وهو أن يكون محـذوفا منه (لا)، والتقـدير: ألا يمارسا ويكون (أن يمارسا) بتقدير البدل من الأخ، أى ولا يحمد القوم الكرام ترك ممارسة أخيهم، ويجـوز أن تكون (لا) فى أول البيت زائدة، فإذا قدرتهـا زائدة لم يحتج إلى تقدير حـذفها من يمارس، وأحسب أبا على قـد خرّج البيت ووجّهـه على ما ذكرت، ويكون (أن يمارس) أيضًـا فى هذا الوجه الثانى بدلا من الأخ، كـما كان فى الوجه الأول والتـقدير: ويحمـد القوم الكرام ممارسة أخـيهم العتيـد السلاح، وأحسب أن أبا الفـتح إنما يذهب فيه إلى تقـدير حذف المضاف دون مـا ذكرته من تقدير زيادة (لا) فى أول البيت، أو حذفهـا من آخره، لأن حذف المضاف أكثر فى كلامهم من زيادة الحروف وحذفها.

ومن توضيحه ما ذكره تعقيبا على قول ابن جنى فى قول رويشد الطائى:

يَأيُّهَا الرَّاكِـبُ المزْجِـي مَطِيَّتَهُ سَائِلْ بَنِى أسَدٍ مَا هَذِهِ الصَّوْتُ

فقد قال: قال فى ق: أنث الصوت لأنه ذهب به إلى الاستغاثة، ومثله كثير، وإن كان تذكير المؤنث أحسن منه... إلخ، قلت: قول أبى الفتح: وإن كان تذكير المؤنث أحسن إنمـا كان أحسن وإن كـان كل واحد حمـلا على التأويل لأن تذكـير المؤنث رد فرع إلى أصل، إذ التذكير أصل التأنيث، وليس تأنيث المذكر كذلك.

ومن اعتراضه عليه ما ذكره معقبا على شرحه لقول جز بن ضرار:

أتَانِى فَلَمْ أُسْرَرْ بِهِ حِينَ جَاءَنِى حَدِيثٌ بِأعْـلَى القُنَّتَينِ عَجِيبُ

قال: قال فى ق: ومن إعمال الأول ونحوه بيتْ الكتاب:

كَفَانِى وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ المَالِ

قلت: ليس قوله: (كفَانى ولم أطلبْ قليلٌ من المال) من هذا الباب، لأنه لا تعلق للقليل بأطلب من جـهة المعنى، ألا ترى أن سيبـويه إنما أنشده كالمنتـقد له، والمنبه عليه، فقال: وأما قول امرئ القيس:

كَفَانِى وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ المَالِ

فإنما عقد بالجملة . . . وكأن ذكره إنما هو من باب ما يصلح به اللفظ[1].

والواقع أن ما أضافه ابن ملكون أو اعـترض به يمكن الإجابة عنه بشىء من التأمل اللهم إلا فى القليل النادر.

٢٤- **شرح المقصور والممدود عن يعقوب**: ذكره ابن جنى فى الإجازة[2]، كـما ورد ذكـره فى كتـبه كـالخصـائص[3]، وأورده ابن خلكان[4]، وابن قاضى شهبة[5]، ويبدو أنه فقد.

٢٥- **الشعر**: كتاب الشعر من مـؤلفات أبى على الفارسى، ويبدو أن لابن جنى تعليقات عليه، وتوجد نسخة منه فى مكتبة برلين رقمها ٦٤٦٥[6].

٢٦- **عقود الهمز وخواص أمثلة الفعل**: ذكره بروكلمان[7].

والكتاب مطبوع فى مصر سنة ١٩٢٣م مع رسـالتين أخريين هما: المقتضب، وما يحتـاج إليه الكاتب من مهموز ومـقصور وممدود، نشرها وجيه فـارس كيلانى وهو عبارة عن ثلاث صحائف تتعلق بطريقة كتابة الهمزة المصوغة فى أنفس الكلم، ويقسم ابن جنى أحـوالها إلى ثلاث: حال تكون فـيها مبتدأة، وحال تكون فـيها

(١) انظر كتاب المنهج عند الأبيات المذكورة وكتاب التنبيه لابن جنى لوحات ٥٩، ٣٣، ٨٨ على الترتيب.

(٢) معجم الأدباء ١٢/ ١١٠. (٣) الخصائص ٢/ ٤٨.

(٤) الوفيات ٢/ ٤١١. (٥) طبقات النحاة ٢/ ١٢٤.

(٦) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢/ ١٩٢، ومجلة المجمع العلمى ٣٢/ ٣٥٢.

(٧) نفسه ٢/ ٢٤٩.

حشــوا، وحال تكون طرفًــا، ثم يبين كيف تكتب ألفًــا أو واوًا أو ياء بحسب هذه المواقع[1]، ويبدو أنه كان لحسن خطه واشتغاله بالكتابة معنيا بمثل هذه الأمور.

٢٧- **علل التــثنية**: قــال بروكلمان: إنه مــوجود فى ليــدن برقم ١٤٥[2]، ويبدو أنه نحوى المادة كما نرى من اسمه.

٢٨- **الفائق**: لم يرد فى الإجازة لكن ذكره ياقوت[3] وابن قاضى شهبة مع تحريف[4].

٢٩- **الفرق**: ذكره ياقوت[5].

٣٠- **الفصل بين الكلام الخــاص والكلام العام**: ذكره ياقوت[6] وقد أورده ابن النديم بصــورتين إحداهمــا كالسابقــة والثانيــة باسم الفرق بين الــكلام الخاص والعام[7]، وهما - على ما يبدو - اسم لكتاب واحد.

٣١- **كتاب الأراجيز**: ذكره ياقوت[8] ويبدو أنه مفقود.

٣٢- **كتــاب الزجر**: أثبت له الشيخ النجار هذا الكتــاب بناء على عبارة له فى (باب فى هذه اللغة أفى وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط)، وهى «وقد كانت حضرتنى وقتا فيه نشطة فكتبت تفسير كثير من هذه الحروف فى كتاب ثابت فى الزجر»[9]، وبرجوعى إلى النص المذكور فى الخصائص وجدته قد ضبط كلمتى (كتــاب - ثابت) بالجر مع التنوين على أن (ثابت) صفــة لـ (كتاب) ولكن تبين لى شىء جديد عندمــا اطلعت على نص آخر ورد فى الخصائص أيــضًا بشأن هذا الكتاب فى (باب فى نقض الأصول) هو «وقد كنت عــملت كتاب الزجر عن

---

(١) ثلاث رسائل مطبوعة، ص ٥٠-٥٢.
(٢) تاريخ الأدب العربى ٢/ ٢٤٨.
(٣) معجم الأدباء ١٢/ ١١٣.
(٤) الطبقات ٢/ ١٢٥، وذكره باسم العايق.
(٥) ياقوت السابق.
(٦) نفسه ونفس الصحيفة.
(٧) الفهرست ط الرحمانية ١٢٨ وانظر طبقات ابن قاضى شهبة ٢/ ١٢٥، مع بعض تحريف.
(٨) معجم الأدباء ١٢/ ١١٣.
(٩) مقدمة الخصائص ١/ ٦٨ والنص بالخصائص ٢/ ٤٠.

ثابت بن محمد، وشرحت أحوال تصريف ألفاظه، واشتقاقها، فجاء منه شيء صالح وطريف[1]، فاستنبطت من هذا النص الثانى أن كلمة (ثابت) فى النص الأول ليست صفة لـ (كتاب)، وإنما هى مضاف إليه لأن (ثابت) ليس صفة بل اسم شخص هو ثابت بن محمد الذى ورد فى النص الثانى، وعلى هذا فإما أن يكون ابن جنى صاحب الكتاب، وقد روى الألفاظ الواردة فيه عن ثابت بن محمد هذا أو أن كتاب الزجر ألفه ثابت بن محمد وقد شرحه ابن جنى فقط[2]، وهذا جائز مقبول وعلى كلا الاحتمالين فلم يقع الكتاب بأيدينا لأنه من مؤلفاته المفقودة.

٣٣- **اللمع فى العربية**: ورد فى كشف الظنون أن ابن جنى «جمعه من كلام شيخه أبى على الفارسى»[3]، ولما راجعت كتاب اللمع لابن جنى، وكتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وجدت بينهما تقاربا كبيرا حتى فى ترتيب الأبواب، فكل منهما يبدأ بالكلام وما يتألف منه، وأقسامه الثلاثة الاسم والفعل والحرف[4]، ثم يذكر كل منهما الحديث عن المعرب والمبنى - من أسماء وأفعال - باب المبتدأ والخبر - باب الفاعل - باب الفعل المبنى للمفعول - وابن جنى يقول: باب المفعول الذى جعل الفعل حديثًا عنه، وهكذا يتابع أستاذه إلى آخر باب الإمالة، فيختم ابن جنى كتابه بها على حين يذكر الفارسى بعد الإمالة باب الإدغام[5]، والواقع أن المقارنة الدقيقة تثبت أن كلا منهما متقارب فى هذين الكتابين - بعد تقارب النظام فيهما - تقاربًا يبلغ مرتبة الاتحاد، ولا غرو فالتلميذ يتأثر بأستاذه، والكتابان صورتان منظمتان للنحو ويمثلان تطوراً هاما فى تاريخ

---

(١) الخصائص ٣/ ٢٣١.

(٢) يدل لذلك تفسير الشيخ النجار لكلمة (عملت) فى نص ابن جنى بقوله: (شرحت) كما فسره ابن جنى بالتعليق. انظر التعليق ٣/ ٢٣١ ولعل مما يؤيده ما ورد فى الفهرست. ص١٠٣، ١٠٤، عن عالم لغوى كوفى بهذا الاسم (ثابت بن محمد) لقى فصحاء الأعراب ومن مؤلفاته (كتاب الزجر).

(٣) ٢/ ١٥٦٢.

(٤) الإيضاح ص٣، واللمع الورقة الأولى.

(٥) قارن الإيضاح صحائف، ٣، ٤، ١٤، ٢٤، ٣٣، ٤٨، ١٦٧ وما بين هذه الصحائف باللمع صحائف ١-٧، ٩، ١٣، وما بينها.

التأليف (فهما قائمان على حسن التبويب والعرض ووضع القواعد الواضحة مع الملاءمة للتعلم، ولا عجب فى ذلك فهما مدرسان بارعان - كما عرفنا - يضعان ما يلائم الطالب الذى يريد تحصيل العلم واستيعابه، أضف إلى ذلك النظرة القياسية التى سلكاها فى ضبط القواعد، وقد وضع الأستاذ القوانين العامة، ولذا يقول فى إيضاحه فى تعريف النحو: النحو علم بالمقاييس المستنبطة من كلام العرب[1]، ولم تعرف كتب تنتظم القواعد النحوية بمثل هذه الصورة الرائعة غير كتب الأستاذ الفارسى وتلميذه ابن جنى، وهما مَنْ هما فى التبحر فى علم العربية، وفهم أسرارها، وتحتاج هذه الكتب إلى دراسة واعية لفهم سلوك هذين العبقريين، وكيف أصّلا النحو بما لم يعهد عن السابقين الذين كانوا يسوقون النحو فى صورة نصوص واردة عن العرب لا تعرف التحليل أو النقد أو التنسيق، وكأنى بهذين العالمين قد وضعا للغة قواعد احتذاها من أتى بعدهما، ولم يزيدوا عليها جديدا إلى الآن.

وكتاب اللمع توجد منه نسخ خطية كثيرة عندنا وفى مكتبات العالم[2]، وقد قرأت نسختين بدار الكتب إحداهما برقم ٥٣٥١ هـ، وحجمها أربع وعشرون ورقة، وقيل: إن هذه النسخة نقلت من نسخة قوبلت على أخرى بخط المؤلف عثمان بن جنى - وليس بأولها مقدمة، ويبدو أنها تآكلت مع ورقة أخرى مفقودة فأول كلمة فى المخطوط هى (   ) ابن جنى النحوى - رحمه الله تعالى - قال: الكلام على ثلاثة أضرب... إلخ، والثانية (ميكروفيلم) برقم ١٧١٩ نحو مصورة من نسخة خطية كتبت سنة ٦٨٠هـ وأولها: بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين، قال أبو الفتح عثمان بن جنى رحمه الله الكلام كله ثلاثة أضرب .. إلخ.. وهذه النسخة الثانية تدل على ما فقد من النسخة الأولى، ويبدو أنه بضع كلمات مع خلاف يسير فيها.

وعلى اللمع لابن جنى شروح كثيرة، منها شرح تلميذه أبى القاسم الثمانينى المتوفى ٤٤٢هـ، وقد بدأه بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم اعلم أن

---

(١) الإيضاح ٦٤.   (٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢/ ٢٤٧.

الكلمة عند أهل اللغة تقع على القليل والكثير، وأخذ يشرح معناها اللغوى ثم تحدث عن معانى الكلام، وأقسام الكلمة[1]، وهكذا إلى آخر الكتاب[2]، وممن شرحه أيضًا الشيخ الإمام ناصح الدين سعيد بن المبارك بن على الدهان النحوى[3]، وسمى شرحه (الغرة)[4]، وقد تتبع بشرحه أبواب الكتاب فى شىء من التوسع، كذلك شرحه عبد الله بن الحسين العكبرى[5]، وأبو البركات عمر بن إبراهيم بن محمد الكوفى[6]، وأسعد بن نصر العبرتى[7]، وتوجد من شروحهم نسخ خطية فى بعض مكتبات العالم[8]، وممن شرحه أبو نصر القاسم بن محمد الواسطى المتوفى بمصر[9]، ويبدأ شرحه بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم وبه العز والتعظيم، قال أبو الفتح عثمان بن جنى: الكلام كله ثلاثة أشياء اسم وفعل وحرف جاء لمعنى. قال المفسر: الكلام كله عربيه وعجميه لا يخلو من أن يكون اسما أو فعلا أو حرفا[10]، ويمضى فى الشرح والبيان، وقيل: إن هذا الشرح الذى نقلت منه هذه العبارة ليس لأبى نصر هذا، وإنما هو ليحيى على الخطيب التبريزى كما يؤخذ من فقرة فى آخر الكتاب هى: قرأ علىّ الرئيس أبو المعالى أحمد بن الحسن بن على بن أبى عيسى وبلغه مجابه هذا الكتاب من أوله إلى آخره قراءة فهم ومعرفة وتبين وكتب يحيى على الخطيب التبريزى حامدا الله ومصليا على رسوله محمد وآله سنة سبع وسبعين وأربعمائة فى شهر رمضان[11]، ولذلك كتب على أول صحيفة من الكتاب الراجح أن هذا الشرح للتبريزى، وسواء كان هذا أو ذاك فقد شرح الكتاب كثير من العلماء وبلغ من كثرتهم أن بعض الشروح لم ينسب إلى مؤلف معلوم[12].

---

(١) شرح اللمع للثمانينى نسخة مصورة بدار الكتب.
(٢) يقع فى جزءين وعدد لوحاته ٣٠١.
(٣) توفى سنة ٥٦٩، البغية ١/ ٥٨٧.
(٤) يقع فى ٥٤٢ صحيفة.
(٥) ت ٦١٦، البغية ٢/ ٣٨.
(٦) توفى سنة ٥٣٩ البغية ٢/ ٢١٥.
(٧) توفى سنة ٥٨٩، البغية ١/ ٤٤١.
(٨) بروكلمان ٢/ ٢٤٧.
(٩) البغية ٢/ ٢٦٢، ومعجم الأدباء، ج١٧، ص٥.
(١٠) نسخة برقم ٥٧٦ نحو تيمورية، ص٢.
(١١) نفسه، ص٢٤٧.
(١٢) من هذا نسخة بدار الكتب رقم ٥٤٨١ هـ فى ٦٠٠ ورقة.

وتناول اللمع بالشرح والتفصيل يدل على ما له من مكانة مرموقة فى نظر علماء اللغة والنحو ونحن نشهد له - كما نشهد لأستاذه أيضًا - بالبراعة فى هذا الميدان والسبق على الآخرين قديما وحديثًا.

٣٤- **ما يحتاج إليه الكاتب من مهموز ومقصور وممدود**: بدأ فيه بذكر مجموعة من الألفاظ المهموزة نظمها بحسب حروف المعجم - وقد تكلمنا عنها فى روايته اللغوية - ثم أتبعها ثلاثة فصول، الأول ذكر فيه مجموعة من المصادر المهموزة مثل تفيأت تفيؤا وتلكأت تلكؤا، والثانى تكلم فيه عن ثبات الهمزة إذا وقعت طرفًا مثل هذا قارئ ومقرئ، وهو متلكئ، ثم بحث الطريقة التى تكتب بها ألف المقصور، نحو العصا والرجا والحيا، ومستحيا، والأفعال التى تشبهه نحو دعا وسعى وأعطى واستقصى، والحروف كذلك نحو ما ولا وإلى وعلى، والأسماء المبنية نحو ذا وتا ومتى، متى تكتب الألف فى جميع ذلك ألفا، ومتى تكتب ياء، وكذلك بيّن كيف تكتب همزة الممدود فى حالات الإعراب الثلاث الرفع والنصب والجر، والثالث وضع فيه عدة قواعد لمعرفة المقصور من الممدود، واليائى من الواوى، والمذكر من المؤنث فى اختصار.

وهذا الكتاب بأبوابه الثلاثة يقع فى عشر صحائف فى الرسائل الثلاث التى طبعها وجيه كيلانى[1]، وهذه الرسالة مفيدة فى اللغة والإملاء.

٣٥- **المحاسن فى العربية**: يسميه ابن جنى فى إجازته بهذا الاسم، ويذكر أن مقداره ستمائة ورقة، وأن ما جرى أزال يده عنه، فيقول: «وكتابى فى المحاسن فى العربية، وإن كان ما جرى أزال يدى عنه حتى شذ عنها ومقداره ستمائة ورقة»[2]، وقد أورده ابن قاضى شهبة[3] والسيوطى[4] وطاش كبرى زاده[5]، ويبدو من نص ابن جنى السابق أنه فقد منه، ولكننى وجدت فى المحتسب نصا يحيل فيه القارئ على كتاب المحاسن هذا، فيقول بعد الاحتجاج لقراءة ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ ... ①﴾ [المائدة] بإسكان الراء فى (حرْم) «وقد تقصيت هذا فى كتاب المحاسن

---

(١) ص ٣٨-٤٨.
(٢) معجم الأدباء ١٢/ ١١٠، ١١١.
(٣) طبقات النحاة ٢/ ١٢٤.
(٤) بغية الوعاة ٣٢٢، ط الأولى، ٢/ ١٣٢، ط ١٩٦٤م.
(٥) مفتاح السعادة ١/ ١٣٥.

وبسطته هناك ونظائره»[1]، فهـذا النص لا يلمح فيه المؤلف إلى أن هذا الكتاب مفـقود، والمعروف أن كـتاب المحـتسب لم يرد فى الإجازة مما يدل عـلى أنه ألفه بعدها، ويستنبط من ذلك أنه ربما عثر على كتاب المحاسن بعد أن أزالت الأيام يده عنه، ونص الإجازة يفهم ذلك، لأنه كلف من كتـبت له بأن يرويه عنه، لاحتمال وجوده والحـصول علـيه، كمـا أنه فى هذا النص السـابق ينبه القـارئ إلى إمكان الاطلاع على أسرار العربية الشبيهـة بهذا الموضع فى غضون كتاب المحاسن، وهذا يفيد وجوده عنده أو عند غيره آنذاك، ومـهما يكن من شىء فإن الكتاب لم يصل إلينا.

ولعل هذا الكتاب كان شبـيهًا بكتابه الخصائص فى مـوضوعه، وهو البحث عن أسرار العربية وفلسفة أبنيتهـا وتراكيبها، ويمكن أن ندرك ذلك من كلامه الذى أورده فى الاحتـجاج للقـراءة السابقة، يقـول: قال أبو الفتح هذه الـلغة تميمـية، يقولون: فى رسل رسْل وفى كتب كتْب وفى دجاج بُيُض دجاج بِيْض، وذلك أنه صار إلى فُعْل فـجرى مجرى جـمع أبيض إذا قلت بيض، واعلم من بعد هذا أن إسكان (حُـرْم) كأن له مـزية على إسكان كُـتُب وذلك أن فى الراء تكريرًا فكادت تكون الراء الساكنة لما فـيها من التكرير فى حكم المتحركـة لزيادة الصوت بالتكرير نحـوا من زيادته بالحركـة، وكـذلك الكلام فى جراب وجـرُب وسراج وسـرُج، وكذلك الـقول فيـما جـاء عنهم من تكسيـر فَرْد على أفـراد فى هذا المعنى الذى ذكرناه، وذلك أن التكرير فى راء فَرْد كاد يكون كالحركة فيها، وصار فرد وإن كان فَعْلا ساكن العين كـأنه فَعَل محركها»، فهذا صريح فـى أن بحوث كتاب المحاسن من هذا النوع الذى احـتج به لهذه القـراءة، وهى بحوث فلسـفية تكشـف حكمة العربية ودقـة بنائها، ويدل ذلك أيضًا على أن كتاب المحـاسن يبحث هذه الجوانب اللطيفة، وهى لا تختلف عما يدور فى كتاب الخصائص من بحوث.

٣٦- المحتـسب فى تبيين وجوه شـواذ القراءات والإيضـاح عنها: هو بهذا الاسم فى النسـخة المخطـوطة بدار الكتب المصـرية «برقم ٧٨ قراءات»، وقـد تبع محققـو المحتسب المطبوع هذه النسخة فى عنوان الكتـاب، وقد ذكره ياقوت باسم

(١) ٢٠٥/١.

«المحتسب فى علل شواذ القراءات»[1]، ولم يرد فى إجازة ابن جنى[1].

ويدعى المستشرق برجستراسر «أن أكثر هذا الكتاب مأخوذ من كتاب ابن مجاهد فى الشواذ مع بعض زيادات، فإن ابن جنى ألف كتابه سنة ٣٨٤ أى بعد وفاة ابن مجاهد بمدة، فلا شك فى أنه نقل منه»[2]. ونحن إذا سلمنا له أن ابن جنى ينقل عن كتاب الشواذ لابن مجاهد فلا نسلم له أن أكثر كتاب المحتسب منقول عنه؛ لأن أكثر الكتاب من جهد ابن جنى وبحثه اللطيف فى تقصى أسرار العربية، وإذا نقل من أقوال العلماء فليس لمجرد النقل بل ليناقش هذا المنقول، ويبين مدى صحته أو فساده، وقد ناقش أقوال ابن مجاهد فى صورة واضحة فى غضون الكتاب مخطئًا أو مضعفًا أو مؤيدًا.

فمن الأول قال ابن مجاهد: عند قراءتى قتادة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا ... (٧٤)﴾ [البقرة] مخففة - أحسبه أراد بقوله مخففة - الميم لأنى لا أعرف لتخفيف النون معنى، فقال أبو الفتح: هذا الذى أنكره ابن مجاهد صحيح، ثم أخذ فى بيان ذلك[3]، وفى قراءة ﴿وَآيَدْنَاهُ ... (٨٧)﴾ [البقرة]، بالمد (وآيدناه) قال ابن مجاهد (أيدتك) على فاعلتك، فقال أبو الفتح: هذا الذى توهمه ابن مجاهد لا وجه له[4]، وغير ذلك كثير[5].

ومن الثانى: عند قراءة قتادة قوله تعالى ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ... (٢١٠)﴾: (فى ظلال) قال ابن مجاهد هو جمع ظِلْ، فقال أبو الفتح: الوجه أن يكون جمع ظلة... إلخ[6]، ويضعف عبارته ويصححها له عند قراءة ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ... (٧٨)﴾ [النساء] برفع الكافين، قال ابن مجاهد: وهذا مردود فى العربية. قال أبو الفتح: هو لعمرى ضعيف فى العربية، وبابه الشعر والضرورة إلا أنه ليس بمردود، لأنه قد جاء عنهم، ولو قال: مردود فى القرآن لكان أصح معنى، وذلك أنه على حذف الفاء... إلخ[7].

---

(١) المعجم ١٢/ ١١٣، وأعلام النبلاء، ج١١، ص٥، ومفتاح السعادة ١/ ١٣٥، وطبقات ابن قاضى شهبة ٢/ ١٢٤، وهذه المراجع تختلف فى الاسم اختلافا يسيرا.

(٢) مجلة المجمع العلمى ٣٢/ ٦٦٠، نقلا عن مقاله بالألمانية بمجلة مجمع بافاريا.

(٣) المحتسب ١/ ٩١، ٩٢. (٤) نفسه ١/ ٩٥.

(٥) نفسه ١/ ١١٢، ١٣٠، وغيرهما. (٦) نفسه ١/ ١٢٢. (٧) نفسه ١/ ١٩٣.

ومن الثالث عند قراءة ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ ... ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ ... ﴿١١١﴾﴾ [الأنبياء] بفتح الياء فيهما جميعًا، قال أبو الفتح: أنكر ابن مجاهد تحريك هاتين الياءين، وظاهر الأمر -لعمرى- ذلك، لأنها لام الفعل بمنزلة ياء أرمى وأقضى، إلا أن تحريكها بالفتح فى هذين الموضعين لشبهة عرضت هناك، وليس خطأ ساذجًا بحتًا، ثم بين ما رآه بالدليل[1]، وعند قراءة قوله تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ... ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة] (بأن تولوا)، قال ابن مجاهد: فإذا كان هكذا لم يجز أن ينصب البر. فقال أبو الفتح: الذى قاله ابن مجاهد هو الظاهر فى هذا لكن قد يجوز أن ينصب مع الباء، فهو هنا يوافق رأى ابن مجاهد، لكنه يبدى وجهة نظر جديدة ويستدل لها[2] وغير ذلك كثير[3].

فمن تلك الأمثلة وغيرها يبدو لنا أن ابن جنى لم ينقل عن ابن مجاهد آراءه ليملأ بها فراغ كتابه، بل إنه نقلها ليبين مدى صوابها أو سواه مع المناقشة ودقة الاستنباط، ثم هو يعتمد على كتاب ابن مجاهد فى رواية القراءات الشاذة فحسب إذ هو حجة فى ذلك، وقد أشار ابن جنى إلى قوة ابن مجاهد فى الرواية حين قال: «على أننا ننحى فيه[4] على كتاب أبى بكر أحمد بن موسى بن مجاهد -رحمه الله- الذى وضعه لذكر الشواذ من القراءة، إذ كان موسومًا به محنو الأرجاء عليه وإذ هو أثبت فى النفس من كثير من الشواذ المحكية عمن ليست له روايته ولا توفيقه ولا هدايته»[5]، وفى نص آخر يقول: إنه يعتد إماما فى روايته[6].

٣٧- **مختصر العروض والقوافى**: ذكره ابن جنى فى إجازته، فقال: «وكتابى مختصر العروض والقوافى»[7]. ويذكر ابن خلكان كتابين مختصرين أحدهما مختصر العروض والثانى مختصر القوافى[8]، ولعل هذين المختصرين كانا كتابا واحدا ألفه ابن جنى فى العروض والقوافى، ثم فرق فى كتابين على ما ذكره ابن خلكان، ويوجد من هذين المختصرين نسخ مخطوطة فى بعض مكتبات العالم[9]. وفى معهد

(١) نفسه ٢/ ٦٨. (٢) نفسه ١/ ١١٧. (٣) نفسه ١/ ١٢١، ٢/ ١٧٩.

(٤) أى فى المحتسب. (٥) نفسه ١/ ٣٥. (٦) نفسه ١/ ١٣٠.

(٧) معجم الأدباء ١٢/ ١١٠. (٨) الوفيات ٢/ ٤١١.

(٩) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢/ ٢٣٧، ومن الكتاب نسخ ببرلين برقم ٧١٠٨، وفينا برقم ٣٢٢، والمتحف البريطانى برقم ٨٤٩٨، وفى لاله لى برقم ١٩٨٣ والأسكوريال برقم ٤٤٢ وغيرها.

إحياء المخطوطات بجامعة الدول العربية نسخ مصورة «ميكروفيلم» من هذين الكتابين نقلت من مخطوطات الكتاب فى بعض المكتبات العالمية المشار إليها.

وبالإطلاع على مصورتين منها فى المعهد[1]، وجدت أن الكتاب الأول يشرح العروض بطريقة جد حديثة، وفى أسلوب علمى دقيق لا غموض فيه، فقد بدأه بمقدمة تحدث فيها عن قيمة علم العروض وغن الوحدات الصوتية والتفاعيل الشعرية المكونة منها، وبين معنى العروض والضرب فى البيت الشعرى، وذكر البحور ما عدا المتدارك الذى أتى به الأخفش، وشرح كل بحر وبين أعاريضه وأضربه وما يدخله من زحاف وعلة، مع التمثيل تحت عنوان (باب كذا) مثل باب الطويل وهو على ثمانية أجزاء فعولن مفاعيلن. . إلخ، وله عروض واحدة مقبوضة، ولها ثلاثة أضرب ثم يشرحها بالأمثلة على ما هو معروف، وهو يسوق الزحافات والعلل فى أثناء الشرح كما هو متبع فى أحدث الطرق لتدريس العروض والتأليف فيه.

كذلك مختصر القوافى بيان لها بدقة، وتأليف أحسب أن المؤلفين المحدثين استفادوا منه، فقد ابتداه بتعريف القافية عند الخليل، وعند أبى الحسن الأخفش، وذكر أنها تنقسم إلى خمسة أضرب هى المتكاوس والمتراكب والمتدارك والمتواتر والمترادف، ثم عرف كلا منها، وبين أن للقافية ستة أحرف، وست حركات، وذكرها، ثم تكلم على عيوب القافية، وفى كل ذلك يورد الأمثلة التى توضحه، ويتبعها بالشرح والبيان فى أسلوب رائع خلاب.

٣٨- **مد الأصوات ومقادير المدات**: هى رسالة مختصرة لم يذكرها ابن جنى فى إجازته، ولكن ياقوت أشار إليها وقال إنه: «كتبها إلى أبى إسحاق إبراهيم ابن أحمد الطبرى ومقدارها ست عشرة ورقة وهى بخط ولده عال»[2]، ويبدو أنها فقدت فلا أثر لها الآن.

٣٩- **المذكر والمؤنث**: لم يذكره ابن جنى فى الإجازة، وقد أشار إليه ياقوت[2]، وفى معهد إحياء المخطوطات العربية نسخة مصورة منه «ميكروفيلم»

---

(١) تحت الرقمين ١٧، ٢٦.
(٢) معجم الأدباء ١٢/١١٣.

باسم ذكر المذكر والمؤنث[1]، ونرى ابن جنى يورد فيها ثلاث طوائف من ألفاظ المذكر والمؤنث. الأولى من ألفاظ المؤنث الذى يروى رواية ولا يجوز تذكيره بوجه، مثل: العين والأذن والكبد... إلخ. والثانية من ألفاظ المذكر الذى لا يجوز تأنيثه بوجه مثل: الأشاجع والنطق والضحى ... إلخ. والثالثة من ألفاظ المؤنث الذى يجوز تذكيره مثل اللسان والعنق وبعض أجزاء الإنسان الأخرى وغيرها.

وهذه الألفاظ لم يتبعها ابن جنى بأى شرح أو تعليق، وعلى كل حال فالكتاب رسالة مختصرة فى ثلاث صحائف، وقد نشره resoher فى مجلة N.O[2].

٤٠- مسألة فى إعراب (إذا): فى قول الشاعر:

ألا عَلِّلانِى قَبْلَ نَوْحِ النَّوائِحِ ... وَقَبل ارتقاء النَّفْسِ بَيْنَ الجَوَانِحِ

وَقَبلَ غَدٍ يَا لَهْفَ نَفْسِى عَلَى غَدٍ ... إِذَا رَاحَ أَصْحَابِى وَلَسْتُ بِرَائِحِ

توجد منها نسخة مصورة (ميكروفيلم) بمعهد المخطوطات العربية[3] وأولها مسألة من كلام أبى الفتح عثمان بن جنى. قال أبو الفتح فى قول الشاعر: ويذكر البيتين، ثم يقول: حديث إذا فى هذا البيت طريف وذلك أنها هنا وقعت موقعًا غريبًا لأنها عندنا فى موضع جر على البدل من غد ثم يشرح هذا الرأى بما يستغرق صحيفتين.

٤١- مسألتان من كتاب الأيمان لمحمد بن الحسن الشيبانى: لم يرد فى الإجازة ولا عند ياقوت أو غيره من المؤرخين وإنما أورده بروكلمان، وذكر أنه موجود فى «الفاتيكان»[4]، ومادة المسألتين - كما يبدو - متصلة بالفقه الحنفى، فمحمد بن الحسن صاحب الإمام أبى حنيفة - رحمه الله.

---

(١) برقم ٢٣٢. (٢) ج٨، ص١٩٢-٢٠٢، انظر بروكلمان ٢/ ٢٤٩.

(٣) برقم ٢٣٢ ضمن مجموعة مجالس العلماء وهى منقولة عن نسخة مخطوطة فى شهر شوال ٨٨١هـ.

(٤) تاريخ الأدب العربى ٢/ ٢٤٩.

٤٢- المسائل الواسطية: لم يذكرها ابن جنى فى إجازته، وقد ذكرها القفطى فى ترجمته، قال: حكى أبو غالب بن بشران النحوى الواسطى[١]، قال: ورد أبو الفتح بن جنى عثمان إلى واسط، ونزل فى دار الشريف أبى على الجوانى نقيب العلويين، وكنا نتردد إليه، ونسأله، ويملى علينا مسائل سماها الواسطية[٢]، ويبدو أنها مسائل فى النحو واللغة كما يتبين من إملائها على تلامذته، فقد كان مدرسًا للنحو واللغة، وخلف فى ذلك أستاذه الفارسى ببغداد كما هو معروف.

٤٣- المعانى المجردة: لم يذكره ابن جنى فى إجازته، وقد أشار إليه ياقوت، فقال: «وكتاب المعانى المجردة»[٣].

٤٤- المعرب فى شرح قوافى أبى الحسن: ذكره ياقوت باسم (المغرب)[٣] بالغين المعجمة وتابعه على ذلك الدكتور طلس[٤]، الذى خطأ نطق الاسم بالعين المهملة وقد ذكره بروكلمان بالعين، وكذلك الشيخ النجار - مع تحقيقه فى أثناء وروده فى كلام ابن جنى فى الخصائص بالعين أيضًا - وقال: إنه قد يصحف فى بعض المواطن بالمغرب[٥]، ويبدو رجحان ما ذهب إليه الشيخ النجار إذ إن الكتاب فى تفسير القوافى وشرحها وذلك إعراب عنها لا إغراب.

وفى كتب ابن جنى نصوص منه، ويفهم منها تدرج عزمه على تأليف هذا الكتاب ثم إحكامه تأليفه بعد ذلك، ففى المنصف ما يشير إلى عزمه على تأليف هذا الشرح لكتاب الأخفش فى القوافى، يقول - بعد عرضه لمسألة من سناد التوجيه وهو اختلاف حركات ما قبل الروى المقيد المسمى توجيها - وأنا أبين هذا مستقصى فى شرح القوافى لأبى الحسن إن شاء الله[٦]، وأوضح من هذا قوله فيه أيضًا - بعد عرضه لمسألة تختص بالردف، وهو حرف المد السابق للروى -: وهذا باب يطول، وسأستقصيه فى شرح كتاب القوافى عن أبى الحسن إن شاء الله[٧].

---

(١) توفى سنة ٤٦٢ بواسط واسمه محمد بن أحمد بن سهل، البغية ١/ ٢٦.

(٢) إنباه الرواة ٢/ ٣٤٠.

(٣) معجم الأدباء ١٢/ ١٢٣، وطبقات ابن قاضى شهبة ٢/ ١٢٥، مع تحريف.

(٤) مجلة المجمع العلمى ٣٢/ ٦٦٢.

(٥) مقدمة الخصائص ١/ ٦٦.

(٦) المنصف، ج٢، ص٣.

(٧) نفسه ١/ ٢٢٤.

ويلاحظ أنه فى هذين النصين لا يذكر اسم الكتاب لأنه لم يكن بدأه أو أتم تأليفه بعد، وفى الخصائص نصوص أخرى تفيد أنه أحكم تأليفه بعد عرضه لمسألة تختص بالردف والوصل بالياء والواو يقول: «وقد أحكمنا هذا الموضع فى كتابنا المعرب - وهو تفسير قوافى أبى الحسن - بما أغنى عن إعادته هنا»[1]، وبعد حديث له عن التوجيه والإشباع وأن اختلافهما قبيح، يقول: «وقد أحكمنا هذا فى كتابنا المعرب فى شرح قوافى أبى الحسن[2]. وأوضح من هذا دلالة على أن الكتاب قد تم تأليفه ما ذكره بعد حديثه عن نون الإنشاد وأنها مختصة بالشعر وعلى لغة من وقف على المنصوب بلا ألف يقول: «ولم تحضرنا هذه المسألة فى وقت عملنا الكتاب (المعرب) فى تفسير قوافى أبى الحسن فنودعها إياه فلنلحق هذه المسألة به بإذن الله»[3].

وهذه النصوص - مع ذلك - تفيدنا أن ابن جنى ألف هذا الكتاب بعد تأليف المنصف وقبل تأليف الخصائص، ويبدو أنه شرح لكتاب الكافى فى القوافى[4] الذى ألفه أبو الحسن الأخفش وليس كتابا آخر، وإن كان ياقوت يسميه شرح الكافى فى القوافى[5]، وابن خلكان الكافى فى شرح القوافى[6]، والذى يجعلنا نرجح ذلك أنه لم يرد اسم الكافى فى مؤلفات ابن جنى على حين شاع فيها شرح كتاب القوافى والمعرب مع بيان أنه تفسير قوافى أبى الحسن، فهل ألف أبو الحسن كتابين فى القوافى مثلا؟ على أن البغدادى يذكره باسم شرح القوافى[4]، ولعله اشتهر باسم شرح الكافى عند بعض المؤرخين باعتبار المتن الذى تناوله ابن جنى بالشرح الذى سماه المعرب، وابن جنى نفسه يحاول أن يربط بينهما فيقول: المعرب تفسير قوافى أبى الحسن أو شرح كتاب القوافى عند أبى الحسن، وعلى كل فلم يصل إلى أيدينا وينقل عنه صاحبا الخزانة[7] والمخصص[8].

---

(١) الخصائص ١/ ٨٤.
(٢) نفسه ٢/ ٢٦٠، ٢٦١.
(٣) نفسه ٢/ ٩٩.
(٤) تاريخ بغداد ١١/ ٣١١.
(٥) معجم الأدباء ١٢/ ١١٣.
(٦) الوفيات ٢/ ٤١١.
(٧) ٢/ ٣٣١. ط. الأولى.
(٨) ١/ ١٣.

٤٥- المقتضب: ورد فى إجازة ابن جنى، فقال: «وكتابى فى اسم المفعول المعتل العين من الثلاثى على إعرابه فى معناه وهو المقتضب»[١]. ونص عليه ابن خلكان[٢] وابن قاضى شهبة[٣]، وذكره بروكلمان[٤]، وقد طبع فى «ليبزج» بألمانيا سنة ١٩٠٤م بعناية المستشرق Dr Edgar Probster كما عنى بنشره فى مصر وجيه فارس كيلانى سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م مع كتابين آخرين ذكرناهما، والكتاب مختصر[٥] يتناول اسم المفعول من الثلاثى المعتل العين كما رأينا، وقد نبه على ذلك مؤلفه حين قال: «هذه جمل من القول فى اسم المفعول من الثلاثى المعتل العين وإنما ذلك فيما كان منه معتادا مألوفا أو مقارنا له لا ما كان وحشيا مجتنبا»[٦]. ويقول بعد أن عرض رأيى سيبويه وأبى الحسن فى المحذوف من مفعول: (ولكل واحد من القولين أصول تجذبه، ومقاييس تشهد له، وندع ذكر ذلك ها هنا لأنه ليس بموضع احتجاج وإنما الغرض فيه الإحجام والإيجاز)[٧]، وقد أبان ابن جنى أن اسم المفعول المذكور إذا كان من المتعدى لم يحتج إلى حرف الجر، ومن غير المتعدى يحتاج إليه، ثم ذكر قولى سيبويه وأبى الحسن فى المحذوف من مفعول، هل هو الواو الزائدة أو عين الفعل؟ ثم تحدث عن ورود الواوى واليائى منه فى متن اللغة وأن تميما تتم مفعولا من الياء كما هو معروف، وأن أبا العباس أجاز إتمام مفعول من الواو فى هذا الباب كله فاستحسن من هذا ما يدفعه السماع والقياس جميعًا، كما وضع قاعدة لمعرفة عين الماضى الأجوف هل هى واو أو ياء، فقال: «يمكن أن تعرف عين الماضى واوا أو ياءً بأن تبنى منه فَعْلة أو أفعل من كذا مثل صاغ صَوْغة وهو أصوغ منك وخاط خيطة وهو أخيط منك، وقد تستنبط حال الماضى من عين المستقبل فى نحو باع يبيع وقاد يقود إلا أن ذلك

---

(١) معجم الأدباء ١٢/ ١١٠.
(٢) الوفيات ٢/ ٤١٢.
(٣) طبقات النحاة واللغويين ٢/ ١٢٤.
(٤) تاريخ الأدب العربى ٢/ ٢٤٩.
(٥) فى ط أوربية يقع فى ٢٧ صحيفة، وط عربية فى ٣٠ صحيفة، وبين الطبعتين تغييرات لفظية يسيرة. قارن الصحائف، ط أوربية ١-٨، وط عربية ٦-٩، ١٣، ١٤.
(٦) ط عربية ٦ وأوربية ١.
(٧) ط عربية ٧ وأوربية ٢.

ليس باطراد لوجود شاء يشـاء ونام ينام ونحوهما[1]، ثم ذكر بعد ذلك جملة من ألفاظ اسم المفعـول المعتل العين مرتبة على الحـروف الهجائية بادئًا بالهـمزة وخاتمًا بالياء وقد ذكرنا وجهة نظره فى ذلك فى حديثنا عن روايته اللغوية.

٤٦- **مقدمات أبواب التصريف**: لم يرد فى الإجازة وقد ذكره ياقوت[٢]، ويرجح الشـيخ النجار أن «هذا هو مـختصـر التصـريف الذى سبق الكلام عـليه واستظهار أنه التـصريف الملوكى»[٣]، على حين يرجح الدكتـور طلس: «أنه غير التصـريف الملوكى فى الغالب»[٤]، وعلى كل حال فهـذه مجرد ظنون والأيام لم توقفنا عليه حتى نعرف حقيقة أمره.

٤٧- **المنصف**: ذكره ابن جنى فى الإجازة باسم «تفسير تصريف أبى عثمان بكر بن محمد بن بقـية المازنى»، وقال: إن حجمه خمـسمائة ورقة[٥]، وورد فى الخصائص باسم شرح تصـريف أبى عثمان[٦]، وذكر فى سر الصناعة باسم شرح تصريف أبى عثمان[٧] وباسم شرح تصريف المازنى[٨]، أما فى المحتسب فقد برز اسمه الحقيقى الذى وضعه له مـؤلفه وهو المنصف، فقد قال هناك: «كتابنا الموسوم بالمنصف وهو تفسير تصريف أبى عثمان»[٩]، وذكره فى مواضع كثيرة بهذا الاسم دون أن يقول وهو تفسـير تصريف أبى عثمان، ويبـدو أن ذلك لأنه قدم ذكره فى الكتاب ثلاث مرات مقترنًا به فلم يعد بعد ذلك بحاجة إلى التعريف فصار يقول: «وقد ذكرنا نحـو هذا فى كتابنا المنصف»[١٠]، وقد ذكرت هذا الموضـع فى كتابى المنصف[١١] ونحو ذلك[١٢]، وبهذا الاسم ذكر فى الخزانة[١٣] والوفيات[١٤] وفى

---

(١) المقتضب ط عربية ص٦-٩، وط أوربية ص١-٤.

(٢) معجم الأدباء ١٢/ ١١٣.

(٣) مقدمة الخصائص ١/ ٦٥.

(٤) مجلة المجمع العلمى ٣٢/ ٦٦٣.

(٥) معجم الأدباء ١٢/ ١٠٩، ١١٠.

(٦) الخصائص ١/ ٢٣٤، ٢/ ٢٨٨.

(٧) ١/ ١٣٢.

(٨) مخطوطة دار الكتب ٣٠٨.

(٩) ١/ ٥٣، ٦٢، ٩٢.

(١٠) نفسه ١/ ١٢١.

(١١) نفسه ١/ ١٨٢.

(١٢) نفسه ١/ ٢٠٣، ٢١٤، ٢٧٤، ٢٨١ وغيرها.

(١٣) ١/ ٥٠٥.

(١٤) ٢/ ٤١١.

كشف الظنون أن اسمه المتصف[1]، ويجعل ياقوت الاسم الأخير عنوانا لكتاب آخر غير تفسير تصريف أبى عثمان، فيذكره فى الكتب التى لم ترد فى الإجازة فيقول: وكتاب المتصف»[2]، ولكن الاسم الحقيقى هو المنصف كما قدمنا وكما هو موجود فى المحتسب وما عداه تحريف من النساخ، ولهذا الكتاب نسخ خطية كثيرة فى مكتبات العالم[3]، وقد طبع فى مصر بتحقيق بعض الأساتذة.

وهذا الكتاب قد ألفه ابن جنى قبل كتابيه العظيمين الخصائص وسر الصناعة، ولذا نراه يذكره فيهما، ويشير إليه فى المسائل العلمية، يقول فى سر الصناعة: «فأما العلة التى لها سكنت أوائل الأسماء والأفعال حتى احتيج لذلك إلى همزة الوصل فقد ذكرتها فى كتابى فى شرح تصريف أبى عثمان رحمه الله»[4]، ويقول فيه أيضًا بعد ذكره أن الواو لم تأت فاء ولا ما فى كلمة عربية وقد جاءت فاء وعينا: وقد أشبعنا القول فى الرد على من خالفنا من البغداديين فى هذا الموضع فى كتابنا فى شرح تصريف المازنى، وهذا الكتاب كأنه لاحق بذلك ومتصل به لاشتراكهما واشتباه أجزائهما، فلذلك تركت إعادة القول هنا وأحلنا على ذلك الكتاب فى عدة مواضع من هذا[5]. وبعد حديث له عن الإلحاق فى الخصائص يقول: «وقد ذكرت هذا الموضع فى كتابى فى شرح تصريف أبى عثمان وغيره من كتبى وما خرج من كلامى»[6]، وبعد حديث آخر له عن زيادة الحرف عوضا من حرف آخر يقول: «وقد ذكرت هذا الموضع فى كتابنا فى شرح تصريف أبى عثمان»[7]، والباحث يرى أن هذا الكتاب مؤلف قبل هذين الكتابين لأنه يجد فيه دلائل قوية على ذلك نلحظها فيما يلى:

(١) لا يشير فى المنصف إلى أى من كتبه، وإنما يحيل على ما مضى فى الكتاب نفسه بأن يقول: «وقد بينا علة هذا فيما مضى من الكتاب»[8] أو يقول:

---

(١) ٢/ ١٨٥٠.

(٢) معجم الأدباء ١٢/ ١١٣.

(٣) تاريخ الأدب العربى ٢/ ٢٤٦.

(٤) ١/ ١٣٢.

(٥) مخطوطة دار الكتب ٣٠٨.

(٦) ١/ ٢٣٤.

(٧) ٢/ ٢٨٨.

(٨) المنصف ٢/ ٢٣.

«وقد تقدم القول فيهما في الفصل الذي قبل هذا»[1] أو يقول: «مضى نظير هذا فيما تقدم[2]، هذا مع ما عرف عنه في كتبه الأخرى من الإشارة إلى ما يتصل بموضوعه الذي يتحدث فيه (من) مؤلفاته السابقة ويشيع ذلك في كتابه المحتسب[3].

(٢) يرى البحث في المنصف موضوعات ومسائل علمية لها نظائر في كتبه الأخرى دون أي إشارة إليها، فيذكر مثلا أنه ليس في الكلام اسم على فُعِل -بضم الفاء وكسر العين- وإنما هذا بناء يختص به الفعل المبني للمفعول[4]، ويعرض للام (أثفية) من حيث كونها ياء أو واوًا ووزنها على الأول والثاني، ويذكر ترجيح أبي على للأخير بما يعد من الاشتقاق الأكبر[5]، دون أن يشير إلى الخصائص أو غيرها مما قرر فيه هذا المبدأ أو أشار إلى تلك الكلمة.

(٣) نرى في كتبه الأخرى توسعًا لما ذكره مختصرًا في المنصف، ففيه يذكر المطرد والشاذ عند أهل العربية، وأنه على أربعة أضرب كما هو معروف، ويذكر استحوذ، وأغيلت المرأة ونحوهما مما شذ عن القياس، واطرد في الاستعمال، وينبه على أن خروج هذه الأمثلة الشاذة للتنبيه على أصول ما غُيِّر، وفي هذا ضرب من الحكمة في هذه اللغة العربية[6]، ولكننا نجده في الخصائص يعقد فصلين كاملين لهذا الموضوع ويعالجه فيهما بطريقة أكثر عمقا وفلسفة بما يستغرق قدرا كبيرا من الصحف[7]. ويذكر في المنصف سبعة أدلة لشدة اتصال الفعل بالفاعل ويقول: إن فيه غير هذا فتركته لأن في بعض هذا مقنعًا[8]، على حين يذكر في سر الصناعة تسعة أدلة[9]، ومن يراجع البحث في الكتابين يلاحظ أن ما في المنصف صورة صغيرة لما في سر الصناعة وتتجلى الدقة والعمق والتفصيل في الكتاب الثاني.

---

(١) نفسه ٢/ ٦٠. (٢) نفسه ٢/ ٨٨.

(٣) انظر مثلا ١/ ٤٧، ٥٣، ٥٥، ٦٢، ٩٣، ١٩٣، ٢٠٥ وغيرها.

(٤) المنصف ١/ ٢٠. (٥) الأول فعلية والثاني أفعولة، المنصف ٢/ ١٨٥، ١٨٦.

(٦) نفسه ١/ ١٩١، ٢٧٦-٢٧٩. (٧) ١/ ٩٦-١٠٠، ١١٧-١٣٣.

(٨) المنصف ٢/ ٣٣٤. (٩) ١/ ٢٢٥، ٢٢٦.

(٤) يحذف ابن جنى عند كتابته موضوعـا مشتركا بين المنصف وغيره ما لا يراه مؤيدا له لعـدم دقته أو صحة روايتـه، فعند حديثه عن امتـناع صوغ فعل من (ويل وويح وويس) يذكر أنهم قد أنشدوا بيتا فى استعمال أفعال هذه المصادر وهو قول الشاعر:

فَـلا وَالَ وَلا وَاحَ   وَلا وَاسَ أَبُو هِنْد

ويقول: إن هذا من الشاذ وأظنه مولدا، وأنشدوا بيتًا آخر وهو:

تُوَيِّلُ إِذْ مَلأْتُ يَدِى وَكَفِّى   وَكَانَتْ لا تُعَـلَّلُ بِالقَلِيل

وهذا ليس كالأول، لأنه جاء بالفعل على فعَّل، وإذا كان هكذا فقد أُمِنَ فيه الحذف والقلب اللـذان كانايُخَافـان فى فَعِل»[1]، على حين نجده فى الخـصائص يقـول: «إن امتناعـهم من اسـتعـمال أفـعال الويـح والويل والويس والويب ليس للاسـتغناء بل لأن القـياس نفـاه ومنعـه، ويعلل لذلك ولا يذكر شـيئًـا من هذه الشواهد»[2]، وعند حديثه عن القلب فى أيس يقول: «وأخـبرنى أبو سهل أحمد بن محمد عن أبى سعيـد الحسن بن الحسين السكرى أنه يقال: يئست أيأس يأسا، وأيست آيس إياسـا، فجعل إياسـا مصدر أيست، وأحـسب أن هذا وهم من أبى سعـيد لأنه لو كان لأيست مـصدر لما قال النحـويون إنه مقلوب عن يئـست، وما أعلم بينهم خـلافا فى ذلك[3]، ونراه فى حـديثه عن القلب فى هذه الكلمـة فى الخصائص لا يـذكر الرواية الثالثة عن السكرى ويجـزم بأنه مقلوب «لأن أَيِسْت لا مصـدر له وإياس ليس مـصدرا لأيست ولا هو أيضًـا من لفظه، وإنما هو مـصدر أُست الرجل أَأُوسُه إياسا، ويستمر فى احتجاجه لذلك[4].

(٥) يخالف ابـن جنى رأيه فى المنصف أحيـانا عندما يعـرض له فى كتـبه الأخرى، فـهو يذكر فى المنصف أن الواو المفـتوحة لا تبـدل همزة، يقول: فـأما قولهم (أجاح ووجاح) فى الستر فكل واحد منهما أصل، وليست الهمزة بدلا من

---

(١) المنصف ٢/١٩٨، ١٩٩.
(٢) ١/٣٩٢، ٣٩٤.
(٣) المنصف ٢/١٠٥، ١٠٦.
(٤) ٢/ ٧٠-٧٣.

الواو عندى، يدل على ذلك قولهم فى معناه أجاح وزجاح، فقولهم أجاح بالفتح يدل على أن الهمزة أصل غير منقلبة لأنها مفتوحة والواو المفتوحة لا تهمز وليس لك أن تقيس على أحَد وأناة لقلة ذلك[1]. على حين يذكر فى سر الصناعة أن الهمزة المفتوحة تبدل من الواو والعكس مثل جُؤَن وأحد عشر وأناة وغلام أحمد ونحو ذلك[2]، ويقول فى إبدال الهمزة المفتوحة من الواو: وأبدلوا المفتوحة أيضًا فقالوا أناة فى وناة وأحد فى وحد وأجَم فى وَجَم وأسماء فى وَسماء[3]، وقال فى المنصف عن ديماس: الياء فى ديماس وإن لم يقولوا إلا دياميس دون دماميس - لا بد من أن تكون بدلا من الميم بمنزلة ياء دينار؛ لأنك إن لم تقل بذلك لزمك أن تجعله فيعالا غير مبدل، وهذا إنما جاء على قلته فى المصادر نحو قاتلته قيتالا وديماس ليس بمصدر فتحمله على باب قيتال، فمن هنا لزم أن يكون كدينار وديوان[4]، على حين نجده فى سر الصناعة والخصائص يفرق بين حالى كلمة (ديماس) حين يكون جمعها دماميس ودياميس، فعلى الأول تكون الياء بدلا من الميم كما قال سيبويه[5]، ويكون وزنها فيعالا على الثانى[6]، وتكون ياؤهما للإلحاق، ويوضح ذلك بقوله:ومثل طومار - عندنا - ديماس فيمن قال دياميس ... ويعقب على مواضع الإلحاق التى ذكرها بقوله: إن أحدا من أصحابنا لم يذكر شيئًا منها[7].

وهذا كله يدلنا على أن شرح تصريف أبى عثمان يحمل فى طيه علما كثيرا مما هو مذكور فى كتبه الأخرى أتى به لشرح كلام المازنى، وبيان جوانبه المختلفة، وابن جنى فى هذا الشرح له أسلوبه الواضح الذى ينم - منذ بدء تأليفه - على علو كعبه فى اللغة وامتلاكه ناصية البيان.

وقد بدأ الكتاب بمقدمة أبان فيها أنه سيقوم بشرح كتاب التصريف لأبى عثمان، وبين منهجه فيه بقوله: «ولا أدع فيه - بحمد الله وقوته - غامضًا إلا

(1) 1/ 231.
(2) مخطوطة دار الكتب 295، 296.
(3) 1/ 104.
(4) 2/ 33.
(5) سر الصناعة مخطوطة الأزهر الورقة 145.
(6) نفسه الورقة 23.
(7) الخصائص 2/ 484.

شرحته، ولا مشكلا إلا أوضحته، ولا كثيرا من الأشباه والنظائر إلا أوردته، ليكون هذا الكتاب قائمًا بنفسه، ومتقدما فى جنسه»[1].

ثم بين فائدة التصريف وأن هناك أشياء تؤخذ بالسماع ولا يصح فيها القياس. ثم ذكر ما بين التصريف والاشتقاق والنحو واللغة من صلات قوية. وبين قيمة كتاب تصريف المازنى، وما يجب على من يطلع على كتاب قيم، ثم أوضح أنه سيشرح الكتاب على النهج السابق، وبعد ذلك ذكر رواية كتاب المازنى وشرع فى الشرح مبتدئًا بما ابتدأ به أبو عثمان وهو باب الأسماء والأفعال[2].

٤٨- **المهذب**: لم يرد فى الإجازة ولم يذكره ياقوت ولكنه ورد عند ابن خلكان[3] وابن قاضى شهبة[4] والعينى[5]، ولم يصل إلى أيدينا حتى نعرف شيئًا عنه.

٤٩- **النقض على ابن وكيع فى شعر المتنبى وتخطئته**: لم يرد فى الإجازة وقد ذكره ياقوت[6] ولابن وكيع أبى محمد الحسن بن على التنيسى - وكان من الشعراء - «كتاب» اسمه المنصف بين فيه سرقات المتنبى كما يقول صاحب الوفيات[7]، فلعل كتاب ابن جنى هذا يتعلق بنقض كتاب ابن وكيع المذكور كما يقول الشيخ النجار[8]، وعدم وصول الكتاب إلى أيدينا هو السبب فى غموض مادته العلمية.

٥٠- **النوادر الممتعة**: ذكره ابن جنى فى إجازته فقال: وكتابى النوادر الممتعة فى العربية وحجمه ألف ورقة[9]، وأشار إليه ابن قاضى شهبة[10]، وقد صرح ابن جنى بأنه فقد منه مع كتابه المحاسن فقال: وقد شذ أيضًا أصله عنى[9]، ومادة الكتاب على ما يبدو كانت غزيرة تشبه كتبه الكبرى، وهى مادة عربية لغوية

---

(١) ١/١. (٢) المنصف ١/٦، ٧. (٣) الوفيات ٢/ ٤١٢.

(٤) طبقات النحاة ٢/ ١٢٥. (٥) عقد الجمان ٣ لوحة ٥١٤.

(٦) معجم الأدباء ١٢/١١٣. (٧) ١/٣٨٧، ت ٣٩٣هـ.

(٨) مقدمة الخصائص ١/٦٦. (٩) معجم الأدباء ١٢/ ١١١.

(١٠) طبقات النحاة ٢/ ١٢٤.

ونحوية وصرفية، ويمكن استنباط ذلك من تعقيبه بذكر هذا الكتاب بعد حديث لغوى له فى الخصائص عن غَسِيَ يَغْسَى وأَبَى يأبِىَ وما أنشده أبو زيد من قوله:

«يَا إبلى ماذامه فتأبيَه»

يقول: جء به على وجه القياس كأَتَى يأتِي كذا رويناه عنه، وقد تقدم ذكره، وإننى قد شرحت حال هذا الرجز فى كتابى (فى النوادر الممتعة)[1]، ويقول فى النص الذى أحال عليه بعد أن ذكر هذا الرجز: وقد ذكرت هذه الأبيات بما يجب فيها فى كتابى (فى النوادر الممتعة) ومقداره ألف ورقة، وفيه من كلتا الروايتين صنعة طريفة»[2]، فتلك الصنعة الطريفة هى كشف أسرار العربية وخصائصها بما هو معروف عنه من فلسفة لغوية مبتكرة.

٥١- **الوقف والابتداء**: لم يذكره ابن جنى فى الإجازة، وإنما ذكره ياقوت[3]، وابن النديم[4]، وابن قاضى شهبة[5]، ويرجح الشيخ النجار أن تكون مادة هذا الكتاب هى أحكام الوقف والابتداء النحوية[6]، ولعلها كذلك إلا أن الكتاب لم يصل إلى أيدينا.

ويذكر الأستاذ عبد الله أمين فى مقاله عن ابن جنى أن من كتبه «مفردات القراء السبعة»[7]، وقد ثبت أن هذا الكتاب ليس من مؤلفات ابن جنى ولكن مؤلفه هو أبو عمرو عثمان بن سعيد الدانى، وقد جاء الاشتباه عند الأستاذ أمين - كما يقول الشيخ النجار - من توافقهما فى الاسم (عثمان)[7].

هذه مؤلفات عالمنا العبقرى قد ربت على الخمسين كتابا، وليست - على ما أعتقد - تقف عند هذا الحد فربما ألف غيرها وأزالت الأيام يدنا عنها - كما أزالتها عن كثير من كتبه المعروفة لنا - ويقوى هذا ما يراه الباحث من جهده الكبير وتحفزه للعمل الدءوب والتأليف العلمى، يقول فى الخصائص «ونحن نعتقد إن أصبنا

---

(١) الخصائص ١/ ٣٨٢.
(٢) نفسه ١/ ٣٣٢.
(٣) معجم الأدباء ١٢/ ١١٣.
(٤) الفهرست ١٢٨.
(٥) طبقات النحاة ٢/ ١٢٥.
(٦) مقدمة الخصائص ١/ ٦٦.
(٧) المقتطف ص١٦٤، ومقدمة الخصائص ١/ ٦٨.

فسحة أن نشــرح كتاب يعقوب بن السكيت فى القلب والإبدال، فـإن معرفة هذه الحال فيه أمــثل من معرفة عشرة أمــثال لغته، وذلك أن مسألة واحــدة من القياس أنبل وأنبــه من كتاب لــغة عند عيــون الناس[1]، ويقول فى ســر الصناعة: «وإن وجدت فســحة وأمكن الوقت عملت بإذن الله كتــابا أذكر فيه جمــيع المعتلات فى كلام العرب وأميز ذوات الهــمزة من ذوات الياء ومن ذوات الواو وأعطى كل جزء منها حظه من القول مستقصى إن شاء الله»[2].

فهذه شواهد لا جــدال فيها على رغبة ابن جنى فى العلم بالعربيــة، وشغفه بإماطة اللثــام عن أسرارها، وقــد كانت كتــبه بحارا زاخــرة جذبت العلماء إليــها فراحوا يغترفون من فيضها ويستخرجون من مكنون جوهرها، وحتى غير المشتغلين بالعربيــة راحوا - أيضًا - يقلدونهــا فى أسمائهــا فيذكــر ابن خلكان أن الشيخ أبا إسحاق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ الشافعى المذهب قد أخذ منه أسماء كتبه فإن له المهذب والتنبيه فى الفقه واللمع والتبصرة فى أصول الفقه[3].

رحم الله أبا الفتح وجــزاه عن العربية خــير الجزاء بما قدم لهــا ولأبنائها من تراث خالد وحياة علمية لا يزال أثرها ينهض بالعربية ودراستها.

ويقتضينا ذلك أن نبين تأثر العلماء به وانتفاعهم بعلمه تلامذة وباحثين.

تأثرالعلماءبه

لقد عمل ابن جنى بالتدريس وبخاصة بعد وفاة أستاذه أبى على ، فكان أن حل محله ببغداد وأصبح عالمها المبــجل الذى تهفو إليه النفوس الظامئة إلى العلم، وقد تخــرج على يديه كثيــر من طلاب العلم ممن صاروا - بفــضل تثقيــفه لهم - علماء كباراً، ومنهم محمد بن عبد الله بن شاهويه[4]، وأبو أحمد عبد السلام بن

(١) الخصائص ٢/ ٨٨، كـما تحفز لشــرح كتاب سيــبويه أيضًا. انظر سر الصناعــة مخطوطة الأزهر الوجه الثانى من الورقة ١٤٣.

(٢) مخطوطة الأزهر الورقة ١١٦ ومعجم الأدباء ٧/ ٢٥٦. (٣) الوفيات ٢/ ٤١٢.

(٤) روى الجمهــرة، وروى أيضًا عن أبى على الفارسى، وحدث بالإجازة عــن ابن جنى وقرأ عليه، وشاهويه من بلاد فارس، ت ٣٦٢هـ، الوفيات ٣/ ٣٤٨، والبغية ١/ ١٢٩.

الحسن بن محمد البصرى[1]، وعلى بن زيد القاشانى[2]، وأبو الحسن على بن عبيد الله بن عبد الغفار السيسى[3]، وثابت بن محمد الجرجانى الأندلسى[4]، وأبو القاسم عمر بن ثابت النحوى الثمانينى الموصلى[5]، وغيرهم من أفذاذ العلم ورواده.

هذا فضلا عن أولاده الثلاثة على وعلاء وعال[6]، ومن عاشرهم من ذوى الشأن والسلطان فى العصر الذى عاش فيه كالشريف الرضى[7]، وأمثاله من أعيان زمانه، وملوك بنى بويه، وغيرهم.

وقد كان علم ابن جنى الغزير الذى ضمنه مؤلفاته القيمة ذخيرة، ومعينا ثرّا ينهل منه رواد الثقافة وطلابها على مر العصور من بعده.

وابن جنى - كما عرفنا - كان مبتكرا لكثير من النظريات اللغوية وكان بارعًا فى استنباط النتائج العلمية، وعرض موضوعاتها على بساط البحث الدقيق، ولم يجئ بعد ابن جنى من يتابع بحوثه ويكمل بناءها، ولعل الأستاذ ميتس صادق حين يقول: «وكما أن كتب اللغة التى ألفت بعد الجوهرى كلها عيال عليه فكذلك

---

(١) سكن بغداد وكان صدوقًا دينًا قارئًا للقرآن عارفا بالقراءات، وكان يتولى ببغداد النظر بدار الكتب، وإليه حفظها والإشراف عليها. توفى سنة ٤٠٥هـ، ودفن فى مقبرة الشونيزى عند قبر أبى على الفارسى. الإنباه ٢/ ١٧٥، ١٧٦، والبغية ٢/ ٩٥.

(٢) أحد أصحاب أبى الفتح وهو صاحب الخط الكثير الضبط المعقد، سلك فيه طريقه شيخه أبى الفتح، ووجد بخطه ما كتبه سنة ٤١١هـ المعجم ١٣/ ٢١٨، ٢١٩، والبغية ٢/ ١٦٧.

(٣) كان جيد المعرفة بفنون العربية صحيح الخط متطيرا، ت٤١٥هـ، الإنباه ٢/ ٢٨٨، والبغية ٢/ ١٧٨.

(٤) كان إماما فى العربية متمكنًا قيما بعلم المنطق، روى عن ابن جنى، وعلى بن عيسى الربعى، قتل سنة ٤٣١هـ. المعجم ٧/ ١٤٥-١٤٨، والبغية ١/ ٤٨٢.

(٥) إمام فاضل أديب وهو من ثمانين بلفظ العدد أول قرية بنيت بعد الطوفان، بناها الثمانون الذين خرجوا من السفينة ،مات سنة ٤٤٢هـ، وله شرح اللمع، وشرح التصريف الملوكى، والمفيد فى النحو، الشذرات ٣/ ٢٦٩، والبغية ٢/ ٢١٧.

(٦) المعجم ١٢/ ٩١. (٧) انظر ديوانه ٢/ ٦٣.

كتب علم الاشتقاق وفقه اللغة ومعرفة أسرار العربية فإنها مما ابتكر الإمام ابن جنى الذى فهم أسرار العربية وفلسفتها وبخاصة الاشتقاق، وإنه لمن المؤسف ألا يجيء بعد ابن جنى عالم يتمم ما بدأ به، على أن كل الذين جاءوا من بعده قد استفادوا من كتبه»[1]، فقد اطلع عليها كثير من العلماء، واقتبسوا منها الكثير، بل إن بعضهم أخذ معظم كلامه، وضمنه ما ألفه من كتب.

فمثلا أبو الحسن على بن إسماعيل النحوى اللغوى الأندلسى المعروف بابن سيده[2] يأخذ من علم ابن جنى الكثير ويضمنه مؤلفاته، وبخاصة معجمه المسمى بالمحكم وكتابه المخصص، وهو حين ينقل عنه لا ينسب رأيه إليه فى بعض المواضع، وقد ينسبه إليه، وأحيانا ينسب إليه بعضه ويترك بعضه، وقد يؤدى ذلك إلى نوع من التناقض فى كلامه.

فنراه فى المحكم ينقل كلام ابن جنى عن تعريف النحو واشتقاقه فى اللغة دون أن ينسبه إليه، ويبتدئ كلامه بقوله: «النحو القصد يكون ظرفا واسما، نحاه ينحوه وينحاه نحوا وانتحاء، ونحو العربية إنما هو انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره، وهكذا يمضى فى نقل كلام ابن جنى وبحثه إلى أن ينهيه، دون أن ينسبه إليه[3]، وقد جاء ابن منظور فنسبه إلى غير صاحبه وهو ابن سيده[4].

كذلك نقل ابن سيده كلام ابن جنى ولم ينسبه إليه فى توجيه قول النابغة الجعدى:

حَتَّى لَحِقْنَا بِهِمْ تُعْدِى فَوارِسُنا ... كَأَنَّهَا رَعْـــنُ قُفٍّ يَرْفَعُ الآلا

فقال: وجه كون الفاعل فيه مرفوعا والمفعول منصوبا قائم صحيح مقول به، وذلك أن رعن هذا القف لما رفعه الآل فرئى فيه ظهر به الآل إلى مرآة العين ظهوراً

(1) من كتاب ميتس عن ابن جنى بالألمانية نقلا عن مجلة المجمع العلمى ٣٠/ ٦١٥.

(2) توفى سنة ٤٥٨هـ، معجم الأدباء ١٢/ ٢٣١-٢٣٥.

(3) المحكم ٢/ ٣٢٦، ٣٢٧ نسخة مخطوطة بدار الكتب برقم ٥١ لغة، والخصائص ١/ ٣٤.

(4) اللسان ٢٠/ ١٨١ وما بعدها.

لولا هذا الرعن لم يبن للعين. . . إلى قوله: فقد يجوز أن يكون قد جاء وأن يكون أيضًا لم يجئ[1].

وقد ينسب إليه كلامه كما فى قوله: قال ابن جنى: قوله عز اسمه ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ... ﴿٧١﴾﴾ [البقرة] الذى يدل على أن اللام فى الآن زائدة أنها لا تخلو من أن تكون للتعريف كما يظن مخالفنا . . . إلخ، ويستمر فى عرض كلام ابن جنى ونسبته إليه[2]. وقد ينسب إليه بعض كلامه دون بعض، وقد يترتب عليه تناقض واضح فى المعنى والرأى، قال فى مادة (فوه): الفاه والفُوه والفِيه والفَم سواء، والجمع أفواه، ثم يقول: وأما كونه جمع فاه فإن الاشتقاق يؤذن أن فاها من الواو لقولهم: مفوه وأما كونه جمع فم فلأن أصل فم فُوه، فحذفت الهاء كما حذفت من سنة. . . إلخ إلى أن يأتى إلى قول الشاعر:

يَا لَيْتَهَا قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فَمِهْ ... حَتَّى يَعُودَ الْمُلْكُ فِى أَسْطُمِهْ

فيقول: يروى بضم الفاء من فُمِّهْ وفتحها - فالقول فى تشديد الميم عندى أنه ليس بلغة فى هذه الكلمة، ألا ترى أنك لا تجد لهذه المشددة الميم تصرفا، وإنما التصرف كله على فوه، ثم ينقل كلاما كثيرا هو نص كلام ابن جنى[3]، ويقول قال ابن جنى: فهذا حكم تشديد الميم عندى، فلا ندرى كيف نسب الرأى فى تشديد الميم إلى نفسه أولا ثم إلى ابن جنى آخرا، وقد تابعه صاحب اللسان على هذا التناقض فقال: قال ابن سيده: فالقول فى تشديد الميم عندى . . . . ثم قال: قال ابن جنى: فهذا حكم تشديد الميم عندى[4].

ونراه فى المخصص ينقل كلام ابن جنى بنصه فى موضوع نشأة اللغة وهل هى إلهام أو اصطلاح، وكل ما فعله هو أنه غير بعض العبارات تغييرا طفيفا مثل

---

(١) المحكم ٥/ ٧٥٢، ٧٥٣، والخصائص ١/ ١٣٥. وفى رواية ابن جنى فى الخصائص: كأننا رعن قف. . إلخ.

(٢) المحكم ٥/ ٨٢٠، ٨٢١ وسر الصناعة مخطوطة الأزهر الورقة ٦٧ وما بعدها.

(٣) نفسه ١/ ٥٦٨، ٥٦٩ وسر الصناعة مخطوطة الأزهر الورقة ٨٠.

(٤) اللسان ١٧/ ٤٢٢، ٤٢٣.

قول ابن جنى بعد الآية الكريمة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... ﴿٣١﴾﴾ [البقرة] «وهذا لا يتناول موضع الخلاف[1]. يقول ابن سيده وهذا ليس باحتجاج قاطع[2]، وقد يختصر بعض كلام ابن جنى فيحذف منه ما يراه زائدا واستطرادا، فقد حذف ما بعد قوله: وكثرة جريانه على ألسنتهم[3] إلى قوله: والأمر فى هذا أظهر وشواهده أسير وأكثر[4]، وهذا استطراد بدليل قول ابن جنى بعده: ثم لنعد فلنقل فى الاعتلال لمن قال بأن اللغة لا تكون وحيا. وهنا يبدأ ابن سيده فى نقل كلام ابن جنى[2].

وقد يغير ابن سيده بعض العبارات بما يظن القارئ معه أنه رأيه والواقع أنه منقول عن غيره، فمثلا يقول: «وقد يتهيأ لنا أن نقول لمن نفى المواضعة عن القديم تعالى . . . إلخ، والواقع أن ذلك هو كلام ابن جنى[5] فلفظ يتهيأ لنا يوهم القارئ أنه كلام ابن سيده. ويقول أيضًا: وقد أدمت التنقير والبحث مع ذلك عن هذا الموضع فوجدت الدواعى والخوالج قوية التجاذب فى مختلف جهات التَّغَوُّلِ على فكرى، وذلك لأنا تأملنا حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة إلى قوله وأنها وحى[6]، وذلك يشعر بأن إدامة التنقير والبحث والوصول إلى نتيجة هو رأى ابن سيده، وقوله ولكن الباحث يرى أن ذلك الكلام منقول بنصه من كلام ابن جنى، يقول: واعلم أننى فيما بعد على تقادم العهد دائم التنقير والبحث. . . إلخ[7]، وقد نقل رأى ابن جنى بنصه مع تصرف يسير فى بيانه حد اللغة واشتقاقها[8].

واختلف الباحثون فى الحكم عليه فوصفه الشيخ النجار بأنه أغار على فوائد ابن جنى وبحوثه اللغوية[9] ولكن الدكتور طلس لا يحمله التبعة وإنما يحمل

---

(1) الخصائص ١/ ٤٠.
(2) المخصص، ج١، ص٤.
(3) الخصائص ١/ ٤٣.
(4) نفسه ١/ ٤٤.
(5) نفسه ١/ ٤٦.
(6) المخصص ج١ ص٦.
(7) الخصائص ١/ ٤٧.
(8) المخصص ج١، ص٦، والخصائص ١/ ٣٣.
(9) مقدمة الخصائص ١/ ٢٩.

صاحب اللسان حين ينقل عنه «فإن ابن سيده رجل أعمى ألف هذه الكتب الجليلة فى اللغة من إملائه، فلا ضير عليه أن يهمل ذكر اسم ابن جنى، ولكن الضير على ابن منظور الذى جاء بعده، ونقل أقواله، ورأى خطأ ابن سيده ولم ينبه عليه[1].

ولكننا نرى أن ابن سيده يذكر فى مقدمة كل من كتابيه السابقين أنه استقاهما من كتب السابقين ومؤلفاتهم، ومن ذلك يقول فى المحكم: «وأما ما عثرت عليه من كتب النحويين المتأخرين المتضمنة لتعليل اللغة فكتب أبى على الفارسى: الحلبيات والبغداديات والأهوازيات والتذكرة والحجة والأغفال والإيضاح وكتاب الشعر، وكتب أبى الحسن الرمانى كالجامع والأغراض، وكتب أبى الفتح عثمان بن جنى كالمعرب والتمام، وشرحه لشعر المتنبى، والخصائص، وسر الصناعة، والتعاقب والمحتسب[2]، وقال مثل ذلك فى المخصص[3]، وقد رأينا فيما سبق أنه أحيانا لا ينسب رأى ابن جنى إليه ولا إلى نفسه وأحيانا ينسبه إلى ابن جنى أو إلى نفسه.

وقد أفادنى أستاذى الدكتور قناوى فى ذلك بأنه عند عدم النسبة لا لوم عليه، وعند نسبة الرأى إلى نفسه يكون ملومًا، وأرى أن هذا التوجيه والتفصيل الذى أرشدنى إليه أستاذى صائب ودقيق.

والواقع أن صاحب اللسان يتحمل قدراً من اللوم، لأنه لم يكن دقيقًا فى نقله، ونسبته الرأى إلى صاحبه، ففى مادة (تهم) يقول ابن سيده: «والنسب إلى (تِهَامَة) تَهَامٍ على غير قياس كأنهم بنوا الاسم على تهَمى أو تهْمَى ثم عوّضوا الألف قبل الطرف من إحدى الياءين اللاحقتين بعدها، قال ابن جنى: هذا يدلك على أن الشيئين إذا اكتنفا الشىء من ناحيتيه تقاربت حالاهما وحالاه بهما ثم يستمر فى عرض رأيه منسوبًا إليه»[4]، فيأتى ابن منظور إلى بعض ما سبق وينسبه

(١) مجلة المجمع العلمى ٣١/٦٤٧، ٦٤٨.

(٢) المحكم ١/١١٥. (٣) ١/١٢، ١٣.

(٤) المحكم ٢/٤٤٧، والخصائص ٢/١١٠، ١١١.

لابن سيده دون تحرٍّ أو بحث، فيقـول: فى مادة (تهم) قال ابن سيده: فإن قلت: فـإن فى تِهَـامة ألفـا فلم ذهبت فى تَـهامٍ إلى أن الألف عـوض من إحـدى ياءى الإضافة .. إلخ[1]، وهذا داخل فى النص السابق وقد نسبه ابن سيده إلى صاحبه ابن جنى، ومن هنا رأيت أستـاذنا الشيخ النجار يعلق على ذلك بقـوله: «وقد بان لى أن الخطأ هنا من صاحب اللسان»[2].

ولقد عدوا ابن سنان الخفاجى[3] من تلاميذ ابن جنى المنتـفعين بكتبه «لأنه جاراه فى سـر الصناعة فأخذ كـلامه بنصه وحرفـه، ومزج به كلام الفلاسـفة فى الأصوات وبنى عليـه كتابه كله»[4]. وهو سر الفصاحـة فقد تابع ابن جنى وأخذ ألفاظه فى اشتقاق الصوت وتذكيره وتأنيثه والأبيات الشعرية وغيرها مما هو موجود فى سر الصناعة وإن كان قدم وأخر أحيانًا[5]، كما تكلم أيضًا على اشتقاق الحرف وبيان المراد منه كـما تحدث ابن جنى تمامًـا حتى ليكاد يأخذ ألفـاظه، ويمكن فهم ذلك بالمقارنة بين ما ذكره كل منهما[6]، غاية الأمر أن ابن جنى توسع وابن سنان اختصر، وأن الأخيـر تحدث بعد تعريف الصوت واشتقاقـه عن أن الصوت معقول وليس بجسم ناقلا آراء المتكلمين من المعتزلة عن تماثل الأجسام والأعراض فى ذلك المقام، وكذلك عن إدراك الأصوات بحاسة السمع فى محالها وكونها لا تحتاج إلى انتقـال محالها، لأن كـونها أعراضا منع مـن انتقالها، وذهب إلى الفلسـفة وآراء المتكلمين كالمعتزلة فى ذلك أيضًا[7].

كما تكلم ابن سنان على الحروف المستحسنة والمستقبحة، ومخارج الحروف، والمجهور منها والمهموس، والشديد والرخو والمتوسط، والمنطبق والمنفتح والمستعلى والمنخـفض، والذلق والمصمت، والصـحيح والمعتل، كـما هو مـذكور فى سـر الصناعة فى هذا الشأن[8]، كما ذكر ابن سنان ترتيب الحروف وفق مخارجها كابن

---

(1) اللسان ١٤/ ٣٣٩.
(2) مقدمة الخصائص ١/ ٣٠.
(3) توفى سنة ٤٦٦، الفوات ٤٨٩-٤٩١.
(4) مقدمة سر الصناعة ١/ ١٧.
(5) سر الفصاحة ٥، ٦ وسر الصناعة ١/ ١١-١٥.
(6) سر الفصاحة ١٥، ١٦ وسر الصناعة ١٥-١٩.
(7) سر الفصاحة ٧-١٤.
(8) قارن الصحائف ٢٢-٢٤ من سر الفصاحة بالصحائف ٥٠-٥٧، ج١ من سر الصناعة.

جنى مبتدئا بـالهمزة ومنتهيا بالواو، وذكر الألـف بعد الهمزة[1]، وينقل ابن سنان من علم ابن جنى ورواياته اللغوية ما يؤيد رأيه، فمثلا ينقل ما ذكره فى الخصائص من قوله لأبى الطيب: إنك تكرر فى شعرك ذا وذى إلخ[2].

وأحيانا يورد ما يراه ابن جنى، ثم يعترض عليـه، فبعد أن ذكر عدة حروف الهـجاء[1]. كمـا قال ابن جنى والآراء التى أوردها كـرأى أبى العبـاس المبرد فى الهمزة وسر الإتيان باللام مع الألف الساكنة فى (لا)[3]، لم يرتض ابن سنان قول أبى الفتح «إنهم إنمـا اختاروا لها (أى لـلألف الساكنة) حرف اللام دون غـيره من الحروف لأن واضع الخـط أجراه فى هذا على اللفظ لأنه أصل للخـط والخط فرع عليه، فلمـا رآهم قد توصلوا إلى النطق بلام التعريف بـأن قدموا قبلها ألـفا نحو الغلام والجارية لما لم يمكن الابتداء باللام السـاكنة كذلك أيضًا قدم قبل الألف فى (لا) لاما توصـلا إلى النطق بالألف الساكنة، فكان فى ذلك ضرب من المعـاوضة بين الحرفين»[4]. أنكر ابن سنان على ابن جنى هذا التعليل ثم قال:

فـأما نـحن إذا سئلنـا عن العلة فى إيراد اللام مع الألف للتـوصل بحـرف متحـرك دون غيرها من الحروف فمن جـوابنا أن الغرض كان إيراد حرف مـتحرك للتوصل به والعادة جارية فى مثل هذا الموضع بمجىء همزة الوصل كما جاءت فى نحو اذهب وغـيره فـمنع من ذلك ما ذكره أبـو الفتح من أنها تأتـى مكسورة ولو جـاءت قـبل الألف مكسـورة لانقلبت الألف ياء لانكسـار مـا قـبلهـا وانتـقض الغرض[5]. فلمـا خرجت الهـمزة بهـذه العلة التى ذكرها كـانوا فى غيـرها من الحروف بالخيار أى حرف متحـرك ورد صح به الغرض، فأتوا باللام لغير علة كما خص واضع الخط بعض الحروف بشكل دون بعض لغيـر سبب، وأمثال هذا الذى

---

(١) قارن ص١٩ من سـر الفصاحة، بص٥٠، ج١ من سـر الصناعة، وانظر حديثه عن نشـأة اللغة ٤٦، ٤٧ وعن المهمل وسر إهماله ٥٧، ٥٨ وغير ذلك مما يضيق عنه المقام فلم يخرج كثيرا عن كلام ابن جنى.

(٢) سر الفصاحة ١١٩، والخصائص ٢/١٣٩.

(٣) سر الصناعة ١/٤٦-٥٠. (٤) سر الصناعة ١/ ٥٠. (٥) نفسه ١/٤٩.

لا يعلل كثيرة لا تحصى[1]. وهو على حق فى ذلك إذ نظرية ابن جنى فلسفية لا واقعية.

وكما يقول الشيخ النجار: يشتد ابن سنان فى نقده لأبى الفتح بن جنى يقول: وقد حمل أبو الفتح عثمان بن جنى قول أبى الطيب:

نَحْنُ رَكْبٌ مِلجِنٌّ فِي زِيِّ نَاسٍ فَوْقَ طَيْرٍ لَهَا شُخُوصُ الجِمَال

على المقلوب وقال: تقديره: نحن ركب من الإنس فى زى الجن فوق جمال لها شخوص طير. وهذا عندى تعسف من أبى الفتح لا تقود إليه ضرورة، ومراد أبى الطيب المبالغة على حسب ما جرت به عادة الشعراء فيقول: نحن قوم من الجن لِجَوْبِنَا الفلاة والمهامه والقفار التى لا تسلك وقلة فَرَقنا فيها إلا أننا فى زى الإنس، وهم على الحقيقة كذلك ونحن فوق طير من سرعة إبلنا إلا أن شخوصها شخوص الجمال ولا شك أيضًا فى ذلك[2].

ويبدو لنا أنه لا فرق بين المعنى الذى قصده أبو الفتح وما ذهب إليه ابن سنان، فابن جنى لا ينكر المبالغة المقصودة من قلب طرفى التشبيه[3]، الذى ضمنه الشاعر لكلامه، بل يحاول إبرازها فلم يكن يستحق أن يرمى بالتعسف من ابن سنان.

وهكذا فابن سنان يأخذ علم ابن جنى بنصه وحروفه، وقد يناقشه فيما قال، ويظهر للباحث أن معظم كتابه مبنى على ما أخذه عن ابن جنى.

وممن تأثر بابن جنى فى كتابته العلمية ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الموصلى الشافعى المعروف بابن الأثير[4]، فقد نقل فى كتابه المثل السائر

---

(١) سر الفصاحة ٢١. (٢) نفسه ١٣٢.

(٣) انظر الخصائص ١/ ٣٠٢، فهو يقول: «جعل كونهم جنا أصلا وجعل كونهم ناسا فرعا وجعل كون مطاياه طيرا أصلا وكونها جمالا فرعا فشبه الحقيقة بالمجاز فى المعنى الذى منه أفاد المجاز من الحقيقة ما أفاد».

(٤) توفى سنة ٦٣٧هـ، البغية ٢/ ٣١٥.

فصولا كـاملة لابن جنى دون أن ينسبها إليـه، ومن ذلك ما نقله عنه من رده على من اعتقد عـناية العرب بالألفاظ دون المعانى، فقد عـرض له ابن الأثير فى المقالة الثانيـة فى الصناعة المعنوية، وقال فى أوله: اعلم أن العـرب كما تعـتنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعانى أقوى عندها وأكرم عليها... إلخ، ويستمر إلى آخر ما قال ابن جنى فى ذلك دون أن ينسبه إليه[1]. ولذلك عقب المحققان للكتاب فى هذا الموضع فـقالا: قد يـعتقـد القارئ أن هذا الجـواب من ثمار فطنة ابـن الأثير واستقلال ملكته النقدية، ولكن الحقيقة أنه سطا عليه ونقله بمعانيه وأكثر حروفه من غيـر أن يرجعه إلى صاحـبه وكثـيرا ما رأينا منه مـثل ذلك، وهذا الجواب هو من تأليف أبى الفتح عثمان بن جنى صاحب الخـصائص الذى قد بسط القول فيه على هذا النحو[2]. كمـا يذكر ابن الأثـير فصـلا عن الاشتـقاق تحت النوع الـسادس والعشرين ولا يأتى بجديد، بل ينقل من الخصـائص الألفاظ والأمثلة فى كثير من الأحيـان كقوله فى تعـريف الاشتقـاق الصغـير: هو أن تأخذ أصـلا من الأصول فتتقراه فتجمع بين معانيه وإن اختلفت صيغه ومبانيه كتركيب (س ل م).. وكذلك ينقل تعريف الاشتقاق الكبير (الذى سماه ابن جنى الأكبر) بنص كلامه ويذكر من أمثلة ابن جنى تركيب (و س ق)، والغـريب أنه يقول: واعلم أنا لا ندعى أن هذا يطرد فى جمـيع اللغة بل قـد جاء شيء منها كـذلك، وهذا مما يدل على شرفـها وحكمتها إلى آخر ما ذكره ابن جنى فى ذلك دون أن ينسبه إليه[3].

وهو يورد بعض آراء ابن جنى، ويعتـرض عليها كرأيه فى المجـاز اللغوى، يقول: وكنت تصفحت كتاب الخصائص لأبـى الفتح عثمان بن جنى فوجدته ذكر فى المجاز شيئًا يتطرق إليه النظر، وذلك أنه قـال: لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا لمعان ثلاثة وهى الاتساع والتشبيه والتوكيـد، ثم يعترض عليها، فيقول: والنظر

(١) المثل السائر ١٤٠، ١٤١، ط حجـارى، و٦٥-٦٦ القسم الثانى، ط نهضة مصـر، والخصائص ١/ ٢١٥ وما بعدها.

(٢) المثل السائر القسم الثانى التعليق ص٦٧.

(٣) نفسه ط حجارى ٣٠٢-٣٠٤ والخصائص ٢/ ١٣٣-١٣٩.

يتطرق إليه من ثلاثة أوجه، ويأخذ فى البيان لما يريد من اعتراض عليه[1]. ويعقد فصلا لبيان «قوة اللفظ لقوة المعنى» يدعى فيه أنه نبه على نكت لم ينبه عليها ابن جنى مع أن مادته العلمية من كلام أبى الفتح الذى يعترض عليه[2].

كذلك السيوطى فى كتابه «الاقتراح» يعترف بأنه استمد فيه كثيرا من خصائص ابن جنى، يقول فى مقدمته: واعلم أنى استمددت فى هذا الكتاب كثيرا من كتاب الخصائص لابن جنى، فإنه وضعه فى هذا المعنى وسماه أصول النحو، لكن أكثره خارج عن هذا المعنى وليس مرتبا، وفيه الغث والسمين، والاستطرادات فلخصت منه جميع ما يتعلق بهذا المعنى بأوجز عبارة وأرشقها وأوضحها معزوا إليه[3].

ولو رجعنا إلى المؤلفات اللغوية والنحوية بعد ابن جنى لوجدنا معظمها مملوءًا بالنقول عن كتبه، بل يكاد يكون قول ابن جنى قولا لا يجادل فيه[4]، وإن أثره فى علم التصريف واضح جلى يتبين لمن (يطلع على آثار الصرفيين وأصحاب المعاجم من بعده فإنها كلها مطبوعة بطابعه)[5]، فكتاب نزهة الطرف فى علم الصرف لأحمد بن محمد الميدانى[6]. وما يوجد فى المفصل لابن يعيش[7] وشافية ابن الحاجب[8]، وشروحها للجاربردى[9]، والاستراباذى رضى الدين[10] وغيرها، وكتب ابن مالك[11]، وجمع الجوامع و الأشباه والنظائر والمزهر للسيوطى والمعاجم المتأخرة ولا سيما لسان العرب، كل ذلك وغيره يعتمد على كتب ابن جنى ويغترف من بحرها.

---

(١) نفسه ط حجازى ١٤٥، ١٤٦، فصلنا الاعتراض وردنا عليه فى حديثنا عن المجاز اللغوى، انظر ص ٩٠٣ وما بعدها من كتابنا.

(٢) نفسه ط حجازى ١٩٠-١٩٢، والخصائص ٣/ ٢٦٤-٢٦٩.

(٣) الاقتراح ص٢، ٣.

(٤) مجلة المجمع العلمى ٣٢/ ٦٦٨.

(٥) نفسه ٣١/ ١١٠، ١١١.

(٦) توفى سنة ٥١٨هـ، البغية ١/ ٣٥٦.

(٧) توفى سنة ٦٤٣هـ، وفيات الأعيان ٦/ ٤٥-٥١.

(٨) توفى سنة ٦٤٦هـ، البغية ٢/ ١٣٤، ١٣٥.

(٩) توفى سنة ٧٤٦، البغية ١/ ٢٠٣.

(١٠) توفى سنة ٦٨٤ أو ٦٨٦هـ، البغية ١/ ٥٦٧، ٥٦٨.

(١١) توفى سنة ٦٧٢هـ شذرات الذهب ٥/ ٣٣٩.

هذا فى العصور القديمة أما فى العصور الحديثة فإن أحدث النظريات اللغوية فى الأصوات وفقه اللغة واللهجات وغيرها من مادة أصول اللغة ومناهجها يتناقلها المحدثون فى تفكيرهم وكتبهم عنه، بل إن الأوربيين قد استعانوا بها، وفتحت أمامهم المجال لكشف الغامض من أسرار اللغات جميعا، وسيتضح ذلك - بما لا يدع مجالا للشك - عند عرضنا لآرائه اللغوية المبتكرة، ومقارنتها بما وصل إليه المحدثون فى الدراسات اللغوية، فإنها هى مادة هذا الكتاب، وهدفه الأسمى.

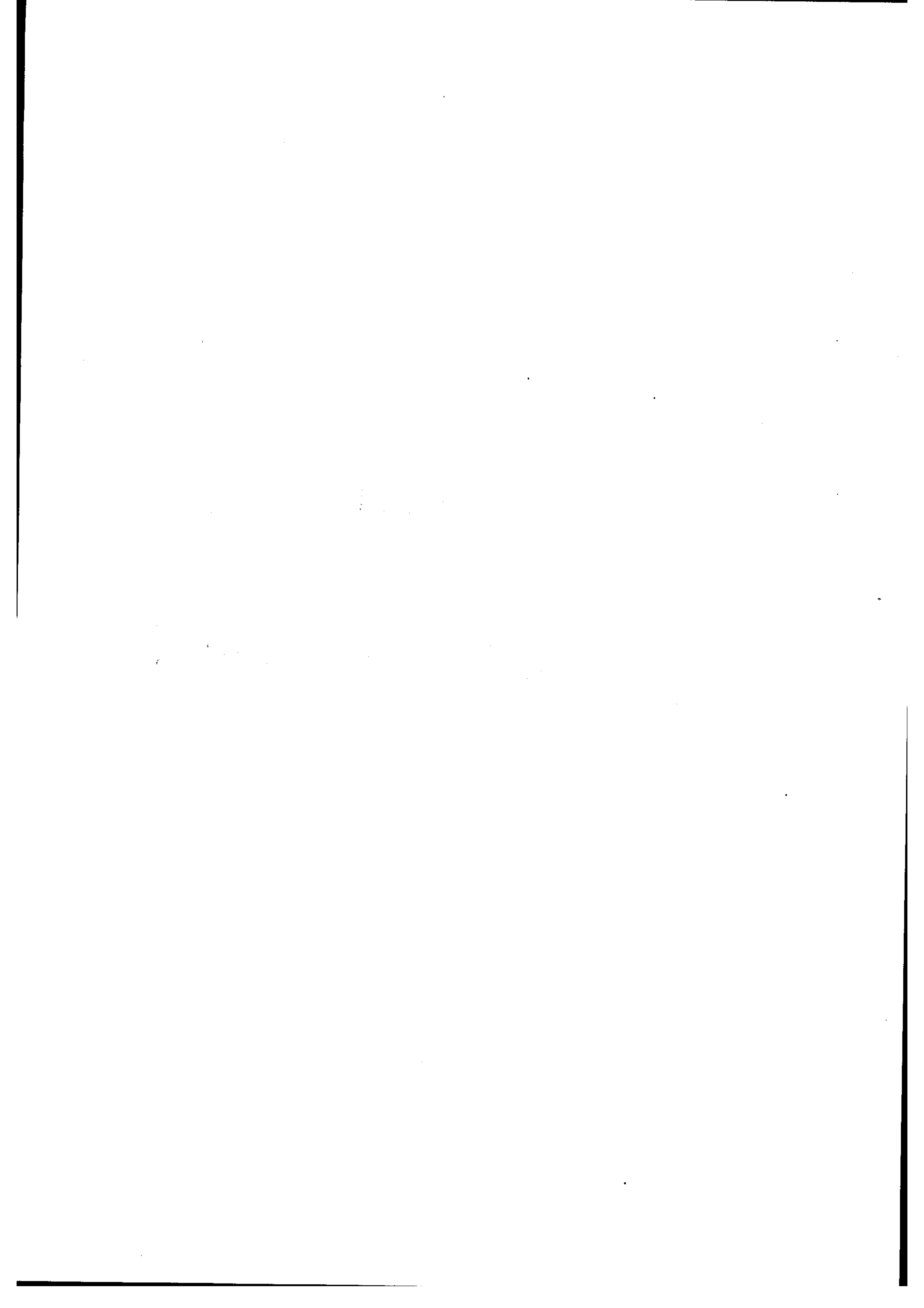
وسنفصل ذلك تفصيلا شافيا إن شاء الله تعالى.

القسم الثانى
جهوده اللغوية وقيمتها العلمية

- الباب الرابع: اللغة توقيف أم اصطلاح؟.
- الباب الخامس: اللهجات وتنوعها.
- الباب السادس: القياس اللغوى.
- الباب السابع: البناء اللغوى وفلسفته.
- الباب الثامن: الأصوات وتبدلها.
- الباب التاسع: الدلالة ومظاهرها.

الباب الرابع

اللغة توقيف أم اصطلاح؟



تمهيد

لم يترك العلماء والباحثون مشكلة من مشاكل الكون إلا أثاروها، ووقفوا يتطلعون إلى دقائقها، ويسبرون غورها بحسب ما تقتضيه ظروفهم، وما يؤهلهم له علمهم واكتشافهم، وفى كل ميدان وجدناهم يشقون طريقهم، ولو لم تكن نتائجهم قاطعة فى بعض الأحيان، فسلكوا غمار الفلسفة ليبحثوا فيما وراء الطبيعة، ويتخطوا العالم المحدود، وينظروا ما بعده.

وقد دعاهم إلى ذلك «غريزة حب الاستطلاع» الموجودة لدى البشر، والتى تحفزهم إلى الإغراق بتفكيرهم فى كل ما حولهم، لينتفعوا به وليدركوا كنهه وأسراره وأبعاده وآماده، وفى أى عصر وجد، ومن السبب فى وجوده؟ وكيف استمر هذا الوجود يقطع حياة الزمن حتى وصل إلى غايته التى هو عليها الآن؟، وإذا كان الإنسان بجهوده وأفكاره قد استطاع أن يكشف النقاب عن كثير من أسرار الكون، وحقائق الأشياء التى تحيط به حتى اجتلى كنه الذرة، واستخدمها فى أغراضه المختلفة، وصنع العجائب ووصل إلى الكواكب، فإن الكثير كذلك من أعماق هذا الكون البعيدة لا تزال طى الغموض، وتحتاج إلى جهود وجهود قد تقطع آفاق الزمن المستقبل ولا يصل الإنسان فيها إلى ما يشفى غلته، ويميط اللثام عن حقائقه، ولقد كان الإنسان نفسه موضع بحثه من أطرافه المختلفة من الناحية «الفسيولوجية والأنثروبولوجية» وغيرها مما يتصل به ويبرز خصائصه، ويحفظ نوعه فى الحياة وصلته بما حوله من الكائنات، وقد اقتضته تلك الدراسة أن يبحث عن كل مكوناته، وظروفه الاجتماعية، وما تحتاج إليه من ملابسات، فبحث عن نفسه كيف نشأ؟ ومتى؟ وأين؟ وهنا برزت آراء متعددة منذ نشأ العلم على ظهر الكرة الأرضية.

ثم بحث هؤلاء عن لغتهم الأولى كيف نشأت؟ ومتى؟ ومن الذى أنشأها؟ ثم ما التطورات التى اعترتها حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن من تشعب

واختلاف؟ وقد خاض العلماء قديمًا وحديثًا فى هذا الموضوع بناء على أدلة بدت لهم دينيا وفلسفيا واجتماعيا، والإنسان الباحث، وإن كان قد وصل فى كثير من بحوثه إلى نتائج مرضية لم يصل حتى الآن فى الكشف عن أولية لغته إلى رأى قاطع، ولعل ذلك لأنها ناحية (ميتافيزيقية) لم يقم عليها دليل ظاهر للعيان. ولهذا يصح القول «بأن أكثر ما كتب فى هذا الموضوع لم يتجاوز مرحلة التخمين والافتراض»[1]، وكما يقول أستاذنا الدكتور قناوى: «لا يستطيع الباحث أن يعين كيف ومتى تمت دلالة الألفاظ على المعانى؟ ومن الذى أبدع ذلك على سبيل اليقين؟ إذ لا سبيل إليه لقدم العهد وانطواء الزمان على سر ذلك، وليس لدينا كتاب ينطق بما كان أو أثارة من علم أو شاهد عقلى، وقصارى جهد الباحثين فروض وظنون يخالونها حقائق اعتمادًا على بعض الظواهر والأفهام»[2]، وكما يقول الدكتور وافى: إنها «آراء ظنية تعتمد على الحدس والتخمين فى بعض نواحيها، وفى نواح أخرى على حجج ضعيفة لا يطمئن إلى مثلها التحقيق العلمى شأن جميع البحوث التى تعرض لأصول النظم الإنسانية، وقد أعرض عنه المحدثون من علماء اللغة لأن منهج البحث فيه لا يتفق فى شىء مع ما ينبغى أن تكون عليه مناهج البحث فى العلوم»[3].

ولكننا لا نوافق المحدثين على التنحى عن هذا البحث، فإن الأيام والتجارب العلمية والبحوث الجيولوجية تحقق كل يوم مزيدًا من التقدم وكشف الأسرار، ولا ريب أن ذلك سيتيح يومًا ما للباحث الحديث أن يتأكد من مصدر اللغة ومكوناته الأولى ومبدعه الأول، ونستطيع القول -ونحن نسير مع عالمنا ابن جنى فى آفاقه- بأن هذا العبقرى قد حاز قصب السبق فى هذا الميدان، فالآراء التى وصل إليها فيه أكاد أجزم بأن المحدثين ومن سبقهم لم يزيدوا عليها جديدًا، فلقد أفصح عالمنا الفذ عن آراء فحول العلماء العرب، ويبدو للمتأمل فيها أنهم وصلوا إلى النتائج

(١) قضايا لغوية، ١١٢.

(٢) من محاضرات لأستاذنا الدكتور محمد قناوى فى فقه اللغة.

(٣) علم اللغة، د. وافى، ط ١٩٣٨م، ص٥، ٦.

التى وصل إليها المحدثون فى عصرنا، والتى يدعون حداثتها وابتكارها، ولقد كان لروحه التى طُبعت على العلم والدأب فى البحث أثر عميق فى مناقشة هذا الموضوع الغامض بجرأة نادرة وأدلة قوية مقبولة.

وسنعرض لأهم الآراء التى ذهب إليها العلماء قديمًا وحديثًا، لنعرف أنها مهما تبلغ فى حداثتها فإنها تنبنى على أساس استمد جذوره من معالم هذا التراث العربى الصحيح، ثم نوضح رأى ابن جنى نتيجة لما نذكره منها وكيف كان بحثه عمادا لها، ومؤسسا لأحدث نظرياتها.

مذاهب العلماء فى نشأة اللغة

للعلماء فيها مذاهب أهمها:

١- المذهب التوقيفى

اعتقد القول بأن اللغة من عند الله جماعة من الباحثين الفلاسفة واللغويين قديمًا وحديثًا، فمن الفلاسفة أبو الحسن الأشعرى وهيراكليت[١] Heraclite ودبونالد De Bonald[١]، وقد نسب هذا الرأى لأفلاطون[٢]، ومن اللغويين أبو على الفارسى[١]، وأحمد بن فارس[٣].

وقد نقل ابن جنى عن بعضهم تفسير التوقيف «بأن الله سبحانه علم آدم - عليه السلام- أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية، وغير ذلك من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها ثم إن ولده تفرقوا فى الدنيا وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه واضمحل عنه ما سواها لبعده عنهم بها[٤]»، ونقل السيوطى عن ابن عباس أنه كان

---

(١) علم اللغة، د. وافى، ط ١٩٦٢م، ص٨٩، وفقه اللغة، د. نجا، ١٢، ومحاضرات د. قناوى وفلسفة اللغة (الحاج)، ٢٠، والفخر الرازى ١/ ٢٦٣، والبغية، ص١١.

(٢) فقه اللغة د، نجا ١٣، ويرى بعضهم أن رأيه تراوح بين التوقيفية والتواطئية، فلسفة اللغة، ص٢٠.

(٣) الصاحبى ٣١. (٤) الخصائص ١/ ٤١.

يقول: علمه الأسماء كلها وهى هذه الأسماء التى يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل واشباه ذلك من الأمم وغيرها، وقيل: إنه علمه ما احتاج إليه فى زمانه، ثم حدث التوقيف تدريجيا على لسان الأنبياء - عليهم السلام - من بعد آدم إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ، فلا نعلم لغة من بعده حدثت، وإليه ذهب ابن فارس[1]، وقيل إنه «تعليم آدم كل ما يتعلق باللغة كتقطيع الأصوات وتكوين الكلمات ووضعها بإزاء معانيها الدالة عليها عن طريق الوحى أو بخلق أصوات فى بعض الأجسام ليسمعها»[2].

أدلة هذا المذهب

لا يخلو البرهان على قضية من القضايا العلمية، من أن يكون سمعيا أو عقليا أو جامعا بينهما، والعلم الحديث يضيف إلى ذلك أدلة واقعية وتجريبية، بعد أن تطورت الحياة وتعددت وسائل الاستدلال، وأرباب القول بالتوقيف كانوا من «أهل التقليد المحافظين» فظهر بين بعض السنيين من أهل الكلام العرب[4]، كأبى الحسن الأشعرى وأحمد بن فارس، وظهر هذا الرأى عند علماء الغرب منذ كان «رأى الدين سائدًا فى (أوربا) المسيحية حتى أواسط القرن الثامن عشر[5]، ولهذا اعتمد هذا الفريق على أدلة نقلية لتمسكه بالنصوص، ثم ساق أدلة عقلية تعد هى الأخرى امتدادًا للدليل النقلى نفسه ومشتقة منه، مما سوغ للدكتور وافى أن يقول: وليس له دليل عقلى[6]، وحدا ذلك بابن جنى أن يقتصر فى ذكر دليلهم على بعض النصوص النقلية كالآية الكريمة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... (٣١)﴾ [البقرة] ثم يعقب على ذلك بقوله نقلا عن أصحاب هذا الرأى: وإذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاده والانطواء على القول به»[7]، ونحن - مع ذلك - سنذكر النصوص الصريحة فى صورة أدلة نقلية، ثم نأتى بما استنتجوه مما يتصل بها فى صورة أدلة عقلية على حد ما ذهب إليه الباحثون قديمًا وحديثًا.

---

(٢) المزهر ١/٦، ١٩، ط صبيح، ط. دار إحياء الكتب العربية ١/٩، ٢٧.

(٣) الفخر الرازى ١/ ٢٦٣، وفقه اللغة د. نجا ١٢، ومحاضرات د. قناوى.

(٤) دلالة الألفاظ، د. أنيس ١٢. (٥) قضايا لغوية، ١١٦.

(٦) علم اللغة، د. وافى، ط١٩٦٢، ص٨٩. (٧) الخصائص ١/ ٤٠، ٤١.

الأدلة النقلية:

للمسلمين أدلة اقتبسوها من القرآن الكريم ولغيرهم أدلة مقتبسة من التوراة، فالآيات القرآنية التى اعتمد عليها المسلمون هى:

١- قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... (٣١)﴾ [البقرة]، ويذكر ابن جنى أن أبا على أستاذه قد احتج بها عندما قال له يومًا: إن اللغة من عند الله[1]، فالأسماء كلها معلمة من عند الله بالنص، وكذا الأفعال والحروف أيضًا أسماء، لأن الاسم ما كان علامة والتمييز من تصرف النحاة لا من اللغة، وقد أجاب ابن جنى عن اختصاص الأسماء بالذكر فى الآية دون الأفعال والحروف مع أنها مرادة ومعلمة، من حيث كانت أقوى القُبُل الثلاثة[2]، ولا بد لكل كلام مفيد من الاسم، وقد تستغنى الجملة المستقلة عن كل واحد من الحرف والفعل، فلما كانت الأسماء من القوة والأولية فى النفس والرتبة على ما لا خفاء به جاز أن يكتفى بها مما هو تال لها ومحمول فى الحاجة إليه عليها، وهذا كقول المخزومى:

اللَّهُ يَعْـــلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ   حَتَّى عَلَوا فَرَسِى بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ

أى فإذا كان الله يعلمه فلا أبالى بغيره سبحانه، أذكرته واستشهدته أم لم أذكره ولم أستشهده، ولا يريد بذلك أن هذا أمر خفى فلا يعلمه إلا الله وحده، بل إنما يحيل فيه على أمر واضح وحال مشهورة حينئذ متعالمه[3]، وهذا الجواب بنى على أن المراد بالأسماء ما يقصده النحاة، ولكن اللغويين لا يقصدونه بل يريدون بالاسم ما كان علامة على مسمى، كما يقول السيوطى، وبذلك يسقط أساس الاعتراض وجوابه، وقد نبه على ذلك أستاذنا الشيخ (النجار) فى تعليقه على الخصائص[4].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ... (٢٣)﴾ [النجم]، فقد ذم سبحانه وتعالى عبدة الأصنام على تسميتهم لها دون وحى إلهى، وذلك يقتضى كون غيرها من الأسماء توقيفيًا.

---

(١) نفسه ١/ ٤٠.
(٢) المراد الأنواع.
(٣) الخصائص ١/ ٤١، ٤٢.
(٤) نفسه ١/ ٤١، ٤٢.

٣- قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ... (٢٢)﴾ [الروم]، فالمراد بالألسنة اللغات والألسنة اللحمانية غير مرادة لعدم اختلافها، ولأن بدائع الصنع فى غيرها أكثر[١].

واعتمد غير المسلمين من الفرنجة على ما ورد فى سفر التكوين (الإصحاح الثانى): [وَجَبَلَ الرَّبُّ الإلهُ من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية][٢].

الأدلة العقلية: يذكر ابن فارس والسيوطى الأدلة العقلية على الوجه التالى:

١- إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه ثم احتجاجهم بأشعارهم، ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا لم يكن أولئك فى الاحتجاج بهم بأولى منا فى الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم ولا فرق.

٢- إن علماءنا الأوائل أدركوا أن اللغة أمر توقيفى لا يجوز لأحد أن يزيد فيه من عنده، فلقد بلغنا عن أبى الأسود الدؤلى أن امرأ كلمه ببعض ما أنكره أبو الأسود، فسأله أبو الأسود عنه فقال: هذه لغة لم تبلغك، فقال له: يا ابن أخى إنه لا خير لك فيما لم يبلغنى، فعرفه بلطف أن الذى تكلم به مختلق.

٣- لم يبلغنا أن قومًا من العرب فى زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شىء من الأشياء مصطلحين عليه، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح قد كان قبلهم، وقد كان فى الصحابة رضى الله عنهم وهم البلغاء الفصحاء من النظر فى العلوم الشريفة ما لا خفاء به، وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة أو إحداث لفظة لم تتقدمهم[٣].

---

(١) الصاحبى ٣١، ٣٢ وغيرهما، والمزهر ١/ ١١، ط. صبيح، وفقه اللغة، د. نجا ج٣، ص١٣، ١٤، ومحاضرات د. قناوى، والفخر الرازى ١/ ٢٦٣.

(٢) التوراة سفر التكوين الفقرتين ١٩، ٢٠، ص٩ من الترجمة العربية، وجَبَلَ: خلَق. القاموس ٣/ ٣٥٦.

(٣) والصاحبى ٣٣، ٣٤، والمزهر ١/ ٦، ٧.

٤- لو كانت اللغات اصطلاحية لاحتيج فى التخاطب بوضعها إلى اصطلاح آخر من لغة أو كتابة يعود إليها الكلام، ويلزم إما الدور أو التسلسل فى الأوضاع، وهو محال فلا بد من الانتهاء إلى التوقيف[١].

٥- يذكر أساتذتنا أن «الكلام أجل من أن يبدعه الإنسان، وكيف يبدعه وهو إنما يفكر بألفاظ متخيلة يناجى بها نفسه، فالفكرة متوقفة على الكلام، وإذا كان الطفل لا يفكر إلا بعد أن يكلمه أبواه فكذلك الإنسان الأول لا يفكر إلا بعد أن يكلمه الله»[٢]، فاللغة بما فيها من قوة بيان وروعة سحر وحسن نظام تدل على أنها من صنع الإله لا من صنع الإنسان، وهذا ما أشار إليه ابن جنى بقوله: «واعلم فيما بعد أننى على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع فأجد الدواعى والخوالج قوية التجارب لى، مختلفة جهات التَّغَوُّلِ على فكرى، وذلك أنى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة ما يملك علىّ جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر، فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله، ومنه ما حذوته على أمثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده وبعد مراميه وآماده، صحة ما وُفِّقُوا لتقديمه منه، ولطف ما أسعدوا به، وفرق لهم عنه، وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله جل وعز، فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توقيفًا من الله سبحانه وأنها وحى[٣]، وقد نبه على ذلك أستاذنا الدكتور قناوى فى إحدى محاضراته عن نشأة اللغة الإنسانية.

وهذه الأدلة نقلية وعقلية ليست قطعية فى إفادتها ما أرادوا من نشأة اللغة عن طريق الإلهام الإلهى كما يقول أستاذنا الدكتور نجا لأنه يمكن توجيهها والإجابة عنها.

---

(١) نفسه ١/ ١١، وانظر فقه اللغة، د. نجا، ١٣ وغيرها.

(٢) فقه اللغة، د. نجا ١٣، ومحاضرات د. قناوى.

(٣) الخصائص ١/ ٤٧.

أ - الأدلة النقلية:

١ - فالآية الأولى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... ﴿٣١﴾﴾ [البقرة] لا يتأتى لهم الاستدلال بها إلا إذا كانت (علَّم) بمعنى (لقَّن ووقَّف)، والأسماء بمعنى الألفاظ، ولا يتعين هذا المعنى؛ لجواز أن يكون معنى (علَّم) أقدر، ومن هنا نفى ابن جنى إمكان الاستدلال بهذه الآية، وقال: «إن» «هذا لا يتناول موضع الخلاف، وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله أقدر آدم على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة، فإذا كان ذلك محتملا غير مستنكر سقط الاستدلال به»[1]، وقد أثبت الفخر الرازى «أن من الناس من فسر الأسماء فى الآية بصفات الأشياء ونعوتها وخواصها، والدليل عليه أن الاسم اشتقاقه إما من السمة أو من السمو، فإن كان من السمة كان الاسم هو العلامة، وصفات الأشياء ونعوتها وخواصها دالة على ماهياتها، وإن كان من السمو فكذلك، لأن دليل الشيء كالمرتفع على ذلك الشيء، وإذا ثبت أن هذا التفسير ممكن بحسب اللغة وجب أن يكون هو المراد لوجوه:

أ - الفضيلة فى معرفة حقائق الأشياء أكثر من الفضيلة فى معرفة أسمائها.

ب- أن التحدى إنما يجوز ويحسن بما يتمكن السامع من مثله فى الجملة، فلا يليق بعربى أن يتحدى زنجيا بفصاحة، وذلك لأن العقل لا طريق له إلى معرفة اللغات بل ذلك بالتعليم[2].

وقد أخذ الدكتور محمد المدنى بهذا التفسير حيث قال فى معنى تلك الآية: «إن المراد بتعليم الأسماء هنا هو ما طبع عليه آدم من إدراك المعانى والخواص والقدرة على الوصول إلى الحقائق وتتبع أمرها واستنباط المعلومات من المجهولات[3]، وقد أيد أستاذنا الدكتور نجا هذا المعنى، فقال: إنه يجوز أن يكون

---

(١) نفسه ١/ ٤٠، ٤١.

(٢) الفخر الرازى ١/٢٦٣، والمزهر ١/ ١٢، ط. صبيح مثل أن يعلم آدم صلاح الخيل للعدو والجمال للحمل والثيران للحرث.

(٣) مجلة منبر الإسلام العدد ١٧ السنة ١٨، ديسمبر ١٩٦٠.

المراد من الأسماء سمات الأشياء، فلكل صنف علامة وأمارة يتميز بها عما عداه[1]، فيكون معنى الآية - كما ذكر أستاذنا الدكتور قناوى -: «لقَّن الله آدم أو أقدره على معرفة خصائص الأسماء فلا تصلح الآية أن تكون دليلا لهؤلاء»[2].

٢- والآية الثانية ليست ذما لهم لاختراعهم أسماء لبعض الأصنام بل لعبادتهم لها، واعتقاد أنها آلهة[3]، وقد ذكر أستاذنا الدكتور قناوى أن الله تعالى أطلق عليها نفس تلك الأسماء ﴿يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح]، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ ... ﴿٢٠﴾﴾ [النجم].

٣- وفى الآية الثالثة لا يتعين أن يكون المراد باختلاف الألسنة اختلاف اللغات بمعنى تعددها بين البشر، بل يجوز أن يكون المراد اختلاف مخارج الحروف أو القدرة عليها، كما يقول السيوطى[4] أو هو بمعنى أوضح اختلاف نغماتها وأصواتها لدى الشعوب والأفراد، كما ذكر أستاذنا الدكتور قناوى، وعلى الأول يمكن أن يكون معنى الآية أنه سبحانه علَّم كل صنف من الناس لغة وألهمه وضعها وأقدره على ذلك[5].

٤- أما ما ورد فى سفر التكوين من النص السابق، فلا يدل على شىء مما يقول به أصحاب تلك النظرية بل هو دليل عليهم[6]، فآدم هو الواضع للأسماء كما هو صريح النص[7].

ب- الأدلة العقلية:

١- أجابوا عن الدليل الأول، بأن الاحتجاج يختص باللهجة القرشية الموحدة التى هى عصب القومية العربية، ولا صلة لهذا بنشأة اللغة الإنسانية[8].

---

(١) فقه اللغة (ج ٣)، ص١٥.   (٢) محاضرات الدكتور قناوى.

(٣) المزهر، ط. دار إحياء الكتب العربية ١/ ١٩.

(٤) نفسه ١/ ١٢.   (٥) تفسير أبى السعود ١/ ١٨٢.

(٦) علم اللغة، د. وافى ٨٩، ط١٩٦٢م ومحاضرات د. قناوى.

(٧) ولم تخبرنا هذه القصة عن ماهية الأصوات أو الكلمات التى استعملها آدم حين التسمية ولم تذكر لنا شيئًا عن مميزات اللغة الأولى وهذا أهم ما فى الموضوع. انظر قضايا لغوية ١١٤.

(٨) فقه اللغة د. نجا ٣/ ١٤.

٢، ٣- وعن الثانى والثالث بأن الواقع بخلاف ذلك، فألفاظ اللغة العربية -كغيرها من اللغات الأخرى- دائمة التغير فألفاظ تموت وأخرى تولد وثالثة تتجدد فى صيغها ومعناها، كلما مرت عليها عوامل الحياة المتطورة، والإسلام كما يقول أستاذنا الدكتور قناوى «أمات ألفاظا وأحيا أخرى وأمات تراكيب وأحيا أخرى، واستحدث ألفاظا ونقل ألفاظا من معانيها إلى معان أخرى، وما زالت تستحدث ألفاظ فى الصناعات المختلفة»[١]، وهذا يؤكد - كما يقول أستاذنا الدكتور نجا - أن اللغات من صنع البشر وليست من وضع الخالق جل وعلا، لأن ذلك يتطلب عدم التغيير بالزيادة أو بالنقص إلا بوحى منه جل ثناؤه وهو غير موجود[٢].

٤- وعن الرابع يجيب السيوطى بأن الاصطلاح لا يستدعى تقدم اصطلاح آخر بدليل تعليم الوالدين للطفل دون سابقة اصطلاح ثَمة، وقد وافق على ذلك علماء اللغة المحدثون كأستاذنا الدكتور نجا[٣].

٥- وعن الخامس بأن الفكرة تتوقف على الكلام النفسى لا الكلام الصوتى الذى نتحدث عنه[٣]، ونحن نتكلم عن اللغة الإنسانية الأولى وهى - بالطبع - لم تكن تبلغ درجة الإبداع التى وصل إليها الكلام فى العصور المتأخرة بعد أن تطورت اللغات وارتقت ذروتها، وكما يقول أستاذنا الدكتور قناوى: فاللغة العربية التى بهرت ابن جنى بسحرها وإبداعها لم تصل إلى هذه الصورة إلا بعد أزمان طويلة على نشوء اللغة وهو العصر الجاهلى ويقدر بمائة وخمسين سنة قبل الإسلام[٤].

٦- تعليم آدم جميع اللغات عبث لا يمكن قبوله.

٢- المذهب الوضعى

ذهب فريق من الباحثين إلى أن الإنسان هو الذى وضع ألفاظ اللغة الإنسانية بجميع فروعها التى يتكلم بها الناس فى شتى بقاع الأرض، من عربية وعبرية

---

(١) محاضرات د. قناوى. وانظر الصاحبى (باب الأسباب الإسلامية).

(٢) فقه اللغة، د. نجا ٣/ ١٥. (٣) نفسه ٣/ ١٤. (٤) المرجعان السابقان.

وفارسية وإنجليزية وفرنسية وغيرها من فروع اللغات، فهو مخترعها وصانعها بفكره الخاص وبحسب حاجته فى هذه الحياة، وقد قال بذلك فلاسفة ولغويون، فمن الفلاسفة أبو هاشم الجبائى[1]، من المتكلمين العرب، ومن الغربيين قديما ديموكريت[2]، وحديثًا آدم سميث وريد ودجلد ستيورات، كما ذهب إليه عدد كبير من علماء فقه العربية كالفارسى[3].

وطريقة المواضعة كما تصورها أصحابها وكما حكاها ابن جنى هى: كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدًا فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظًا إذا ذكر عرف به ما مسماه ليمتاز من غيره وليغنى بذكره عن إحضاره... بل قد يحتاج فى كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحضاره كالفانى وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد... وغير هذا مما هو جار فى الاستحالة والبعد مجراه، فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم فأومئوا إليه، وقالوا: إنسان إنسان إنسان، فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا: يد، عين، رأس، قدم، أو نحو ذلك. فمتى سمعت هذه اللفظة من هذا عرف معنيها، وهلم جرا، فيما سوى هذا من الأسماء والأفعال والحروف، ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها فتقول: الذى اسمه إنسان فليجعل مكانه (مَرْد) والذى اسمه رأس فليجعل مكانه (سَرْ)، وعلى هذا بقية الكلام، وكذلك لو بدئت اللغة الفارسية فوقعت المواضعة عليها لجاز أن تنقل ويولد منها لغات كثيرة من الرومية والزنجية وغيرهما[4]، ولهؤلاء أدلة نقلية وعقلية:

١- من أدلتهم النقلية:

أ - استدل علماء المسلمين بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ... ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم]، وهذا يقتضى تقدم اللغة على البعثة[5].

---

(١) ت سنة ٣٢١هـ، دول الإسلام للذهبى ١/ ٥٣.

(٢) من فلاسفة اليونان فى القرن الخامس ق.م.

(٣) فقه اللغة، د. نجا ١٥، والخصائص ١/ ٤١، وعلم اللغة د. وافى ٨٩، ط١٩٦٢م.

(٤) الخصائص ١/ ٤٤، ٤٥. (٥) المزهر ١/ ١٢. ط. صبيح.

ب- استدلوا أيضًا بالآية التى استدل بها أصحاب التوقيف، وهى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... (٣١)﴾ [البقرة]، واستنتجوا منها ما يعضد نظريتهم كالآتى:

١- اللغة لو كانت توقيفية لاقتضى ذلك أن يخلق الله علما ضروريا بوضع الألفاظ لمعانيها للعاقل أو لغير العاقل أو لا يخلق ذلك أصلا، والأول باطل لصيرورة الله معلومًا بالضرورة مع أن ذاته معلومة بالاستدلال ولو كان كذلك لبطل التكليف، والثانى باطل كذلك، لأن غير العاقل يبعد أن يحصل له العلم بهذه اللغات مع ما فيها من الحكمة العجيبة، والثالث باطل، لأن العلم بها إذا لم يكن ضروريا احتيج إلى توقيف آخر ولزم التسلسل.

٢- أنه تعالى خاطب الملائكة، وذلك يوجب تقدم لغة على ذلك التكلم.

٣- أن تعليم آدم الأسماء يقتضى كون تلك الأسماء معلومة قبل ذلك.

٤- تحدى آدم للملائكة بتلك الأسماء يقتضى معرفتهم بها حتى يتبينوا صدقه، وذلك يقتضى أن يكون وضع تلك الأسماء متقدمًا على ذلك التعليم[1].

٢- ومن أدلتهم العقلية:

أ - الصلة بين الألفاظ ومدلولاتها صلة عرفية لا تخضع لمنطق أو عقل فما يمكن أن يسمى شجرة مثلا كان يمكن أن يسمى بأى لفظ آخر، ولا يصح لهذا أن ينسب مثل هذا العمل الناقص لله سبحانه وتعالى»[2]، وقد فند (هيردار)[3]، نظرية التوقيف بما يوجد فى اللغات من عيوب لا تليق بالله، وضرب مثلا لذلك بكثرة الألفاظ على المعنى الواحد كالسيف له خمسون اسما وهو المعروف بالترادف[4].

---

(١) الفخر الرازى ١/ ٢٦٣، والمزهر ١/ ١٢، وسر الفصاحة، ص٤٧.

(٢) دلالة الألفاظ د. أنيس ١٤.

(٣) تلميذ «كانت» الفيلسوف الألمانى. كتب مقالة عن نشأة اللغة عام ١٧٧٢م فقه اللغة، د. طه عبدالحميد ٤٨.

(٤) قضايا لغوية ١١٧، ١١٨.

ب- تصور أصحاب هذا الرأى أن المواضعة وصنع الألفاظ وجعلها تدل على معانيها المرادة منها لا يمكن أن يحدث من الله تنزيها له، فقد قالوا - كما حكى ابن جنى -: إن أول اللغات لابد أن يكون متواضعا عليه بالمشاهدة والإيماء، قالوا: والقديم سبحانه لا يجوز أن يوصف بأن يواضع أحدًا من عباده على شىء، إذ قد ثبت أن المواضعة لابد معها من إيماء وإشارة بالجارحة، نحو المومأ إليه والمشار نحوه، والقديم سبحانه لا جارحة له فيصح الإيماء والإشارة بها منه، فبطل عندهم أن تصح المواضعة على اللغة منه تقدست أسماؤه، ولكن يجوز أن ينقل الله اللغة التى قد وقع التواضع بين عباده عليها بأن يقول: الذى كنتم تعبرون عنه بكذا عبروا عنه بكذا، والذى كنتم تسمونه كذا ينبغى أن تسموه كذا، وجواز هذا منه سبحانه كجوازه من عباده[1].

ويجاب عن أدلة هذا الفريق كما يلى:

١- أجيب عن الآية الأولى بأنها ليست نصا فى تقدم اللغة بطريق الاصطلاح على البعثة، لجواز أن يكون الله تعالى قد خلق آدم وأعطاه النبوة، وفيها الوحى الذى من جملته تعليم اللغات، وعلمها الخلق إذ ذاك، ثم بعث بعد أن علمها قومه، فلم يكن مبعوثا لهم إلا بعد علمهم اللغات فبعث بلسانهم، فاللغة متقدمة على الرسالة بهذا المعنى[2].

٢- وأجيب عن الاستنتاج الذى ذهب إليه هؤلاء فى الآية الثانية على الوجه التالى:

(أ) لم لا يجوز أن يخلق الله العلم الضرورى فى العقلاء أن واضعا وضع تلك الألفاظ لتلك المعانى من غير تعيين أن ذلك الواضع هو الله أو الناس؟[3]، وعلى هذا لا يكون العلم بالله ضروريا، ولو سلمنا بذلك فلم لا يجوز أن يكون الإله معلوم الوجود بالضرورة لبعض العقلاء؟[4]، وإذا بطل التكليف بالمعرفة الإلهية فلا يتعدى ذلك إلى سائر التكاليف[4].

---

(١) الخصائص ١/ ٤٥، وسر الفصاحة ٤٧.

(٢) المزهر ١/ ١٦، ١٧، ط صبيح، وفقه اللغة، د. نجا ٣/ ١٦.

(٣) الفخر الرازى ١/ ٢٦٣.　　　(٤) المزهر ١/ ١٣.

(ب) لم لا يجوز أن يقال: خاطب الملائكة بطريق آخر بالكتابة أو غيرها[1] أو خاطبهم بعد أن عرفهم اللغة بطريق التوقيف لا التواضع؟.

(جـ) على أساس الإجابة السابقة يجاب عن (٣، ٤) بأن الله تعالى أفهم الملائكة بطريق أو بآخر صحة تحديه دون سابق علم لهم بتلك الأسماء.

٣- وكون الصلة بين الألفاظ ومعانيها عرفية لا يثبت وضع الإنسان لها بطريق الاصطلاح على سبيل التحديد، بل كل ما يمكن قبوله هو نفى التوقيف الذى كان يقتضى عدم استعمال اللفظ فى غير ما نزل به الوحى الإلهى، وأما غير ذلك من الاحتمالات الأخرى لحدوث اللغة فلا ينتفى بل يجوز كونها ناشئة عن محاكاة الأصوات أو وسائل أخرى اجتماعية سنتحدث عنها بعد.

٤- وأما قولهم إن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة بناء على استحالة وقوعها من الله سبحانه تنزيها له عن الجارحة، فقد رد عليهم ابن جنى هذا الادعاء، فهو لا ينكر أن تصح المواضعة من الله تعالى، وإن لم يكن ذا جارحة بأن يحدث فى جسم من الأجسام خشبة أو غيرها إقبالا على شخص من الأشخاص وتحريكًا لها نحوه، ويسمع فى نفس تحريك الخشبة نحو ذلك الشخص صوتًا يضعه اسما له، ويعيد حركة تلك الخشبة نحو ذلك الشخص دفعات مع أنه عز اسمه قادر على أن يقنع فى تعريفه ذلك بالمرة الواحدة، فتقوم الخشبة فى هذا الإيماء، وهذه الإشارة، مقام جارحة ابن آدم فى الإشارة بها فى المواضعة، وكما أن الإنسان أيضًا قد يجوز إذا أراد المواضعة أن يشير بخشبة نحو المراد المتواضع عليه فيقيمها فى ذلك مقام يده لو أراد الإيماء بها نحوه، وبذلك ألزم أحد خصومه فلم يجب عنه بأكثر من الاعتراف بوجوبه، ولم يخرج من جهته شىء أصلا وهو على ما تراه الآن لازم لمن قال بامتناع مواضعة القديم تعالى لغة مرتجلة غير ناقلة لسانًا إلى لسان[2].

٥- كيف كان المتواضعون يتفاهمون حال وضع الألفاظ لمعانيها؟ «إن التواضع نفسه يتوقف على لغة صوتية يتفاهم بها الواضعون فما يجعله أصحاب

---

(١) الفخر الرازى ١/ ٢٦٣. (٢) الخصائص ١/ ٤٦

النظرية منشأ للغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل[1]، وإذا لم يكن لهم لغة فكيف تم لهم وضع ألفاظ اللغات جميعًا على كثرتها وتفرقها؟، والعقل لا يقبل ذلك وبخاصة أن اجتماعهم ووضعهم كان فى العصور الأولى التى ندر فيها اتصال الشعوب والانتقال من مكان إلى آخر، ولم توجد وسائل التدوين الحديثة وقد أوضح ذلك أستاذنا الدكتور قناوى.

٦- أن هذه النظرية تتعارض مع النظم الاجتماعية التى تستنبط من حياة الشعوب وظروفها الخاصة، ثم كيف كانت توضع الأفعال والحروف والمعانى الكلية التى ليس لها فى الخارج مدلولات يشار إليها؟[2].

٣- المذهب الاجتماعى

يربط أصحاب هذا المذهب بين اللغة والمجتمع فيجعلون نشأتها مقترنة بوجود أفراد البشر متعاونين يشقون طريقهم فى الحياة بممارسة الأعمال الشاقة التى قد يحتاجون إليها، فالإنسان مدنى بالطبع، «ولابد أن اللغة قبل أن تكون وسيلة للتفكير كانت فى الواقع وسيلة للفعل، وواحدة من أنجح الوسائل التى مكن منها للإنسان»[3]. وتفترض هذه النظرية أن الإنسان الأول قد التقى مع إخوته من البشر فى أعمال تحتاج إلى جهد كبير يبذل منهم متكاتفين، على النظام الذى نشاهده فى عصرنا الحديث لجماعة من العمال يقومون بعمل شاق ويصدرون أصواتًا تعينهم على عملهم، مثل (هيلا هوب)، (هب ليصا) ونحو ذلك، فالإنسان الأول خفف عن نفسه عبء العمل فى مثل هذه الظروف بتنفس عميق، «قوى أثر فى الأوتار الصوتية فأحدث هزات صوتية (ذبذبات)، وكانت تلك الأصوات أول الأمر لا معنى لها، ثم ما لبثت أن أصبحت مرتبطة بالعمل نفسه، ودليلا عليه وعلى مر الأيام صارت طريقًا للتفاهم»[4]، وكما يقول الأستاذ فندريس: لعل الإنسان قد

---

(١) علم اللغة، د. وافى ٨٩.

(٢) نفسه ٨٩، ٩٠، وفقه اللغة د. نجا ١٦.

(٣) اللغة (فندريس) ٣٩.

(٤) فقه اللغة د. نجا ١٩، ودلالة الألفاظ، د. أنيس ٢٢.

وجد فى متناول يده هذا المسلك المريح، فاستعمله للاتصال ببنى جنسه، أو لإثارتهم إلى عمل ما أو لمنعهم منه.. وما إن استيقظ فى ذهن الإنسان شعوره بالعلامة حتى راح يوسع من شأن هذا الاختراع العجيب، وهذا يفهمنا كيف كانت اللغة نتاجًا طبيعيًا للنشاط الإنسانى، نتيجة لتطابق ملكات الإنسان على حاجته الاجتماعية(١).

ويُعترض على هذه النظرية بالآتى:

١- يترتب على هذه النظرية أن الإنسان لم ينطق باللغة منذ وجوده، بل مر عليه زمن طويل قبل أن ينبس ببنت شفة، وأنه نطق بالأصوات المعبرة الواضحة دفعة واحدة عندما التقى بغيره، وليس من المعقول أن ينطق الإنسان بأصوات متكاملة لم تتدرب عليها أعضاؤه الكلامية من قبل، فهذا كما يقول أستاذنا الدكتور نجا: «مخالف للمألوف ومجانب للمعروف»، وكما يقول الدكتور أنيس: «المعقول أنها كانت تنطق نوعًا من النطق وتُصوِّت نوعًا من التصويت حتى إذا اكتمل لأعضاء النطق نموها وتطورها صدر عنها تلك الأصوات الإنسانية التى تشبه ما يصدر منها عن الإنسان الآن»(٢).

٤- مذهب الغريزة الكلامية

يصور هذا المذهب أن الإنسان - كما هو معروف - قد ركب فى طبيعته غرائز كثيرة، مثل غريزة التعبير الطبيعى عن الانفعالات، وتحدث رد فعل عنده نتيجة لنوع الانفعال الذى يعتريه؛ فالغضب مثلا أو الحزن أو الخوف يؤدى إلى حدوث انقباض فى أسارير الوجه أو البكاء، والسرور مثلا يؤدى إلى انبساطها أو الضحك أو نحو ذلك مما يناسب هذا اللون من التأثر الطبيعى للإنسان عند وجود مسبب له فى أحوال الإنسان المختلفة، وحاجاته المتعددة ومواقف الآخرين منه، وهذه الغرائز متحدة عند جميع البشر وما ينجم عنها، وتبعًا لذلك فالإنسان الأول كان مزودًا بغريزة خاصة تعرف باسم «الغريزة الكلامية»، «كانت تحمل كل فرد على

---

(١) اللغة «فندريس»، ص٣٩.   (٢) دلالة الألفاظ، ٢٣.

التعبير عن كل مدرك حسى أو معنوى، وكانت هذه الغريزة متحدة عند جميع الأفراد فى طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها»[1]، وقد عبر الإنسان عن أغراضه المختلفة بتلك الغريزة المتحدة النوع عند جميع الأفراد، ولذلك كانت اللغة الإنسانية الأولى فى تعبيراتها متشابهة لديهم، واستمر الإنسان على ذلك حتى نشأت اللغة الأولى، ثم بعد أن لم يعودوا فى حاجة إلى تلك الغريزة «أخذت تنقرض وتتلاشى وحل مكانها الكلام الصناعى»[1]، وقد قال بهذا الرأى جماعة من الفلاسفة المحدثين منهم العلامة الألمانى مكس مولر والعلامة الفرنسى رينان[1].

ودليل هؤلاء:

١- أن الباحثين اكتشفوا أن للغة الهندية الأوربية خمسمائة أصل.

٢- تدل تلك الأصول على معان كلية.

٣- لا صلة بين تلك الأصول الخمسمائة ومعانيها.

وبناء على ذلك:

(أ) يبطل مذهبا التوقيف والمواضعة؛ «لأن اللغة بها أسماء تدل على الأمور الكلية أو الأمور الجزئية»[2]، ولأن المتواضعين لابد أن تكون لهم وسيلة تفاهم فيما بينهم حال وضع الألفاظ لمعانيها، ولا يعقل أن تكون وسيلتهم تلك اللغة الصوتية، «لأن المفروض أن تكون هى أول ما يتواضعون عليه، وأول ما ينطق به إنسان، ولا يعقل كذلك أن تكون لغة الإشارة؛ لأننا بصدد ألفاظ تدل على معان كلية أو على أمور معنوية يتعذر استخدام الإشارة الحسية فيها»[3].

(ب) يبطل مذهب المحاكاة للأصوات الطبيعية وأصوات الحيوان التى سنتكلم عنها بناء على وجود صلة بين الألفاظ التى هى الأصول المذكورة، وبين معانيها، وذلك يناقض تلك النظرية التى تنبنى أساسا على وجود هذه العلاقة، وإذا بطلت تلك المذاهب لم يبق إلا أن يكون الكلام قد نشأ من الغريزة الكلامية[3].

وهذا المذهب بنى على أساس غير سديد.

(١) فقه اللغة د. نجا ١٦، وعلم اللغة د. وافى ط١٩٦٢، ص ٩١، ومحاضرات د. قناوى.

(٢) محاضرات الدكتور قناوى. (٣) نفسه وعلم اللغة د. وافى ٩٢.

(أ) لا نسلم لهم بأن تلك الأصول الخمسمائة تمثل اللغة الإنسانية الأولى، إذ لا دليل على ذلك، وكل ما تثبته أنها أصول للهندية الأوربية (السنسكريتية) «ونحن لا نبحث عن اللغة السنسكريتية وإنما نبحث عن أصل اللغات كلها»[1].

(ب) لا يمكن أن تمثل تلك الأصول الخمسمائة اللغة الإنسانية الأولى، لأنها تدل على معان كلية، وإن إدراك المعانى الكلية يحتاج إلى عقلية راقية لم يصل إليها الإنسان إلا بعد أن قطع طريقًا طويلا من التقدم، فقد كان لا يعبر إلا عن المحسوسات، ثم تدرج منها إلى المعقولات على حد ما نشاهده فى الأمم البدائية الموجودة الآن، «فقد أجمع علماء الأنتوجرافيا الذين قاموا بدراسة هذه الأمم بأمريكا واستراليا وأفريقيا وغيرها، على ضعف عقليتها بهذا الصدد وعجزها عن إدراك المعانى الكلية فى كثير من مظاهرها، ففى لغة الهنود الحمر مثلا يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء، وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء، وهكذا، ولكن لا يوجد أى لفظ للدلالة على شجرة البلوط، ومن باب أولى لا يوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم»[2]، وتبعًا لأن تلك الأصوات تدل على معان كلية لا يمكن أن تكون أساسا للغة الإنسان الأول فمن غير المعقول إذًا أن تعد كذلك بل هى «بقايا لغة حديثة قطعت شوطا كبيرا فى الرقى والكمال»، ويذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فيقرر أنها مجرد أصول نظرية وأنها لم تكن يومًا ما موضوع لغة إنسانية[3].

(جـ) عدم ارتباط هذه الأصول بمعانيها لا ينفى نظرية المحاكاة فمن الجائز أن هذه الأصول كانت مرتبطة بمعانيها فى مجتمع خاص، ثم هاجر أصحابه إلى بيئة أخرى «فتغيرت الصلة هناك، كما أن عوامل الزمن والحياة الاجتماعية والعوامل النفسية والجغرافية ربما كان لها أثر فى ذلك التغير أو نسيان الصلة الأصلية بين تلك الأصول ومعانيها[4].

---

(١) محاضرات د. قناوى. (٢) علم اللغة د. وافى، ط١٩٦٢م، ص ٩٤.

(٣) نفسه ٩٥ ومن هؤلاء سيس وبريال، ص١٠٢، ط١٩٣٨م.

(٤) محاضرات د. قناوى.

(د) «لا تحل المشكلة بل تضع مكانها مشكلة أخرى أكثر غموضًا وهى مشكلة الغريزة الكلامية»[1]، فلم يبين لنا هؤلاء العلماء أصحاب هذه النظرية كيف كانت الغريزة الكلامية، وكيف تم وضع الكلمات الصناعية والتعبيرات المختلفة[2].

(هـ) ليست الغرائز المعروفة مثل الغضب والخوف والحزن وما ينجم عنها متحدة عند جميع البشر كما سيأتى، وعلى ذلك فليس من المعقول أن تكون للإنسان غريزة كلامية متحدة بالمعنى الذى أراده هؤلاء، بل إن الإنسان الواحد فى البيئة الواحدة يلاحظ عليه نوع من الاختلاف عن ذويه فى خلقته وسماته الخلقية والاجتماعية، فضلا عن اختلاف الناحية الصوتية والكلامية والمؤثرات عليها.

(و) ويقول أستاذنا الدكتور نجا فى مقام الرد: إن هذا الرأى بمعزل عن الصواب، لأنه مبنى على اختصاص الرعيل الأول من البشر بغريزة خاصة، وهذا أمر مخالف للمألوف لم يقم عليه دليل ولا يقضى به عرف[3].

٥- المذهب الطبيعى

فسر بعض المفكرين نشأة اللغة على أنها نتاج طبيعى صدر عن انفعالات الإنسان نفسه، أو المؤثرات الخارجية عليه، أو محاكاة أصوات الحيوان والأشياء الموجودة بالكون، وقد اتخذت تلك الاتجاهات صورة نظريات مستقلة فى الحديث عن مبدأ اللغة، ولكن الناظر فى جوهرها يتبين دورانها حول معنى واحد هو طبيعة الكائنات التى صدر عنها، من انفعالات أو حوادث خارجية أثرت فى الإنسان، أو أصوات حيوانية أو غيرها حاكاها الإنسان الأول، ونحن على الرغم من اندماجها تحت «الاتجاه الطبيعى العام» سنشرح كل جانب منها على حدة:

(أ) صدور اللغة عن أصوات الانفعالات الإنسانية:

يذهب فريق من العلماء إلى أن اللغة نشأت عن أصوات انفعالية طبيعية ناجمة عن ألم أو فرح أو حزن لا فرق بين تميز مقاطعها كاف للضجر، أو عدم

---

(١) علم اللغة د. وافى ص٩٣.   (٢) محاضرات الدكتور قناوى.

(٣) فقه اللغة ٣/ ١٧.

تميزها كـالأنين وغيره[1]، وبناء على ذلك فقد تطـورت تلك الأصوات، وانتقلت إلى معان اقتضـتها الحاجات الإنسانية، ثم ما لبـث أن تفرعت، وتعددت صورها حـتى وصلت برقى أعـضاء النطق الإنسـانى إلى مـا وصلنا إليـه بوجود اللغـات المعروفـة، وتعد نظرية (داروين) القائلـة بتطور الإنسان عن عالم الحـيوان، وتطور أعضاء النطق وأصواتها عنده وبقائها عند الحيوان جامدة دون تغير تعد تلك النظرية أساسا لمذهب التعبير عن الانفعالات فى نشأة اللغة[2]، وينقل الباحثون فى نشأتها عن (داروين) ما يـفسر ذلك بقـوله: «إن الشعـور بالاحتـقار أو الاشمـئزاز مـثلا يصحـبه عـادة ميل إلى النفخ من الفـم أو فتحـات الأنف، وهذا يؤدى إلى إبراز أصوات خـاصة، مثل (بوه) أو (بش)، وفـزع الإنسان أو إصابته بـدهشة مفاجـئة يصاحـبه فى الحال مـيل إلى بذل جهـد طويل لفتح الفم باتسـاع، وذلك لسحب شهـيق سريع طويل وعندما يتبـعه زفيـر كامل فإن الفم يقفل إلى حـد ما، وتمتط الشفـاه، وصورة الفم بهذا الشكل - إذا بُدل الصـوت - تنتج صوتًا قد يعـبر عنه الصوت (أو)، وهذا الصـوت ونحوه قد يتطور عـلى حسب الموقف إلى (أوه) أو (آه) أو آخ. . . إلخ[3].

ويبعد أن تكون تلك الأصوات أساسا للغات البشرية.

١- فقد قرر جسبرسن[4] أن بين الأصوات الانفعاليـة والكلام فجوة واسعة «تجعلنا نعد تلك الأصوات صورة سلبـية للكلام، فليست تصدر عن المرء إلا حين يعييه القول أو حين يأبى الكلام»[5]، وهى أصوات فجائية اضطرارية فى حين أن الكلام يصدر عن إرادة الإنسان.

٢- ويقرر أستاذنا الدكتور نجا: أن عدها أساسا -وهى بتلك الصفة السابقة- يقتـضى أن تكون اللغة قـاصرة على لون واحد من ألوان التـعبيـر ولم يقل بذلك أحد[6].

---

(١) نفسه، نفس الصحيفة. (٢) نفسه، نفس الصحيفة.

(٣) قضايا لغوية ١١٨، ١١٩، وفقه اللغة د. نجا ٣/١٧، ١٨.

(٤) المصدر السابق. (٥) دلالة الألفاظ د. أنيس ٢٠.

(٦) فقه اللغة د. نجا ٣/١٨.

٣- «إن كثيراً من تلك الأصوات يشتمل على عناصر صوتية لا نكاد نسمعها فى كلام البشر مثل أصوات اللين المهموسة»، «فليست المصدر الأول لكلمات اللغة العادية»[١].

٤- هذه الأصوات مختلفة لدى الشعوب «فالألم يعبر عنه الألمانى بالصوت au أو والفرنسى بأهى ahi والإنجليزى بأه oh أو: أو ow»[٢]، وصوت الدهشة عندنا ah وليس oh كما هو الحال عند الإنجليز الذين استقى منهم (داروين) ملاحظته[٣]، وهذا يقتضى تعدد اللغات الأولى للإنسان لا أن تكون لغة واحدة كما هو المنطق المعقول.

٥- لم يقم دليل واقعى أو تاريخى على أن اللغة الإنسانية نشأت عن تلك الأصوات الانفعالية كما يقول سابير[٤].

(ب) صدور اللغة عن المؤثرات الخارجية:

يرجع بعض العلماء منشأ اللغة إلى الحوادث الكونية التى تحيط بالإنسان، فكل منها يقتضى منه تصرفًا خاصًا، وهذا التصرف «يتطلب النطق ببعض الألفاظ المعبرة عما صادفه من أحداث»[٥].

والحوادث متعددة، وتختلف فى طبيعتها وأشكالها وأوقات حدوثها، مما يقتضى هو الآخر اختلاف الألفاظ التى تصدر عن الإنسان فى مناسباتها المختلفة، وقد كان قياسهم فى ذلك الرأى «ظاهرة عامة نلحظها فى الأشياء المحسوسة»[٦]، «فالأصوات الناجمة عن اصطدام جسم بآخر مختلفة لاختلاف استجابتها للطرق؛ فالاصطدام بالنحاس غير اصطدام الحديد والخشب.. وهكذا، فكل اصطدام يحدث رنينا خاصا مناسبا للجسم المصطدم به ليتميز من غيره»[٥]، وهكذا نرى أن لكل شىء رنينا خاصا يتميز به، وكذلك الآثار الخارجية التى يتأثر بها الإنسان

(١) قضايا لغوية ١٢٠.
(٢) نفسه نفس الصحيفة.
(٣) دلالة الألفاظ د. أنيس ٢٠.
(٤) فقه اللغة د. نجا ١٨، وقضايا لغوية ١٢٠.
(٥) فقه اللغة د. نجا ١٨، ١٩، ودلالة الألفاظ د. أنيس ٢١.
(٦) دلالة الألفاظ، د. أنيس ٢١.

يحدث كل منهـا رنينا خاصا فيـتعدد الرنين بتـعدد الآثار الخارجيـة، ولذا تعددت الألفاظ وتعـددت الأصوات المشتملة عليـها»[1]، وقد وجه إلى هذا الرأى ما يمنع قبوله.

لأنه مبنى على أساس غامض وفلسفى لا تطمئن إليه النفس، فلم نعرف منه كيف تم نطق الألفاظ بإزاء الأحداث، وكـيف تعددت وتطورت حتى وصلت إلى النحـو اللغـوى الذى نراه؟. «وهذا مما جـعل مـعظم اللغـويين الآن يمرون به مـر الكرام»[2].

(جـ) صدور اللغة عن محاكاة الأصوات:

ذهب إلى هذا الرأى كثير من فلاسفـة العصور القديمة، ومن مؤلفى العرب فى العصـور الوسطى، ومنهم الخليل بن أحـمد[3] وفيلـسوف العربيـة ابن جنى، ومعـظم المحدثين من علمـاء اللغة وعلى رأسـهم العلامـة وتنى[4]، وسبنـسر[5] وأحمد فارس الشدياق[6].

وملخص هذا الرأى أن «كل المفـردات قد خرجـت من صيحـة تشبـه نباح الكلب أو من سلسلة من الأصوات توحى بتمثـيل الأشياء عن طريق المحاكاة»[7]، كما يقول الأستاذ فندريس، أو كـما يقول عالمنا ابن جنى: «إن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسمـوعات كدوى الريح وحنين الرعد وخـرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبى، ونحو ذلك ثم وُلِّدت اللغات عن ذلك فيما بعد»[8].

---

(١) دلالة الألفاظ، د. أنيس ٢١.
(٢) نفسه، نفس الصحيفة.
(٣) بدليل ما نقله عنه ابن جنى قـال: كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدا فـقالوا: صَرَّ، وتوهموا فى صوت البازى تقطيعا فقـالوا: صَرْصَر، انظر الخصائص ٢/ ١٥٢، ومدرسة الكوفة. د. المخزومى ٤٣، ونشأة اللغات ٤٢، ٤٣.
(٤) علم اللغة ٩٥، والمسلك اللغوى ٩٢، ٩٣.
(٥) فقه اللغة د. نجا ٢٠.
(٦) يقول: إنى رأيت معظم اللغة مأخوذًا من حكاية صوت أو صفة، سر الليال ٢٢.
(٧) اللغة ٤١.
(٨) الخصائص ١/ ٤٦، ٤٧.

وقد حاكى الإنسان الأول أصوات الأشياء والحيوان، ليدل بالصوت على مصدره أو ما يتصل به مما يريد الإبانة عنه، وقد مكنته قدراته التى منحه الله إياها من «التلفظ بأصوات مركبة ذات مقاطع، وكانت لغته الأولى محدودة الألفاظ قليلة التنوع قريبة الشبه بالأصوات الطبيعية التى أخذت عنها ولا تدل دلالة واضحة على المعنى المطلوب منها، ولذلك كان يستخدم الإشارة بجميع أنواعها لتحديد مراده»[1]، ولما تقدمت حياة الإنسان الاجتماعية، وقطع أشواطا بعيدة فى الرقى أخذت لغته تتقدم تبعًا لذلك فاستغنت شيئًا فشيئًا عن الإشارات المساعدة، ثم تطورت من الأصوات الطبيعية القليلة التركيب، أو ذات المقاطع الثنائية إلى الثلاثى ثم الرباعى، وهكذا تفرعت اللغة بالقلب والإبدال والنحت تبعًا لاحتياجات الإنسان[2]، وبازدياد تقدمه «وجدت الألفاظ الدالة على الأشياء المعنوية حتى وصلت إلى الغاية التى ينشدها الباحث والمتكلم»[3]، ويقول الأستاذ زيدان: إن التقليد أساس اللغة وأصل نشأتها ومدار ارتقائها لأن التفاهم سواء كان بالإشارة أو بالأصوات فهو راجع إلى التقليد لأن الإشارات تقليد صور الأشياء أو معانيها والأصوات تقليد ما يسمعه الإنسان من الأصوات الخارجية على اختلاف مصادرها[4] وقد اعتمد القائلون بهذا الرأى على ملاحظات لغوية تتعلق بالطفل وبالأمم البدائية:

(أ) «ثبت أن الطفل فى المرحلة السابقة لمرحلة الكلام يلجأ فى تعبيره الإرادى إلى محاكاة الأصوات الطبيعية قاصدا التعبير عن مصدرها أو عن أمور تتصل بها»[5]، «فهو يسمى الدجاجة (كاكا) والشاة (ماما) والسنور (نونو)، وروى أن طفلا سئل عن اسم أبيه فقال «وووو» وكان أبوه يسمى كلبًا»[6]، والطفل فى تلك المرحلة يستخدم الإشارات المساعدة، ثم يستغنى عنها شيئًا فشيئا بتعلمه اللغة من أبويه حتى يتقنها، وما الإنسان إلا طفل تاريخى[7].

---

(١) فقه اللغة ٢٠، وعلم اللغة، ط١٩٦٢م، ص ٩٦.

(٢) تاريخ آداب العرب ٥٠، ٥١، ج١، والفلسفة اللغوية ١١٦، ١٢٦.

(٣) فقه اللغة د. نجا ٢٠، وعلم اللغة ٩٦.

(٤) الفلسفة اللغوية ١١٦.

(٥) علم اللغة ٩٧.

(٦) تاريخ آداب العرب ١/ ٥٠.

(٧) نشأة اللغات ٢٨-٤٣، واللغة والفكر، ص٢-١٣، والمسلك اللغوى ٩٦.

(ب) ثبت من دراسة أحوال الأمم البدائيـة أن لغاتها تشبه فى خصـائصها ما نحن بصدده من خصـائص اللغة الإنسانية الأولى، ففى هذه اللغـات تكثر المفردات التى تشبـه أصواتها أصـوات ما تدل عليـه، كما أن أربابهـا يستعـملون الإشارات اليدوية والجسمية كأدوات مساعدة فى فهم المقصود وإفهامه للآخرين، فمثلا «سكان استـراليا وأواسط أمـريكا الجنوبيـة يضطرون لنقص لغاتهم عن الـوفاء بأغراضـهم لاسـتـخدام الإشـارات، فنراهـم إذا تكلمـوا صوتـوا وأشاروا بأيـديهم وأرجلهم وأعينهم»[1]، بل إن بعضهم كالحيوان الأعجم يستخدم الإشارات فقط لغة له[2].

(جـ) أول ما يبـدو فى كلام الأطفال، وما نلاحظـه فى البيئات البـدائية هو التعبيـر عن المحسوسات، ولا يوجد من الألفاظ ما يـدل على المعانى إلا بعد مدة طويلة من حـياة الطفل وتقـدم تلك الأمم ورقيـها، ومن هنا كـانت حيـاة الطفل والأمم البدائية الأولى مماثلة لحياة الإنسان الأول، وما يصدق على هذه يصدق على تلك خطوة بخطوة وتطورا بتطور.

وقد وجهت إلى تلك الوجهة نقود:

١- تهكم رينان الفرنسى من الـنظرية قائلا: ليس من المعقول أو المفـهوم أن الإنسان وهو أرقى المخلوقات يقلد أصوات مخلوقات أدنى منه وأحط[3].

٢- تقليد الأصوات على النحو السـابق يجعل للصوت معنى فى فم المقلد، وفى عقل من يسمعه، وقد كان بلا معنى حال صدوره من الحيوان[3].

٣- يسخر مكس مولر من النظرية بـقوله: «إن نظرية المحاكاة إنما تصلح إذا كنا نتعامل مع الحيوانات أو الطيور»[4]، ويقول أيضًا: «إن كلمات هذا النوع؛ أى الكلمات التى تحاكى الأصوات تشبه الأزهار الصناعية لا جذور لها إنها عقيمة ولا تعبر عن شىء مـا عدا الصوت الذى تقلده»[5]، ويقول: إن حكاية الأصوات إن

(١) الفلسفة اللغوية ١٢٧. (٢) المدخل إلى دراسة النحو العربى ١٣.

(٣) فقه اللغة د. لجا ٢١، ودلالة الألفاظ د. أنيس ١٨.

(٤) فقه اللغة د. لجا ٢١، ومحاضرات د. قناوى وقضايا لغوية، ١٢١.

(٥) قضايا لغوية ١٢١.

استعملها المتكلم عندما تعوزه الحاجة إلى الكلام إنما يريد بها جزئيا شخصيا، لأنها تحل محل الإشارة التى تتخصص بالدلالة على الجزئى دون الكلى، فإذا قلد الهر بالمواء وهو يريد الإشارة إلى هر خاص فهو إنما يريد هذا الجزئى ثم أطلقه على كلّى لعدم الفارق عنده بين هذا الجزئى وكليّه، ولكن الصحيح أن الإنسان وضع الألفاظ للدلالة على الصور الكلية ثم طبقها على الجزئيات[1].

٤- «يعترض سابير على هذه النظرية بأنه: لا يؤيدها دليل تاريخى ويقول: إن كلمات مثل ماء ونهق لم تنشأ عن الطبيعة ولكنها من صنع العقل، وخطرات الخيال الإنسانى»[2].

٥- ويعد الدكتور كمال بشر تلك النظرية بعيدة أيضًا لأن لغات بعض الشعوب البدائية تكاد تخلو خلوا تاما من مثل هذه الكلمات[3].

٦- والدكتور محمد المبارك يرى أن تلك النظرية «لا تكاد تثبت للحجة والدليل ولا تصدق إلا فى القليل النادر من ألفاظ كل لغة»[4]، ولو صحت هذه النظرية لما تعددت اللغات ولتماثلت أو تشابهت على الأقل فإن أصوات الطبيعة واحدة[4].

ولكن الرأى السائد لدى علماء اللغة أن تلك النظرية مقبولة من الوجهة العلمية والاجتماعية، فهى تتفق مع سنة النشوء والارتقاء التى تخضع لها الكائنات وظواهر الطبيعة[5]، واللغة كائن اجتماعى ولم يقم أى دليل يقينى على خطئها وتتفق وحال الطفل والأمم البدائية - على ما سبق بيانه - أما الاعتراضات السابقة فقد أجابوا عنها بما أزال الشبه وأكد صواب النظرية والأخذ بها على أنها أرجح الأقوال:

---

(١) مولد اللغة ٢٠. (٢) قضايا لغوية ١٢١.

(٣) قضايا لغوية ١٢٢. (٤) فقه اللغة ١٦٠، ١٦١.

(٥) المراجع السابقة ومولد اللغة ٢١، ٢٢، واللغة والنحو د. حسن عون، ١٤، ٢٨ إلى ٣١، وفى اللغات الإنسانية ألفاظ متشابهة تحاكى أصوات الطبيعة مثل قطع العربية وcut الإنجليزية و casser الفرنسية، وكت الصينية، وخت الهيروغليفية، نشأة اللغات ٤٠.

١- ليس بمعيب على الإنسان أن يقلد الحيوان فيما يفيد وطالما قلده فى أشياء كثيرة، فقد حاول قديما أن يطير بنفسه، ولما عجز تمكن من الطيران عن طريق اختراع الطائرات ولا عيب فى ذلك، وقد قلد ابن آدم الغراب فى دفن أخيه حين قتله: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾ [المائدة][1]، على أن الإنسان لم يكن يحاكى الحيوان وحده بل كان يحاكى أصوات أخيه الإنسان وأصوات الطبيعة[2]، وأما قول مكس مولر: إن الألفاظ التى تدل على المحاكاة لا جذور لها فهو قول لا يدعمه برهان واقعى أو تاريخى، بل إننا قد أثبتنا فى بحثنا الخاص عن الاشتقاق هذه الصلة بين اللفظ ومعناه بوضوح، وأما قوله: إن الحكاية تجعله يشير إلى الجزئى مع أن اللغة موضوعة للكليات أصلا، فهو قول غير سديد؛ لأن الواقع أن الدلالة بدأت فى أول أمرها حسية ولم تنتقل إلى المعنويات إلا بعد مراحل تاريخية طويلة تقدم على إثرها الإنسان فى تفكيره واجتماعه.

٢- مهارة الإنسان تظهر فى أنه انتقل بالأصوات المبهمة إلى الوضوح والدلالة على المعانى، وهذه مرحلة أرقى اختص بها الإنسان، فاستعمال الصوت للدلالة على مصدره أو ما يتصل به أمر دقيق ينفرد به، ولا عيب فيه بل العيب أن يحاكيه فى نفس الصوت دون أن يدل به على معنى كالحيوان تمامًا[2].

٣- إن محاكاة الأصوات لم تقتصر فى اللغات الإنسانية على التعامل مع الحيوانات والطيور، بل تعامل بها الناس بعضهم مع بعض كما يقول الدكتور قناوى مشيرًا إلى (باب أسماء الأصوات) فى اللغة العربية، وورود كلمات كثيرة من هذا النوع فى أشعار العرب.

---

(١) فقه اللغة د. نجا ٢١، ومحاضرات د. قناوى.

(٢) دلالة الألفاظ ١٨.

٤- عدم وجود الدليل التاريخى لا ينفى هذا الرأى، والعذر واضح فى أن البحث يتعلق بنشأة الإنسان الأول الذى لم يكن يعرف التسجيل أو التدوين فى تلك العهود السحيقة[١].

٥- وكون بعض الشعوب البدائية تخلو لغاتها من تلك الألفاظ لا يدل على نفى النظرية أيضًا، فإن تلك الشعوب - كما يأتى أن نتحدث - قد مرت بأزمان متطاولة، ولعل لغاتها قد تحولت وتطورت وانتقلت ألفاظها إلى معان غير الموضوعة لها فى أصل نشأتها، مما أبعد تلك الصلة بين الألفاظ ومعانيها، وبذلك أيضًا نفسر قلة هذا النوع من الكلمات فى بعض اللغات الإنسانية الموجودة الآن، كما أن الدكتور المبارك يعلم أنه لا يمكن اتحاد اللغات البشرية؛ لأن العوامل الجغرافية والاجتماعية تحول دون ذلك، وقد أثبتت التجارب استحالته.

٦- رأى جسبرسن

لم يرتض العالم السويسرى جسبرسن الآراء السابقة لأنها تفترض أن الإنسان الأول ظل صامتا أمدًا طويلاً، وهذا مناف للاجتماع الإنسانى وطبيعته وطبيعة أعضاء النطق ووظائفها[٢]، ومن هنا حاول أن يجعل اللغة نشأت معه منذ بدء حياته الأرضية واختلاطه بغيره فصورها على الوجه التالى:

١- نشأت اللغة عند الإنسان الأول فى صورة لعب وغناء كانت تتدرب عليه أعضاء النطق، وفى اعتقاده أن الحب قد لعب دورا كبيرا فى لغته الأولى، ويقول: إن الأصوات الكلامية كانت فى العهود الأولى أشبه بغناء الطير وزمجرة الحيوان وهديره، وصياح الطفل الصغير وترنيمه[٢].

٢- لم يكن فى اللغة فى ذلك الوقت ما يؤهلها للتعبير عن الأفكار لبساطتها وبساطة المتكلمين بها «وقد بدأت بتعبيرات مركبة وشبه جمل غامضة ثم

---

(١) فقه اللغة د. نجا ٢٢.

(٢) نفسه ٢٧، وقضايا لغوية ١٢٩، ١٣٠.

أخذت فى التطور نحو التيسير تاركة سبيل التعقيد حتى وصلت إلى المستوى الذى وصلت إليه[1].

وقد وصل جسبرسن إلى هذا الرأى بعد قيامه ببحوث لغوية توصل من خلالها إلى نتائج حصل منها على قوانين عامة للتطور اللغوى وظواهر اللغات البدائية، وقد قامت بحوثه على أسس ثلاثة:

(أ) لغة الطفل. (ب) لغة الشعوب البدائية.

(جـ) تاريخ اللغات الإنسانية.

(أ) لغة الطفل:

يقرر علماء الأحياء أن الجنين بعد خروجه من بطن أمه يمر بنفس المراحل التى مر بها الجنس البشرى على مدى السنين الطويلة، ومن هنا استنتج أن لغة الإنسان الأول توافق لغة الطفل فى مراحلها، وقد رد أستاذنا الدكتور نجا على هذا التصور بأنه لا يمكن الاعتماد عليه إلا فى المرحلة الأولى التى يتقدم فيها إدراك الطفل للجو المحيط به فإنه بعد الإدراك يتعلم لغته من المحيطين به، والإنسان الأول لم يتيسر له مجتمع يقلده ويحاكيه حتى تكون الموازنة سديدة والحكم على أسس قوية[2].

(ب) لغة الأمم البدائية:

وجد جسبرسن شبها قويا بين الأمم البدائية والإنسان الأول فى حياتهما العامة والمؤثرات عليهما، ولذلك اتجه إلى أنه يمكن إدراك الملامح العامة للغة الإنسانية الأولى استنتاجًا من القياس على لغات تلك الأمم البدائية، وقد وصل جسبرسن من خلال دراساته إلى الظواهر اللغوية الآتية:

١- ظواهر صوتية:

(أ) كانت تشيع فى اللغات البدائية الأصوات الصعبة، ولذلك نرى التطور اللغوى يؤدى إلى الخفة والسهولة مثل (سدأ) فى العامية العربية بدلا من «صدق» فالسين أخف من الصاد والهمزة من القاف.

---

(١) نفس المصدرين السابقين، نفس الصحيفتين. (٢) فقه اللغة ٢٣.

(ب) اعتمدت اللغات البدائية على النبر والتنغيم، فالكلمة الواحدة يمكن أن تدل على شيئين باختلاف موقع النبر مثل «محمد جه» يكون استفهاما أو إخبارا، والكلمة الإنجليزية subject تكون اسما ومعناها «موضوع» حين تكون النبرة على المقطع الأول، وتكون فعلا ومعناها «يخضع» حين تكون النبرة على المقطع الثانى.

(جـ) مالت اللغات البدائية إلى الغناء.

(د) كثرت الكلمات الطويلة فى اللغات البدائية وهى تختفى من كثير من اللغات المتحضرة.

٢- ظواهر نحوية:

توصل جسبرسن من دراساته إلى أن اللغات البدائية ليست لها قواعد مطردة تسير وفقها فى نحوها وصرفها، تبعًا لأن العقل الإنسانى لم يكتمل له وعيه فى تلك الحقبة من التاريخ، ثم بمرور الزمن بدأ يدرك ويزداد إدراكه، فتخلصت لغته من العناصر الشاذة، واتجهت نحو قواعد مطردة دقيقة.

٣- ظواهر فى الكلمات:

لاحظ جسبرسن أن كلمات اللغات البدائية تعبر عن المحسوسات كثيرًا، لتأخر المتكلمين بها فكريا واجتماعيًا إذ إن التعبير عن المعنويات، والأمور الكلية يحتاج إلى عقلية راجحة ورقى إنسانى، وقد ضرب أستاذنا الدكتور نجا أمثلة من العربية، لذلك بكلمة الخندريس للخمر والصمحمح للرجل القوى وغيرهما، وقد أهملت هذه الألفاظ أو بدأت فى الاضمحلال من العصر الإسلامى إلى الآن[١].

والواقع أن الأمم البدائية - كما يقول أستاذنا الدكتور نجا - مهما نبالغ فى انحطاطها فإنها قد مرت بأجيال تطورت فيها، وأخذت من ناطقين بها[٢]، وكما يقول الأستاذ فندريس: لا يمكن استخلاص شىء فى هذا الصدد من لغات المتوحشين، فالمتوحشون ليسوا بدائيين على الرغم من الإسراف فى تسميتهم بهذا

(١) فقه اللغة د. نجا ٢٥، ٢٦، وقضايا لغوية ١٢٦-١٢٩، ودلالة الألفاظ ٢٨.

(٢) فقه اللغة ٢٤.

الاسم فى غالب الأحيـان، فهم يتكلمون أحيـانًا لغات على درجة من التعـقيد لا تقل عمـا فى أكثـر لغاتنا تعـقيـدًا، ولكن منهم من يتكلم لغات عـلى درجة من البساطة تحسـدهم عليها أكثر لغاتنا بـساطة، فهذه وتلك ليست إلا نتيـجة تغيرات تغيب عنا نقطة البدء التى صدرت عنها[1]، وبذلك لا يمكن المقارنة بينها وبين لغة الإنسان الأول على وجه اليقين.

(جـ) تاريخ اللغات الإنسانية:

يرى جسـبرسن أن يدرس الباحث اللغات الإنـسانية فى عصـورها الحـديثة والعصـور السابقـة حتى يصل إلى تاريخـها السحـيق موازنا بين خـصائصـها فى تاريخها الـطويل، ليستنبط منها قـوانين لغوية وخصائص لعلهـا تلقى الضوء على اللغة الإنسـانية الأولى وخصـائصها المميـزة لها حتى يمكن التـعرف عليهـا، فلغة كالعربية يدرسـها فى العصر الحديث ثم فى العصور السابقـة، التركى، العباسى، الأموى، الإسلامى، الجـاهلى، مبينا خصائصـها فى كل عصر وصلتهـا بأخواتها الساميات، وهكذا دراسة الإنجليزية وغيرها[2].

والواقع أن كل ذلك لن يصل بالبـاحث إلى وصف اللغة الأولى عـلى وجه القطع - كما سبق - إذ إن تلك اللغات مهما نبـالغ فى تحديد خصائصها فإنها قد تطورت ومرت بعصور متفاوتة أثرت عليـها بما يقطع الشبه الذى يمكن تصوره بينها وبين اللغة الأولى، وكل ما يمكن قبوله هو قرابتها منها وهيهات[3].

رأى عالمنا ابن جنى نتيجة لما تقدم

كتب ابن جـنى فصلا خـاصا فى كـتابه الخـصائص أوضح فيـه الآراء التى ظهرت حتى عصره فى نشأة اللغة عند الإنسان الأول، وقد ساق بعض الأدلة التى دعت أرباب تلك الآراء إلى الأخذ بـها، فتكلم على الرأى التـوقيفى، وفـسره بما

---

(١) اللغة ٢٩، ٣٠. (٢) فقه اللغة د. نجا ٢٤.

(٣) وهناك مذاهب أخرى منهـا: أن بعض ألفاظ اللغة من عند الله وبعضها الآخـر وضعه الناس أو العكس ومنها أن الألفاظ دلت بذواتهـا على معانيها، وهذه الآراء موضع نظر كمـا يقول أستاذنا الدكتور قناوى، انظر المزهر ١/٩، ومحاضرات د. قـناوى وأشرنا إلى بعضها من قبل ص ٢٨٤ من كتابنا.

سبق بيانه فى موضعه، ونسبه لأبى على أستاذه، وتكلم على رأى الاصطلاح، وأن أكثر أهل النظر قد ذهب إليه، ثم فسره كما أرادوا وعلى حسب ما تصوروا، ورد عليه بعض حججه كاستحالة حدوث التواضع من الله تعالى، ثم حكى الرأى الثالث وهو أن منشأ اللغة الأولى كان من حكاية الأصوات المسموعات، ونحن لو أمعنا النظر فى موقفه الشخصى من هذه الآراء الثلاثة التى حكاها لم نستطع أن نصل إلى رأى محدد له.

فيبدو من حديثه فى أثناء عرضه للرأى التوقيفى أنه يؤيده فيما لو ثبتت صحة الأخبار المأثورة يقول: وإذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاده والانطواء على القول به[1]، ثم إنه يكشف فى آخر الفصل الذى تحدث فيه عن تلك الآراء عن اتجاهه إلى هذا الرأى واعتقاده له لما رآه من أسرار عجيبة انطوت عليها اللغة العربية، بما لا يمكن أن ينسب لموجد غير الله سبحانه، فهو القادر على مثل هذا الإبداع، بل الإنسان عاجز عن إدراك هذا الشأو البعيد عن الأذهان والأفكار الإنسانية مهما تكن عميقة الغور مغرقة فى الذكاء، يقول: «واعلم فيما بعد أننى علىٰ تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع، فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى مختلفة جهات التَّغَوُّل على فكرى، وذلك أننى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة ما يملك علىّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر، فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله ومنه ما حذوته على أمثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده وبعد مراميه وآماده صحة ما وُفِّقوا لتقديمه منه، ولطف ما أسعدوا به، وفرق لهم عنه، وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله عز وجل فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توقيفًا من الله سبحانه وأنها وحى»[2].

فهذا النص صريح فى ميل ابن جنى إلى كون اللغة إلهاما من الله للإنسان، ويبدو كذلك من حديثه فى هذا الفصل أنه لا يمنع أن تكون اللغة الأولى وجدت

---

(١) الخصائص ١/ ٤١.   (٢) نفسه ١/ ٤٧. وانظر ص ٢٨٧ من كتابنا.

بطريق المواضعة والاصطلاح، فإذا كانت العربية قد حوت تلك النواحى السحرية والمواطن البلاغية التى تأخذ بالألباب، فمن المحتمل أن يكون من البشر الأوائل من كان ذا عقل راجح أمده الله بالتوفيق والجرأة، فأنشأوا لنا هذه اللغة المتكاملة اللطيفة، يقول: ثم أقول فى ضد هذا كما وقع لأصحابنا ولنا وتنبهوا وتنبهنا على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا - وإن بعد مداه عنا - من كان ألطف منا أذهانا وأسرع خواطر وأجرأ جنانا[1]. ويقول فى موضع آخر: قد تقدم فى أول الكتاب القول على اللغة أتواضع هى أم إلهام، وحكينا وجوزنا فيها الأمرين جميعًا[2]، ومن هنا يبدو تردد ابن جنى فى الأخذ بأحد الرأيين التوقيف والاصطلاح يقول: «فأقف بين تين الخلتين حسيرا وأكاثرهما فأنكفئ مكثورا[3]، ثم إنه بعد عرضه لرأى المحاكاة للأصوات المسموعة يعقب عليه بقوله: وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل[3].

ومن هنا فلا يمكن أن نقف لابن جنى على رأى محدد واضح يقطع بذهابه إليه، ويظهر للباحث حيرته فى تأمله لأسرار اللغة العربية العجيبة، وهل يليق به أن ينسبها إلى المخلوق أو إلى الخالق؟ ثم لا يمانع فى هذا أو ذاك، ويبرز حيرته التى شغلت ذهنه فى أنه يقف بين الرأيين كليل النظر لا يهتدى إلى أيهما، ثم يعقب بقوله: «وإن خطر خاطر فيما بعد يعلق الكف بإحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها قلنا به»[3]، وقد نبه بعض الباحثين فى فقه اللغة على تردد ابن جنى فى تلك المسألة، يقول الدكتور السامرائى: «وابن جنى بعد عرضه للآراء كلها لا يقطع فى ذهابه إلى رأى من هذه الآراء، بل هو متردد فى الأخذ بأيها»[4]، ويقول الأستاذ النجار تعقيبا على كلامه عن الاصطلاح والتوقيف: «يبدو من هذا أن

---

(١) نفسه، نفس الصحيفة. (٢) نفسه ٢/ ٢٨.

(٣) نفسه ١/ ٤٧، وابن سيده تابع لابن جنى، فقد نقل كلامه بنصه فى كتابه المخصص، وقد جعل الدكتور حسن عون ذلك رأيا خاصا لابن سيده ولكنه خلاف الحقيقة، اللغة والنحو التعليق ص٢٤، وانظر فيما سبق حديثنا عمن تأثر بابن جنى من العلماء، ص ٢٦٦ وما بعدها من كتابنا.

(٤) دراسات فى اللغة ٦.

مذهب ابن جنى فى هذا البحث الوقف فتراه لا يجزم بأحد الرأيين؛ الاصطلاح والتوقيف[1]، ووصفه الأستاذ (العاملى) بالتردد بدليل: واعلم أننى على تقادم الوقت . . . إلخ[2].

ولا بدع فى تردد ابن جنى، فعلماء اللغة منذ قديم الزمن حتى العصر الحديث مترددون فى هذا المبحث، فلم يقطعوا برأى فيه بل أكثر من هذا أن المحدثين عزفوا عنه، ودعوا إلى عدم تناوله بين مسائل فقه اللغة لأنه أمر غيبى (ميتافيزيقى) «وهو لا يزال يستند إلى حد كبير إلى التقدير والتخمين ويشبه هذا الموقف تمام الشبه موقف علم الكيمياء، وعلم الفيزياء، وعلم الحياة من أصل المادة والقوة والحياة فى الكون إذ لم تعد هذه المباحث جزءاً من تلك العلوم»[3]، ويكفى ابن جنى فى مجال البحث والرأى أن يقول بأحدث الآراء التى وصل إليها علماء العصور الحديثة وهو نشأة اللغة بطريق المحاكاة وإعلانه عن قبول هذا الرأى الذى ذهب إليه غيره من علماء العرب الأقدمين ويعد أكثر الآراء قبولا عند المحدثين، وإن الناظر فى بحوث ابن جنى يبدو له اعتقاده لذلك الرأى، فقد بنى عليه العلاقة بين اللفظ ومعناه مؤكدا وجود المناسبة الطبيعية بينهما عن طريق وضع الألفاظ، فالحرف الواحد مشاكل لما يدل عليه من معنى، والحرفان والثلاثة فى تركيب الكلمة الواحدة، وقد أكد بذلك ثنائية اللغة، وأن الإنسان تدرج باللفظ من الثنائى إلى الثلاثى وغيره محاولا أن يكون الحرف المزيد مناسبا للمعنى المراد منه وسنشرح ذلك تفصيلا فى حديثنا عن الاشتقاق.

موقفنا من هذه الآراء

تعرضت المذاهب المتعددة السابقة لنقود كثيرة أثبتت فسادها، وعدم استقامتها على المنهج العلمى، وبعدها عن الواقع اللغوى المطابق لحياة الإنسان الأول، اللهم إلا الرأى القائل بأن الإنسان حاكى الأصوات المسموعة فإنه حظى بتأييد كثير من علماء اللغة لتدرجه مع سنة النشوء والارتقاء، واتفاقه مع حال الطفل والأمم

(١) التعليق بالخصائص ١/٤٧.
(٢) مولد اللغة، ص١٩.
(٣) فقه اللغة للمبارك ١١.

البدائية، ومسايرته بذلك للوجهة العلمية والاجتماعية، ثم إنَّ هذا الرأى الأخير تعرض - أيضًا - لنقود أجاب عنها أصحابه، ولكنهم على الرغم من ذلك لم يقطعوا بأنه هو الرأى الذى لا رأى بعده، ويعترفون بأنه «لم يقم دليل يقينى على صحته»[1]، ويبدو ذلك من مناقشة الأستاذ فندريس للأدلة المؤيدة له:

أولا: حال الطفل:

المنهج العلمى السليم يمنع من المقارنة بين تدرج الطفل اللغوى، ومنشأ اللغة الإنسانية، «لأن الأطفال لا يعلموننا إلا كيف تحصل لغة منظمة ولا يعطوننا أية فكرة عما كان عليه الكلام عند أصل نشوئه.. الطفل لا يؤدى إلا ما قيل أمامه... ويقوم بعمل المحاكاة لا الخلق عمل يخلو من الارتجال خلوا تاما»[2].

ثانيا: حال الأمم البدائية:

(أ) لا تمثل اللغات البدائية حال اللغة الإنسانية الأولى إذ إن تلك اللغات لا تعد بدائية بمعنى الكلمة، فقد مرت بها عصور متوالية تغيرت فيها، وانتقلت إلى حالات أخرى متعددة بعدت بها عن أصلها الأول الذى وجدت عليه، ومن ذا الذى يعرف تلك المراحل والتطورات وآثارها؟ «فهناك لغات تنتسب إلى تواريخ منها القديم ومنها الأقدم، ونحن نعرف بعض لغاتنا الحديثة فى صور قديمة ترجع إلى أكثر من عشرين قرنًا، ولكن أقدم اللغات المعروفة (اللغات الأمهات) كما تسمى أحيانا لا شىء فيها من البدائية، ومهما تكن مختلفة عن لغاتنا الحديثة فإنها لا تفيدنا علما إلا بالتغيرات التى طرأت على الكلام ولا تدلنا على شىء من كيفية نشوئها، كذلك لا يمكن استخلاص شىء فى هذا الصدد من لغات المتوحشين، فالمتوحشون ليسوا بدائيين على الرغم من الإسراف فى تسميتهم بهذا الاسم[2] إلخ.

(ب) أما وجود بعض الشعوب البدائية التى لا تزال -فى العصر الحاضر- تتفاهم بلغة الإشارات مما جعل أصحاب تلك النظرية يستدلون بذلك على أن

---

(١) علم اللغة. د. وافى ٩٦.

(٢) اللغة ٣٠، ٣١.

الإنسان الأول استخدم الإشارات فى تفاهمه أولا أو مع اللغة الصوتية كمساعد آلى لها فهذا أيضًا ليس أمرا مؤكدا «فلعل اللغة البصرية[1] توازى اللغة السمعية فى قدم العهد، فليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن إحداها متقدمة على الأخرى. . وغالبية اللغات البصرية المستعملة اليوم مشتقة من اللغة السمعية. . وقانون الإشارات البحرية. . ولغة الإشارات التى يستعملها الصم والبكم هى الأخرى منسوخة عن اللغة السمعية[2]، فهذه الاحتمالات تجعل القول بنشأة اللغة عن طريق محاكاة الأصوات أمرًا ظنيا من حيث صحته واستقامته.

ومع ذلك فالباحث حديثا فى هذا الموضوع يجد بين يديه من المعلومات اللغوية والاجتماعية والنفسية ومن المقارنة بين اللغات الحديثة والقديمة وأحوال الأمم البدائية وغيرها ما يستطيع الاستفادة منه لبحث نشوء اللغات[3].

ونلاحظ أن الإنسان الأول تفاهم بلغة معينة هى أسلوب صوتى استمد بعضه بطريق الوحى مما احتاج إليه، وتعارف عليه المتخاطبون فى هذا الأوان الغابر، يقول ابن جنى: «وكيف تصرفت الحال وعلى أى الأمرين كان ابتداؤها فإنها لابد أن يكون قد وقع فى أول الأمر بعضها، ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه لحضور الداعى إليه فزيد فيها شيئًا فشيئًا»[4]. ثم بالزيادة على هذا الأصل أمكن تكوّن لغة عامة، ويمكن أن يستدل على واقعية هذه اللغة بما أثبته بعض الباحثين من «أن الأصول فى اللغات الآرية والسامية والمغولية وفى اللغتين القديمتين الأكدية والمصرية كلها متشابهة تدل على أصل واحد وأتى بأربعة آلاف كلمة من هذه اللغات لإظهار المشابهة[5]، ثم إن هذه اللغة العامة تفرعت بتفرع الجنس البشرى، وتوزعه الجغرافى فى شتى بقاع الأرض فنشأت عنها اللغات التى انتشرت فى العالم وتوالدت، ومات أكثر الأمهات حتى وصلت بعض وليداتها إلينا الآن.

---

(١) الإشارات.

(٢) اللغة ٣٢، ٣٣.

(٣) فقه اللغة للمبارك ١١.

(٤) الخصائص ٢/٢٨.

(٥) مولد اللغة ١٣.

وقد ادعت بعض الأجناس البشرية أن لغـتهم كانت أول اللغات ظهوراً على لسان آدم عليه السـلام كالعربية[1] أو العبرية أو الـيونانية[2] أو غيرها، فـقد ذكر السيـوطى أخبارا كـثيرة تفـهم أن أول لسان تكلم به آدم عندمـا نزل من الجنة كان عربيا إلى أن بعد العهد فحرف وصار سريانيا[1]، ومنها ما أخرجه ابن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس أن آدم عليه السلام كانت لغته فى الجنة العربية، فلما عصى سلبه الله الـعربية وتكلم بالسـريانية، فلمـا تاب رد الله عليه العـربية[3]، وادعى اليهـود أن العبرية كـانت لسان آدم بدليل ما ورد فى سـفر التكوين[4]، وقام أحد الفراعنة المصـريين بإجراء تجارب تثـبت أن المصرية القديمة هـى أصـل اللغات فى العالم[5]، (وربما كـان أعجب مـا تحدثنا به الروايات أن عـالما سويديا فى الـقرن السابع عشر كان يؤكد لمستمعيه فى صورة جدية أن الرب فى جنة عدن كان يتكلم اللغة السويدية وأن آدم كان يتكلم اللغة الدينمركية)[6].

ونحن نرى من هذا البيان أن كل أمة حاولت أن تجعل من لغتها المنشأ للغات الإنسانية لتعلقهـا بها وتعصبها لها، ولكن - كما يقـول الأستاذ العاملى: «ليست واحدة من ذلك فى الحـقيقة تمثل اللغـة الإنسانية الأولى بل هذه اللغات المخـتلفة متفرعة عنها»[7]، وكما يقول الأستاذ الرافعى: «لا يمكن تعيين الأمهات التى ينتهى إليهـا التسلسل اللفظى ولا الحكـم بأصالة لغة دون غـيرها كالـذين يقولون إن آدم الألسنة أو لسان آدم كان سريانيا أو عبرانيا أو نحو ذلك فإن الإنسان الأول أمر من الأمور الغيبية، والزمان نفسه لا يهتدى الآن إلى موطئ قدمه من الأرض ولا يعلم الغيب إلا الله»[8].

---

(١) المزهر ١/ ١٥، ط الأولى، والصاحبى ٣٤.

(٢) وصل الحد إلى أن اعـتقد الإغـريق أن لغتهم مـرآة ينعكس عليهـا النظام المدنى فى أبهى حلله. دراسات فـى اللغة، ص٤، وانظر فى مـثل هذه الأقوال: مـولد اللغة ٣١، ٣٢، وفـقه اللـغة «الإسكندرى» ١٨، ١٩.

(٣) المزهر ١/ ٢٠، ط صبيح.

(٤) الإصحاح الثانى الفقرتين ١٩، ٢٠.

(٥) دلالة الألفاظ د. أنيس ٩، ١٠.

(٦) نفسه نفس الصحيفتين.

(٧) مولد اللغة ٣٢ بتصرف.

(٨) تاريخ آداب العرب ٥٦.

ولكن البحث المقارن بين اللغات السامية واللغات الآرية، يثبت أن لغات الشرق والغرب قد استفادت من اللغات السامية ونموذجها العربية قبل الإسلام وقبل التاريخ، وهذا وغيره من الدلائل اللغوية يرجح أن تكون العربية هى أم اللغات[1].

أى الأجناس أسبق، الأسماء أو الأفعال أو الحروف؟

مرت بنا مذاهب الباحثين فى نشأة اللغة، وبالتأمل فيها نرى أن بعضها يدعى حدوث لغة الإنسان الأول دفعة واحدة كاملة لا نقص فيها، وبعضها يدعى أنها تدرجت من البساطة إلى التركيب، وأنها بدأت ساذجة ناقصة ثم كملت فيما بعد، شأنها فى ذلك شأن لغة الأطفال والأمم البدائية، فأصحاب التوقيف والاصطلاح يدعون كمال اللغة منذ نشأتها بحسب تصورهم، وأصحاب المذاهب الأخرى يؤخذ من كلامهم تدرج اللغة ونموها شيئًا فشيئا بحسب التقدم الإنسانى.

وهذه المقدمة ضرورية لفهم اعتقاد أصحاب تلك الآراء فى حدوث الأسماء والأفعال والحروف وأيها سبق الآخر، فمعظم أرباب التوقيف ادعوا - كما سبق بيانه - أن الله تعالى علم آدم جميع اللغات بما فيها من أسماء وأفعال وحروف، وأرباب الاصطلاح ادعوا أن بنى البشر وضعوا جميع اللغات بما فيها - كذلك - الأسماء والأفعال والحروف، وعلى هذا يمكن فهم رأيهم فى سبق أحد هذه الأجناس الثلاثة، فواضح من ذلك أنهم يقولون بوقوع جميع الأسماء والأفعال والحروف دفعة واحدة، فلم يتقدم أحدها على الآخر، ويوضح لنا ذلك ما نقله ابن جنى عن أستاذه أبى على، وهو أحد القائلين بالاصطلاح والتواضع فى نشأة لغة الإنسان، وملخص ما نقله: «أن اللغة وقعت طبقة واحدة كالرقم تضعه على المرقوم، والميسم يباشر به صفحة الموسوم، لا يحكم لشيء منه بتقدم فى الزمان»[2]، ويقول ابن جنى فى تفصيل هذا الرأى وتأييده: اعلم أن أبا على

(١) انظر: كتابنا: أصل العرب ولغتهم بين الحقائق والأباطيل، ص٩٧ وما بعدها.
(٢) الخصائص ٢/ ٤٠.

-رحمه الله- كان يذهب إلى أن هذه اللغة - أعنى ما سبق منها ثم لحق به ما بعده - إنما وقع كل صدر منها فى زمان واحد، وإن كان تقدم شىء منها على صاحبه فليس بواجب أن يكون المتقدم على الفعل الاسم ولا أن يكون المتقدم على الحرف الفعل، وإن كانت رتبة الاسم فى النفس من حصة القوة والضعف أن يكون قبل الفعل، والفعل قبل الحرف، وإنما يعنى القوم بقولهم: إن الاسم أسبق من الفعل أنه أقوى فى النفس، وأسبق فى الاعتقاد من الفعل لا فى الزمان، فأما الزمان فيجوز أن يكونوا عند التواضع قدموا الاسم قبل الفعل، ويجوز أن يكونوا قدموا الفعل فى الوضع قبل الاسم، وكذلك الحرف[1]، ثم يدلل على أنها وقعت دفعة واحدة ولم يتقدم أحدها على الآخر بما يأتى:

١- أنهم وزنوا حينئذ أحوالهم وعرفوا مصاير أمورهم فعلموا أنهم محتاجون إلى العبارات عن المعانى، وأنها لابد لها من الأسماء والأفعال والحروف، فلا عليهم بأيها بدأوا أبالاسم أم بالفعل، لأنهم قد أوجبوا على أنفسهم أن يأتوا بهن جُمَع إذ المعانى لا تستغنى عن واحد منهن[2].

٢- وجود أسماء مشتقة من الأفعال نحو قائم من قام ومنطلق من انطلق، الا تراه يصح لصحته، ويعتل لاعتلاله، نحو ضرب فهو ضارب، وقام فهو قائم، وناوم فهو مناوم، فإذا رأيت بعض الأسماء مشتقا من الفعل فكيف يجوز أن يعتقد سبق الاسم للفعل فى الزمان، وقد رأيت الاسم مشتقا منه، ورتبة المشتق منه أن يكون أسبق من المشتق نفسه[3].

٣- اشتقاق الاسم من الاسم «فإن المصدر مشتق من الجوهر كالنبات من النبت وكالاستحجار من الحجر وكلاهما اسم[4].

٤- اعتلال المضارع لاعتلال الماضى وهذا يجعل الماضى أسبق من المضارع، مع أن أكثر الناس على أن المضارع أسبق من الماضى[4].

---

(١) نفسه، نفس الصحيفة.
(٢) نفسه ٢/ ٣٠.
(٣) نفسه ٢/ ٣٤.
(٤) نفسه، نفس الصحيفة.

٥- اشتقاق كثير من الأفعال والأسماء من الحروف، فالأول نحو قولهم: سألتك حاجة فلوليت لى، أى قلت لى: لولا وسألتك حاجة فلاليت لى، أى قلت لى: لا، والثانى نحو قولهم: اللالاة، واللولاة، فاشتقوا المصدر من الحرف وإن كان الحرف متأخرا فى الرتبة عن الأصلين قبله الاسم والفعل، وكذلك قالوا: سوفت الرجل أى قلت له: سوف وهذا فعل - كما ترى -، مأخوذ من الحرف، ومن أبيات الكتاب:

لَوْ سَاوَفَتْنَا بِسَوْفٍ مِنْ تَحِيَّتِهَا سَوْفَ العَيُوفِ لَرَاحَ الرَّكْبُ قَدْ قَنِعُ[1]

كذلك عند ابن جنى - جميع تصرف (نعم) إنما هو من قولنا فى الجواب نَعَم، ذلك النُّعمة والنَّعمة والنَّعيم والتنعيم ونعمت به بلا وتنعم القوم والنُّعمى والنَّعماء وأنعمت به له، وكذلك البقية، وذلك أن نَعَم أشرف الجوابين وأسرهما للنفس وأجلبهما للحمد[2]. . . كما قالوا بجلته أى قلت له بجَل أى حسبك حيث انتهيت فلا غاية من بعدك، ثم اشتقوا منه الشيخ البجَال والرجل البَجيل فنعَم وبجَل - كما ترى - حرفان وقد اشتق منهما أحرف كثيرة، وكان الأمر كذلك دون أن يكون ذانك الحرفان مشتقين من النعمة والنعيم والبجال والبجيل «لأن الحروف يشتق منها ولا تشتق هى أبدًا، وذلك أنها لما جمدت فلم تتصرف شابهت بذلك أصول الكلام الأول التى لا تكون مشتقة من شىء؛ لأنه ليس قبلها ما تكون فرعا له ومشتقة منه»[3]. . وقد كثر اشتقاق الأفعال من الأصوات الجارية مجرى الحروف، نحو هاهيت وحاحيت وعاعيت وجأجأت وحأحأت وسأسأت وشأشأت وهذا كثير فى الزجر[4].

فلهذه الأدلة كان وقوع جميع الأسماء والأفعال والحروف دفعة واحدة دون الجزم بتقدم أحدها على الآخر، لأنه يحتاج إليها جميعها فى التعبير عن المعانى، ووجود تلك الاشتقاقات السابقة بالتناوب بحيث يشتق هذا من ذاك تارة، وذاك من هذا تارة أخرى، ويؤخذ كل من الطرفين الكبيرين الاسم والفعل أحيانا من الحرف،

---

(١) نفسه، نفس الصحيفة. (٢) نفسه ٢/ ٣٥.

(٣) نفسه ٢/ ٣٧. (٤) نفسه ٢/ ٤٠.

كل ذلك جعل أصحاب هذا الرأى لا يستطيعون الحكم بالتقدم أو التأخر لأى منها، وقد قال ابن جنى: «إن هذا مذهب أبى على وبه كان يأخذ ويفتى»[1].

ويبدو أن ابن جنى موافق لأستاذه، فقد عرض لرأيه وأتى بالأدلة الكثيرة لتأييده، وأكد فى نهايتها صحة هذا الرأى بقوله: «فقد علمت بما قدمناه، وهضبنا فيه قوة تداخل الأصول الثلاثة الاسم والفعل والحرف، وتمازجها، وتقدم بعضها على بعض تارة وتأخرها عنه أخرى، فلهذا ذهب أبو على رحمه الله إلى أن هذه اللغة وقعت طبقة واحدة»[2]، ثم إنه حكى قولى أبى الحسن فى المبنى من الألفاظ فقال: وكان أبو الحسن يذهب إلى أن ما غُيِّر لكثرة استعماله إنما تصورته العرب قبل وضعه، وعلمت أنه لابد من كثرة استعمالها إياه فابتدأوا بتغييره، وقد كان أيضًا أجاز أن يكون قد كانت قديمًا معربة، فلما كثرت غُيرت فيما بعد، ثم فضل القول الأول، لأنه أدل على حكمة العرب، وأشهد لها بعلمها بمصاير أمرها»[3]، وهذا يعنى ميله إلى أن العرب وضعت ما وضعت من ألفاظ وقواعد فى آن واحد، وقد نفى تقدم أى من الأنواع الثلاثة فى الزمان وتأخر شىء منها بقوله: فإن قلت: هلا ذهبت إلى أن الأسماء أسبق رتبة من الأفعال فى الزمان كما أنها أسبق رتبة منها فى الاعتقاد، واستدللت على ذلك بأن الحكمة قادت إليه إذ كان الواجب أن يبدأوا بالأسماء لأنها عبارات عن الأشياء ثم يأتوا بعدها بالأفعال التى بها تدخل الأسماء فى المعانى والأحوال، ثم جاءوا فيما بعد بالحروف لأنك تراها لواحق بالجمل بعد تركبها واستقلالها بأنفسها نحو إن زيدا أخوك وليت عمرًا عندك، وبحسبك أن تكون كذا؟، قيل يمنع من هذا أشياء[4]، ويسوق الأدلة السابقة.

ويبدو أنه كان يفهم حقيقة التقدم فى الزمان - كما تنطق به عبارته السابقة، - غير أن ما يراه من ظواهر اللغة يصرفه عنه، فلا يسعه إلا أن يسلم برأى أستاذه، وهما مع ذلك نحويان متأثران بنظرات الأقدمين إلى ألفاظ اللغة «فيرى البصريون والكوفيون أن الأسماء قبل الأفعال والحروف تابعة للأسماء؛ لأن الفاعل

(١) نفسه ٢/ ٣٠. (٢) نفسه ٢/ ٤٠.
(٣) نفسه ٢/ ٣١، ٣٢. (٤) نفسه ٢/ ٣٣، ٣٤.

سابق لفعله والأسماء سابقة للإعراب، والحروف عوامل فى الأسماء والأفعال مؤثرة فيها المعانى، وتقدم العامل على المعمول لا يوجب أن تكون الحروف سابقة للأسماء والأفعال نفسها فى الوجود، لأن معنى ذلك أن عملها الإعرابى وهو الرفع والنصب والخفض والجزم يأتى بعدها لا أنها تتقدم فى وجودها الأسماء والأفعال[1]، وقال: ابن الأنبارى فى تعليل ذلك:

فإن قيل فلم قدم الاسم على الفعل، والفعل على الحرف؟ قيل: إنما قدم الاسم على الفعل لأنه الأصل ويستغنى بنفسه عن الفعل، نحو زيد قائم وأخر الفعل عن الاسم لأنه فرع عليه لا يستغنى عنه، فلما كان الاسم هو الأصل ويستغنى عن الفعل، والفعل فرع عليه ومفتقر إليه كان الاسم مقدمًا عليه، وإنما قدم الفعل على الحرف لأن الفعل يفيد مع الاسم نحو قام زيد، وأخر الحرف عن الفعل لأنه لا يفيد مع اسم واحد لأنك لو قلت بزيد أو لزيد من غير أن تعلق الحرف بشىء لم يكن مفيدًا، فلما كان الفعل يفيد مع اسم واحد، والحرف لا يفيد مع اسم كان الفعل مقدمًا عليه[2].

وهذا الرأى فى جوهره، وهو تقدم الأسماء على الأفعال والأفعال على الحروف، يتفق والرأى الحديث إلا أنه بنى على اعتبار نحوى بحت، ولم ينظر إلى الناحية الاجتماعية التطورية، بل إن ابن جنى - حكاية عن أستاذه - فسر تقدم الأسماء بتقدمها فى النفس لا فى الزمان كما رأينا، وهذا يعد تصويرًا لرأى التوقيفيين والاصطلاحيين على السواء، وهذا الرأى فى وقوع الأسماء والأفعال والحروف دفعة واحدة مبنى على أن لغة الإنسان الأول كانت كاملة كما تصوره أصحاب التوقيف والاصطلاح، وقد طبق ذلك أبو على على اللغة العربية كما هو واضح، والحقيقة أن لغة الإنسان الأول لم تكن بهذا الكمال الذى تصوره، والعربية التى بنى عليها أبو على مبدأه لا يصدق عليها ذلك إلا بعد أن ارتقت ووصلت إلى أوج مجدها، ويتضح ذلك من أدلته التى ساقها ابن جنى، وهى تتلخص فى الاشتقاقات المتعددة التى أكد بها احتمال تقدم أى الأنواع الثلاثة،

(١) الإيضاح للزجاجى ٨٣، ٨٤ بتصرف. (٢) أسرار العربية ط ليدن ص٩.

فمرحلة الاشتقاق على الصورة التى استدل بها ليست بدرجة من السذاجة والبساطة التى كانت عليها لغة الإنسان الأول فيما يظن بل إنها تعد مرحلة راقية وصلت إليها اللغة العربية بعد تطورات متطاولة كما سيتبين ذلك من مناقشة الرأى الثانى.

أما أرباب المذاهب الأخرى ولا سيما القائلين بأن اللغة نشأت عن محاكاة الأصوات مستدلين على ذلك بأحوال الأطفال والأمم البدائية، فإنهم يقولون ههنا بتدرج حدوث الألفاظ المذكورة بأنواعها الثلاثة تبعًا لسنة النشوء والارتقاء فالطفل تبدأ لغته ساذجة ناقصة ثم تتدرج كالآتى:

١- **مرحلة المادة**: وهى التى يقصر فيها فهمه فلا يعرف إلا المحسوسات ومن هنا كان أول ما يظهر فى لغته أسماء الذوات.

٢- **مرحلة العمل**: وهى التى ينمو فيها تفكيره فتبدأ كلمات المعانى فى الظهور على لسانه وهى الأفعال (الدالة على الحدث والزمان)، والصفات (الدالة على معنى كلى تتلبس به الذوات بشكل عارض) وما إليهما.

٣- **مرحلة العلاقات**: وتلك تبدو مع ارتقاء تفكيره واكتماله فتظهر الحروف والروابط الأخرى، وكانت تلك متأخرة الظهور فى لغته «لأنها أدق أنواع الكلمات»[1].

ولغات الأمم البدائية تكون ساذجة مبهمة فى أول أمرها ثم تتدرج تبعًا لرقيها وتقدمها على الوجه التالى:

١- **دور التقليد**: وفيه تظهر الألفاظ الحسية التى تحاكى الأصوات الطبيعية التى تحيط بهم وتكون تلك الألفاظ قليلة بسيطة البناء لا فرق فيها بين الاسم والفعل والحرف، ولذلك يعبرون بالكلمة الواحدة الحسية عن المعانى التى لم توجد لها ألفاظ معنوية بعد «فإذا اضطروا للتعبير عن قولنا (صلب) قالوا (حجر) وعن (طويل) قالوا (ساق) وعن (مستدير) قالوا (قمر)»[2].

---

(١) علم اللغة، د. وافى ١٤٠ بتصرف.

(٢) الفلسفة اللغوية ١٢٧، ١٢٨.

٢- **مرحلة تولد الألفاظ البسيطة الدالة على المعانى**: وتحدث تالية للمرحلة السابقة تبعا لتقدم أفكارهم وحياتهم الاجتماعية «فتتحول حكاية الصوت من الدلالة على ما يحاكيه مباشرة إلى ما يقرب منه، أو يماثله بالتدريج حتى تتولد الألفاظ البسيطة الدالة على المعانى البسيطة، بغير أن تتولد فيها الأدوات والحروف ولا تمييز فيها بين الاسم والفعل والحرف، وإنما يدل على ذلك بالقرينة فتستعمل اللفظة الواحدة تارة اسما، وطورا فعلا، وأخرى نعتًا أو أداة»[١].

٣- **مرحلة التمييز بين الاسم والفعل[١] وسائر الأجناس والمشتقات[٢]**: وهى تلى تلك المرحلة تبعا لازدياد النمو الفكرى لتلك الجماعة الإنسانية «فيتولد فيها المميز بين الاسم والفعل»، وكذلك تظهر مميزات الجنس والعدد والاشتقاق «مع خلوها من حروف الجر والعطف وسائر الأدوات»[٣]

٤- **مرحلة ظهور الحروف**. وهذا عند رقى تلك الجماعة إلى درجة تسمح لهم بأن ينوعوا ألفاظ لغتهم «بالنحت على كرور الأيام فتتحول الأسماء أو الأفعال الدالة على معنى فى نفسها إلى الحروف الدالة على معنى فى غيرها على طرق وأساليب لا يمكن حصرها»[٤]

ومن ذلك التحديد للمراحل التى تمر بها لغة الأطفال والأمم البدائية التى تتدرج فى الحضارة اتجه أصحاب الآراء السالفة إلى القول بأن لغة الإنسان الأول «نشأت ناقصة ساذجة مبهمة فى نواحى أصواتها ومدلولاتها، ثم سارت بالتدريج فى سبيل الارتقاء»[٥]، وأشهر نظرية للبحث فى سبق الاسم أو الصفة أو الفعل

---

(١) الفلسفة اللغوية ١٢٨، ١٢٩، وفقه اللغة للإسكندرى ٨٨.

(٢) هذا مخالفة للأستاذ جورجى زيدان فهو يدعى أن ظهور الأجناس والعدد وصيغ الاشتقاق متأخر عن مرحلة ظهور الحروف، ولكن الذى يبدو أن إدراك الأمور المعنوية مرحلة واحدة تظهر فيها الأفعال والمشتقات التى تقابل الصفات عند الأطفال فهى تظهر مع الأفعال انظر الفلسفة اللغوية ١٢٩-١٣١.

(٣) الفلسفة اللغوية ١٢٩.

(٤) نفسه ١٣ (ويقول الأستاذ الإسكندرى الأقرب إلى التحقيق أن الحروف من المرتجل الموضوع لمعنى جزئى والمحرف عن أصل مفرد أو مركب) فقه اللغة ٨٣.

(٥) علم اللغة ١٠، ط١٩٣٨م، والمسلك اللغوى ٩٨.

هى نظرية العلامة ريبو Ribot تقول: الصفة هى أول ما ظهر، ثم تلتها أسماء المعانى وأسماء الذوات، ثم ظهرت الأفعال، ثم اختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف(١).

ولكننا لو قارنا مقارنة صحيحة بين هذا القول وبين لغة الأطفال والأمم البدائية لوجدنا أن المحسوس هو أول ما يظهر - كما سبق بيانه - على لسان الأطفال والبدائيين مما يؤكد ظهور أسماء الذوات فى أول مرحلة، ثم يليها ظهور أسماء المعانى والأفعال والصفات، ثم تظهر الحروف فى آخر المراحل(٢)، وهذا ما يؤيده الدكتور أنيس فهو يقول: «إن المرحلة اللغوية فى عهد آدم لم تتجاوز المرحلة العلَمية التى يقول بعض اللغويين المحدثين: إنها المرحلة الأولى فى النشأة اللغوية، فاسم الشىء بدأ علَما، ثم عممت دلالته، وأصبح اسم جنس، ثم عن هذا الاسم جاء الحدث أو الفعل، أما الحروف فمما لا شك فيه أنها كانت فى أصل وجودها كلمات مستقلة الدلالات ثم انتقص من أطرافها، وأصبحت مع الزمن على الصور المألوفة لنا»(٣)، وبناء على ذلك فظهور الأفعال نفسها كان متدرجًا أيضًا خلافا لما ذهب إليه أنصار التوقيف والاصطلاح من وقوعها دفعة واحدة»(٤)، ونحن حين نفكر تفكيرًا منطقيًا فى تلك الفكرة الزمنية ندرك أن الماضى يلتقى بالمستقبل عند ذلك الزمن الذى نسميه الحاضر كما ندرك أن الزمن الحاضر لا يعدو أن يكون نقطة اتصال ليس من السهل تحديد مداها(٥)، ومع اتصالها الدقيق فالمقبول هو تدرج حدوثها عند الإنسان، وتدرجها - عند المحدثين - يوافق ما ذهب إليه أبو

---

(١) علم اللغة ١١٣، ط ١٩٣٨م.

(٢) هناك آراء أخرى لا صحة لها. انظر علم اللغة د. وافى، ١١٢، ١١٣، ط. ١٩٣٨م، وفقه اللغة للإسكندرى، ١٦، ١٧.

(٣) طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ٤٢.

(٤) يدل لذلك قول ابن جنى بعد عرضه لرأى أبى على: وهذا يضيق الطريق على أبى إسحاق وأبى بكر فى اختلافهما فى رتبة الحاضر والمستقبل، الخصائص ٢/ ٣١.

(٥) من أسرار اللغة ط٣، ١٥٢.

بكر بن السراج من القدماء[1]، وهو أن أولها ظهورًا هو الحاضر ثم الماضى ثم المستقبل، وهذا بحسب ما تقدم من ملاحظة حال الأطفال «فعرف أولا الزمن الحاضر وما يتضمنه من أحداث لأنها محل اهتمامه وعنايته، فلما نما إدراكه وقويت ذاكرته بدأ يذكر أحداثا انتهت، ومضى عليها بعض الوقت، بعد أن تركت فى ذهنه أثرا قويا، جعله يذكرها حينا بعد حين، ولا سيما حين تتكرر نفس التجارب الماضية»، ثم لا يلبث أن يتطلع إلى أحداث المستقبل فتظهر عنده الأفعال المستقبلة.

وقد مر الإنسان فى نفس تلك المراحل، واحتاج للتعبير عن تجاربه إلى كلمات مستقلة تدل على الحاضر، ثم الماضى، ثم المستقبل، وهكذا حتى وصلت إلى الحال الدقيقة التى نلمسها فى اللغات المتفرعة عن اللغة الأولى للإنسان[2]، وهذا التصور - وإن كان مبنيا على الظن والحدس «فمن الصعب على الفيلسوف أو اللغوى أو المؤرخ أن يحكم فى أصل نشأة اللغات حكما فاصلا»[3] - واقعى وهو أقرب إلى الصحة والقبول، ولا يتنافى مع ما أثبتناه من احتمال وجود لغة صوتية تفاهم بها آدم مع الملائكة إذ يتوقع - كما سبق - أن تكون ألفاظ تلك اللغة محدودة ومتمشية مع بدء تاريخ الإنسان ثم إن ارتقاءها واكتمالها حدث مع تقدم الإنسان ومحاكاة الأشياء مما سبب ظهور تلك الأنواع على نحو تطورى متتابع هو هذا النحو المرسوم.

---

(١) يرى الزجاج وتلميذه الزجاجى أن أسبق الأفعال المستقبل ثم الحال ثم الماضى لأن الشىء لم يكن ثم كان ثم يصير فى الحال ثم يصير ماضيا، ويرى بعض النحاة أن الماضى أول الأفعال وهى آراء بعيدة عن واقع اللغة، الإيضاح ٨٥، والأشباه والنظائر ١/ ٥٠، بتصرف والارتشاف الورقة ٣١٤، وشرح السيرافى للكتاب ١/ ١٣، والخصائص ١/ ٣١.

(٢) من أسرار اللغة، ط٣، ص١٥٠، ١٥١ بتصرف.

(٣) دراسات فى العربية وتاريخها، ص٨.

نتائج البحث

خضنا طويلا فى أمر الإنسـانية منذ نشأتها، وما تحتـاج إليه فى الحياة، ولا سيـما اللغـة التى تعبـر عن أغراضهـا، ورأينا أن الباحـثين تناولوا موضـوع اللغة الأولى، بيـد أنهم يحلقون وراء الأفـق الغائم، فنتـائجهم ظـنية تنتظر مـزيدًا من البحث والتنقـيب، وقد عرضنا لآرائهم - فى ذلك - مناقـشين كل رأى بالبراهين الصحيحـة دعما وتقوية أو هدما وتوهينا، وقد شـاركنا عالمنا ابن جنى فى تصوير حـقيـقة كل رأى وأسـسه التى بنى عـليهـا فكان - بحق - بارعًا، إذ حـدد رأى التوقيـف، وبعض القائلين به، وأدلتهم، ورأى الاصطلاح، وصورته - كـما يراه أصحـابه - وأدلتهم، وناظرهم مـناظرة علميـة ذات طابع جدى من البـحث الحر البـعيـد عن الأهواء، فـهو لا يسيـر وفق الرأى الإلهى، على الرغم من اتصـاله بالعواطف الدينيـة فيرد على تفـسيرهم لقـوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... (٣١)﴾ [البقرة] بما يناقـضه من وجوه أخرى، ثم هو - لتمـسكه بالبراهين المؤيدة - يعتـرف بأنه من الممكن أن يسلم برأى التوقـيف إذا وضحت الدلالة واستـقام هذا التفسـير للآية، وأثبتت الحقـائق التاريخية نسـبته وورد به الخبر الصـحيح، ثم هو يناقش أيضًا كلام الاصـطلاحيين، ويرد عليهم فى تصورهم عـدم إمكان التوقيف لأن الإشارة متعذرة بالنسبة لله تعالى، فيأتى لهم بأدلة عقلية مماثلة تبطل مدعاهم، وتصور لهم بعـدهم عن المبادئ المنطقيـة العقلية فى التـفكير ورجاحة مـيزانه وهو كذلك، ثم يعرض لأحـدث الآراء فى نشأة اللغة الإنسانية، وهو محـاكاة أصوات الطبيـعة والأشيـاء، ويدلنا على أن علماءنا العرب سـبقوا الأوربيين منذ أكـثر من عشرة قرون بهذا الرأى الذى أكدته التجارب العلـمية الحديثة، فيبين أن من العلماء العرب من قـالوا به، وأنه هو أيضًا لا يجد مانعـا من الاعتداد به فهـو عنده وجه صالح ومذهب متقبل، ويعرض للأدلة العلمـية اللغوية التى تؤكده وتبرهن عليه، وهذا مما يثبت لعـالمنا مع آبائه وإخوانه العـرب - دقة ما وفـقوا لتقـديمه ولطف ما أسعـدوا به ولم يأت بعده من شرقيين وغـربيين من زاد على هذه الفكرة العميـقة شيئًا مذكورًا، وهو بروح الباحث المنصف والعـالم التجريبى العميق يقف أمام هذا

الأمر حائر الفكر ذاهل العقل لأن النتائج غير يقينية بل ظنية تحيط بها الأوهام ويسترها حجاب الزمن الكثيف وسنوه السحيقة الغابرة فهو لا يقطع برأى ولكنه يعرض الأمور على بساط البحث ويبدى وجهات نظره من احتمال هذا أو ذلك دون نفى بعضها أو إثبات الأخرى.

وهذا على أمانته فى البحث، وحريته فيه، وتحريه الدقيق يدل على درجة كبيرة من التفكير الواعى، فليست الأمور تؤخذ هكذا بالنظرات السطحية الساذجة، بل تحتاج للقطع بها إلى أدلة لا شك فيها، والعلم الحديث حتى الآن لم يصل إلى تلك الأدلة المطلوبة لهذا البحث الميتافيزيقى، «وكل ما وصلوا إليه فروض وظنون يخالونها حقائق اعتمادًا على بعض الظواهر والأفهام» كما يقول أستاذنا الدكتور قناوى، وهنا لا نجد ما يغض من شأن عالمنا كباحث تناول هذا الموضوع بالدراسة والتحليل، فضلا عن النظر إليه بوصفه عالمًا لغويًا وضع الأسس، وعرض الآراء فى دقة وعمق بهر أنظار الباحثين فى كل زمان ومكان.

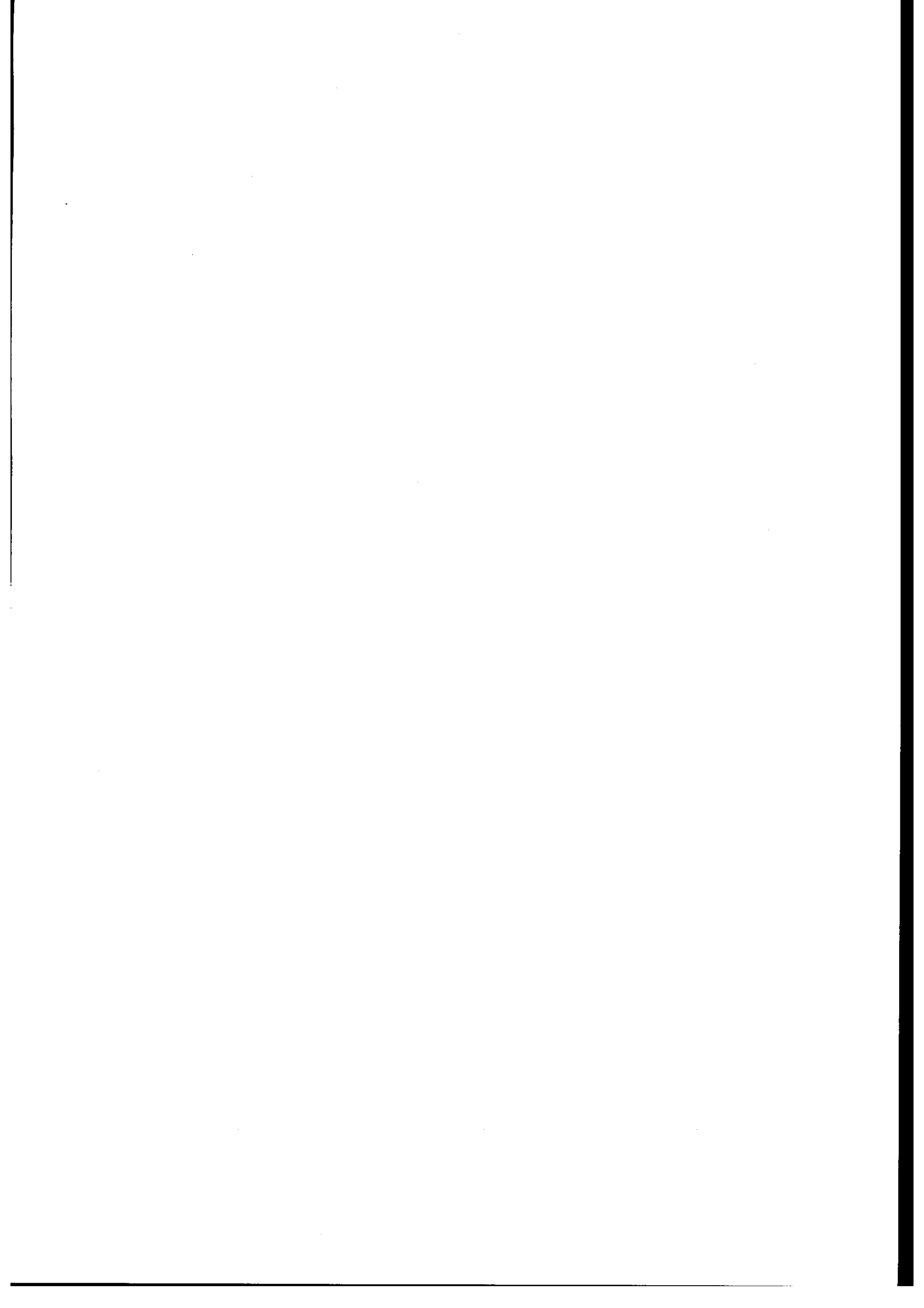
كما عرضنا للآراء الأخرى، وناقشناها وبينا قصورها، ووقفنا مع ابن جنى وغيره من كبار الباحثين فى تفسير الرأى القائل بحكاية الأصوات، وعلى أساس هذا الرأى عالجنا نظرات العلماء قدامى ومحدثين لنشأة الألفاظ اللغوية من أسماء وأفعال وحروف وأيها سبق الآخر، وعرضنا لرأى أبى على، وتلميذه ابن جنى القائل بوقوع اللغة دفعة واحدة دون تقدم بعضها على الآخر للحاجة إليها فى الإبانة عن المعانى المختلفة التى يريدونها، كما ذكرنا رأى علماء العرب فى معالجة هذا الموضوع، وعرفنا أنهم قالوا بما وصل إليه العلم الحديث من تقدم الأسماء ثم الأفعال ثم الحروف وأن الحاضر أول الأفعال ثم الماضى ثم المستقبل، إلا أنهم لم يتخلصوا من روح القواعد النحوية، فخلطوا بين هذا وذاك بما أبعدهم عن الصواب - أحيانًا - فالأسماء والأفعال والحروف لم تنشأ - بناء على الحاجة الإعرابية، ولم يكن من اللائق بابن جنى أن يفسر وجهة نظرهم بأن تقديمهم للأسماء يعنى تقديمها فى النفس والاعتقاد لا فى الزمان.

ومن هنا نلمح أهمية الدراسة الاجتماعية للباحث اللغوى، فلو نظر هؤلاء العلماء إلى تدرج الإنسان فطريا من الصغر إلى الكبر ومراحله المختلفة لأدركوا كالمحدثين أن نشأة هذه الألفاظ يخضع لعوامل اجتماعية وثقافية وتطورية وأن بين نشأة النوع والآخر حقب زمنية قد تطول وقد تقصر، وحال الطفل والأمم البدائية شاهدة بذلك، فالأسماء نشأت أولا وتلتها الأفعال والصفات ثم أعقبتها الحروف والأدوات على مرور أزمنة تاريخية حتى اكتملت اللغة، وإن تاريخ اللغات يؤيد ذلك فهناك لغات وصلت إلى قمة اكتمالها، وأصبحت متصرفة توليدية كالعربية والإنجليزية وغيرهما، وهناك لغات لا تزال تقف مع مراحل أولية.

وهذا يدل على تطور الإنسان وتدرجه، ويتفق وما وصل إليه المحدثون من انتقال الإنسان من المحسوس إلى المعقول على الوضع الذى بيناه، وهو حقيق بالتقدير والقبول، بناء على الظواهر الاجتماعية المؤيدة له من بداوة وحضارة.

الباب الخامس

اللهجات وتنوعها



مقدمة ومنهج

من عادة ابن جنى أن يدرس الموضوعات اللغوية فى صور متفرقة يعرض لها، ثم يناقشها، وباستطلاع رأيه فى كل منها وضمه إلى مشاكله نلاحظ توافر دراسة لغوية مفيدة فى كل موضوع يطرق بابه، والملاحظ أن ابن جنى - لشغفه بالعرب والعربية - يمدح هؤلاء القوم ولغتهم، ويقف منها موقف المؤيد لها، المدافع عنها، المعلل لأسباب توحدها، أو انقسامها، وهو فى كل ذلك يقيم أدلة تتراءى له هى - كما سيبدو من الدراسة - دقيقة كل الدقة فى نظر المنهج العلمى الحديث، ونظرًا لاهتمامه باللغة العربية ولهجاتها فإنه يعقد لها أبوابا متعددة فى كتابه الخصائص، ويمكن التعرف عليها من الرجوع إليه[1]، كما أنه يعرض لها فى كتابه المحتسب ويدافع بها عما نسب لبعض القراءات من شذوذ، وقبل هذا كله قدم ابن جنى للموضوع بدراسته لأصول اللغة التى يجب على كل باحث أن يبدأ بها عند تناوله موضوعًا لغويا أو لغة معينة، فقدم فى مستهل خصائصه فصلا خاصا للكلام والقول والفرق بينهما[2]، وفصلا خاصا لبيان معنى اللغة واشتقاقها[3]، وكل ذلك يفيد دارس اللغات واللهجات.

وسنقسم الموضوع على ما يقتضيه منهج البحث المستفاد من تناول عالمنا الفيلسوف له. ونقاطه تتلخص - كما يبدو لنا - فيما يأتى:

١- بيان معنى الكلام والقول واللغة واللهجة والصلة الوثيقة بينها مع المقارنة العلمية.

٢- كيف وجدت اللهجات العربية؟

(أ) هل وضعت اللغة منذ نشأتها مختلفة أو أنها انشعبت نتيجة لعوامل البيئات والتطور؟

---

(١) الخصائص ١/ ٢٣٧-٢٦٤، ٣٧٠-٣٩١، ٢/ ١٠-١٧.

(٢) نفسه ١/ ٥.　　　(٣) نفسه ١/ ٣٣.

(ب) اختلاط القبائل وأثره فى اللهجات فإذا التقى العربى بغيره حدث واحد من ثلاثة:

١- تمسكه بلهجته الأصلية.

٢- انتقال لسانه إلى اللغة الجديدة.

٣- اجتماع لهجته مع لهجة غيره ويتفرع عن ذلك تركب اللغات.

٣- آثار لغوية لاختلاف اللهجات ودراسة ابن جنى لها وعرضها على المنهج الحديث لعلم اللغة.

ونتحدث على حسب المنهج المذكور.

الكلام والقول واللغة واللهجة

الكلام والقول:

لا يستطيع باحث أن يفرق بين الكلام واللغة أو يعزل أحدهما عن الآخر «فقد اتفق الفلاسفة واللغويون على أن الإنسان لا يستطيع أن يفرق بين فكرتين تفريقا حقيقيا بلا علامات لغوية، أى كلمات، فالتفكير بلا كلمات عائم»[1]، «والكلمات أهم مكونات اللغة وتسمى وحدات لها»[2]، «وما يسميه النحاة أقسام الكلام وهو يقصدون الاسم والفعل والحرف ليس فى الواقع إلا أقسام اللغة فقول صاحب الألفية: الكلام وما يتألف منه يجب أن يصير إلى اللغة وما تتألف منه»[3]، «فالكلام الذى هو نشاط إنسانى نطقى نتيجة لإرادة المتكلم»[2]، يعد الباعث لكلمات اللغة بحيث يجعلها حية بعد موتها ووجودها فى طوايا العقل أو المعاجم، فاللغة بمادتها المكونة لها توجد فى القواميس، أو تختزن فى عقول الجماعة الإنسانية التى تتخذها وسيلة للتفاهم، ولها قواعد خاصة يفهمها أصحابها، ويراعونها فى استعمالهم من ناحية النظام الصوتى والصرفى والنحوى،

---

(١) مناهج البحث فى اللغة ٢٤٤. (٢) نفسه ٣٩.

(٣) نفسه ٤٠.

واللغة بهذا الوصف تسمى «باللغة المعينة»[1]، التى هى نتاج جمعى يستعمله الأفراد «وللكلام علاقة باللغة المعينة، ولذلك يجب أن يدخل فى الدراسة لأنه الجانب العملى منها[2]، وفى الدراسات الصوتية الحديثة يستخدم الكلام طريقًا لمعرفة الاتجاهات الصوتية فى لغة ما أو لهجة ما، وتلك من أبرز الوسائل الناجحة لمعرفة حقائق صوتية لم يهتد الباحثون إليها من خلال الدراسات القديمة تبعا لأن دراسة القدماء بنيت على الوصف النظرى للأصوات دون تطبيق عملى لها لعدم توافر الأجهزة الحديثة لديهم.

وابن جنى فى تناوله للكلام والقول لا يأتى بمتكلمين ليسجل أقوالهم، ويطبق عليها، وإنما يبحث المسألة من وجهة نظر أخرى هى بيان معنى كل منهما، وهل له صلة باللغة أو لا، ولا ريب أنه مصيب فى بحثه إذ الكلمات - كما رأينا - هى مكونات اللغة وأساسها، وقد عرض ابن جنى للكلام والقول على طريق الاشتقاق الكبير محللا معنييهما وتصرفاتهما والفرق بينهما ومعللا كل ذلك بما يعن له من أسباب، وقد مزج بين طريقى النحويين واللغويين فى ذلك.

الكلام:

عرف الكلام بأنه «كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه، وهو الذى يسميه النحويون الجمل، نحو زيد أخوك، وقام محمد، وضرب سعيد، وفى الدار أبوك، وصه، ومه، ورويد، وحاء، وعاء، فى الأصوات وحسّ ولبّ وأف وأوّه، فكل لفظ استقل بنفسه وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام[3]، وقال: إن الكلام اسم من كلَّم بمنزلة السلام من سلَّم وهما بمعنى التكليم والتسليم، وهما المصدران الجاريان على كلَّم وسلَّم، قال الله سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء]، وقال عز اسمه: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب][4]، وهو جنس للجمل المركبة لأدلة:

---

(١) اللغة (فندريس) ٣٠٣، ٣٠٤.

(٢) مناهج البحث فى اللغة ٣٢-٣٥.

(٣) الخصائص ١/١٧.

(٤) نفسه ١/٢٥.

١- أن العرب حددوا للدلالة على الواحد لفظ (كلمة).

٢- أن المصدر كذلك حاله، فإذا قيل: قام محمد فهو كلام، وإذا قيل: قام محمد وأخوك جعفر فهو أيضًا كلام، كما كان لما وقع على الجملة الواحدة كلاما، وإذا قيل: قام محمد وأخوك جعفر وفى الدار سعيد فهو أيضًا كلام، كما كان لما وقع على الجملتين كلاما، وهذا طريق المصدر لما كان جنسًا لفعله؛ ألا ترى أنه إذا قام قومة واحدة فقد كان منه قيام، وإذا قام قومتين فقد كان منه قيام، وإذا قام مائة قومة فقد كان منه قيام، فالكلام إذن إنما هو جنس للجمل التوام: مفردها ومثناها ومجموعها، كما أن القيام جنس للقومات مفردها ومثناها ومجموعها، فنظير القومة الواحدة من القيام الجملة الواحدة من الكلام.

٣- استعملت العرب لفظ (كلام) وما بمعناه من كلمة حديث ومنطق فى أشعارها فى مقام الشجو وأحاديث المحبين «ومعلوم أن الكلمة الواحدة لا تشجو ولا تحزن ولا تتملك قلب السامع، إنما ذلك فيما طال من الكلام وأمتع سامعيه بعذوبة مستمعه ورقة حواشيه»، وقد ساق ابن جنى أمثلة كثيرة لهذا الاستعمال من أشعار العرب كقول كثير عزة:

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلامَهَا ... خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعًا وَسُجُودَا

وقول الراعى:

وَحَدِيثُهَا كَالْغَيْثِ يَسْمَعُهُ ... رَاعِى سِنِينَ تَتَابَعَتْ جَدْبَا

فَأَصَاخَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ حَيًا ... وَيَقُولُ مِنْ فَرَحٍ هَيَا رَبَّا

وقول ذى الرمة:

لَهَا بَشَرٌ مِثْلُ الحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ ... رَخِيمُ الحَوَاشِى لا هُرَاءٌ وَلا نَزْرُ

وقد عقب على كل مثال ذكره بما يوضح أن لفظ الكلام أو الحديث أو المنطق لابد أن يكون عبارة عن «كلام مفيد مستقل بنفسه ولو بجملة واحدة فإن نقص عن ذلك لم يكن هناك استحسان ولا استعذاب»، بل إن كل مقام من

المقامات التى ذكرها الشعراء يستدعى جملا كثيرة حتى يتحقق لكل منهم ما أراد[1].

٤- يقضى اختصاص الكلام بالجمل التامة المستقلة بنفسها اشتقاق لفظ الكلام فهو - كما يرى ابن جنى - من الكلْم والكَلام والكُلُوم وهى الجراح لما يدعو إليه ولما يجنيه فى أكثر الأمر على المتكلمة[2]، قال:

وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ اليَدِ

ومنه قوله:

قَوَارِصُ تَأْتِينِى وَيَحْتَقِرُونَهَا وَقَدْ يَمْلأُ القَطْرُ الإِنَاءَ فَيُفْعِمُ

وإنما ينقم من القول ويحقر ما ينثى ويؤثر، وذلك ما كان منه تاما غير ناقص، ومفهوما غير مستبهم، وهذه صورة الجمل، وهو ما كان من الألفاظ قائمًا برأسه غير محتاج إلى متمم له، فلهذا سموا ما كان من الألفاظ تاما مفيدا كلاما، لأنه فى غالب الأمر وأكثر الحال مضر بصاحبه وكالجارح له[3].

هذا البيان كان دفاعا عن معنى الكلام على الطريقة النحوية، ثم قرن ابن جنى ذلك ببحث مادة (ك ل م) وتقلباتها على الطريقة اللغوية، لأن الدراسة اللغوية هى هدفه الأصلى لا الدراسة النحوية، يقول عن خصائصه: «ليس غرضنا فيه الرفع والنصب والجر والجزم لأن هذا أمر قد فرغ فى أكثر الكتب المصنفة فيه منه، وإنما هذا الكتاب مبنى على إثارة معادن المعانى، وتقرير حال الأوضاع والمبادئ، وكيف سرت أحكامها فى الأحناء والحواشى»[4]. ولذلك فقد تعرض لمادة (ك ل م) وتقلباتها على طريقة الاشتقاق الأكبر الذى يعد هو مبتكره فبين أنها «حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة، والمستعمل منها أصول خمسة هى: (ك ل م) - (ك م ل) (ل ك م) (م ك ل) (م ل ك)، وأهملت منه (ل م ك) فلم تأت فى ثبت.

(١) نفسه ١/٢٧-٣٢.

(٢) يقصد المتكلمين.

(٣) الخصائص ١/٢١، ٢٢.

(٤) نفسه ١/٣٢.

فالأصل الأول (ك ل م) يأتى منه الكلْم وما تصرف منه بمعنى الجرح، والكلام ما غلظ من الأرض، وفى كل ذلك شدة وقوة، ومنه:

عَلَيْهَا الشَّيْخُ كَالأَسَدِ الكَلِيمِ

إذا جرح فحمى أنفا وغضب فلا يقوم له شىء، ومنه الكلام وذلك أنه سبب كل شر وشدة فى أكثر الأمر، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «من كُفِىَ مثونة لَقلقه وقَبقبه وذَبذبه دخل الجنة»[1]، ومنه قول أبى بكر رضى الله عنه فى لسانه: «هذا أوردنى الموارد» وهو باب واسع.

والثانى: (ك م ل) كمل الشىء - مثلثة الميم - فهو كامل وكميل، وعليه بقية تصرفه، والتقاؤها أن الشىء إذا تم وكمل كان حينئذ أقوى وأشد منه إذا كان ناقصا غير كامل.

والثالث: (ل ك م) اللكم: إذا وجأتَ الرجل ونحوه، ولا شك فى شدة ما هذه سبيله.

والرابع: (م ك ل) منه بئر مكُول: إذا قلَّ ماؤها، قال القطامى: (كَأَنَّهَا قُلُبٌ عَادِيَّةٌ مُكُلُ)، فالبئر إذا قل ماؤها كره موردها، وجفا جانبها، وذلك شدة ظاهرة.

والخامس: (م ل ك) منه ملكت العجين: عجنته فاشتد وقوى، ومنه ملك الإنسان، ففيه قدرة للمالك عليه[2].

وبذلك يكون ابن جنى قد فسر مادة (ك ل م) وأبان عن معنى الكلام بما يفيد أنه عبارة عن «الألفاظ القائمة برءوسها المستغنية عن غيرها وهى التى يسميها أهل هذه الصناعة الجمل على اختلاف تركيبها[3].

---

(١) اللقلق: اللسان، القبقب: البطن، الذبذب: الفرج، الجمهرة ١/ ١٢٦، وانظر كلام ابن جنى بالخصائص ١/ ١٤.

(٢) نفسه ١/ ١٣-١٧. (٣) نفسه ١/ ٣٢.

القول:

عرف القول بأنه: كل لفظ مذل به اللسان تاما أو ناقصا، فالتام: هو المفيد، أعنى الجملة وما كان فى معناه، نحو: صه وإيه، والناقص: ما كان بضد ذلك نحو: زيد، ومحمد، وإن، وكان أخوك، إذا كانت الزمانية لا الحدثية، فكل كلام قول، وليس كل قول كلاما[1]، هذا هو حقيقة معناه ثم إنه يستعمل مجازا بمعنى الاعتقاد والرأى، فيقال: هذا قول فلان، أى رأيه ومعتقده. «وفلان يقول بقول أبى حنيفة، ويذهب إلى قول مالك، أى يعتقد ما كانا يريانه، ولا يراد بذلك أنه يحكى لفظهما عينه من غير تغيير لشىء من حروفه ومثل ذلك أن تقول فى رفع زيد بالابتداء فى قولنا: زيد قام أبوه، هذا قول البصريين أى رأيهم، وفى رفعه بما يعود عليه من ذكره هذا قول الكوفيين وأنت تريد بذلك اعتقادهم لا نفس حروفهم، وإلا فإن عبارة القائل قد تتغير والمراد الرأى لا العبارة[2]، ولا يصح هذا كلام أبى حنيفة، أو كلام البصريين، أو كلام الكوفيين، إذ الكلام يتعلق بالألفاظ الصادرة عن كل منهم، ولا علاقة له بالرأى والاعتقاد، وذلك تخصيص وضعى لغوى[3]، وصح إطلاق القول على الاعتقادات والآراء لأنها تخفى فلا تظهر إلا بالقول فهى سبب له، والقول دليل عليها كما يسمى الشىء باسم غيره إذا كان ملابسا له، ومثله فى الملابسة قول الله سبحانه: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ... ⑰﴾ [إبراهيم]، فمعناه - والله أعلم - أسباب الموت، إذ لو جاءه الموت نفسه لمات به لا محالة، ومنه تسمية المزادة: الراوية والنجو نفسه الغائط وهو كثير[4]، وتدور مادة (ق و ل) وتصرفاتها حول الخفوف والحركة وتصرفاتها الستة كلها مستعملة.

الأصل الأول: (ق و ل)، وهو القول؛ فالفم واللسان يخفان ويقلقان ويمذلان به.

---

(١) نفسه ١/١٧. (٢) نفسه ١/١٨.

(٣) ولهذا يصح أن تقول: كلام فلان.. إلخ، إذا وضعت الكلام موضع القول متجوزاً بذلك. الخصائص ١/١٨، وجواز ذلك فى القول دون الكلام مجرد اتجاه إلى الأليق فقط، الخصائص ١/٢٠. (٤) نفسه ١/١٩، ٢٠.

الأصل الثانى: (ق ل و)، منه القِلْو: حمار الوحش، وقلوت الشىء، وكل ذلك فيه إسراع وخفة.

الأصل الثالث: (و ق ل)، منه الوقل: للوعل، لأنه يصعد الجبل بحركة وسرعة.

الأصل الرابع: (و ل ق)، قالوا: ولَق يلِق إذا أسرع.

الأصل الخامس: (ل و ق)، منه لوّق الطعام واللوقة الزبدة وذلك فيه تحريك وخفة وإسراع.

الأصل السادس: (ل ق و) منه اللَّقوة: للعُقاب لخفتها وسرعة طيرانها، ومنه اللقوة فى الوجه كأن اضطراب شكله خفة فيه وطيش منه، واللَّقوة: الناقة السريعة اللقاح، وكل ذلك يتضح فيه معنى الخفة والسرعة والحركة[1].

مقارنة بين الكلام والقول

أوضح ابن جنى من خلال حديثه السابق فروقا وصلات بين الكلام والقول واستعمال كل منهما:

١- مادة (كلم) تدور حول الشدة والقوة، على حين تدور مادة (قول) حول الخفوف والحركة.

٢- الكلام يستعمل فى الألفاظ المستقلة المفيدة، والقول أعم، فيستعمل فيما يكون مفيدا أو غير مفيد، وقد نبه على ذلك سيبويه حين قال: «واعلم أنَّ قُلتُ فى كلام العرب إنما وقعت على أن يحكى بها، وإنما يحكى بعد القول ما كان كلاما لا قولا»[2]، ثم قال فى التمثيل: «نحو قلت: زيد منطلق» فهذا يعنى أن الكلام الذى يحكى بالقول لا يصدق إلا على التام المستقل المعنى «وأن القول لا يستحق هذه الصفة»[3].

٣- الكلام لا يستعمل فى الاعتقادات والآراء والقول يستعمل فيها، ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول إجماع الناس على أن يقولوا: القرآن

---

(١) الخصائص ١/ ٥-١١. (٢) الكتاب ١/ ٦٢. (٣) الخصائص ١/ ١٩.

كلام الله، ولا يقال القرآن قول الله، وذلك أن هذا موضع ضيق متحجر، لا يمكن تحريفه ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه، فعبر لذلك عنه بالكلام الذى لا يكون إلا أصواتا تامة مفيدة، وعدل به عن القول الذى قد يكون أصواتا غير مفيدة وآراء معتقدة[1]، وإنما عبروا عن الاعتقادات والآراء بالقول دون الكلام «من حيث كان القول بالاعتقاد أشبه منه بالكلام، وذلك أن الاعتقاد لا يفهم إلا بغيره وهو العبارة عنه كما أن القول قد لا يتم معناه إلا بغيره، ألا ترى أنك إذا قلت: قام وأخليته من ضمير فإنه لا يتم معناه الذى وضع فى الكلام عليه، لأنه إنما وضع على أن يفاد معناه مقترنًا بما يسند إليه من الفاعل، وقام هذه نفسها قول، وهى ناقصة محتاجة إلى الفاعل كاحتياج الاعتقاد إلى العبارة عنه، فلما اشتبها من هنا عبر عن أحدهما بصاحبه، وليس كذلك الكلام، لأنه وضع على الاستقلال والاستغناء عما سواه، والقول قد يكون من الفقر إلى غيره على ما قدمناه، فكان إلى الاعتقاد المحتاج إلى البيان أقرب، وبأن يعبر به عنه أليق[2] واختصاص القول بالاعتقاد والرأى تخصيص لغوى وضعى كما ذكرت فيما سبق لمجرد أنه الأليق به من ناحية المعنى، ولذلك صح استعمال الكلام فيه أيضًا، ألا ترى إلى قول رؤبة:

لَوْ أَنَّنِى أُوتِيتُ عِلْمَ الحُكْلِ ... علمَ سليمانَ كَلام النَّمْلِ

فحديث النَّمل أشبه بالاعتقاد فكان الأجدر به القول إلا أنه أوقع الكلام موقعه[3].

٤- يستعمل كل من الكلام والقول مجازا فى الأصوات غير الإنسانية، ومما جاء منه فى الكلام:

فَصبَّحتْ والطَّيْرُ لم تكلَّم ... جابية طُمَّت بسيلٍ مفعَم[4]

(١) نفسه ١/ ١٨. (٢) نفسه ١/ ٢٠. (٣) انظر تعقيب الأستاذ النجار فى الخصائص ١/ ٢٢.

(٤) الجابية: الحوض الضخم، وطُمَّت: غمرت، يقال: طَمَّ الماءُ يطُمّ طمّا وطُمُوما، علا وغمر، وجاء السيل فطمَّ كل شىء: أى: علاه، انظر اللسان ج١٥ ص٢٦٢، ٢٦٣ (طمّ)، ج١٨ ص١٤٠ (جبى).

ومن استعمال القول فى مثل ذلك:

قَالتْ له الطَّيرُ تَقَــدَّمْ راشدا   إنَّكَ لا تَرْجِــعُ إلا حَــامِدًا

امتلأ الحَــوْضُ وقَــال قَطْنى

بَيْنَمَا نَحْــنُ مُرتعُــون بفَلْجٍ   قَالــت الدلَّــحُ الروَاءُ إنيــه

وقَالت لَهُ العينانِ سمعًا وطاعةً   وأبدَتْ كَمِثْلِ الــدُّرِّ لَمَّا يُثقَّــب

وذلك كثير فى القول دون الكلام، لسعة مذاهب القول عن الكلام حتى ليشمل المفيد وغيره، «وإذا جاز أن نسمى الرأى والاعتقاد قولا وإن لم يكن صوتًا كانت تسمية ما هو أصوات قولا أجدر بالجواز، ألا ترى أن الطير لها هدير، والحوض له غطيط، والسحاب له دوىّ، فأما قوله (وقَالت لَهُ العينانِ سمعًا وطاعةً) فإنه وإن لم يكن منهما صوت فإن الحال آذنت بأن لو كان لهما جارحة نطق لقالتا: سمعًا وطاعةً، وقد حرر هذا الموضع وأوضحه عنترة بقوله:

لَوْ كَانَ يَدْرِى مَا المحَاوَرةُ اشتكَى   ولكانَ - لَو عَلِم الكَلامَ - مُكَلِّمِى

وامتثله شاعرنا آخرًا فقال:

فَلَوْ قَدرَ السِّــنَانُ عَلَى لِسَانٍ   لَقَالَ لَكَ السِّنَانُ كَمَا أَقُولُ»[1]

فالكلام والقول، وما يعبران عنه، وما اشتقا منه، وما دارا حوله من معنى، فيه أصوات وحركات ينجم عنها أصوات تتضح من استعراض حديث ابن جنى السابق عنهما، ويؤخذ من هذا كله أن ما يسمى بالكلام والقول هو عبارة عن مجموعة من الأصوات تتجزأ إلى مجموعات صغيرة يمكن أن تسمى كل منها وحدة صوتية، وهذه الوحدة الصوتية تأتلف مع أختها فى التركيب لتكون معنى من المعانى المرادة للمتكلم، هذه الوحدة هى ما يعرفه علماء اللغة والنحو باسم الكلمة، وكل كلمة مركبة من مجموعة من الأصوات الفردية التى تجتمع هى الأخرى لتكوّن هذه الوحدة الصوتية المركبة الدالة على المعنى المراد منها، والذى وضعها له المجتمع المعيّن، فالنحاة يجعلون الكلام الذى هو الألفاظ المفيدة تعبيرًا

(١) الخصائص ١/ ٢٢-٢٥.

صوتيًا ونشاطًا يرمز مفهومه إلى أجزاء ثلاثة هي: الاسم والفعل والحرف، وكل منها يسمى في عرف العلماء كلمة. قال ابن مالك:

كلامُنا لفظٌ مفيــــدٌ كاستقمْ واسمٌ وفعلٌ ثُمَّ حرفٌ الكَلِم[1]

وَاحِدُه كلمـــةٌ والقـــولُ عمّ وَكِلمة بِـــهَا كَـــلامٌ قد يُؤَمّ

وهذه الوحدة التى عرفت باسم (كلمة) عرفها النحاة بأنها قول مفرد[2] أو لفظ مفرد[3] أو قول مفرد مستقل أو منتوى فيه، فالمستقل مثل محمد - جاء والمنتوى فيه مثل فاعل قم وهو الضمير أنت[4] وهم يقصدون بكلمة قول أنها لفظ، ولما كان القول (الذى هو كل لفظ) يشمل المفرد والمركب والتام والناقص (الكلمة الواحدة وما هو أكثر من كلمة) حددت التعريفات مفهوم الكلمة بقولها (مفرد).

وقد عاب الدكتور تمام حسان هذه التعريفات بما يأتى:

١- أنها لا تفرق بين الصوت والحرف أى بين عملية النطق والنظام الذى أجرى عليه.

٢- أنها تخلط بين الوظيفة اللغوية والمعانى المنطقية والوضعية.

٣- أنها لا تفرق بين وجود الكلمة وعدمها فى تعريفها، وهذا ما يؤدى إلى الخلط فى التفكير[5].

ولذلك عرفها بقوله: «صيغة ذات وظيفة لغوية معينة فى تركيب الجملة، تقوم بدور وحدة من وحدات المعجم، وتصلح لأن تفرد، أو تحذف، أو تحشى، أو يغير موضعها، أو يستبدل بها غيرها فى السياق، وترجع فى مادتها غالبًا إلى أصول ثلاثة وقد تلحق بها زوائد»[6].

(١) الكلم اسم جنس جمعى لأنه يفرق بينه وبين واحده بالتاء واحده كلمة كنبق ونبقه. الخصائص ٢٥/١، وحاشية الخضرى ١٧/١.

(٢) الشذور، ص٥. (٣) الأشمونى ٢٦/١.

(٤) همع الهوامع، ص٣. (٥) مناهج البحث فى اللغة ٢٢٦.

(٦) نفسه ٢٣٢.

ويبدو لى أن تعريف الأقدمين لا عيب فيه، بل هو دقيق تمامًا، وموجز واف بالمعنى المطلوب منه، فهو:

أولا: لا يخلط بين القول والكلمة واللفظ، بل فيـه تحديد لها ولا عيب أن تلتقى معـانى الألفاظ الثلاثة لاشتمال الأصـوات عليها، فكل لفظ يمكن أن يطلق عليـه قـول، لأن القـول هو كل ما يـتلفظ به، وكل لفظ بهـذا المعنى هو قـول، والكلمـة ليست إلا لفظًا، فـلا مانع من إطلاق اسم القـول عليهـا، وهذا لا يعد خلطًا بل يعد اشـتراكًا فى جنس هو جزء التـعريف مثل: الإنسان حـيوان ناطق، حيث يشتـرك فى لفظ الحيوان مع الإنسان سائر الحـيوانات، ولم يعب ذلك أحد، والجزء الآخر من التـعريف يمنع ما يراد منعه فكلمة ناطق تمنع مـا عدا الإنسان من الدخول فى التعـريف، وقد أضيف إلى تعريف الكلمة ما منع غـيرها من الدخول معها وهو (مفرد) فكلمة مفرد أخرجت المركبات سواء كانت تامة أم ناقصة.

وثانيًا: فيما يبدو لى أنه لا يصح إدخال الوظـيفة اللغوية فى تعريف أجزاء اللغة، وهذا غير موجود فى تعريف الأقـدمين، بل هو موجود في تعريف الدكتور تمام نفسه، وبالرجوع إليه يمكن فهم ما أقول.

وثالثًا: ليس هناك خلط فى التفكيـر بالإشارة إلى الكلمات المضـمرة مثل: أنت فى «قُمْ» بل هذا مجرد تلميح إلى أن الكلمة تارة تكون واضحة مرئية وأخرى مستترة قياسا على وجودها الخارجى.

وقد عرف مييه الكلمة بأنها ربط مـعنى ما بمجموعة ما من الأصوات صالحة لاستعمال جراماطيقى[1]، «وهذا التعـريف صالح للمورفيمات وللجمـل وأجزاء الجمل أيضًا، وعند جاردنر[2]، «أن الكلمات ذات وجهين فى طبيعـتها فوجه هو المعنى ووجه آخر هو الصوت، وحيث تكون الكلمات فى ملك كل شخص تكون من ناحيته جواهر طبيعية مكونة من منطقة المعنى من جهة ومن صورة صوت معين من جـهة أخـرى، هذا الصوت صـالح لأن يعـاد نطقه بالإرادة، والكلمـات فى

---

(١) مناهج البحث فى اللغة ٢٢٧، ٢٢٨، وانظر اللغة (فندريس)، ص١٢٤، ومييه عالم لغوى فرنسى.

(٢) عالم لغوى إنجليزى.

حقيقتها نفسية، وهى مواد للمعرفة والتكلم مع أنها فى أحد جانبى طبيعتها تشير إلى حدث عضوى تمكن إعادته بحسب الإرادة».

والتعريف الأول للكلمة شامل لها ولغيرها، والثانى يدخلها فى عالم الفلسفة وعلم النفس «وليس الباحث اللغوى بحاجة إلى أن يبنى أفكاره على أسس غريبة عن منهج اللغة. . لاحظ فى تعريف جاردنر استعمال كلمات: الحقيقة - الطبيعة - الملك - المعرفة - التكلم - النفس»(١).

ويلاحظ الدكتور تمام أن تعريف الكلمة لا يمكن اتحاده فى جميع اللغات بل لكل منها تعريف يستمد من طبيعتها ووسائلها الخاصة فى التركيب كما يقول فندريس(٢)، ولكن يبدو لنا أن الكلمة التى هى وحدة لغوية تدل على معنى من المعانى لا تختلف بهذا التحديد من لغة إلى أخرى، فلا مانع من وضع تعريف شامل لها فهذا لا صلة له بطرق البناء الصرفى أو غيره من خصائص اللغات.

واعتقد أن تعريف الكلمة العربية واف بالغرض المقصود وإن كان التحديد الصوتى الحديث يتطلب صوغه فى قالب جديد لا كهذا القالب الذى رآه الدكتور تمام، فالكلام والقول - كما رأينا - يعبران عن أصوات تفيد معانى خاصة يراها المتكلمون، وتلك الأصوات التى يترجم عنها الكلام هى جوهر اللغة ومعناها والمراد منها كما يتبين ذلك من عرضنا للغة ومفهومها عند عالمنا ابن جنى وغيره من قدامى ومحدثين.

اللغة واللهجة

اللغة: تاريخها:

منذ التقى الإنسان بغيره وهو يحتاج إلى وسيلة تفاهم - كما تحدثنا عن ذلك فى نشأة اللغة، وكما يقول فندريس «أصبح تكرار القول بأن الإنسان كائن اجتماعى أمرًا مبتذلا، ولعل من أول السمات على الطبيعة الاجتماعية فى الإنسان

(١) مناهج البحث فى اللغة ٢٢٧، ٢٢٨، وانظر اللغة (فندريس)، ص١٢٤.

(٢) مناهج البحث فى اللغة ٢٢٥، وانظر اللغة، ص١٢٤.

تلك الغريزة التى تدفع على الفـور الأفراد المقيمين معا إلى جـعل الخصائص التى تجمعهم مشاعة بينهم ليتـميزوا بها من أولئك الذين لا توجد لديهم هذه الخصائص بنفس الدرجة»[1]، وهذه الوسيلة تتنوع من مـجتمع بدائى إلى مجتـمع حضارى «فالسلوك الجـماعى على ثلاث درجات بلا رموز جـماعية وبرمـوز جماعيـة غير شعورية وبلغة»[2]، ونحن الآن بصدد بيان أرقى الوسائل التى وصل إليها الإنسان فى تفاهمه مع أخيه وهى اللغة الصوتية.

ولم تعرف كلمـة (اللغة) طريقها إلى الظهـور بين مفردات العربيـة إلا بعد انتهاء القرن الثانى الهجرى، وقد أطلقت آنذاك على ما جمعه الرواة من البادية عن العرب الفـصحاء بعد فـشو اللحن.. ولم يطلق على الرواة وهم القـائمون بفنون اللغـة لفظ (اللغوى) إلا فى الـقرن الرابع بعـد أن استـفاض الـتصنيف فى اللغـة وتميزت العلوم العربية واستعجمت الدولة فصار صاحب اللغة يعرف بها.. وخلف ذلك اللقب لقب الراوية وممن عـرفوا به فى القرن الرابع أبو الـطيب اللغوى وابن دريد والأزهرى وغيرهم[3].

ويعتقد بعض الباحثين أن الكلمة لم ترد فى الأدب العربى قبل القرن الثامن الهجرى فقد جاءت لأول مرة فى شعر لصفى الدين الحلى[4]، وهو:

بقدْرِ لُغاتِ المـــرءِ يكثُـــرُ نفعُـــه ... فَتلكَ له عـنـــدَ الملمَّـــاتِ أعــوانُ

فَهَافِتْ على حفظِ اللُّغاتِ مُجاهدًا ... فكلُّ لسانٍ فِى الحقيقـــةِ إنســانُ[5]

ويعبر القرآن الكريم عن اللغة بكلمة لسان[6]، مثل ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢)﴾ [الأحقاف]، و﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥)﴾ [الشعـراء]، وهذه الكلمة هى المشهورة فى اللغات الســامية، ففى العبرية Lashon بمعنى اللغة، وفى

---

(١) اللغة ٣٠٢. (٢) مناهج البحث فى اللغة، ٥٣.

(٣) تاريخ آداب العرب ١/٣٣٧، ٣٣٨. (٤) توفى سنة ٧٥٠هـ.

(٥) انظر ديوانه ٤٥٣، وفي ترجمته انظر فوات الوفيات، ط١٢٨٣هـ ١/٣٥٦-٣٦٦.

(٦) وردت كلمة لسـان بمعنى اللغة ٨ مرات فـى القرآن، في السور الآتيـة: إبراهيم الآية ٤، ومريم الآية ٩٧، والشـعراء الآية ١٩٥، والنمل الآية ١٠٣، والقـصص الآية ٣٤، والروم الآية ٢٢، والدخان الآية ٥٨، والأحقاف الآية ١٢. انظر المعجم المفهرس ٦٤٧.

بقية الساميات كذلك. ومن هنا يقول الدكتور أنيس: «يظهر أن العرب القدماء فى العصور الجاهلية وصدر الإسلام لم يكونوا يعبرون عما نسميه نحن باللغة إلا بكلمة اللسان، تلك الكلمة المشتركة اللفظ والمعنى فى معظم اللغات السامية شقيقات اللغة العربية، وقد يستأنس لهذا الرأى بما جاء فى القرآن الكريم من استعمال كلمة اللسان وحدها فى معنى اللغة»[1].

ولكن مادة (ل غ و) التى تعنى الصوت والكلام قد وردت فى القرآن الكريم والحديث والشعر المعتمد كثيرًا، لا سيما في العصر الجاهلى وصدر الإسلام، وسيتبين ذلك من حديثنا عن اشتقاقها وتصريفها، وتطلق كلمة لغة عند القدماء ويراد مىها اللهجة[2]، وتقابل باللغات الأجنبية Tongue فى الإنجليزية بمعنى لسان أو لغة[3] Langue فى الفرنسية بالمعنى السابق[4]، وبذلك تتفق اللغتان الإنجليزية والفرنسية مع العربية فى التعبير باللسان عن اللغة وفيهما مع ذلك كلمات أخرى لمعنى اللغة لا تطلق على اللسان[3، 4]. وقد تطلق على اللهجة أيضًا[4]، وهذه الكلمات فى اللغات التى تقدمت تفهم اشتراكها فى الصدور عن أصل واحد كما سيحدثنا أستاذنا الدكتور نجا فيما سنذكره عن اللهجة.

اشتقاقها وتصريفها:

يذكر اللغويون ومنهم ابن جنى وأرباب المعاجم أنها مشتقة من الفعل لغا يلغو إذا تكلم أو من لِغى يلغَى إذا لهج، يقول ابن جنى: أما تصريفها ومعرفة حروفها فإنها فُعْلة من لغوت أى تكلمت وأصلها لُغْوة ككرة وقُلة وثُبة كلها لاماتها واوات لقولهم كروت بالكرة وقلوت بالقلة ولأن ثبة كأنها من مقلوب ثاب يثوب، وقالوا فيها لغات ولغون[5] ككرات وكرون، وقيل منها لغِى يلغَى إذا هذَى ومصدره اللَّغا قال أمية بن أبى الصلت:

---

(١) فى اللهجات العربية، ط٢، ص١٤.   (٢) نفسه، ط٣، ص١٦.

(٣) قاموس إنجليزى عربى تأليف محمد طه محمود، ط الاستقامة، ٣٨٣، وتطلق بمعنى اللغة أيضًا فى الإنجليزية كلمة language نفسه ٢١٦.

(٤) قاموس فرنسى عربى تأليف إسكندر شحاتة، لندن، ط٢، ص٢١٠، وتطلق كلمة langage بمعنى لغة أو لهجة أو نطق أو أسلوب، وهناك ألفاظ أخرى غير ذلك، نفس الصحيفة.

(٥) ملحق بجمع المذكر.

(والوَحْشُ والأنعامُ كَيفَ لُغَاتُها)

وقال الآخر:

وَرُبَّ أسرابِ حجيجٍ كُظَّمِ عَنِ اللَّغَا ورفَثِ التكلُّمِ

وكذلك اللغــو قال الله سبحــانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان] أى بالباطل، وفى الحديث: «من قال فى الجمعة صه فقد لغا» أى تكلم، ولم يبعث الله نبيا إلا بلغة قومه[1].

ويأخذ عليه أستاذنا الدكتور قناوى أنه غـير جار على المشهـور من القواعد الصرفية التى تقول: إذا حذف حرف من الموزون حذف ما يقابله من الميزان، وكون أصلها لُغْوة، يلزم عليه الجمع بين العوض والمعوض، وقلما يجتمعان[2]، ويجرى هذا النقد على ما قاله الأزهرى وغيـره من أن أصلها لُغْوة يوزن فُعْلة[3]، وما نبه عليه أستاذنا الدكتور قناوى ملحظ صرفى دقيق[4].

ومن نص ابن جنى السـابق يفهم أنه يرى اشـتقاق لـغة من لغا يلغـو بمعنى تكلم، أو من لغِى يلغَى بمعنى هذى، وبالاشـتقـاق الأول قال صاحب القـاموس وبالثانى قال صاحب المفردات، ففى القاموس لغا لغوا تكلم، ج لغات ولغون[5]، وفى المفردات: لغِى بـكذا أى لهج به لهج العصفـور بلَغَاه أى بصـوته، ومنه قيل للكلام الذى يلهَج به الناس فرقةٌ فرقةٌ لغة[6]، ومع ذلك ذكرا الاشتقاق الثانى وما يتعلق بالمـادة من معان لغـوية، يقال: لغيـتَ تَلْغَى نحو لقِيت تلـقَى، واللغو من الكلام ما لا يعتد به وهو الذى يورد لا عن روية وفكرة، فيجرى مجرى اللَّغا وهو

(١) الخصائص ١/ ٣٣، والحيوان ٧/ ٥٥، والجامع الكبير ١/ ٦٥٥.

(٢) محاضرات أستاذنا الدكتور قناوى.

(٣) اللسان ٢٠/ ١١٦، ١١٨.

(٤) الأشمونى ٤/ ٣٤٠-٣٤٣، ومنار السالك ٢/ ٣٦٦، ٤١١، ٤١٢، وانظر الكتاب وتعليق الأعلم على قول الشاعر (هما نفثا فى فىّ من فمويهما)، ٢/ ٨٣.

(٥) القاموس ٤/ ٣٨٦، ط. السعادة، ١٩١٣م.

(٦) المفردات ٤٥٢. وقال عبد المسيح بن عَسَلَة - أحد شـعراء الجاهلية - يتحدث عن التبكير للكلأ: (باكَرْتُه قبلَ أنْ تلْغَى عَصَافِرُهُ). المفضليات ص٢٣٢.

صوت العصافير ونحوها من الطيور، قال أبو عبيدة: لَغْوٌ ولغًا نحو عيب وعاب، وأنشد (عن اللَّـغا ورفث التكلم)، وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا، قال: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾﴾ [النبأ]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ... ﴿٥٥﴾﴾ [القصص]، و﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الواقعة]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان]، أى كفوا عن القبيح لم يصرحوا وقيل معناه إذا صادفوا أهل اللغو لم يخوضوا معهم ويستعمل اللغو فيما لا يعتد به ومنه اللغو فى الأيمان، أى ما لا عقد عليه وذلك ما يجرى وصلا للكلام بضرب من العادة، قال: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ... ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة]، ومن هذا أخذ قول الشاعر:

ولستَ بمأخوذ بلغو تقولُه ... إذا لم تُعَمَّد عاقداتِ العزائمِ

وقوله: ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً ﴿١١﴾﴾ [الغاشية] أى لغوا فجعل اسم الفاعل وصفًا للكلام نحو كاذبة، وقيل لما لا يعتد به فى الدية من الإبل لغو، وقال الشاعر: (كما ألغيت فى الدية الحُوَارَا)[1]، وذكر صاحب القاموس بعض ما تقدم[2].

ويبدو من استعراض مادة (لغو) فى الكتابين السابقين أن الأول يميل إلى ترجيح أحدهما والثانى بالعكس على ما بينته.

وقيل: إن فعله لغِى إلا أنه فتح حرف الحلق فيكون ماضيه لغا ومضارعه يلغو ويلغَى[3]، وقد قصدت بذكر كلام اللغويين بنصه وطوله أن أبين تأصل كلمة (لغة) فى العربية وموادها، وقد استعملت فيما أوردته بمعناها الحقيقى الذى هو الأصوات الإنسانية وغيرها وما يمكن أن يشبهها من معان مختلفة.

نتتقل بعد ذلك إلى بيان معنى (اللغة):

---

(١) المفردات ٤٥١، ٤٥٢، والحُوار والحِوار - بضم الحاء وكسرها - الأخيرة رديئة عند يعقوب: ولد الناقة من حين يوضع إلى أن يفطم ويفصل، فإذا فصل عن أمه فهو فصيل، وقيل: هو حوار ساعة تضعه أمه خاصة. اللسان ٥/٣٠١.

(٢) القاموس ٤/٣٨٦. ط. السعادة. (٣) لسان العرب ٢٠/١١٧.

حدها ابن جنى بأنها: أصوات يعبـر بها كل قوم عن أغراضهم[1]، ووافقه على ذلك سـائر القـدمـاء من علمـاء اللغـة العـرب[1]، ويميل إلى ذلك علمـاء الاجتماع، فيعرفها اللغوى الأمريكى إدجار ستيرتفنت بأنها:

نظام من رموز ملفوظة عـرفية بوساطتها يتـعاون ويتعامل أعضـاء المجموعة الاجتمـاعية المعينة، فكل من هذين التعـريفين يستفاد منه أن اللغة وسـيلة للتعاون والترابط بين أفراد المجتمع، وذلك بالتعبير عما يحتاج إليه سواء كان احتياجا عاديا كشئون الناس فى حياتهم المتمشية مع احتياجاتهم فى كل أوقاتهم، أم كان احتياجا ضروريا كاحتـياج الباحث للتعبـير عن الأفكار القائمة بنفسه لتـوصيلها إلى أذهان الدارسين[2]، وعلماء الفلسفة والمنطق يبنون تصورهم لها على أساس وظائفها التى حددها الأستاذ جيفونز وهى: كونها وسيلة للتوصيل -كونها مساعدا آليا للتفكير- كونها أداة للتسجيل والرجوع[3]. والغرض الثالث فيما يبدو راجع للأول لأنه نقل أفكار شخص إلى شخص آخر حين يقرأ مذكراته الخاصة[4].

ويذكر أستاذنا الدكتور نجا أن فريقًا على رأسه العالم الأمريكى سابير يعرفها على أساس عقلى أو نفسى فيقول: إنها: استعمال رموز صوتية منظمة للتعبير عن الأفكار، ونقلها من شخص إلى آخر[3].

ويبدو أن المناطقـة ومدرسـة سابير يقـصرون اللغة على نـقل الأفكار فقط، وذلك تحديد غيـر واف بالغرض؛ فاللغة لا تقف عند حد التعـبير عن الأفكار بل هناك موضوعات أخـرى تخص الناس فى شئونهم العامة، وهناك أحـاديث الترفيه والتسلية[2]، وغير ذلك «فقـد تكون اللغة تعبيراً عن شعـور، وعاطفة وقد يكون منشؤها العاطفة والشعور لا الفكر، اللغـة للغناء، للشعر للأقاصيص، للأساطير، للخرافـات، فهى بهجة ومـتعة وهى مـتنفس عن حزن وألم»[4]، ومعنى ذلك أن

---

(١) الخصائص ١/ ٣٣، والقاموس ٤/ ٣٨٦، ولسان العرب ٢٠/ ١١٨.

(٢) اللهجات العربية، د. نجا، ٦.

(٣) اللغـة بين الفرد والمجـتمع (جسـبـرسن)، ص٨، واللهجـات العربيـة، د. نجا ص٥، واللـغة والمجتمع، د. السعران، ١٣.

(٤) اللغة بين الفرد والمجتمع، ٨، ومناهج البحث فى اللغة ٤١.

«اللغة أكثر من أن تكون أداة للفكر، أو تعبيراً عن عاطفة. اللغة جزء من كياننا السيكولوجى الروحى وهى عملية فيزيائية اجتماعية»[1].

وهذا كله يثبت أن اللغة هى الرابطة الحيوية بين أفراد المجتمع والتى تعبر عن حاجاته وتجمع شمله وتوحد أهدافه، وهذا ملاحظ فى تعريف ابن جنى وغيره من علماء اللغة القدامى وقد وافقهم عليه علماء الاجتماع.

بيد أن لأستاذنا الدكتور قناوى ملاحظات عليه جد مفيدة، وقد سألت سيادته عنها فأفادنى بأن هذا التعريف يقصر اللغة على الأصوات الإنسانية المعبرة عن أغراض، ويخرج غيرها كالأصوات الإنسانية التى لا تعبر عن غرض كغطيط النائم، وتخرج كذلك أصوات الحيوانات المعبر بها عن أغراض، وما كان المعبر به عن الغرض غير صوت كالعقد والنصب والإشارة بالرأس أو غيرها من أعضاء الجسم، والإشارات التى تستعملها السفن، والإشارات التى تستخدم فى الجيوش، وما يتفاهم به الصم، وبعض السكان الأصليين فى أمريكا واستراليا، وبعض العشائر فى أواسط أفريقيا، وما يظهر على الإنسان من الانفعالات النفسية التى تظهر فى حالات المرض والغضب والفرح والحزن ونحو ذلك.

وقد عد سيادته خروج ما تقدم عن نطاق اللغة - فى رأى الأقدمين - قصورا فى التعريف، وبنى ملحظه الدقيق على أن هذه الأشياء الخارجة عن التعريف أصبحت - على وجه الحقيقة العرفية - من وسائل التفاهم، فكان ينبغى أن تدخل فيه لكن تعريف الأقدمين خص اللغة بما تقدم أولا.

ويدل لذلك أن مرادهم بالأصوات ينحصر فى ذات المقاطع، لأنها هى المعبرة عن الأغراض، لا الأصوات المرسلة كالتى تصدر من الحيوانات، والمراد بالقوم بنو آدم ولا يشمل معنى هذا اللفظ غيرهم، فأما استعماله للجن فى مثل قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ... (٣١)﴾ [الأحقاف] فهو استعمال مجازى فلا يعترض به على الحقيقة.

(١) اللغة بين الفرد والمجتمع ٩-١١. ومحاضرات فى اللهجات د. فريحة ٩، واللغة والمجتمع، د. السعران ١٣.

ونحن نحمد لأستاذنا الدكتور هذا الاستدراك الذى لم يتنبه له سواه من علماء اللغة ونرى مما يؤيده أن اشتقاق لفظ (اللغة) واستعمالها العربى يعطيها هذا المفهوم الواسع، كما اتضح فيما نقلناه من معاجم اللغة[1].

اللهجة:

أوضح أستاذنا الدكتور نجا أنها يمكن اشتقاقها من لهج بمعنى امتص، يقال: لهج الفصيل ضرع أمه: أى امتص ما فيه من اللبن، لأن الإنسان يتلقى اللغة عن مخالطيه تلقِّى الفصيل لبنَ أمه، كما أنه يمكن أن تكون مشتقة من لهج بمعنى أولع وأغرم، فكأن الإنسان لمداومته النطق مولع به، ورجح أستاذنا الاشتقاق الأول، كما لاحظ سيادته وجود صلة بين كلمة لهجة العربية ولانج Langue الفرنسية ولانجويتش Language الإنجليزية مما يؤكد رجوعها إلى أصل واحد فى لغة قديمة إلا أنها غير معروفة لأن لغة الإنسان الأول لم تعرف حتى الآن برأى قاطع[2]، وعرفها سيادته بأنها: «قيود صوتية خاصة تلحظ عند أداء الألفاظ فى بيئة معينة»، وذلك كإبدال الهمزة الساكنة مدة من جنس حركة ما قبلها كبير وذيب عند تميم، وكما هو النطق العامى فى راس وفاس، وفي العامية المصرية تنطق القاف همزة فى بعض المناطق (آل) فى (قال) وجيما فى بعض آخر (جال)[3]، وغير ذلك كثير، واللهجة اتجاه منحرف داخل لغة من اللغات كلهجات اللغة العربية القديمة التى منها كشكشة ربيعة وتلتلة بهراء وعجعجة قضاعة وغير ذلك، وكل من اللهجة واللغة يتصلان بالصوت، فاللغة ترتبط به من حيث إفادة المعنى واللهجة من حيث صورة النطق وهيئته، واللهجة متفرعة عن اللغة تبعًا لعوامل التطور التى سنتحدث عنها بعد، ثم إن اللغة الواحدة قد تتفرع إلى عدة لهجات وتبرز خصائص مختلفة لكل منها:

---

(١) خالف الأستاذ العلايلى سائر اللغويين، فعد اللغة غاية لا وسيلة، وهو قول ينبو عنه التحقيق، انظر مقدمة لدرس لغة العرب، ص١٥-٢٤.

(٢) اللهجات العربية، د. نجا ٩ بتصرف، واللسان ٣/ ١٨٣، والقاموس ١/ ٦ ٢

(٣) فى الفرنسية نجد بعض القرى تنطق a فتحة حيث تنطق قرى أخرى e فتحة ممالة، وتنطق بعضها o ضمة مفتوحة حيث تنطق القرى الأخرى u ضمة صريحة. اللغة (فندريس) ٣١٠.

١- من الناحية الصوتية وهذا فى غالب الأمر كالأمثلة السابقة.

٢- من ناحية بنية الكلمة ونسجها كتتميم اسم المفعول من الأجوف اليائى عند تميم مثل مديون ومعيون.

٣- من ناحية المعنى كما فى وثب فمعناها فى الحميرية جلس وفى لغة الشمال قفز.

والاختلاف الصوتى يرجع إلى ما يأتى:

أ - اختلاف فى مخرج بعض الأصوات اللغوية كالجيم فالعربية من وسط اللسان، والمصرية من أقصاه مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى.

ب- اختلاف فى وضع أعضاء النطق مع بعض الأصوات كترقيق الحرف، وتفخيمه عند القبائل المختلفة.

جـ- اختلاف فى مقاييس بعض أصوات اللين، إذ إن أى انحراف يصيب تلك الحروف التى تعرف بحروف المد عند الأقدمين يؤدى إلى اختلاف فى نطقها.

د - تباين فى النغمة الموسيقية للكلام.

هـ- اختلاف فى قوانين التفاعل بين الأصوات المتجاورة حيث يتأثر بعضها ببعض، فالجمهرة من العرب تقلب الواو تاء عند وقوعها فاء لافتعل مثل: اتصل هربا من تلاعب الحركات، ولكن الحجازيين لا يقلبونها تاء فتتأثر بالحركات السابقة عليها فتقلب بحسب الحركات، واوا بعد الضمة، وألفًا بعد الفتحة، وياء بعد الكسرة «إِيتصل يَاتصل مُوتصل.. إلخ»[1].

ويمكن التعرف على اللهجة بالوقوف على السمات والخصائص التى تتحد فى منطقة ولا توجد في المنطقة الأخرى كما يقول مييه الفرنسى[2]: «فمتى برزت صفات خاصة، واتضحت للسامعين وظهر اختلافها عن صفات البيئات الأخرى للغة الواحدة أمكن القول: إن هناك لهجة قد نشأت وتميزت، وتدرس حينئذ على أنها لهجة متميزة»[3]، وهذا يبطل رأى جاستن بارى وجوهان شميدت الذى ينفى

(١) اللهجات العربية د. نجا ٧-٩، وفى اللهجات العربية د. أنيس، ط٢، ص١٦، والغة ٣١٠.

(٢) اللغة ٣١٢ واللهجات العربية د. نجا ١٣.

(٣) فى اللهجات العربية د، أنيس، ط٢، ص١٧.

وجود لهجات فى اللغة الواحدة تبعا لعدم إمكان تحديد مكان كل لهجة من الناحية الجغرافية[1]، ونحن نقول إنه يمكن التحديد الجغرافى لأماكن اللغات - غالبًا - كاللغة العربية والإنجليزية والفرنسية، أما اللهجات فى اللغة الواحدة فلا يمكن التفريق بينها - غالبًا - على أساس جغرافى، ولكن يمكن عن طريق الوقوف على خصائص وسمات كل لهجة على النحو السابق[2].

واللهجة إذا اتسمت بخصائص بارزة بحيث توافر لها ما يجعلها تستغنى عن أصلها، وتفى بحاجة الجماعة التى تتحدث بها أمكن أن تسمى لغة، «وكل لهجة كذلك تعد لغة قائمة بذاتها بنظامها الصوتى والصرفى وبنحوها وبتركيبها وبمقدرتها على التعبير»[3]، كاللهجات العربية فى مصر والعراق وسورية ولبنان وغيرها من سائر البلاد العربية، إذ يطلق عليها اسم لغات بالنظر إلى وفائها بحاجة مجتمعاتها، وبالنظر إلى صلتها باللغة العربية الأم تعد كل منها لهجة «فهى لم تتميز التميز الذى يفصلها عن أصلها وهى العربية، ولذلك عدت لهجة بهذا التقدير»[4]، وقد تساعد عوامل كثيرة عسكرية وسياسية ودينية وأدبية وغيرها على استقلال اللهجة وصيرورتها لغة قائمة بذاتها، وذلك ينطبق على لغتنا العربية النموذجية التى كانت لهجة قرشية استطاعت أن تتغلب على اللهجات الأخرى لتلك العوامل كما أوضح أستاذنا الدكتور نجا[5].

كيف وجدت اللهجات العربية؟

عوامل نشأتها

ليست اللهجات العربية بدعا فى طريقة نشأتها، بل تجرى على قانون عام خضعت له اللغات الإنسانية ولهجاتها المتعددة، بل إن اللغة التى تكلم بها الإنسان الأول - كما ذكرنا فى الكلام عليها - كانت واحدة، ثم تفرعت إلى لهجات

---

(١) اللغة ٣١٢ (٢) اللهجات العربية د. نجا ١٢-١٤، واللغة ٣١٠، ٣١٣

(٣) محاضرات فى اللهجات، د. فريحة، ٤٠.

(٤) اللهجات العربية، د نجا ١١.

(٥) محاضرات فى اللهجات د. فريحة ٤١-٤٤، واللهجات العربية د. نجا، ٥١

مختلفة صارت لغات فيما بعد نتيجة لعوامل البيئات والتطور، فكل لغة إنسانية نعرفها الآن لم تكن إلا لهجة من لهجات لغة عامة اعترتها عوامل التطور ومنذ آدم عليه السلام واللغات التى يستعملها نسله يتوالى عليها الانقسام إلى لهجات، وبعد الطوفان يتوزع أبناء نوح فى الأرض فتنشأ مجموعات لغوية تنسب إلى أبنائه الثلاثة سام وحام ويافث[1]، وكل منها له فروع متعددة فى القديم والحديث[1] ولا ريب أن اللغة تبقى متحدة فى المجتمع الذى يتخذها أداة له إذا كانت ظروفه وحياته الاجتماعية والأرض التى يعيش عليها متحدة فى أهدافها وعوامل تكوينها، فإذا تغير شىء من ذلك كان إيذانا بانشعاب تلك اللغة إلى لهجات، وقد عزا العلماء انشعاب اللغات إلى لهجات لعوامل أهمها:

١- **اختلاف البيئات الجغرافية:** فالأرض التى يعيش عليها البشر مختلفة ففيها الجبال والسهول والوديان، وفيها الأراضى الزراعية والقاحلة «فإذا كان أصحاب اللغة الواحدة يعيشون فى بيئة جغرافية واسعة تختلف الطبيعة فيها من مكان لمكان»[2]، على النحو السابق فإن ذلك يؤدى مع مرور الزمن إلى وجود لهجات فى تلك اللغة «فمما لا شك فيه أن اختلاف البيئة الطبيعية ذو أثر ظاهر فى أجسام السكان وأشكالهم وقدودهم واختلاف أدوات الكلام عندهم»[3].

٢- **تنوع الظروف الاجتماعية:** لا ريب أن كل قوم «لهم نظام خاص فى معيشتهم وطرق التفكير لديهم»[4]، سواء فى ذلك الشعوب المختلفة وطبقات الشعب الواحد، فكل شعب له ملامح ثقافية، وعادات وتقاليد خاصة تختلف عن الآخر، فالمجتمع الإنجليزى غير المجتمع الفرنسى، والفرنسى غير الأمريكى أو الروسى أو العربى، فى طرق معيشته، وقوانينه العامة والخاصة، والمجتمع الواحد قد يوجد فيه الطبقات الأرستقراطية والوسطى والدنيا، أو الطبقات الصناعية والزراعية والتجارية، وغيرها من أرباب المهن المختلفة، وبقدر ما يوجد من تلك

---

(١) فقه اللغة د. نجا ٣/ ٢٩-٣٢ وتاريخ اللغات السامية (ولفنسون) ٢، ١٧، ١٨.

(٢) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ٣٧.

(٣) اللهجات العربية، د. نجا ١٥. (٤) نفسه ١٥، ١٦.

المظاهر تتفرع لغات تلك المجتمعات وتختلف[1]، فلغات الأسبان والإنجليز الذين هاجروا إلى أمريكا كادت تختلف عن أصلها هناك اختلافا تاما، واللغة العربية بعد انتشار الإسلام فى أفريقية وآسيا وأوربا تنوعت لهجاتها نتيجة هذا التفرق[2]، بل يوجد من العاميات الخاصة بقدر ما يوجد من جماعات متخصصة، والعامية الخاصة تتميز بتنوعها الذى لا يحد وأنها فى تغير دائم تبعًا للظروف والأمكنة، فكل جماعة خاصة، وكل هيئة من أرباب المهن لها عاميتها الخاصة»[3]، «فبين التطور اللغوى والظروف الاجتماعية التى تتطور فيها اللغة صلات وثيقة إذ إن تطور المجتمع يستتبع تطور اللغة فى طريق معينة، لذلك يحق لنا أن نتساءل عما إذا كان تاريخ اللغة يمثل مرآة ينعكس فيها تاريخ الحضارات»[4].

٣- **الاتصال البشرى وآثاره:** الإنسان مدنى بطبعه -كما يقول علماء الاجتماع- فهو فى حاجة إلى مساعدة أخيه الإنسان، ولذلك فقد يتصل بنو البشر لتبادل المنافع، كما أن الإنسان قد يحتاج إلى الهجرة من وطنه الأصلى إلى مكان آخر؛ بحثا عن القوت أو لأسباب أخرى دينية أو استعمارية، ولا شك أن تلك الاتصالات تحتاج إلى معرفة هؤلاء وهؤلاء بلغات الآخرين حتى يمكنهم التفاهم وتوثيق الصلات أو إخضاع جماعة ما لسيطرتهم، وهذا يؤدى إلى احتكاك اللغات بعضها ببعض ونشوب صراع بينها[5] بما يخلق اختلالا فى الأداء[6] أو تغلب إحداها على الأخرى «ونحن نشاهد نطق الأجانب للغة العربية إذا اتصلوا بالعرب كاليونانيين والإيطاليين، فلا يمكن أن يؤدوا النطق كما يخرجه أبناؤه، فمثلا صوت الحاء فى مثل محمد نجد اليونانى ينطقه خاء وهكذا»[7]، وفى حالات الحروب نجد لغات المغزوين تتلاشى أمام لغة الغزاة أو تنزوى فى ضعف وتقهقر «كما حصل للعربية بعد الفتوحات الواسعة وقد محت القبطية من مصر والآرامية من العراق»[8]، «والأرمينية تقهقرت أمام الروسية فى أوربا»[9]، وهذا لحب الضعيف

---

(١) اللغة ٤٢٨. (٢) اللهجات العربية، د. نجا ١٦ بتصرف.

(٣) اللغة، ٣١٥. (٤) نفسه ٤٢٧. (٥) اللغة ٣٤٨. (٦) نفسه ٤٢٧.

(٧) اللهجات العربية، د. نجا، ١٦. (٨) نفسه ١٧. (٩) اللغة ٣٥١.

تقليد القوى[1]، وقد تبقى لغة المغزوين صاحبة الهيبة والاستعمال فى شئون المجتمع «فإرادة الإغريق فى ألا يضحوا لغتهم أمام لغة فاتح يحتقرونه هى التى حفظت الإغريقية خلال العصور فلم تستطع التركية يوما أن تحل محلها أو حتى أن تنال منها[2]، وقد تضعف لغة الغازين لأنهم لم يكونوا طبقة كبيرة «فى الشعب المغلوب على أمره كالنورمانديين حينما غزوا بلاد الإنجليز»[1].

فالباحث يرى أن هذه الاتصالات البشرية للمنافع أو للسيطرة واتصال اللغات نتيجة لذلك يعد عاملا هاما من عوامل اختلاف اللغات عن أصلها بما يفرقها إلى لهجات[3].

وكل تلك العوامل ينطبق على لغتنا العربية ولهجاتها «فالبيئة الجغرافية ممتدة واسعة فيها المناطق الصحراوية التى يعيش فيها البدو، وفيها مناطق الاستقرار والتحضر، حيث يوجد شىء من زراعة أو نصيب من تجارة، وفى الجزيرة العربية حدثت هجرات بشرية حدثتنا عنها كتب التاريخ من اليمن إلى شرقى الجزيرة وشماليها وبالعكس، وتجاورت لهجات مع لهجات، ومع لغات أخرى؛ فلهجات القبائل العربية التى كانت تنزل بادية الشام أو العراق مثلا كانت تجاور لغات كالآرامية والعبرية، والاحتكاك معها أدى إلى ظواهر لهجية»[4]، ولله در ابن جنى فقد بنى دراسته للهجات العربية على هذه الأسس العلمية التى لاحظها الباحثون:

١- **العامل الاجتماعى والثقافى والجغرافى**: نبه ابن جنى على اختلاف الثقافات بين مجتمع البادية ومجتمع الحاضرة وأثر ذلك فى اللهجات:

أ - فاللغة الإنسانية كانت واحدة فى نشأتها، ثم انقسمت تبعا لعوامل التطور السابقة إلى سامية وحامية وآرية وما تفرع عنها، والعربية - وهى إحدى لهجات اللغة السامية - كانت واحدة كذلك عند الناطقين بها، ثم زادت وانقسمت

---

(١) اللهجات العربية، د. نجا، ١٦.

(٢) اللغة ٣٥١، الفعل يضحى يتعدى بالباء كما فى اللسان ١١/١٩، لكن هذا نص عبارة المصدر المنقول عنه.

(٣) نفسه ٣٤٨. (٤) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية، ٣٩.

بتأثير التطور والحضارة يقول: وكيف تصرفت الحال وعلى أى الأمرين كان ابتداؤها[1]، فإنها لابد أن يكون قد وقع فى أول الأمر بعضها، ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه لحضور الداعى إليه، فزيد فيها شيئًا فشيئًا»[2].

ب- بدأت اللغة بوضع ما تحتاج إليه الحياة تتطور لانتقالها من البادية إلى الحاضرة، فبعد أن كانت محصورة فى بقعة صحراوية يتمسك أهلها بمنطق آبائهم الفصيح بدأت تنتقل بانتقال أهلها إلى مجتمع حضارى، فتتغير على الألسنة، وتتطور تبعًا لذلك على الرغم من نهجهم طريق السلف «فأهل الحضر يتظاهرون بينهم بأنهم قد تركوا وخالفوا كلام من ينتسب إلى اللغة العربية الفصيحة، غير أن كلام أهل الحضر مضاه لكلام فصحاء العرب، فى حروفهم وتأليفهم، إلا أنهم أخلوا بأشياء من إعراب الكلام الفصيح»[3].

جـ- وقد ارتفعت قريش فى الفصاحة عن عنعنة تميم وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن وتضجع قيس وعجرفية ضبة وتلتلة بهراء، «فأما عنعنة تميم فإن تميما تقول فى موضع أن: عن، تقول: عنٌ عبد الله قائم، وأنشد ذو الرمة عبد الملك: (أَعَنْ تَرَسَّمْتَ مِنْ خَرْقَاءَ مَنْزِلَةٌ).. وأما تلتلة بهراء فإنهم يقولون: تِعلمون وتِفعلون وتِصنعون بكسر أوائل الحروف، وأما كشكشة ربيعة فإنما يريد قولها مع كاف ضمير المؤنث إنِّكش ورأيتكش وأعطيتكش، تفعل هذا فى الوقف فإذا وصلت أسقطت الشين[4].

وهذا فرق واضح يمثل صورة لهجات البادية التميمية، ولهجات الحاضرة الحجازية المتمثلة فى القرشية وهى ما ترفعت عن ذلك إلا للثقافات الاجتماعية التى نشأ أهلها عليها، كذلك فبيئة الحجاز الحضرية غير الصحراء التى يعيش بها بنو تميم.

---

(١) يقصد الإلهام والتواضع فى نشأة اللغة.

(٢) الخصائص ٢٨/٢، ومؤتمر المجمع ١٩٦٠-١٩٦١، ص٢٠١.

(٣) الخصائص ٢٩/٢.　　(٤) نفسه ١١/٢.

٢- الاتصال البشرى بين العرب وغيرهم: يثبت ابن جنى بما لا يدع مجالا للشك أن العرب لم يعيشوا فى عزلة عن غيرهم أو بين بعضهم وبعض، فالحياة الاجتماعية تحتاج إلى صلات، وروابط بين الأفراد والجماعات والشعوب، وقد تهيأت لهم وسائل هذا الاتصال، عن طريق تبادل المنافع، وعن طريق الغزو والسيطرة كما عرفنا، ولا ريب أن الإسلام بعد الفتوح محا ديانات الشعوب التى تغلب عليها واحتلت لغته العربية الصدارة لديها فى جميع الأعمال والشئون والمخاطبات العادية، وإن اتصال العربى بأخيه له أثره فى لهجة كل فريق حيث تؤثر وتتأثر بأختها، ثم إن اللغة العربية تأثرت أيضًا بلغات البلاد المفتوحة وأثرت فيها، وإذا كانت قد كتب لها الغلب فإنها قد فقدت أيضًا بعض مميزاتها حتى انشعبت إلى لهجات. وابن جنى قد أوضح طرفى هذا اللقاء بين العرب والأجانب وبين العرب بعضهم وبعض:

أ - فعن الصلة بين العربى والأجنبى يكتب ابن جنى فصلا خاصا، يبين فيه كيف تفسد لغة العربى إذا اتصل بغير العرب نتيجة اختلاطه وسريان لغة الأجنبى بأصولها واتجاهاتها إلى قواعد لغته وتراكيبها، فيقلل ذلك من فصاحتها، بل يؤدى أحيانًا إلى فسادها، فهو يمنع الاحتجاج بكلام من كانت له صلة بالأمم المجاورة للعرب «لما يعرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل»[(١)]، وذلك قد حدث بعد انتشار الإسلام واتساع رقعة الدولة الإسلامية، فقد رووا أن النبى ﷺ سمع رجلاً يلحن فى كلامه فقال: «أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل» ورروا أيضًا أن أحد ولاة عمر رضى الله تعالى عنه كتب إليه كتابا لحن فيه، فكتب إليه عمر «أن قنّع كاتبك سوطًا» وغير ذلك مما كان سببًا فى وضع علم النحو على يد أبى الأسود الدؤلى[(٢)]، ومعنى ذلك أن لقاء الشعوب يؤدى إلى احتكاك لغاتها[(٣)]، وقد تبرز خصائص إحداها على الأخرى، وما اهتمام العرب بلغتهم إلا لحفظها من هذه التيارات الجارفة «ولولا مقاومة المجتمع للتفكك اللغوى لأصبح العالم

(١) نفسه ٢/٥، ٦. (٢) الخصائص ٢/٨، وانظر ص ١٢٤ من كتابنا.

(٣) اللغة ٣٤٨.

أمام حشد من صور التكلم التى لا تزيدها الأيام إلا تفرقا، ولكن الذين يتكلمون إحدى اللغات يميلون دائمًا إلى المحافظة عليها كما هى»[1]، وقد حكى ابن جنى صورا لهذا التفكك الذى حاربه علماء العرب بوضعهم لقواعد اللغة، فقد طرأ على ابن جنى أحد من يدعى الفصاحة البدوية ويتباعد عن الضعفة الحضرية، فتلقى كلامه بالقبول إلى أن أنشده يومًا شعرًا لنفسه يقول فى بعض قوافيه: أشأؤها وأدأؤها بالجمع بين الهمزتين، واستأنف من ذلك ما لا أصل له، ولا قياس يسوغه ولا ورد به سماع.. وأنشده أيضًا شعرا لنفسه يقول فيه: كأنٍّ فاى، وقياسه أن يقول: كأن فىّ، فهذا يقوى بعده عن الفصاحة، وهذا مثل يضربه ابن جنى لأثر اختلاط العرب بالأجانب بعد الفتوح الإسلامية، وهناك من هو أكثر تخليطًا من هذا، يقول ابن جنى: إن هذا الرجل الذى أومأت إليه من أمثل من رأيناه ممن جاءنا حجيته وتحلى عندنا حليته، فأما ما تحت ذلك من مرذول أقوال هذه الطوائف فأصغر حجمًا وأنزل قدرًا أن يحكى فى جملة ما ينثى[2]، ولذلك فقد كان هذا الاختلاط بين العرب والأجانب ممن دخلوا فى الإسلام سببًا فى تفرع العربية إلى لهجات فى البلاد المفتوحة كالمصرية والسورية والعراقية وغيرها من اللهجات التى نرى آثارها حتى اليوم.

ب- يؤكد ابن جنى ضرورة الحاجات الاجتماعية، والدوافع التى تدعو العرب إلى التلاقى والتعامل الاجتماعى، «وذلك لأن العرب وإن كانوا كثيراً منتشرين وخلقا عظيما فى أرض الله غير متحجرين ولا متض-اغطين فإنهم بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم يجرون مجرى الجماعة الواحدة فى دار واحدة»[3]. وهذا الاتصال الوثيق يؤدى قطعًا إلى اتصال لهجاتهم بعضها ببعض «فبعضهم يلاحظ صاحبه ويراعى أمر لغته كما يراعى ذلك من مهم أمره فهذا هذا»[4]، وهذا النص لا يقل شأنا عما نص عليه علماء اللغة المحدثون كفندريس من أن الاتصال لتبادل المنافع بين البشر يؤدى حتمًا إلى احتكاك اللغات فذلك ضرورة اجتماعية[5]، وابن جنى يشير إلى ذلك فى أسلوب واضح، فلقاء العربى لأخيه

(١) نفسه ٣٢٦. (٢) الخصائص ٢/ ٥-٨ بتصرف.
(٣) نفسه ٢/ ١٥، ١٦. (٤) نفسه ٢/ ١٥، ١٦. (٥) اللغة ٣٤٨.

يؤدى إلى لقاء اللهجات أيضًا فهى أمر مهم لديه كأمور الحياة الأخرى التى يلتقون من أجلها، ثم ينبه ابن جنى على هذا التبادل بين اللهجات العربية فيقول: «واعلم أن العرب تختلف أحوالها فى تلقى الواحد منها لغة غيره فمنهم من يخف ويسرع قبول ما يسمعه، ومنهم من يستعصم فيقيم على لغته ألبتة، ومنهم من إذا طال تكرر لغة غيره عليه لصقت به ووجدت فى كلامه، ويروى أمثلة لتمسك العربى بلغته ولاستعماله للغة غيره ولجمعه بين اللغتين وهذا ما نبينه فى النقطة التالية:

اختلاط القبائل وأثره فى اللهجات

إذا التقى العربى بغيره حدث واحد من ثلاثة أمور:

تمسكه بلهجته الأصلية، انتقال لسانه إلى اللغة الجديدة، اجتماع لهجته مع لهجة غيره.

وذلك يمكن فهمه من نص نقلناه من الخصائص[1]، فعندما يلتقى العربى بأخيه ويتحادثان أو يسمع كل منهما لغة الآخر فإما أن يحس أحدهما من كلام صاحبه ما يعجبه فيتلقف كلماته بسرعة ويترك لهجته الأصلية، وإما أن يستعملها مع لهجته، وإما أن يتعصب للهجته الأولى فيستعصم بها.

١- **تمسكه بلهجته الأصلية:** ذكر ابن جنى أن بعض العرب فى الحال السابقة قد يتمسك بلهجته الأصلية ولا يرضى بها بديلا، روى عن أحمد بن يحيى قال: اجتمع أبو عبد الله بن الأعرابى وأبو زياد الكلابى على الجسر ببغداد فسأل أبو زياد أبا عبد الله عن قول النابغة الذبيانى:

على ظَهر مَبناةٍ ......

فقال أبو عبد الله: النَّطع فقال أبو زياد لا أعرفه، فقال: النِّطع. فقال أبو زياد نعم أفلا ترى كيف أنكر غير لغته على قرب بينهما، وعندما قيل لرسول الله ﷺ يا نبىء الله. قال: «لست بنبىء الله ولكننى نبى الله»، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أنكر الهمزة فى اسمه فرده على قائله، لأنه لم يدر بم سماه؟

(١) الخصائص ١/ ٣٨٣.

فأشفق أن يمسك على ذلك وفيه شيء يتعلق بالشرع فيكون بالإمساك عنه مبيح محظور أو حاظر مباح[1]، وليس الغالب أن يبقى العربى على لهجته غير متأثرة بما يجاورها من لهجات إخوانه الآخرين، بل إن الأعم هو التفاعل بين تلك اللهجات، بحيث تأخذ هذه من تلك، وتلك من هذه، ولذلك كان تبادل التأثرات اللغوية هو الشائع بين تلك اللهجات المتولدة عن أم واحدة، وذلك التبادل يتمثل فى الصورتين التاليتين.

٢- **انتقال لسان العربى إلى غير لهجته**: اعترف ابن جنى بأن العربى لكثرة صلاته بغيره قد ينتقل لسانه من لهجته إلى لهجة أخرى، ثم هو يحكم بقبول اللهجة الجديدة إذا كانت فصيحة مثل الأولى التى كان يتكلم بها «فإن كانت اللغة التى انتقل لسانه إليها فاسدة لم يؤخذ بها، ويؤخذ بالأولى حتى كأنه لم يزل من أهلها»[2].

٣- **اجتماع لهجته مع لهجة غيره**: أما ظهور سمات خاصة للهجة بجوار أختها عند العربى فتتضح فى صور متعددة تندرج تحت عنوان:

تركب اللغات

فقد اقتضت الحاجة الاجتماعية أن يستعمل العربى بعض ظواهر أو ألفاظا خاصة بلهجة أخيه إلى جوار ما يستعمله فى لهجته الأصلية، وقد تناول ابن جنى مظاهر هذه الناحية فى كلام العرب الذى وصل إلينا، ودراسته للموضوع تنحصر فى جانبين:

١- جانب الأبنية.　　　　٢- جانب الألفاظ.

التداخل فى الأبنية

«القدماء يجعلون من الممكن شكل عين الثلاثى فى الماضى والمضارع بإحدى الحركات الثلاث الفتحة أو الضمة أو الكسرة، فيفترضون بالقسمة العقلية تسعة وجوه، يرفضون منها ثلاثة لأنها لم ترد عن العرب، وهى: فعُل يفعَل - فعُل

---

(١) الخصائص ١/ ٣٨٣.　　(٢) نفسه ٢/ ١٢.

يفعِل - فَعل يفعُل»[1]، والأوزان الستة التى قبلوها لوُرودها عن العرب هى: فعَل يفعِل - فعَل يفعُـل - فعَل يفْعَل - فعِل يفعَل - فعِل يفـعِل - فعُل يفعُل - وقد نصوا على أن فعَل يفعَل بفتح العين فى الماضى والمضـارع يكون فيما عينه أو لامه حرف حلق مثل فتح يفتح وقرأ يقرأ، كما عدوا باب فعِل يفعِل بكسر العين فيهما موقوفا على السماع، وعلى هذا التقدير فكل ما خالف هذه الوجوه التى اعتمدوها يعد شاذا عندهم، «ألا تراهم كيف ذكروا فى الشذوذ ما جاء على فعِل يفعُل نحو نعِم ينعُم ودمتَ تدُوم ومت تَموت، وقـالوا أيضًا فيما جـاء من فعَل يفعَل وليس عينه ولا لامـه حرفا حلقيـا نحو قلَى يقلَى وسلا يسلَى وجـبَى يجبَى وركَن يركَن وقنَط يقنَط»[2]، كمـا أن المعروف عنـدهم فى بناء الوصف من الفعل الثـلاثى أن المفتـوح العين يكون الوصف منه على فاعل، مـثل كتب فـهو كاتب، والمضـموم العين يكون منه على فعيل مثل كرُم فهو كريم، وتلك قاعدة مشهورة لديهم، فكل ما خالفـها عد شاذا، «ومما عدوه شاذا مـا ذكروه من فعُل فهو فـاعل نحو حمُض فهو حامض وعقُرت المرأة فهى عاقر، ولذلك نظائر كثيرة»[2]، وهكذا شأن كل ما خالف القواعد عندهم فإنه يوصم بالشذوذ، وقد أنحى ابن جنى باللائمة على من عد مثل ما تقدم شاذا، وأرجع حكمهم بذلك إلى قصر النظر، وعدم تمعن الأمور بحكمـة وحذر، يقـول فى ذلك: «اعلم أن هذا مـوضع قـد دعا أقـواما ضـعف نظرهم، وخفت إلى تلقى ظاهر هذه الـلغة أفهامهـم أن جمعوا أشيـاء على وجه الشذوذ عندهم، وادعوا أنهـا موضوعة فى أصل اللغة على ما سـمعوه بأُخَرة من أصـحابهـا، وأنسـوا ما كـان ينبـغى أن يذكروه، وأضـاعـوا ما كـان واجبًـا أن يحفظوه»[3]، وقد دافع ابـن جنى عن صحـة ما ورد من ذلك، وفسـره من باب تركب اللغـات، فـقال: «واعلم أن أكـثـر ذلك وعـامتـه إنما هو لغـات تداخلت فتركبت.. هكذا ينبغى أن يعتقد وهو أشبه بحكمة العرب»[4]، وحديث ابن جنى فى دفاعه ينقسم إلى:

---

(١) من أسرار اللغة، ط٣، ص٣٠.

(٢) الخصائص ١/ ٣٧٥، وانظر المغنى فى تصريف الأفعال، د. عضيمة، ص١٤٠ وما بعدها.

(٣) الخصائص ١/ ٣٧٤. (٤) نفسه ١/ ٣٧٥.

أ - دفاع عن أبنية الأفعال. ب- دفاع عن أبنية الأسماء.

أ - فى الأفعال: لقد فلسف ابن جنى لنشأة أبنية الفعل الثلاثى الستة وصحتها بما تبرهن عليه أحدث النظريات اللغوية «فقد عرض فى ذلك إلى قانون المغايرة الذى اعترف به المحدثون وأشاروا إلى أهميته فى الاشتقاق»[1]، قال ما نصه: «قد دلت الدلالة على وجوب مخالفة صيغة الماضى لصيغة المضارع إذ الغرض فى صيغ هذه المثل إنما هو لإفادة الأزمنة، فجعل لكل زمان مثال مخالف لصاحبه، وكلما ازداد الخلاف كانت فى ذلك قوة الدلالة على الزمان»[2]. «فمن ذلك أن جعلوا بإزاء حركة فاء الماضى سكون فاء المضارع وخالفوا بين عينيهما فقالوا: ضرب يضرب وقتل يقتُل وعلم يعلم»[2]، والقياس فيما ماضيه (فعِل) أن يكون مضارعه على (يفعَل) نحو ركِب يركَب وشرِب يشرَب والقياس - كذلك - فيما ماضيه (فعَل) أن يكون مضارعه على (يفعِل) نحو ضرب يضرِب وسرق يسرِق، ففى الأول كُسرت عين الماضى ففُتحت عين المضارع، وفى الثانى بالعكس لتحقق المخالفة والتناظر بينهما «فكما فتح المضارع لكسر الماضى فكذلك أيضًا ينبغى أن يُكسر المضارع لفتح الماضى»[3].

وإنما جاءت المخالفة - أيضًا - فيما ماضيه (فعَل) مع كسر عين المضارع بضمها فقيل (يفعُل) نحو قتل يقتُل ودخل يدخُل[4]، تشبيها لمضارع (فعَل) بمضارع فعُل. فدخل يفعُل فيما ماضيه فعَل نحو قتل يقتُل على باب يشرف ويظرف»[3]، وصح ذلك لتحقق مبدأ المخالفة المطلوب. يقول ابن جنى «وإنما دخلت يفعُل فى باب فعَل على يفعِل من حيث كانت كل واحدة من الضمة والكسرة مخالفة للفتحة ولما آثروا خلاف حركة عين المضارع لحركة عين الماضى ووجدوا الضمة مخالفة للفتحة خلاف الكسرة لها عدلوا فى ذلك إليها، فقالوا: قتل يقتُل ودخل يدخُل وخرج يخرُج[3]، أما الرباعى فلم يبالوا به، ولم ينظروا

(١) فى اللهجات العربية د. أنيس، ط٢، ص١٥٣، ١٥٤.

(٢) الخصائص ١/ ٣٧٥. (٣) نفسه ١/ ٣٧٩.

(٤) خروجًا على القاعدة السابقة التى تناظر بين فعِل وفعَل فى عينى مضارعيهما.

إلى هذا اللون من المخالفة، فقالوا: دحرج يدحرج فحركوا فاء المضارع والماضى جميعًا وسكنوا عينيهما، وكذلك قالوا تقطع يتقطع وتقاعس يتقاعس وتدهور يتدهور ونحو ذلك، لأنهم أحكموا الأصل الأول الذى هو الثلاثى فقل حفلهم بما وراءه[1]، أما ما نجده فى الثلاثى مما تكون فيه حركة عينيه فى الماضى والمضارع سواء وهو باب فعُل نحو كرُم يكرُم فعلى كل حال فاؤه فى المضارع ساكنة وموافقة حركة عينيه لأنه ضرب قائم برأسه، ألا تراه غير متعد؟ بخلاف فعَل وفعِل فأكثره متعد، فلما خالفهما خولف بينهما وبينه[2]، وهذا كله كان شرحا لقانون المغايرة الذى قال به المحدثون وَعُدَّ فيه ابن جنى «موفقًا كل التوفيق»[3]، كما أنه كذلك على حق حين قال: «وإنما دخلت يفعُل فى باب فعَل على يفعِل من حيث كانت كل واحدة من الضمة والكسرة مخالفة للفتحة» فهذا القول تؤيده القوانين الصوتية الحديثة التى تجعل الضمة والكسرة أصوات لين ضيقة يقابلها الفتحة التى هى الصوت المتسع، فإذا أردنا أن نخالف بين الماضى والمضارع أخذنا للأول الضمة أو الكسرة وأخذنا للمضارع الفتحة أو العكس بالعكس»[4]، كذلك ما قال به الأقدمون من فتح عين المضارع مع الماضى إذا كانت العين أو اللام حرفا حلقيا يوافق ما قال به المحدثون فى أمر الاشتقاق «فقد أكدت التجارب الحديثة ارتباطا وثيقًا بين النطق بحروف الحلق والفتحة، وذلك لأن الأصوات الحلقية تناسب فى الغالب وضعًا خاصًا يتفق مع ما نعرفه من وضعه فى الفتحة، فلهذه الظاهرة التى استرعت انتباه القدماء ما يسوغه فى القوانين الصوتية الحديثة»[5]، كما أنها تلحظ فى اللهجات السامية بصفة عامة[5]، ولو لاحظنا ما وضعه ابن جنى والقدماء من قواعد لاشتقاق الأفعال - على الوصف السابق - لوجدنا أنها تتفق تماما مع رأى

---

(١) الخصائص ١/ ٣٧٥. (٢) نفسه ١/ ٣٧٦.

(٣) فى اللهجات العربية، د. أنيس ١٥٣.

(٤) من أسرار اللغة، ط٣، ص٣٣.

(٥) نفسه ص٣٤، تحتاج أصوات الحلق بعد صدورها من مخرجها الحلقى إلى اتساع فى مجراها بالفم، فليس هناك ما يعوق هذا المجرى فى زوايا الفم، ولهذا ناسبها من أصوات اللين أكثرها اتساعا وتلك هى الفتحة. انظر فى اللهجات العربية، ط٢، ص١٥٨.

المحدثين فهم حين يعالجون اشتقاق صيغة من أخرى يبحثون على ضوء أسس ثلاثة هي:

١- المغايرة Polarity التى فطن إليها ابن جنى.

٢- وظيفة الفعل فى الكلام، وتبعًا لها يأخذ الفعل حركته بمجرد المصادفة ملتزمة فى اللهجة الواحدة، وتختلف اللهجات فى إيثار حركة على أخرى.

٣- إيثار الحروف المجاورة لغيرها فى اللغات السامية لحركات خاصة ومن بينها حروف الحلق[١].

وبذلك نستطيع أن نقف على أن الأبنية المقبولة للفعل الثلاثى والتى علل لصحتها ابن جنى «لا يعقل نسبتها للغة موحدة كاللغة النموذجية الأدبية»[٢]، بل إنها «تنتمى إلى عدة لهجات كل منها التزم بابا أو بابين»[٣]، ويؤيد ذلك ما ورد فى معاجم اللغة من نحو: فقُه صار فقيها، والكسر لهجة كلاب - سخن مثلثة، والكسر لبنى عامر - حضر من باب نصر وعلم والأخير لأهل المدينة[٤]، ويؤيد هذا ما نراه فى اللغات السامية شقيقات اللغة العربية؛ ففى العبرية نجد أن الماضى فى الكثرة الغالبة من الأفعال على وزن فعَل، وأحيانا على وزن فعِل، ثم يندر أن يكون على فعُل، ونرى أن مضارع الأول، هو يفْعُل، ومضارع الوزنين الأخيرين يفعَل، ولا نكاد نجد فى اللغة العبرية ما يشذ عن هذا سوى بضعة أفعال»[٢]، وإذا تحققنا أن هذه الأبنية هى فى الأصل لهجات للقبائل العربية، وأنها قد اتجهت هذه الاتجاهات وتركت ما عداها فقد بنى ابن جنى على ذلك تفسير ما عُد شاذا وخارجًا عليها:

١- ما يخالف الأوزان المقبولة مثل ما جاء على فعِل يفعُل كنعِم ينعُم وفضِل يفضُل ومِت تَمُوت.

٢- ما جاء بفتح عينى الماضى والمضارع وليست العين أو اللام حرفا حلقيا.

---

(١) من أسرار اللغة، ط٣، ص٣٣،-٣٥، كإمالة حركة ما قبل تاء التأنيث مع الحروف المستفلة، والنطق بها فتحة مع حروف الاستعلاء فى قراءة الكسائى. (٢) نفسه ٣٢.

(٣) فى اللهجات العربية، ط٢، ص١٥٦. (٤) اللسان ٥/ ٢٧٢، ١٧/ ٦٦، ٤١٨.

فالأول: ذكر له ابن جنى أمثلة منها:

نعِم ينعُم: فنعِم فى الأصل ماضى ينعَم، وينعُم فى الأصل مضارع نعُم، ثم تداخلت اللغتان، فاستضاف من يقول نعِم لغة من يقول: ينعُم، فحدثت هناك لغة ثالثة، فإن قلت: فكان يجب على هذا أن يستضيف من يقول نعُم مضارع من يقول نعِم، فتركب من هذا أيضًا لغة ثالثة، وهى نعُم ينعَم قيل: منع من هذا أن فعُل لا يختلف مضارعه أبدًا، وليس كذلك نعِم، لأن نعِم، قد يأتى فيه ينعِم وينعَم جميعًا، فاحتمل خلاف مضارعه دون الأول[1].

فضِل يفضُل: فيقدر أنه جاء على بابين فضِل يفضَل، وفضَل يفضُل، فأخذ الماضى من اللغة الأولى، والمضارع من اللغة الثانية، فنشأت لغة ثالثة مركبة منهما[2].

والثانى: ذكر له أيضًا أمثلة منها:

قنَط يقنَط: «لغتان تداخلتا، وذلك أن قنَط يقنِط لغة، وقنِط يقنَط أخرى، ثم تداخلتا، فتركبت لغة ثالثة، فقال من قال: قنَط يقنَط ولم يقولوا قنِط يقنِط لأن آخذا إلى لغته لغة غيره قد يجوز أن يقتصر على بعض اللغة التى أضافها إلى لغته دون بعض»[3].

ركَن يركَن: «فيه لغتان ركِن يركَن كعلم يعلم، وركَن يركُن كقتَل يقتُل، وحكى عنهم ركَن يركَن (فعَل يفعَل)، وهذا عند أبى بكر من اللغات المتداخلة كأن الذى يقول ركَن بفتح الكاف سمع مضارع الذى يقول ركِن وهو يركَن فتركبت له لغة بين اللغتين وهى ركَن يركَن[3].

فأما الأفعال التى جاءت عينا الماضى والمضارع فيها متوافقتين بالكسر مثل نعِم ينعِم وحسِب يحسِب ويئِس ييئِس ويبِس ييبِس فقد علل ابن جنى لها باحتمال

---

(1) الخصائص ١/ ٣٧٨.

(٢) نفسه ١/ ٣٨٠، ٣٨١، والمحتسب ٢/ ٥.

(٣) المحتسب ١/ ٣٢٩، ٢/ ٥.

التداخل وغيره تبعا لأنه لم يعرف لها ماض آخر مع فعِل يكون مفتوح العين يمكن به القطع بأنها من تداخل اللغات - على ما يرى - فقد أتى ماضى هذه الأفعال على فعِل أو فعُل، وكل منهما لا يأتى مضارعه على يفعِل، لأن قانون المخالفة يقتضى أن يكون مضارع فعِل يفعَل، ومضارع فعُل يفعُل، وقد جاءت كلها بالكسر فى الماضى والمضارع فيحتمل:

١- أنها من باب التداخل إلا أن الماضى من اللغة الأخرى مفقود وهو «حسَب - نعَم - بأس - يبَس بفتح العين»، واستغنى عنه بالماضى الموجود (حسب - نعِم - بئِس - يبِس بكسر العين) كما استغنوا بترك عن وذر وودع ونحو ذلك[(١)] ويؤيده ما حكاه السيوطى عن الكسائى[(٢)].

٢- أنها ليست من باب التداخل بل قيل: (ينعِم) بكسر العين فى المضارع موافقة لماضيه نعِم على فعِل يفعِل تشبيها له بباب فعُل يفعُل مما يوافق فيه المضارع الماضى بالضم «فكما أن فعُل بابه يفعُل كذلك شبهوا بعض فعِل به، فكسروا عين مضارعه، كما ضموا فى ظرُف عين ماضيه ومضارعه، فنعِم ينعِم محمول على كرُم يكرُم[(٣)]، وحسِب يحسِب وبئِس يبئِس ويبِس ييبِس مشبه بباب كرُم يكرُم على ما قلنا فى نعِم ينعِم[(٤)].

ب- **فى الأسماء**: عرفنا أن للعرب قواعد خاصة فى اشتقاق الأوصاف من الأفعال، فمن الثلاثى المفتوح العين تأتى على فاعل، ومن المضموم العين تأتى على فعيل، وما جاء مخالفًا لذلك عده الصرفيون شاذا، ولكن ابن جنى يُخرِّج بعضه على أنه من باب تداخل اللغات، فقولهم: «شعُر فهو شاعر وحمُض فهو حامض وخثُر فهو خاثر وطهُر فهو طاهر على نحو من هذا، وذلك أنه يقال: شعُر وشعَر وحمُض وحمَض وخثُر وخثَر وطهُر وطهَر، فجاء شاعر وحامض وخاثر

---

(١) الخصائص ١/ ٣٧٨، ٣٨٠، واللسان ١/ ٣٥٥، ٨/ ١٤٦، ١٤٨، والبصريون وسيبويه يردون هذا الرأى، انظر اللسان ٨/ ١٤٧، والكتاب ٢/ ٢٢٧، ٢٣٢، ٢٣٣.

(٢) المزهر ١/ ١٩٤. (٣) الخصائص ١/ ٣٧٩. (٤) نفسه ١/ ٣٨٠.

وطاهر، على شعَر وحـمَض وختَر وطهَر، ثم استغنى بفـاعل عن فعيل، وهو فى أنفسهم وعلى بال من تصورهم، يدل على ذلك تكسيـرهم لشاعر: شعراء لما كان فاعل هنا واقعا موقع فعيل كـسِّر تكسيره ليكون ذلك أمارة ودليلا على إرادته وأنه مغن عنه وبدل منه[1].

وقد عد ابن جنى من التداخل قراءة: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾ [الذاريات] - بكسـر الحاء وضم البـاء فى (الحِبُك) يقول: لعل الذى قـرأ به تداخلت عليـه القراءتان بالكسـر والضم، فكأنه كسـر الحاء يريد الحِبِك، وأدركـه ضم الباء على صورة الحُـبُك، فجمع بين أول الـلفظة على هذه القراءة وبين آخـرها على القراءة الأخرى[2]، ولا يأتى اعـتراض الرضى على ابن جنى فى هذا الرأى بأن «الحُـبُك بضمتين جـمع الحِباك وهو الطريقة فى الرمل ونحوه، والحِبِك بكسـرتين مفرد وأنه يبعـد تركيب اسم من مفـرد وجمع»[3]، لأن ذلك كمـا يقول محـققو المحـتسب «مسلم فى التركـيب من لغتين لأنه حينئذ أخـذ من مفرد وجمع أمـا التركيب من قراءتين - إن صح الأخذ به - فلا يبدو بعيـدًا، لأن قراءتى الجمع والمفرد مرويتان والقارئ بالتركيب منهما يريد أن يروى ما يؤثر لا التعبير عما يريد التعبير عنه»[4]، وهذا فيما يبـدو لى أصوب من عدها خارجة على القواعـد، وقد حاول ابن جنى وصفـها بذلـك أولا ثم بدا له تخريجـها على هذا الوجـه المقبـول، ويمكن إدراك الوصف الأول من قوله: «وأما الحِبُك بكسر الحاء وضـم البـاء فأحسبه سهوا وذلك أنه ليس فى كلامهم فِعُل أصلا بكسر الـفاء وضم العين وهو المثال الثانى عشر من تركيب الثلاثى فإنه ليس فى اسم ولا فعل أصلا»[2].

---

(1) نفسه ١/ ٣٨١.　　(2) المحتسب ٢/ ٢٨٧.

(3) شرح الشـافية ١٠، ١١، ط ١٣٤٥هـ، وفى الصبـان: اعترض بأن التداخل فى جـزءى الكلمة الواحدة غيـر معهود إنما المعهـود التداخل فى الكلمتين نحو كُدت بضم الكاف أكـاد، فإن كُدت بالضم على لغة من قـال كاد يكود، وأكاد على لغة من قـال كاد يكاد (٤/ ٢٣٨، ٢٣٩)، وقال أبو حيان: كـسرت الحاء إتباعا لكسرة ذات و(ال) حـاجز غير حصين، واعتـرض عليه أيضًا بأن (ال) كلمة برأسها فهى حاجز قوى يمنع من الإتباع. نفسه ٤/ ٢٣٩.

(4) التعليق ٢/ ٢٨٧.

فسره أستاذنا الدكتور نجا «بأن تضع قبيلة لفظا من الألفاظ لمعنى وتضع له قبيلة أخرى لفظًا آخر فينقل لفظ إحدى القبيلتين إلى الأخرى وتستعمله استعمالها للفظها»[1]، وقد يكون اللفظ واحدًا مختلف الصورة من الناحية الصوتية فتستعمل إحدى القبائل الصورة المستعملة للفظ عند غيرها من شقيقاتها، وقد أوضح ابن جنى أن الباحث يتحقق فى كلام العربى الواحد من اجتماع لهجتين لكل منهما سماتها الخاصة سواء كان ذلك فيما يتعلق ببنية الكلمات وأحكامها الصرفية أو الصوتية أو اكتساب ألفاظ جديدة، فما يتعلق بالبنية والصرف كاستعمال فعَل وأفعَل بمعنى واحد فى قول الشاعر:

سَقَى قَوْمِى بَنِى مَجْدٍ وَأَسْقَى نُمَيراً وَالقَبَائِلَ مِنْ هِلالِ

واستعمال صلة الضمير مرة وعدم استعمالها مرة أخرى فى قول الشاعر:

فَظلْتُ لَدَى البيتِ العَتيقِ أخيلهُو ومِطْوَاىَ مُشْتَاقَانِ لهْ أَرِقَانِ

واستعمال الصلة رأى الجمهور، وحذفها لغة أزد السراة، ومما يتعلق بالناحية الصوتية الإبدال، فى مثل سكّر طبرزل وطبرزن وأيم وأين، فتلك لغات مختلفة كما يصرح ابن جنى، ويضيف أن العربى الفصيح إذا سمعت منه ألفاظ انفرد بها فلم ترد عن غيره من الفصحاء كتلك التى وردت عن ابن أحمر الباهلى، مثل الجبر بمعنى الملك والمأنوسة بمعنى النار، فإن تلك الألفاظ يجب قبولها لاحتمال أن يكون ذلك وقع إليه من لغة قديمة.. ويكفى من هذا ما نعلمه من بعد لغة حمير عن لغة ابن نزار، فقد روى عن الأصمعى أن رجلا من العرب دخل على ملك ظفار وهى مدينة لهم يجىء منها الجذع الظفارى، فقال له الملك ثِبْ (وثب بالحميرية: اجلس) فوثب الرجل فاندقت رجلاه فضحك الملك، وقال: ليست عندنا عربيَّتْ من دخل ظفارِ حمَّر أى تكلم بكلام حمير، فإذا كان كذلك جاز جوازا قريبا كثيرا أن يدخل من هذه اللغة فى لغتنا وإن لم يكن لها فصاحتنا غير أنها لغة عربية قديمة[2]، وقد تجتمع عند رجل واحد لغتان فصيحتان (لهجتان)

---

(١) فقه اللغة، د. نجا، ط الجديدة، ٤/٢٦.
(٢) الخصائص ٢/ ٢١-٢٨.

بورود لفظتين أو أكثر لمعنى واحد فى لغته، ولا يكاد ابن جنى يجزم برأى فى معرفة الأصيلة والدخيلة على تلك اللهجة على الرغم من اعتماده بالحدس والتخمين على عنصر الكثرة والقلة لتحديد نوعها؛ فإذا تساوت الكلمتان فى الاستعمال عند هذا الرجل يتوقع أن تكون قبيلته قد وضعتهما معا، وإلا فإن القليلة فى كلامه تكون هى الدخيلة والكثيرة فى الاستعمال هى الأصيلة، إلا أنه من المحتمل أن يكون العكس، فمن مذهبهم أن يستعملوا من اللغة ما غيره أقوى منه فى القياس، وإذا كثر على المعنى الواحد ألفاظ مختلفة فسمعت فى لغة إنسان واحد فإن أحرى ذلك أن يكون قد أفاد أكثرها أو طرفا منها، من حيث كانت القبيلة الواحدة لا تتواطأ فى المعنى الواحد على ذلك كله، هذا فى غالب الأمر، وإن كان الآخر فى وجه من القياس جائزًا[1]، وهو بهذا كله يؤكد معنى الترادف، وأنه ينشأ من اختلاف اللهجات واجتماعها، وقد شرحنا ذلك فى فصل الترادف، كذلك هناك المشترك والمتضاد، وبعضها ينشأ من اجتماع اللهجات أيضًا، ويطلق ابن جنى على كل ذلك اسم (تداخل اللغات).

وقد عدَّ الدكتور أنيس القول بالتداخل فى الصيغ «ناحية صناعية بحتة لا تسوغها تلك الأمثلة التى رواها ابن جنى، فضلا عن أنه لم يبين كيف تتداخل اللغات ولا الدوافع التى قد تدعو لمثل هذا التداخل»[2]، «فافتراض أن لهجة من اللهجات تستعير طريقة النطق بالماضى فقط دون مضارعه، أو المضارع فقط دون ماضيه، أمر بعيد الاحتمال، وذلك لأن الأوزان لا تستعار وإنما الذى يستعار هو الكلمات»[3]، «وليس هناك من مسوغ يمكن معه أن تنتقل القبيلة أو الرجل فيها من قوله: نعِم ينعَم إلى نعِم ينعُم»[4]، وقد ساق أدلة لرأيه هذا:

---

(١) نفسه ١/ ٣٧٠-٣٧٣.

(٢) فى اللهجات العربية، ط٢، ص١٥٣، ١٥٤ بتصرف، يسير ومن أسرار اللغة، ط٣، ص٣٠.

(٣) من أسرار اللغة، ط٣، ص٣٠، وفى اللهجات العربية، ط٢، ص١٥٤.

(٤) فى اللهجات العربية، ط٢، ص١٥٤.

أ - من كلام ابن جنى نفسه: «من بعض القصص التى تقوم حجة عليه لا له، فمن ذلك ما روى عن أبى حاتم قال: قرأ علىّ أعرابىٌّ بالحرم طِيبَى لهم وحسن مآب فى قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد]، فقلت: طوبى، فقال: طيبى، قلت: طُوبى، قال: طيبى، فلما اشتد علىّ قلت: طُوطُو فقال: طِي طِي»[1].

ب- نلحظ فى اللهجات الحديثة أن الرجلين من أبناء لهجتين مختلفتين قد يلتقيان، ويصادق أحدهما الآخر زمانا طويلا، وكل منهما يلتزم لهجته، وما نشأ عليه، فإذا تأثر أحدهما بالآخر، وأخذ يقلده فى لهجته لسبب من الأسباب تكلم كل منهما بعد مران طويل ومخالطة مستمرة لهجة واحدة، أما أن تمتزج اللهجتان، وينشأ منهما لهجة ثالثة فليس مما يقره المحدثون من الباحثين فى اللغات[2].

وقد اقترح الدكتور أنيس حلا لتلك المشكلة التى أعيت القدماء أن تجمع كل الأفعال الثلاثية ماضيها ومضارعها، ثم تُبوَّب وتُنسَّق ويُنظر إليها على أنها تنتمى إلى لهجات متعددة[2]، وقد قام هو نفسه بعملية الجمع والتبويب هذه متخذًا القرآن الكريم ومعاجم اللغة مصادر لبحثه، وقد خرج من ذلك بنتائج يمكن حصر أهمها فيما يأتى:

١- الماضى المفتوح العين يكون مضارعه مضموم العين أو مكسورها إلا حين تكون لامه أو عينه من حروف الحلق فتفتح (مع استثناء الأفعال القرآنية نزع - قعد - رجع - بلغ - زعم - نفخ - نكح).

٢- الماضى المكسور العين لا يكون مضارعه إلا مفتوح العين[3].

٣- جعل باب فعُل يفعُل (الذى لم يعثر فى القرآن الكريم له إلا على فعلين كبُر وبصُر) فرعا لصيغة فعَل وأنه لا يلجأ إليها إلا حين يراد المبالغة فى معنى الحدث.

---

(١) الخصائص ١/ ٣٨٤.　　(٢) فى اللهجات العربية، ط٢، ص١٥٤.

(٣) من أسرار اللغة، ط٣، ص٤١.

٤- لايوجد فى القرآن الكريم باب فعِل يفعِل بالكسر فى الماضى والمضارع[1].

٥- الأفعال المشتركة التى ورد لكل منها أكثر من باب ولم يختلف معناها قسم الاشتراك بينها إلى: الاشتراك بين بابى نصر وضرب - بين بابى ضرب وفرح - بين بابى نصر وفرح - بين بابى فرح وكرم - بين باب كرم وبابى ضرب ونصر، وقد جعل لكل من هذه الأقسام بابا أصليا واحداً يطرح ما عداه إلا فى القليل النادر الذى يأخذ وضعا خاصا، وبنى هذا الحكم على تقسيم المحدثين للأفعال إلى اختيارية واضطرارية، والاختيارية فى عرفهم هى التى لنا اختيار فى حدوثها ولو كانت مما يعده القدماء لازما كجلس وقعد، والاضطرارية عندهم بعكس ذلك وهى ما ليس لنا اختيار فى حدوثها مثل كبر وضعف «وقد لاحظ المحدثون أن كلا من هذين النوعين يختلف عن الآخر فى صيغته فبينما يؤثر أحدهما حركة من الحركات يؤثر الآخر حركة أخرى»[2]، وبناء على ذلك حكم بأن الاشتراك فى بابى نصر وضرب يجب أن ينسب إلى لهجتين مختلفتين، وربما كانت تلك الأفعال من هذا النوع تستعمل فى لهجة واحدة، أما الاشتراك فى بابى ضرب وفرح أو فى بابى نصر وفرح فإذا كان الفعل من الأفعال الاختيارية حددنا له باب نصر أو ضرب وضربنا صفحا بباب فرح الذى نسبته له المعاجم، وإذا كان من الأفعال الإجبارية حددنا له باب فرح وضربنا صفحا عن باب نصر أو ضرب، والاشتراك فى بابى فرح وكرم يجعلنا نحكم بأنها من الباب الأول وحده، فإذا كانت الأفعال المشتركة من باب كرم وبابى ضرب ونصر فسرناها على أن معناها من باب كرم قد قصد فيه المبالغة، وأن الفعل من بابى نصر وضرب قد حول إلى كرم للرغبة فى جعل المعنى من الصفات الغرزية الثابتة»[3]، ونحن نجيب:

---

(١) نفسه ٣٥، وفى اللهجات العربية، ط٢، ص١٥٧.

(٢) يفهم من تفسيره للأفعال أن الحركة للفعل الاختيارى تكون عادة الفتحة فى المتعدى، وبذلك يكون هو الأصل، وفى الاضطرارى الكسرة والضمة فى اللازم، ويفاضل بينهما عند الاجتماع فتقدم الكسرة على الضمة فتعد صاحبة الباب.

(٣) من أسرار اللغة، ط١٩٥١م، ص٤٦-٤٨. وانظر مؤتمر المجمع اللغوى، الدورة (١٦)، ١٩٤٩-١٩٥٠م.

١- بأن تداخل اللغات ليس عملية صناعيـة بحتة بل استمدها ابن جنى من واقع اللغة، وأتى بأمثلة مستعملة فى العربية الفصحى والقراءات القرآنية، وقد أبان ابن جنى عن الأغراض التى دعت العربى إلى الاقتبـاس من لغة أخيه، وهى كثرة الخلاط معه لما يحـتاج إليه فى حياته بجوانبها المتـعددة، وقد بينا ذلك بوضوح فى أسـباب نشـأة اللهجـات فى اللغـة بما يبرهن على أن ابـن جنى تكلم على دوافع الانقسام والأخذ عن الآخرين عربا وغير عرب.

٢- القصة التى أوردها الدكـتور أنيس رواية عن ابن جنى إن دلت[1]، على امتناع تحول العـربى عن لهجته إلى لهـجة غيره فهناك - فـيما روى عن ابن جنى أيضًا - قصص كثيرة تدل على تحول اللسان من لهجة إلى أخرى، ويمكن أن ننقل القصة التى ذكرت عقب تلك القصة السابقة التى رواها الدكتور أنيس، ونجتزئ بها عن غـيرها: «فقـد روى أن أبا عمـرو سأل أبا خـيرة عن قـولهم: استـأصل الله عرقاتهم فنصب أبو خيرة التاء من عرقاتهم، فـقال له أبو عمرو: هيهات أبا خيرة لان جلدك»، والأعرابى قد ينطق بالكلمة يعتقد أن غيرها أقوى فى نفسه منها، ألا ترى أن أبا العبـاس حكى عن عمارة أنه كـان يقرأ ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقَ النَّهَارِ ... ﴿٤٠﴾﴾ [يس] - بنصب النهار - قال أبو العباس: فـقلت له ما أردت؟ فقال: سابقٌ النهارَ فقلت له فـهلا قلته؟ فـقال: لو قلتـه لكان أوزن أى أقوى»[2]، فكما أن العربى يتمسك أحيانا بلغته، ويعتصم بها قـد ينتقل هو أو غيره إلى لغة أخرى فصيحة أو غيرها، أو يتأثر بتلك اللغة بما يظهر فى لهجته التى يستعملها كما أوضح ذلك أبو الفتح بن جنى.

٣- تصور الدكتور أنيس لاثنين يعيشان معا ثم لا تتأثر لهجة أحدهما بلهجة الآخر تصور بعيد، فالإنسان منا فى حياته العادية إذا عاشر إنسانا - دون أن يسكن معه - فـقد تتسرب عـلى مر الزمن بعض خصائص لهـجته إليه، وقـد ينطق بها أحيانا بلا شعور منه أو إرادة، وذلك واضح ملموس، فـما بالنا باثنين يعيشان معًا فى بيت واحد؟ إن ذلك ولا شك سيترك أثرًا يعد خليطًا من لهـجتيهما، ولم تنشأ

---

(١) لأن الواضح منها تعنت هذا العربى فى معارضة أبى حاتم.

(٢) الخصائص ١/ ٣٧٣، ٣٨٤، ٢/ ١٣. فى قصة أبى خيرة.

اللهجات العربية الحديثة إلا من هذه المخالطة بين العرب وغيرهم بما تعد به خليطًا من مواد وطرائق عربية ممزوجة بغيرها من سمات اللغات الأخرى التى اتصلت بها وعاشرتها مع أهلها.

على أن الدكتور انيسًا نفسه يميل إلى قبول معنى التداخل، ويظهر ذلك من عبارات له تفيد توقعه لصحة هذا الرأى، فقد دافع عن ابن جنى بقوله: «لعل ابن جنى أراد بتداخل اللغات أنه قد يتصادف أن نجد فى لهجة من اللهجات فعلا أو فعلين لا يتبعان طريقة الاشتقاق فى الأفعال الأخرى أمثال نعِم ينعُم، وحينئذ نعلل مثل هذه الأفعال بأن الماضى أو المضارع غريب على هذه اللهجة، أو أنه على هذه الصورة مستعار من لهجة أخرى تحت تأثير ظروف خاصة به»[1]، وعندما وقف أمام الأفعال (نكح - نزع - رجع - بلغ - قعد - زعم - نفخ) ليفسرها أطلق لقلمه أن يقول: «يظهر أنها تنتمى فى صيغتها للهجة أخرى غير اللهجة القرشية.. وليس معنى هذا استعارة الصيغة أو طريقة الاشتقاق وإنما معناه استعارة هذه الأفعال بصيغتها الشائعة فى مصدرها الأصلى»[2].

وأنا أفهم من مجرد أنها مستعارة معنى التداخل وإلا فكيف يمكن تصور ذلك دون هذا المعنى، ولا فرق بين أن تكون مستعارة بلفظها أو بصيغتها فمجرد الاستعارة يعطيها هذا المفهوم الواضح الواقعى، على أن كلام الدكتور أنيس يدل على نظرة ليست قاطعة فعباراته تمتلئ بأسلوب: يظهر - وربما - ولعل - فإذا صح[3]، وفى تعليقه على تقسيم الأفعال الذى اقترحه لم يكن جازمًا أيضًا.

ولذلك يقول: «ولعل من القبائل من كانوا يؤثرون صيغة (فعِل يفعُل) أو لعل منها من كانوا يقولون: (فعُل يفعَل) إلى غير ذلك من الاحتمالات التى ستكشف عنها بحوث المستقبل[4].

---

(١) من أسرار اللغة، ط٣، ص٣٠، ٣١.

(٢) نفسه ص٣٦، وفى اللهجات العربية، ط٢، ص١٥٩.

(٣) انظر من أسرار اللغة، ط٣، ص٣٠، ٣١، ٣٦، وفى اللهجات العربية، ط٢، ص١٥٩، ١٦٠.

(٤) وقد كان رأيه محل نظر من أعضاء المجمع اللغوى. مؤتمر المجمع الدورة (١٦).

وقد اعترض الدكتور أنيس - كذلك - على ابن جنى فى قوله بتداخل اللغات فى الألفاظ بمعنى أن العربى قد يستعمل خصائص من لهجة غيره مع لهجته وقال: «إنه لم يوفق فيما زعم»[1]، «فلكل لهجة صفات خاصة بها وليس من المرجح أن يجتمع فى اللهجة الواحدة صفتان مختلفتان فى أمر واحد»[1]، ثم التمس العذر لابن جنى بأنه ممن لا يفرقون بين لهجة وأخرى فى الاستعمال ويرون جميع اللهجات صحيحة ويحتج بها[2].

والواقع أن ذلك ليس بممنوع فالفرد منا ينتقل من بلدته، ويذهب إلى غيرها فتتغير بعض النواحى الصوتية، ويميل إلى استخدام ألوان جديدة من البيئة التى انتقل إليها إما للحاجة أو للتظاهر ومجاراة الأوضاع الجديدة، وقد تصبح مع مرور الزمن طبيعية عنده[3]، ويؤيدنا فى رأينا الدكتور الراجحى فقد وصف رواية أبى حاتم السجستانى (طُوطُو وطيطى) السابقة «بأن فيها مبالغة شديدة لا تتفق والواقع اللغوى بل ولا الوظيفة العضوية لجهاز النطق»[4]، وأكد أن تحول اللسان العربى ممكن بما أثبتنا هنا فيقول: «إن ابن جنى نفسه يذكر نصوصا أخرى تناقض هذا الذى كانوا يذهبون إليه من استحالة انتقال العربى من لهجته إلى لهجة غيره إذ يعقد فى الخصائص بابا بعنوان (فى الفصيح يجتمع فى كلامه لغتان فصاعدا) يؤيده بقول الشاعر:

فظلتُ لدَى البيتِ العتيقِ أخيلهُو ومِطْوَاىَ مُشْتَاقَانِ لَهْ أرِقَانِ

وهكذا يمضى الدكتور الراجحى فى ذكر ما أيدنا به رأينا من كلام ابن جنى آنفا[5].

---

(١) فى اللهجات العربية، ط٢، ص١٥٢.

(٢) نفسه، ص١٥٣.

(٣) مثل عَلَيه - عِليه - عِملت - عَمَلت، ونحو ذلك مما نجده فى بيئتنا.

(٤) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية، ص٦٣.

(٥) نفسه، ص٦٣، ٦٤.

أما الأستاذ العلايلى فقد اعترف بتداخل اللغات، وعقد له فصلا فى كتابه (مقدمة لدرس لغة العرب)، اعترف فيه بأن التداخل ذو أثر فى توليد عدد من المواد والمشتقات[1]، إلا أنه يقول: «أظن أن من الخطأ الشك فى تأثيره وعمله، كذلك أظن أن من الخطأ المبالغة فى عمله إلى الحد الذى يصطنعه دارسو اللغة اليوم»[1]، ويفسر ما حكاه ابن جنى من باب التداخل فى أبنية الأسماء مثل طهُر فهو طاهر وشعُر فهو شاعر، على أنه ليس من تداخل اللغات، «بل من تداخل الأوضاع بنسيان الخصوصية أو بتقاربها (قالوا: أحب الرجل، ومفعوله محبوب. وحب وفاعله محب)، واستغنوا بهذه المداخلة غير المقصودة عن حاب ومحب لتقارب الخصوصية بين المزيد والأصل»[1]، وأكثر ما يأتى من ذلك يعد فى نظره «أثريات مضمحلة أو تنويعات لم تتعمم»[1].

ويتخذ الأستاذ العلايلى من التداخل طريقًا إلى الاستفادة من النظام الجديد الذى يحاول تطبيقه فى اللغة العربية (ففى العمل اللغوى الجديد يمكن أن نداخل مثلا فى هلك يهلك بين بابى ضرب وطرب، فباب ضرب هو الأصل، وباب طرب يدل على المفاجأة، فنداخل بينهما لإفادة الشىء يجىء تارة مفاجئًا وتارة على الطبيعة) فإذا حللنا عليه (هلك) مثلا دلت من باب ضرب على الهلاك الطبيعى، ومن باب طرب على الهلاك الفجائى، (وفى التداخل على الهلاك مما لاينتظر كالموت من الجرح البسيط بالتسمم، ويسمى هذا العامل بعد تقريره على هذا الوجه بتداخل الأوضاع)[2]، وهو يفسر اختلاف أبنية الأفعال على أنها تمثل مراحل التطور التى مرت بها لغتنا العربية، وأن العربى فى دور الاستقرار حاول تصحيح الماضى على الفتح والمضارع على الكسر وأمات باب نصر والباب السادس، وقرر الباب الثالث فيما كان حلقى العين أو اللام. وبقية الأبواب يلجأ إليها لحاجات معنوية، وما وقع حلقيا وليس من هذا الباب فأثرى[3]، وما يهمنا هو اعترافه بالتداخل ووقوعه فى اللغة، أما استخدامه فى الوضع اللغوى الجديد

---

(١) مقدمة لدرس لغة العرب، ص٢٢٧.

(٢) نفسه، ص٢٢٩. (٣) نفسه ١٦٨، ١٦٩.

فهو اقتـراح لا نعلم أن علماء اللغة المحدثين قد وافقوه عـليه وكذلك رأيه فى أبنية الأفعال وتطورها.

ولكن الرأى الفاصل فى ذلك كله هو مـا ذهب إليه أستاذنا الدكـتور نجا فى كتـابه فقه اللغة، فـهو يعترف بالتـداخل، ويعده من نظرات ابن جنى الثاقـبة فى دراستـه اللغوية ومن الأمـور الهامة الـتى عرض لها، لأنه أبان عن تـوليد «أبواب جديدة لا تتفق والقواعد المعروفة نتيجة لاختلاط الاستعمالات العربية الناجمة عن كثرة ارتحال العرب من مواطنهم طلبًا للعيش الذى ينشدونه»[1]، كما نوه به سيادته فى موضـع خاص عقـده بعنوان (تداخل اللغـات وتوافقـها) وبين كيف تـتداخل اللغات وأسباب ذلك ونتائجه بما هو محدد ودقيق[2].

آثار لغوية لاختلاف اللهجات ودراسة ابن جنى لها

لقد برهنت الوقـائع اللغوية - فيمـا مضى - على ثبوت اللهجـات المختلفة للغة العربيـة تبعًا لمستويـات البيئة والثقـافة وعوامل الاجتمـاع، وكانت لها مظاهر متعـددة فى الأصوات وبناء الكلمة ودلالة اللفظ «كاختـلافهم فى إبدال الحروف، وحركـات البناء والإعراب، والتـقديم والتأخـير، والحذف والزيـادة ونحوها، مما يرجع فى جملته إلـى صيغة الكلمة أو كـيفية النطق بها، وكـالترادف والأضداد، وغيرهمـا مما يعد من اختلاف الدلالة للفظ الواحد باختـلاف اللهجات»[3]، وقد تناولت هذه اللهـجات بالبـيان كتب تخـصصت فـيها ذكـر كثـير منهـا فى كتب التراجم، ككتاب اللغات ليونس بن حبيب[4]، وكتاب اللغات للفراء[5]، وغيرهما مما لم يصـلنا ومما وصلـنا، منها كـتاب اللغـات فى القرآن لإسـماعـيل بن عمـر المقرئ[6]، وكتاب ما ورد فى القرآن الكريم من لغات القبائل لأبى عبيد القاسم بن سلام[7]، ويتصل هذان الكتابان بالنواحى الدلالية أكـثر من غيرها، وبجانب ذلك

(١) ط. الجديدة ٤/١٦، ١٧ بتصرف.

(٢) نفسه ٢٥-٢٧.

(٣) تاريخ آداب العرب ١/ ١٢٦ بتصرف.

(٤) الفهرست ٦٣.

(٥) نفسه ٩٨-١٠٠.

(٦) حققه ونشره صلاح الدين المنجد، ط الرسالة، ١٩٤٦.

(٧) طبع مع تفسير الجلالين، دار القلم، ١٩٦٦م.

فالمعـاجم اللغوية تشتمل علـى ثروة عظيمة من لهجـات العرب، كالجمـهرة لابن دريد، والتهذيب للأزهرى، ولسان العرب الذى جمع مواد اللغة العربية التى تبلغ ثمانين ألفـا، كذلك كتب النوادر كـنوادر أبى زيد فيهـا بعض الجوانب اللهجـية، وكتب النحـو كذلك، وإن كانت لا تهـتم كثيـرا باللهجات، لأنهـا «تتناول اللغة بالتقنين والتنظيم، ولو أعطى النحاة اللهجات حـقها من الدرس لأراحونا من كثير من تأويلاتهم النحـوية التى تبعد عن الفـهم الصحيح للـظاهرة اللغوية»[1]، وفى كتاب سـيبويه إشارات واضحـة إلى هذه اللهجات، كأن يقـول: «قوم من العرب يقولون[2]، أو ناس من العرب[3]، أو بعض العـرب الموثوق بهم[4]، إلى غـير ذلك، وسيبويه يصف اللهجـة أحيانا بأنها جيدة[5]، وأحيانًا أخرى بأنها رديئة[6] «أو رديئة جدّا أو ضـعيفة»[7]، أو «قليلة خبـيثة»[2]، وقد اهتم النحـاة المتأخرون باللهجات اهتـمامًا كبيـراً كابن مالك والرضى والسيوطى، «ولا بـد لنا من التنبيه على أن الرواة والعلماء لم يدونوا اللهجات على مناطـق العرب قبل تهذيب قريش للغة، ولكنـهم تناقلوا من ذلك أشياء كـانت لعهـد الإسلام وأشيـاء أصابوها فى أشعار العرب مما صحت روايته قبيل ذلك»[8].

ولكننا لو ألقينا نظرات فاحصة على دراسة ابن جنى للهجات - وهو مَنْ هو فى اللغة والنحو - لوجدناه «يسلك الطريق السديد فى معرفة اللهجات واحتجاجه بها ولهـا فلم يكن نحويا عاديا يجمع ثم يـكتب بطريقة تقليدية، بل اعتـمد على مصادر موثوق بها فى الوصول إلى هدفـه وهى مشافهة الأعراب»[9]، وقد لاحظ الدكتـور الراجحى ذلك صفة واضـحة عند ابن جنى فقرر «أن أبا الفـتح يدرك ما

---

(١) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية، ٥٧، ٥٨.

(٢) الكتاب ١/ ١٦٤. (٣) نفسه ١/ ٢٥٤. (٤) نفسه ١/ ٣٢٤.

(٥) نفسه بتحقيق الأستاذ هارون ١/ ٨٢، ١ ٢٠، ٢/ ٤٠٧.

(٦) نفسه ط. بولاق ٢/ ٢٩٤. (٧) نفسه ٢/ ٣٥٨.

(٨) تاريخ آداب العرب ١/ ١٢٠، ١٢١.

(٩) انظر ص ٦٧ من كتابنا.

للمصدر البشرى من قيمة كبيرة فى استقاء اللغة، هذا المصدر الذى يعتمد عليه دارسو اللهجة فى المقام الأول، والذى يسمونه the informer وفرق بين المشافهة لصاحب اللهجة، وبين روايتها بطريق السماع عنه»[1]، وقد نقل قوله فى ذلك: «فليت شعرى إذا شاهد أبو عمرو، وابن أبى إسحاق، ويونس، وعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه، وأبو الحسن، وأبو زيد، وخلف الأحمر، والأصمعى، ومن فى الطبقة والوقت من علماء البلدين وجوه العرب فيما نتعاطاه من كلامها، ونقصد له من أغراضها ألا تستفيد بتلك المشاهدة، وذلك الحضور ما لا تؤديه الحكايات، ولا تضبطه الروايات، فتضطر إلى قصود العرب، وغوامض ما فى أنفسها، حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة لا عبارة لكان عند نفسه، وعند جميع من يحضر حاله صادقًا فيه غير متهم الرأى والنحيزة والعقل»[2]، فلا غرو - إذًا - أن يكون للهجات نصيب كبير فيما وصلنا له من آثار علمية.

وكان ظهور اللهجات فى كتب ابن جنى ثمرة من ثمرات فكره، وعلمه الغزير، فقد درس اللغة وأبرز سماتها الخاصة، وملامح جمالها وحيويتها وتوليدها واتساعها بمظاهرها المتعددة، من الأصوات والاشتقاق والقياس والدلالة، بما تشمله من معان متطورة ومتقابلة أو متلاقية، وكل ذلك له صلة باللهجات التى هى المصدر الوثيق لكل ما وضع من مبادئ وما أرسى من دعائم، وقد حرص دائمًا على بيان هذه الصلة فى دراسته لها، والباحث يرى فى كتبه لهجات للقبائل الآتية: «قيس - بنى سليم - هذيل - عقيل - الحجاز وتميم - الأنصار - أزد السراة - بنى كلاب - بنى أسد - ربيعة - وغيرها، وهذه اللهجات لها ما يسوغها من البيئة التى نشأ بها أصحابها، فهناك بيئة البادية وبيئة الحاضرة، ولكل منهما آثار على أهلها جسميًا واجتماعيا وفكريا، كما أن لها أثرًا ملحوظًا فى كلامها واتجاهاته الصوتية والمعنوية، ولا ريب أن عالمنا ابن جنى قد أورد هذه اللهجات ليوضح خصائص العربية وسماتها المميزة أو يحتج بها لقراءة وصفت بالشذوذ عند غيره، وسنعرض أمثلة لما أورده منها لندل بها على تطبيق ابن جنى لمبادئه اللغوية،

---

(١) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية، ص٦١.   (٢) الخصائص ١/٢٤٨.

وكيف أنها تعد دعما واقعيا لمناهجه التى تلمس الحياة العربية وتدل عليها فى أماكنها.

نقول: ذكر ابن جنى لهجات مختلفة فى نطق الصوائت والصوامت وتأثر بعضها ببعض، فلهجة تستعمل صائتًا بعينه على حين تستعمل أخرى غيره أو تحذفه نهائيًا، وهكذا بالنسبة للصوامت، وقبيلة تفضل النطق السريع للأصوات بما يؤدى إلى تداخلها بما يعرف بالإدغام على حين تميل أخرى إلى التأنى فى النطق وذلك، يتطلب فصل الأصوات بعضها عن بعض بحيث يأخذ كل منها حقه فى المجهود العضلى، وهذا تبعًا للبيئات التى يحيا بها هؤلاء وهؤلاء طبيعيا واجتماعيا.

أولا: الصوائت

بعض اللهجات تفضل حركة معينة فى الوقت الذى تحب أخرى سواها أو ترفضها من أساسها فنكون إذًا أمام أمور ثلاثة:

أ- تغيير الصوائت

ويشمل تبادل الحركات فى الإتباع وغيره:

١- تبادل الحركات فى غير الإتباع: فالفتح والضم كقراءة (ولا تركُنوا) بضم الكاف(١) فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ... ﴿١١٣﴾﴾ [هود]، وقراءة (ولوُلْدى) فى قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ... ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم]، والكسر والضم كقراءة (صُنوان) بضم الصاد فى قوله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ... ﴿٤﴾﴾ [الرعد] وقراءة (رُبيون) بضم الراء(٢) فى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ... ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران] والفتح والكسر كقراءة (فتِمسكم النار)(٣)، وقراءة ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ... ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران] بكسر التاء فى (تِبيض) و(تِسود)، وقول العرب (تِعلمون وتِفعلون وتِصنعون) بكسر أوائل الحروف(٤).

---

(١) المحتسب ١/ ٣٢٩.
(٢) نفسه ١/ ١٧٣، ١/ ٣٥١.
(٣) نفسه ١/ ٣٣٠.
(٤) الخصائص ٢/ ١١.

توجيه هذه اللهجات:

نلاحظ أن ابن جنى لا ينسب (تركنُوا) بالضم وينسب (وُلْدى) لبنى أسد، فهو يقول: «الوُلْد يكون واحدا ويكون جمعًا قال فى الواحد:

فَلَيْتَ زِياداً كانَ فى بَطنِ أُمِّه   وليتَ زِياداً كــانَ وُلْدَ حمارِ

ومن كلام بنى أسد «وُلْدك مَنْ دَمى عَقِبَيْك» اى وُلْدُكِ مَنْ وَلَدْته فسال دمُك على عَقِبَيْك عند ولادته، لا من اتخذته ولداً قريبـا منك أو بعيداً، وإذا كان جمعًا فهو جمع وَلَد كأسَد وأُسْد وخَشَبة وخُشْب، وقد يجوز أن يكون الوُلْد أيضًا جمع وُلْد مثل فُلْك جمع الفُلْك»[١].

وفى (رُبيون) ينسب المضموم للتميميين فيقول: «رُبيون - بضم الراء - تميمية والكسر أيضًا لغة»[٢]، ومثله (صُنوان) فيما قرأ به عبد الرحمن السُّلَمِىّ إذ الكلمتان أختان لا تفترقان»، فهو - وإن لم ينسبها هنا - مفهومة من مواضع اخرى كالموضع السابق، ومن هذا يفهم أن الضم لهجة للقبائل البدوية، أما الفتح والكسر فهو لهجة أيضًا ولكنه للحضريين من أهل الحجاز، وهذا تخريج تسوغه القوانين الصوتية الحديثة «فالفتحة تلائم البيئة الحضرية لما فيها من خفة على حين تناسب الضمة أهل البادية لثقلها»[٣]، وكذلك حيث تكون الضمة والكسرة تنسب الأولى إلى البدو والثانية إلى الحضر[٤]، لكن أبا حيان يزيد على ابن جنى فى نسبة تلك اللهجات إلى «أهل البادية من العالية ونجد» بجانب تميم وأسد اللذين صرح ابن جنى بنسبة تلك اللهجة إليهما[٥].

أما عن كسر حرف المضارعة فالقاعدة عند أكثر العرب أنهم يفتحون حرف المضارعة فى جميع الأفعال إلا الرباعى منها فإنهم يحركونه بالضم، وقد ورد عن بعض القبائل كسر حرف المضارعة مطلقًا، وينسب ابن جنى هذه الظاهرة فى المحتسب إلى تميم، حيث يقول فى تخريج قراءة (فِتمسكم) بكسر التاء: «هذه لغة تميم أن تكسر أول مضارع ما ثانى ماضيه مكسور، نحو علمت تِعلم وأنا إِعلم

(١) المحتسب ١/ ٣٦٥.   (٢) نفسه ١/ ١٧٣.

(٣) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ص١٢٥.

(٤) نفسه، نفس الصحيفة.   (٥) البحر ٥/ ١١٥، ١١٨.

وهى تِعلم ونحن نِركب، وتقل الكسرة فى الياء فى نحو يِعلم ويِركب استثقالا للكسرة فى الياء، وكذلك ما فى أول ماضيه همزة وصل نحو يِنطلق ويوم تِبْيضُّ وجوه وتِسْوَدُّ وجوه فكذلك فتِمسكم النار»[1]، وفى الخصائص ينسب هذه الظاهرة إلى بهراء فيقول: «وأما تلتلة بهراء فإنهم يقولون تِعلمون وتِفعلون وتِصنعون بكسر أوائل الحروف»[2] وبهراء بطن من تميم أو من قضاعة[3].

ويلاحظ أن تلك اللهجة لا تختص بتميم أو بهراء، فقد ذكر أبو حيان أنها «لغة قيس وتميم وأسد وربيعة[4]، وهذيل[5]، وبعض كلب يكسرون أيضًا فى الياء، يقولون: هل يِعلم؟»[6]، «وقد خالف سيبويه هذا النقل، فقال: إن حروف المضارعة عدا الياء قد ورد كسرها عند جميع العرب عدا الحجازيين، متى كان ثانى الماضى مكسوراً، وذلك للتنبيه على حركة عينه فى الماضى[7]، وابن فارس فى كتابه الصاحبى يرى: أن كسر أوائل الكلمات مطلقًا - لا فرق بين المضارع وغيره - لغة أسد وقيس كتِعلمون ونِعلم وشِعير ورِغيف[8]، وإدخال نحو شِعير ورِغيف فى هذا الباب مردود، وقد نبه على ذلك أستاذنا الدكتور نجا حين قال عنه: «ويبدو لى ضعف هذا النقل لأن هذا التغيير قد عرف أنه من تفريعات تميم[3]، أما النسب الأخرى فصحيحة لأن تلك القبائل التى نسب العلماء هذه الظاهرة إليها بدوية، فبهراء وكلب من قضاعة كانوا يقطنون ناحية الشام قريبًا من العراق[9]، وربيعة مسكنها الحيرة، وأسد من ربيعة كانت تسكن قبل الكوفة بخمس مراحل[4]، وتميم من قبائل شرقى الجزيرة بالقرب من العراق وهذيل من سكان الحجاز[10]، وهذه القبائل بدوية كما نرى من البيئة التى تعيش فيها ما عدا هذيل الحضرية، وقد فسر الدكتور أنيس ميل بعض قبائل المدن إلى كسر حرف المضارعة

---

(١) المحتسب ١/ ٣٣٠.
(٢) الخصائص ٢/ ١١.
(٣) فقه اللغة، د. نجا ٤/ ٣١. وانظر رقم (٩).
(٤) البحر ١/ ٢٣.
(٥) نفسه ١/ ٢٤.
(٦) نفسه ٧/ ٣٤٣.
(٧) الكتاب ٢/ ٢٥٦، ٢٥٧.
(٨) ط ١٩١٠، ص٢٣.
(٩) صفة جزيرة العرب ١٣٢.
(١٠) صفة جزيرة العرب ١٣١.

بأن «بعض القبائل التى تأثرت بحياة الحضر قد آثرت صوت اللين الأمامى الذى نسميه الكسرة»[1]، وحاول أن يفسر وجود تلك الظاهرة عند قبيلة بهراء بهذا المعنى، فقد تأثرت لغتها بما فى الشام من لغات كالآرامية والعبرية لوضوح كسر حرف المضارعة باطراد فيهما، والواقع أن ذلك ليس أمرًا مؤكدًا لوجودها عند قبيلة تميم البدوية البعيدة عن مجال هذا التأثر، وكذلك عند هذيل الحجازية، وهى بعيدة عن مجاله أيضًا، ولا مانع من تأثر بعض قبائل المدن بما انتشر عند إخوانهم العرب فى البوادى، فهم على صلة بهم، يلاقونهم ويتعاملون معهم[2].

٢- فى الإتباع:

أ - من التقريب قولهم: الحمدُ لُله والحمدِ لِله[3].

ب- قرأ أبو جعفر: ﴿لِلْمَلَائِكَةُ اسْجُدُوا ... ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة]، بضم الهاء[4].

جـ- حكى أبو عمرو أن أهل نجران يقولون: ﴿بَرَاءَةٌ مِنِ اللَّهِ ... ﴿١﴾﴾ [التوبة][5]. بكسر نون (من).

د - قرأ أبو السمَّال: ﴿قُمُ اللَّيْلَ ... ﴿٢﴾﴾ [المزمل][6]. بضم ميم (قُمُ).

هـ- وقال: «اضْرِبِ السَّاقَيْنِ إِمُكَ هابِلُ»[7].

توجيه هذه اللهجات:

يلاحظ أن ابن جنى يعد ذلك كله من «باب تقريب الصوت من الصوت» فيقول: «وجميع ما هذه حاله مما قرب فيه الصوت من الصوت»[8] والإتباع كثير من هذا النوع مثل أنا أُجُوءُكَ وأَنْبُؤُكَ وهو مُنْحُدُر من الجبل[9]، فهذا لون من تجانس الصوت وانسجامه، ليؤدى إلى الإسراع والخفة فى النطق، فقد وافق بين حركة الدال واللام فى (الحمد لله) بحيث جعل اللام تابعة للدال فى ضمتها مرة،

---

(١) فى اللهجات العربية ١٢٧، ١٢٨، ط٢.

(٢) كسر حرف المضارعة منتشر فى لهجاتنا العامية. (٣) الخصائص ٢/ ١٤٤.

(٤) المحتسب ١/ ٧١، وانظر أيضًا ١/ ٢٤٠، ٢/ ٢١. الأعراف ١١، والإسراء ٦١ وغيرها.

(٥) نفسه ١/ ٢٨٣. (٦) نفسه ٢/ ٣٣٥، ٣٧٢. (٧) الخصائص ٢/ ١٤٥.

(٨) المصدر السابق وصحيفته. (٩) نفسه ٢/ ١٤٣.

وجعل الدال فى المرة الأخرى تابعة للام فى كسرتها، وفى المثال الثانى ضمت التاء فى لفظ (الملائكة) مع أنها مجرورة تبعا لضمة الجيم بعدها، إذ الحاجز غير حصين، وقد ضعف ابن جنى الإتباع فيهما - بكسر الدال وضم التاء - لخلله بالإعراب، وضمة الميم فى (قُمْ) إتباع لضمة القاف، وهى لغة لبلعنبر[1]، وقد كسر همزة (أم) المضمومة إتباعا لكسرة النون قبلها، ومن ذلك يتضح أن الإتباع تارة يكون للأول وأخرى يكون للثانى؛ وهذا اللون من الانسجام وتأثر الأصوات اعترف به اللغويون المحدثون، وأطلقوا على كل من قسميه مصطلحًا خاصا، فإذا تأثر الصوت الأول بالصوت الثانى سمى تأثرًا رجعيًا وإذا تأثر الثانى بالأول سمى تأثرًا تقدميًا، ويلاحظ أن هذا التقريب فى نطق الأصوات قد أثر عن أهل البادية كنجران وبلعنبر وأزد شنوءة[2] إذ إنه يساعد على سهولة إخراج الأصوات وقلة المجهود العضلى، وهذا بخلاف أهل المدن الذين يعمدون إلى إيضاح الأصوات وفصل كل منها عن الآخر.

ب- حذف الصوائت

ومن أمثلته ما يأتى:

قرئ ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ ... ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء] - بكسر السين ساكنة الجيم خفيفة اللام - ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرْضٌ ... ﴿١٠﴾﴾ [البقرة] - بسكون الراء - روى ابن جنى عن ابن مجاهد قال: قال عباس: سألت أبا عمرو عن ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ... ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة] فقال: أهل الحجاز يقولون: يعلمُهم ويلعنُهم، ولغة تميم: يعلمْهم ويلعنْهم ومثله:

فاليوم أشربْ غيرَ مُستحقب ... إثمًا من الله ولا واغلِ[3]

تأبى قُضاعةُ أن تعرفْ لكُمْ نسبًا ... وابنَا نِزارٍ فأنتُمْ بيضةُ البلدِ

وقد كثر إسكان الياء فى موضع النصب كقوله:

يَا دارَ هِند عفَتْ إلا أثافيْها

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٣٥، ٣٣٦. (٢) البحر ١/ ١٥٢.

(٣) المحتسب ١/ ١٠٩، ١١٠، ٢٠٥، ٢/ ٦٧.

وهو كثير جدا، وشبهت الواو فى ذلك بالياء كما شبهت الياء بالألف. قال الأخطل:

إذَا شئتَ أن تلْهُو ببعضِ حديثِهَا نَزلنَ وأنزَلنَ القطـينَ المولَّـدَا

ومثل ذلك كـثير، وعليـه قراءة ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئْكُمْ ... (٥٤)﴾ [البقرة][١]. بإسكان الهمزة.

توجيه هذه اللهجات:

ذكر ابن جنى أن إسكان الجيم فى (السجْل) بعد حذف حـركتها وتخـفيف اللام لغة لأهل مكة، وأن إسكان الراء فى (مـرْض) لغة[٢]، كما صـرح فى نظير لها وهو قراءة (حُرْمٌ) بإسكان الراء فى قوله تعالى: ﴿أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ...(٣٦)﴾ [التوبة] بأنها لغـة تميمية كـما يقولون فى رسُل رسْل وكـتُب كتْب[٣]، وفى النص السابق لقراءة ﴿وَيُعَلِّمُهُمْ ... (١٢٩)﴾ [البقرة] بإسكان الميم، ما يفيـد اعترافه بنسبة ذلك إلى تميم، وهم للتخفيف يسـكنون أواخر الكلمات التى تتوالى فيها الحـركات كما فى «أشربْ - تعرفْ - أثافى»، ويحسب بعض العلمـاء ذلك من ضرورات الشعر إلا أن الثابت عن الثقات أنه سائـغ فى حال السعة لأنه لغة[٤]، «والروايات تكاد تتفق على أن توالى الصوائت من لهـجة الحجاز، وهـى تلائم البيئة الحـضرية التى تميل إلى التأنى فى الكلام بحيث تعطى كل صوت حقه، وأن التخفيف من لهجات بنى تميم وأسد وبعض نجد، وهى قبائل بادية تميل إلى السـرعة، والاقتصاد فى المجهود العضلى، وهذا الحذف يوفر لهم ذلك[٥]، وهذا التخفيف وإن لم ينطبق على أهل مكة بعامة لأنهم حضـريون (فلعلهم تركوا لهجتهم ومالوا إلـى التخفيف فى هذه الكلمة، خصـوصا أن ابن جنى يذكر أن بعض التميمـيين فى بعض الألفاظ كانوا يتركون لهجتهم إلى لهجة الحجازيين، وأن هؤلاء يفعلون ذلك أحيانا)[٦]، وبذلك

---

(١) الخصائص ٢/ ٣٤٠-٣٤٣. (٢) المحتسب ١/ ٥٣، ٥٤. (٣) المحتسب ١/ ٢٠٥.

(٤) الضرائر، ص٢٧٠. (٥) اللهجات العربية، د. الراجحى ١٥٧.

(٦) نفسه ١٢٠، ويشيـر إلى ما أورده ابن جنى من ترك الحجازيين كسر الشـين فى عشِرة المفردة إلى سكونهـا عند التـركيـب مع التأنيـث فقـالوا إحـدى عشْـرة إلى تسع عـشْـرة على حين عكس التميميون، فكسروا الشين فى التركيب مع أنهم يسكنون فى الإفراد وهم يعكسون فى نظائره من فخذ ونحوه؛ لأن سبيـل أهل الحجاز التثقيل وسبيل بنى تميم التخفـيف وفى حال تركيب عشرة للمؤنث حدث العكس. المحتسب ١/ ٨٥، وكتابنا: اللهجات العربية نشأة وتطوراً، ص٣٠٤.

تسقط دعوى ابن جنى أن قراءة (بـارئكم) بالإسكان غير واردة فى العربية حتى خطأ بها القـراء، يقول: «ألا ترى إلى قراءة أبى عـمرو ﴿مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ... ⑪﴾ [يوسف] مختلسًا لا محققًا، وكـذلك قوله عز وجل ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ⑩﴾ [القيامة]، مُخفًى لا مستوفى، وكذا قـوله عز وجل ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ... ⑭﴾ [البقرة] مختلسًا غير ممكّن كسر الهمزة حتى دعا ذلك من لطف عليه تحصيل اللفظ إلى أن ادعى أن أبا عمرو كان يسكّن الهمزة، والذى رواه صاحب الكتاب اختلاس هذه الحركة لا حذفـها ألبتة، وهو أضبط لهذا الأمر من غيره مـن القراء الذين رووه ساكنًا، ولم يؤت القوم فى ذلك من ضـعف أمانة لكن أُتوا من ضعف دراية»[1]، والواقع أن ابن جنى سها فى توجيـهه لهذه القراءة «فتسكين المرفـوع فى نحو يشعرْكم لغة لتمـيم وأسد باعترافه كمـا ذكرنا فلا وجه للإنكار من جهـة الدراية» كما يقـول أستاذنا الشـيخ النجار[2]، ولعل هذا الطعن ناشئ عن سوء الظن الذى عـرف بين النحاة والقراء[3] فى هذا الأوان من التاريخ بحيث كـان القراء لا يعتـدون بكلام النحاة على حين تظهـر ردود فعل لذلك فى إنكارهم لبعض القراءات.

جـ- اجتماع التغيير والحذف فى تفريعات بنى تميم

١- قرأ ابن عباس بخـلاف - (وحَرْمٌ) بفتح الحاء وسكون الراء والتنوين فى قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ... ⑮﴾ [الأنبياء] ويخرج ابن جنى القراءة فيقول: «وأمـا (حَرْمٌ) بفتح الحاء وتسكين الراء فمخـفف من (حَرِم) على لغة بنى تميم فهو كبطْر من بطِر وفخْذ من فخِذ وكلْمة من كلِمة»[4].

٢- وفى باب الساكن والمتحرك فى الخصائص يذكر من المتحرك الذى أسكن وهو متصل «مـا كان ثلاثيا مضموم الثـانى أو مكسوره فلك فيه الإسكان تخفـيفًا وذلك كقولـك فى علِم علْم وفى ظرُف قد ظرْف وفى رجُل رجْل وفى كبِـد كبْد وسمعت الشجرى وذكر طعنة فى كتِف فقال الكتْفية»[5].

---

(١) الخصائص ١/ ٧٢، ٧٣. (٢) التعليق ١/ ٧٣.

(٣) البحر ٤/ ٢٧٢، ٣٦٢. (٤) المحتسب ٢/ ٦٥، ٦٦. (٥) الخصائص ٢/ ٣٣٨.

٣- قرأ أبو الحسن بخلاف وأبو رجاء ومجاهد فيما روى عنه ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ... (٢٨٠)﴾ [البقرة] - بسكون ظاء (فنظْرة) - قال أبو الفتح: أما فنظْرة بسكون الظاء فسكنه للتخفيف من نظِرة كقولهم فى كلِمة: كلْمة وفى كبِد: كبْد لغة تميمية(١).

٤- وبنو تميم يقولون: كِلْمة وكِلَم ككسرة وكِسَر(٢).

٥- وعند تخريجه لقراءة الحسن (عضدك) فى قوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ... (٣٥)﴾ [القصص] يقول «فيها خمس لغات عضُد وعضْد وعُضُد وعُضْد وعَضِد وأفصحها وأعلاها عضُد بوزن رجُل وعضْد مسكن من عضُد وعُضْد منقول الضمة من الضاد إلى العين وعُضُد بالضمتين جميعًا كأنه تثقيل عُضْد وقد شاع عنهم نحو ذلك كقولهم: فى تكسير أحمر حُمْر... إلخ(٣).

٦- روى عن الحسن أنه قرأ (الحِبْك) بكسر الحاء ووقف الباء فى قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧)﴾ [الذاريات] قال ابن جنى: وأما الحِبْك فمخفف منه (أى من الحِبِك) كإبْل وإطْل فى إبِل وإطِل وامرأة بِلِز وبأسنانه حِبِر(٤).

٧- باب شِعير ورِغيف وبِعير والزِّئير والجنة لمن خاف وِعيد الله، وشبهت القاف بالخاء لقربها منها كما شبهت الخاء والغين بحروف الفم فقيل نِقيذ(٥).

توجيه هذه اللهجات:

يتضح من عرض هذه الأمثلة وتعقيب ابن جنى عليها أن بنى تميم يحسون ثقلا فى هذه الأوزان (فَعِل - فعُل - فِعِل) فيلجأون إلى تخفيفها، فالوزن (فَعِل) إذا كان حلقى العين فالمشهور عنهم - كما يقول أستاذنا الدكتور نجا - «تخفيفه وتفريعه بإسكان عينه مع بقاء حركة الفاء فيصير فَعْلا أو إسكان عينه بعد نقل حركتها إلى الفاء، وذهاب حركة الفاء فيصير فِعْلا ويتجه فريق منهم فى تخفيفه إلى بقاء حركة العين ولكنهم يتبعون حركة الفاء لها فيصير فِعِلا، وإن كان غير

---

(١) المحتسب ١/١٤٣. (٢) الخصائص ١/٢٦. (٣) المحتسب ٢/١٥٢.

(٤) نفسه ٢/٢٨٦، ٢٨٧. وحِبِر: صفرة تشوب بياض الأسنان وقد حبرت أسنانه. القاموس ٢/٣.

(٥) الخصائص ٢/١٤٣، ٢/٣٣٦، والمنصف ٢/٢٢٤.

حلقى العين اقتصروا فى تخفيفه على الوجهين الأولين ككتف يقولون فيه كَتْف وكِتْف وفعُل كعضُد وفِعِل كإبِل يقتصرون فيهما على الوجه الأول[1]، ولا تزال بعض هذه اللهجات موجودة فى بعض جهات جمهورية مصر العربية كما يقول أستاذنا[1]، ولكن الحجازيين ينطقون بتلك الكلمات دون تغيير ولا يعبأون بثقل أو خفة[1]، وهذا بناء على ما تقدم شأن البيئة البدوية التى تميل إلى السرعة فى النطق فلذلك تخفف حتى لا تبذل مجهوداً عضليّا أكبر، وشأن البيئة الحضرية التى تميل إلى التأنى، وتميز الأصوات بوضوح فتأخذ مجهوداً عضليا أكبر من الأولى.

أما إيثار الكسر فى شِعير ورِغيف ونحوهما فقد جعله ابن جنى ضربا من تقريب الصوت من الصوت، فسلكه فى «باب الإدغام الأصغر» ولكنه صرح بأن أكثر ما يكون ذلك مع حروف الحلق، فقال: ومن ذلك تقريب الصوت من الصوت مع حروف الحلق نحو شِعير وبِعير ورِغيف، وسمعت الشجرى غير مرة يقول زِئير الأسد يريد الزَّئير، وحكى أبو زيد عنهم: الجنة لمن خاف وِعيد الله، وفى النِّقيذ شبهت القاف بالخاء لقربها منها فيما حكاه أبو الحسن، كما شبهت الخاء والغين بحروف الفم حتى أخفيت النون معهما فى بعض اللغات كما تخفى مع حروف الفم، وهذا فى فَعيل مما عينه حلقية مطرد وكذلك فَعِل نحو نغِر ومحِك وجئِز وضحِك و﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ... ﴿٥٨﴾﴾ [النساء][2]، «ولا يقول على هذا فى ظَريف ظِريف ولا فى قَتيل قِتيل لأنه لا حرف حلق فيه»[3]، والانسجام الصوتى بتتابع الحركات تتطلبه السرعة فى النطق التى هى من خصائص أهل البادية ولذا نسبت هذه اللهجة إلى بنى تميم كما صرح بذلك أستاذنا الدكتور نجا على أنه لون من التخفيف والتفريع[4].

ثانياً: الصوامت

لا تسير اللهجات وفق نظام مطرد فى استعمالها للأصوات الساكنة، أو ما يعبر عنها لغويو العصر الحديث بالصوامت، فقبيلة يبرُز فى كلامها صامت معين،

(١) اللهجات العربية، د. نجا، ص٥٩، وفقه اللغة ٤/ ٣٠، ٣١.

(٢) الخصائص ١/ ١٤٣، ٢/ ٣٣٦، ونَغِر: يغلى صدره من الغيرة، وجئِز من جئِز بالماء: غص به.

(٣) المنصف ٢/ ٢٢٤. (٤) فقه اللغة. د. نجا ٤/ ٣١.

وأخرى تستعمل سواه مما له قرب مع الأول أو بعد، وقد تختلف طريقة الأداء لدى نلك القبائل. وفى متن اللغة مظاهر كثيرة نتكلم عن أهمها وهى: الإبدال بوجه عام، وتحقق اللهجات فى صوره المختلفة - تأثر الأصوات بعضها ببعض - السكون والحركة فى الصوامت الحلقية.

المظهر الأول: الإبدال

فصلنا الحديث عن الإبدال فى مكان خاص به من كتابنا، ونبهنا هناك على ما هو من اختلاف اللهجات، إلا أننا نرى من الضرورى - ونحن ندرس اللهجات عند ابن جنى - أن نلمح إلى بعض ما قلناه ليكون شاهدا أمام الباحث، والإبدال - كما نعرف - له شروط خاصة من تقارب الحروف، وقد يتخلف ذلك إذا كان اللفظان ناشئين عن لهجتين مختلفتين كما فى (مرُّوا يدبُّون دبيبا ويدجُّون دجيجا) فلا تبادل بين الباء والجيم لبعد مخرجيهما وحَثْحَثُوا وحثُّوا فى قول الشاعر:

كَأَنَّما حَثْحَثُوا حُصًّا قَوَادِمُهُ   أو أُمَّ خِشْفٍ بذى شَثٍّ وَطُبَّاقِ

فليست الحاء مبدلة من الثاء لبعد المخرج أيضًا[1]، فلا يكون مثل هذا من الإبدال، أما إذا تحققت شروطه فيجوز أن يكون أحد اللفظين أصلا والثانى متطوراً عنه عند قبيلة واحدة فى جيلين مختلفين، ويجوز أن يكونا مع ذلك لهجتين كل منهما لقبيلة خاصة، ونحن نشير هنا إلى بعض الأمثلة التى عدت من اختلاف اللهجات ويتضح فيها ذلك:

أ - **جدث وجدف**: قال أبو الفتح (الجدث) هو القبر بلغة أهل الحجاز والجدف بالفاء لبنى تميم، وقالوا: أجدثت له جدثا، ولم يقولوا أجدفت فهذا يريك أن الفاء فى جدف بدل من الثاء فى جدث، ألا ترى أن الثاء أذهب فى

---

(١) سر الصناعة ١/ ١٩٧. حثحثه كحثه: حثه وحضه، والقوادم: أربع ريشات أو عشر فى مقدم الجناح، وحُصَّ شعره: انجرد، وتناثر والحُصُّ جمع أحص، يقال: طائر أحص الجناح، والخشف: ولد الظبية، والشث والطباق: نوعان من الشجر يضمران راعيهما ويشدان لحمه، والبيت من قصيدة لتأبط شرا يذكر فيها هربه من كمين أعده له أعداؤه، يشبه نفسه بالظليم الهارب المتناثر القوادم لمطاردته أو بالظبية المضمرة فى شدة العدو. اللسان، وخزانة الأدب ٣/ ٣٤٤، ٣٤٥.

التصـرف من الفاء، وقد يجـوز أن يكونا أصلين إلا أن أحدهما أوسع تصـرفا من صاحبه كما قالوا: وَكَّدت عهده وأكَّدته، إلا أن الواو أوسع تصرفًا من الهمزة، ألا تراهم قالوا: قـد وكَد وكُده أى شـغل به ولم يقولوا أكَد أكْـده، فالواو إذًا أوسع تصرفا وعليه قـالوا: مودّة وكيدة ولم يقولوا أكيدة، وقـالوا وكّدت السرج والوِكاد ولم تستعمل هنا الهمزة فهذا مذهب مقتاس على ما أريتك هنا[1]، فقد حكم ابن جنى بكون الكلمة بالثاء لهجة الحجاز وبالفـاء لهجة تميم، ثم أجراها على مقياسه فى بيان الأصالة والفرعية، وقد بينا فى فصل الإبدال أن هذا المـقياس غير مستقيم دائمًا. وكلامه - هنا - يحمل دليل عدم استقامته لعدم ثباته على رأى واحد.

ب- **عتى وحتى**: قال ابـن جنى: «وقد أبدلت العين من الحـاء فى بعض المواضع قرأ بعضهم: (عتى حين) يريد ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ۝٣٥﴾ [يوسف]، ولولا بحة فى الحاء لكانت عينا[2]، وهذه اللهجة تعـرف بفحفحة هذيل، وقـد اعترف ابن جنى بأن إبدال الحاء عينا من لهـجة هذيل، ونقَل كتابَ عمر إلى ابن مـسعود فى ذلك عند تخريجه لهذه القراءة فى المحتسب يقول: روى أن عمر سمع رجلاً يقرأ (عتى حين) فقال: من أقراك؟ قال: ابن مسعود، فكتب إليه: إن الله عز وجل أنزل هذا القرآن فجعله عربيا، وأنزله بلغة قريش، فأقرئ الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل[3]، وهناك غير ذلك كثير تركناه لعودتنا إليه فى الإبدال.

المظهر الثانى: تأثر الأصوات بعضها ببعض

له أنواع منها: الإدغام - التقريب بما يحـقق الانسجام الصوتى - المخالفة - الإمالة.

١- الإدغام: عرف أسـتاذنا الدكتور نجا الإدغام بأنه «دخـول حرف فى آخر بحيث يرتفع بهما اللسان ارتفاعة واحدة»[4]، وعرفه ابن جنى بأنه: تقريب صوت من صوت، وقد قسمه القراء إلى صغير وكبير، فالصغير هو: ما سكن فيه الحرف

(١) المحتسب ٢/٦٦. (٢) انظر سر الصناعة ٢/٢٤٦. (٣) المحتسب ١/ ٣٤٣.

(٤) التجويد والأصوات، ص٨٣، والقول المفيد، ص١٠٤.

الأول، والكبير: ما تحرك فيه[1]، وابن جنى يدخل هذين القسمين تحت اسم الإدغام الأكبر فيقول: «الإدغام فى الكلام على ضربين أحدهما: أن يلتقى المثلان على الأحكام التى يكون عنها الإدغام، فيدغم الأول فى الآخر، والأول من الحرفين فى ذلك على ضربين ساكن ومتحرك فالمدغم الساكن الأصل كطاء قطّع وكاف سكّر الأولين والمتحرك نحو دال شدّ[2] ولام معتلّ، والآخر أن يلتقى المتقاربان على الأحكام التى يسوغ معها الإدغام، فتقلب أحدهما إلى لفظ صاحبه فتدغمه فيه، وذلك مثل: ودّ فى اللغة التميمية وامّحى وامّاز واصبر واثّاقل عنه»[3]، ثم يقول «فهذا حديث الإدغام الأكبر»[4]، وأما الإدغام الأصغر فهو - عنده - «تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه من غير إدغام يكون هناك»[5]، ولا ريب أن اللهجات تتحقق فيما ورد فيه الاختلاف لا فيما اتفق عليه العرب جميعًا ولذلك نورد أمثلة مما وجد فيها هذا الافتراق فى الأداء.

قراءة ابن محيصن: (ثلاتٌّ) فى قوله تعالى: ﴿ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ... (٢٢)﴾ [الكهف]، وعليها ابعث تّلك واغث تّلك[5] - اثّاقل - ودّ - امّحى - امّاز[6]، وقراءة الجحدرى: أن يصّلحا[7] فى قوله تعالى: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ... (١٢٨)﴾ [النساء]- ومثلها اصبّر[6]، وقراءة ابن محيصن: ثم أطّره[8] فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ... (١٢٦)﴾ [البقرة]، وقراءة الزهرى: جزٌّ[9] فى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)﴾ [الحجر]، وقراءة أبى جعفر والزهرى جزّا[10]، وقراءة الزهرى المرّ[11] فى قوله تعالى: ﴿بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ... (١٠٢)﴾ [البقرة]، وقراءة الحسن والزهرى بين المرّ[12] فى قوله تعالى: ﴿بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ... (٢٤)﴾ [الأنفال]، وقراءة أبى الطفيل والجحدرى وابن أبى إسحاق ورويت عن الحسن: يابشرّى، فى قوله تعالى: ﴿يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلامٌ ... (١٩)﴾ [يوسف]،

---

(١) القول المفيد ١٠٥، ١٠٧، ١١١. (٢) فعلا لا مصدرا. (٣) الخصائص ٢/ ١٣٩، ١٤٠.
(٤) نفسه ٢/ ١٤١. (٥) المحتسب ٢/ ٢٦. (٦) الخصائص ٢/ ١٤٠.
(٧) المحتسب ١/ ٢٠١. (٨) نفسه ١/ ١٠٦. (٩) نفسه ٢/ ٤.
(١٠) نفسه ١/ ١٣٧. (١١) نفسه ١/ ١٠١. (١٢) نفسه ١/ ٢٧٦.

وقراءتهم وغيرهم: هدىّ، في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاي ... (٣٨)﴾ [البقرة]، ومثلها: عصىّ - رحىّ قال الشاعر:

سَبَقُوا هوَىّ وأعنقُوا لهواهمُ ... فتُخُرِّموا ولكلّ جنبٍ مَصْرعُ

وقال الآخر:

فأبلُونى بليتكُمْ لعلّى ... أُصالِحكُم وأستدرجْ نَوَيَّا

وهو كثير[1].

توجيه هذه اللهجات:

فسر ابن جنى طرائق الإدغام فيما سبق، ففى قراءة (ثلاثٌ) قال أبو الفتح: الثاء لقربها من التاء تدغم فيها كقولك ابعث تّلك وأغث تّلك، وجاز الإدغام وإن كان قبل الأول ساكن لأنه ألف، فصارت كشابة ودابة، ولم يدغمها فيها إلا ابن محيصن وحده[2]، والثاء متفقة مع التاء فى معظم الصفات، وهى الهمس والاستفال والانفتاح والإصمات، ويختلفان فى الشدة مع التقارب فى المخرج، «فلما كانت الثاء أخت التاء في الهمس، وتجاورتا فى المخارج أرادوا أن يكون العمل من وجه واحد، فقلبوها تاء وأدغموها فى التاء بعدها، ليكون الصوت نوعًا واحدًا»[3]، ويتحقق إدغام الثاء فى التاء بعد انتقال مخرج الثاء الذى هو طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا إلى مخرج التاء وهو أصول الثنايا العليا، بحيث لا تسمح للهواء بالمرور، لتصير شديدة مثلها بعد أن كانت رخوة، وبذلك يتحد الصوتان فى المخرج والصفة، ومثلها تمامًا، ابعث تلك وأغث تّلك ففى كل منهما قلبت الثاء تاء وأدغمت فيها على النحو السابق، وفى اثّاقل حولت: التاء فى تثاقل إلى مخرج الثاء، لتصبح رخوة تسمح للهواء بالمرور، فيتحد الصوتان مخرجا وصفة وعندئذ يدغمان، «ولما أسكنوا تاء وتد تخفيفا أبدلوها إلى لفظ الدال بعدها فقالوا ودّ»[3]، وبعبارة أخرى «التقى الحرفان المتقاربان على الأحكام التى يسوغ معها الإدغام، فقلب أحدهما إلى لفظ صاحبه ثم أدغمه فيه»[4]،

---

(١) ينظر المحتسب ١/ ٧٦، ٣٣٦، والخصائص ١/ ١٧٦، ١٧٧.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٦. (٣) سر الصناعة ١/ ١٨٩. (٤) الخصائص ٢/ ١٤٠.

والحرفان من مخرج واحد هو طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا ومتفقان فى الصفات عدا أن الدال صوت مجهور والتاء مهموس، فلما تقاربا هذا التقارب قلبت التاء دالا وأدغمت فى صاحبتها، وكذلك حدث الإدغام فى امّحى وامّاز حيث انتقلت النون من طرف اللسان مع اللثة العليا إلى الشفة مخرج الميم، وساعد على ذلك وجود الغنة مشتركة بينهما، مما أدى إلى قلب النون ميما وادغامها فيها.

وكان أصل (يصّلحا) هو يصتلحا لأنه يفتعل من صلح، فقلبت تاء الافتعال طاء ليتحقق التماثل والانسجام فى أصوات اللفظ، لأن التاء صوت مستفل، والصاد مستعل، فحولت التاء إلى صوت مستعل مناسب وهو الطاء، فصار اللفظ (يصطلحا)، وهذا نوع من تقريب الصوت دون إدغام، ثم حولت الطاء من مخرجها من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا إلى مخرج الصاد من طرف اللسان مع أصول الثنايا السفلى لتتفق معها فى الرخاوة ويسمح للهواء بالمرور، وعندئذ يتحد الصوتان فيدغمان نتيجة لذلك، فصار اللفظ على ما هو عليه الآن (يصّلحا)، وعلى هذا النمط تفسر اصبّر، أما قراءة (أطَّره) فقد كان أصل اللفظ أضترّه، ثم لاستفال التاء واستعلاء الضاد قلبت التاء طاء لتناسب الضاد، فصارت أضطره ثم إن الضاد انتقلت إلى الطاء فقلبت صوتًا مماثلا ثم أدغمت فيها، ويعد ابن جنى هذه «لغة مرذولة أعنى إدغام الضاد فى الطاء، وذلك لما فيها من الامتداد والفشو، فإنها من الحروف الخمسة التى يدغم فيها ما يجاورها، ولا تدغم هى فيما يجاورها، وهى: (ش، ض، ر، ف، م) ويجمعها (ضُمَّ شَفْر)، وقد أخرج بعضهم الضاد من ذلك، وجمعها فى قولهم (مشفر)[1]، وفسر قراءة (جُزّ) على أنها لغة مصنوعة، وليست على أصل الوضع، وأصلها جزء فُعْل من جزأت الشيء، وهو قراءة الجماعة، إلا أنه خفف الهمزة فصارت (جُزٌ)، لأنه حذفها وألقى حركتها على الزاى قبلها، ثم إنه نوى الوقف على لغة من شدد نحو ذلك فى الوقف، فقال: هذا خالدّ وهو يجعلّ فصارت فى الوقف (جزّ) ثم أطلق وهو

(١) المحتسب ١/١٠٦.

يريد نية الوقف، وأقر التشديد بحاله فقال (جزّ) كما قالوا فى الوصل سبسبّا وكلكلاّ[1]، ومثله (جزّا) أصله (جزءًا) ثم خفف[2]، ومثل ذلك يقال عن (المرّ) فى المرء، أما إدغام ألف المقصور فى ياء المتكلم فقد صرح ابن جنى بأنها «لغة هذيل»[3]، وقال أبو الفتح: هذه لغة فاشية فيهم[4]، وقد استدل عليها بأبيات شعرية كثيرة ذكرنا بعضها فيما مضى.

وعلى ما ذكرنا من تقسيم التأثر إلى تقدمى ورجعى نفسر أمثلة الإدغام السابقة على الوجه التالى:

أ - ثلات - اثاقل - امحى - اماز - ودّ - كله رجعى.

ب- يصَّلحا - اصبّر، كل من هذين اللفظين مر بمرحلتين الأولى انقلبت فيها تاء الافتعال طاء، والثانية انقلب فيها صوت الطاء إلى صوت الصاد ليحصل التماثل ويتم الانسجام بالإدغام، وكل منهما تأثر تقدمى، لأن الصوت الثانى قد تأثر بالأول فى الحالين.

جـ- أطره: هذا اللفظ مر بمرحلتين أيضًا الأولى قلب تاء الافتعال طاء، لتماثل الضاد فى الإطباق، والثانية قلب الضاد التى هى الحرف الأول طاء ليتم التماثل فتدغم فيها، وإن كان الأقوى هو قلب الطاء إلى الضاد فكانت تصير (أضَّره) على ما هو القياس فيها، وإذا نظرنا إلى التغيير الأول لاحظنا أن الصوت الثانى تأثر بالأول فهو تقدمى وأما التغيير الثانى فرجعى لأن الصوت الأول تأثر الثانى.

د - أما جزّ والمرّ فلا مجال للتأثر فيهما، بل يخضعان لطبيعة اللهجات العربية التى تتخفف من نبر الهمزة.

ومما لا ريب فيه أن وضوح الأصوات، وفصل بعضها عن بعض يتطلب بذل مجهود عضلى كبير، حتى لا تختلط ولا تشوه صورها، وهذا خاص بالبيئة المدنية التى تتسم بتلك السمات، أما غموض الأصوات ودخول بعضها فى بعض فإنه ناجم عن السرعة فى إخراجها وعدم التأنى فيها، وذلك هو اتجاه قبائل البادية، ومن هنا استنتج علماء اللغة أن «الإدغام ينسب إلى تلك القبائل التى كانت تسكن

---

(١) المحتسب ٢/ ٤. (٢) نفسه ١/ ١٣٧. (٣) نفسه ١/ ٧٦. (٤) نفسه ١/ ٣٣٦.

وسط شبه الجزيرة وشرقيها، فمعظمها قبائل بادية تميل إلى التخفف والسرعة فى الكلام «كتميم وأسد وغنىّ وعبد القيس وبكر بن وائل وكعب ونُمير»[1]، كما ينسب الإظهار إلى بيئة الحجاز المتحضرة وهى تميل إلى التأنى فى الأداء بحيث تظهر كل صوت فيه»[2]، وليس معنى هذا أن كل قبائل الحجاز لا تدغم فى كل حال، بل إن بعض قبائل الحجاز ربما تأثرت بمجاوريها من أرباب الإدغام، فتميل إليه كهذيل فهى قبيلة مدنية، وقد ثبت أنها تدغم ياء المتكلم فى ألف المقصور بعد قلبها ياء ولا ضير فى ذلك.

٢- **التقريب بما يحقق الانسجام الصوتى:** من صوره: التأثر بالجهر، والتأثر بالإطباق.

فالأول: مثل قولهم فى قصَد قصَد وفى يصْدر يصْدر[3] ومصْدر، مصْدر[4] (بإشمام الصاد صوت الزاى) ومن العرب من يخلصها زايا فيقول: قزَد[3] ويزْدر ومزْدر[3]، والتزْدير، وعليه قول العرب فى المثل: لم يُحرَم من فُزْدَ له أصله: فُصد له، ثم أسكنت العين على قولهم فى ضرَب: ضرْب وقوله: (ونُفْخُوا فى مَدَائِنهم فطارُوا)[4] وكل صاد ساكنة قبل الدال.

والثانى:

(أ) ﴿هْدِنَا الصِّرَاطَ ... ⑥﴾ [الفاتحة] والسراط - ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ... ⑥﴾ [الأنفال] ويصاقون[5]، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ... ⑳﴾ [لقمان] وأصبغ[6]، ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ... ⑩﴾ [ق] وباصقات[7]، ﴿مَسَّ سَقَرَ ④⑧﴾ [القمر] وصقر[5].

(ب) جاء عن العرب: سقت وصقت، السوق والصوق، سبقت وصبقت، سملق وصملق، سويق وصويق، سالغ وصالغ، وساخط وصاخط، مساليخ ومصاليخ[8].

(١) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ١٣٣.

(٢) نفسه، نفس الصحيفة، وفى اللهجات العربية د. أنيس، ط٢، ص٦١، ٦٢، ٦٥.

(٣) سر الصناعة ١/ ٥٦.

(٤) الخصائص ٢/ ١٤٤، وسر الصناعة ١/ ٥٧.

(٥) سر الصناعة ١/ ٢٢٠.

(٦) نفسه ١/ ٢٢٠، والمحتسب ٢/ ١٦٨.

(٧) المحتسب ٢/ ٢٨٢.

(٨) نفسه ٢/ ١٤٢، ١٤٣.

توجيه هذه اللهجات:

وجه ابن جنى تلك اللهجات توجيها علميا تؤيده الدراسات الصوتية الحديثة وقد بينا ذلك فى فصل الإبدال، ونحن نذكر هنا ما يقتضيه بحث اللهجات.

١- نحن نعرف أن الصاد من المهموسات وما بعدها دال مجهورة فهذا التجاور بينهما يقتضى تقريب الصاد المهموسة من الدال المجهورة، وذلك بإشمام الصاد صوت الزاى المجهورة لتناسب الدال فى الجهر، ولذلك جعل ابن جنى هذه الصاد بمنزلة الزاى حين قال: «وأما الصاد التى كالزاى فهى التى يقل همسها قليلا ويحدث فيها ضرب من الجهر لمضارعتها الزاى»[(١)]، إذ إنه «لما جاورت الصاد وهى مهموسة الدال وهى مجهورة قربت منها بأن أشمت شيئًا من لفظ الزاى المقاربة للدال بالجهر»[(٢)]، وقد قلبها العرب زايا مخلصة لأنه لما سكنت الصاد ضارعوا بها الدال التى بعدها بأن قلبوها إلى أشبه الحروف بالدال من مخرج الصاد وهى الزاى لأنها مجهورة كما أن الدال مجهورة[(٣)]، ويشترط لهذا القلب أن تكون الصاد ساكنة وبعدها دال «فإن تحركت الصاد لم يجز فيها البدل وذلك نحو صدر وصدف لا تقول فيه زدر ولا زدف، وذلك أن الحركة قوت الحرف وحصنته فأبعدته من الانقلاب بل قد يجوز فيها إذا تحركت إشمامها رائحة الزاى، فأما أن تخلص وهى متحركة زايا كما تخلص وهى ساكنة فلا، وإنما تقلب الصاد زايا أو تشم رائحتها إذا وقعت قبل الدال فإن وقعت قبل غيرها لم يجز ذلك فيها[(٤)].

٢- الواضح أن السين قد وقع بعدها أحد الحروف الآتية: الطاء، القاف، الغين، الخاء. والطاء من أصوات الإطباق، ولذلك تأثرت السين بها فقلبت صادا، لأنها من مخرج السين وتناسب الطاء فى الإطباق، وفى الأمثلة الأخرى يلاحظ أن السين من حروف الاستفال والقاف والغين والخاء من أصوات الاستعلاء فاقتضى هذا التجاور أن تقلب السين إلى صوت مشابه لأصوات الاستعلاء، وهذا ما

---

(١) سر الصناعة ١/ ٥٦. (٢) الخصائص ٢/ ١٤٤. (٣) سر الصناعة ١/ ٥٧.

(٤) سر الصناعة ١/ ٥٧، والكتاب ٢/ ٩٢٦، والمخصص ١٣/ ٢٧١، ولسان العرب ٤/ ٣٣٣.

لاحظه فيلسوف العربية ابن جنى، يقول: «الأصل السين وإنما الصاد بدل منها لاستعلاء القاف فأبدلت السين صادا لتقرب من القاف لما فى الصاد من الاستعلاء»[1]، ويقول عند تعقيبه على قراءة (واصبغ) بالصاد: «أصله السين إلا أنها أبدلت للغين بعدها صادا كما قالوا فى سالغ صالغ وفى سالخ صالخ وفى سقر صقر، وفى السقر الصقر، وذلك أن حروف الاستعلاء تجتذب السين عن سفالها إلى تعاليهن، والصاد مستعلية وهى أخت السين فى المخرج، وأخرى حروف الاستعلاء»[2]، ويزيد ابن جنى فى تحليل هذه الظاهرة العلمية بيانا حيث يقول: «وروينا عن الأصمعى قال: اختلف رجلان من العرب فى السقر فقال أحدهما بالصاد وقال الآخر بالسين فتراضيا بأول من يقدم عليهما فإذا راكب فأخبراه ورجعا إليه، فقال: ليس كما قلت ولا كما قلت إنما هو الزقر، وهذا أيضًا تقريب الحرف من الحرف، وذلك أن السين مهموسة والقاف مجهورة فأبدل السين زايا وهى مجهورة والزاى أخت السين كما أن الصاد أختها»[3]، ويجعل ابن جنى هذا التأثر لونا من الإدغام الأصغر الذى هو تقريب الصوت من الصوت، وقد نبه على ذلك كثيراً فى كتبه إذ يقول: «ومنه تقريب الحرف من الحرف»[4]، ومنه[5] «وهذا التقريب بين الحروف مشروح الحديث فى باب الإدغام»[6]. وهذا التقريب للحرف من الحرف باب طويل منقاد وهو فى فصل الإدغام وما أصنعه والطفه وأظرفه[7].

٣- ظهر لعلماء اللغة المحدثين أن الصوت المجهور أوضح فى السمع من الصوت المهموس، بل إن المجهور يسمع من مسافة قد يخفى عندها المهموس، فصوت السين يخفى عند مسافة معينة ربما استمر ظهور القاف - مثلا - بعدها بوقت، والدال كذلك بالنسبة للصاد، وعلى هذا فالمجهور يتناسب مع حياة البدو، لأن الصحراء الشاسعة تتطلب ارتفاع الأصوات على حين يتناسب المهموس مع

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٨٣.
(٢) نفسه ٢/ ١٦٨.
(٣) نفسه ٢/ ١٦٩، ٢٨٣.
(٤) الخصائص ٢/ ١٤٤.
(٥) نفسه ٢/ ١٤٢، ١٤٣.
(٦) المحتسب ٢/ ١٦٨.
(٧) نفسه ٢/ ٢٨٣.

حياة الحضـر، لأنه يكتفى هناك بأقل الأصوات ارتفاعًا، فتبـدل الصوت المهموس بآخر مجهـور يكون إذًا من خصائص القبائل البدوية على حين يـبقى المهموس من خصائص القبائل المتحضرة.

وقد نسب أبو حيان ظاهرة إشمام السين صوت الزاى إلى قبائل قيس وقلبها زايا خالصة إلى قبائل عذرة وكعب وبنى القين[1]، وقيس معروفة ببدويتها، وعذرة قبيلة اشتهرت بالعشق، وهى بطن من قضاعة[2]، وهم بدو، وكعب بطن عامر بن صعصـعة[3] من هوازن[4]، وكانت تسـكن العروض[5]، مجـاورة لبنى تميم وبنو القين بطن من بنى أسد[6]، وهى بدوية على ما نعرف. ويـنقل أبو حيان عن أبى جعفر الطوسى نـسبة التأثر بالإطباق إلى قريش ويقـول إنه «اللغة الجيدة»[1]، وقد يكون ذلك صحيحـا فى الألفاظ التى يوجد فيها إطباق نحـو يبسط ويسيطر أما أن قريشا كانت تذهب إلى الإطباق فى باسقـات وأسبغ وسقر فذلك ما لا نظنه، لأن البيـئة الحـضرية تميل إلى الأناة فى الأداء بحـيث تعطى كل صوت حـقه فتـنطقه بصفاته، ولعل هذه الظاهرة أن تنسب إلى أهل البادية أجدر حيث عرفنا أن صوت الإطباق فيه من الوضوح ما يناسب البيئة الصحراوية»[7].

٣- المخالفة: من أمثلها: قرأ عكرمة «إيلا ولا ذمة» بياء بعد الكسرة خفيفة اللام[8]، فى قوله تـعالى: ﴿إِلاًّ وَلا ذِمَّةً ... ⑧﴾ [التوبة] قـالوا فى (أما): (أيما) ونحو ذلك[9]، قـال أهل الحجـاز فى الصَّـواغ: الصَّيـاغ[9]، قالوا فى أمللت: أمليت[8]، حكى عنهم: لا وربِيك لا أفعل أى لا وربك[8].

توجيه هذه اللهجات:

يوجه ابن جنى أيضًـا هذه اللهجات بما ذهب إليه المحدثون مـن علماء اللغة «فـالمماثلة تقـرب بين الأصوات المتـجـاورة فى الصفـة والمخرج، وقـد يصل هذا

---

(١) البحر ١/ ٢٥. (٢) نهاية (القلقشندى) ٣٥٩. (٣) نفسه ٤٠٦، ٤٠٧.
(٤) نفسه ٣٣٠-٣٣٢. (٥) صفة جزيرة العرب ١٥٩. (٦) نهاية (القلقشندى) ٧١.
(٧) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ١٥٠. (٨) المحتسب ١/ ٢٨٣، والخصائص ٢/ ٢٣١.
(٩) الخصائص ٢/ ٦٥، والمحتسب ١/ ٢٨٣.

التقريب بين الصـوتين المتجاورين أن يصبحـا متماثلين تمام التمـاثل، وهنا قد تبدأ عملية المخالفة التى تهدف أيضًا إلى التقليل من الجهد العضلى فنرى أحد المتماثلين المتـجاورين يقـلب إلى صوت لين طويل أو إلـى ما يشـبـه أصوات اللين كـاللام والنون[1]، وهنا نرى أن اللام الأولى من (إلا) قـد تحولت إلى صـائت طويل هو الياء كما أن الميم الأولى من (أما) تحولت إلى شبه صوت اللين وهو الياء، وكذلك الصَّواغ تحـولت الواو الأولى إلى ياء ثم قلبت الثـانية من جنسهـا لاجتـماع الواو والياء وسـبق إحداهما بالسكون ثم أدغـمت فيهـا، ولا شك أن الياءين أخف من الواوين بكثير وفيه اقتصاد فى الجهـد العضلى، وابن جنى يعد لغويا متميزًا بالدقة والإصابة فى الرأى حين أشار إلى حدوث الثقل لاجتماع المتماثلين وأن ذلك يؤدى إلى تخفيفـهما باتباع قانون المخالفة يقـول: «طريق الصنعة فيه أن يكون أراد (إلا) كقـراءة الجمـاعة إلا أنه أبدل اللام الأولى ياء لثـقل الإدغام، وانضـاف إلى ذلك كسرة الهـمزة وثقل الهمزة، وقد جـاء نحو هذا فى أحرف صالحـة كدينار لقولهم دنانير وقيراط لقـولهم قراريط وديماس فيمن قال دماميس وديبـاج فيمن قال دبابيج وشيراز فيمن قال شْراريز، وقد جاء مع الفتحة استثقالا للتضعيف وحده قال سعد بن قرط يهجو أمه:

بالَيتَما أُمنا شالتْ نعامتُها ... أيمَا إلى جنَّة أيمَا إلى نَـار

وقال عمر بن أبى ربيعة:

رَأتْ رجلا أيْمَا إذا الشمسُ عارضتْ ... فيضحَى وأيْمَـا بالعشـىِّ فيَخصَرُ

وقد قلبوا الـثانى منهما فقـالوا فى أمللت: أمليت وفى أملُّ أنا: أملَى أنا، وحـدثنا أبو على أن أحـمـد بن يحـيى حكى عنهم: لا وربيك لا أفـعل أى: لا وربك[2]، وفى الاحتجاج لصيّاغ قال: «إنهم كرهوا التقاء الواوين - لا سيما فيما كثر استعماله - فأبدلوا الأولى من العينين ياء -كما قالوا فى أما: أيما ونحو ذلك- فصـار تقديره الصيـواغ فلما التقت الواو واليـاء على هذا أبدلوا الواو للياء قـبلها

---

(1) الأصوات اللغوية ١٥٤.

(2) المحتسب ١/ ٢٨٣، ٢٨٤.

فقالوا: الصيّاغ[1]، ويقول الدكتور أنيس: إن «هذا التطور هو إحدى نتائج نظرية السهولة التى نادى بها كثير من المحدثين.. وقد اعترف القدماء بكراهية التضعيف ولعلهم كانوا يريدون بهذا أنه يحتاج إلى مجهود عضلى»[2]، وهذه الظاهرة نسبت إلى القبائل البدوية كبنى عبد القيس وهم بطن من أسد وقد توطنوا شرق الجزيرة فى جوار تميم وبكر بن وائل[3]، إذ إن القبائل الحضرية تميل إلى إعطاء كل صوت ما يستحقه من الوضوح.

٤- **الإمالة**: عرض ابن جنى للإمالة فى أثناء بحثه فى حروف الهجاء، وقد كان حديثه شاملا وفنيا ودقيقا، فلم يقتصر عرضه للموضوع على تصور القدماء قبله، وإنما ألقى نظرات فاحصة على جوانب المشكلة فأوضحها وكشف أسرارها، وفصل القول فى ذلك بتحليل لغوى مستمد من الواقع الصوتى للغة العربية، فعلى الرغم من أن القدماء قبله قصروا حديثهم على إمالة الفتحة نحو الكسرة حتى قيل فى تعريفها: أن ينحى بالفتحة نحو الكسرة فتميل الألف إن كان بعدها ألف نحو الياء[4]، فقد أضاف ابن جنى جديدا إلى الموضوع.

تعرض ابن جنى لما قاله سابقوه، فذكر أن الإمالة إنما هى أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة فتميل الألف التى بعدها نحو الياء[5]، وهذا مثل الفتى والهدى وملهى وأرطى وبياع وهاب وعالم وكاتب والضحى ورأيت خبَطَ رِياح ومِن عِمَرو ﴿وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة][6]، وهذا هو النوع المشهور بين القراء حتى يكاد

---

(١) الخصائص ٢/ ٦٥. (٢) الأصوات اللغوية ١٥٣، والكتاب ٢/ ٤٠١.

(٣) نهاية (القلقشندى) ٣٣٨.

(٤) الأشمونى ٤/ ٢٢٠، وأوضح المسالك مع المنار ٢/ ٣٥٠، والنشر ٢/ ٣٠.

(٥) سر الصناعة ١/ ٥٨.

(٦) الأشمونى ٤/ ٢٢٠-٢٣٥، ومنار السالك ٢/ ٣٥٠-٣٥٩، وسر الصناعة ١/ ٥٩، وشرح المفصل ٩/ ٥٣-٦٦، وإتحاف فضلاء البشر ٧٤-٩٣، تمال الفتحة قبل الراء بشرط كونها مكسورة، سواء كانت مباشرة لها كما فى فتحة طاء (خَبَطَ) أو مفصولة بساكن مثل عين (عمرو)، والكسرة من مقتضيات الإمالة، وإنما تؤثر الكسرة قبل الألف إذا تقدمت (أى تقدمت الكسرة الألف) بحرف كعماد أو بحرفين أولهما ساكن مثل كسر همزة «وإنا إليه راجعون» فقد أثرت فى إمالة فتحة الواو نحو الكسرة.

يفهم عند إطلاق اسم الإمالة لدى الباحثين فى اللغة والقراءات، وقد أضاف ابن جنى إلى ذلك ألوانا أخرى من الإمالة:

أ - **الفتحة الممالة نحو الضمة**: وهى التى تكون قبل ألف التفخيم، وذلك نحو الصلاة والزكاة، ودعا وغزا وقام وصاغ، وقال: «كما أن الحركة أيضًا هنا قبل الألف ليست فتحة محضة بل هى مشوبة بشىء من الضمة، فكذلك الألف التى بعدها ليست ألفا محضة لأنها تابعة لحركة هذه صفتها فجرى عليها حكمها»، وإمالة الفتح إلى الضم لم يشتهر بين القدماء، ولكن ابن جنى أوضحه على الصورة السابقة، وقال: إن لمح الإمالة فيه هو الذى تسبب فى أنهم «كتبوا الصلوة والزكوة والحيوة بالواو لأن الألف مالت نحو الواو ويقصدون بذلك كتابتها فى المصحف العثمانى[1].

ب- **الكسرة المشوبة بالضمة**: نحو قِيل وبِيع وغِيض وسِيق، فكما أن الحركة قبل هذه الياء مشوبة بالضمة، فالياء بعدها مشوبة بروائح الواو، وهذا قد تعرض له الصرفيون عند حديثهم عن بناء الفعل للمجهول، وسموه بالإشمام، يقول الأشمونى شارحا كلام ابن مالك: «(واكسر أو اشمم فا) فعل (ثلاثى أعل عينا) واويا أو يائيا فقد قرئ: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ ... (٤٤)﴾ [هود] بهما، والإشمام هو الإتيان على الفاء بحركة بين الضم والكسر وقد يسمى روما، ويقول الصبان: الحركات ست؛ الثلاث المشهورة، وحركة بين الفتحة والكسرة، وهى التى قبل الألف الممالة، وحركة بين الفتحة والضمة، وهى التى قبل الألف المفخمة فى قراءة ورش نحو: الصلاة والزكاة والحياة، وحركة بين الكسرة والضمة، وهى حركة الإشمام فى نحو: قيل وغيض على قراءة الكسائى[2]، والإشمام فصيح وإن كان قليلا»[3].

---

(١) سر الصناعة ١/٥٦، ٥٩، ٦٠. غير ابن جنى يقول بإمالة نحو دعا وغزا (إلى الياء) لأنها تئول إليها عند البناء للمجهول نحو دُعِى وغُزِى وهو عند سيبويه مطرد. أما الاسم ذو الواو مثل الصلاة والزكاة فلا يمال عندهم.

(٢) الأشمونى مع الصبان ٢/٦٢، ٦٣.

(٣) المغنى فى تصريف الأفعال ٢٠٢.

جـ- الضمة المشوبة بالكسرة مثل مررت بمذعُوز وابن بُور، نحوت بضمة العين والياء نحو كسرة الراء، فأشممتها شيئًا من الكسرة، وكما أن هذه الحركة قبل هذه الواو ليست ضمة محضة ولا كسرة مرسلة، فكذلك الواو أيضًا بعدها هي مشوبة بروائح الياء، ومثل ذلك الفعل المبنى للمجهول الأجوف، فإن بنى فقعس ودبير يضمون أوله، فتقلب ألفه واوا، فيقال فى باع: بوع وفى حاك: حوك كقوله:

لیتَ وهلْ ينفعُ شيئًا ليتُ   ليتَ شبَابًا بُوعَ فاشْتريتُ

وكقوله:

حُوكَتْ علَى نِيرَيْنِ إِذْ تُحاكُ   تَخْتَبِطُ الشَّوْكَ وَلا تُشَاكُ

وبعض القبائل يميل الضمة فى الفعلين وأمثالهما نحو الكسرة وليس ذلك من الشيوع والكثرة كغيره من اللهجات(١).

وقد شرح ابن جنى الأسرار اللغوية الباعثة على حدوث الإمالة من الفتحة إلى غيرها من أخواتها، وهى الكسرة والضمة، دون العكس بأن ينحى بالكسرة أو الضمة نحو الفتحة، وقد كان حديثه معتمداً على أن الفتحة هى أول الحركات وأدخلها فى الحلق، والكسرة بعدها والضمة بعد الكسرة، فعند النطق بالفتحة تمر بمخرج الياء والواو لأنهما فى طريقها، فجاز أن تشمها شيئًا من الكسرة أو الضمة، ولو تكلفت أن تشم الكسرة أو الضمة رائحة من الفتحة لاحتجت إلى الرجوع إلى أول الحلق، فكان فى ذلك انتقاض عادة الصوت بتراجعه إلى ورائه وتركه التقدم إلى صدر الفم والنفوذ بين الشفتين فلما كان فى إشمام الكسرة أو الضمة رائحة الفتحة هذا الانقلاب والنقض ترك ذلك فلم يتكلف البتة(٢)، وأما انتحاؤهم بالضمة نحو الكسرة - وإن كان فيه رجوع إلى الوراء - فلأن بين الضمة والكسرة من القرب والتناسب ما ليس بينهما، وبين الفتحة وهو مع ذلك قليل مستكره، ألا ترى إلى كثرة قِيل وبِيع وغِيض وقلة نحو مذعُور وابن بُور، وقد

---

(٣) الأشمونى ٢/ ٦٣، واللهجات العربية، د. نجا ٧٧.   (٢) سر الصناعة ١/ ٦٠، ٦١.

علق ابن جنى على ذلك بقوله: «فهذا قول من القوة على ما تراه»، وقد أدلى بحجة أخرى لهذا الامتناع من الانتحاء بالضمة والكسرة نحو الفتحة فقال: «وإن شئت فقل: إن الضمة وإن نحى بها نحو الكسرة فلقربها منها، وبعدت الفتحة منها، فلم يجز فيها ما جاز فى الكسرة القريبة، فلما بطل ذلك فى الضمة حُملت الكسرة عليها، لأنها أختها وداخلة فى أكثر أحكامها، ويشهد لهذا القول أنهم أدغموا النون فى الميم لاشتراكهما فى الغنة والهُوِىّ فى الفم، ثم إنهم حملوا الواو فى هذا على الميم، بأنها من الشفة، وإن لم تكن النون من الشفة، ثم إنهم أيضًا حملوا الياء على الواو فى هذا لأنها ضارعتها فى المد وإن لم تكن معها من الشفة، فأجازوا إدغام النون فى الياء، فالميم نحو قولهم: من مّعك، والواو نحو قولهم من وّعدت، والياء نحو قوله عز اسمه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ... ⑧﴾ [البقرة]، فكما جاز حمل الواو على الميم، ثم حمل الياء على الواو فيما ذكرنا، كذلك أيضًا جاز أن تحمل الكسرة على الضمة فى امتناع إشمامها شيئًا من الفتحة، ولهذا نظائر كثيرة فى كلامهم أتركها خوف الإطالة»[1].

والدليل الأول قوى فعلا، لأن الرجوع إلى الخلف صعب على اللسان، وجواز ذلك بين الضمة والكسرة راجع إلى اشتراك الكسرة والضمة فى معنى الثقل، وطبيعة التكوين المخرجى، الأمر الذى يجعل كلا منهما يشبه الآخر من هذا الاتجاه، فيصير الجو مهيئًا لاستقبال واسطة بينهما عن طريق الإمالة، فأما الفتحة فهى حركة مستعذبة وهى طريق آخر غيرهما، وقد أوضح ابن جنى قبل ذلك أن بين الياء والواو قربا ونسبا ليس بينهما وبين الألف، ألا تراها تثبت فى الوقف فى المكان الذى تحذفان فيه وذلك قولك: هذا زيد، ومررت بزيد، ثم تقول: ضربت زيدا، وتراهما تجتمعان فى القصيدة الواحدة ردفين، فلما كان بين الياء والواو هذا التقارب، وتباعدتا من الألف هذا التباعد وغيره، جذبت كل واحدة منهما صاحبتها إليها، لأنهما صارتا بما ذكرناه من أمرهما بمنزلة الحرفين يتقارب مخرجاهما نحو الدال والطاء والذال والظاء.. ولما تباعدت الألف منهما

(١) نفسه ١/ ٦١-٦٣.

تباعدت الفتحة أيضًا من الكسرة والضمة[1]، والكسرة والضمة من أصوات اللين الضيقة فهما متشابهان[2]، وسنتناول ذلك فى حديثنا عن أصوات اللين العربية.

وأما الدليل الثانى الذى أكد فيه حمل الكسرة على الضمة فغير دقيق، وإن كان يخدم الغرض نفسه، لأنه يعضد الدليل الأول، فقد صرح بأن الكسرة أخت للضمة والسبب الحقيقى لامتناع ذلك فى الكسرة هو أن الرجوع إلى الخلف أمر مستصعب على النطق، وقد صرح ابن جنى نفسه بأن هذا الرجوع - ولو من الضمة إلى الكسرة على شدة القرب بينهما - أمر مستكره وقليل[3]، وهذا هو الداعى أيضًا لامتناع الرجوع من الضمة أو الكسرة إلى الفتحة للبعد الصوتى وعدم القدرة على مباشرة النطق على الهيئة المطلوبة، وأما حمل الكسرة على الضمة على النحو الذى شرحه ابن جنى فلا مجال له هنا فى مقام معالجة الأصوات وتحديد مواقعها وطريق خروجها، وعلى كل حال فقد كان ابن جنى بارع الاستدلال على (تشخيص) هذه الظاهرة اللغوية، واتجاه الاستعمال العربى بالنسبة لها، وقد كان اتضاح هذه الظاهرة على هذا النحو من خصائص ابن جنى وفلسفاته اللغوية.

والقدماء ومنهم ابن جنى قد وصفوا لنا هذه الظاهرة، وأوضحوا أسبابها على نحو فتح الطريق أمام المحدثين ليقولوا كلمتهم بحسب نظريات علم الأصوات[4]، فقد ذكروا لها أسبابا عدة، وجعلوا السبب الرئيسى منها هو التناسب، يقول الأشمونى: «اعلم أن الغرض الأصلى منها هو التناسب، وقد ترد للتنبيه على أصل أو غيره كما سيأتى، وذلك أن النطق بالفتحة والألف تَصعُّد واستعلاء، وبالكسرة والياء انحدار وتَسفُّل، فإذا أملت الألف قربت من الياء وامتزج بالفتحة طرف من الكسرة، فتصير الأصوات من نمط واحد فى التسفل والانحدار[5]، وهذا هو ما عبر عنه عالمنا أبو الفتح بقوله: «الضرب من تجانس

(١) نفسه ١/ ٢٣، ٢٤. (٢) دراسات فى فقه اللغة ١٠١. (٣) سر الصناعة ١/ ٦١، ٦٢.

(٤) انظر فى اللهجات العربية، د. أنيس ٥٤-٥٩. وغيرها، وانظر رسالة الدكتور شلبى للماجستير عن الإمالة فى القراءات واللهجات العربية.

(٥) الأشمونى ٤/ ٢٢٠، ٢٢١، ومنار السالك ٢/ ٣٥٠، والنشر ١/ ٣٥.

الصوت»[1]، وهو مراد العرب كما صرح به أستاذنا الدكتور نجا حين قال: «وقد لجأ إليها العرب لإيجاد التناسب والتجانس بين حروف الكلمات وحركاتها[2]، وتميل إليه القبائل التى تتوطن وسط الجزيرة وشرقيها، وأشهر قبائل هذه البقعة هى تميم وأسد وطىء وبكر بن وائل وعبد القيس، ولكن بعض القبائل لجأت إلى الفتح توفيراً للجهد العضلى فى النطق، وهى القبائل التى تتوطن غربى الجزيرة، ويدخل فى نطاقها قبائل الحجاز، كقبائل قريش والأنصار وثقيف وهوازن وسعد بن بكر وكنانة[3]، وهذا يحمل الإشارة إلى أن العرب كانت تتخير لنطقها ما يتفق وطبيعتها الاجتماعية.

المظهر الثالث: السكون والحركة فى الصوامت الحلقية

١- قرئ: قرَح[4]، فى قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ... ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران]، وجهَره[5]، فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ... ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة]، وزهَرة[6]، فى قوله تعالى: ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴿١٣١﴾﴾ [طه]، ويوم البعَث[7]، فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ... ﴿٥٦﴾﴾ [الروم]، وهَنا على وهَن[8]، فى قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ... ﴿١٤﴾﴾ [لقمان]، والضأَن[9]، فى قوله جل شأنه: ﴿مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ... ﴿١٤٣﴾﴾ [الأنعام]، كل شىء فى القرآن محركا.

٢- قال الشجرى: محَموم - يعَدو - تغَذو[9]، وقال غيره من بنى عقيل: اللحَم، نحَوه[9].

---

(١) سر الصناعة ١/٥٨. (٢) اللهجات العربية ٧٥.

(٣) نفسه ٧٥، ٧٦، وإتحاف فضلاء البشر، ص٧٤، وشرح المفصل ٩/ ٥٤، ففيهما أن الإمالة لغة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس، والفتح لغة أهل الحجاز.

(٤) المحتسب ١/١٦٦. (٥) نفسه ١/ ٨٤.

(٦) نفسه ٢/ ١٦٦. (٧) نفسه ٢/ ١٦٧.

(٨) نفسه ١/ ٢٣٤. (٩) نفسه ١/ ٨٤.

توجيه هذه اللهجات:

يوجه ابن جنى فتح حرف الحلق الساكن فى إحدى اللهجات العربية بما أثبته علم اللغة الحديث، وهو «أن حرف الحلق بعد صدوره من مخرجه يحتاج إلى اتساع مجراه فى الفم، ولذلك ناسبه من أصوات اللين أكثره اتساعًا وهو الفتحة»[1]، يقول ابن جنى مشيرًا إلى ذلك: «لا أبعد من بعد أن تكون الحاء لكونها حرفًا حلقيًا يفتح ما قبلها كما تُفتَح نفسُها فيما كان ساكنا من حروف الحلق نحو قوله: فى الصخْر الصخَر، ولعمرى إن هذا عند أصحابنا ليس مرادًا راجعًا إلى حرف الحلق لكنها لغات، وأنا أرى فى هذا رأى البغداديين فى أن حرف الحلق يؤثر هنا من الفتح أثرًا معتدًا معتمدًا، فلقد رأيت كثيرًا من عقيل لا أحصيهم يحرك من ذلك ما لا يتحرك أبدًا لولا حرف الحلق، وهو قول بعضهم نحَوه يريد نحْوه، وهذا ما لا توقف فى أنه أمر راجع إلى حرف الحلق لأن الكلمة بنيت عليه البتة»[2]، ويقول أيضًا: «ومذهب الكوفيين فيه أنه يحرك الثانى لكونه حرفًا حلقيًا، فيجيزون فيه الفتح وإن لم يسمعوا كالبحْر والبحَر والصخْر والصخَر، وما أرى القول من بعدُ إلا معهم والحق فيه إلا فى أيديهم»[3]، وهو بهذا يخرج على مذهب البصريين الذين يعدون ذلك لغات لا يصح القياس عليها، فقد حكى هو نفسه رأيهم حين قال: «مذهب أصحابنا فى كل شىء من هذا النحو مما فيه حرف حلقى ساكن بعد حرف مفتوح أنه لا يحرك إلا على أنه لغة فيه كالزهْرة والزهَرة، والنهْر والنهَر، والشعْر والشعَر، فهذه لغات عندهم كالنشْر والنشَر والحلْب والحلَب والطرْد والطرَد»[3]، «وهذا قد قاسه الكوفيون وإن كنا نحن لا نراه قياسا»[4]، ويلاحظ أنه فى الخصائص يذكر ما ينم عن موافقته لمدرسة البصرة كما يفهم من العبارة السابقة بقياسه وعدم قياسه، وكما يفهم من قوله قبلها: «وسمعت الشجرى أبا عبد الله غير دفعة يفتح الحرف الحلقى فى نحو يَعدو وهو محَموم ولم أسمعها

---

(١) فى اللهجات العربية، د. أنيس ١٣٥، ط٢، ص١٥٨.

(٢) المحتسب ١/ ١٦٧.

(٣) المحتسب ١/ ٨٤، وانظر ٢/ ١٦٦.

(٤) الخصائص ٢/ ١٠.

من غيره من عقيل، فقد كان يرد علينا من يؤنس به ولا يبعد عن الأخذ بلغته، وما أظن الشجرى إلا استهواه كثرة ما جاء عنهم من تحريك الحرف الحلقى بالفتح إذا انفتح ما قبله فى الاسم على مذهب البغداديين. . لكن مثل يعَدو وهو محَموم لم يرو عنهم فيما علمت فإياك أن تخلد إلى كل ما تسمعه[1]، وقد أيد رأى البصريين فى المنصف[2]، ولكننا نلاحظ أيضًا - مما ذكره فى المحتسب - ما ينم عن موافقته للكوفيين والبغداديين بقياس فتح حرف الحلق الساكن، إذ يقول: «وأنا أرى فى هذا رأى البغداديين» ثم يقول أيضًا: «وما أرى القول من بعد إلا معهم والحق فيه إلا فى أيديهم»، ولا تناقض بين هذين الموقفين من ابن جنى فالثابت أنه ألف المحتسب فى آخر حياته، وذلك يعطينا أمرين:

١- أنه سمع كثيرًا من عقيل لا يحصيهم تفتح حرف الحلق الساكن[3]، وقبل ذلك لم يكن سمع مثله من غير الشجرى[4] كما يتبين من نص كلامه.

٢- كان لاستقراره الذهنى[5] أثر كبير فى تعليل هذه الظاهرة وغيرها، بحيث أدرك أن لحرف الحلق أثرًا معتدًا معتمدًا فى تحويل سكونه فتحة كما هو نص كلامه أيضًا، وقد أكد ابن جنى ذلك حين قال: وأنا أرى[3]، وإن الحق مع البغداديين وفى أيديهم[6]، وأنه أمر راجع إلى حرف الحلق لأن الكلمة بنيت عليه[3]، وهو موجود فى أخوات العربية كالعبرية نحو BaAal (بعَل)، NaAal (نعْل)، وكذلك الصامت الذى قبله فالفعلان الماضيان Shama'A، Patah كان ينبغى أن يكون مضارعاهما على قياس الثلاثى الصحيح Yeshmou بضم الميم وYeptoh بضم التاء لكن العين فيهما تفتح لصوت الحلق الواقع لاما بعدها Yeshma'A، Yeptah وبذلك يبعد أن يكون توثيق ابن جنى للقراءات الشاذة هو السبب فى هذين الموقفين المتعارضين على ما ذهب إليه الدكتور شلبى من أنه «استعان بالمذاهب الأخرى ووجد فيها مقنعًا ومحتجًا»[7].

(١) نفسه نفس الصحيفة. (٢) انظر، ص ١٣١ من كتابنا. (٣) المحتسب ١/١٦٦، ١٦٧.
(٤) الخصائص ٢/ ١٠. (٥) أبو على الفارسى، د. شلبى، ٣٧٢.
(٦) المحتسب ١/ ٨٤. (٧) أبو على الفارسى ٣٧١.

وقد نسب ابن جنى هذه اللهجة، وهـى فتح خرف الحلق الساكن، إلى بنى عقيل، وبين أنه فاش فيهم، يقول: «رأيت كثـيرًا من عقيل لا أحصيهم يحرك من ذلك ما لا يتحرك أبدًا لولا حرف الحلق، وهو قول بعضهم نحَوه يريد نحْوه»[1]، ويقول: «سمـعت عامة عقـيل تقول ذاك ولا تقف فيه سـائغًا غير مسـتكره حتى لسمـعت الشجرى يقول: أنا مـحَموم بفتح الحـاء وليس أحد يدعى أن فى الكلام مفَعولا، وسمعته مرة أخـرى يقول: -وقد قال له الطبيب مص التفاح وارم بثفله- والله لقد كنت أبغى مـصّه وعِلْيَته تغَذو بفـتح الغين ولا أحد يدعى أن فى الكلام يفَعل بفتح الفاء، وسمعت جمـاعة منهم - وقد قيل لهم قد أقيمت لكم أنزال[2] من الخبز - قالوا: فاللحَم يريدون اللحْم بفتح الحـاء، وسمعت بعضهم وهو يقول فى كلامه نحَوه بفتح الحاء[3]، ويعترف ابن جنى بكثرة ذلك عن بنى عقيل[4].

ومن ذلك يتضح أن فتح حـرف الحلق الساكن من خصائص لهجـة عقيل، وأبو حـيـان ينسب تلك الظاهرة إلى بعـض بنى بكر بن وائل[5]، وتثـبت كـتب البلدان أن بنى عـقـيل كانوا يسكـنون البحـرين[6]، وأن بنى بكر بن وائل كـانوا يسكنون اليـمامة إلى البـحرين[7]، ومن هذا نفهم (سـر التشابه فى اللهـجة بين القبيلتين)[8].

وهناك لهجات متـعددة تتصل بالنحو والصرف وغيـرهما من نواح لغوية لا تخرج عما ذكرنا من تحليل لغوى فلم نر داعيا إلى القول فيها.

---

(1) المحتسب 1/166.
(2) هو ما يهيأ للنزيل.
(3) المحتسب 1/ 84، 85.
(4) الخصائص 2/ 9.
(5) البحر 3/ 247.
(6) نهاية الأرب 365، 366.
(7) صفة جزيرة العرب 169، ونهاية الأرب 178.
(8) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية، ص113.

نتائج البحث

إن دراسة ابن جنى للهجات لا تقل شأنا عن الدراسات الحديثة، وقد عرضنا لذلك فى شىء من التفصيل، فبينا الأسس الأولية لتلك الدراسة، وكيف تنبه لها، فبحث الكلام والقول واللغة واللهجة، وقدم صورة رائعة لأسرار استعمالها على نحو معجمى واشتقاقى، وقد استدعى البحث المقارنة بين أجزاء الكلام عند القدامى والمحدثين، فأثبتنا بالدليل صحة تفسير الأقدمين ومفاهيمهم، كما أثبتنا أن كلمة لغة عربية أصيلة مع الاشتراك فى لفظها بين العرب وغيرهم، وفرقنا بينها وبين اللهجة مع بيان خصائص كل منهما، وكيف تصير اللهجة لغة مستقلة لعوامل معينة تطرأ عليها، ثم عرضنا لعوامل الانقسام فى اللغة وتفرع اللهجات العربية وتنوعها وموقف ابن جنى منها، وهو فى بيانه للأسباب الداعية لذلك كالمحدثين تمامًا، وقد نظر إلى الاختلاط بين العرب وفرض الاحتمالات الممكنة لانتقال اللغة بينهم، ووصل من هذه النظرات إلى إمكان انتقال لسان العربى، فينشأ من ذلك تداخل اللغات (اللهجات)، وقد وافقه على هذا المبدأ بعض المحدثين وهاجمه بعضهم، وقد وقفت بين هؤلاء وهؤلاء أستعرض الأدلة والشواهد حتى تأكد لى صحة ما ذهب إليه ابن جنى.

كما عرضنا لمصادر اللهجات ومظاهرها فى الدراسات العربية اللغوية، واهتمام العلماء بها، وبينا أن ابن جنى لم يكن نحويا عاديا يجمع ثم يكتب بطريقة تقليدية، بل اعتمد على مصادر موثوق بها، فى الوصول إلى هدفه، وهو مشافهة الأعراب، وهو يأتى باللهجات ليبين خصائص العربية، وقد تتبعنا بعضها، وذكرنا قبائلها المشهورة فى كتبه، وكيفية توجيهه لها، ومدى مطابقته لأحدث الدراسات اللهجية، بيد أنه لم يكن ليربط اللهجة بالبيئة التى عاشت فيها، فتكفلنا بعمل ما تركه للمقارنة بين النتائج التى توصل إليها ابن جنى وعلماء اللغة فى العصر الحديث حتى نتأكد من صحة ما وصل إليه، واستعنا بكتب البلدان لبيان أثر البيئة البدوية والحضرية فى ظهور هذه اللهجة أو تلك عند هؤلاء القوم دون

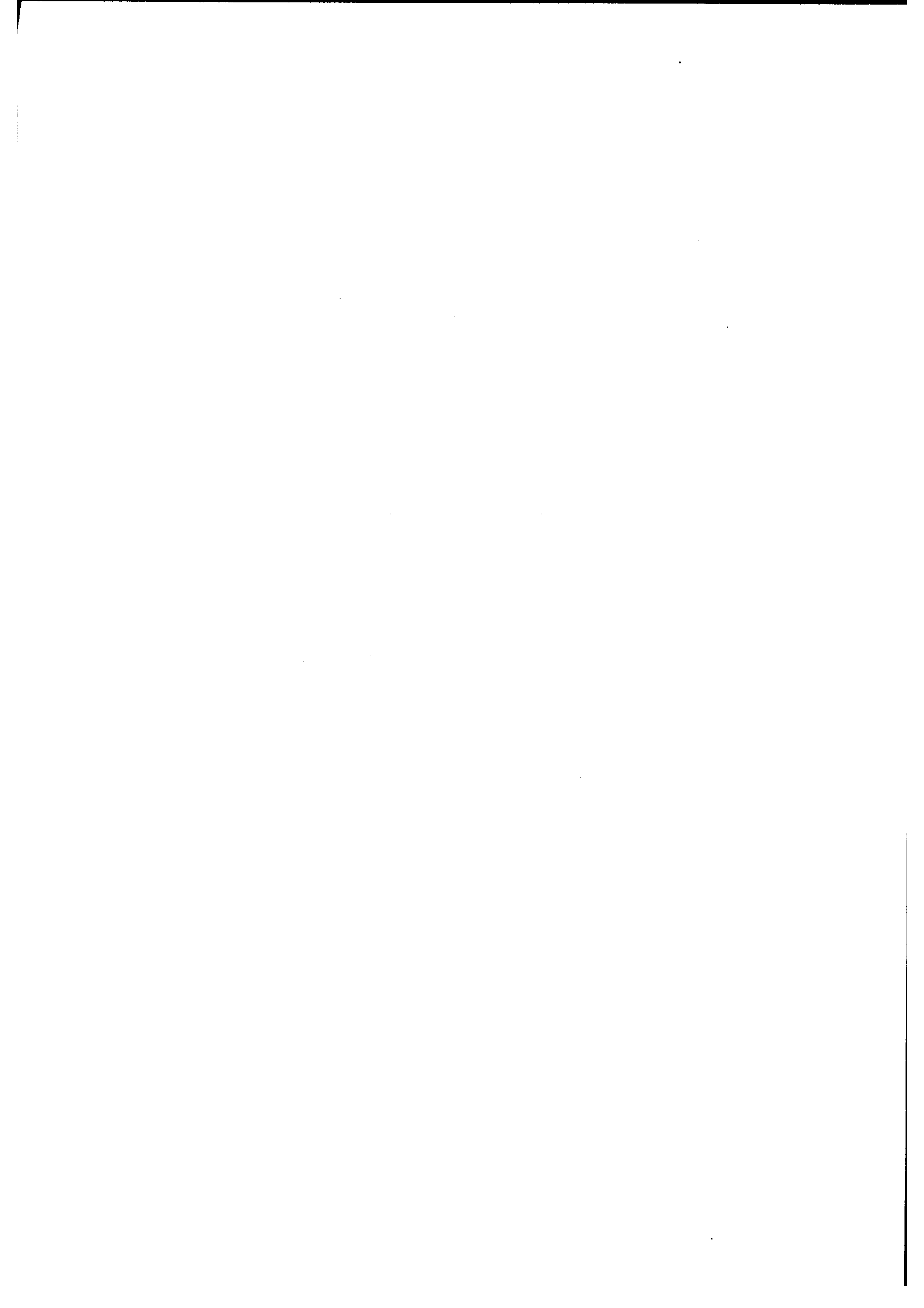
غيرهم، وبهذا قومنا المناهج التى ثبتت بين أيدينا، والنتائج التى وصلت إلينا، وقد لاحظنا على ابن جنى أنه تغاضى فى بعض الأحيان عن نسبة اللهجات إلى ذويها، أو نسبها إلى بعضهم دون بعض، ولعل ذلك لأنها وإن اعتد بها قد صهرت فى بوتقة واحدة فى اللغة المثالية، فهو يرى «قوة تداخل هذه اللغة وتلامحها واتصال أجزائها وتلاحقها، وتناسب أوضاعها، وأنها لم تقتعث اقتعاثا ولا هيلت هيلا، وأن واضعها عنى بها وأحسن جوارها وأمدّ بالإصابة والأصالة فيها»[1]، وهذه النظرة أوقعته كما أوقعت غيره من الباحثين القدماء فى تكلف التخريج لبعض ظواهر اللهجات ليخضعها للناموس العام ولو اكتفوا بأنها لهجة عربية خاصة لكان ذلك موقفًا سديدًا[2].

(١) الخصائص ١/ ٣١٢.

(٢) انظر مثلا تخريجهم وتخريج ابن جنى لبعض القراءات مثل ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ ... ﴿٦٣﴾﴾ [طه]، فى قراءة من شدد النون فى إنَّ. ومثل: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ... ﴿١١﴾﴾ [الكهف] فى قراءة (مؤمنان)، فقد تكلفوا بوجوه نحوية كثيرة. الأشمونى مع الصبان ١/ ٧٩، والتصريح مع حاشية يس ١/ ١٢٧، والمحتسب ٢/ ٣٣، ٣٤، والخصائص ٢/ ١٤، والبحر ٦/ ٢٥٥.

الباب السادس

القياس اللغوي



العرب الذين يحاكون

اهتم العلماء بدراسة الألفاظ المأخوذة عن العرب الخلص، دراسة مستفيضة، خرجوا منها بنتائج تبلورت فى شكل قواعد ونظم، وهم بذلك لم يخترعوا شيئًا من تلك القواعد، بل استنبطوا من الكلام العربى الأصيل خصائص الظواهر اللغوية المطردة، ويسوقنا هذا إلى الحديث عن العرب الذين أخذ عنهم رواة اللغة وتبعهم العلماء فى وضع القوانين العربية.

لقد تحرى العلماء الذين جمعوا اللغة، والذين وضعوا قواعدها من بعدهم، اعتماد القبائل الفصيحة التى لم تختلط بالأعاجم، وهذه القبائل تتمثل فى تميم وقيس وأسد وطيء، وكانوا يسكنون شرقى الجزيرة وأوسطها، وهى قبائل بدوية يطلق على لهجاتها أحيانًا «لغة نجد»، كما تتمثل فى القبائل التى كانت تسكن فى غرب الجزيرة (المدينة وما حولها ومكة وما يجاورها)، ويطلق على لهجاتها «لغة الحجاز» وهى قبائل حضرية، فهاتان المجموعتان الشرقية والغربية هما مصدر اللغة عند الرواة، وواضعى القواعد العربية، كما ذكر الأستاذ عبد المجيد عابدين[1]، والمتأمل للمجموعة الغربية يرى أن اللهجة القرشية التى عدّ أهلها عربًا خلصًا كانت تضم بعض الظواهر الأعجمية، لاتصال أهلها بفارس والروم وغيرها، فهى قبائل أخذت بمبادئ الحضارة، وأجرت علاقات وطيدة مع جيرانها والمتعاملين معها، ومن هنا حمل الأستاذ عابدين على العلماء العرب فى عدم أخذهم عن القبائل المتطرفة للسبب السابق، وقال: «إن الأساس الذى ساروا عليه فى قواعد اللغة يهدم أو يتنافى مع هذا السبب؛ ذلك أن لغة قريش على ما عرفت به من الفصاحة كانت شديدة التأثر بالمؤثرات الأجنبية[2]. . فإذا كان المقصود بفصاحة قريش تجلى روح البداوة فى لغتهم، فذلك ما لا نتفق فيه معهم، لأن لغة قريش

(١) المدخل إلى دراسة النحو العربى ٤٤، ٤٥.

(٢) نفسه ٤٦.

لم تكن لغة بداوة»[1] ويوافقه الدكتور (الصالح) فلا «ينكر حضرية قريش ولا تأثرها بفارس والروم أمتى الحضارة فى تلك الحقبة من التاريخ»[2].

ويفسر الأستاذان (عابدين والصالح) سبب الأخذ بلغة قريش بما أراه متفقًا من قريب أو بعيد مع رأى القدماء فى الهدف العام، ذلك أن الأستاذ عابدين يقول: «السبب هو أنها كانت لغة القرآن ولا شك أنها كانت أرقى لغة فى داخل الجزيرة العربية»[1]، والأستاذ الصالح يقول: «ولهجة قريش - فوق الذى أحيطت به من مظاهر التقديس - انفردت حقا بمزايا حفظت لها شخصيتها، وأتاحت لها من أسباب التكامل ما لم يتح لغيرها؛ فبُعدها الذى وصفه ابن خلدون عن بلاد العجم من جميع جهاتها كان حاجزاً طبيعيا دون كثرة اتصالها بالأجانب، فلم يداخلها من لكنة الأعاجم ما داخل القبائل المتطرفة التى كانت على اتصال وثيق بمن حولها»[3]، وعلى هذا فلا يقبل قول الأستاذ عابدين «إن تعليل القدامى بأنهم لم يأخذوا عن القبائل المتطرفة لاتصال أصحابها بالأجانب مجرد استنتاج من المتأخرين لتسويغ موقف اللغويين السابقين وليس باستنتاج موفق كما رأينا»[4]، بل هو بذلك يناقض نفسه، لأنه اعترف بأن لهجة قريش أرقى لهجة فى الجزيرة العربية، واعترف ابن خلدون والصالح ببعد منطقة الحجاز عن بلاد العجم، الأمر الذى حفظ لها كيانها اللغوى وخصائصه المميزة، فتعليل القدماء بأن اللغويين اقتصروا على القبائل الفصيحة التى لم تختلط بغيرها منعا لوقوع الفساد فى مواد اللغة تعليل دقيق، وليس مجرد استنتاج كما ادعى الأستاذ عابدين، بل يحكى لنا أستاذنا الدكتور نجا فى كتابه المعاجم اللغوية ما يؤكد أن اللغويين العرب تشددوا فى التحرى عن الفصيح حتى «لقد منعوا استعمال كلمات فصيحة لأنهم لم يطلعوا على مصادقها من كلام العرب»، ومما رواه أستاذنا: أن الأصمعى خطأ من قال:

---

(١) نفسه ٤٧.

(٢) دراسات فى فقه اللغة، ص١١١.

(٣) نفسه ١١٣، وانظر مقدمة ابن خلدون، ط بولاق، ١٢٨٤هـ، ج١، ص٤٨٧.

(٤) المدخل إلى دراسة النحو العربى، ٤٦.

شتان ما بينهما وذكر أن الصحيح شتان ما هما، قال أبو حاتم: أنشدت الأصمعى قول ربيعة الرقى:

لشتَّانَ مَا بَيْنَ اليَزيدَينِ فى النَّدَى   يَزيدِ سُلَيمٍ والأغَر بنِ حاتمِ

فقال الأصمعى: ليس بفصيح، وقال الأزهرى فى التهذيب والجوهرى فى الصحاح فى مادة (شتت): ليس قول ربيعة بحجة، إنما هو مولد، والحجة قول الأعشى:

شتَّانَ مَا يَومِى علَى كُورِهَا   ويوم حيَّان أخِى جابِرِ

ولكن هذا المنع للاستعمال الأول غير صحيح، لورود نظائره فى فصيح الكلام، ولكن غيرتهم على اللغة وإخلاصهم لها جعلهم يتشددون فى قبول الوارد، ولكنهم لو اطلعوا على المسموع لأجازوه كقول البعيث:

وَشَتَّانَ مَا بَيْنِى وبَيْنَ رُعَاتِها   إذَا صَرْصَرَ العُصفُورُ فِى الرُّطب الثُّعْدِ[1]

ولذلك يقول الدكتور الصالح: ليس لهذه الحيطة فى أخذ اللغة إلا تفسير واحد هو الحيلولة دون تسرب الدخيل إلى العربية، ما لم يطبع بطابع الفصحى، تبعًا لأساليب تعريبها، لأن مثل هذا التسرب غير الإرادى وغير المقصود يفسد على الباحثين فهم أصالة اللغة وشخصيتها، فقد يستنبط منه خطأ أن من خصائصها أوجها لا تلزمها، أو صيغًا لم تجئ على أبنيتها لأنها لم تنبثق عنها، وإنما انتقلت إليها عن طريق العدوى اللغوية، بسبب القرب والجوار وما أكثر صورها وأشد أخطارها»[2]، ولذلك كما يقول أستاذنا الدكتور نجا: «امتنع رواة اللغة عن الأخذ عن القبائل التى أثر عنها الاختلاط، لأن قوة اللغة تتجلى فى العزلة التامة، وعدم الاختلاط بغير العرب»[3]، وهذا قد أوضحه عالمنا ابن جنى فى كتابه الخصائص،

---

(١) المعاجم اللغوية ٨، ولسان العرب ٢/ ٣٥٣، ٣٥٤.

(٢) دراسات فى فقه اللغة ١١٥.

(٣) اللهجات العربية ٤٥، وانظر مقدمة ابن خلدون، ط١٢٨٤هـ، ج١، ص٤٨٧، ٤٨٨، وانظر ص ٣٥٨ من كتابنا.

إذ يقول: «علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل، ولو عُلم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر»(١)، وقد تنبه علماء اللغة إلى هذا الملخط فلم يأخذوا عمن يكون مظنة الاختلاط واختلال الألسنة ولو كان من البداة، فبعد أن شاع اللحن واتسع الاختلاط لم يأخذ العلماء منهم شيئًا يتهمون فيه، بل أمسكوا عن الأخذ من البدويين حينما تسرب إليهم ما يخشى معه من اللكنة الأعجمية، وقد صاغ هذه الحقيقة أبو الفتح فى قوله: «وكذلك أيضًا لو فشا فى أهل الوبر ما شاع فى لغة أهل المدر، من اضطراب الألسنة، وخبالها، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها، لوجب رفض لغتها وترك تلقى ما يرد عنها»(١)، وقد ضرب ابن جنى مثلا واقعيا لهذه الحقيقة من عصره الذى اتسم بتلك السمة، وفشا خطل الألسنة بين البدو فيه. وندعه يروى القصة بنفسه، وكيف أنه لم ينخدع بفصاحة مصطنعة يقول: «وقد كان طرأ علينا أحد من يدعى الفصاحة البدوية، ويتباعد عن الضعفة الحضرية، فتلقينا أكثر كلامه بالقبول له، وميزناه تميزًا حَسُن فى النفوس موقعه، إلى أن أنشدنى يومًا شعرًا لنفسه، يقول فى بعض قوافيه: أشئؤها وأداؤها(٢) (بوزن أشععها وأدععها)، فجمع بين الهمزتين كما ترى، واستأنف من ذلك ما لا أصل له، ولا قياس يسوغه، نعم وأبدل إلى الهمزة حرفًا لاحظٌ فى الهمز له بضد ما يجب، لأنه لو التقت همزتان عن وجوب صنعة للزم تغيير إحداهما، فكيف أن يقلب إلى الهمز قلبا ساذجًا عن غير صنعة ما لا حظٌ له فى الهمز، ثم يحقق الهمزتين جميعًا، إن هذا ما لا يبيحه قياس ولا ورد بمثله سماع»(٣)، وابن جنى فى ذلك دقيق كل الدقة، وإن كان بعض المحدثين قد أورد نقدًا له فى كل من الفقرتين السابقتين.

---

(١) الخصائص ٢/ ٥.

(٢) الأول مضارع شأى القوم: سبقهم، وصوابه أشآها، والثانى مضارع دأوت للصيد: ختلته، وكأنه حذف الجار وصوابه أدآها.

(٣) الخصائص ٢/ ٥، ٦.

فالفقـرة الأولى الخاصة بشيوع اللحن فى أهل الحضـر، وجواز حدوثه عند البدو، واحتمال بقاء مـدينة على فصاحتها، قد عدّ الدكتور الصـالح ما تشير إليه عبارتها ،من إمكان بقـاء مدينة على فصاحتها، من قبـيل الفرض والخيال، يقول: «على أن فرض ابن جنى هذا كتب عليه أن يظل فرضا لا يزيد عن ذلك شيئًا، فما علمنا بأهل مدينة باقين على فـصاحتهم، بل رأينا أهل المدن أكثـر تعرضًا للحن، وفساد اللغة من البدو، ورأينا من البدو الفصـحاء أنفسهم من ينتقل لسانه إلى لغة فاسدة، فينكر العلماء عليه لغته، ولا يأخذون بها، ومن ذلك ما يحكى من أن أبا عمـرو استضعف فـصاحة أبى خَيرة لما سأله فقـال: كيف تقول: اسـتأصل الله عـرقاتهم؟ فـفتح أبو خَـيرة التـاء، فقـال له أبو عمـرو: هيهـات أبا خيـرة لان جلدُك[1]»، واعـتـقد أنه لا وجـه للدكـتـور الصـالح فى هذا النقـد، فقـد ذكـر الفيروزابادى فى القاموس (مادة عكد)[2] أن باليمن قرب زبيد جـبلا يسمى عكادا أهله باقون على اللغة الفصيحة. ويقول السيد مرتضى الزبيدى شارح القاموس[3]: إنهم لا يزالون على ذلك إلى زمنه وإنهم لا يسمحون للغريب أن يقيم عندهم أكثر من ثلاث ليال خـوفًا على لسانهم، والسـيد مرتضى كـانت وفاته سنة ١٢٠٥هـ، ويقول ياقوت فى معجم البلدان فى ترجمة (عكوتان)[4]، وجبلا عكاد فوق مدينة الزرائب، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم، لم تتغير لغتهم، بحكم أنهم لـم يخـتلطوا بغيـرهم من الحاضرة فى مناكـحتـهم، وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه، وقـد أشار إلى ذلك الأستاذ محمـد النجار محقق الخصائص[5].

وقد اعـترض على الفـقرة بأسـرها الأستاذ عـباس حـسن فى كتابـه (اللغة والنحو) «فـتجـويز ابن جنى أن يقع الخطأ ويشيـع فى أهل الوبر شيـوعه فى أهل

---

(١) دراسات فى فقه اللغة ١١٥، وحكاية أبى خيرة بالخصائص ٢/ ١٣.

(٢) ط. ١٢٧٢هـ، ١/ ٢٧٠، ٢٧١.

(٣) تاج العروس، ط١٩٦٦م، ج٢، ص٤٢٩.

(٤) ٣/ ٧٠٧.   (٥) التعليق ٢/ ٥.

الحضر مشكلة خطيرة تتفرع منها مشكلات جمة، فى مقدمتها غموض القياس الذى نرجع إليه فى الحكم على فرد بأنه فصيح، وعلى أهل مدينة أنهم أصحاب الكلام»، «ثم ماذا يقصد ابن جنى بعبارته؟ أيعنى السابقين من جاهليين وغير جاهليين فى حضرهم ووبرهم أم يعنى أهل المدر والحضر فى عصره فقط؟ إن ذلك يعنى الشك فى أرباب اللغة، فلا نعرف من نأخذ عنه ومن ندع، وإن كان الأخذ بكلام ابن جنى معناه أن نفحص عن حال كل متكلم، ولو كان فى عصر ابن جنى، بل بعده لنتبين منه سلامة القول، أو عدم سلامته، ثم نحكم عليه بمقتضى ما ينكشف عنه القول فهذا - أيضًا - يسلمنا إلى المشكلات السابقة، فلا ندرى من نرجع إليه، ومن هو صاحب القول السليم من الأولين العرب أهم أهل الجاهلية وحدهم أم هم وفريق آخر بعدهم؟ وما نهاية التحديد وما مداه؟ ثم أيخطئ الجاهليون أم لا يخطئون؟ ومن الحكم الذى يصلح لهذا؟ أسئلة عسيرة الجواب اضطرب فى شأنها كبار الباحثين»[1].

وهذه الثورة العنيفة لا داعى إليها، لأن ابن جنى براء من تلك التهم الموجهة إليه، فعبارته لا تعنى أكثر من بيان من تؤخذ عنهم اللغة وهم العرب الخلص، الذين لم يختلطوا بغيرهم، ولم يتسرب الفساد إلى ألسنتهم، وعلى هذا فلا يؤخذ عن الحضر أو البدو الذين لا يتصفون بذلك، وحديث ابن جنى خاص بعصره لا يتعداه إلى غيره، فلا يدخل فيه الجاهليون أو الإسلاميون أو الأمويون، وهذا واضح من قوله: «وعلى ذلك العمل فى وقتنا هذا لأنا لا نكاد نرى بدويا فصيحًا، وإن نحن آنسنا منه فصاحة فى كلامه لم نكد نعدم ما يفسد ذلك، ويقدح فيه، وينال ويغض منه»[2]، وبهذا يبطل ما ادعاه الأستاذ عباس من وجود مشكلات خطيرة، ومن تردده فى فهم المقصود من عبارة ابن جنى أهم الجاهليون أم غيرهم؟ فلا مشكلات ولا تردد، وعبارة ابن جنى تنبه - فقط - الباحث اللغوى أن يتحرى من يأخذ عنه، ويمعن النظر فى فصاحته وبيانه، وبخاصة بعد

(١) اللغة والنحو ١٢٤، ١٢٦ بتصرف.

(٢) الخصائص ٢/ ٥.

فساد السلائق الذى حدثت بوادره فى عهده، ولذا ضرب لنا المثل بالعربى الذى وضحت له رداءة لغته، وهو لا يعنى بأى حال من الأحوال تطبيق ذلك على من سبقوه من العرب، فلا معنى لأسئلة الأستاذ عباس أيخطئ الجاهليون أم لا يخطئون؟.. إلخ، وليست المسألة تستدعى إجابة صعبة تتطلب كبار الباحثين، وتستوقف تفكيرهم على حد دعواه السابقة.

ولعل الأستاذ عباسًا أسرف - فى نقده - حين ادعى أن «ابن جنى قد أخطأ فى كل الذى ذهب إليه من قصة ذلك الأعرابى فى الفقرة الثانية»، وقد فرض الأستاذ عباس أن ذلك الأعرابى إما أن يكون فصيحًا مستقيم اللسان كنظرائه من العرب فيجب أن يؤخذ عنه ويكون قوله (أشنؤها - أدأوها) صحيحا مقبولا، وإما أن يكون متهمًا فى فصاحته، وأصالته العربية، فلا يؤخذ بكلامه كغيره ممن لا يحتج بعربيتهم[1]، فكيف يعجب ابن جنى بعربى، ويصفه بفصاحة اللسان، ثم يرتد متهمًا إياه جارحًا له[2]، إن هذا - فى نظر الأستاذ - تناقض وخطأ، والباحث المنصف لا يرى فى ذلك تناقضًا ولا خطأ، فعالمنا ابن جنى يدعونا إلى تحرى الدقة فيمن نأخذ عنه بحيث لا تغرنا فصاحة مصنوعة يشوبها فساد الجبلة، فيجب الا نأخذ الأمور على ظاهرها، بل نتعمق ونتفحص ولا نتعجل فى الأخذ، فإن ذلك ربما أدى إلى خطأ لغوى جسيم، وقد حرص الرواة والعلماء على ذلك، فلم يكونوا - كما قال الدكتور الصالح - «لينخدعوا بمثل هذا البدوى أو يظلوا عاكفين على كلامه يتلقونه بالقبول، فما أسرع ما كان يفجؤهم منه ما ينال من فصاحته، ويغض من بيانه، ويقدح فيه، فإذا هم يرفضون لغته، ويمتنعون من التلقى عنه»[3]، فابن جنى لم يناقض نفسه، بل تبين له فساد لسان هذا العربى بعد تحر وتدقيق؛ لأنه لا يمكن للوهلة الأولى معرفة حقيقة الحال، فلم يكن هذا الشخص فصيحًا، ثم اتهمه ابن جنى، بل إنه غير فصيح من أول الأمر، إلا أنه

---

(١) اللغة والنحو ١٢٥.

(٢) نفسه ١٢٥.

(٣) دراسات فى فقه اللغة ١١٦.

خفي أولا ثم استبان أخيرًا، فلا خطأ ولا تناقض، وتلك هي الحنكة والدراية اللغوية التي يجب أن تتوافر لعالم اللغة، ولله در ابن جني عالما لغويا فذا.

وبناء على هذا المبدأ وهو الأخذ عن القبائل الفصيحة وترك غيرها اختلف العلماء الأقدمون في المقاييس التي يعرف بها الفصيح من غيره «فمن قائل إن نزول العربي الأمصار محقق الخطر على اللغة ولو قلت المدة وقل الاتصال فيها بالأعاجم، ومن مخالف لذلك مشترط طول الإقامة وكثرة الاتصال من غير بيان للطول والكثرة، ومن ثالث يقول: إن ذلك مشروط بإهمال الفصحى في ذلك المصر وبالتهاون فيها تهاونا تظهر أماراته بانتشار اللحن وذيوع الخطأ هناك، ومن رابع يرى أن الخطر المتوقع لم يتحقق إلا بعد قرن للهجرة، ومن مخالف يحدد لذلك قرنين أو ثلاثة»[1]، وأبو عمرو بن العلاء لا يعد الشعر إلا للمتقدمين.. وكان الأصمعي لا يحتج بشيء من شعر الكميت والطرماح ويعدهما مولدين[2]، وهكذا كان الأقدمون يتمسكون بالقديم، ويتبعهم النحاة، فكانوا يأخذون عن الجاهليين والمخضرمين باتفاق، واختلفوا في الأخذ عن المتقدمين من شعراء صدر الإسلام كجرير والفرزدق، أما الطبقة الرابعة وهم المولدون (الذين يلون عصر جرير والفرزدق إلى عصرنا هذا)، فالصحيح عندهم أنه لا يستشهد بكلامها إطلاقا[3]، وابن قتيبة يرى أن الشعر والعلم والبلاغة لا تقتصر على قوم دون آخرين ولا على زمن دون غيره، فكل قديم حديث في عصره[4]، وعلى هذا فيؤخذ عن الجاهليين والإسلاميين والمولدين إلى عصرنا هذا، ويدعي الأستاذ عباس حسن أن «لابن جني رأيًا يقارب هذا في ظاهره ويخالفه في حقيقته، فهو يرى أن الأخذ وعدمه ليس رهنا بالبدو أو الحضر، وإنما هو رهن بصحة اللسان وسلامته، فحيثما وجد فقد صح الأخذ وإلا فلا يصح، يتساوى في هذا أعراب

---

(١) اللغة والنحو ١١٨، ١١٩.

(٢) المزهر، ط١، ٢/٢٥٤، ٣٠٤.

(٣) المدخل إلى دراسة النحو العربي ٩٢، ٩٣.

(٤) الشعر والشعراء، ط دار المعارف، ١٩٦٦م، ص٦٢، ٦٣.

البادية وسكان المدن. وظاهر هذا الرأى هو الاتفاق مع ابن قتيبة أما حقيقة فالخلف بينهما واسع، فقد جوز ابن جنى أن يقع الخطأ ويشيع فى أهل الوبر شيوعه فى أهل الحضر»[1].

ويبدو لنا أن رأى ابن جنى لا يتفق مع رأى ابن قتيبة فى الاحتجاج بأقوال المولدين على اللغة والقواعد، والفرق الذى ذكره الأستاذ عباس ليس فرقًا فى الحقيقة، بل هو محل اتفاق من الطرفين، إذ كلاهما يشترط الفصاحة، وهى لا تتفق مع وقوع الخطأ سواء كان المتحدث بدويا أو حضريا، ولكن الفرق الجوهرى الذى لا يجعل رأى ابن جنى متفقًا مع ابن قتيبة هو أن ابن قتيبة يشترط للأخذ عن الشخص أن يكون فصيحًا فقط سواء كان فى عصور قوة اللغة أم لا، وسواء كان عربيًا أم غيره، وبهذا التحديد يجوز الاحتجاج بكلام المولدين الفصحاء «وطبقتهم تشمل ما بعد عصر جرير والفرزدق إلى عصرنا هذا ومنهم بشار وأبو نواس والمتنبى وغيرهم»[2]، وأما ابن جنى فمع اشتراطه الفصاحة بالنسبة للمأخوذ عنه يبدو أنه يشترط كذلك السليقة العربية، والسليقة يفسرها علماؤنا الأقدمون على أنها فطرة ترتبط بالجنس، وليس مجرد اكتساب للغة كما فسرها بعض الباحثين المحدثين، وابن جنى يسلك فى عداد هؤلاء القائلين بأن السليقة طبع، ويفهم ذلك من مواضع كثيرة من خصائصه «فمن العرب من يستعصم فيقيم على لغته ألبتة.. كما فى قصة أبى زياد السابقة[3]، فقد أنكر غير لغته على قرب بينهما، وقصة الأعرابى الذى قرأ على أبى حاتم بالحرم[4]، فقد ترك العربى متابعة أبى حاتم تمسكًا بلغته. ومن قصص ابن جنى مع الشجرى ما يشير إلى ذلك مثل قوله: «وسألته (يعنى أبا عبد الله الشجرى) يومًا فقلت له: كيف تجمع دكانًا؟ فقال: دكاكين قلت: فسرحانا؟ قال: سراحين. قلت: فقرطانا؟ قال: قراطين. قلت: فعثمان؟ قال: عثمانون، فقلت له: هلا قلت أيضًا عثامين؟ قال: أيش عثامين! أرأيت إنسانًا يتكلم بما ليس من لغته؟ والله لا أقولها أبدًا»[5].

---

(١) اللغة والنحو ١٢٢-١٢٤.
(٢) المدخل إلى دراسة النحو العربى ٩٢.
(٣) انظر ص٣٥٩من كتابنا.
(٤) انظر ص ٣٧٠ من كتابنا.
(٥) الخصائص ١/ ٢٤٢.

ولكن الدكتــور تمام حسان ينسب إلى ابن جنى القــول بأن السليقة اكتــساب بناء على فهمه عبارة «وكذلك أيضًا لو فشا فى أهل الوبر ما شاع فى لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبــالها وانتقاض عــادة الفصاحة لوجب رفض لغــتها وترك تلقى مــا يرد عنــها، وعــلى ذلك العــمل فى يومنا هذا، لأنــا لا نكاد نرى بدويا فصيحًا»[١]. ويعقب على ذلك الدكتور تمام بقوله: «فالفصاحة عند ابن جنى عادة لا أكثر ولا أقل أى أن الســليقة اكتســاب وتعود ولو أنها كانت فى نظــره طبعًا أو سجية أو نحيزة كما كــانوا يقولون - لما جعل ابن جنى فى أبواب خصائصه (باب فى العربى الفصيح ينتقل لسانه)»[٢].

والواقع أن ابن جنى من القــائلين بالطبع لا بالاكتــساب بدليل مــا سبق من أقواله، ولأنه وإن كان يجوِّز انتقال لسان العربى الفصيح فإنه أشار إلى صعوبة هذا الانتقال، وأنه لا يتحقق إلا بعد تكرار، وتكرار للغة الأخرى، وتواردها عليه كثيرًا «فإذا طال تكرر لغة غيره عليــه لصقت به ووجدت فى كلامه»[٣]، وقد قال: «إن الأعرابى الفصيح إذا عدل به عن لغته الفصيحــة إلى أخرى سقيمة عافها ولم يبهأ بها»[٤]، وتحدث عن الطبــاع العربية، وإرهاف حس العرب، وذوقــهم الأصيل فى فهم المعنى وعمل ما يقــتضيه، وروى قول عمارة الكلبــى وقد عيب عليه بيت من شعره فامتعض لذلك:

مــاذَا لقــينَا منَ المســتــعــربينَ ومنْ	قــيــاسِ نَحــوهِمُ هــذَا الَّذى ابتــدعُــوا
إنْ قُلتُ قـــافــيــةً بِكْرًا يكــونُ بهَـــا	بيتٌ خــلاف الذى قــاسُــوهُ أو ذَرَعُــوا
قــالُوا: لحنتَ وهذَا ليــسَ مُنْتــصــبًــا	وذاكَ خـــــفضٌ وهــذَا لَيْــس يرتــفعُ

(١) نفسه ٢/ ٥.	(٢) نفسه ٢/ ١٢، واللغة بين المعيارية والوصفية ٧٦.

(٣) الخصائص ١/ ٣٨٣، وهذا تبــعا لعوامل الاجتمــاع التى أشرنا إليها فى حديــثنا عن لقاء اللغات واللهجات فى البــاب السابق، وابن جنى كان مشــغوفًا بمشافهــة الأعراب الخلص ولم يأخذ عن غيرهم اللهم إلا فى المعانى كما سيأتى.

(٤) الخصائص ٢/ ٢٦، يقال بهأ بالشىء: أنس به وأحب قربه.

وَحَرَّضُوا بينَ عَبدِ اللهِ مِنْ حُمُقٍ ... وبينَ زيدٍ فطالَ الضَّرْبُ والوَجَعُ

كَمْ بينَ قَومٍ قَدِ احْتَالُوا لمنطقِهِمْ ... وبينَ قَومٍ علَى إعرابِهِمْ طُبِعُوا

ما كلُّ قَولِي مَشْرُوحًا لكمْ فَخُذُوا ... مَا تعرفونَ وما لَمْ تعرفُوا فدَعُوا

لأنَّ أَرْضِي أَرْضٌ لا تَشِبُّ بِهَا ... نَارُ المجُوسِ ولا تُبْنَى بِهَا البِيَعُ[1]

وبهذا ثبت أن ابن جنى - مع غيره من القدماء - يشترطون للأخذ عن الشخص أن يكون عربيًا بفطرته، وهذا يعنى أنه عربى الجنس، وموجود فى مدة معينة اتصف أهلها بالفصاحة وقوة اللغة، فلا حجة فى كلام المولدين كما ذكرنا آنفًا، هذا فى مجال رواية اللغة ووضع قواعدها، أما فى المعانى الأدبية فإن ابن جنى - كابن قتيبة - لا يمنع من الاستشهاد عليها بكلام المولدين، ويمكن فهم تفريقه بين الحالين مما ذكره بعد استشهاده على بعض المعانى بشعر للمتنبى[2] فقد فرق بين ألفاظ اللغة ومعانيها، فلا يقبل قول مولد فى الألفاظ، لأن هذا الموضع معتبر فيها، أما فى المعانى فيقبل، لأن المولدين يتناهبونها كالأقدمين[2]، ثم إنه يعترف بأن شعر المولدين مظنة الخطأ فى اللغة، فبعد أن وثق أبا نواس بأنه كانت له معرفة بعلم العرب، وخدم العلماء، وأخذ عنهم اللغة، وقرأ عليهم دواوين العرب روى قول بعض أهل العلم فيه: لولا ما كان يخلط شعره من الخلاعة لاحتج بشعره فى كتاب الله تبارك وتعالى، وفى حديث الرسول ﷺ[3]، فهذا يدل على اقتناعه الكامل بأنه لا يحتج بقول مولد فى اللغة وقواعدها، أما فى المعانى فلا بأس بالاعتراف بها، والنظر إليها[4].

وقد نقد المحدثون هذا الاتجاه وعدوه معوقًا لتقدم اللغة ومرونتها، يقول الدكتور أنيس: إن «قدماء العرب قصروا السليقة على العرب الخلص، وادعوا أن

---

(١) نفسه ١/ ٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) انظر ص ١٤٤ من كتابنا، والخصائص ١/ ٢٤، والمحتسب ١/ ٢٣١.

(٣) شرح الأرجوزة ٨، ٩ وانظر ص ١٨٢ من كتابنا.

(٤) أخذ ابن سنان برأى ابن جنى فالمولدون يجيدون المعانى ولكن لا يستشهد بشعرهم لسكناهم المدن ولذلك لم يؤخذ بشعر الكميت والطرماح لأنهما كانا حضريين، انظر سر الفصاحة ٣٢٧-٣٣٥.

أى أجنبى تعلم العربية لا يمكنه مهما يثابر ويجد أن يتقن اللغة كما يتقنها أهلها. . ولذا لم يروا فى شعر أبى تمام والمتنبى ما يؤهلهما لتلك السليقة اللغوية التى قصروها على قوم معينين، وقصروها على زمن معين، وبيئة معينة، فنشأ فى مخيلاتهم ما يمكن أن يعبر عنه بدكتاتورية الزمان والمكان»[1]، وأكثر المحدثين لا يربطون بين اللغة والجنس «فاللغة ملك من يتعلمها لا أثر للوراثة أو الجنس فيها؛ فالطفل الذى يولد من أبوين مصريين، وينشأ بعيدًا عنهما فى بيئة إنجليزية أو فرنسية يتكلم هاتين اللغتين بالسليقة، والطفل الفارسى الذى ينشأ فى جزيرة العرب بعيدًا عن أهله يتكلم العربية بالسليقة[2]، ولهذا جوزوا الأخذ بأقوال المولدين بحيث «تستنبط القواعد ممن يحافظون على اللغة من علماء وشعراء ما دام الشخص يلتزم بالمستوى الصوابى للمرحلة»[3]، «وإن شاعرًا كالمتنبى أو المعرى أو حتى الشعراء المحدثين المعاصرين لجدير بأ تستفاد منهم شواهد اللغة كما استفيد من آداب القدماء سواء بسواء، فلهؤلاء أفكار وتعبيرات تفيدنا فى تطور اللغة، وتكمل بعض مواطن النقص فى قواعدها»[4]، وهذا يتفق مع ما ذهب إليه ابن قتيبة، وما سار عليه الزمخشرى، فقد استشهد بشعر أبى تمام فى أوائل سورة البقرة، وقال: «وأبو تمام وإن كان محدثًا لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء العربية فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، الا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه بيت الحماسة، فيقنعون بذلك، لوثوقهم بروايته وإتقانه»[5].

ولكن يبدو أن توسيع نطاق من يؤخذ عنهم على هذه الصورة يخل بالطابع الأصيل للغة، وربما يؤدى إلى ذهاب خصائصها، وتلاشيها، فلا يعقل أن شاعرًا أو كاتبًا اختلط بالأعاجم، وزاد اختلاطه فى عصور التاريخ المتأخرة لا يعقل أنه لم

---

(١) من أسرار اللغة ٢٠، ٢١. وانظر التطور اللغوى التاريخى، د. السامرائى، ص٢٩.

(٢) اللغة (فندريس) ٢٩٨.

(٣) اللغة بين المعيارية والوصفية ٧٨.

(٤) المدخل إلى دراسة النحو العربى ٩٤.

(٥) الكشاف ١/ ٢٢٠، ٢٢١، ط ١٩٦٦م.

يتسرب إلى لسانه آثار أعجمية، ومهما يظهر من فصاحة الشاعر أو المتكلم العربى فلا شك أن طباع من اختلط بهم وطرائقهم فى التعبير وألفاظهم ستدخل إلى لغته وتعبيره، ويقول الإمام محمد الخضر «وكيف يحتج بأقوال المولدين وقد وقعوا فى أغلاط كثيرة لا يستطيع أحد تخريجها على وجه مقبول، فهذا أبو تمام يقول:

لعذلته فِي دِمنتينِ تَقَادَمَا ... مَمْحُوَّتينِ لزينبٍ وَسُعَاد

والصواب: تقادمتا، وهذا المتنبى يقول:

فإِنْ يكُ بعضُ الناسِ سَيْفًا لِدَولةٍ ... فَفِى النَّاسِ بُوقَاتٌ لها وَطُبُولُ

والصواب فى جمع بوق: بوق أو أبواق[1]، وهم مع ذلك قد يستعملون اكيب ليست من خصائص العربية فى شىء، كقول شوقى يخاطب سلاح الطيران:

يَا سِلاحَ العَصْرِ بُشِّرْنَا بِهِ ... كُلُّ عَصْرٍ بِكَمِيٍّ وَسِلاحْ

إِنَّ عِزًّا لَمْ يُظَلَّلْ فِى غَدٍ ... بِجَنَاحَيْكَ ذَلِيلٌ مُسْتَبَاحْ

فالفعل (يُظَلَّل) منفى بلم وزمنه مع هذا فى المستقبل بدليل (فى غد)[2] ومع تسليمنا بأن الطفل يكتسب اللغة التى يعيش فى أحضانها فإننا نرى أن ذلك يتأتى حينما ينشأ الطفل وحده (دون أبويه أو أحد آخر من أهله) فى بيئة أجنبية عنه، فإنه - حينئذ - يكتسب لغة المجتمع الذى يعيش فيه حتى تصير سليقة له، ونشأة الطفل بعيدًا عن أهله - على هذه الصورة - قليل وبخاصة فى الأزمان الماضية، ومن هنا يمكن أن نفهم إحجام علماء اللغة عن الأخذ عن غير العرب حتى من نشأ منهم فى البيئة العربية، لأنه - ولا ريب - متأثر بلغة أهله القدامى، ولذا كانت طريقة علماء اللغة العرب سديدة تتحرى الدقة حتى تبقى للعربية سماتها ومعالمها، وكان - لذلك - قرار مجمع اللغة العربية حكيمًا حينما حدد «أن العرب الذين يوثق بعربيتهم ويستشهد بكلامهم هم عرب الأمصار إلى نهاية القرن

(١) القياس فى اللغة العربية، ٣٦.

(٢) طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ٢٧.

الثانى، وأهل البادية من جزيرة العرب إلى آخر القرن الرابع»[1]، «وذلك لأن اللغة ظلت سليمة إلى هذا التاريخ وما ظهر خلال تلك المدة ضئيل يمكن الإغضاء عنه وهذا خير لتقدم اللغة»[2].

والذى تجدر الإشارة إليه هو عدم اهتمام اللغويين والنحاة اهتماما واسعًا بالاستشهاد على الظواهر اللغوية وقوانينها بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فالباحث يرى أنهم يأتون بالشواهد من مأثور الكلام شعرًا ونثرًا، وربما اعتمدوا فى تقعيد قواعدهم على شاهد واحد - كما هو معروف عن الكوفيين - وربما لم يعرف قائله، وقد يكون مصنوعًا، فقد أجاز الكوفيون دخول اللام على خبر لكنَّ واستشهدوا بهذا الشطر الذى لا تعرف له تتمة:

ولكننى من حبها لعميد[3]

وورد صريحًا أن سيبويه سأل اللاحقى: هل تعدى العرب (فَعِلا) بفتح الفاء وكسر العين؟ قال: فوضَعتُ له هذا البيت:

حَذِرٌ أمورًا لا تَضِيرُ وآمِنٌ　　مَا ليسَ مُنْجِيَهُ مِنَ الأقْدَارِ[4]

ومع ذلك فلم يهتموا بالاستشهاد بالقرآن الكريم كثيرًا وفى القليل النادر يعرجون على نصوص منه، فيستشهدون بآية بدلا من هذا البيت المجهول، أو هذه العبارات السقيمة، أو تلك التراكيب المصنوعة، ولو أنهم استشهدوا بالقرآن لرجعوا إلى النص الصحيح الأقدم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[5]،

---

(1) مجلة المجمع ١/ ٢٠٢، ٢٩٤، ٣٠٣.　　(2) اللغة والنحو ٢٤.

(3) ذكر هذا الشطر الثانى دون شطره الأول فى كتب النحو - كالمفصل وشرح الكافية وشرح الأشمونى - وقال ابن النحاس والعينى: «هذا البيت لا يعرف قائله ولا أوله ولم يذكر منه إلا هذا، ولم ينشده أحد ممن وثق فى اللغة، ولا عزى إلى مشهور بالضبط والإتقان، بيد أن ابن عقيل أورد له شطرًا أول هو (يلُومُونَنى فِى حُبِّ لَيلَى عَوَاذِلى) وفيه مخالفة للقاعدة المشهورة فى إلحاق علامة الجمع بالفعل إلى جانب دخول اللام فى خبر لكن فى الشطر الثانى. شرح شواهد الأشمونى للعينى ١/ ٢٨٠. وشرح الكافية ٢/ ٣٣٢، والمفصل وشرحه ٧/ ٦٤، وشرح ابن عقيل مع حاشية السجاعى، ص٩٤.

(4) نفسه ٢/ ٢٩٨، والكتاب تحقيق الأستاذ هارون ١/ ١١٣.

(5) المدخل إلى دراسة النحو العربى ٩٦، ٩٧.

كذلك جرى جمهور النحاة على عدم الاحتجاج بالحديث الشريف كثيراً فى تقرير الأحكام العربية لروايته بالمعنى، وكان الأولى بهم الاعتداد به دائمًا حجة فى اللغة وبخاصة بعد أن دُوِّن «وتدوين الأحاديث وقع فى الصدر الأول حين كان أولئك الرواة الذين يتصرفون فى ألفاظ الحديث - على تقدير تصرفهم - ممن يوثق بهم، ويحتج فى أحكام الألفاظ بعباراتهم»[1]، وقد أدى عدم اهتمام كثير من اللغويين والنحاة بهذين المصدرين فى الاحتجاج الواسع بهما إلى وجود مشكلات لغوية كثيرة، وتأويلات معقدة ربما كان من السهل التخلص منها بالرجوع إلى هذين الأثرين اللذين يمثلان اللغة فى صورتها المثالية.

وإذا كان هؤلاء النحاة واللغويون قد أقلوا من استشهادهم بالقرآن والحديث فإن عالمنا ابن جنى قد اعتمد عليهما اعتماداً كبيراً فى الاستشهاد على مسائل اللغة والنحو، فيستشهد على أن النضخ أقوى من النضح بقول الله سبحانه ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ [الرحمن][2]، وعلى معنى الأز وتقاربه من الهز بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم][3]، ويستدل على حذف المفعول به بقوله عز حكمه: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ... ﴿٢٣﴾﴾ [النمل] أى أوتيت منه شيئًا، وعليه قول الله سبحانه ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم]، أى غشاها إياه فحذف المفعولين جميعًا، ثم يأتى بعد ذلك بما روى عن العرب من شعر[4]، كما يستدل بالحديث الشريف على ذلك أيضًا، فاستشهد على اللحن بمعنى العدول عن الجهة الواضحة تلعبا بالقول بالحديث «فلعل أحدكم يكون ألحن بحجته»[5]، وعلى إعراب قراءة (فكان أبواه مؤمنان) فى قوله تعالى: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ... ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف] بالحديث «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه»[6]، وغير ذلك كثير[7]، ويلاحظ أن ابن جنى كثيراً مايورد مثل

---

(١) القياس فى اللغة العربية ٣٢، ٣٣ بتصرف. (٢) الخصائص ٢/ ١٥٨.

(٣) نفسه ٢/ ١٤٦. (٤) نفسه ٢/ ٣٧٢. (٥) المحتسب ١/ ٣٣٤، ٣٥٥.

(٦) نفسه ٢/ ٣٣. (٧) انظر فهرس المحتسب، وص ١٦١، ١٦٢ من كتابنا.

هذه الشواهد النقلية مع ما يرويه عن العرب من أدلة أخرى شعرا ونثرًا[1]، ومن قبله أستاذه أبو على الفارسى كان يعتمد القرآن والحديث فى الاستشهاد كما قرر ذلك الدكتور شلبى[2].

كيف درس العلماء اللغة؟ وكيف نشأت فكرة القياس؟

تفشى اللحن على ألسنة المتكلمين بالعربية «بعد اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم خصوصًا بعد أن اتسعت الفتوح الإسلامية، وشملت دولة المسلمين رقعة متسعة من الأرض، فتطرق الفساد إلى السلائق»[3]، وقد ظهر فى العصر الإسلامى كثير من الأخطاء، وحدثت بوادر منها فى عصر الرسول ﷺ فقد «رووا أن النبى ﷺ سمع رجلا يلحن فى كلامه فقال: (أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل)، وروى أيضًا أن أحد ولاة عمر رضى الله تعالى عنه كتب إليه كتابا لحن فيه فكتب إليه عمر: أن قنِّع كاتبك سوطًا، وروى من حديث على رضى الله عنه مع الأعرابى الذى أقرأه المقرئ: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ... ③﴾ [التوبة] -بجر رسوله- حتى قال الأعرابى: برئت من رسول الله، فأنكر ذلك علىٌّ عليه السلام، ورسم لأبى الأسود من عمل النحو ما رسمه»[4]، ولما كثر اللحن

---

(١) انظر الخصائص ٢/٤٠٩-٤١٢، ص ١٤٣ - ١٤٥ من كتابنا.

(٢) أبو على الفارسى ١٨٧، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٣، وحكى صاحب خزانة الأدب الآراء فى الاحتجاج بالقرآن والحديث والشعر مما يستشهد به فى اللغة والنحو والصرف (ط الأولى، من ص٣-٨، وط١٩٦٧ من ص٥-١٨ من الجزء الأول) وفى داعى الفلاح أنه يحتج بالقراءة المتواترة وبالشاذة فيما لم يخرج على القياس، أما فيما خرج عنه ولا يمكن توجيهه فيحتج بها فى مثل ذلك الحرف بعينه من التركيب الوارد فى التنزيل سواء كانت القراءة متواترة مثل ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ... ١٩﴾ [المجادلة] أو شاذة مثل قراءة قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ... ١٣٧﴾ [الأنعام] ببناء (زُين) للمجهول، ورفع (قتلُ) ونصب (أولادَهم)، وجر (شركائهم)، ص٧٢-٧٨ ويحتج بالحديث على إثبات القواعد بما ثبت ولو من طريق حسن ولو بغيره ٨٠، ٨١، ويمكن بذلك قبول أحاديث الكتب الستة فما قبلها وعدها مما يحتج به، مجلة المجمع اللغوى ٣/١٩٧.

(٣) اللهجات العربية، د. نجا ٤٧، وانظر ص ٣٥٧ من كتابنا.

(٤) الخصائص ٢/٨.

«وخيف من تمادى ذلك فيستغلق كتاب الله على الأفهام انتجع البادية من يهمه أمر اللغة لجمعها والحفاظ عليها»[1]، وقد سلك تسجيل هذا الجمع طرائق مختلفة تحدث عنها أستاذنا الدكتور نجا فى كتابه المعاجم اللغوية، وتتبعها فى دقة ووضوح حتى وصلت إلى لون من التأليف هو المعروف باسم المعاجم[2]، وقد تعهد العلماء هذا التراث بالبحث والملاحظة «واستنبطوا منه قواعد النحو العربى، وحصروها فى حدود مضبوطة لا يند عنها شىء»[3]، وهذه الضوابط ينهجها المتكلم ليقى لسانه العثار، ويجنبه الخطأ فى الكلام، «وليست اللغة فى حقيقة أمرها إلا نظامًا من الكلمات التى ارتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقًا تحتمه قوانين معينة لكل لغة . . . وإن لكل لغة نظامًا معينا لا يصح الإخلال به أو الخروج عنه»[4].

وهذه الدراسة التى أجراها علماؤنا الأوائل، والتى بذلوا فيها مجهودًا جبارًا حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من نتائج، قد أضيفت إليها ثمار الفلسفة والمنطق على أيدى المتأخرين، مما جعل المحدثين يوجهون إليها نقودًا عنيفة، «فتاريخ دراسة اللغة العربية يعرض علينا فى بدايته محاولات جدية لإنشاء منهج وصفى فى دراسة اللغة، يقوم على جمع اللغة وروايتها، ثم ملاحظة المادة المجموعة، واستقرائها، والخروج بعد ذلك بنتائج لها طبيعة الوصف اللغوى السليم، ولكن بعض الأخطاء المنهجية فى طريقهم لم تمكنهم من الخلاص من النقد، فلجأ النحاة إلى تقديس القواعد بعد أن كانت خاضعة للنص[5]، «ألا ترى أن سيبويه أجاز فى قولك: هذا الحسن الوجه أن يكون الجر فى الوجه من موضعين: أحدهما الإضافة، والآخر تشبيهه بالضارب الرجل الذى إنما جاز الجر فيه تشبيهًا له بالحسن الوجه على ما تقدم فى الباب الذى قبل هذا، فإن قيل: وما الذى سوغ به سيبويه هذا وليس مما يرويه عن العرب رواية، وإنما هو شىء رآه واعتقده لنفسه وعلل به؟ قيل يدل على صحة ما رآه من هذا وذهب إليه ما عرفه وعرفناه معه من أن العرب

(١) المعاجم اللغوية، ص٧.

(٢) المعاجم اللغوية ص٩، ١٠، وانظر كتابنا: مناهج البحث فى اللغة والمعجم، ط الأولى ص١٠٩ وما بعدها.

(٣) اللغة والنحو ٢١.

(٤) من أسراراللغة ٢٠٨، ٢٠٩، ط ١٩٥١م.

(٥) اللغة بين المعيارية والوصفية ٢٠، ٢١.

إذا شبهت شيئًا بشيء مكنت ذلك الشبه لهما، وعمرت به الحال بينهما، ألا تراهم لما شبهوا الفعل المضارع بالاسم فأعربوه تمموا ذلك المعنى بينهما، بأن شبهوا اسم الفاعل بالفعل فأعملوه»[1]، ويقول الدكتور تمام تعقيبًا على هذا الاستنتاج الذى وصل إليه ابن جنى فى النص السابق دفاعًا عن سيبويه: «إنه رأى فى اللغة رأيا لم تعضده النصوص، ولم ترد عليه الشواهد، ويبنى هذا الدفاع على أمر فيه نظر هو (أن العرب إذا شبهت شيئًا بشيء مكنت ذلك الشبه لهما وعمرت به الحال بينهما)، وحتى لو قبلنا ذلك، وهو أمر ليس من صلب منهج اللغة، فلن يكون من المقبول استخدامه فى استخراج النتائج من دراسة لغوية خالصة»[2]، ثم يقول: «ولا شك أن هذا من وحى المنطق الأرسطى»[2].

وقد استنبط علماء اللغة القواعد من كل التراث الذى وصل إليه اللغويون جمعًا ورواية عن قبائل كثيرة، وعدوا ما خالف قوانينهم التى وضعوها شاذًا أو مؤولاً، وهذا النظام شرحه ابن جنى حين قال: «إن القوم بحكمتهم وزنوا كلام العرب فوجدوه على ضربين: أحدهما ما لا بد من تقبله كهيئته، لا بوصية فيه ولا تنبيه عليه نحو حجر ودار وما تقدم، ومنه ما وجدوه يتدارك بالقياس، وتخف الكلفة فى علمه على الناس، فقننوه وفصلوه، إذ قدروا على تداركه من هذا الوجه القريب المغنى عن المذهب الحزن البعيد، وعلى ذلك قدم الناس فى أول المقصور والممدود ما يتدارك بالقياس والأمارات، ثم أتلوه ما لا بد له من السماع والروايات»[3]، «فلما رأى القوم كثيرًا من اللغة مقيسًا منقادا وسموه بمواسمه، وغنوا بذلك عن الإطالة والإسهاب فيما ينوب عنه الاختصار والإيجاز، ثم لما تجاوزوا ذلك إلى ما لا بد من إيراده، ونص ألفاظه التزموا، وألزموا كلفته، إذ لم يجدوا منها بدا، ولا عنها منصرفا، ومعاذ الله أن ندعى أن جميع اللغة تستدرك بالأدلة قياسا، لكن ما أمكن ذلك فيه قلنا به، ونبهنا عليه، كما فعله من قبلنا ممن نحن له متبعون، وعلى مثُله وأوضاعه حاذون»[4]، «فهذا مذهب العلماء بلغة العرب، وما ينبغى أن يعمل عليه، ويؤخذ به»[4].

---

(١) الخصائص ١/ ٣٠٣، ٣٠٤.
(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية ٢٢، ٢٣.
(٣) الخصائص ٢/ ٤٢.
(٤) نفسه ٢/ ٤٣.

وقد عدّ بعض المحدثين الاستنباط من اللهجات المتعددة خلطًا[1]، وخطأ[2]، وقرر الدكتور تمام أن نحاة العرب وقعوا في مخالفة منهجية أخرى حينما «تتبعوا مراحل اللغة العربية المتعاقبة في مدة من مائة وخمسين سنة قبل الإسلام إلى ما يسمونه بعصور الاحتجاج أى ما يشمل ثلاثة قرون من تاريخ لغة العرب، وتلك حقبة لا يمكن أن تظل اللغة فيها ثابتة على كل حال بل لا بد أنها تطورت»[3]، ويوافقه على ذلك الدكتور أيوب؛ ففى نظره «كان علماء اللغة الأقدمون يخلطون بين الحقائق التاريخية والحقائق الوصفية، ويعللون بهذه لتلك أو يقيسون لغة عصر متأخر على الوقائع اللغوية لعصر متقدم، ومثال ذلك تعليل علماء النحو العرب إعراب كلمة بطريقة ما بأن أصل الجملة هو كذا وكذا، أو إعرابك أنت جملة مصرية محكمًا فى ذلك ما تعرف من قواعد العربية الفصحى[4]، وعندهم أن دراسة القدماء للغة دراسة معيارية «تخضع الصواب والخطأ فى استعمالها لا لمقياس اجتماعى بل لمجموعة من القواعد تفرض فرضًا، ويعد كل ما لا تنطبق عليه إما شاذا أو خطأ ينبغى ألا يدخل فى دائرة الاستعمال العام»[5]، «والقواعد المعيارية نماذج يقيس عليها المتكلم، ويحكم عليه بالخطأ إذا خرج عنها»[6]، ويرى هؤلاء المحدثون أن الدراسة الوصفية التى تقوم على الملاحظة والاستقراء واستنتاج قواعد تعد تعبيرات عن الوظائف التى تؤديها الوحدات اللغوية سواء كانت هذه الوحدات صوتية أم صرفية أم معجمية هى الدراسة الجديرة بالاتباع[7]، فالدراسة الحديثة للغة تبدأ باتخاذ حديث متكلم من أبناء اللغة، وتسجيل كلماته من قصص أو أمثال أو جمل مختارة، ثم وصف هذه المادة المسجلة، مع مطالبة المتكلم بالإعادة حين إجراء الوصف، ضمانًا للدقة فى العمل، فيكون مثله مثل من يقوم بتشريح الجسم الإنسانى»[8]، «والاستقراء أفضل من القياس لكونه منهجًا علميًا صحيحًا إذا اتبعه الباحث وصل إلى نتائج وقواعد

---

(1) من أسرار اللغة ٢٣ . (2) اللغة بين المعيارية والوصفية ٢٥ . (3) نفسه ٢٤، ٢٥ .

(4) أصوات اللغة ١١ . (5) اللغة بين المعيارية والوصفية ١٨ . (6) أصوات اللغة ١٣ .

(7) اللغة بين المعيارية والوصفية ٢٣ . (8) نفسه ٢٤ .

مستمدة من الحقائق اللغوية»[1]، والقدامى لم يتبعوا ذلك كما «لم يفطنوا إلى العلاقة بين العربية وأخواتها الساميات»[1]، والدراسة الحديثة تعتمد على المقارنة اعتمادًا كبيرًا «والمحدثون يدرسون اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية متطورة، فقد اهتدوا إلى أن كل كلمة فى اللغة يمكن أن يدرسها النحوى من نواحٍ ثلاث:

١- ناحية الأصوات التى تتألف منها الكلمة، سواء كانت اسمًا أم فعلاً أم حرفًا، وفيها تعرف طبيعة الحروف، وما يحدث من أثر اجتماعها فى الكلمة من تغيرات ... إلخ، وهذا ما يسمونه Phonetics (أى الصوتيات).

٢- ناحية صيغة الكلمة، وما طرأ عليها فى حالاتها المختلفة، من تأنيث وجمع وتثنية وإعراب وتصغير ونسب وغير ذلك من الصيغ التى تختلف بتغيير بنيتها أو إلصاق زوائد بها، وهذا يسمونه Morphology (أى علم الصيغ).

٣- ناحية التركيب Syntax يعنى أنه إذا انتهى من الكلام على صيغة المفرد انتقل إلى تآلف الكلمة مع الكلمة، والجملة مع الجملة، فنظر إلى وظيفة الكلمة فى التركيب، وارتباط التركيب بالتركيب»[2].

ويدعو المحدثون - كذلك - إلى دراسة اللغة النموذجية فقط، وترك اللهجات المحلية لدراسة خاصة، ويعيبون على القدماء عدم أخذهم بهذا المبدأ[3]، على حين يثبت الدكتور الصالح نقيض ذلك، وهو أن اللغويين الأقدمين لم يعرضوا للهجات العربية القديمة فى العصور المختلفة عرضًا مفصلاً، لأنهم شغلوا عن ذلك باللغة الأدبية الفصحى التى نزل بها القرآن، وصيغت بها الآثار الأدبية فى الجاهلية، وصدر الإسلام، وهم لشعورهم بعدم توفرهم على دراسة هذا الموضوع دراسة دقيقة عميقة كانوا يتخلصون من اختلاف اللهجات بالاعتراف بتساويها جميعًا فى جوار الاحتجاج بها، كابن جنى الذى عقد بابا خاصًا سماه (اختلاف اللغات وكلها حجة)[4].

---

(١) المدخل إلى دراسة النحو العربى ٧٢، ٧٣.

(٢) المدخل إلى دراسة النحو العربى ٨٠، ٨١.

(٣) من أسرار اللغة ٢٢، ٢٣، ط٣، ورأى فى بعض الأصول اللغة والنحوية ٥١، ٥٢.

(٤) دراسات فى فقه اللغة ٥١، ٥٢.

ويبدو لنا أن دراسة القدماء للغة والنحو كانت ذراسة ناجحة إلى حد بعيد، وهم لم يكونوا معياريين فقط، بل كانوا وصفيين أيضًا، لأن دراستهم قامت - باعتراف المحدثين - على ملاحظة المادة اللغوية التى جمعها الرواة، واستنباط القواعد منها، وكان العرب - على امتداد عصر الاحتجاج - ينطقون لغة واحدة لا تختلف ألفاظها أو قواعدها أو طريقة أدائها خلافا جوهريًا، إذ كانوا يتوارثون الفصاحة فى عزلة عن الاختلاط بغيرهم من الأجانب، فلا يعد فيهم متقدم أو متأخر، ولا يقال: إن تطورا ذا بال قد حدث فى انتقالها من السلف إلى الخلف فى هذه الحقبة من التاريخ، ولذا فإنه بعد أن تغيرت الظروف المكانية والزمانية، وحدث تطور لغوى ملحوظ باختلاط العرب بغيرهم انتهى عصر الاحتجاج، وإننا نجد - بعد أكثر من ستة عشر قرنًا مرت على لغة العرب - فى بيئتنا الأزهرية والمثقفين بالعربية فى كل مكان من تجرى على لسانه العربية كما كانت فى عصورها الأولى، فلا أقل من أن اللغة فى عصر الاحتجاج كانت تجرى على ألسنة المتكلمين بها دون خلاف يذكر، وإذا كان المحدثون قد أتوا بنظام جديد لدرس اللغة فإن النظرة اليسيرة تؤكد لنا أنهم لم يزيدوا عما ذكره القدماء شيئًا سوى التنسيق، والتنميق أما حقيقة البحث وجوهره فهو قديم متأصل فى القدم، مأخوذ عن أربابه من عباقرة اللغة السابقين، ولسنا نقول: إن النحاة جميعًا كانوا محتذين اللغة النموذجية بل إننا نستطيع - فى ثبات وعزم - أن نؤكد أن من مذاهبهم ما احتذاها، واتبعها، وكان قياسه على الكثير والغالب والفصيح، لا على القليل من اللهجات، فهم قد تتبعوا لغة قريش التى «ارتفعت - كما يقول ابن جنى - فى الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس، وعجرفية ضبة، وتلتلة بهراء»[1]، وقد نقلنا عن الدكتور الصالح ما يثبت أن بالغ همهم كان باللغة الأدبية المثالية، أما وجود الشواذ فهو أمر لا يمكن تجنبه، لأن قوانين اللغة ليست منطقية، بل هى نتاج اجتماعى، ولابد فيه من وجود ما يخرج على الظاهرة العامة، فكل نظام صرفى فيه مواضع نقص لا تخلو منها أية لغة ولو كانت من أشد اللغات تثقيفا، ففى كل قاعدة من قواعدها شواذ لا يسوغها منطق.

(١) الخصائص ٢/ ١١.

ولكن يسود التغييرات الصرفية اتجاهان عامان: الأول مبعثه الحاجة إلى التوحيد، ويميل إلى إقصاء العناصر الصرفية التى أصبحت شاذة، والآخر مبعثه الحاجة إلى التغيير، ويميل إلى خلق عناصر صرفية جديدة، وإقصاء العناصر الصرفية الشاذة يكون بردها إلى القاعدة أى أن الحاجة إلى التوحيد تقنع بطريقة القياس[1].

وهم بهذا المجهود الجبار شقوا طريقا لغويا كان وعر المسلك وذللوه، «فاللغة التى نتعلمها فى المدرسة ندين بها إلى المجهود المزدوج الذى قام به الأدباء والنحاة، فهم الذين خلقوا لنا هذه الأدلة الجميلة، وسهروا عليها بحدب شديد، عاملين على ألا يعلوها الصدأ، فيغير معالمها، وقد يبدو لنا أن تطهير اللغة الذى دام قرونا عديدة عمل جدلى رخيص مغرق فى الادعاء والتظاهر، ولكن الفوائد التى نجنيها من هذا العمل تحملنا على الاعتراف بالجميل لمن قاموا به»[2]، ويقول الدكتور السامرائى: «إن جهود الأقدمين من النحاة شىء عظيم، فقد استطاعوا أن ينتقلوا بهذا العلم من ضوابط يسيرة يقيم بها المعربون ألستهم بعد أن ضاعت السليقة العربية إلى علم دقيق معقد متطور يدرس لذاته»[3]، ويقول الدكتور تمام: والواقع أن الخليل وسيبويه لم يكتشفا النحو العربى، وإنما اخترعاه اختراعًا.. وكل باحث فى اللغة يجب أن يكون قادرًا على استعمال مقدرته الاختراعية، وكل ذلك مجال مفتوح للبحث والتنقيب يتطلب الوعى الدراسى الصحيح، ولم يقفل فيه باب الاجتهاد»[4].

وهنا ندخل إلى مجال حساس سلكه لغويو العرب، وهو كيف نشأت فكرة القياس؟ وهل هو من اختراعهم أو أنه طريق ساروا فيه على نهج العرب؟.

الواقع أن القياس فى معناه القريب: أن نحاكى العرب فى كلامهم[5]، وقد صرحنا فيما سبق بأن للعرب منحى خاصا فى كلامهم سلكه كل واحد منهم، وعلى هذا الأساس بدأ اللغويون يضعون مبادئ القياس «فإذا قال عالم كابن سلام

---

(١) اللغة «فندريس» ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) نفسه ٣٤٢. (٣) التطور اللغوى التاريخى ٧٥.

(٤) مناهج البحث فى اللغة ٥٨. (٥) اللغة والنحو، ٢٢.

فى مقدمة طبقات الشعراء[1]: (إن أول من وضع قياس العربية هو أبو الأسود الدؤلى) فإن ابن سلام لا يريد أكثر من أن أبا الأسود قد بدأ وضع قواعد عامة لبعض نصوص اللغة دون أن يستنبط كلمات جديدة يضيفها إلى ألفاظ العرب»[2].

ثم زادت مطالب الحياة بتقدم العرب وحضارتهم، فزيد - فى اللغة - على أساس القياس، وبهذا أحكمت قواعده وأخذت تبرز، فقرر الخليل وسيبويه: أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم[3] «فالقياس فى اللغة يبدأ ضعيفًا ثم يكثر ويشتد بمضى الزمن، فمثلا عندما أراد الناطق القديم أن يدلل بكلمة على حرفة الكاتب صاغ مادة كتب على وزن (فِعالة)، وهكذا حتى كثرت الكلمات الدالة على الحرفة والتى على هذا الوزن، فأمكن للنحاة فيما بعد أن يستخرجوا لهذا الوزن معنى ووظيفة»[4].

ومن هنا لاحظ العلماء العرب أن تصطبغ الزيادة بلون عربى لتجىء مشابهة لما سبق عن آبائهم وأجدادهم، ونشأت بذلك صيغ جديدة وألفاظ جديدة خضعت لفكرة القياس، وقد أخذ هذا المفهوم يتسع شيئًا فشيئًا، وينتصر له العلماء جيلا بعد جيل، حتى قوى على يد أبى عثمان المازنى، وكانت آراؤه أساسا قامت عليه مدرسة القياس فى القرن الرابع الهجرى، فقد سار على نهج المازنى - وتوسع فيه - أبو على الفارسى وتلميذه أبو الفتح بن جنى، ومما قاله أبو عثمان المازنى: «ألا ترى أنك إذا سمعت قام زيد أجزت أنت ظرُف خالد وحمُق بشر، وكان ما قسته عربيا كالذى قسته عليه، لأنك لم تسمع من العرب أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ومفعول، وإنما سمعت بعضا فجعلته أصلا، وقست عليه ما لم تسمع»[5]، وقد نقل هذا عنه ابن جنى فى خصائصه مع تغيير طفيف فى العبارة[6].

وقال الفارسى فيما حكاه عنه ابن جنى: والقياس ألا يجوز إلا أن تبنى على أمثلة العرب، لأن فى بنائك إياه إدخالا له فى كلام العرب، والدليل على ذلك

(1) ص١٢.
(2) طرق تنمية الألفاظ ١٥.
(3) المنصف ١/ ١٨٠.
(4) المدخل إلى دراسة النحو العربى ٨٤.
(5) المنصف ١/ ١٨٠.
(6) الخصائص ١/ ٣٥٧.

أنك تقول: طاب الخشكُنانُ فترفعه وإن كان أعـجميا، لأن كل فاعل عربى مرفوع فإنما تقيس على ما جاء وصح[1].

وحكى ابن جنى عنه - أيضًا - قال: قال أبو على وقت الـقراءة عليه كتاب أبى عثـمان: لو شاء شاعـر أو ساجع أو متسـع أن يبنى بإلحاق اللام اسما وفـعلا وصفـة لجاز، ولكان ذلك من كلام العـرب، وذلك نحو قولك خَـرْجَج أكرمُ من دَخْلَل، وضَرْبَبَ زيدٌ عمراً، ومررتُ برجل ضَرْبَبٍ وكَرْمَمٍ ونحو ذلك، فقلت له: أفترتجل اللغة ارتجالا؟ قال: ليس بارتجال، ولكنه مقيس على كلامهم، فهو إذًا من كلامهم، قال: ألا ترى أنك تقول: طاب الخشكُنانُ، فتجعله من كلام العرب وإن لـم تكن العرب تكـلمت به، هكذا قال[2]، وقـال أبو على: أخطئ فى خمـسين مسألة فى اللغة ولا أخـطئ فى واحدة من القياس[3]، ويقول ابن جنى: واعلم أن من قوة القياس عندهم اعـتقاد النحويين أن ما قيس على كـلام العرب فهو عندهم من كـلام العرب، نحـو قولـك فى قوله: كـيف تبنى من ضـرب مثل جـعفـر: ضَرْبَب، هذا من كـلام العرب، ولو بنيت مثل ضَيْـرب أو ضَوْرب أو ضَرْوب أو نحو ذلك لم يعتقـد من كلام العرب، لأنه قياس على الأقل استـعمالا والأضعف قياسا[4]، وقد قال بعد ذلك: إن فيه نظراً صالحًا[4]، وقال أيضًا: وهذا باب مطرد متقاود، وقد كـنت ذكرت طرفا منه فى كتابى فى شرح تصريف أبى عـثمان، غير أن الطريق ما ذكرت لك، فكل ما قيس على كلامهم فهو من كلامهم، ولهذا قال من قال فى العجاج ورؤبة: إنهما قاسا اللغة وتصرفا فيها، وأقدما على ما لم يأت به من قبلهما[5]، «وكان مـوقف أبى على وابن جنى من اللغة موقف أبى حنيـفة ومدرسته فى الفقه، وقـد كان كل منهما معتزليا، فمكنهما اعـتزالهما - كما نعلم من مدرسة المعتزلة - من التحرر وإخضـاع اللغة لحكم العقل، فقد كان المحافظون كالسـيرافى يميلون إلى السـير على القديم من غـير تفكيـر فى تغييـره ولا الخروج عليه، يدعوهم إلى ذلك إما خمودهم الذهنى، وإما حب الـسلامة، وما يستدعيه التجـديد من التعرض للنقـد وإما إخلاصهم للقـديم، وإجلالهم له عن عقـيدة،

(١) المنصف ١/ ١٨٠، ١٨١.　(٢) الخصائص ١/٣٥٨، ٣٥٩.

(٣) نفسه ٢/٨٨.　(٤) نفسه ١/١١٤.　(٥) نفسه ٢/٨٨.

وذلك شأن الحياة كلها أحرار ومحافظون وأهل نقذ وأهل رأى، وكذلك فعل الشعراء، فمنهم من لا يستعمل الكلمة إلا إذا ثبتت عنده فى اللغة، ومنهم من يجرؤ فيبتكر الكلمة، أو يقيسها على غيرها كرؤبة[١]، ومدرسة القياس ترى أن اللغة ليست مقدسة، وأنها ملك للناس، لا أن الناس ملكها، ويمكننا أن نصحح ما فيها من أخطاء، ونبين ما حصل فيها من تصحيف ونصحح الأخطاء التى وردت فى المعاجم مما ورد خطأ من تصحيف أو من لثغة ألثغ أو نحو ذلك[٢]، وقد أثرت اللغة ثراء كبيراً بهذا الطريق - وهو ما سنشرحه فى أثناء عرضنا للآراء فى القياس - ومما يؤسف له أن مدرسة القياس هذه لم تستمر تؤتى أكلها، فذهبت مع ذهاب المعتزلة، لأن مدرسة المعتزلة كانت تحث على البحث والتجربة، والشك والاستدلال العقلى، فلما ذهبت ذهبت آثارها[٣]، وإن علماء القرن الرابع - بعد بلوغ الترجمة للعلوم الأجنبية أوجها - قد أكثروا الجدل حول المسائل اللغوية بالفلسفة وغيرها من وسائل الدفاع الكلامى، وإن عالمنا ابن جنى ليضرب المثل فى صلة الفلسفة باللغة والنحو، وقد فلسف للعلل بأنواعها الأوائل والثوانى والثوالث ورسم لها قوانين فى كتابه الخصائص، وكان واضحًا أن ابن جنى استخدم الفلسفة وبراعة المنطق فى التعليل للقياس ولا غرو فهو معتزلى الاعتقاد وفقيه حنفى - مع ما عرفنا من اشتغال المفكرين من المعتزلة والفقهاء الأحناف بالفلسفة وسيرهم فى مسالكها - وإن بحثه فى هذا الموضوع له جوانبه المتعددة نتركها لعلم النحو، فهو الذى يتصل بها، وتفيده فى مسائله، وقد أشرنا إلى ذلك، وعرضنا لبعض أمثلته فيما مضى[٤]، وسيظهر من عرضنا للقياس وأقسامه أمثلة لهذه الفلسفة مع اكتفائنا - فى هذا المقام - بعرض مسائل اللغة وفلسفته لها.

وقد جاء المتأخرون من النحاة واللغويين فزادوا فى تعقيدات الفلسفة والمنطق، لأنهم لم تكن لهم آراء جديدة يضيفونها، فجعلوا مهمتهم التعليل والتخريج بما أبعد اللغة عن طريقها كظاهرة اجتماعية تعتمد على الحس اللغوى[٥]، وبمثل هذا وسعوا من نطاق البحث حتى جعلوا النحو كله قياسا على

(١) ظهر الإسلام ٢/٨٨، ٩٢. (٢) نفسه ٢/٩٣-٩٤. (٣) نفسه ٢/٩٢.

(٤) انظر ص ١١٢، ١١٣، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٥ من كتابنا.

(٥) المدخل إلى دراسة النحو العربى ٦١.

حد تعبيرهم[1]، فتعرضوا لنقود كثيرة من علماء اللغة المحدثين[2].

ويأتى مجال الحديث عن القياس فنعرض لآرائهم بعد بيان حقيقته بمفهوم واضح.

آراء العلماء في القياس

حقيقة القياس:

فى اللغة: التقدير[3].

وفى اصطلاح النحاة: «حمل غير المنقول عن العرب على المنقول عنهم إذا كان غير المنقول فى معناه فى معنى المنقول عنهم»[4]، وفى اصطلاح اللغويين: «يطلق على العملية التى بها يخلق الذهن صيغة أو كلمة أو تركيبا تبعا لأنموذج معروف»[5].

ويلتقى هذان التحديدان عند معنى واحد هو: تقدير شىء على مثال آخر «فليس القياس إلا استنباط مجهول من معلوم، فإذا اشتق اللغوى صيغة من مادة من مواد اللغة على نسق صيغة مألوفة فى مادة أخرى سمى عمله هذا قياسا، فالقياس اللغوى هو: مقارنة كلمات بكلمات أو صيغ بصيغ أو استعمال باستعمال رغبة فى التوسع اللغوى، وحرصًا على اطراد الظواهر اللغوية»[6]، وليس معنى هذا التقنين ألا يشذ عن القواعد شىء «فهناك صيغ تثبت أمام القياس ومن أجل ذلك تسمى بالشاذة، إذ يحتوى نحو كل لغة من اللغات على قدر يزيد أو ينقص من الأسماء والأفعال الشاذة، وتسمى أيضًا بالصيغ القوية فى مقابلة الصيغ

---

(١) قال ابن علان: النحو كله قياس، ولهذا قيل فى حده: النحو علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو. انظر داعى الفلاح ص١٦٣، وإلى آخر الكتاب.

(٢) اللغة والنحو، ص٢٢، وطرق تنمية الألفاظ ص٢٦.

(٣) لسان العرب ٨/ ٧٠.

(٤) داعى الفلاح ١٦١.

(٥) اللغة ٢٠٥ وللأصوليين تعريفات مختلفة لا تخرج عن مفهومه عند أهل العربية، انظر المستصفى للغزالى ٢/ ٢٢٨، والإحكام للآمدى ٢٦٦-٢٧٣.

(٦) من أسرار اللغة، ص٩ ط٣.

الضعيفة والعليلة التى تستسلم للتنظيم الذى يفرضه القياس، هذه الصيغ القوية تبقى خارج القاعدة. . وأغلب الظن أن اللغة تقضى على بعض هذه الصيغ شيئًا فشيئًا لتردها إلى القاعدة»[1]، وقد يكون من نتيجة العمل القياسى فى بعض الأحيان التقليل من عدد الصيغ الشاذة أى إضعاف النوع القوى، ولكن ذلك ليس قاعدة مطردة»[2]، وقد توسع العلماء فى بحث القياس - كما ذكرنا - حتى أصبحت له فروع متعددة أهمها الأقسام الأربعة التى أشار إليها الإمام الأكبر الخضر حسين فى كتابه «القياس فى اللغة العربية»، يقول: ترد كلمة القياس عند البحث فى معانى الألفاظ العربية وأحكامها على أربعة وجوه:

١- حمل العرب أنفسهم لبعض الكلمات على أخرى وإعطاؤها حكمها لوجه يجمع بينها، كما يقال أعرب الفعل المضارع قياسا على الاسم لمشابهته له فى احتماله لمعان لا يتبين المراد منها إلا بالإعراب، والقياس بهذا المعنى واقع عن العرب أنفسهم ويذكره النحوى تنبيها على علة الحكم الثابت عنهم بالنقل الصحيح».

٢- أن تعمد إلى اسم وضع لمعنى يشتمل على وصف يدور معه الاسم وجودًا وعدما، فتعدى هذا الاسم إلى معنى آخر، تحقق فيه ذلك الوصف، وتجعل هذا المعنى من مدلولات ذلك الاسم لغة، ومثال ذلك اسم الخمر عند من يراه موضوعا للمعتصر من العنب خاصة، وما وضع للمعتصر من العنب إلا لوصف هو مخامرته للعقل وستره، فإذا وجد عصير من غير العنب يشارك المعتصر من العنب فى الشدة المطربة المخمرة للعقل فإن من يقول بصحة هذا القياس يجعل هذا العصير من أفراد الخمر ويسميه خمرا تسمية حقيقية لغوية، وهذا ما ينظر إليه علماء أصول الفقه عندما يتعرضون لمسألة هل تثبت اللغة بالقياس؟[3].

---

(١) اللغة ٢٠٨. (٢) نفسه ٢١٠.

(٣) انظر فى هذه المسألة: المزهر، ط. دار إحياء الكتب العربية، ١/ ٥٩-٦٤. نجد العرب - أحيانًا - يلحظون فى الشىء معنى من المعانى، فيسمونه باسم مشتق من الكلمة التى تدل عليه، فقد سموا القارورة: قارورة لأنهم لحظوا أن الشىء يقر فيها، وسموا الدار دارًا لأنه يكثر فيها الدوران، مجلة مجمع اللغة العربية. من مقال د. أحمد أمين ٧/ ٣٥١-٣٥٨.

٣- إلحاق اللفظ بأمثاله فى حكم ثبت لها باستقراء كلام العرب حتى انتظمت منه قاعدة عامة كصيغ التصغير والنسب والجمع، وأصل هذا أن الكلمات الواردة فى كلام العرب على حالة خاصة يستنبط منها علماء العربية قاعدة تخول المتكلم الحق فى أن يقيس على تلك الكلمات الواردة ما ينطق به من أمثالها.

٤- إعطاء الكلمة حكم ما ثبت لغيرها من الكلم المخالفة لها فى نوعها، ولكن توجد بينهما مشابهة من بعض الوجوه، كما أجاز الجمهور ترخيم المركب المزجى قياسا على الأسماء المنتهية بتاء التأنيث[١].

وذكر ابن علان للقياس أربعة أقسام، هى: حمل فرع على أصل، وحمل أصل على فرع، وحمل نظير على نظير، وحمل نقيض على نقيض والأول والثالث يسمى كل منهما: قياس التساوى، والثانى: قياس الأولى (لأنه إذا كان الحكم للفرع فللأصل أولى) والرابع قياس الأدْوَن، (لأنه نقيض وشأن النقيض المباينة فى الحكم لا الموافقة)[٢].

ومن أمثلة القسم الأول: مراعاتهم فى الجمع حال الواحد فى الإعلال، فإذا أعل الواحد أعل الجمع، والعكس بالعكس، مثل: قيمة وقيم، ومثل زَوْج وزِوَجة، ومثل حمل النصب بالحروف على الجر، ومن أمثلة القسم الثانى: تبعية المصدر لفعله صحة وإعلالا، مثل: قمت قياما، وقاومت قواما، ومن الثالث: زيادة (إنْ) بعد (ما) المصدرية الظرفية كقول الشاعر:

وَرَجِّ الفَتَى للخَيْرِ ما إنْ رأيتَهُ   على السِّنِّ خيرًا لا يزالُ يزيدُ

لشبهها بـ (ما) النافية لفظًا.

ومن الرابع: قولهم جوعان كما قالوا: شبعان، وقالوا: كثُر ما تقُومنَّ كما قالوا: قلَّما تقومنَّ[٣].

---

(١) يسمى النوع الثالث بالقياس الأصلى والرابع بقياس التمثيل. انظر: القياس فى اللغة العربية، ص٢٥-٢٧.

(٢) داعى الفلاح، ص١٧٢ وما بعدها.

(٣) انظر الخصائص ١/ ١١٠-١١٣، ٢/ ٣٨٩ وغيرها.

وهذه الأقسام كانت مثار طعن عنيف من بعض الباحثين، وبخاصة أنها اتسمت بسمة فلسفية فى غالب صورها، وفرضت عللا ربما لم يقصد إليها العرب أنفسهم[1]، وكان القياس بهذه المعانى عرضة لنقد ابن مضاء الأندلسى الذى ثار عليه قديمًا، ثم تبعه كثير من المحدثين، يقول ابن مضاء فى الدعوة إلى إلغاء القياس: «والعرب أمة حكيمة فكيف تشبه شيئًا بشىء وتحكم عليه بحكمه، وعلة حكم الأصل غير موجودة فى الفرع، وإذا فعل واحد من النحويين ذلك جُهِّل، ولم يقبل قوله فلِمَ ينسبون ما يُجهَّل به بعضُهم بعضا؟ وذلك أنهم لا يقيسون الشىء ويحكمون عليه بحكمه إلا إذا كانت علة حكم الأصل موجودة فى الفرع، وكذلك فعلوا فى تشبيه الاسم بالفعل فى العمل، وتشبيههم إنّ وأخواتها بالأفعال المتعدية فى العمل[2]، وقد ترك شيخ الأزهر القسم الأول والثانى من الأقسام التى ذكرها فى كتابه، فلم يبحث فيهما على الرغم من أنه اعترف بأن الأول واقع عن العرب، ويمكن أن يصدق ذلك فى رأينا على النوع الرابع الذى سماه بقياس التمثيل، ولذلك نرى أن بعض العلماء قد أنكره باعتراف الإمام نفسه[3]، وهو من صنع النحوى ويعنونه بقولهم: لا تثبت اللغة بالقياس، أما النوع الثانى والثالث فلم يتعرضا لتلك النقود بل حظيا بتأييد كثير من العلماء حتى فى المجامع اللغوية؛ ففى القاهرة أجاز مجمعها القياس الطبيعى المتمثل فى هذين النوعين:

١- حين تذكر كتب اللغة المصادر ولا تذكر أفعالها أو العكس، أو حين يذكر الفعل الثلاثى ولا يذكر بابه هنا يستطيع المرء أن يلجأ إلى القياس ليستنبط مجهولا من معلوم، ومثل هذا القياس إذا أتيح لنا يكمل نقصا كبيرا فى المعاجم.

٢- تعميم المعنى بعد أن كان خاصا، قياسا على ما فعله العرب فى كلمة الخمر[4].

(١) من أسرار اللغة ١٥، ١٦ ومناهج البحث فى اللغة ٢٤-٢٦، ومدرسة الكوفة ٤١٢.

(٢) الرد على النحاة ١٥٦، ١٥٧.

(٣) القياس فى اللغة العربية ٧٤.

(٤) من أسرار اللغة ١٦، وانظر الجلسة التاسعة من محاضر مؤتمر المجمع، الدورة (١٥) عامى ٤٨، ١٩٤٩م، ومجلة المجمع ٢/٢٠٦-٢٠٩، ٧/٣٥١-٣٥٨.

وستتكلم على آراء العلماء فى القياس على الوجه التالى:

١- رأى البصريين والكوفيين.

٢- رأى ابن جنى ومتابعيه وموقف المحدثين منه.

رأى البصريين والكوفيين

كان أول رأى يجب الاعتداد به فى القياس هو ما ذهب إليه البصريون والكوفيون، وعلى الرغم من أن المدرستين البصرية والكوفية كانتا متعاصرتين فإن كلا منهما كانت لها طريقة خاصة فى البحث، وكان لهذه الطريقة أثرها فى القياس، وكل من المدرستين قد اتخذ من السماع اللغوى مبدأ للقياس، إلا أنهم اختلفوا فى تحديد مفهوم السماع الذى ينبنى عليه، فالبصريون يعدون المسألة قياسية إذا وردت لها شواهد متعددة من كلام العرب، وقد «بالغوا فى التحرى والتنقيب عن الشواهد السليمة، وأبلوا فى ذلك ما شهد لهم به الدهر، فتجافوا عن كل شاهد منحول ومفتعل.. فكانت أقيستهم وقواعدهم قريبة الصحة لكفالة مقدماتها بسلامتها[1]، ولكن الكوفيين كانوا يعدون المسألة قياسية، ولو ورد لها شاهد واحد من كلام العرب، وقد عولوا على شعر الأعراب بعد أن امتزجوا، وتأشبوا بالمتحضرين، ولان جفاؤهم، ومن أجل هذا كان البصريون يغتمزون الكوفيين، فيقول الرياشى البصرى: نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب، وأكلة اليرابيع، وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد أصحاب الكواميخ وأكلة الشواريز[2]، وقد اختلف المحدثون فى تقدير كل من الرأيين فبينما يمتدح فريق منهم رأى البصريين يعيبه فريق آخر وبالعكس بالنسبة لرأى الكوفيين[3] وقد ميز الأستاذ الطنطاوى رأى البصريين بما يأتى:

---

(١) نشأة النحو ١٠٢.

(٢) حرشة الضباب: صائدوها، والكواميخ: أنواع من الأدم، والشواريز جمع شيراز: اللبن. توفى الرياشى سنة ٣٥٧هـ، انظر الفهرست ٨٦.

(٣) التطور اللغوى التاريخى ٧٩، ٨٠ والمدخل إلى دراسة النحو العربى ٦٣-٦٧، واللغة والنحو ٨٧، ٨٨ ومن أسرار اللغة ١٢، ١٣، ط٣، وطرق تنمية الألفاظ فى اللغة ٢٢ وغيرها.

١- البصريون احتاطوا فى أقيستهم، فلم يدونوها إلا بعد توافر أسباب الاطمئنان عليها، بخلاف الكوفيين الذين تفككوا من قيودهم.

٢- أنهم لا يعولون على القياس النظرى عند انعدام الشاهد إلا فيما ندر جداً، أما الكوفيون فطالما جنحوا إليه، إذ لا ريب أن السماع فى اللغة ركن أول، لأنها ليست فلسفة يتحكم فيها ميزان العقل، والدراية والتشدد فى القياس الذى يؤذن بصحة نظائره حكم لازم، وإلغاء القياس النظرى فى اللغة مستقيم مع الواقع، وقد ترتب على إصاخة الكوفيين إلى كل مسموع وقياسهم عليه أن عثرت بهم عجلة الرأى، وقد يتساهلون مع هذا فى التثبت من معرفة القائل وربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف شطره الآخر ولا يعلم قائله كاستشهادهم على جواز دخول اللام فى خبر لكن بقول المجهول:

.... وَلَكِنَّنِى مِنْ حُبِّهَا لَعَمِيدُ

وقد نصوا على أن ذلك أفسد النحو[١].

ويبدو لنا أن رأى البصريين حقا هو الجدير بالقبول، فلا شك أن تشددهم فى القياس، وشرطهم لتحقيقه كثرة من الشواهد المؤيدة، وتحريهم فى الكشف عنها، وعن قائليها، ذلك هو المنهج العلمى الصحيح الذى يتمشى مع الدراسة الحديثة للغات الإنسانية، والتى تعتمد فى كشف الظواهر اللغوية على طريق الاستقراء والملاحظة واستخراج النتائج، وقد أيد هذا المذهب جمهرة من علماء اللغة المحدثين بما هو واقعى ملموس[٢]، أما المذهب الكوفى فإنه يؤدى كما قال الدكتور أنيس إلى فقدان اللغة للاطراد، والانسجام، بحيث تصبح كالثوب المرقع، وإن كانت تلك الرقع من الحرير والديباج[٣].

رأى ابن جنى وموافقيه

أثبتنا فيما سبق نشأة القياس وتدرجه، وأن مطالب الحياة اقتضت إحكام قواعده على يد علماء اللغة الأوائل ومن تلاهم، فتكلم فيه الخليل وتلميذه

---

(١) نشأة النحو ١١١، ١٣٠-١٣٢. وانظر ص ٤٢٦ من كتابنا.

(٢) من أسرار اللغة ١٢، ط٣. (٣) نفسه ص١٣، ط٣.

سيبويه، وقالا: ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم، وسار على نهجهما من تلاهما من العلماء، إلى أن جاء أبو عثمان المازنى، فتوسع فيما أصلوه، ثم تابعه فى ذلك التوسع الإمامان الكبيران أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى، ولا ريب أن هذين اللغويين زادا على أبى عثمان، لأن مجتمع القرن الرابع الهجرى زادت متطلباته الحضارية والحيوية، وأن الثقافة الواسعة التى برزت فى هذا العصر، ولا سيما الثقافة المعتزلية، فتحت أمامهما أبواب النظر ووسعت دائرة الفهم لظواهر اللغة، وقد نقلنا آنفا نصوصا لهؤلاء جميعا أدلة لتوسعهم فى القياس؛ ونظرًا لأن رأى ابن جنى هو موضوع البحث فإننا نفرده بمزيد من التفصيل، لندرك مدى صحة فهمه للغة وتفسيره لقواعدها، فزيادة على النصوص التى ذكرناها له فيما مضى يقول فى باب (ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب): هذا موضع شريف، وأكثر الناس يضعف عن احتماله، لغموضه، ولطفه، والمنفعة به عامة، والتساند إليه مُقَوٍّ مُجْدٍ[1]، ومما يدلك على أن ما قيس على كلام العرب فإنه من كلامها أنك لو مررت على قوم يتلاقون بينهم مسائل أبنية التصريف، نحو قولهم فى مثال صَمَحْمَح من الضَّرب: ضَرَبْرَب، ومن القتل قَتَلْتَل، ومن الأكل أَكَلْكَل، ومن الشُّرب شَرَبْرَب، ومن الخُروج خَرَجْرَج. فقال لك قائل: بأى لغة كان هؤلاء يتكلمون؟ لم تجد بدا من أن تقول: بالعربية، وإن كانت العرب لم تنطق بواحد من هذه الحروف[2]، وقد ذكر نحوًا من ذلك فى باب (الفرض فى مسائل التصريف)، وقسم ما أورده فيه إلى ضربين: أحدهما الإدخال لما تبنيه فى كلام العرب والإلحاق له به، كقولك فى مثل جعفر من ضرب ضَرْبَب، فإذا بنيت شيئًا منه فقد ألحقته بكلام العرب، والآخر التماسك الرياضة به، والتدرب بالصنعة فيه، نحو قولك فى مثل فَيْعُول من شويت شَيْوِىّ، وفى مثل عَضْرَفُوط من الآءة: أَوَأْيُوء، وغير ذلك، فهذا ونحوه إنما الغرض فيه التأنس به، وإعمال الفكرة فيه[3]، وقد قال أيضًا فى الباب السابق بعد أن ذكر أمثلة كثيرة لما يقاس على كلام

---

(١) الخصائص ١/ ٣٥٧، وانظر المنصف ١/ ١٨٢.

(٢) الخصائص ١/ ٣٦٠. (٣) نفسه ٢/ ٤٨٧، ٤٨٨.

العرب: «وهذا باب مطرد متقاود وقد كنت ذكرت طرفا منه فى كتابى شرح تصريف أبى عثمان غير أن الطريق ما ذكرت لك، فكل ما قيس على كلامهم فهو من كلامهم»[1]، ولو أحصينا المواضع التى تكلم فيها ابن جنى عن القياس لوجدنا أنها تتوزع فى الخصائص بين أبواب كثيرة أوضح فيها رأيه فى القياس بكل تفصيلاته وصوره[2]، والناظر فى هذه الأبواب يلحظ اهتمام عالمنا ابن جنى بالقياس حتى عُدّ من زعماء مدرسته. ونبين فيما يلى أساسه وأقسامه عنده واعتراض بعض المحدثين عليه وموقفنا من ذلك.

أساس القياس عند ابن جنى

يرى ابن جنى أن السماع عن العرب هو الأساس الأول الذى يجب الاعتداد به والعمل بموجبه، وقد تبين ذلك من العبارات التى نقلناها عنه، ويدلنا زيادة على ما تقدم عبارات وردت فى مواضع متعددة من كتابه الخصائص، ومنها قوله: «أما حَيوة والحيوان فيمنع من حمله على الظاهر أنا لا نعرف فى الكلام ما عينه ياء ولامه واو، فلا بد أن تكون الواو بدلا من ياء.. فإن قلت فهلا حملتَ الحيوان على ظاهره وإن لم يكن له نظير كما حملت سيدا على ظاهره وإن لم نعرف تركيب (س.ي.د)؟ قيل: ما عينه ياء كثير، وما عينه ياء ولامه واو مفقود أصلا من الكلام فلهذا أثبتنا سيّدًا ونفينا ظاهر أمر الحيوان»[3]، ويقول أيضًا فى نون وتاء عنتر وعنبر ونحوهما (فالمذهب أن يحكم فى جميع هذه النونات والتاءات وما يجرى مجراها - مما هو واقع موقع الأصول مثلها - بأصليته مع تجويزنا أن يرد دليل على زياد شيء منه.. وإن كان ذلك كالمتعذر الآن لعدم المسموع من الثقة المأنوس بلغته، وقوة طبيعته، ألا ترى أن هذا ونحوه مما لو كان له أصل لما تأخر

---

(١) نفسه ١/ ٣٦٩.

(٢) انظر مثلا الأبواب الآتية: ١/ ٩٦-١٠٠، ١/ ١٠٩، ١٤٤، ١/ ١٩٧، ١٩٨، ١/ ٢١٢-٢١٥، ١/ ٢٥١-٢٥٦، ١/ ٣٠٠-٣١٢، ١/ ٣٥٧-٣٦٩، ١/ ٣٩١-٤٠٠، ٢/ ١٠-١٢، ٢/ ١٧-٢١، ٢/ ٣٥٢-٣٥٦، ٢/ ٤٨٧، ٤٨٨، ٣/ ٦٦، ٦٧، ٣/ ٨٧-٩٦، ٣/ ٣٢٨-٣٤١.

(٣) الخصائص ١/ ٢٥٥، ٢٥٦.

أمره، ولوجد فى اللغة ما يقطع له به، وكذلك ألف آءة حملها الخليل - رحمه الله - على أنها منقلبة عن الواو حملا على الأكثر، ولسنا ندفع مع ذلك أن يرد شىء من السماع يقطع معه بكونها منقلبة عن ياء، على ما قدمنا من بُعْدِ نحو ذلك وتعذره»[1]، فابن جنى ينص فى هذه الفقرة على أن الحكم قد يتغير بناء على مسموع جديد عن العرب، أما إذا فقد هذا المسموع فينظر إلى مسموع ما ليقاس عليه؛ ولذلك صرح بأن الاعتراف بالأصالة أو الزيادة كالمتعذر فى زمنه لعدم المسموع من الثقة المأنوس بلغته، وقوة طبيعته، ولا مانع عند ابن جنى من نقض رأى الخليل فى ألف آءة إذا ورد السماع بضده، والخليل مَنْ هو فى اللغة، فالمسألة عنده مرجعها السماع دون نظر إلى الباحث.

وهناك نص أكثر وضوحًا فى عدِّه السماع مبدأ للقياس، يقول فيه: «واعلم أنك إذا أداك القياس إلى شىء ما، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشىء آخر على قياس غيره فدع ما كنت عليه إلى ما هم عليه، فإن سمعت من آخر مثل ما أجزته فأنت فيه مخير تستعمل أيهما شئت، فإن صح عندك أن العرب لم تنطق بقياسك أنت كنت على ما أجمعوا عليه»[2]، ويقول فى تعارض السماع والقياس: «إذا تعارضا نطقت بالمسموع على ما جاء عليه ولم تقسه فى غيره، وذلك نحو قول الله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ... ⑲﴾ [المجادلة] فهذا ليس بقياس، لكنه لابد من قبوله، لأنك إنما تنطق بلغتهم، وتحتذى فى جميع ذلك أمثلتهم»[3]، ولا أعتقد بعد أن ذكرت هذه النصوص الكثيرة أن أحدًا من الباحثين يجهل اعتراف ابن جنى بالسماع، وأنه القاعدة العريضة التى نبنى عليها قانون

---

(١) نفسه ٣/٦٦. (٢) نفسه ١/١٢٥، ١٢٦.

(٣) نفسه ١/١١٧ وهذا تبعا لأستاذه الفارسى، فقد شرط السماع لصحة القياس، يقول: «ولو لم يعاضد القياس السماع حتى يجىء السمع بشىء خارج عن قياس لوجب اطراح القياس والمصير إلى ما أتى به السمع، ألا ترى أن التعلق بالقياس من غير مراعاة السماع معه يؤدى إلى الخروج عن لغتهم، والنطق بما هو خطأ فى كلامهم.. وإنما يلجأ إليه إذا عدم فى الشىء السمع فأما أن يترك السماع للقياس فخطأ فاحش، وعدول عن الصواب، انظر الحلبيات لوحة ٥٢، والبغداديات لوحة ٢٥.

العربية، وقيـاسها، ولكن ما حد السماع المطلوب للقـياس؟ هل هو مطلق السماع حتى عن الفرد الواحد وللشاهد الواحد كما هو مذهب الكوفيين أو أن حده الكثرة من النصوص كما هو مذهب البصريين؟ وما موقف ابن جنى من ذلك؟.

الراجح أن ابن جنى يتبع مذهب البصـريين فى وضع قوانين القياس اللغوى واعتماد مـبدأ الكثرة[1]، وسنبين ذلك من متـابعة ما قاله فقـد صرح بأن «القوم بحكمتهم وزنوا كلام العرب فوجدوه على ضربين:

١- ما لا يتدارك بـالقياس، وهذا لابد من تقبله كـهيئتـه لا بوصية فيه ولا تـنبيه عليه، نحو حجر ودار وباب وبستان وضبع وثعلب وغيرها من ألفاظ اللغة.

٢- ما يتـدارك بالقياس، وتخف الكلفـة فى علمه على الناس وهو مـا عدا النوع الأول، فقننوه، وفصلوه، إذ قدروا على تداركـه من هذا الوجه القريب المغنى عن المذهب الحزن البـعيد[2]، وهذه القوانين بنوها علـى الكثير وما عـداه عُدَّ شـاذًا، يقول ابن جنـى: جعل أهل علم الـعرب مـا استـمـر من الكلام فى الإعراب وغيـره من مواضع الصناعة مطردًا، وجـعلوا ما فارق ما عليـه بقية بابه، وانفـرد عن ذلك إلى غـيره شـاذا[3]؛ وعلى ذلك قـدم الناس فى أول المقـصور والممـدود ما يتـدارك بالقيـاس والأمارات، ثم أتلوه مـا لابد له من السماع والروايات، فقالوا: المقصور من حاله كذا، ومن صفته كذا، والممدود من أمره كـذا، ومن سببه كـذا، وقالوا فى المذكر والمؤنث: علامـات التأنيث كذا، وأوصـافها كذا، ثم لما أنجـزوا ذلك قالوا: ومن المؤنث الذى روى رواية كذا وكذا، فهذا من الوضوح على ما لا خفاء به[4].

والكثرة المطلوبة - كـما قالوا وكمـا حكاها عنهم ابن جنى - كثرة نسـبية، فالمثال الواحد كثير إذا لم يوجد غيـره، والأمثلة الكثيرة تعد قلة بالنسبة لما هو أكثر منها، وهكذا - على ما شـرحناه سابقا - وقد عقـد ابن جنى لذلك بابا فى جواز القياس على ما يقل ورفضه فيما هو أكثر منه[5]، وقال: هذا باب - إلى أنه تُعرف

(١) وأستاذه أبو على هو رائده فى ذلك، فهو لا يعتـد بالقليل، ولا يقيس على الشاذ. البغداديات لوحة ٢٥.
(٢) الخصائص ٢/ ٤٢.
(٣) نفسه ١/ ٩٧.
(٤) نفسه ٢/ ٤٢، ٤٣.
(٥) نفسه ١/ ١١٥.

صـورته - ظاهر التناقض إلا أنه مـع تأمله صـحيـح، وذلك أن يقل الشيء وهو قياس، ويكون غيره أكثر منه إلا أنه ليس بقياس:

الأول: قولهم فى النسب إلى شنوءة شَنَئِىّ فلك - مـن بعد - أن تقول فى الإضافة إلى قَتُوبة: قَتَبِىّ وإلى رَكُوبة: رَكَبِىّ وإلى حَلُوبة: حَلَبِىّ قياسا على شَنَئِىّ وذلك أنهم أجروا فَـعُولة مجـرى فَعيلة لمـشابهتـها إياها من عدة أوجـه، قال أبو الحسن: فإن قلت: إنما جاء هذا فى حرف واحد - يعنى شنوءة - قال: فإنه جميع ما جاء، وما ألـطف هذا القول من أبى الحسن، وتفسيره أن الذى جـاء فى فَعُولة هو هذا الحرف، والقـياس قابله، ولـم يأت فيه شىء ينقـضه، فإذا قـاس الإنسان على جميع ما جاء وكان أيضًا صحيحا فى القياس مقبولا فلا غرو ولا ملام. وأما ما هو أكثـر من باب شَنَئِىّ ولا يجوز القياس عليه، لأنـه لم يكن هو على قياس، فقولهم فى ثقـيف ثقفى وفى قريش قرشى وفى سليم سُلَمِىّ، فهـذا وإن كان أكثر من شَنَئِىّ فإنه عـند سيبـويه ضعيف فى القـياس، فلا يجـيز على هذا فى سعـيد سَعَدِىّ ولا فى كريم كَرَمِىّ[1]، فقد حكى لنا ابن جنى رأى السابقين[2] فى الكثرة وأن مفهومـها نسبى، فالمثال الواحد - كشنوءة - يقـاس عليه، لأنه لم يرد غيره، فعد كثيـرًا، والأمثلة الكثيرة مثل ثقفى وقرشى وسُلَمِىّ لا يقـاس عليها فى حذف ياء فَعيلة وفُعيلة لورود نظائر أكثر منهـا غير محذوفة الياء، ويعقب ابن جنى على ذلك بما يدل على صحة اعتماد القوم لهذا الملحظ اللغوى فيقول: فقد برد فى اليد من هذا الموضع قـانون يحمل علـيه ويرد غـيره إليـه، وإنما أذكر من هذا ونحـوه رسومًا لتقتدى، وأفرض منه آثارًا لتقتفى، ولو التزمت الاستكثار منه لطال الكتاب به وأمل قارئه[3].

وفى هذا تصـريح - جديد بأنه قـابل لمذهبـهم، وسالك طريقـهم، وهناك نصوص كـثيرة تدل على اعتـماد ابن جنى لمبدأ الكثرة المذكـورة تبعًا لسابقـيه من

(١) الخصائص ١/ ١١٥، ١١٦.

(٢) ولا ريب أنه يقصد بالقوم البصريين نظرا لأنه بصرى، ولأن اعتماد الكثرة على هذا النحو خاص بهم.

(٣) الخصائص ١/ ١١٦.

السلف، يقول: فلمـا رأى القوم كثيـرًا من اللغة مقيـسًا منقادًا وسمـوه بمواسمه، وغنوا بذلك عن الإطالة والإسـهاب فيـما ينوب عنه الاخـتصار والإيـجاز، ثم لما تجاوزوا ذلك إلى مـا لا بد من إيراده ونص ألفاظه التـزموا وألزموا كلفـته، إذ لم يجدوا منها بُدًا، ولا عنهـا منصرفًا، ومعاذ الله أن ندعى أن جميـع اللغة تستدرك بالأدلة قياسا، لكن مـا أمكن ذلك فيه قلنا به ونبهنا عليه، كمـا فعله من قبلنا ممن نحن له متبعون وعلى مثله وأوضاعه حاذون[1]، ويقول فى «باب اختلاف اللغات وكلهـا حجـة» «فأمـا أن تقل إحداهمـا جدا وتكثـر الأخرى جـدا، فإنك تأخـذ بأوسعـهما رواية، وأقـواهما قيـاسا، ألا تراك لا تقـول: مررت بكَ ولا المال لكَ قياسا على قـول قضاعة: المال لهُ ومررت بهْ ولا تقول: أكـرمتكِش ولا أكرمتكِس قياسـا على لغة من قال: مررت بكِش وعـجبت منكِس[2]، وما يقل يحفظ ولا يقاس عليه إلا فى ضرورة شعرية أو سجع، يقول «فإذا كان الأمر فى اللغة المعول عليهـا هكذا، وعلى هذا، فيـجب أن يقل استعـمالها، وأن يتـخير مـا هو أقوى وأشيع منها، إلا أن إنسـانا لو استعملها لم يكن مخطئـا لكلام العرب، لكنه كان يكون مخطـئًا لأجود اللغـتين، فأمـا إن احتاج إلى ذلك فى شـعر أو سـجع فإنه مقبول منه غير مَنْعِيٍّ عليه[3]، ويبدو اعتماده لمبدأ الكثـرة المذكورة أيضًا من حديثه فى «باب القول على الاطراد والشذوذ» الذى ذكر فيه أقسام الظواهر اللغوية - التى سنتكلم عنهـا قريبًا - وهو يجـعل أساسهـا السماع الكـثير عن العـرب، بل يبدأ الفصل بحديث لغوى عن مادة طرد ومادة شـذذ، ويتبين للباحث من خلال عرضه لهما أن أساس القياس الكثرة لا القلة والتفرد، ففى مادة طَرَد يقول: أصل مواضع طَرَد فى كلامهم التتابع والاستمرار، من ذلك طردت الطريدة إذا اتبعتها واستمرت بين يديك، ومنه مطاردة الفرسان بعضهم بعضا، ألا ترى أن هناك كرا وفرا، فكل يطرد صاحبه، ومنه المِطْرَدُ: رمح قصير يطرد به الوحش، واطرد الجدول: إذا تتابع ماؤه بالريح. أنشدنى بعض أصحابنا لأعرابىّ:

ما لكَ لا تذكرُ أو تزورُ ... بيضـاءَ بينَ حَاجبيهَا نُورُ
تَمشِـى كمَا يطَّرِدُ الغَديرُ

---

(1) نفسه ٢/ ٤٣ (2) نفسه ٣/ ١٠ (3) نفسه ٢/ ١٢.

ومنه بيت الأنصاري:

أتعرفُ رَسْمًا كاطِّرادِ المذاهِبِ

أى كتتابع المذاهب وهى جمع مُذْهَب، وأما مواضع (شَذَذَ) فى كلامهم فهو التفرق والتفرد، من ذلك قوله:

يَتركْنَ شَذَّانَ الحَصَى جَوافِلا

أى ما تطاير وتهافت منه. فهذا أصل هذين الأصلين فى اللغة، ثم قيل ذلك فى الكلام والأصوات على سمته وطريقه فى غيرهما[1].

فلا ريب أن هذا النص إيذان بأن قانون المطرد والشاذ هو الكثرة على ما قدمنا، إذ إنه حُذِىَ على سمت اللغة فى الكلام والأصوات، ومعها لا يحتاج إلى شىء آخر، لأنه لو كان محتاجًا إلى ذلك لما كان لهذه الحدود والقوانين التى وضعها المتقدمون، وتقبلوها، وعمل بها المتأخرون، معنى يفاد ولا غرض ينتحيه الاعتماد[2].

وأصرح من هذا فى الدلالة على أن ابن جنى سار على منهج البصريين فى أساس القياس ما ذكره فى «باب فى التطوع بما لا يلزم» عند التعقيب على أحد الأبيات يقول: واعتبرنا هذه اللغة وأحكامها ومقاييسها فإذا الملتزم أكثره واجب، وأقله غير واجب والحمل على الأكثر دون الأقل.

فإن قلت: فإن هذه القلة أفخر من الكثرة ألا ترى أنها دالة على قوة الشاعر، وإذا كانت أنبه وأشرف كان الأخذ يجب أن يكون بها، ولم يحسن العدول عنها مع القدرة عليها، وكما أن الحمل على الأكثر فكذلك يجب أن يكون الحمل على الأقوى أولى من الحمل على الأدنى.

قيل: كيف تصرفت الحال فينبغى أن يعمل على الأكثر لا على الأقل، وإن كان الأقل أقوى قياسا، ألا ترى إلى قوة قياس قول بنى تميم فى (ما) وأنها ينبغى أن تكون غير عاملة فى أقوى القياسين عند سيبويه، ومع ذا فأكثر المسموع عنهم

(١) نفسه ١/ ٩٦، ٩٧.
(٢) نفسه ٢/ ٤٢.

إنما هو لغة أهل الحجاز وبها نزل القرآن، وذلك أننا بكلامهم ننطق، فينبغى أن يكون على ما استكثروا منه يحمل، هذا هو قياس مذهبهم وطريق اقتفائهم[1].

فكل ما قدمت من نصوص كفيل بإثبات ما نوهت به من اتباع ابن جنى - بعد بحث واستقراء صحيحين - لمذهب القوم، ويقصد بهم البصريين فى انتهاج الأساس السليم للقياس اللغوى، والبناء على الكثير الغالب نسبيا على ما فصلناه، وسيتضح ذلك أكثر من تقسيمه لظواهر المطرد والشاذ فى اللغة، فقد حظر ما جاء مخالفا لذلك، وجعله مقصوراً على السماع «يتبع الوارد فيه لكنه لا يتخذ أصلا يقاس عليه غيره»[2]، أو لا يحسن استعماله إلا على وجه الحكاية[2].

أقسام القياس عند ابن جنى

قدمنا فى حديثنا السابق أقسام القياس عند المتقدمين من علمائنا بما أوضحه صاحب كتاب القياس فى اللغة العربية وغيره، والباحث فى كتب ابن جنى والمتتبع لآثاره يرى أنها تحوى أهم هذه الأقسام السابقة فى صور متفرقة، وهو يعتمد على النوعين الأول والثالث فى بيان مراد العرب فى أقيستهم على ما ذكره الإمام الخضر حسين، فمن القسم الأول ذكر أمثلة كثيرة لكلمات أخذت حكم غيرها للشبه الذى يجمع بينها، سواء كان الشبه لفظيا أو معنويا؛ فالشبه اللفظى مثل ما أورده فى «باب حمل الشىء على الشىء من غير الوجه الذى أعطى الأول ذلك الحكم» يقول: «اعلم أن هذا بابٌ طريقه الشبه اللفظى، وذلك كقولنا فى الإضافة إلى ما فيه همزة التأنيث بالواو، وذلك نحو حَمْراوىّ وصَفْراوىّ وعَشْراوىّ.. ثم إنهم قالوا فى الإضافة إلى عِلْباء عِلْباوىّ وإلى حِرْباء حِرْباوىّ فأبدلوا الهمزة وإن لم تكن للتأنيث لكنها لما شابهت همزة حمراء وبابها بالزيادة حملوها عليها.. ثم إنهم تجاوزوا هذا إلى أن قالوا فى كساء وقضاء: كِسَاوىّ وقَضاوىّ حملا لها على همزة علباء.. ثم إنهم قالوا من بعد فى قُرَّاء: قُرَّاوِىّ فشبهوا همزة قُراء بهمزة

---

(١) نفسه ٢/٢٥٩، ٢٦٠.

(٢) نفسه ١/٩٩

كساء من حيث كانت أصلا غير زائدة[1]، ومن الشبه المعنوى «ما ذهب إليه بعضهم فى ترك تصرف «ليس» إلى أنها ألحقت بما كما ألحقت ما بها فى الفعل فى اللغة الحجازية، وكذلك عسى قيل إنها منعت التصرف لحملهم إياها على لعل[2]، ثم إنهم شبهوا الفعل المضارع بالاسم فأعربوه[3]، ومما علل به لإعمال ما النافية، وإهمالها، يقول: كأن أهل الحجاز لما رأوها داخلة على المبتدأ والخبر دخول ليس عليهما ونافية للحال نفيها إياها أجروها فى الرفع والنصب مجراها إذا اجتمع فيها الشبهان بها، وكأنَّ بنى تميم لما رأوها حرفا داخلا بمعناه على الجملة المستقلة بنفسها، ومباشرةً لكل واحد من جزءيها كقولك ما زيد أخوك وما قام زيد أجروها مجرى هل، ألا تراها داخلة على الجملة لمعنى النفى، دخول هل عليها للاستفهام، ولذلك كانت عند سيبويه لغة التميميين أقوى قياسا من لغة الحجازيين[4]، ومن القسم الثالث يقول ابن جنى: «إنهم يقولون فى وصايا الجمع: إن ما كان من الكلام على (فَعْل) فتكسيره على (أفعُل) ككلب وأكلُب وكعب وأكعُب وفرخ وأفرُخ، وما كان على غير ذلك من أبنية الثلاثى فتكسيره فى القلة على (أفعال) نحو جبل وأجبال، وعنق وأعناق، وإبل وآبال، وعجُز وأعجاز، وحِمْل وأحمال.. فليت شعرى هل قالوا هذا ليعرف وحده أو ليعرف هو ويقاس عليه غيره؟ ألا تراك لو لم تسمع تكسير واحد من هذه الأمثلة، بل سمعته منفردًا أكنت تحتشم من تكسيره على ما كُسِّر عليه نظيره؟ لا بل كنت تحمله عليه للوصية التى تقدمت لك فى بابه، وذلك كأن يحتاج إلى تكسير الرِّجْز الذى هو العذاب فكنت قائلا لا محالة: أرجاز، قياسا على أحمال، وإن لم تسمع أرجازا فى هذا المعنى..»، ثم يقول بعد ذلك: ولا يحتاج أن يتوقف إلى أن يسمعه، لأنه لو كان محتاجا إلى ذلك لما كان لهذه الحدود والقوانين التى وضعها المتقدمون وتقبلوها، وعمل لها المتأخرون معنى يفاد[5]... فلما رأى القوم كثيراً من اللغة مقيسًا منقادًا وسموه بمواسمه، وغنُوا بذلك عن الإطالة والإسهاب فيما

(١) نفسه ١/٢١٣، ٢١٤.
(٢) نفسه ١/٣١١.
(٣) نفسه ١/٣٠٤.
(٤) نفسه ١/١٦٧.
(٥) نفسه ٢/٤١، ٤٢.

ينوب عنه الاختصار والإيجاز»[1]، «فهذا مذهب العلماء بلغة العرب وما ينبغى أن يعمل عليه ويؤخذ به»[1]، وهذا القسم الثالث هو مدار البحث اللغوى الذى نعتمد عليه، وتحدث عنه ابن جنى تفصيلا، مقسما على أساسه الظواهر اللغوية إلى أربعة أنواع[2]، ففى «باب القول على الاطراد والشذوذ» و«باب تعارض السماع والقياس» بين أن الكلام فى الاطراد والشذوذ على أربعة أضرب:

١- مطرد فى القياس والاستعمال جميعًا، وهذا هو الغاية المطلوبة، والمثابة المنوبة، وذلك نحو: قام زيد وضربت عمرًا ومررت بسعيد.

٢- مطرد فى القياس شاذ فى الاستعمال، وذلك نحو الماضى من يذر ويدع وكذلك قولهم: مكان مُبقل، هذا هو القياس، والأكثر فى السماع باقل، والأول مسموع أيضًا. قال أبو دُوَاد لابنه دُوَاد: يا بنىّ ما أعاشك بعدى؟ فقال دُوَاد:

أعَاشَنِى بعدَكَ وادٍ مُبْقِلُ   آكلُ من حَوْذَانِه وأَنسِلُ

وقد حكى أيضًا أبو زيد: مكانٌ مُبْقِلٌ.

٣- مطرد فى الاستعمال شاذ فى القياس، نحو قولهم: أخوصَ الرِّمْثُ[3]، واستَصْوَبْتُ الأمرَ، ومنه استحوذ، وأغيلت المرأة[4]، واستنوقَ الجملُ واستتيستِ الشاةُ وقول زهير:

هُنَالكَ إنْ يستخوِلُوا المالَ يُخْوِلُوا[5]

ومنه استَفْيلَ الجملُ، قال أبو النجم:

---

(١) نفسه ٢/ ٤٣.

(٢) هذه الأقسام تبع فيها أستاذه الفارسى ونقلها عنه مع التفصيل والتعليل القوى للشاذ الذى انفرد به عن أستاذه. انظر المسائل العسكرية، الباب الرابع (باب ما كان شاذا فى كلامهم)، والإغفال ص٦٨ وما بعدها.

(٣) الرمث: شجر ترعاه الإبل، وإخواصه: أن يبدو فيه ورق ناعم كأنه خوصة.

(٤) إذا أرضعت ولدها وهى حامل.

(٥) استخوال المال: أن يسأل ناقة عارية للبنها وأوبارها أو فرسا للغزو عليها، وإخواله: إعطاؤه.

يُديرُ عَيْنَىْ مُصْعَبٍ مُسْتَفْيِلِ[1]

٤- شاذ فى القياس والاستعمال جميعا، كتتميم مفعول فيما عينه واو، نحو: ثوبٌ مصوُون، ومسكٌ مدْوُوف[2]، وحكى البغداديون فَرسٌ مَقْوُود، ورجلٌ مَعْوُود من مرضه[3].

فإذا فشا الشيء فى الاستعمال وقوى فى القياس، فذلك ما لا غاية وراءه، نحو منقاد اللغة من النصب بحروف النصب، والجر بحروف الجر، والجزم بحروف الجزم، وغير ذلك مما هو فاش فى الاستعمال قوى فى القياس، وأما ضعف الشيء فى القياس وقلته فى الاستعمال فمردود مطرح، غير أنه قد يجيء منه الشيء إلا أنه قليل[4]، فلا يسوغ القياس عليه، ولا رد غيره إليه، ولا يحسن أيضًا استعماله فيما استعملته فيه إلا على وجه الحكاية[5]، واعلم أن الشيء إذا اطرد فى الاستعمال وشذ عن القياس فلا بد من اتباع السمع الوارد به فيه نفسه، لكنه لا يتخذ أصلا يقاس عليه غيره، ألا ترى أنك إذا سمعت: استحوذ واستصوب أديتهما بحالهما ولم تتجاوز ما ورد به السمع فيهما إلى غيرهما، ألا تراك لا تقول فى استقام: استقوم، ولا فى استساغ: استسوغ ولا فى استباع: استبيع ولا فى أعاد: أعود لو لم تسمع شيئًا من ذلك، قياسا على قولهم أخوص الرمث[5]، فإن كان الشيء شاذا فى السماع مطردًا فى القياس تحاميت ما تحامت العرب من ذلك، وجريت فى نظيره على الواجب فى أمثاله، من ذلك امتناعك من وذر وودع لأنهم لم يقولوهما، ولا غرو عليك أن تستعمل نظيرهما نحو: وزَن ووعَد لو لم تسمعهما. فأما قول أبى الأسود:

لیتَ شِعْرِى عنْ خَلِيلى ما الذى   غَالهُ فِى الحبِّ حَتَّى ودَعه

فشاذ، وكذا قراءة بعضهم ﴿مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾ [الضحى] -بتخفيف دال (ودَعك) - ومن ذلك استعمالك أن بعد كاد نحو: كاد زيد أن يقوم هو قليل

---

(١) المصعب: الذى لم يذلل.
(٢) مخلوط أو مبلول.
(٣) الخصائص ١/ ٩٧-٩٩.
(٤) نفسه ١/ ١٢٦.
(٥) نفسه ١/ ٩٩.

شاذ فى الاستعمال، وإن لم يكن قبيحا، ولا مأبيا فى القياس، ومن ذلك قول العرب: أقائم أخواك أم قاعدان؟ هذا كلامها. قال أبو عثمان: والقياس يوجب أن تقول: أقائم أخواك أم قاعدٌ هُمَا؟[1]، إلا أن العرب لا تقوله إلا قاعدان فتصل الضمير[2]، والقياس يوجب فصله ليعادل الجملة الأولى[3]. وعدم جواز استعمال ما تحامته العرب مبنى على أنها قد استغنت عنه بغيره، فقد استغنوا عن وذَر وودَع وإن كان مسوغًا قياسا بترك[4]، واستغنوا أيضًا عن استعمال أن بعد كاد بعدم استعمالها فيقولون: كاد زيد يقوم مكان: كاد زيد أن يقوم[5]، واستغنوا عن قولهم: أقائم أخواك أم قاعدٌ هُمَا بقولهم: أقام أخواك أم قاعدان؟[6]، واستعمال ما رفضته العرب لاستغنائها بغيره جار فى حكم العربية مجرى اجتماع الضدين على المحل الواحد فى حكم النظر؛ وذلك أنهما إذا كانا يعتقبان فى اللغة على الاستعمال جريا مجرى الضدين اللذين يتناوبان المحل الواحد، فكما لا يجوز اجتماعهما عليه فكذلك لا ينبغى أن يستعمل هذان، وأن يكتفى بأحدهما عن صاحبه، كما يحتمل المحل الواحد الضد الواحد دون مراسله[7]، ولكن الشاعر إذا اضطر جاز له أن ينطق بما يبيحه القياس وإن لم يرد به سماع - مما استغنت فيه العرب بغيره - كما فى قول أبى الأسود السابق[8]، أما ما لم تنطق به العرب مما

---

(١) لان الوصف يستغنى بالظاهر والضمير المنفصل دون المستتر، ويرى ابن هشام أنه استغنى هنا بالمستتر على خلاف القياس لانه يغتفر فى الثوانى ما لا يغتفر فى الأوائل، ويرى غيره أن أم منقطعة وقاعدان خبر لمبتدأ محذوف أى أم هما قاعدان. وانظر الصبان على الأشمونى ١/ ١٩٠، ١٩١.

(٢) يريد الضمير المستتر فى (قاعدان) فإنه نوع من المتصل.

(٣) الخصائص ١/ ٩٩، ١٠٠، وانظر أيضًا ١٢٤-١٢٦.

(٤) نفسه ١/ ٢٦٦، ٣٩١. (٥) نفسه ١/ ٣٩١.

(٦) نفسه ١/ ١٠٠ فأما امتناعهم من استعمال أفعال الويح والويل والويس والويب فليس للاستغناء بل لان القياس نفاه، ومنع منه، وذلك أنه لو صرف الفعل من ذلك لوجب اعتلال فائه كوعد وعينه كباع، فتحاموا استعماله لما كان يعقب من اجتماع إعلالين، انظر الخصائص ١/ ٣٩٢، ٣٩٣.

(٧) نفسه ١/ ٣٩٦، ٣٩٧. (٨) نفسه ١/ ٣٩٦.

يجرى على القياس - ولم تستغن عنه بغيره - فلك أن تستعمله جريا على أمثاله، فأنت تقول وزَن ووعَد وإن لم تسمعهما قياسا على نظائرهما من وثَب ووقَف ووكَل ونحوها، وكذلك لو احتجت إلى تكسير دِمَثْر لقلت دَماثر قياسا على سِبَطر وسبَاطر، وكذلك قولهم: إن كان الماضي على فعَل فالمضارع منه على يفعِل، فلو أنك على هذا سمعت ماضيا على فعُل لقلت فى مضارعه يفعُل وإن لم تسمع ذلك كأن يسمع سامع ضؤُل ولا يسمع مضارعه فإنه يقول فيه: يضؤُل وإن لم يسمع ذلك، ولا يحتاج أن يتوقف إلى أن يسمعه، لأنه لو كان محتاجًا إلى ذلك لما كان لهذه الحدود والقوانين التى وضعها المتقدمون وتقبلوها، وعمل بها المتأخرون، معنى يفاد، ولا غرض ينتحيه الاعتماد، ولكان القوم قد جاءوا بجميع المواضى، والمضارعات، وأسماء الفاعلين، والمفعولين، والمصادر، وأسماء الأزمنة والأمكنة، والآحاد والثنائى، والمجموع والتكابير والتصاغير، ولما أقنعهم أن يقولوا: إذا كان الماضى كذا وجب أن يكون مضارعه كذا، واسم فاعله كذا، واسم مفعوله كذا، واسم مكانه كذا، واسم زمانه كذا، ولا قالوا: إذا كان المكبَّر كذا، فتصغيره كذا، وإذا كان الواحد كذا، فتكسيره كذا، دون أن يستوفوا كل شيء من ذلك فيوردوه لفظًا منصوصًا معينًا لا مقيسًا ولا مستنبطًا كغيره من اللغة التى لا تؤخذ قياسا ولا تنبيهًا[1].

ومعنى ذلك أن شيئين اتفق عليهما، وهما المطرد قياسا واستعمالا، والشاذ فيهما، وأما الآخران فيقتصر فيهما على الوارد عن العرب والمسموع، فالقسم الثالث يقتصر على المسموع منه، والقسم الثانى يترك منه ما تركه العرب، ويقاس الباقى، وقد أوضح ذلك الأستاذ الإمام محمد الخضر حسين[2].

ورأى ابن جنى هذا قد تعرض لنقود بعض المحدثين، فالدكتور تمام حسان يرى أن سلوك ابن جنى فى هذه الأقسام سلوك منطقى، يجرى فى ظل منطق أرسطو[3]، ويوضح وجهة نظره بقوله: «فالقسم الثانى من الأقسام الأربعة وهو

(١) نفسه ٢/ ٤١، ٤٢. (٢) القياس فى اللغة العربية ٧١، ٧٢.

(٣) اللغة بين المعيارية والوصفية ٣٨، ٣٩.

المطرد فى القياس الشاذ فى الاستعمال لا يبدو أنه استغمل فى كلام العرب، إذ إن الأمثلة التى أوردها ابن جنى على هذا القسم تنحصر فى بيت، وقراءة، ومثال، فالبيت لا يبعد أن يكون مصنوعًا، وليست الصناعة نادرة فى شواهد النحو واللغة، وحتى على فرض صحة البيت لا أجد مانعا عروضيا ولا معنويا يمنع الدال من التشديد، وأما القراءة فيسميها هو بنفسه شاذة، وأنا أتحرج من الطعن فيها، ولكن يكفى ألا يذكرها ابن الجزرى فى الكلام عن سورة الضحى[1]، وأن القراءات كلها فيما عداها مجمعة على تشديد الدال على نحو ما اقترحنا فى قراءة البيت، وأما المثال أقائم أخواك أم قاعدان؟ فحجته لغة مشهورة ورد عليها: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ... ③﴾ [الأنبياء]، ويكون الفاعل هنا مستترا، والألف علامة الاثنين والنون للرفع، والتقدير أم قاعدان هما، أو يكون التقدير: أم هما قاعدان، والألف فاعل، ولا شذوذ عن القياس، فإذا صح ذلك فيما جاء به من شواهد كان الكلام عن القياس هنا كلاما لا يعضده شاهد واحد من شواهد اللغة، ومن هنا نستطيع أن ندرك خطر فرض المعايير على دراسة اللغة، أما كلامه على القسم الثالث وهو المطرد فى الاستعمال الشاذ فى القياس فلست أدرى كيف يرضاه اللغويون؟ فالقياس يقصد به دائمًا أن يكون جاريا على الاستعمال المطرد فإذا كان القياس مخالفا للاستعمال المطرد، فلست أدرى مبناه ولا وجهه، وإن كل مبنى وكل وجه يمثل هذا القياس لا يقبل مهما أجاد المدافعون عنه فى دفاعهم، والرابع فى القسمة لا يرضاه الاستعمال اللغوى ولا القياس، ولكن القسمة المنطقية التى تجرى فى ظل منطق أرسطو جعلت ابن جنى يورده، ويحتج له مما حكاه البغداديون، ولكن لا يعين واحدًا منهم، ولا شاهدًا لهم، أفبعد هذا يدعى أن القياس وسيلة منهجية فى دراسة اللغة؟[2].

والمتأمل لما وجهه الدكتور تمام يرى أنه يرغب فى إلغاء ما عدا القسم الأول من أقسام القياس الأربعة التى ذكرها ابن جنى، ويؤكد أن ذكرها فرض لمعايير المنطق على اللغة، ويبدو لنا أن تكلفه لتخريج الأمثلة لا يؤدى بنا إلى إلغاء القسم الثانى:

---

(١) النشر ١/ ٤٠١.

(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية ٣٧-٣٩.

١- لأنه مبنى علـى الاحتمـال والظن لا على سبيل القطـع واليقين، فهـو يقول: البيت لا يـعد أن يكون مصنوعـًا، ويقول عن القـراءة: أنا أتحرج من الطعن فيها، وبعد تخريج الأمثلة علـى رأيه، يقول: فإذا صح ذلك فيما جاء به من شواهد كان الكلام عن القياس كلاما لا يعضده شاهد واحد، وهذا الأسلوب الذى اتبعه فى إبداء رأيه لا يكفى لإزالة القسم من أساسه.

٢- قوله: بأن البيت مصنوع لا يؤيده دلائل من الواقع ولا من التاريخ.

٣- كون القـراءة لم يشر إليـها ابن الجزرى لا يدل على نفـيها، فـليس كل ما لم يذكره يعد ضـعيف السند، وقد نقلها عالمنا ابن جنى فى المحـتسب عن ثقات الرواة ممن جمع القراءات الشـاذة كابن مجاهد وغيـره وهى منسوبة إلى النبى ﷺ وعروة بن الزبير[١].

٤- هناك شواهد أخرى تحمل مـا شذ استعمالا لا قياسا فـوثقت روايتها من عالمنا الراوية ابن جنى، فقد روى قول تأبط شرا:

فَأُبْتُ إِلَى فَهْمٍ ومَا كِـدْتُ آيِبًا ... وكمْ مِثلِها فارقْتُهَا وَهْىَ تَصفِرُ

وإذا كان هذا البـيت قد روى برواية أخرى هى (ولم اك آيبًا) - كـما ذهب إليـه المرزوقى - فإن الرواية - كـما ذكـرها ابن جنى - حقـيقـة بالقبـول دون ما عداها[٢]، ومثله ما أنشده أبو على من قوله:

أَكْثَرْتَ فِى العذْلِ مُلِحًا دَائِمًا ... لا تكْثِـرَنْ إِنِّى عَسِيتُ صَائِمًا

ومنه المثل: عَسَى الغُوَيرُ أَبْؤُسًا[٣].

ففى تلك الشواهد جعـل خبر كاد وعسى اسما صـريحًا، وهذا هو القياس غير أن السماع ورد بحظره والاقتصار على تركه[٣].

---

(١) المحتسب ٢/٣٦٤. (٢) انظر ص ٢٠٥ من كتابنا.

(٣) الخصائص ١/٩٨، ومـعنى المثل: الغوير - كزبير - تصـغير غار وهو ماء مـعروف لبنى كلب، وهذا المثل قالته الزباء لقومـها مريدة: لعل الشر يأتيكم من قبل الغوير، أو هو تصـغير غار لان أناسا كانوا فى غـار فانهار عليهم، أو أتاهم فيه عـدوّ، فقتلوهم، فصار مثـلا لكل ما يخاف أن يأتى منه شر. القاموس المحيط. ط السعادة ٢/١٠٥، ١٠٦.

٥- لا يوجد ما يمنع من صحة استعمال هذه الأمثلة، مع قلة ورودها ومخالفتها لما اشتهر استعماله عنهم، فالمعروف أن ما يوافق الشائع القياسى يجوز استعماله وهم أرباب اللغة ومالكوها، وعلى هذين الوجهين - القياس والاستعمال - عدت مطردة وشاذة.

ويجاب عن القسم الثالث بما ذكرنا، فلا تناقض بين الاطراد والشذوذ، لأن الجهة مختلفة، والمعنى كذلك مختلف، فالمقصود بالاطراد فى هذا القسم أن الأمثلة المذكورة كاستحوذ وأمثاله تأكد سماعها عن العرب على هذا الوجه دون غيره، ودون الاستعاضة عنها بغيرها، والشذوذ هو خروجها على القواعد المؤكدة بالأمثلة الكثيرة كاستقام ونحوه، فمثل استحوذ مطرد بمعنى جاء عن العرب هكذا، ولكن لقلة أمثلته عد شاذا لا يقاس عليه فلا تناقض.

وأما أن القسم الرابع لا يرضاه الاستعمال اللغوى فهذا أمر مسلم له، والقسمة المنطقية فعلا تقتضيه، ولكننا لا نرى بأسا من ذكره فى الأقسام تنبيها للناطقين واللغويين على أنه لا يجوز استعمال غير ما ورد فى اللغة، وسمع عن العرب، فلا معنى إذًا لأن يدعى الدكتور تمام أن القياس ليس وسيلة منهجية فى دراسة اللغة، إذ إن هذه الأقسام كانت نتيجة بحث علمى، ودراسة واقعية، أوضحت الظواهر اللغوية ومهدتها للبحث والاستعمال على أسس منهجية سليمة.

ويرى الأستاذ عباس حسن أن رأى ابن جنى فى هذه الأقسام فيه غموض وتناقض:

١- فالغموض حصره فى نقطتين إحداهما هى القلة والكثرة وغموض مفهومهما عند ابن جنى كغيره من القدامى، والأخرى هى منعه القياس على المطرد قياسا لا استعمالا، ونورد كلامه بنصه لنقرر دعواه ثم نناقشها.

(أ) ابن جنى اعتمد فى الاطراد والقياس على الشيوع والكثرة من غير أن يبين مداهما ولا حدودهما، فصادفتنا وجها لوجه تلك المشكلة المعقدة التى أشرنا إليها فيما سبق[1] ولقد سرد أمثلة ستة للمطرد فى الاستعمال الشاذ فى القياس

(١) انظر ص ٤٣٩ وما بعدها من كتابنا.

هى: (أخوص - استصوب - استحـوذ - أغيل - استنوق - استتيس) وقطع بعدم القياس عليـها، ومعنى ذلك أن ورود ستة نظائر لا يكفى للمحـاكاة، وأنها قلة لا تبيح القياس، فما الكثرة التى تبيحه إذاً؟ على أنه حين سرد الأمثلة الستة ترك كثيراً غيرها من الألفاظ الخارجة على القياس، ومما تركه: أروح اللجم - أحوز الإبل - أعور الفارس - أحوش عليه الصيـد - أعوض بالخصم - أفوق بالسهم - أشوكت النخلة - أحول الغلام - أطولت (أطلت) - أعـول الرجل - أقولتنى ما لم أقل - أغيمت السماء - أنوكت الرجل - أعوه القوم (أصابت ماشيتهم عاهة) - أحوجنى الأمر. . هذا على ما ذكره يبلغ واحـدا وعشرين عدا أمثلة كثيرة مـتفرقة فى بطون المعاجم، فهلا يكفى ذلك القدر للقياس عليه؟(١).

(ب) منع ابن جنى القـياس على المطرد قيـاسا لا استـعمالا، كـماضى يذر ويدع وباقل، مع أن العرب - كـما سبق - قد نطقت بكل من الفـعلين الماضيين، وبكلمة مُبقل، فما الحكم لو لم تنطق؟ وبعبارة أجلى: أيجوز لنا أن نصوغ ماضى هذين الفعلين كنظائرهما، فنـقول وذَر ودَع وأن نجىء باسم الفاعل من أبقل على وزن مُبقل ولو لم نسـمع ذلك من العرب الخلص؟ إن جاز ذلك كان القـياس عينه وإن لم يجز أشكل الأمـر بسبب منع كلمـة أن تصاغ على وزان نظائرها الكثـيرة، وشىء آخـر هو أن بعض القـراء قـرأ الآية الكريمة ﴿مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى] - بتخفيف دال (وَدَعَك) - أفيكون شاذا فى الاستعمال مع قراءة القرآن به؟ وهل يقبل ما يقال: إن القـرآن قد يأتى بالشاذ استعمـالا لكنه مطرد قياسا؟ إذ كيف يتفق القول أن يكون القرآن أسمى لغة عربية مع اشتماله على الشاذ استعمالا فأين غير الشاذ فى الاستعمال إذاً؟(٢).

٢- وأما التناقض: فحيث يقول فيما سبق: إن الشاذ فى القياس والاستعمال مما لا يجوز القياس عليه ولا رد غيره إليه، ويضرب لذلك مثلا بتتميم مفعول فيما

(١) اللغة والنحو ٥١، ٥٢ بتصرف. وانظر فى الأمثلة التى أوردها: المزهر للسيوطى، ط. دار إحياء الكتب العربية ١/ ٢٣١.

(٢) نفسه ٥٢-٥٤ بتصرف.

عينه واو نحو ثوب مصوُون ومسك مدوُوف مع أن هذا التميم لغة تميم تجعله فى الواوى العين وفى اليائى كذلك، فهى تقول: رجل مديون كما تقول: ثوب مصوُون[1] وقد قرر ابن جنى وغيره أن الناطق على قياس لغة من اللغات مصيب غير مخطئ فكلامه هنا مناقض لما سبق أن قرره هو وسواه[2].

ويشرح الأستاذ عباس رأيه فى الأقسام الأربعة تفصيلا فيقرر أن النوعين المطرد قياسا واستعمالا والشاذ فيهما لا يخالف رأيه ما قال ابن جنى فيهما، ولكنه يخالفه فى النوعين الأخيرين.

١- فالنوع المطرد قياسا لا استعمالا يذهب فيه مذهب أشباهه ويرده إليها، متابعة لرأى اللغويين السالف[3] سواء كان العرب قد سبقوا للرد أو لم يسبقوا، فنقول: أبقلت الأرض فهى مُبقل ومُبقلة، وودَعت اللص للشرطى ووذَرته، لا نسأل: أقالت العرب ذلك أم لم يقولوا ما دام النمط العربى الغالب يقضى بأن اسم الفاعل من غير الثلاثى على وزن المضارع مع إبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل الآخر، وتزيد فى آخره التاء للتأنيث ما دامت هذه التاء تزاد آخر المشتقات إلا ما استثنى منها، وليس من المستثنيات مُبقل وأمثالها، ونأتى بالماضى للفعلين يدع ويذر جريا على نظائرهما فى النمط العربى أيضًا - كما يشير بعض الأئمة -، على أنه لا مانع فى هذا النوع من استعمال اللفظ المسموع ذاته لاتساع اللغة بشرط أن يكون هذا المسموع عن العرب المخالف للقياس لفظًا كاملاً تنصب المخالفة فيه على صيغة الكلمة وتكوينها المادى الكامل (أى على متنها وبنيتها)، فلا تكون المخالفة عرضية مقصورة على حركات الحروف وضبطها من الوجهة الإعرابية، أو على حذف حرف أو زيادته فى الإعراب، فإن محاكاة هذه المخالفة العرضية وحدها مع جوازها ضارة غاية الضرر اليوم - كما أسلفنا - إذ تبعث الفوضى والاضطراب والاختلاف فى بناء هيكل الكلمة، وفى ضبط

(١) تاج العروس (دان)، (صان). (٢) اللغة والنحو ٥٤.

(٣) يقصد تكملة المواد الناقصة التى ورد عن العرب بعضها، وقد أقره المجمع اللغوى: انظر التعليق فى كتابه: اللغة والنحو، ص٥٣.

حروفها، وفهم المراد منها، ومن الجملة، وهذا مصدر بلاء عظيم فى التعبير يجب الفرار منه، فإذا رأينا جمع مؤنث سالما منصوبا بالفتحة، أو اسما من الأسماء الخمسة مرفوعًا بالألف، أو خبرًا لإن منصوبًا أو مفعولاً مرفوعًا... إلخ، وجب ألا نتردد فى نبذه، وعدم التفكير فى محاكاته كيلا نفتح باب البلبلة الذى نسعى فى عصرنا لسده[1].

٢- وأما النوع المطرد فى الاستعمال دون القياس فلا مانع من اتخاذه مقيسًا ترد إليه نظائره، ويقاس عليه غيره، مما لم ينطق به العرب، ولا مانع كذلك من الرجوع إلى المقيس الأصلى، فإذا أردنا أن نصوغ استفعل من باع فلنا أن نقول: استباع (تطبيقًا للمقيس عليه الأصلى)، ولنا أن نقول (استبيع) كاستحوذ واستصوب كما يجرى اليوم على ألسنة الناس بفطرتهم (تطبيقًا على المطرد فى الاستعمال دون القياس) ومثل هذا استفعل من دان فنقول: استدان أو استدين وهكذا[2].

ويبدو لنا أن نخالفه فيما ذهب إليه:

١- نخالفه فى ادعائه أن الغموض يحوط الاطراد والقياس عند ابن جنى، لغموض مفهوم الكثرة عنده، ذلك أن الأمثلة التى أوردها ابن جنى للمطرد فى الاستعمال الشاذ فى القياس وهى ستة والأمثلة الأخرى التى أوردها الأستاذ حتى بلغ العدد واحدًا وعشرين عدا أمثلة متفرقة فى بطون المعاجم - على حد تعبيره - هذه الأمثلة جميعها فيما أرى لا تستدعى جواز القياس عليها -كما ادعى الأستاذ- ذلك أنها وإن كثرت فى نظره فإن الشواهد المعلة المقابلة لها والتى بنيت عليها قاعدة الإعلال فى استقام واستفاد ونحوهما لا تدخل تحت حصر، وهى أمثلة تعد بالمئات بل الآلاف، وأعتقد أن الواحد والعشرين وما يمكن أن يضاف إليها بالبحث فى المعاجم تعد قلة قليلة بالنسبة لما سبق، فلا يجوز القياس عليها، فليس مفهوم الكثرة غامضًا هنا لأننى ذكرت فيما مضى أن اعتبار القلة والكثرة مسألة نسبية فقد يعد الشىء كثيرًا بالنسبة لشىء آخر وقليلاً بالنسبة لشىء ثالث.

---

(١) نفسه ٥٥-٥٧.   (٢) نفسه ٥٧.

وأيضًا فلو أخذنا برأيه فى القياس على الأمثلة المذكورة لأدى ذلك إلى التلاعب فى أصول اللغة، ويمكن أن نأخذ جانبا من كلامه دليلا لنا فى هذا الموضوع، فقد منع فى بعض الأمثلة المسموعة المخالفة للقياس أن تستعمل إذا كانت المخالفة تتصل بحركات الحروف وضبطها من الوجهة الإعرابية، وقال: إن استعمالها يكون مصدر بلاء عظيم فى التعبير يجب الفرار منه كى لا نفتح باب البلبلة الذى نسعى فى عصرنا لسده، فكيف يسمح بالقياس على استحوذ ونحوه مع أنه يفتح بابا آخر للبلبلة؟!.

٢- كذلك نخالفه فى المطرد قياسا الشاذ استعمالا، فابن جنى يمنع القياس عليه إذا كانت العرب قد تحامته للاستغناء عنه بغيره، ويجيز القياس فى الباقى، وهذا رأى دقيق، فالاستغناء عادة عربية - كما يقول أستاذنا الدكتور نجا[١]، وهو أدل على حكمة العرب، فوضع كلمتين لمعنى واحد من واضع واحد عبث ينأى عنه الواضع الحكيم، فلما استعملت العرب نظائر لما أهملته كترك بدلا من ودَع ووذَر والفعل المضارع مكان الاسم فى خبر كاد وعسى ونحوهما ولم تقرنه بأن كان هذا إيذانا صريحًا منها بعدم استعمالها لما استغنت عنه. وقد قرر الإمام الأكبر الخضر حسين أن كثرة استعمال مثل ويح وويل ونعم ويذر فى موارد كلام العرب دون أن يتصرفوا فيه دليل على قصدهم لإبقائها على هيئتها، فمن تصرف فيها فقد أتى بها على وجه قصد العرب إلى تركه، والناطق بما يقصدون إلى إهماله ناسج على غير منوالهم، وناطق بغير لهجتهم[٢]، وقد نهج الأستاذ عباس على منوال بعض العلماء فى جواز استعمال المستغنى عنه كوذَر وودَع فقد قال بذلك ابن درستويه فى شرح الفصيح وعبارته: «إنما أهمل استعمال ودَع ووذَر لأن فى أولهما واوا، وهو حرف مستثقل، فاستغنى عنهما بما خلا منه وهو ترك، ثم قال: واستعمال ما أهملوا من هذا جائز صواب، وهو الأصل، وهو فى القياس الوجه وهو فى الشعر أحسن منه فى الكلام»[٣]، ولكن هذا غير معتمد، لأن الحكمة شاهدة بما نقول وهو مذهب جمهور أهل العربية كما يقول الأستاذ الإمام[٤]، أما

---

(١) اللهجات العربية ٥٧.

(٢) القياس فى اللغة العربية ٧١، ٧٢.

(٣) المزهر، ط١٢٨٢هـ، ٢/ ٢٥.

(٤) القياس فى اللغة العربية ٧١، ٧٢.

ما لم يستغن عنه العرب فلا جدال فى جواز القياس عليه وإن لم يرد به سماع كما قدمنا.

وعلى ما شرحنا قد سار المجمع اللغوى فقرر أنه حين تذكر كتب اللغة المصادر ولا تذكر أفعالها أو العكس، أو حين يذكر الفعل الثلاثى ولا يذكر بابه، هنا يستطيع المرء أن يلجأ إلى القياس ليستنبط مجهولا من معلوم، ومثل هذا القياس إذا أتيح لنا يكمل نقصا كبيراً فى المعاجم، وهنا تتحقق ميزة القياس فى نمو اللغة واتساعها.

ومسألة القياس على ما سمع عن العرب مخالفًا لقواعد البصريين وأصولهم، وكل ما يرد وضعه وضعا جديدا ولا نظير له بين الأساليب المروية كانت محل نزاع منذ القديم وحتى العصر الحاضر، فقد انقسم العلماء فريقين؛ مجددين ومحافظين، وظل الجدل قائمًا بينهم فى كل العصور، كما ظلت الخصومة ناشبة فى مجالسهم ينتصر المجددون حين تبرق بارقة من حرية القول كتلك التى كانت على يد المعتزلة، وتخبو جذوتهم حين تشيع روح المحافظة، كتلك التى كانت أيام المتوكل الذى نكل بالمعتزلة ومن على شاكلتهم من أحرار الفكر، فقد كان لحرية الرأى فى الأمور الفلسفية والاجتماعية صدى فى البحوث اللغوية أيضًا، وقد استمر الانقسام بين مجددين ومحافظين إلى الآن، وفى القرن العشرين، وازداد هذا الصراع عنفًا منذ إنشاء مجمع اللغة العربية على أن المجمع فى بعض دوراته قد انتصر للأخذ بالقياس فى مسائل معينة رأى الحاجة ماسة إليها[1].

ولا عجب فى ذلك فاللغة - كما يقول الأستاذ الزيات - لا يمكن أن تثبت ثبات الدين ولا أن تختم ختام النبوة لأنها ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم والأغراض لا تنتهى والمعانى لا تنفد[2].

---

(١) من أسرار اللغة ١٥، ١٧، ط٣، وانظر الجلسة التاسعة من محاضر مؤتمر المجمع الدورة (١٥)، ومجلة المجمع ٧/ ٣٥٣-٣٥٥.

(٢) مجلة الأزهر عدد يناير سنة ١٩٦٧، من مقال بعنوان (لغتنا بين الجمود والميوعة).

نتائج البحث

رأينا أن السبب فى وضع القواعد هو سريان اللحن بعد أن فسدت السلائق، واختلط العرب بغيرهم، وقد درست اللغة بعد أن جمعت مادتها من الأعراب الخلَّص، وقد أشرنا إلى العرب الذين تؤخذ عنهم اللغة، وعارضنا من قال: إن القبائل التى أخذت عنها اللغة كانت متأثرة بالحضارة والاتصال بالفرس والروم، وبينا أن ذلك غير سديد من الوجهة التاريخية والواقعية، وعرضنا وجهة ابن جنى فى الاقتصار فى أخذ اللغة على الفصحاء دون سواهم، ودفعنا عنه نقد بعض المحدثين فى بقاء بعض المدن على فصاحتها حتى عهد ابن جنى، وأن اللحن قد يشيع فى أهل الوبر كالحضر، وقصة الأعرابى الذى ورد عليه، كما تكلمنا على فكرة الأقدمين فى عصر الاحتجاج ومتى انتهى؟ ورأى المتمسكين بالقديم والثائرين عليه وأوضحنا موقف ابن جنى من ذلك، وأنه لا يوافق رأى ابن قتيبة فى الأخذ عن المولدين كما نسبه إليه بعض الباحثين، وإنما يأخذ عنهم المعانى فقط لا رواية اللغة وقواعدها، وذلك مبنى على تفسيره لمعنى السليقة، فهى عنده طبع لا اكتساب، فغير العربى لا تؤخذ عنه اللغة، ولا بد أن يكون ذلك المأخوذ عنه فى مدة الاحتجاج المحددة، كما أشرنا إلى الاحتجاج بالقرآن والحديث، واعتداد ابن جنى بهما، وهو مقتد فى ذلك بأستاذه الفارسى، ثم بينا كيف درس العلماء اللغة وكيف نشأت فكرة القياس؟ وأنها كانت فى نشأتها تعتمد على النصوص، ثم داخلتها الفلسفة والمنطق، وقد وضع العلماء القواعد على أساس الكثير الغالب مما ورد فى اللغة، وعدُّوا ما عداه شاذا أو مؤولا، وقد أثبتنا أن دراسة الأولين من العلماء كانت صحيحة دقيقة لابتنائها على النصوص، والاستقراء الذى قال به المحدثون، ثم كان المدخل إلى القياس بشرحنا لتعريفه، وأقسامه، فى حدود ما يخصنا من الناحية اللغوية، وبيان ما يقاس عليه، ثم عرضنا لرأى ابن جنى فى القياس، وتوسعه فيه، وأنه بذلك أحد أعضاء مدرسة القياس المشهورة التى يبرز من أعلامها الخليل وسيبويه وأبو عثمان المازنى والفارسى، فقد اتفقوا جميعًا على أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم، إلا أن ابن جنى توسع -كأستاذه-

فى موضوع القياس على كلام العـرب، وقد ناقش هذا البحث فى أبواب متعددة، أثبت من خلالها اعتماده مبدأ السماع عند القياس، فلا يوضع قانون إلا بعد النظر فى المادة اللغوية، واستقراء الظواهر، كذلك اعتماده لمبدأ الكثرة كالبصريين، وعده ما عداها شاذا يحفظ ولا يقاس عليه، ثم بينا صلة بحوثه بأقسام القياس المذكورة، وأهمها للغة، وتقسيمـه للظواهر اللغوية إلى المطرد منها والشاذ على ما نعرف من أنواع استـوحاها من أسـتاذه الفارسى، ومـن قبله أبى بكر بن السـراج الذى أشار الفـارسى إلى أنه أخذها منه، ولكن ابن جنى يمـتاز بعـمق البحث والاسـتقـصاء والدراسة الواعية التحليلية والفلسفية بما جعل الموضوع كأنه جديد لم يطرقه سواه، كما أنصـفنا ابن جنى من نقود المعتـرضين عليه فى هذه الأقسام الأربعـة، وأخيراً نرى أن ابن جنى قد أرسى دعائم القياس، ووطد أركانه على نحو لا يزال البحث الحديث يعترف له بقوته، وصلاحيته للغة التى هى ظاهرة اجتماعية متطورة.

الباب السابع

البناء اللغوي وفلسفته

تناول ابن جنى الأبنية[1] اللغـوية بالبحث والتـحليل، وحـاول ما أمكنتـه المحاولة أن يبرهن علـى أن كلام اللغويين فى هذا المجال مسـتمد من طبيـعة اللغة العربية، ومأخوذ عن أهلها، الذين كانوا يعرفون أسرار كلامهم، وأعماقه البعيدة، وقد بين أن لغـة العرب بكلمـاتها، واستـعمـالاتها المختلفـة، قائمـة على أصول ومبادئ، وكل لفظة منها أخذت سـمتا معينًا بحسب قواعد خاصـة روعيت فيها، وذلك راجع إلى أصالة هذه اللغـة، واعتمادها على أسس منهـجية، وخضـوعها لتلك النواحى القوية، وهذه الأبنيـة اللغوية لها فلسفـتها الخاصة، الـتى لم تتوافر لأية لغة من لغات العـالم، فهى تستجـيب للاستفهام، وتجـيب السائل عنه، وقد أبان ابن جنى - فيما لا يحتمل الشك - عن وجـهات النظر التى قيلت فيها، وأن ذلك عن أصـالة وإبداع فى تكوينهـا، فكل أصل لغوى مـعلل بعلة، لا أنه سـيق اعتباطًا أو بلا أهداف يرمى إليها.

وقد بنى حديث العـربية على مبدأ الاستـثقال والاستخـفاف، يقول: وعلى هذه الطريقة ينبغى أن يكون العمل فيما يرد عليك من السؤال عما هذه حاله ولكن لا ينبغى أن تخلد إليهـا إلا بعد الصبر والتأمل، والإنعام والتـصفح، فإن وجدت عـذرًا مـقطوعًا بـه سرت إليـه واعـتـمـدته، وإن تعذر ذلـك جنحت إلى طريق الاستخفاف والاسـتثقال، فإنك لا تعدم هناك مذهبًـا تسلكه ومَأمّا تتورده[2]، فما خف على الحس كـثر دورانه عـلى الألسنة، وما ثقل أهمـل استـعمـاله أو قل[3] وليس ابن جنى مـبتكرًا لهـذا التعـليل فى صورته العـامة، وبعض الأصـول التى

---

(1) المراد من بناء الكلمة: وزنهـا وصيغتها وهيـئتها التى يمكن أن يشاركـها فيها غـيرها، وهى عدد حروفـها المرتبة، وحـركاتها المعـينة، وسكونها، مع اعـتبار الحروف الـزائدة والأصلية، كل فى موضعه (شرح الرضى للشافية ط حجازى ص ٢ .

(٢) الخصائص ١/٧٧، ٧٨ .

(٣) نفسه ١/ ٥٤، ٧٨ وقال فى ج١ ص٦٧. فأعلق يدك بما ذكـرناه من أن سبب إهمال ما أهمل إنما هو لضرب من ضروب الاستخفاف .

يشملهـا وينطبق عليها، بل إن هذا الميـدان قد خاض فيـه غيره من علماء العـربية الأفذاذ، وعـلى رأسهم أصـحاب المعـاجم، ورائدها الأول الخليل بن أحمـد فى «العين»، إلا أن فلسفة ابن جنى فى هذا الموضوع تمتاز بالتغلغل الفكرى، والتحليل للجزئيـات، تحليلا يصهرها فى بوتقـة العمل اللغوى، ويظهـر جوهرها المكنون، ويمتاز بحثه بالتتبع والاستقراء، والعرض فى صور باقات لغوية تنفح الباحث بعبير غامر يملأ الجو النفسى من كل باقة منها لون من البيان الكاشف، الذى يثبت دعائم المبدأ المذكـور ويخلع عليه ثوب الابتداع والابـتكار، فابن جنى يتفق مع غـيره من العلماء فى إيضاحـه لسر البناء اللغوى، عن طريق تناوله للحروف الهجـائية، وما يأتلف منها وما يختلف، ولكنه تناول بعض الأبنية تناولا جديدًا بفلسفته الخاصة، فى ظل أبواب متعددة من كتابيه الخصائص وسر الصناعة.

أولا: ائتلاف الحروف

قسم ابن جنى الحروف إلى ثقـيل وخفيف، وكل منهما على درجة مـتفاوتة ثقلا وخـفة، وأخف الحروف عندهم حـروف "سألتـمونيهـا"، ولكل حرف من الحروف الهجائيـة مخرج معين، تشترك فيه بعض أعـضاء النطق، وهى كما نعلم تمتد من الجوف إلى الفم والشفـتين، متجاورة يلى بعضهـا الآخر، والأبنية اللغوية والألفـاظ بوجه عـام ليـست إلا بناء مؤلفًـا من تلك اللبنـات على شتى الصـور والأوضاع، واللبنـات التى يتكون منها هذا البناء إمـا أن تتقارب فـى مخارجـها الصوتيـة، أو تتباعد، وأعضـاء النطق التى تؤدى ذلك تقوم بجهـد عضلى للإبانة والإفصـاح عنه، والشىء - كما يقولون - لا يتـضح إلا بنقيضـه، على معنى أن يتمـيز تمام التـميـز، ولذلك يقول ابن جنى: وأحـسن التأليف مـا بُوعد فـيه بين الحروف، فمتى تجـاور مخرجا الحرفين فالقياس ألا يأتلفـا، وهذا - كما يتبين من مفـهوم كلامـه - للتخفيف والـتمكن من النطق، ولذلك قال: إن حـروف أقصى اللسان لا تتجاور ألبتة، فلا يقال: قج ولا: جق، فالأحسن اعتماد المخرج البعيد، ليختلف الصديان فيعذبا بتراخيهما؛ وحروف الحلق أيضًا أقل الحروف ائتلافًا، فإذا

اجتمع منها اثنان فصل بينهما مثل: هدأت - خبأتْ - عبء وتتجاور فى ثلاثة مواضع:

١- الهمزة المبدوء بها مع واحد من ثلاثة أحرف هى الهاء- الحاء- الخاء مثل: أهل- أحد- أخذ.

٢- الهاء مع العين، ولا بد من تقدم العين على الهاء مثل عهد- عهر.

٣- الغين مع الخاء وتتقدم الخاء لا غير مثل بخع- نخع[١].

وحتى مع ورود هذه الكلمات نحس بثقل على اللسان حال التفوه بها، وإلى هذا الحد نرى أن علماء اللغة من أرباب المعاجم قد ذكروا ذلك من قبله، فالخليل بن أحمد قد عرض فى كتابه «العين» لمخارج الحروف وصفاتها، وأوضح أن اتحاد المخارج أو تقاربها قد يؤدى إلى إهمال بعض الكلمات، وفى شرحه لمواد معجمه أشار إلى المهمل وسبب إهماله من الناحية الصوتية، فذكر فى باب العين والحاء أنه لا تأتلف منهما كلمة واحدة مستعملة لتقارب مخرجيهما إلا فى باب النحت[٢] وابن دريد نبه الباحث فى معجمه على أهمية الحروف لمعرفة عدد الأبنية، وما يأتلف منها وما لا يأتلف وسر كل منهما، وأوضح أن قرب مخارج الحروف يمنع من تأليف بعض الكلمات لثقلها على اللسان، فالقاف والكاف لا تأتلف منهما كلمة واحدة، فلا يقال (قك) ولا (كق) وقد أشار إلى حروف الذلاقة، وعلة تسميتها بذلك، فقال: سمعت الأشناندانى يقول: سمعت الأخفش يقول: سميت الحروف مذلقة لأن عملها فى طرف اللسان وطرف كل شىء ذلقة، وهو أخف الحروف وأحسنها امتزاجًا بغيرها، وسميت الأخرى مصمتة لأنها أصمتت أن تختص بالبناء إذا كثرت حروفه لاعتياصها على اللسان [٣]، وقد فصل الحديث عن ذلك- بدقة- أستاذنا الدكتور نجا فى كتابه المعاجم اللغوية [٤]، فهذا يؤكد للباحث اللغوى صحة ما ذكرناه من وضوح هذه الفكرة لدى علماء اللغة

(١) سر الصناعة من ص ٤١٥ -٤١٨ . مخطوطة دار الكتب المصرية.

(٢) العين ١/ ٥٣ -٦٩ . (٣) الجمهرة ١/ ٤ -١١ .

(٤) ١٨، ١٩، ٥٧ -٥٩ وانظر العين ٥٧، ٥٨ .

قبل ابن جنى، ولكنه بصدد إظهار شرف هذه اللغـة، وسموها، وإبراز محاسنها، ومبـادئها التى قامـت عليها، يقـول: وإنما أريد فى إيضاح هذه الفـصول من هذا الكتاب لأنه مـوضع الغرض فبـه تقرير الأصول وإحكام مـعاقدها، والتنبـيه على شرف هذه اللغة، وسداد مصادرها ومواردها، وبه وبأمـثاله تخرج أضغانها وتبعج أحضانها، ولا سيما هذا السمت الذى نحن عليه، ومرزون إليه فاعرفه، فإن أحداً لم يتكلف الكلام عن علة إهمال ما أهمل، واسـتعمال ما استعـمل، وجماع أمر القول فـيه، والاسـتعـانة على إصابة غُـرُوره ومطاويه[1] لزومُك مـحجة الـقول بالاستثـقال والاستخفـاف، ولكن كيف وعلام ومن أين؟ فإنه باب سيـحتاج منك إلى تأن وفـضل بيان وتأت، وقـد دققت لك بابه، بل خـرقت بك حجـابه، ولا تستطل كلامى فـى هذا الفصل، أو ترين أن المقنع فيه كـان دون هذا القدر، فإنك إذا راجعتـه وأنعمت تأمله علمت أنه منبهة للحس مشـجعة للنفس[2]، فلا ضير عليه أن يشير إلى أساسها القويم، وإن كان لغيره فضل سابق فى الإشارة إليه، فإن ذلك لا يغض من شأنه أو شأنها، بل يزيد أمرها جـلاء وعبقرية، ولذلك فسر فى وضوح لغوى عـجيب قوة العربية، وخفـة طبعها فى اختيـار تركيب الكلمات من حروف مـتباعـدة، ونفورها من تقارب الحـروف، فإن كان ولابد مـن التأليف من الحروف المتقاربة فلا بد من تقـديم الأقوى على الأضعف، وساق سر ذلك بما يدل على فلسفته اللغـوية الفائقة، يقول: من ذلك ما رفض استعمـاله لتقارب حروفه، نحو: سصْ، وطسْ، وطثْ، وثظْ، وضشْ، وشضْ، وهذا حديث واضح لنفور الحس عنه، والمشقـة على النفس لتكلفه، وكـذلك نحو قج وجق وكق وقك وكج وجك، وكذلك حروف الحلق هى من الائتلاف أبعد لتقـارب مخارجها عن معظم الحروف أعنى حروف الفـم، فإن جمع بين اثنين منها قـدم الأقوى على الأضعف نحو أهلٍ وأحدٍ وأخٍ وعهـدٍ وعهرٍ، وكذلك متى تقارب الحرفـان لم يجمع بينهما

---

(١) مرزون: أي مـستندون، وغُـرُوره: جمع غَرّ وهو كل كـسر مـتن فى ثوب أو جلد. القـاموس ٢/ ١٠٥، فهو بمعنى (مطاويه) بعده.

(٢) الخصائص ١/ ٧٧ .

إلا بتقديم الأقوى منهما نحو أُرُل[1] ووتد ووطد. يدل على أن الراء أقوى من اللام أن القطع عليها أقوى من القطع على اللام، وكأن ضعف اللام إنما أتاها لما تشربه من الغنة عند الوقوف عليها ولذلك لا تكاد تعتاص اللام، وقد نرى إلى كثرة اللثغة فى الراء فى الكلام، وكذلك الطاء والتاء هى أقوى من الدال، وذلك لأن جرس الصوت بالتاء والطاء عند الوقوف عليهما أقوى منه وأظهر عند الوقوف على الدال.

وأنا أرى أنهم إنما يقدمون الأقوى من المتقاربين من قِبَل أن جمع المتقاربين يثقل على النفس، فلما اعتزموا النطق بهما قدموا أقواهما، لأمرين: أحدهما أن رتبة الأقوى أبدًا أسبق وأعلى، والآخر أنهم إنما يقدمون الأثقل، ويؤخرون الأخف، من قِبَل أن المتكلم فى أول نطقه أقوى نفسًا وأظهر نشاطًا، فقدم أثقل الحرفين، وهو على أجمل الحالين، كما رفعوا المبتدأ لتقدمه، فأعربوه بأثقل الحركات وهى الضمة، وكما رفعوا الفاعل لتقدمه، ونصبوا المفعول لتأخره، فإن هذا أحد ما يحتج به فى المبتدأ والفاعل، فهذا واضح كما تراه[2]، ونحن إذا نظرنا فى أعماق لغتنا العربية وجدنا أن أبنيتها قد صيغت بما يتفق والمبدأ السابق، فحروفها وكلماتها المكونة منذ نشأتها وهى تميل إلى التخفيف، وتتخذ طابعًا من النطق السهل، وتبعد عن الاستثقال بأى لون من ألوانه، ومن هنا ألمح ابن جنى إلى أهمية هذا المبدأ، وعلل للصيغ المختلفة به، وبين أن تعليلات اللغويين وعلماء العربية قائمة عليه، ومتجهة نحوه، مما يثبت واقعية اللغة، وصحة الاستدلال عليها، يقول: ولست تجد شيئًا مما علل به القوم وجوه الإعراب إلا والنفس تقبله، والحس مُنطوٍ على الاعتراف به[3]، وعلى هذا الأساس تقوم أبنية العربية، سالكة سبيل التخفيف، فقد تنتخب حروف معينة، أو تحذف، أو تبدل بغيرها، حتى يهذب البناء، ويستقيم مع المنهج السهل المستساغ.

---

(١) جبل بأرض غطفان، وفى نسخة أخرى: وُرُل، وهو حيوان كالضب.

(٢) الخصائص ١/ ٥٤، ٥٥ .　　(٣) نفسه ١/ ٥١ .

وبمراجعة التراث العربى المتـداول أدرك العلماء هذا السر القائم على الذوق، والذى كان لإرهاف الحس العـربى النصيب الأوفر من تنفـيذه، والعمل بمقتـضاه، فمن ذلك إسكانـهم نحو رسُل وعجُـز وعضُد وظرُف وكـرُم وعلِم وكتِف وكـبِد وعُصِر، واستـمرار ذلك فى المضموم والمكسور دون المفـتوح أدل دليل - بفصلهم بين الفتحـة وأختيهـا - على ذوقهم الحركات، واسـتثقالهم بعضـها واستخـفافهم الآخر، فـهل هذا ونحوه إلا لإمعـانهم النظر فى هذا القدر اليسـير المختـصر من الأصوات، فـكيف بما فوقـه من الحروف التـوام بل الكلمة من جـملة الكلام[1]؟ وقال أبو حاتم: قرأ علىَّ أعرابى بالحـرم (طيبى لهم وحسن مآب) فى قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد]، فقلت: طوبى. فقال: طيبى... أفلا ترى إلى هذا الأعرابى وأنت تعتقده جافيًا كزا لا دمـثا ولا طيعًا كيف نبا طبعه عن ثقل الواو إلى اليـاء، فلم يؤثّر فيـه التلقين ولا ثنى طبـعه عن التـماس الخفـة هزٌّ ولا تمرين، وما ظنك به إذا خلى مع سَوْمه، وتسـاند إلى سليقته ونجره[2]، ويقول ابن جنى: «سألت غلامًـا من آل المهيًّا فصـيحا عن لفظة من كلامـه لا يحضرنى الآن ذكرها فقلت: أكـذا أم كذا؟، فقال: كذا بالنصب، لأنه أخف فـجنح إلى الخفة، وعجبت من هذا مع ذكـره النصب لهذا اللفظ، وأظنه استعـمل هذه اللفظة لأنها مذكـورة عندهم فى الإنشـاد الذى يقال له النصب مما يتـغنى به الركـبان[3]، ومع اتضاحه فى معـظم مواد اللغة فإن التعليل المناسب قد يخـفى فى بعض الأحيان، ولكن ذلك ليس لأن اللفظ قـد وقع هكذا دون تقـدير لوضعـه وإنما لخفـاء ذلك علينا[4]، يقول ابن جنى: لسنا ندعى أن علـل العربية فى سمت العلل الكلامـية البتـة، بل ندعى أنها أقـرب إليها من العلـل الفقهـية، وإذا حكمنا ببديهـة العقل وترافعنا إلى الطبيـعة والحس فقد وفينا الصنعة حـقها، وربأنا بها أفرع مـشارفها،

---

(١) نفسه ١/ ٧٥ . (٢) نفسه ١/ ٧٦ . (٣) نفسه ١/ ٧٨ .

(٤) نفسه ١/ ٦٦ وقد ذكـر فى ص ٦٥ ، ٦٦ أمثلة لمناسبة الحروف لمعانيها مـثل قضم وخضم وصر وصرصـر وقط وقد وغير ذلك ممـا ذكره فى باب إمساس الألفـاظ أشباه المعـانى، وسنذكره فى الاشتقاق الأكبر مفصلاً، وذكر خفاء سر التسمية فى قولهم: رفع عقيرته أى رفع صوته .

وقد قال سيبويه: وليس شيء مما يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجهًا، وهذا أصل يدعو إلى البحث عن علل ما استكرهوا عليه، نعم ويأخذ بيدك إلى ما وراء ذلك فتستضيء به وتستمد التنبه على الأسباب المطلوبات منه(1)، والبناء العربى يسير مع هذه الطبيعة لا يفارقها، فإذا وجدت الخفة فى الحروف المتباعدة اتبعها، وإذا لم تتحقق فى ذلك لجأ إلى تقريب الحروف ما دام موصلا إليها ومتمشيًا مع المبدأ المذكور.

وربما ظن ظان أن ذلك مستغرب بالنسبة للمنهج العام للغة التى تعتمد على التباعد الصوتى فى أبنيتها، ولكنه إذا تأمل وجد الفلسفة الحقيقية لهذا التنقل، فهى لم تحب البعيد لبعده وإنما للهدف السابق الذى نبحث عنه أنى وجد. وهذا سر من أسرار هذه اللغة التى تبرهن على سلامة تراكيبها اللغوية، فمع استحسانها تركيب ما تباعدت مخارج حروفه، نحو الهمزة والنون والحاء مع الباء مثل آن- نأى- حب- بح- وهذا لسهولة النطق بما ائتلفت فيه تلك الحروف، كذلك نراها تستقبح تركيب ما تقارب من الحروف مثل سصْ، طـث ومع الاستحسان السابق نرى أنهم يتركون التباعد، ويحاولون تقريب الحروف فى نحو سويق واصطبر حيث لا يمكن تجاوب السين مع القاف ولا ائتلاف الصاد مع التاء(2)، وإذا كان الصوت يظهر مع نقيضه أكثر من ظهوره مع قرينه وهذا أمر قد عرفه العرب ولاحظوه فإنهم علموا- كذلك- أن إدغام الحرف فى الحرف أخف عليهم من إظهار الحرفين، لأن اللسان ينبو بهما مرة واحدة فكان تقريبهم للحرف من الحرف ضربًا من التطاول إلى الإدغام وإن لم يصلوا إلى ذلك فقد حاولوه واشرأبوا نحوه(3)، وهذا التخفيف المذكور أشار إليه علماء اللغة، يقول إمام العربية سيبويه عن مثل سويق فى «باب ما تقلب فيه السين صادًا فى بعض اللغات تقلبها القاف إذا كانت بعدها فى كلمة واحدة» يقول: فلما كانت كذلك أبدلوا من موضع السين أشبه الحروف بالقاف ليكون العمل من وجه واحد، وهى الصاد، لأن الصاد تصعد إلى الحنك الأعلى للإطباق، فشبهوا هذا بإبدالهم الطاء فى مصطبر، والدال فى مزدجر، ولم يبالوا

(1) نفسه 1/ 53، 54 . (2) نفسه 2/ 227 . (3) نفسه 227- 229 بتصرف .

ما بين السين والقاف من الحواجز وذلك لأنها قلبتها على بعد المخرجين، فكما لم يبالوا بعد المخرجين لم يبالوا ما بينهما من الحروف[1] ولهذا الإبدال شروط خاصة ذكرها صاحب الشافية[2]، ويقول صاحب التصريح فى (فصل فى إبدال الطاء): وإنما أبدلت تاء الافتعال إثر المطبق طاء لاستثقال اجتماع التاء مع الحرف المطبق، لما بينهما من اتفاق المخرج وتباين الصفة، إذ التاء من حروف الهمس، والمطبق من حروف الاستعلاء فأبدل من التاء حرف استعلاء من مخرج المطبق، واختيرت الطاء لكونها من مخرج التاء[3] ويقول العلامة سيبويه: «وقالوا فى مفتعل من صبرت: مصطبر، أرادوا التخفيف حين تقاربا ولم يكن بينهما إلا ما ذكرت لك يعنى قرب الحرف وصارا فى حرف واحد، ولم يجز إدخال الصاد فيها لما ذكرنا من المنفصلين فأبدلوا مكانها أشبه الحروف بالصاد وهى الطاء، ليستعملوا ألسنتهم فى ضرب واحد من الحروف، وليكون عملهم من وجه واحد إذ لم يصلوا إلى الإدغام»[4].

وإن الملاحظة العربية - مع ذلك - دقيقة غاية الدقة، ويمكن فلسفتها فلسفة عميقة تتمشى مع منطقية لغتنا اللطيفة ومبادئها القويمة، فالعرب وإن كانوا يعرفون أن الإدغام أخف فإنهم فى مثل ما سبق لم يقربوا الحروف إلى حد الإدغام، لأنه يترتب على ذلك مخالفة صريحة للقواعد العامة، بل ربما أدى ذلك إلى خلط الأبنية، وعدم معرفة أصول الكلمات - هذا مع الإدغام - وإذا قربوا الحروف إلى هذا الحد، ثم تركوها بلا إدغام كان نقضًا لقواعدهم التى أرسوا بناءها، وكأنه انتكاث وتراجع عنها، فبقيت الحروف كما ذكرنا بين بين، يقول ابن جنى: إنهم -مع هذا- لا يبلغون بالحرف المقرب من الآخر أن يصيروه إلى أن يكون من مخرجه، لئلا يحصلوا من ذلك بين أمرين كلاهما مكروه، أما أحدهما: فأن يدغموا مع بعد الأصلين وهذا بعيد، وأما الآخر: فأن يقربوه منه حتى يجعلوه من مخرجه، ثم لا يدغموه، وهذا كله انتكاث وتراجع، لأنه إذا بلغ من قربه إلى أن يصير من مخرجه وجب إدغامه، فإن لم يدغموه حرموه الطلب المروم فيه، ألا

(١) الكتاب ج ٢ ص ٤٢٧، ٤٢٨ .
(٢) الشافية للحسينى ص ١٩٦ .
(٣) التصريح ج ٢ ص ٣٩١ .
(٤) الكتاب ج ٢ ص ٤٢١ .

ترى أنك إذا قربت السين فى سويق من القاف بأن تقلبها صادا فإنك لم تخرج السين من مخرجها، ولا بلغت بها مخرج القاف، فيلزم إدغامها فيها فأنت إذًا قد رمت تقريب الإدغام المستخف، لكنك لم تبلغ الغاية التى توجبه عليك، وتنوط أسبابه بك، وكذلك إذا قلت فى اصتبر: اصطبر، فأنت قد قربت التاء من الصاد بأن قلبتها إلى أختها فى الإطباق والاستعلاء، والطاء مع ذلك من جملة مخرج التاء[1]، وقد قالوا أحيانًا اصّبر: يقول سيبويه: وأراد بعضهم الإدغام حيث اجتمعت الصاد والطاء فلما امتنعت الصاد أن تدخل فى الطاء قلبوا الطاء صادًا فقالوا مُصَّبر وحدثنا هارون أن بعضهم قرأ ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ... (١٢٨)﴾ [النساء][2]: يصَّلحا ويؤكد لنا ذلك أن الحرفين إذا أريد تقريب أحدهما إلى حرف يناسب صاحبه ووجد أنه من مخرجه حقا فإنه يجب الإدغام مثل (اطَّعن) يقول ابن جنى: فإن كان الحرفان جميعًا من مخرج واحد، فسلكت هذه الطريق فليس إلا أن تقلب أحدهما إلى لفظ الآخر ألبتة، ثم تدغم لا غير، وذلك نحو (اطَّعن القوم) أبدلت تاء اطتعن طاء ألبتة، ثم أدغمتها فيها لا غير، وذلك أن الحروف إذا كانت من مخرج واحد ضاقت مساحتها أن تدنى بالتقريب منها؛ لأنها إذا كانت معها من مخرجها فهى الغاية فى قربها، فإن زدت على ذلك شيئًا فإنما هو أن تخلص الحرف إلى لفظ أخيه ألبتة، فتدغمه فيه لا محالة، (فهذا وجه التقريب مع إيثارهم الإبعاد)[3].

ويقول شيخ اللغويين سيبويه: ومما يدغم إذا كان الحرفان من مخرج واحد، وإذا تقارب المخرجان قولهم: يطَّوعون فى يتطوعون، ويذّكرون فى يتذكرون، ويسّمعون فى يتسمعون، الإدغام فى هذا أقوى، إذ كان يكون فى الانفصال، والبيان فيهما عربى حسن، لأنهما متحركان، كما حسن ذلك فى يختصمون ويهتدون، وتصديق الإدغام قوله تعالى: ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ ... (١٣١)﴾ [الأعراف] و﴿يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)﴾ [الأنعام] ونحوهما، فإن وقع حرف مع ما هو من مُخرجه أو

---

(١) الخصائص ٢/ ٢٢٩ . (٢) الكتاب ١/ ٤٢١ . (٣) الخصائص ٢/ ٢٣٠ .

قريب من مُخرجه مبتدأ أدغم، وألحقوا الألف الخفيفة لأنهم لا يستطيعون أن يبدأوا بساكن، وذلك قولهم فى فَعَل من تطوع اطّوع ومن تذكر اذّكر[1].

وعلى هذا الأساس يمكن تفسير ما ورد من أبنية لغوية يخيل إلينا أن ظاهرها يناقض قاعدة التخفيف، لتجاور حروف متماثلة فيها، وقد أورد ابن جنى أمثلة لذلك كقولهم فى مثل فرزدق من رددت: (رَدَدَّد)، فجمعوا بين أربع دالات، ومثل: تعللت فى قول الشاعر.

لقد تَعَلَّلتُ على أيانقٍ صُهب قليلات القراد اللازقِ[2]

فجمعوا بين ثلاثة لامات.

وقولهم فى النسب إلى أمية: أميّى، وإلى عدّى: عديِّىّ، فجمعوا بين أربع ياءات، ومُهَيّيمىّ فى النسب إلى مهيّم مصغراً[2]، فجمعوا بين خمس ياءات مفصولا بينها بالحرف الواحد، وقد احتج لذلك بما يفيد أن اجتماع الأمثال فى البناءين الأولين لا ثقل فيه[3] والتمس العذر فى الباقى، وربما أبدلوا من إحدى اللامين ياء فى مثل أمليت تخفيفًا استحسانًا وأصله أمللت، ويبدو لى أن هذا الإبدال أمر سائغ وبخاصة لاتصال الفعل بالضمير المتحرك، حيث كان الإدغام قبل ذلك ممكنًا، فيؤدى إلى خفة النطق بالمثلين دفعة واحدة، ولكنهما الآن فى وضع ينفرد كل منهما عن الآخر اضطراريًا، فالقلب يؤدى إلى التخفيف، على حين يبدو للأستاذ عبد الله العلايلى رأى يخالفنا فيه[4] وهو أن الأصل فى البناء المحتوى على المثلين فيما سبق ونحوه الإعلال فى مرحلة سابقة من اللغة، فأمللت أصله أمليت، وفى دور التصحيح نقل - هو وما يشبهه - إلى التضعيف، ومثله تفعّل من المطّ والظنّ، تظنىّ وتمطىّ، ويقول الأستاذ العلايلى: النحويون يقدرون بأن حرف اللين منقلب من النون فى الأول ومن الطاء فى الثانى وهو مجازفة محضة إذا لم نقدر بأن أصل المضعف الثنائى ثنائى معل فرد إلى الأصل عند الزيادة هربًا من الاستثقال الذى يجر إليه.

---

(١) الكتاب ٢/ ٤٢٥ . (٢) الخصائص ٢/ ٢٣٢ . (٣) نفسه ٢/ ٢٣٣ .

(٤) مقدمة لدرس لغة العرب ص ١٣٤-١٣٦ .

وهذا المنهج يجعل ما ذكر غير منقلب كما نتصور، وكون أصل اللغة ثنائيًا أمر معقول وجائز، وأما تحديد كون المعلات آنذاك فى الثنائى كانت أسبق من مرحلة التصحيح فهذا أمر لا يقوم عليه دليل قاطع نعترف به، ونحن معًا على اتفاق من الصيغة الأخيرة المشتملة على الألف، إلا أننا نؤكد القلب إلى المعتل من الصحيح ابتداء، وهو يجعل المعتل (الألف) هو الأصل فرجع إليه الحرف لثقل البناء، وقد علل ابن جنى لورود أميِّىّ وعديِّىّ بأربع ياءات بأنه جاء كذلك لجريانه مجرى الصحيح بالإعراب، فيقال عدىّ وعديًا فعومل معاملة حنيف، وعقيل، ولكنه لم يأت بالنتيجة المطلوبة، فهما على كل حال قد اجتمعت فيهما ياءات كثيرة.

ولكنى أعترف صراحة بالثقل الكامن وراء التعبير بها، إلا أن الفلسفة الصحيحة لذلك أن يقال - كما صرح هو نفسه به ولكن فى كلمة عابرة - إنها ليست اللغة الذائعة، بل رأى لبعض العلماء، وصيغة كل منهما نادرة، فالمعهود فيهما بناء خفيف لا تجتمع فيه هذه الأمثال، وهو أن يقال: أموىّ وعدوىّ، يقول صاحب التصريح: وإن وقعت الياء المشددة بعد حرفين حذفت الأولى فقط فرارًا من الإجحاف، وتعينت للحذف لسكونها، وقلبت الثانية ألفًا لتحريكها وانفتاح ما قبلها، ثم قلبت الألف واوًا كراهية اجتماع الياءات، تقول فى أمية أموىّ، وجاء أميِّىّ، بأربع ياءات إذ ليس قبلها كسرة[1] ويقول شارح الشافية: وتحذف الياء من المعتل اللام فى النسبة من المذكر والمؤنث من فَعيل وفُعيل بفتح الفاء وضمه، ولم يفرق بينهما منعًا للثقل المفرط من اجتماع أربع ياءات وكسرتين[2] فى مثل عَلَىّ وقُصىّ، ثم يعلل لمجىء (أميِّىّ) كما علل ابن جنى فيقول: وجاء أميِّىّ بأربع ياءات من غير حذف فيه لأن فتحة ما قبل الياء الأولى مخففة لبعض الثقل مع أن الياء المشددة جارية مجرى الحرف الصحيح فى احتمال الحركة، وأما إذا كانت أمية تصغير أموه فالنسب إليه أموى لا غير، بخلاف غنوىّ فإنه لا يجوز فيه غنيِّىّ بأربع

(١) التصريح ٢/٣٢٨.

(٢) شرح الشافية للحسينى ٦٧ والرضى ٧٣.

ياءات، لوجود الكسـرة قبل الياء الأولى[1]، وقد أشار سيـبويه إلى هذا الثقل فى كتابه[2] فالفصيح إذًا هو البناء الموافق للقاعـدة، والذى صرح به صاحب التصريح سابقًـا، وقد علل ابن جنى - كـغيـره من العلماء - لاجـتماع خـمس ياءات فى مُـهيّـيمىّ بأن الثـالثة السـاكنة ألانت المد وجـعلته مـقبـولا على الرغم من الآراء المتضاربة فى زيادتها للتعويض عن ألف مـهيام أو واو مهوّم اسم فاعل من هوّم أو ياء مهيّم الثانية اسم فاعل من هيّمه الحب[3].

وعلى الرغم من هذا الخلاف الدائر حول طبيـعة هذه الياء، وعن أى حرف كانت عـوضًا، فإن موقـعها خفف النطق بالـبناء المذكور بعض التخفـيف، وكان ضرورة ملجئة دعت إليـها القواعد، ومع ذلك مالت العربية إلى التخـفيف عمومًا كما نرى.

وعلى هذا ينبـغى للباحث التأمل فى الأشـياء قبل إصـداره حكمًا عليـها؛ ليمكنه الكشف عن الحـقائق، وسر العـبقرية فى التعـبير، وهنا نسـتمع إلى الرائد المفكر ابن جنى وهو يقول: وبعد فإنهم إذا خففوا فى موضع وتركوا آخر فى نحوه كان أمثل من ألا يخفف فى أحدهما، وكذلك جميع ما يرد عليك مما ظاهره ظاهر التدافع يجب أن ترفُق به، ولا تعنُف عليه، ولا تسرع إلى إعطاء اليد بانتقاض بابه والقياسَ القياس[4].

ثانيا: سكون الحروف وحركتها

وكمـا حاولت العربيـة أن تنتقى الحروف، وتبـاعد بينها أو تقـرب، ليمكن النطق بهـا، حاولت أيضًـا أن تنظر إلى حركـات الحروف وسكونـها، فوضـعت الحركات المناسبة فى أماكنها الطبيـعية القابلة لها، وسمحت للسكون بأن يكون فى

(١) المصدر السابق للحسينى ٦٧ والرضى ٧٣-٧٥.

(٢) الكتاب ٢/ ٧٣.

(٣) شرح الشافية للحسينى ٦٨، ٦٩ والرضى ٧٣- ٧٥ والتصريح ٢/ ٣٣.

(٤) الخصائص ٢/ ٢٣٣

الوضع الذى لا يتنافى معه الانسياب النطقى والذلاقة اللسانية، وهذا يصور لنا بجلاء منطق الفصاحة البنائية العربية، وهى توالى البناء بحركات لا تتناقص عددًا وشكلا مع السهولة، وهكذا الحال بالنسبة لمكان السكون، ولذلك رأينا أن كل بناء عربى لابد أن يبتدئ بالمتحرك دون الساكن[1]، حيث لا يمكن للسان أن يتفوه به أولا، وبخاصة فى لغة استقام منهجها مع رقى فكرى وتقدم ملموس، ونحن نعتقد أن العربية لم تبدأ فى يوم ما بالسكون فى أى بناء تولد فى عالم هذه اللغة، على خلاف ما نراه فى اللغات الأجنبية من وقوعه فيها، وإن كان الأستاذ عبد الله العلايلى والدكتور السامرائى يريان أن اللغة العربية فى عهدها الصوتى كانت تبتدئ بالساكن، ويدل لذلك كلمات عاشت هذا الدور وبقى منها الأسماء الاثنا عشر التى حفظت بهمزة الوصل وهى: اسم، است، ابن، ابنة، ابنم، اثنان، اثنتان، امرؤ، امرأة، أل، ايمن، ايم[2]، وهى كما يظن أثرية عن سكون الأول، كذلك مثل إجفيل وإخريط واعشوشب وما إليه فإنهم فى تطورات أضافوا الهمزة توصلا إلى النطق بالساكن[3] ولكن ما ذكره الأستاذ العلايلى والدكتور السامرائى لا يعدو أن يكون فرضًا متصورًا لا حقيقة واقعة فى اللغة، يقول شارح الشافية: لا يبتدأ إلا بمتحرك، لأن الحرف المنطوق به إما معتمد على حركته كعين عمرو، أو على حركة ما قبله كميمه، أو على مدة قبله كدابة، فمتى فقد هذه الاعتمادات تعذر التكلم ودليله التجربة وذلك لأنك إذا خليت نفسك وطبيعتها وجدت منها أنها تتوصل إلى النطق بما سكن أوله كما فى الفارسية بهمزة مكسورة فى غاية الخفاء، بحيث لا يدركها السامع نحو شتاب وستير، وقيل: يجوز الابتداء بالساكن لكن يتعسر لا يتعذر، لأن التلفظ بالحركة إنما يحصل بعد التلفظ بالحرف، ومحال توقف الشيء على ما يحصل بعده، وفيه نظر، لأن التلفظ بالحركة مع الحرف لا

---

(١) نفسه ٢/ ٣٢٨ .

(٢) الأشمونى ٤/ ٢٧٤-٢٧٧، ومنار السالك ٢/ ٣٧٣، ٣٧٤.

(٣) مقدمة لدرس لغة العرب ١٦٠ ودراسات فى اللغة ٣١- ٣٤ ويقيس الدكتور السامرائى العربية على أخواتها الساميات كالآرامية والسريانية.

بعده[1]، وأيضًا نرى أن العرب حاولوا أن يقفوا آخر الكلمة بالسكون عند انقطاع النفس كما يقول صاحب الشافية، إلا أن الابتداء بالمتحرك ضرورى، والوقف على الساكن استحسانى عند كلال النفس من ترادف الكلمات[1]، والأستاذ العلايلى يرى أيضًا ما يخالف ذلك، وهو أن الوقف كان يتمثل بتحريك آخر الكلمة فى عهد اللغة الصوتى، ودلل لذلك ببقاء كلمات أثرية تحمل طابع الحركة فى آخرها مثل كلمة عمرو حيث توجد فيها واو تتمم حروفها، ويقول: إن هذه الواو ليست- كما يدعى اللغويون- فارقة بينها وبين كلمة أخرى هى عمر، وكذلك أيضًا تحريك ضمائر الجمع للغائب أو المقرونة إلى حروف الجر بالضمة الممدودة مطلقًا فى لسان قبائل وفى بعض الأحيان وعند الضرورة فى لسان قريش، وكذلك ظاهرة الوقف بالروم[2]، وعلى أية حال فإن انقطاع النفس وقوة التعبير وسلاسته يقتضى الوقف بالسكون، كما هو ملموس نطقًا، على أن الأدلة التى ساقها لا تؤيد رأيه على وجه اليقين، لأنه لا شاهد عليها من التاريخ اللغوى، وتحريك الضمائر المذكور يكون للوقف عليها وقد يكون لملاحظ واعتبارات أخرى من قافية شعرية أو انسجام نطقى فى أثناء التعبير.

وأخيرًا نقول: إنه ليس اللغة المعتمدة التى يمكن أن تفلسف على أساسها الأبنية العربية، ولذلك رأيناه يقول: «إن ذلك يستعمل فى لغة قريش عند الضرورة» وفى اللغات الأجنبية - فضلا عن أخوات العربية الساميات - التى يقولون: إنها تبتدئ بالساكن - يبدو من تجربة النطق بأية كلمة منها ما يشبه ألف الوصل فى العربية قبل النطق بالساكن وهذا ذوق يحسه الناطق فى مثل Stump[3]، Squire[4] فى الإنجليزية، ويمكن أن يؤخذ من كلام ابن جنى عن نطق العجم لكلمة (كليد)[5]، ما يؤكد أن العجم يبدأون بحركة لا بسكون، فهو

---

(١) شرح الشافية للحسينى ص ١٠٨ .

(٢) مقدمة لدرس لغة العرب ١٦٢.

(٣) جذع أو غصن شجرة ملقى على الأرض.

(٤) سيد ريفى (فلاح). (٥) مفتاح.

يحس بحركة فى نطقهم، غاية الأمر أنه لا يدرى أفتحة هى أم كسرة؟ وقد أشار أبو على الفارسى إلى أن السبب فى ابتدائهم بالساكن هو الزمزمة، وهى تعتمد على عدم وضوح الأصوات حال النطق بها، ومعنى ذلك أن هناك ابتداء بمتحرك، غاية الأمر أنه لا يتضح لنطق الكلمات مع الإبهام، وهكذا حال غير اللغة الفارسية كالإنجليزية وغيرها على ما أوضحنا، فلولا سرعة النطق للكلمات فيها لبدا الأمر على طبيعته وهو أن أوائل الكلمات متحرك، إذ هذا - كما يقول ابن جنى -: (طريق الحس وموضع تتلاقى عليه طباع البشر، ويتحاكم إليه الأسود والأحمر)[1]، وإن اللغة العربية تتصرف أحيانًا فى أبنيتها تصرفًا يخرجها عن نطاق القواعد المبنية عليها إذا ترتب على الموافقة العامة ما يتعارض والخفة المطلوبة فى النطق والاستعمال، وقد عرض ابن جنى فى كتابه الخصائص فى فصل خاص: كيف تحاول العربية تنفيذ هذا المبدأ حين يلتقى ساكنان فى كلمة واحدة، وإذا كنا قد رأينا أن الساكن الواحد لا يمكن أن يقع فى ابتداء الكلمة فمن المسلم به - لذلك - امتناع وقوع ساكنين ابتداء، ولهذا رأينا ابن جنى لا يشير إليه، وإن كان قد ذكر أن الساكن إذا وقع ابتداء فلا بد من التوصل إليه بهمزة تقع أولا حتى يمكن النطق بالبناء كما فى صياغة الأمر من المضارع فى مثل اضرب من يضرب مثلا[2]، يقول ابن جنى: فإنك لما حذفت حرف المضارعة من يضرب ونحوه وقعت الفاء ساكنة مبتدأة، وهذا ما لا سبيل إلى النطق به، فاحتجت إلى همزة الوصل تسببًا إلى النطق به[3]، وقد شرح ابن جنى حال الساكنين، وحصر أحوالهما فى كونهما صحيحين أو معتلين أو مختلفين، وفى الحالين الأولين لا يمكن اجتماعهما حشواً فى كلمة واحدة لصعوبة النطق بهما، فلا يمكن النطق بصيغة اسم المفعول من كلٍّ من باع وقال وهى مبيوع ومقوول، بعد نقل حركة العين إلى الساكن الصحيح قبلها، فلا بد من حذف أحد الحرفين على المذهبين المعروفين للنحاة[4] وكذا يتعذر النطق لاجتماع الساكنين على النحو السابق فى اسم

---

(١) الخصائص ١/ ٩٠- ٩٢.

(٢) نفسه ٢/ ٤٩٧.

(٣) نفسه ٢/ ٤٩٧.

(٤) نفسه ٢/ ٤٩٣.

الفاعل من قام وباع وهما قائم وبائع، إذ الأصل (قاام - بااع) فلا يمكن النطق بالألفين متجاورتين، ولذلك حركت العين بالكسرة فحولت العين همزة، ومنهم من يحذف مثل: (شاكُ السلاح بطل مجرَّب)، و(لاثٌ به الأشاءُ والعُبْرِىّ) وعلى ذلك أجازوا فى يومٍ راحٍ ورجلٍ خافٍ أن يكون على وزن فـعِل أو فاعِل محذوف العين[1] وقد يمكن النطق بالساكنين حشواً بصعوبة بالغة لو تكلف ذلك مثل: قاوْت وقايْت ونحو ذلك، يقول ابن جنى: «فأنت إذا تكلفت نحو قاوْت وقايْت فكأنك إنما مطلت الفتحة فجاءت الواو والياء كأنها بعد فتحتين وذلك جائز نحو ثوب وبيت»[2]، وقد تحامت العرب كل ذلك فلم تنطق به، ولا يجوز أن نجمع بين الألفين على حد ما حكاه أبو إسحاق من أنه قال فى ذلك: لو مددتها إلى العصر لم تكن إلا ألفًا واحدة، فلو مطلت الفتحة الأولى وقدرت كأن الثانية هى الواقعة بعدها لم يصح[3]، وإن اجتمع حرفان ساكنان أحدهما معتل والآخر صحيح فأغلب الصور لا يمكن النطق بها مثل قالْب وقِيلْب والعرب إذا رأت شيئًا من ذلك مهدت للنطق به عن طريق الحذف كما فى قلت وبعت، وربما كان تكلف ذلك أخف من سابقه على حد تعبير ابن جنى[3] قال شارح الشافية: فى خف وقل وبع حذفت الألف والواو والياء وكان الالتقاء فى كلمة[4]، وقد يصح النطق بالساكنين على الصورة السابقة إذا كان الثانى منهما هو الصحيح وكان مدغمًا فى آخر مثل شابة ودابة وتُمود الثوب؛ لأن الإدغام يجعل الحرفين كالحرف الواحد نطقًا[5] ويشبه بذلك فى الفارسية آرد وماست[6] يقولون: ويغتفر فى المدغم قبله

---

(١) الكتاب ٢/ ٣٦٨، ٣٧٨ والخصائص ٢/ ٤٩٣.

(٢) الخصائص ٢/ ٤٩٤ .

(٣) نفسه ٢/ ٤٩٣- ٤٩٦، وأبو إسحاق هو الزجاج.

(٤) الشافية للحسينى ٢: ١٠ وللرضى ٧/ ١١ والكتاب مع بسط وإطالة فى الأبنية ٢/ ٣٠٠، ٣٦٠.

(٥) الخصائص ٢/ ٤٩٦ .

(٦) نفسه ٢/ ٤٩٧، والمعنى المطلوب أن (آرد) و(ماست) فى لغة العجم مشبه بدابة وشابة فى لغتنا لا العكس، فهنا التقاء ساكنين صحيحين فى الوقف، وقبل الأول حرف مد، (وانظر أيضًا ١/ ٩٠ فقد ذكر أنه اجتمع فى (آرد) و(ماست) ثلاثة سواكن. و(آرد): دقيق و(ماست): لبن.

لين فى كلمة[1] نحو خويّصة والضالّين وتُمود الثوب، وعندما يمكن النطق بالساكنين نجد الأبنية اللغوية لا تتحرز من ذلك، كما إذا وُجدا آخراً مثل عدْو وظبْى وبكر وحجْر حال الوقف، لأن الطرف على نية الوصل، فكأنه محرك، ويعرض له الروم وغيره، فيتحامل فيه الطبع، لذلك يقول ابن جنى: «فإن سكن ما قبلهما (أى الواو والياء) وهما ساكنان طرفا جاز نحو عدْو وظبْى وذلك أن آخر الكلمة أحمل لهذا النحو من حشوها، ألا تراك تجمع فيه بين الساكنين وهما صحيحان نحو بكْر وحجْر وحِلس، وذلك أن الطرف ليس سكونه بالواجب، ألا تراه فى غالب الأمر محركًا فى الوصل، وكثيراً ما يعرض له روم الحركة فى الوقف، فلما كان الوقف مظنة من السكون وكان له من اعتقاب الحركات عليه فى الوصل ورومها فيه عند الوقف ما قدمناه تحامل الطبع به، وتساند إلى تلك التعلة فيه»[2]، يقولون: التقاء الساكنين يغتفر فى الوقف مطلقًا، أى سواء كان الحرف الثانى مدغمًا فيه كدوابّ أولا، وسواء كان الحرف الأول حرف لين أولا، لأن الوقف على الحرف يسد مسد الحركة، وذلك لأنه يتمكن توفر الصوت على الحرف عند الوقوف، وبذلك أوصلته بغيره ومتى أدرجتها زال ذلك الصوت؛ لأن أخذك فى حرف آخر يشغلك عن إتباع الحرف الأول صوتًا فيكون الحرف الموقوف عليه أتم صوتًا وأقوى جرسًا من المدرج، فسد ذلك مسد الحركة، فجاز اجتماعه مع ساكن قبله، ولأن الوقف لقصد الاستراحة فجوّز فيه ما لم يجوّز فى غيره[3].

وهكذا رأينا أن اللغة العربية تضع السكون فى موضعه المناسب من البناء العربى وتجعل له الاعتبار الخاص الذى يمكن اللسان من التفوه به، فلا تضعه فى أول الكلمة وتجعله فى آخرها مقبولا، كما أنها تحظر فى أبنيتها المستعملة أن يلتقى سكونان على وضع يعسر معه النطق والبيان، وهذا من خصائص هذه اللغة التى جعلت شعارها السهولة والتخفيف بعكس اللغات الأجنبية التى لا تعرف ذلك فتحملت اجتماع الساكنين، وبدأت بالساكن.

---

(١) انظر الشافية للحسينى ص ٩٩، ١٠٠.　　(٢) الخصائص ٢/٤٩٦، ٤٩٧.

(٣) الشافية للحسينى ٩٩ وانظر فى ذلك وكل ما يتعلق بالتقاء الساكنين شرح الرضى للشافية ١١٤-١٢٤.

وأما عن وضعهم الحركات فى أماكنها المناسبة وربطهم بين الحركات بعضها وبعض بحيث لا يجمعون بين حركتين متضادتين أولا يمكن ائتلافهما فى البناء الواحد فهذا موضوع خاض فيه ابن جنى وأعمل فكره فى فلسفته حتى جلاه لنا بينا مشهوراً بما يبرهن على براعة العربية وولوعها بالتخفيف، وما يشير إلى علو كعب ابن جنى فى الميدان اللغوى، فالبناء العربى عرف التناسب الحركى بحيث رفض منه ما لم تتناسق الحركات فيه كما عرفنا عن رفض («فُعِل» بضم الفاء وكسر العين و«فِعُل» بكسر الفاء وضم العين استثقالا للخروج من الضمة إلى الكسرة وبالعكس، لأنهما حركتان ثقيلتان متباينتان، وأما «دُئِل» فجعل علما منقولا من الفعل من دأل إذا تحرك فيكون نحو ضُرِب إن سمى به و«الحِبُك» إن ثبت فمحمول على تداخل اللغتين كما قال ابن جنى، وضُرِب ويُضْرَب صيغتان فرعيتان، لأن الضمة فى المضارع عارضة، والبناء للمجهول عارض)[1]، وقد حاول ابن جنى أن يلتمس الوجوه التى تتخرج عليها استعمالات بعض الألفاظ والأبنية العربية بكثرة، واستعمال غيرها بقلة، مع أنه كان الواجب العكس لخفة حركات الثانية وثقل حركات الأولى، وعلل لذلك بفلسفة رآها هو صحيحة ومقنعة، وإن كنا نحن لا نقتنع بما ساقه فى بعضها من أدلة تحتمل النظر والبحث الكثير، يقول: هذا موضع من كلامهم طريف وذلك أنا قد أحطنا علمًا بأن الضمة أثقل من الكسرة، وقد ترى مع ذلك إلى كثرة ما توالت فيه الضمتان نحو طُنُب، وعُنُق وفُنُق وحُشُد، وجُمُد، وسُهُد، وطُنُف وقلة نحو إِبِل، وهذا موضع محتاج إلى النظر[2] وقد علل لكثرة هذه الأبنية الأولى وقلة الأبنية الثانية بأن بين المفرد والجملة أشباها هى:

١- وقوع الجملة موقع المفرد فى الصفة والخبر والحال.

٢- بعض الجمل تحتاج إلى جملة ثانية احتياج المفرد إلى المفرد وذلك فى الشرط وجزائه والقسم وجوابه.

---

(١) الشافية ١٢.

(٢) جارية فنق: منعمة، الجُمُد: ما ارتفع من الأرض، الطنف: من معانيه ما نتأ من الجبل- الخصائص ٣/ ١٧٧.

٣- المفرد قد أوقع موقع الجـملة كنعم ولا؛ لأن كل واحد من هذين الحرفين نائب عن الجملة، ألا ترى إلى قولك نعم فى موضع قد كان ذاك ولا فى موضع لم يكن ذاك[١].

فلهذه الأشياء شبهوا توالى الضمتين فى سُرُج ونحوها بتواليهما فى نحو زيد قائم، وعلـى ذلك قال بعضـهم: الحمـدِ لِله بإتباع اللام فى لفظ الجـلالة للدال، وليس كذلك الكسر فى (إِبِل) لأن الجرين لا يتواليـان فى الجملة مثل الرفعين، أما من قال الحـمدِ لِله بتوالى الكسـرتين فإنه كان الأصل فـيه الإتباع بالضم وشـبه به الكسر لأن الضم فيه إتباع الثانى للأول، والثانى بالعكس وهو قليل، ولذلك نرى - كمـا يذهب ابن جنى - أنه لو كان الأول مضـمومًا وأريد تحريك الثـانى كانت الضمة أولى من الكسرة والفتحـة لأنك تصير إلى وزن فُعِل وهو خاص بالفعل إلا ما شذ مثل دُئِل على ما سبق[٢]، وأما فُعَل فدونه أيضًا لأنه يأتى فى المعدول مثل عُمَر وجُشَم[٢] وفُعِل ليس معدولا، ولقلة وزن فُعَل نرى له نوعًا خاصًا من جموع التكسير انفرد به وهو فِـعْلان كصُرد وصِردان ونُغَر ونغران وجُـعَل وجعلان وخُزَز وخِزان[٣]، وقد قال أبو العباس: إنه كأنه منقوص مـن فُعَال، وهذا يجعلنا نعتقد بثقله، لأن هذه الألف تشيـر إلى أنه معدول، إذ هى تشبه المعـدول فى مثل أُحاد وثُناء[٤] وإنما حـده واحدًا واحـدًا واثنين اثنين فـجاء مـحـدودًا عن وجهـه فتـرك صرفه[٥].

ونحن إذا كنا نوافق ابن جنى فى ادعائه ثقل بناء فُـعَل لأنه يأتى فى المعدول ولذلك ورد فى اللغة أقـل مما توالت فيه ضـمتان فـإنما نوافقه بملحظ الانتـقال بين حركتين مختلفتين اختلافًا شديدًا، فالأولى ثـقيلة جدًا والثانية خفيفة جدًا مما يدعو إلى اضطراب اللسان حال النطق بهـما متعاقبـتين لا أن الثقل الناجم فى النطق قد

---

(١) الخصائص ٣/ ١٧٣ بتصرف.

(٢) نفسه ٣/ ١٩٧، ١٨٠ بتصرف والكتاب ٢/ ١٤، ١٥.

(٣) الكتاب ٢/ ١٧٩. (٤) الخصائص ٣/ ١٨٠، ١٨١.

(٥) الكتاب ٢/ ١٥.

نشأ عن نظرية العدل التى تحدث عنها، وأما عن كثرة وزن فُعُل وقلة وزن فِعِل فنحن نستبعد بلا أدنى ريب ما تصوره ابن جنى من هذه الموازنة وهذا الشبه الذى لا يعدو أن يكون جمعًا لأشياء لا يمت بعضها لبعض بصلة، فهل من المعقول أن يعد مقياس النطق بالضمتين اللتين وردت إحداهما فى كلمة والأخرى فى كلمة ثانية (فى زيد قائم) مثل مقياس النطق بهما فى طُنُب وسُهُد، وأن نطق الضمتين فى الجملة الأولى ثقيل ثقل نطقهما فى كل كلمة من الكلمتين الأخريين؟!، إن كلا منهما على ما نرى من واد فلا معنى لعقد المناسبة بينهما، وليس فى الجملة أى ثقل فى نطق الضمتين، لأن كلا منهما بعيدة عن الأخرى، بخلافهما فى طُنُب حيث التقتا متجاورتين، وعلى فرض التسليم له بتجاور الضمتين فى الحمدُ لُله باتباع اللام للدال فيمكن أن يقال أيضًا إن ذلك وإن كان على التجاور فإنهما فى كلمتين فخفف ذلك النطق بهما.

واجتماع الثقيلين فى كلمتين يجعل أمرهما خفيفًا كما هو فى كثير من قواعد العربية؛ فالمعروف مثلا أن الواو والياء إذا التقتا فى كلمة واحدة وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأُدغمت فى الياء مثل سيّد وقيّم ولكنهما إذا التقتا فى كلمتين على الصفة السابقة لم يحدث ذلك مثل يدعو ياسر ويرى واقد[1]، كذلك الإدغام يكون واجبًا إذا التقى المثلان فى كلمة واحدة مثل شدّ ومدّ، ولكن إذا كانا فى كلمتين كان ذلك مانعًا من الإيجاب مثل جعل لك، أو مانعًا من الإدغام نهائيًا كما فى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ... ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة] مما ولى أولهما ساكنًا غير لين، فهذا لا يجوز إدغامه عند جمهور البصريين، وقد روى عن أبى عمرو الإدغام فى ذلك، وتأولوه على إخفاء الحركة وأجاز الفراء إدغامه[2]، وابن جنى- فى رأيه هذا- يتابع سيبويه فى ترجيح ثقل توالى الضمتين عن توالى الكسرتين على الرغم من أن الأول كثير والثانى قليل، فقد قال سيبويه: ويكون فُعُلا فيهما (أى فى أبنية الاسم والفعل) فالاسم الطُّنُب والأُذُن والعُنُق والعُضُد والجُمُد والصفة الجُنُب والأُجُد ونُضُد ونُكُر قال سبحانه ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾﴾ [القمر]. ثم يقول: ويكون فِعِلا فى

(١) تصريح ١/ ٣٨١.

(٢) نفسه ٢/ ٣٩٨، ٣٩٩.

الاسم نحو إِبِل وهو قليل لا نعلم فى الأسماء والصفات غيره، واعلم أنه ليس فى الأسماء والصفات فُعِل ولا يكون إلا فى الفعل وليس فى الكلام فِعُل[1]، والعلامة سيبويه يعلل كثرة توالى الضمتين عن الكسرتين بأنه سلوك عربى يعود إلى ذوق المتكلمين وطبعهم الذى يميل إلى ذلك لئلا يكثر فى كلامهم ما يستثقلون[2].

وإذا كان هناك وجه لهذا الاستثقال فإن رأى سيبويه يكون أرجح فى تعبيره، وأكثر مناسبة لموضوعه، ويبدو لى أن توالى حركتين متماثلتين كسرتين أو ضمتين يخفف النطق بهما أكثر من تخالفهما، عندما يجتمع فى البناء الواحد ضم وفتح أو كسر، وقد نجد ذلك واضحًا فى كلام ابن جنى نفسه حينما قال: (ولو كان الأول مضمومًا وأريد تحريك الثانى كانت الضمة أولى من الكسرة والفتحة، لأنك تصير إلى وزن فُعِل وهو خاص بالفعل إلا ما شذ مثل دُئِل أو يعد هذا منقولا)[3]، فالانتقال من ضم إلى كسر ثقيل لا يستسيغه اللسان، ولذلك زعم قوم كما يقول صاحب التصريح إهمال فُعِل فى الأسماء - كما صرح به سيبويه سابقًا - يقول صاحب التصريح: وزعم قوم إهمال فُعِل بضم الفاء وكسر العين أيضًا لما فيه من الانتقال من ضم إلى كسر، وأجابوا عن دُئِل اسم دويبة سميت به قبيلة من بنى كنانة و(رُئِم) بضم الراء وكسر الهمزة اسم جنس للإست بأنهما ليسا من أصول الأسماء وإنما هما منقولان من الفعل المبنى للمفعول، واعترض بأن ذلك ممكن فى الدُّئِل لأنه علم قبيلة لا فى الرُّئِم لأنه اسم جنس، والنقل لا يكون إلا فى الأعلام دون أسماء الأجناس، وأجيب بأن السيرافى ذهب إلى أن الثقل قد يجىء فى أسماء الأجناس فلا معنى للتوقف فيه، واحتج المثبتون لفُعِل فى أصول الأسماء بوُعِل بضم الواو وكسر العين المهملة لغة فى الوَعِل بفتح الواو وحكاه الخليل، فثبت بهذا أن فُعِل بضم أوله وكسر ثانيه ليس بمهمل ولا منقول بل هو قليل[4] وسواء أخذنا بالرأى القائل بالرفض، والذى أيده سيبويه وابن جنى، أو

---

(١) الكتاب ٢/ ٣١٥ .
(٢) الخصائص ١/ ٦٨، ٦٩ والكتاب ٢/ ٤٠٤.
(٣) الخصائص ٣/ ١٧٩ .
(٤) تصريح ٢/ ٣٥٥.

بالقبول على قلة كما حكى عن الخليل فإننا نحس بثقل شديد نتيجة اختلاف الحركات، أما التوالى فإننى أرى أنه يسهل عملية النطق، وتستوى الضمتان فى ذلك والكسرتان، بدليل أنهم أجازوا فى إتباع حركة العين للفاء فى جمع المؤنث الإتباع بالضم وبالكسر مثل سِدِرات وكِسِرات وخُطُوات وغُرُفات، يقول سيبويه: إن ما كان على فُعْلة يُكَسَّر على بناء أدنى العدد بإلحاق التاء وضم العين غرفة وغرُفات وركبة وركُبات.. إلخ، وعلى بناء يجاوز أدنى العدد إلى الأكثر يُكَسَّر على فُعَل مثل غرَف وركَب، وبعض العرب يقول غرْفات... إلخ، وكذلك ما كان على فِعلة يقال لأدنى العدد: كِسِرات بكسرتين، ويجوز كسَرات بفتح السين، كما يجوز غرَفات بفتح الراء، ويجوز تسكين السين مثل الراء أيضًا[1].

ويتضح للباحث كيف أتت فى اللغة الكسرتان كما أتت الضمتان على التوالى، على أن قلة نحو إِبِل لا يعنى أن العرب تحذف الخفيف وتستبقى الثقيل، ولا يمكن أن يكون مقياس الورود اللغوى فى الواقع هو المقياس المنضبط لكثرة الاستعمال العربى وقلته، لجواز أن يكون الذى حكم عليه بالقلة لم يصل إليه الرواة، وربما كان ابن جنى أقرب إلى الحقيقة حينما علل فى موضع آخر لكثرة باب فُعُل نحو عُنُق وطُنُب وقلة باب فِعِل نحو إِبِل وإِطِل مع أن الضمة أثقل من الكسرة بقوله: إن الضمة وإن كانت أثقل من الكسرة فإنها أقوى منها، وقد يحتمل للقوة ما لا يحتمل للضعف، ألا ترى إلى احتمال الهمزة مع ثقلها للحركات، وعجز الألف عن احتمالهن وإن كانت خفيفة، لضعفها وقوة الهمزة، وإنما ضعفت الكسرة عن الضمة لقرب الياء من الألف وبعد الواو عنها[2]، ففى تعبيره بقوة الضمة ما يشير إلى إمكان النطق بها - على الأقل - مثل الكسرة وتوالى الضمتين مماثل لتوالى الكسرتين فيما يتطلبه من جهد عضلى، إلا أن التشبيه الذى عقده للضمة والياء باحتمال الهمزة والألف للحركات غير دقيق فنحن فى مجال إبراز الأصوات بطريقة واقعية لا مجال فيها للخيال الشعرى والمقارنة البعيدة، وقد تحدث ابن جنى عن الحركات والسكون فى البناء العربى، ومتى تكون الحركة لازمة أو

(١) الكتاب ٢/ ١٨١، ١٨٢ .   (٢) الخصائص ١/ ٦٨، ٦٩.

غير لازمة وكذلك السكون، ويؤخذ من عرضه لهذا الموضوع أن الحركة تقع أولا، وهذا أمر لابد منه كما تقع وسطًا وآخرًا، وأما السكون فيأتى وسطا وآخرًا، والأمثلة على الترتيب كتب - عضُد - انطلق - ابن وابنم وأخواتهما - جعفر - علْم بالتخفيف وقد وهل إلخ على أن الحرف فى البناء العربى يمكن تحويله عن وضعه لما يطرأ على اللفظ من أحوال متغيرة، كأن يضاف إلى أوله حرف مثل واو العطف فنقول وهْو أو الهمزة أهْى وقد يقصد تخفيف اللفظ فتسكن عينه مثل علْم فى علِم، وقد يلاحظ فى بعض الحروف أنها أصبحت بالتركيب تشبه كلمة معينة فتخفف بالتسكين مثل:

فَاليومَ أَشرَبْ غيرَ مُستحقبٍ   إثمًا منَ اللَّـهِ ولا وَاغِلِ

فـ (ربْغَ) تشبه عضُد ومن هنا أمكن تخفيفها على الوضع السابق، وأيا ما كان أمر الحركة أو السكون لازمًا أو غير لازم فالملاحظ هو[1] الاتجاه العام إلى التخفيف، ويبدو أن اللغة العربية قد تصرفت هذا التصرف الواسع لتمكن المتكلم من النطق الميسر، بحيث تضع الحركة والسكون فى موضعهما المناسب، والمعروف أن البناء يمكن أن يتحمل بسهولة سكونًا فى آخره، مثل حال الوقف كما شرحنا سابقًا ،وقد يكون سكونه عارضًا للوقف، وقد يكون سكونًا مطلوبًا لصحة البناء وصوغه، كما إذا كان الفعل مجزومًا أو مبنيا على السكون، فإذا كان على الحال الأخيرة، وأريد وصله بساكن آخر بعده فى كلمة أخرى ترتب عليه اجتماع محذورين، وهما السكونان، وفى التقاء السكونين على تلك الحال، وفى كلمتين نرى أن النحاة يتخلصون من هذا الالتقاء على الوجه الذى يحقق إمكان النطق، ويدور تصرفهم فى هذا الشأن حول العرض التالى:

١- يحذف حرف المد لفظًا لاخطا حين يكون فى آخر الكلمة، ويليه ساكن فى الكلمة اللاحقة مثل ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ... ﴿٥٩﴾﴾ [النساء][2] وقد يبقى حرف المد ويحرك الثانى مثل مسلمان ومسلمون[3].

---

(١) نفسه ٢/٣٢٨، ٣٤٢.

(٢) الشافية للحسينى ص ٩٩ وحلقتا البطان باثبات ألف حلقتا شاذ والقياس حذفها ص ١٠١.

(٣) كيلا يلتقى المثنى والمجموع بالمفرد المنصوب والمرفوع المنونين (الشافية ص ١٠٢).

٢- يحرك الأول من الساكنين حين لا يكون هناك حرف مد، ويكون تحريكه إما بالكسر على الأصل فى التخلص من التقاء الساكنين وهو الأكثر، وإما بالضم وجوبًا عند بعضهم، وهذا لعارض كوجوب الضم فى ميم الجمع المتصلة بالضمير المضموم مثل أنتم الرجال[١]، ويختار الضم فى واو الجماعة المفتوح ما قبلها نحو اخشَوُا القومَ ويجوز الضم والكسر كما إذا كان بعد الثانى منهما ضمة أصلية فى كلمة أى ثابتة فى كلمة الثانى نحو وقالت اخرج، ويحرك الساكن الأول بالفتح وجوبًا فى نون (من) مع اللام نحو منَ الرجل[٢].

فمن هذا نرى أن الشائع هو التخلص بالكسر من التقاء الساكنين، حين تتجاور كلمتان، ولكننا نرى أن المتكلم العربى يتحول من الكسرة إلى حركة أخرى لتنسجم مع ما بعدها أو مع ما قبلها، وربما كان التخلص من الساكنين على هذه الوجوه راجعًا إلى تعدد اللهجات[٣]، وربما كان التخلص على هذه الوجوه المتعددة ليمكن الانسجام النطقى بين الحركات المتجاورة، مثل: (وقالتُ اخرج) بضمة (وقالتِ اضرب) بكسرة[٤] ونحن نميل إلى هذا الرأى الذى يؤكد أن التخلص من التقاء الساكنين يكون بالكسر حين لا يترتب عليه ما يعسر معه النطق، وعلى الرغم من ذلك نجد اللغويين ومعهم ابن جنى يعللون لبعض الأحوال التى عرضت لكلمات حولت إلى الضم يعللون لها بوجوه لا مدخل لها فى التعبير الصحيح عما أراده العربى.

فمثلا عرض لقولهم: ما رأيته مذُ الليلة ،مذُ اليوم[٥] وتخلصهم بالضم بدلا من الكسر وناقش هذا التحول على أساس من أن أصل (مذْ) سكون الذال وحركت بالضم للتخلص من التقاء الساكنين، ولم تحرك بالكسر الذى هو الأصل لأن أصلها الضم فى (منذُ)، وهو يشير كغيره من علماء اللغة إلى أصل الكلمة فى وضعها الأول وينبه على أن هذا المنحى فى التعليل بنى على أساس أن العرب آثروا

(١) ص ١٠٥. (٢) ١٠٦، ١٠٧.

(٣) من أسرار اللغة ط ١٩٥١ ص ١٦٩.

(٤) نفسه ١٧٠. (٥) الخصائص ٢/ ٣٤٣.

الضم لوجوده فى الأصل القريب فى (منذُ)، لأن الذال فيها متحركة، وكانت ساكنة فى مرحلة سابقة، ثم ضمت تبعًا للميم، ولالتقائها ساكنة مع النون، فراجع العرب بذلك الأصل الأقرب دون الأبعد[1].

ونحن نرى أن ابن جنى لم يبرهن بما عهدنا فيه من عمق، ليوضح السر الذى دفع العرب إلى إتباع مذْ لمنذُ فى الضم دون السكون القديم وإن كان من الواضح أن اتجاه العرب سديد- وربما كان ابن جنى يعرفه فى قرارة نفسه- فاللسان لا يتمكن من النطق بالذال هنا مكسورة لأن الانتقال من ضمة الميم إلى كسرة الذال ستكون ثقيلة غاية الثقل وفى (منذ) أيضًا يتوجه الاحتجاج المذكور، لأن الساكن كما يقول اللغويون حاجز غير حصين فكان من الحتمى أن نضم الذال فى كل منهما حتى يخف اللفظ.

وهذا هو الذوق العربى الأصيل فنحن نعرف أن صيغة فُعِل كدئل أو فعُل كحبك قد أهملتا. وأما صيغة الفعل المبنى للمجهول مثل ضُرِب فليست أصلية مستمرة، بل هى صيغة متفرعة عن صيغة المبنى للمعلوم وسرعان ما تعود إليها.

يقول صاحب التصريح - فى باب الفاعل فى أثناء شرحه لمحترزات التعريف-: وذكر أصالة الصيغة فيه مخرج لنحو ضُرِب زيد بضم أول الفعل وكسر ثانيه فإنها صيغة غير أصلية لأنها مفرعة عن ضَرَب بفتحهما، على الصحيح عند جمهور البصريين، ويدل لفرعيتها عدم القلب فى سُوير ونحوه[2] فهذا يؤكد لنا أن الاستثقال جار مجرى الاستخفاف هنا لفرعية الصيغة، على أن بعض العرب قد أحس بما قد نحس نحن فيها من ثقل عند البناء للمجهول فسكن الثانى بدلا من

---

(١) انظر الكتاب ٢/ ٣٠٨، وشرح الشافية للحسينى ١٠٥، ١٠٦ وقول ابن هشام فى المغنى ٢/ ٢١ وأصل مذْ منذُ بدليل رجوعهم إلى ضم ذال مذ عند ملاقاة الساكن نحو مذ اليوم ولولا أن الأصل الضم لكسروا ولأن بعضهم يقول: مذ زمن طويل فيضم مع عدم الساكن وقال ابن ملكون: هما أصلان لأنه لا يتصرف فى الحرف ولا شبهه ويرده تخفيفهم إن وكأن ولكن ورب وقط، وقال المالقى: إذا كانت مذ اسماً فأصلها منذ أو حرفاً فهى أصل.

(٢) التصريح ١/ ٢٦٩.

تحريكه بالكسر، وهذا يظهر لنا جليًا من قول صاحب التصريح[1]: ويكسر ما قبل الآخر من الماضى، وإليه أشار الناظم بقوله: (والمتصل بالآخر اكسر فى مُضِىٍّ كَوُصِلِ) ومن العرب من يسكنه كقوله:

لو عُصْرَ منها البانُ والمسكُ انْعصرْ

واختاره قطرب، قال الخضراوى: وهى لغة بكر بن وائل وكثير من بنى تميم، ومن العرب من يقلب الكسرة فتحة فى المعتل اللام فتنقلب الياء ألفًا فتقول فى رُؤِى زيد رُؤَى زيد بفتح الهمزة وهى لغة طيئ، وكأن العرب هؤلاء أحسوا بثقل هذه الكسرة بعد الضمة مع اعتلال اللام، فقلبوها فتحة للتخفيف، وعهد العربية به دائمًا فى مفرداتها وتراكيبها.

فالرأى الذى نعتقده هو أن الذال فى مذ فى مثل هذه التراكيب حركت بالضم لتتناسب مع ضمة الميم لا لتتبع أصلها فى منذ فقط مجردة عن هذا المعنى الذى يهدف إلى خفة النطق وسهولته، على أن توجيه بعض النحاة لموضوع التقاء الساكنين لم يستكمل أهدافه بما رسموه من توجيهات، فلم لا نقول إن حركة التخلص من التقاء الساكنين قد خضعت لمثل هذه العوامل التى لها أساس علمى فى الدراسات الصوتية الحديثة وأن هؤلاء النحاة لم يلاحظوها فى كل مظاهرها[2].

ثالثا: عدد الحروف المكون منها البناء

تتجلى خفة البناء العربى وكثرة استعماله وشيوعه فيما تألف من ثلاثة أحرف، فعلى الرغم من تعدد الأبنية، وتأليف الألفاظ من ثنائى وثلاثى ورباعى وخماسى وسداسى وسباعى بالأصالة والزيادة فإن أخفها جميعها هو الثلاثى كما هو واقع الاستعمال اللغوى.

ويبرهن ابن جنى- كما قال غيره- على أن كثرة استعمال الثلاثى لملحظ فنى صوتى وليس لعدد الحروف فيه، وإلا لكان الثنائى أكثر منه تداولا على الألسنة،

(١) نفسه ١/ ٢٩٤ . (٢) من أسرار اللغة ص ١٧٠ .

يقول: وليس اعتدال الثلاثى لقلة حروفه حسب، لو كان كذلك لكان الثنائى أكثر منه، لأنه أقل حروفًا وليس الأمر كذلك، ألا ترى إلى قلة الثنائى، وأقل منه ما جاء على حرف واحد، (وجميع ذلك) جزء لا قدر له فيما جاء من ذوات الثلاثة"، وإنما كانت كثرة استعماله لتمكن اللسان من نطقه، لأن كل حرف قد أخذ موقعه المناسب[1] فحرف يبتدأ به وحرف يحشى به وحرف يوقف عليه[2]، وهذا يساعد على سرعة النطق، وإعطاء اللفظ حقه منه، يقول ابن جنى: فتمكن الثلاثى إنما هو لقلة حروفه- لعمرى- ولشىء آخر وهو حجز الحشو الذى هو عينه بين فائه ولامه وذلك لتباينهما ولتعادى حاليهما، ألا ترى أن المبتدأ لا يكون إلا متحركًا، وأن الموقوف عليه لا يكون إلا ساكنًا، فلما تنافرت حالاهما وسطوا العين حاجزًا بينهما، لئلا يفجئوا الحس بضد ما كان آخذًا فيه ومنصبًا إليه (هذا إذا كانت عين الثلاثى ساكنة) أما إذا كانت متحركة والفاء فيها كذلك فقد توالت الحركتان، فحدث هناك لتواليهما ضرب من الملال لهما، فاستروح حينئذ إلى السكون، فصار ما فى الثنائى من سرعة الانتقاض معيفًا مأبيًا فى الثلاثى خفيفًا مرضيا، وأيضًا فإن المتحرك حشوا ليس كالمتحرك أولا، ترى إلى صحة جواز تخفيف الهمزة حشوًا، وامتناع جواز تخفيفها أولا، وإذا اختلفت أحوال الحروف حسن التأليف[3]؟ ولذلك نرى أن ما كان على حرف واحد أو حرفين يصبح من العسير الانتقال الصوتى فيهما، على أن بعض الحروف يلحقها صُويت تبعًا للوقف عليها، فيؤدى إلى تبدد النفس، وضياع القوة الصوتية معه، بخلاف ما إذا انتقل اللسان منه إلى غيره إذا كان متحركًا فإن ذلك الصُّويت لا يكون له وجود، وبذلك يتأتى النطق المأمول.

فعندما نقول مثلا: إح. إص نسمع صدى ذلك الحرف، وما له من أثر صوتى طويل، ولكنه يتبدد إذا وُصل ذلك الحرف بغيره متحركًا مثل: حضر- صبر، فالوصل يمنع من إشباع ذلك الصُّويت المعرقل لاستمرار النفس المساعد على

(١) الخصائص ١/ ٥٥، ٥٦. (٢) نفسه ١/ ٥٥.
(٣) نفسه ١/ ٥٦، ٥٧.

توالى النطق والاستعمال[1]. يقول ابن جنى: وسبب ذلك عندى أنك إذا وقفت عليه، ولم تتطاول إلى النطق بحرف آخر من بعده تلبثت عليه ولم تسرع الانتقال عنه، فقدرت بتلك اللبثة على إتباع ذلك الصويت إياه، فأما إذا تأهبت للنطق بما بعده وتهيأت له ونشّمت فيه فقد حال ذلك بينك وبين الوقفة التى يتمكن فيها من إشباع ذلك الصُّويت فيستهلك إدراجك إياه طرفًا من الصوت الذى كان الوقف يقره عليه ويسوغك إمدادك إياه بك[1] والمعروف أن الهواء الخارج من الرئتين فى عملية الزفير هو المتسبب فى ظهور الأصوات فى أثناء مروره بأعضاء النطق، وكلما توافرت كمية أكبر من الهواء كان ذلك داعيًا إلى نطق عدد كبير من الأصوات وبالعكس إذا فقد معظمه - كما يحدث عند نطق بعض الحروف ذوات الصويت - حيث يسمح عند ذاك لكمية كبيرة من الهواء بالمرور، فإن ذلك يقلل من عدد الحروف المنطوق بها[1] ويزيد من صعوبة إخراجها، ويمكن أن نفهم هذا من سياق قصة أوردها ابن جنى يقول فيها: "ويحكى من ذلك أن رجلا بايع أن يشرب علبة لبن دون أن يتنحنح، فأخذ يقول كبش أملح، فلما قيل له: تنحنحت قال من تنحنح فلا أفلح، فأتى بالحاء الساكنة لتكون عونًا له على التنفس[2]، فالثلاثى قد جاء على أحسن حال، ولذلك أجمع علماء العربية على أنه يحتل المكان الأول بين الكلم العربى، يقول الإمام اللغوى سيبويه: "وأما ما جاء على ثلاثة أحرف فهو أكثر الكلام فى كل شىء من الأسماء والأفعال وغيرهما مزيدًا فيه وغير مزيد فيه، وذلك لأنه كأنه هو الأول فمن ثم تمكّن فى الكلام[3]

ونظرًا لخفته وكثرة وروده بنى اللغويون بحوثهم فى المعاجم والقواميس عليه، وعليه وحده بنى ابن فارس الكلام فى كتابه مقاييس اللغة[4]، ويلى الثلاثى فى الكثرة الرباعى ثم الخماسى[5]، ونظرًا لهذا المبدأ لم تستعمل أبنية الرباعى وما

(١) نفسه ١/٥٧، ٥٨ . (٢) نفسه ١/٥٨.

(٣) الكتاب ٢/٣٠٩، ٣١٠ .

(٤) مقدمة لدرس لغة العرب ١٩٩ .

(٥) الكتاب ١/ ٣١٠ .

فوقه، بل أهمل الكثير منها ولم يأت فى واقع اللغة إلا القليل[1]، على أن الثلاثى على خفته لم يستعمل كله كذلك، بل أهمل بعض أوزانه للثقل وهو فُعِل بضم الفاء وكسر العين وفِعُل بكسر الفاء وضم العين استثقالا للخروج من الضمة إلى الكسرة وبالعكس[2]، وإذا كان هذا الإهمال المذكور لبعض أبنية الثلاثى أمرًا منطقيًا ومقبولا لتمشيه مع المنهج العام للبناء فإننا قد نصادف صعوبة فى التعليل لإهمال بعض الألفاظ المؤلفة من حروف خفيفة، وعلى وزن سهل أتى عليه كثير من مفردات اللغة، فما السر وراء إهمال لجع واستعمال مثله مما هو على شاكلته نجع؟، وابن جنى يقف أمام هذا السؤال، ثم يجيب إجابة مبنية على التسليم، والتفويض لا على التفكير الفلسفى كما هو عهدنا به، ولا على المقياس العلمى الدقيق، فيقول بشأن ما سبق: "إنهم لما أمسوا الرباعى طرفا صالحًا من إهمال أصوله، وإعدام حال التمكن فى تصرفه، تخطوا بذلك إلى إهمال بعض الثلاثى، لا من أجل جفاء تركبه بتقاربه نحو سص وصس، ولكن من قبل أنهم حذوه على الرباعى كما حذوا الرباعى على الخماسى، ألا ترى أن لجع لم يترك استعماله لثقله من حيث كانت اللام أخت الراء والنون، وقد قالوا نجع فيه ورجع عنه، واللام أخت الحرفين وقد أهملت فى باب اللجع فدل على أن ذلك ليس للاستثقال، وثبت أنه لما ذكرناه من إخلالهم ببعض أصول الثلاثى، لئلا يخلو هذا الأصل من ضرب من الإجماد له، مع شياعه واطراده فى الأصلين اللذين فوقه، كما أنهم لم يخلوا ذوات الخمسة من بعض التصرف فيها، وذلك ما استعملوه من تحقيرها وتكسيرها وترخيمها، ونحو قولك فى تحقير سفرجل سفيرج وفى تكسيره سفارج وفى ترخيمه- علمًا- ياسَفَرْجُ أقْبِل. . . . من حيث كان محله من الرباعى محل

---

(1) يقول ابن جنى: إن الثلاثى يتركب منه ستة أصول والرباعى يتركب منه أربعة وعشرون أصلاً، وذلك أنك تضرب الأربعة فى التراكيب التى خرجت عن الثلاثى وهى ستة فيكون ذلك أربعة وعشرين تركيباً المستعمل منها قليل، والخماسى يبلغ بالتقليب مائة وعشرين أصلاً، ولكن المستعمل قليل جداً كسفرجل .الخصائص ١/٦١، ٦٢، ٦٧، ٦٨ والشافية ١٤ وانظر د. العزازى ١٧١، ١٧٢ .

(2) الشافية ص ١٢.

الرباعى من الثلاثى، وهذه عادة للعرب مألوفة، وسنة مسلوكة، إذا أعطوا شيئًا من شيء حكما ما قابلوا ذلك بأن يعطوا المأخوذ منه حكمًا من أحكام صاحبه عمارة لما بينهما وتتميمًا للشبه الجامع لهما، وعليه باب مالا ينصرف، الا تراهم لما شبهوا الاسم بالفعل فلم يصرفوه كذلك شبهوا الفعل بالاسم فأعربوه[1]، ثم يقول فى موضع آخر: إن التصرف فى الأصل وإن دعا إليه قياس - وهو الاتساع به فى الأسماء والأفعال والحروف - فإن هناك من وجه آخر ناهيًا عنه وموحشًا منه، وهو أن فى نقل الأصل إلى أصل آخر نحو صبر وبصر وصرب وربص صورة الإعلال نحو قولهم: ما أطيبه وأيطبه واضمحل وامضحل وقسى وأينق (ونحو ذلك) فكان من هذا الوجه كالعاذر لهم فى الامتناع من استيفاء جميع ما تحتمله قسمة التركيب فى الأصول[2] ويقول أيضًا: لما "كانت الأصول ومواد الكلم مُعْرِضة لهم وعارضة أنفسها على تخيرهم جرت لذلك عندهم مجرى مال ملقى بين يدى صاحبه وقد أجمع إنفاق بعضه دون بعضه، فميز رديئه وزائفه فنفاه ألبتة كما نفوا عنهم تركيب ما قبح تأليفه، ثم ضرب بيده إلى ما أطفَّ له[3] من عُرْض جيده فتناوله للحاجة إليه، وترك البعض لأنه لم يرد استيعاب جميع ما بين يديه منه لما قدمنا ذكره، وهو يرى أنه لو أخذ ما ترك مكان أخذ ما أخذ لأغنى عن صاحبه ولأدى فى الحاجة إليه تأديته، الا ترى أنهم لو استعملوا لجع مكان نجع لقام مقامه وأغنى مغناه[4].

هذه أدلة ثلاثة ساقها ابن جنى لتسويغ إهمال مثل(لجع) مع خفته وهى تتلخص فى الآتى:

١- أنهم تركوا نحو ذلك لحمل الثلاثى على الرباعى فى إهمال بعض أصوله، كما حمل الخماسى على الرباعى فى تصرف بعض أصوله بالتحقير والتكسير والترخيم ونحو ذلك.

---

(١) الخصائص ١/ ٦٢، ٦٣. (٢) نفسه ١/ ٦٤.

(٣) أطف: دنا وقرب. (٤) الخصائص ١/ ٦٥.

٢- أن كثرة التصرف ضرب من الإعلال وذلك يدعوهم إلى التقليل من استعمال بعض تصرفات الأصول.

٣- أن العرب كانت لهم حرية الاختيار - بعد عزل قبيح التأليف - فأخذوا بعضًا للحاجة فقط وتركوا بعضًا، كالمال يأخذ الإنسان منه ما يحتاج إليه ويترك الباقى.

وفى الدليلين الأولين فلسفة بعيدة عن واقع اللغة، أما تمثيله بالمال المعروض فمعقول، لأن العربى استعمل بعض الألفاظ للحاجة إليها، وإلا فإن تركيب الكلمات من الحروف يبلغ بالتحليل الرياضى ما يجاوز اثنى عشر(مليونا) من الكلمات، وقد صرح بذلك ابن جنى فى بيانه لقسمة التراكيب العقلية من الثلاثى وغيره وكذلك الخليل من قبله، والمستعمل من الألفاظ لا يجاوز ثمانين ألف مادة على ما جاء فى لسان العرب[1]، وربما كانت لهم أغراض أخرى لأنهم عادة يناسبون بين الأصوات الحرفية والمعانى مثل قضم فى اليابس، وخضم فى الرطب، وذلك لقوة القاف وضعف الخاء فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى وبالعكس وهكذا نظائر كثيرة[2]، وإن سعة العربية وكثرة تصرفها لتوحى للباحث بتنبؤات أخرى فربما لم يصل إلينا تاريخ هذا اللفظ واستعماله بسبب ما كإهمال الرواة أو للاستغناء بنظائره وغير ذلك.

رابعًا: تطور المعلات وهدفه اللغوى

ذكرنا عادة العربية فى التخفيف، وأنها تنتقى الحرف والحركات، وتؤلف بينها فربما اختارت حرفًا وتركت آخر، وقد تفضل حركة على أخرى حتى لا يثقل البناء، وحدثينا الآن عن حروف المد واللين التى وضعت لتنويع المعنى الواحد لبيان الخفيف منها والثقيل، وفى أى مكان يقع أو يتبدل.

تلجأ العربية إلى الإعلال بالنقل أو القلب أو الحذف لتصل إلى هدفها المقصود، والمتأمل لجوهر هذه اللغة يجد بناءها - لذلك - متينًا فما صحح فلخفته

(١) الخصائص ١/ ٦١، ٦٢ والعين ١/ ١٦ والمزهر، ط ١٢٨٢ ج١ ص ٣٦- ٣٨ ودراسات فى فقه اللغة ١٨١ .
(٢) نفسه ١/ ٦٥ .

وما أعل فلخفته أيضًا، فإذا ذكرنا أن قام أصلهـا قوَم واستعد أصلها استعدَد فذلك دليل على أن هذه الأصـول المذكورة قبـل الإعلال قد رفـضت نتيـجة لثقـلها فى النطق، يقول ابن جنى: «وإنما كان الأصل فى قام قوَم وفى خاف خوِف وفى طال طوُل وفى باع بيَع وفى هاب هيِب فلما اجتمعت ثلاثة أشياء متجانسة وهى الفتحة والواو والياء وحركة الواو واليـاء كره اجتماع ثلاثة أشياء متـقاربة فهربوا من الواو والياء إلى لفظ يؤمن فـيه الحركة وهو الألف وسوغـها أيضًا انفتاح مـا قبلها»[1]، وإن الحرفين المعتلين إذا التقيا وهما ساكنان فلا بد من حذف أحدهما أو تبديله عن طريق الإعلال ليخف اللفظ ويمكن النطق به، فمن المسلم أنه لا يمكن النطق بكلمة كساء بعد قلب الواو ألفًا وقبل الوصول بها إلى الهمز حيث يجتمع ألفان (كساا)، وكذلك اسم المفعول من قال وباع بعد نقل حركة الواو والياء إلى الساكن الصحيح قبلهـا هو (مقوول ومـبيوع) ولهـذا قلبت الألف الثانيـة فى (كساا) همـزة ليمكن تحريكها وحـذفت واو مفعول أو عينـه على اختلاف الآراء فى ذلك[2]، فالإعلال دليل على رقى لغتنا العربية وبلوغها الذروة فى التعبير والرونق وحسن الأداء.

يقول الأستاذ عـبد الله العلايلى: الإعلال عندنا مظهر من مظـاهر الاقتصاد اللغوى والبلوغ الفنى، وهذه نتيجـة ضرورية للعمل النظامى الذى نشاهد أثره فى شتى الألفاظ المعلة، ولقد تدهش حقًـا للتحولات التى لا تشذ ولا تختلف، وإنما تتبـع سنة واحدة فيـها من القـوة ما يجـعلها ذات أهمـية، ومن ثم كـان حديث الإعلال طريفًا أيضًا من حـيث كونه حيلة لغوية لبقة ابتـدأها العربى للمرة الأولى فى الصميم من اللغة، أداة للتـصحيح والتمكن اللفظى[3]، وهذه الأصول الأولى التى تطورت عنها الصيغ والأبنية المستعملة يرى ابن جنى أنها لم تستعمل فى واقع اللغة يومًا ما، ولم تجر على لسان العربى، بل إنه لاحظ من أول أمره ثقلها وتعذر النطق بها فـرفضها، يقـول ابن جنى فى باب فى «مراتب الأشياء وتنزيلهـا تقديرًا وحكمًا لا زمـانًا ووقتًـا»: «قولنا: الأصل فى قام قـوَم وفى باع: بيَع وفى طال:

---

(١) سر الصناعة ١/٢٥ . (٢) الخصائص ١/٢٥٩ .

(٣) مقدمة لدرس لغة العرب ٢١٥.

طوُل وفى خاف ونام وهـاب: خوِف ونوِم وهيِب، وفى شد شـدد وفى استـقام: استقوم وفى يستـعين: يستعوِن وفى يستعد يستـعدد هذا يوهم أن هذه الألفاظ وما كان نحوها - مما يدعى أن له أصـلا يخالف ظاهر لفظه - قد كان مـرة يقال حتى إنهم كـانوا يقولون فى مـوضع قام زيد: قـوم زيد، وكذلك نوِم جـعفـر، وطوُل محمد، وشدد أخوك يده، واستعدد الأمير لعدوه، وليس الأمر كذلك بل بضده، وذلك أنه لم يكن قط مع اللفظ به إلا على ما تراه وتسمعه، وإنما معنى قولنا: إنه كان أصله كذا أنه لو جاء مجىء الصحـيح ولم يعلل لوجب أن يكون مجيئه على ما ذكرنا، فأما أن يكون اسـتعمل وقتًا من الزمان كذلك ثم انصرف عـنه فيما بعد إلى هذا اللفظ فـخطأ لا يعتـقده أحـد من أهل النظر[1]، وقد ذكـر ابن جنى أن العرب قد اعتقدت هذا الأصل فى نفوسها[2] قائلا: ويدل على اعتقاد العرب لهذا الأصل كما هو معتقدنا مجىء هذا الأصل أحيانًا لينبه على أصل بابه مثل:

صدَدْت فأطولت الصدود وقلَّما وصالٌ على طولِ الصُّدُودِ يدومُ[2]

وأيد رأيه فقال: ومن أدل الدليل على أن هذه الأشياء التى ندعى أنها أصول مرفوضة لا يعتقد أنها قد كانت مرة مـستعملة ثم صارت من بعد مهملة ما تعرضه الصنعة فيهـا من تقدير ما لا يطوع النطق به لتعذره، وذلك كـقولنا فى شرح حال الممدود غير المهموز الأصل نحو سـماء وقضاء، ألا ترى أن الأصل سماوٌ وقضايٌ فلما وقعت الواو والياء طرفًـا بعد ألف زائدة قلبتا ألفين، فصار التـقدير بهما إلى (سماا وقضاا) فلما التقت الألفان تحركت الشـانية منهما فانقلبت همزة، فصار ذلك إلى سماء وقضاء، أفلا تعلم أن أحد ما قدرته- وهو التقاء الألفين- لا قدرة لأحد على النطق به، وكذلك ما نتـصوره وننبه عليه أبدًا من تقدير مفـعول مما عينه أحد حرفى العلة[3].

ونحن نرى من عـرض أدلة ابن جنى أنه يؤكد أن العـرب استعـملت البناء المتطور الراقى دون سـواه، وهو يشيـر إلى أن البناء على أصله المتروك لم تـتداوله

(١) الخصائص ١/٢٥٦، ٢٥٧. (٢) نفسه ١/٢٥٧ . (٣) نفسه ١/٢٥٩.

ألسنة العـرب فى أى وقت من الأوقات، ولكنـنا نحس بأن كلامـه هذا لا ينطبق على كل الأصول المتروكة، فربما استعمل بعضها على ما كان عليه يومًا ما، وأدلته التى ساقـها لا تؤيد رأيه تمام التـأييد، فهـو يفترض أن الأصـول المذكورة لا يمكن النطق بهـا إطلاقًا لوجـود ألفين أو واوين أو ياء وواو وكلهـا ساكنة مـتجـاورة لا يتمكن اللسان من التصريح بها لفظًا.

ونحن نقول لابن جنى: كـيف تفترض ذلك؟ هل الألفان كانتـا موجودتين من الأصل فى بناء كساء وقضاء حتى تفرض أنه يتعذر النطق بهما؟، إننا نقول إن أصل كساء وقضاء هو كساو وقضاى بألف بعدها واو أو ياء، وأعتقد - كما يعتقد غيرى من الناطقين - أنه يمكن النطق بالألف مع الواو أو الياء ولو تجاورتا ساكنتين لأنهم- كـما يقـولون- يجيـزون نحو ذلك لأن الألف فى مـثل هذا حـاجز غـير حصين، فكأن الواو أو الياء مجاورة للحركة السابقة على الألف فخف النطق بكل منهـما وعليـها قـراءة ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايْ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام][(١)] - بتسكين ياء ومحـياىْ - فكيف يفترض ابن جنى مرحلة أخـرى غير المرحلة الأولى الحقيـقية قبل الانقلاب؟ إنه فى ذلك قد بنى رأيه علـى غير أساس سديد، وبهذا لا ينهـض ما ذكره دليلا يدعم ما أراده، وكـذلك يمكن النطق بنحو قوَمَ وبيَع وهيِب وخوِف ونحوها دون تعذر، ويقف فى طريق هذا الاستدلال أيضًا استـعمال بعض هـذه الأصول على أصله دون إعلال أو تبـديل وباعتـرافه هو فى مثل: أطولت وضَنِنوا وقـد قال - كمـا قال غيـره من علماء اللغة- إنهـا خرجت هكذا للتنبيه على أصل الباب[(٢)]، وكذلك يمكن النطق بصيغة اسم المفعول كما ورد فى مبيوع ونحوه من اليائى عند بنى تميم بل ويجاوزونه إلى الواوى مثل مصوون. ويبدو أن هذه الصيغ الباقية تدل على تلك المرحلة الصوتية المتقدمة، والتى كان كل حرف ينطق صريحًا فيهًا دون إعلال أو إدغام، أو أنها كانت لهجات مختلفة ماتت

---

(١) هى قـراءة نافع وينظر التـصـريح ٢/ ٦٠ ومنار السـالك ﻫ/٤١٣ والخـصـائص ١/ ٩٢ على أن الكلمات تستعمل موصولة بغيرها فى الكلام فلا يتأتى التقاء ساكنين بوجه ما.

(٢) الخصائص ١/ ٢٥٧.

الضعيفة منها، وقد عرض لهذه النظرة التى ملنا لها الأستاذ عبد الله العلايلى الذى يرى أن الإعلال مظهر من مظاهر الاقتعاد اللغوى والبلوغ الفنى كما ذكرنا سابقًا، ويقول: وليس الإعلال من اصطناع النحاة بقدر ما هو عمل العربى، وعمل النحاة تصرف أسلوبى فقط، لأن الإعلال حقيقة راهنة فى صميم اللغة، وهذا يدل على رقى عقلية العربى[1]، وسر العربية واضح فى العدول عن هذه الصيغ، فإنها بمظهرها القديم تحمل طابع الاستثقال، أو عدم إمكان النطق نهائيًا كما يقول ابن جنى، فقد قسم الأصول التى لم تستعمل إلى أنواع ثلاثة:

١- ما لا يمكن النطق به أصلا مثل ما اجتمع فيه ساكنان كسماء ومبيع ومصوغ ونحو ذلك.

٢- ما يمكن النطق به مع الاستثقال فرفض لذلك، ويشذ قليل لينبه على أصله مثل استحوذ وألِلَ السقاء: إذا تغيرت ريحه.

٣- ما يمكن النطق به إلا أنه لم يستعمل لا لثقله لكن لغير ذلك من التعويض عنه، أو لأن الصنعة أدت إلى رفضه، مثل أن مع الفعل إذا كان جوابًا للأمر والنهى وتلك الأماكن السبعة، مثل قوله تعالى: ﴿لا تفتروا على الله كذبًا فيسحتكم بعذاب ... (٦١)﴾ [طه]، وكذلك ما حذف من الأفعال وأنيب عنه غيره كالمصدر وغيره مثل: ضربًا زيدًا فهذا لم يرفض لثقله بل لما ناب عنه[2].

وأيًا ما كان الأمر فإن العرب لأنهم درجوا على السهولة عدلوا فى الصيغ البنائية بما يتفق وسهولة النطق حتى يحققوا لها مبدأ الانسجام واتساق النغم والموسيقى اللفظية، فقد امتنعوا - كما يقول ابن جنى - من تصحيح الياء فى نحو موسر وموقن، والواو فى نحو ميزان وميعاد، وامتنعوا من إخراج افتعل وما تصرف منه إذا كانت فاؤه صادًا أو ضادًا أو طاء أو ظاء أو دالا أو ذالا أو زايا على أصله، وامتنعوا من تصحيح الياء والواو إذا وقعتا طرفين بعد ألف زائدة، وامتنعوا

---

(١) مقدمة لدرس لغة العرب ٢١٦ ٢١ ويقول ص ١٨٤: ويستنتج من هذا أن المعل كان على التصحيح فى أقدم عهود اللغة لا كما ظن النحاة من أن ما قبل الإعلال افتراض تعليمى.

(٢) الخصائص ١/ ٢٦١-٢٦٤ .

من جمع الهمزتين فى كلمة واحدة ملتقيتين غير عينين، فكل هذا وغيره مما يكثر تعداده يمتنع منه استكراها للكلفة فيه(١) وإذا كانت الألفاظ العربية التى جرى فيها الإعلال قد وصلت إلينا على هذه الصورة المذكورة فإن علماء اللغة قد أوضحوا المقاييس اللغوية التى سارت عليها الألفاظ المعتلة حتى وصلت إلى شكلها الجديد، وكان النبراس الذى ساروا على هديه هو بيان مراحل هذا التطور، وبيان الأصل الثقيل، وكيف تحقق فيه الثقل بتحرك الواو وانفتاح ما قبلها، أو وجود كسرة سابقة للواو الساكنة، أو التقاء الواو بالياء فى كلمة وسبق إحداهما بالسكون، أو غير ذلك من الأسباب التى تجعل اللفظ ثقيلا، وتدعو إلى التخفيف والتغيير عن طريق الإعلال.

ولكن التساؤل يبدو حول ما وصل إليه التفلسف الإعلالى وتعقيداته الغامضة، وتأويلاته البعيدة، والتى تنتقل بين مراحل طويلة جدا، ويحتاج التعرف عليها إلى مجهود كبير، وأبحاث شاقة تصور للمنقب عنها منشأ الفلسفة اللغوية، فلو نظرنا إلى نحو خطايا ومطايا وكيف وصلت إلى صورتها الحالية بعد أصلها الأول الذى نشأت عليه وجدنا أن اللغويين يحكون لنا أنها مرت بأطوار خمسة أو على حد تعبيرهم بأعمال خمسة، فالأصل خطايى ومطايو ثم مطايى ثم صارتا خطائِى ومطائِى ثم خطائَى ومطائَى ثم خطاءا ومطاءا ثم خطايا ومطايا(٢) - يقول صاحب التصريح: فصار مطايا بعد خمسة أعمال أحدها قلب الواو ياء والثانى قلب الياء الأولى همزة والثالث إبدال الكسرة فتحة والرابع إبدال الياء ألفًا والخامس إبدال الألف ياء، ولم يرجع إلى أصلها لأن الواو أثقل من الياء، أو لأنها لما أعلت فى المفرد أعلت فى الجمع، على أن ابن جنى يجعل ذلك من مراجعة الأصل الأقرب(٣). وهذا التحليل البعيد كان من الممكن الاجتزاء عنه بأن الهمزة فى جمع خطيئة ردت إلى اصلها وهو الياء تخفيفًا، وبقيت الياء المنقلبة عن

---

(١) نفسه ١/ ٢٦٢.

(٢) الكتاب ٢/ ٣٨٤ والتصريح ٢/ ٣٧٢ وشرح الشافية للحسينى ١٨٧، ١٨٨ وللرضى ٢١٣.

(٣) الخصائص ٢/ ٣٤٤.

الواو فى جمع مطية لذلك أيضًا ولا داعى إلى هذه المراحل التاريخية التى ليس من المعتقد أن يكون العربى قد نظر إليها، ويجعل ابن جنى قلب كل من الواو والياء ألفًا حال تحركهما وانفتاح ما قبلهما حاصلا بعد سكون كل من الواو والياء يقول: «ومن ذلك قولهم: إن أصل قام قوَم فأبدلت الواو ألفًا، وكذلك باع أصله بيع ثم أبدلت الياء ألفًا لتحركها وانفتاح ما قبلها، وهو- لعمرى- كذلك إلا أنك لم تقلب واحدًا من الحرفين إلا بعد أن أسكنته استثقالا لحركته فصار إلى قوْم وبيْع ثم انقلبا لتحركهما فى الأصل وانفتاح ما قبلهما الآن- ففارقا بذلك باب ثوْب وشيْخ لأن هذين ساكنا العينين ولم يسكنا عن حركة، ولو رمت قلب الواو والياء من نحو قوَم وبيَع وهما متحركان لاحتمتا فعزتا فلم تنقلبا فهذا واضح[1] وهذا الحديث من ابن جنى لا يؤيده الواقع اللغوى، فالمعروف أن الساكن لا يقلب، وأقرب إلى الصواب ما قاله فى سر الصناعة[2] والفلسفة على النحو السابق هى التى دعت الأستاذ العلايلى إلى تفسيره للإعلال بطريقة أخرى تذهب إلى تقريب منشأ الإعلال وتدرجه فهو يقول: وهذا لا يمنعنا من الدعوة إلى إعادة النظر فى قواعد الإعلال التى أقرها النحاة فى أسلوب قد لا يجد شواهد عليه لا لعدم صدقها ولكن لأنها انبنت على لف ودوران كثير، مثل إعلال الإتباع بالنقل السابق ومطايا وخطايا ويمكن تبسيط الإعلال بأنه وجه من الإتباع بالمثل أو بالإشباع[3] وقد شرح الأستاذ العلايلى ما أراد من اختصار تلك المراحل التاريخية للأبنية المعتلة، وكيف يمكن تطبيق الإتباع عليها فقال: يمكن الاستفادة من الإتباع فى فهم الإعلال فى الأبنية على نظام مختصر لا مطول كما ذكره الصرفيون، فمثلا: مطايا بدلا من الأعمال الخمسة المعروفة يمكن أن تفسر من باب الإتباع على الوجه الآتى: «إن كسرة الياء فى مطايو أبدلت فتحة مجانسة أو إتباعًا للألف قبلها، ثم قلبت الواو ألفًا إتباعًا لحركة الياء بدون تهويل ولا مظالعة ولا عبث مرهق طويل»[4]، ثم يقول عن "نعد" وعندنا أن الواو قلبت ياء إتباعًا للكسرة ولأخذ

---

(١) الخصائص ٢/ ٤٧١، ٤٧٢. (٢) ١/ ٢٥. وانظر ص ٥٠٠ من كتابنا.

(٣) مقدمة لدرس لغة العرب ٢١٧. (٤) نفسه ٢١٨.

العربية باللفظية أخذًا عنيفًا حذفت، ويظهر أن العربى أخذ المثال فى كل أمثلته بالحذف فى المضارع خفة وأن مجيئه فى كل الباب كذلك دليل على ثبوت التطور فى اللغة وعلى أن الإعلال إتباع[1].

ولكننا نرى أن رأى الأستاذ العلايلى أيضًا غير دقيق، وتبدو عليه سمة التكلف أحيانًا، حيث ينعدم وجه المناسبة للإتباع والحذف، فإذا كان من الممكن والمقبول أن نتابعه على كيفية الإجراء فى إعلال نحو مطايا وخطايا بوجه الإتباع، فمن الواضح كذلك أن تخريج نحو (نعد) على الإتباع ينتابه الضعف، فليس هناك وجه لقلب الواو ياء بملحظ وقوع الكسرة بعدها فليس ذلك من المعهود فى اللغة، وإنما المعهود أن تقلب بعد الكسرة لا قبلها، وقد نسلم بذلك إلى حد ما فنرى الأستاذ العلايلى مضطرًا إلى تكلف آخر أشد من سابقه، فحين لم يجد وجهًا لحذف الواو بعد انقلابها ياء اقترح أن لفظية اللغة دعت إلى الحذف، ولست أدرى ما معنى هذه اللفظية؟ وما القوة الكامنة فيها والتى تجعلها قادرة على التصرف فى اللغة إلى هذا القدر؟ وإذا كان أرباب اللغة القدامى قد وفقوا تمام التوفيق فى التعليل لحذف واو المضارع للغائب وحملوا بقية الصور عليه فإن لهم أساسًا صحيحًا ساروا عليه، وهو مبدأ حمل بعض الأصول على بعض، والحمل مبدأ معروف فى اللغة التى تتلاحم أجزاؤها ويشبه بعضها بعضًا.

وعلى ما أرى فإن تطبيق مبدأ الإتباع للتقليل من الفلسفة الإعلالية أمر لا يتمشى فى كل الأحوال اللغوية، ولا يشمل كل الأبنية بتصرف مقبول.

وإننى أرى- مع ذلك- أن النحاة العرب قد برهنوا على براعتهم فى التخريج، وإن كانت توجيهاتهم فى الإعلال قد أغرقت فى الفلسفة التى قد تشط بهم وتغرب فى بعض الأحيان، واللغة العربية لغة هذبت مبانيها أحسن تهذيب فجاءت خفيفة على اللسان، تحمل ألفاظها وتراكيبها عنوان السلاسة، والذوق العربى البليغ، وطابعها الذى تتوخاه هو السهولة والاستخفاف فى أصواتها وتأليف حروفها، وهذه ميزة للغتنا العربية تنفرد بها عما عداها من اللغات، وقد أبرز ابن

---

(١) نفسه ٢١٨، ٢١٩.

جنى بوجه عـام هذا الطابع، وأوضحـه كما يراه، ونحن على كـل حال نشكر له هذا الجهـد الذى أسهم فى إبراز الفصـاحة فى اللفظ العربى بما لم يتح لغـيره من العلماء.

نتائج البحث

أصاب ابن جنى فى بيانه حين أوضح الجانب الفلسفى لمنهج العربية، وبنائها على التخفيـف فى ائتلاف الحروف، ما تباعد منها أو تـقارب، وتناسب الحركات والسكون فيها، وعدد الحروف المكون منها البناء الثلاثى وما فوقه، وقد بلغ ما أراد فى تطبـيق ذلك بأمثلة واقـعية نجـح - إلى حد كبـير - فى تفـسيـرها، ومعـرفة أهدافهـا، إلا أنه كان يضـعف - أحيانًا - كـما فى تفسـيره كـثرة ما توالت فـيه الضمـتان كطنُب وسهُد عـما توالت فيه الـكسرتان كإِبِل وإِطِل، وقد ناقـشنا أدلته لذلك وبينا وجه الصـواب فيها، كذلك رأيه فى (منذ ومـذ) ورجوعه إلى الأصل الأقرب، وفى حديثـه عن الإعلال ودوافعه رفض أصول المعـلات لثقلها، وحكم بأنها مجرد فروض لم تكن يومًا ما حقيـقة لغوية، وهذا أمر غير مقطوع به، فربما كانت تلك الأصـول المهملة قد استعـملت فى مراحل اللغة الصـوتيـة الأولى كما يقول الأستـاذ العلايلى، وقد ناقشنا أدلته بمـا يؤكد ما أردنا، كما ناقـشنا الفلسفة اللغوية التى سلكهـا النحاة فى تفسير المعـلات والاستدلال عليها، وبيـان مراحلها التاريخيـة، وبينا أن ذلك لا يخلو من فروض كثيـرة لم تكن فى ذهن العربى حين نطق بتلك الألفاظ المشتملة على حروف العلة.

ولابن جنى - على كـل حال - فـلسفـات طويـلة للأبنيـة تتـصل بالنحـو والصرف لا تخرج عما فصلناه هنا.

وبعد ففلسـفة الأبنية السابقـة تعطينا صورة عن عقلية ابـن جنى الراجحة، وتفكيره البعيد، وتحليله اللغوى بما يدل على أصالـة علمية ناقدة، وجهد لا يتوافر لغيره من فلاسفة اللغات، والباحثين فى صيغها وتطورها.